

كاظم حبيب و زهدي الداودي

# فهد والحركة الوطنية في العراق

[التفافه نقديا الى الوراء من اجل مستقبل افضل]

في الذكرى المئوية لميلاد يوسف سلمان يوسف (فهد)

2003

## المحتويات

1	فهد والحركة الوطنية في العراق.....
1	[التفافة نقدية إلى الوراء من أجل مستقبل أفضل].
2	المحتويات .....
5	المقدمة: في الذكرى المئوية لميلاد يوسف سلمان يوسف (فهد).....
12	الباب الأول : العراق في ظل الانتداب.....
12	الفصل الأول : تكوين الدولة الحديثة وسياسات بريطانيا في العراق.....
15	1 . المعاهدات العراقية-البريطانية .....
19	2 . القانون الأساسي العراقي لعام 1925 .....
23	3- منح امتيازات النفط لشركات النفط الاحتكارية.....
28	الفصل الثاني : الحالة الاقتصادية في العراق .....
38	الفصل الثالث : السكان والتحويلات الطبقية في العراق.....
38	المبحث الأول : التطورات الجارية في البنية السكانية.....
45	المبحث الثاني : البنية الطبقية.....
45	1 . الإقطاعيون (كبار ملاك الأراضي الزراعية).....
60	2 . فئات الفلاحين.....
67	3 . البرجوازية الوطنية والبرجوازية الصغيرة .....
75	4 . الطبقة العاملة خلال الفترة 1921-1950.....
80	الباب الثاني : فهد والحزب الشيوعي العراقي.....
80	الفصل الأول : بدايات نشوء وتطور القوى الماركسية والشيوعية في العراق.....
90	الفصل الثاني : المراحل النضالية لفهد في الحركة الوطنية العراقية.....
91	المرحلة الأولى : مرحلة النضال الوطني وبداية التكوين الفكري والسياسي .....
106	الفصل الثالث : الحلقات الماركسية في بغداد .....
114	الفصل الرابع : (المرحلة الثانية) دور فهد في تأسيس الحزب .....
126	الفصل الخامس : فهد والحركة الشيوعية العالمية .....
126	المبحث الأول : فهد في المدرسة الحزبية لكادحي الشرق.....
134	المبحث الثاني : فهد والأممية الشيوعية.....

153	الفصل السادس : المرحلة الثالثة: عودة فهد إلى العراق
161	المبحث الأول : المهمات الجديدة
168	المبحث الثاني : فهد وعملية إعادة بناء الحزب
197	الفصل السابع : فهد والحركات الانشقاقية في الحزب
205	أولاً : الصعيد الفكري
212	ثانياً : الصعيد السياسي
214	ثالثاً : الصعيد التنظيمي
218	الفصل الثامن : فهد والشرعية الحزبية
222	المبحث الأول : الكونغرس الحزبي الأول والميثاق الوطني (إستراتيج وتكتيك الحزب)
229	المبحث الثاني : المؤتمر الوطني الأول للحزب وإقرار نظامه الداخلي
232	الفصل التاسع : لمحة عن الواقع السياسي والحياة الحزبية في الفترة 1945-1950
247	الباب الثالث : مواقف فهد حول بعض القضايا الفكرية والسياسية
247	الفصل الأول : العلاقة بين الوطنية والأممية عند فهد
252	الفصل الثاني : المسألة الكردية في العراق
265	الفصل الثالث : الجبهة الوطنية وسياسة التحالفات
275	الفصل الرابع : الحركة النقابية
286	الفصل الخامس : الحركة الطلابية
292	الفصل السادس : فهد والموقف من المثقفين
301	الفصل السابع : فهد وحركة تحرير المرأة
311	الفصل الثامن : فهد والقضايا العربية
311	المبحث الأول : فهد والقضية الفلسطينية
332	المبحث الثاني : القضية القومية والوحدة العربية
343	الفصل التاسع : فهد والسياسة الاقتصادية للحزب
365	الفصل العاشر : الحزب الشيوعي وفهد والانقلابات العسكرية في العراق
365	المبحث الأول : جماعة الأهالي وانقلاب بكر صدقي العسكري
365	1 . جماعة الأهالي
380	2 . انقلاب بكر صدقي العسكري
390	المبحث الثاني: حركة مايس 1941
390	1 : طبيعة حركة مايس

402	.....	2 . تقييم الحزب وفهد لحركة مايس 1941
408	.....	الفصل الحادي عشر : فهد ووثبة كانون الثاني 1948
426	.....	الفصل الثاني عشر : شخصية فهد
455	.....	الخلاصة
468	.....	الملاحق
468	.....	الملحق رقم 1
471	.....	الملحق رقم 2
474	.....	المصادر

## المقدمة: في الذكرى المئوية لميلاد يوسف سلمان يوسف (فهد)

ستظل مسألة سقوط دولة الاتحاد السوفييتي وانهيار منظومة الدول الاشتراكية الأخرى السائرة في خطها ، تشغل بال الكثيرين من المفكرين والمؤرخين على اختلاف مذاهبهم الفلسفية وآرائهم السياسية . وستظل تبقى مادة غنية لسلسلة من الدراسات التي لا تنتهي ، ولكنها في الغالب الأعم ستكون أكثر موضوعية مع تقادم الزمن . ولعل الصدمة النفسية والعصبية القوية التي لم تكن في الحسبان ، قد شلت الكثيرين من المنظرين والمؤرخين ، سواء كانوا من الماركسيين أم من غيرهم ، نقول أن هذه الصدمة بدأت الآن تخف وطأتها وتتلاشى بالتدرج ، فتعود الأبصار كي ترى الأشياء بوضوح أكثر . وتحاول العقول التي ظلت أسيرة نمط معين من التفكير ، أن تترك طابعها الذاتي نسبياً وتكون أكثر موضوعية . ولا يعني هذا أن نمط التفكير المتحجر أو الجمود العقائدي قد ولى إلى الأبد . حتى ممن كانوا ينظرون فيما مضى إلى دولة المعسكر "البائد" بعين العداء السافر ، بدأوا الآن يفتقدون إلى شيء ، كان ينبغي ، في رأيهم ، أن يبقى وأن لا يزول بهذا الشكل الدرامي الذي أشغل العالم عامة وأوروبا خاصة في السنتين 1989-1990 . ويصرخ الكثيرون بصوت عال بأن وجود معسكرين من أجل الحفاظ على التوازن العالمي ومن أجل إيقاف ديناصور الرأسمالية العالمية عند حده ، كان شيئاً ضرورياً . ربما يحن هذا الجانب إلى ذلك العهد ، لأنه كان يتكى عليه من الناحية العسكرية والمساعدات ليس إلا . وأما الجانب الآخر ، ممن كان يعيش بأمان وتواضع وبمستقبل مضمون وغير مجهول ، فيحن إلى ذلك العهد بشوق يبلغ أحيانا درجة الحنين إلى الماضي ، النوستالجي ، إذ أن نتائج التحولات السريعة وغير المتوقعة قد سحقت تحت عجلاتها أو قذفت به إلى الدرك الأسفل . وبكل ألم يرتفع صوت ألماني شرقي ، يسأله المخبر التلفزيوني عن رأيه في الذكرى الثامنة لإزالة جدار برلين ، قائلاً أنه لو كان الأمر بيده ، لمد في ارتفاع الجدار ثلاثة أمتار أخرى . وتجب عجز تعيش لوحدها في قرية روسية موبوءة ومهجورة ، عن سؤال وجهه صحفي غربي: "كنا فيما مضى نعيش على الخبز والزبد وطرشي القرنبيط ، وأما الآن فنعيش على حساء الأخير فقط" .

نحن ، في سياق كلامنا هذا لا نحن إلى النموذج السوفييتي الذي قال فيه التاريخ كلمته ، كما ولسنا في معرض مقارنة العهد القديم (العهد السوفييتي) بالعهد الراهن (عهد الرأسمالية الروسية) ، وما إذا كان الشعب الروسي والشعوب الأخرى التي كانت تعيش في نطاق النظام السوفييتي ، تعيش في بحبوحة ورفاه . هذه مسألة تخص تلك الشعوب وهي مسؤولة عن مصيرها بنفسها . ولكننا كماركسيين ، يهمننا التعرف على أسباب السقوط ، إذ لا يجوز المرور به مرّ الكرام . وإذا كان علم التاريخ يعتبر السياسة تاريخاً راهناً ، فإن هذه السياسة ينبغي أن ترجع إلى التاريخ ، إلى الماضي إلى الجذور ، وذلك للبحث عن الدرنات المرضية التي رافقت العملية منذ البداية ، وفهم الحاضر ورؤية المستقبل بوضوح ، واضعين أمام أعيننا السؤال الكبير: ما إذا كان هذا السقوط ، هو سقوط للماركسية؟ وللمثل والقيم الاشتراكية؟ أم أنه سقوط لنهج الماركسية- اللينينية أو اللينينية - الستالينية ، وتجربته في بناء نظام اشتراكي؟ . . واخترنا لذلك ذكرى يعتز بها الماركسيون والتقدميون والوطنيون العراقيون عموماً ، ألا وهي الذكرى المئوية لميلاد الرفيق يوسف سلمان يوسف (فهد) مؤسس الحزب الشيوعي العراقي وأحد أبرز قادة الحركة الوطنية العراقية في النصف الأول من القرن العشرين .

في التاسع عشر من حزيران/ يونيو 1901 ولد يوسف سلمان يوسف (فهد)1 ، الشخصية الوطنية والشيعية العراقية البارزة ومؤسس الحزب الشيوعي العراقي ، في مدينة بغداد في أحضان عائلة عمالية عراقية كلدانية كادحة ومنتورة2 . وبعد حياة قصيرة لم تدم سوى 48 عاما ، ولكنها كانت مليئة بالحيوية والنشاط والأحداث المتلاحقة . استشهد ، مع رفيقيه زكي محمد بسيم (حازم)3 وحسين محمد الشبيبي (صارم)4 ، على أيدي النظام الملكي الإقطاعي في فترة حكم نوري السعيد ، وبدعم وتوصية أو نصح وضغط مباشرين من حكومة بريطانيا العظمى آنذاك ، إذ كانت حتى ذلك الحين ما تزال تمتلك قواعد عسكرية ومستشارين يعملون في العراق وتأثير مباشر وكبير على حكام العراق والسياسة العراقية .

يستهدف المؤلفان من تقديم هذه الدراسة الاقتراب من الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري في العراق ، حيث نشأ فيه فهد والظروف التي أحاطت به وسمحت له بأداء مثل هذا الدور في الحركة الوطنية ، ومن ثم في الحركة الشيوعية العراقية . فعلى مدى ثلاثة عقود من الزمن شارك فهد في خضم الحياة السياسية العراقية ، ابتداءً من مساهمته الفعالة في عمليات التنوير الفكرية والسياسية الأولى في العراق ومرورا بعضويته في الحزب الوطني العراقي بقيادة محمد جعفر أبو التمن ومشاركته في الحركة الوطنية العراقية العامة ، وانتهاءً بمساهمته الفعالة في نشر الفكر الشيوعي أو الاشتراكي في العراق ، ومن ثم تأسيسه ، مع نخبة من المناضلات والمناضلين ، الحزب الشيوعي العراقي .

وتتألف هذه الدراسة من توطئة وثلاث أبواب وعدد من الفصول التي تبحث في واقع العراق الاقتصادي والاجتماعي في ظل الهيمنة البريطانية المباشرة وغير المباشرة وفي دوافع نشوء وتطور الحركة الشيوعية في العراق والاتجاهات الفكرية والسياسات العملية التي مارسها فهد وهو في قيادة الحزب الشيوعي العراقي . استهدف الباحثان التحرك على مسارين ، هما: أولاً: دور ومكانة فهد في الحزب الشيوعي العراقي وفي الحركة الوطنية العراقية حينذاك من الناحية التاريخية وفي ظروفها الملموسة ووفق المدرسة الفكرية والسياسية التي تبناها وعمل من أجلها فهد وضحي وسقط شهيدا في سبيلها . وفي هذا الإطار استهدفت الدراسة التطرق إلى مسائل أستيعاب وتطبيق مبادئ الماركسية- اللينينية أو اللينينية- الستالينية في الحزب الشيوعي العراقي من قبل فهد ، وإلقاء الضوء على سبل تطبيقه لها في تلك الفترة التاريخية التي تميزت بالهيمنة البريطانية وبواقع التخلف ونفسي الأمية بين الجماهير الواسعة والظروف المعقدة الأخرى التي كانت تحيط وتميز العراق .

ثانياً: أن نقيم ، في ضوء التحولات التي جرت في العالم والتجارب الغنية التي مرت بها الحركة والفكر الماركسيين ، سواء بنجاحاتها وإخفاقاتها ، أم بانتعاشها وأزمتهما ، ومدى صحة جملة من المقولات النظرية والعملية التي تبنتها اللينينية ومن ثم اللينينية- الستالينية والتي عملت بموجبها الأممية الثالثة ، وخاصة في الفترة التي وقف على رأسها وقادها ستالين ،

1 سيستخدم الباحثان اسم فهد ، وهو الاسم الحركي الحزبي ليوسف سلمان يوسف ، في هذا الكتاب ، وهو الاسم الذي عرف به في العراق وخارجه.

2 - بطاطو ، حنا د. العراق: الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية. ترجم إلى العربية من السيد عفيف الرزاز في ثلاثة كتب. الكتاب الثاني: الحزب الشيوعي. مؤسسة الأبحاث العربية. ط 1. بيروت. 1990. ص 143/144. - خيري ، زكي. دراسات في تاريخ الحزب الشيوعي العراقي. المجلد الأول. إصدار اليوبيل الذهبي. ط 1. مطبعة أبو سلام. لندن. 1984. ص 30.

- خيري ، سعاد د. فهد والنهج الماركسي اللينيني في قضايا الثورة. دار الفارابي-بيروت. مكتبة النهضة-بغداد. ط 2. 1974. ص 7.

3 حازم هو الاسم الحزبي لزكي محمد بسيم، عضو المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي، الذي أعدم في شباط/فبراير من عام 1949.

4 صارم هو الاسم الحزبي لحسين محمد الشبيبي، عضو المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي، الذي أعدم في شباط/فبراير من عام 1949.

واعتبرتها أساساً مميّزاً لها ولكل الأحزاب الشيوعية والعمالية المرتبطة بها ، أي الخوض في حوار بشأن عدد من المقولات النظرية التي برهنت الحياة ، كما يرى المؤلفان ، على خطئها من الناحيتين الفكرية والسياسية وتلك التي عفا عليها الدهر ، آخذين بنظر الاعتبار التطورات الجارية على الصعيدين العالمي والإقليمي ، إضافة إلى الوضع الملموس في العراق .

فعلى مدى نصف قرن أو يزيد كانت شخصية هذا الإنسان الأسطوري تواجه حالتين ، هما:

\* فقد وكره المناهضين له ومحاولة تشويه شخصيته والإساءة إليه من أولئك الذين كانوا في الحزب الشيوعي وانتقلوا إلى صف المناوئين له أو عملوا كجواسيس لدى حكام العراق في فترات مختلفة ، إضافة إلى كتابات أولئك الذين كانوا يختلفون معه فكريا وسياسيا ويعتبرونه عدوا طبقياً أو فكرياً وسياسياً لهم؛

\* حب وتقديس فهد بسبب دوره في تأسيس الحزب الشيوعي العراقي والطريقة التي استشهد بها ، إضافة إلى الصيغة التي عملت بها الأحزاب الشيوعية لعقود طويلة والتي يطلق عليها عبادة الفرد ، حتى حاول البعض تحويله إلى أسطورة أو قديس . وبالتالي أصبح أي نقد لفهد بمثابة الإساءة له ولتاريخه وللحزب الشيوعي العراقي .

ولا شك في أن الحالتين ترتبطان بتراث وتقاليد العراق في هذا الصدد والتي يفترض أن نتخلص منها لنستطيع التعامل مع الأشخاص العامين ، أي الذين يعملون في القضايا العامة والتي تهم الشعب ، بطريقة طبيعية وموضوعية ، أي أن يكون في بالنا بأن هذه الشخصيات يمكن ، في مجرى نضالها ونشاطها الفكري والسياسي أن ترتكب الأخطاء وأن تصيب في آن واحد . وليس هناك من هو معصوم عن الخطأ أو بعيد عن النقد الموضوعي والهادف . وعبر هذا السبيل وحده يمكن الاستفادة من دروس الماضي ولصالح المستقبل ، وليس الإساءة لهما ولتلك الشخصيات .

ويرى الكاتبان بأن الوقت قد حان منذ فترة طويلة في أن تكون الدراسات حول فهد أكثر موضوعية وعقلانية وبعيدة عن الأهواء الشخصية ، إذ من حقه علينا ومن حق الناس على الباحثين ، أن يتم تقييم واقعي ومسؤول عن فهد ، وفق المعلومات المتوفرة حتى الآن .

تهدف الدراسة التعرف على نشاط فهد الفكري والسياسي والمشاكل المعقدة التي رافقت تطبيق تعاليم الماركسية - اللينينية أو الستالينية آنذاك في ظروف العراق الملموسة ، وتلك التي سادت الحركة الشيوعية . ولهذا الغرض نعود مع فهد إلى أرض الواقع العراقي ، باعتباره كان إنساناً طبيعياً ولد في العراق وعمل مع الناس البسطاء والطيبين ، وناضل من أجلهم ومن أجل بناء "وطن حر وشعب سعيد" ، واستشهد في سبيل ذلك . وفي مجرى عمله ونضاله أنجز الكثير وساهم بالكثير من النشاطات ولعب دوراً أساسياً في تأسيس الحزب الشيوعي العراقي ، والدور الرئيسي في تكريس وجود الحزب وتحويله إلى جزء عضوي فاعل وأساسي وحيوي من الحركة الوطنية العراقية . وفي مجرى هذا النضال وفي خضم العمل اليومي ارتكب ، كأي إنسان آخر ، إلى جانب منجزاته ، الأخطاء وعرف النواقص أيضاً .

وفي معرض عملية بلشفة الحزب في ضوء شروط الأممية ، والتي كرس لها فهد كتابه : "حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية" ، يحاول المؤلفان الإجابة عن الأسئلة التالية:

متى ولماذا وبأي وسيلة توجه فهد وقيادته إلى الأممية الشيوعية ، وما هي المشاكل التي طرحت هناك وما هي الاستنتاجات التي توصلوا إليها؟ وهل أخذت الظروف الذاتية والموضوعية للعراق حينذاك بنظر الاعتبار فعلاً؟

عند الإجابة عن هذه الأسئلة جرت مراعاة وتحليل النقاط التالية:

1- في سياق تحليله لمسيرة الحركة الثورية وحركة التحرر الوطني في اللجنة المركزية والمنظمات الحزبية والجريدة المركزية ، وكذلك في سياق تهجمه اللاذع على ممثلي الحركة العمالية العراقية ممن لم يتجاوبوا مع خطه البلشفي ، أعتمد فهد على نهج ستالين الذي ساد فكر وممارسات الأهمية الشيوعية ، ليس انطلاقاً من التزامه وطاعته فحسب ، بل استناداً إلى أيمانه العميق بها ، إذ كان ينظر إلى هذه القضية كأى مؤمن تجاه شئ مقدس لا يمكن ولا يجوز المساس به . وهكذا كان موقفه من المثقفين الحزبيين أيضاً . وكانت هذه إحدى صفات الشيوعي المخلص والملتزم حينذاك ولسنوات طويلة لاحقة أو حتى الآن للبعض غير القليل من الشيوعيين . علماً بأن لينين أكد مرارا وتكراراً بأنه يريد شيوعيين واعين وليس دراويش مؤمنين . وشكلت تلك الرؤية اللينينية-الستالينية عند فهد الأساس المادي لتحليلاته وعرضه للأحداث التاريخية التي عاصرها ، وكذلك في رسمه لإستراتيج وتكتيك الحزب الشيوعي .

2- ومن أجل استنباط الدروس والتعاليم والدلائل من التاريخ ، أعتمد فهد ورفاقه في المكتب السياسي على جملة من الأحداث والمناسبات وتمجيد شخصيات معينة ما كتبه لينين وستالين على نحو خاص . وبرز هذا واضحاً في كراس فهد حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية حين استفاد من مساهمة لينين (رسالة إلى رفيق) في إجابته أيضاً على أسئلة الرفاق . وكان الاستناد إلى النصوص اللينينية أو الستالينية والتقاليد الثورية للحركة الشيوعية أداة مهمة في إثبات أو التلليل على صحة الخط الذي يعتمده ، وفي إثارة عاطفة وحماس الشيوعيين .

3- كانت الأهمية الشيوعية ، التي تأسست أساساً من أجل دعم الاتحاد السوفييتي والحزب الشيوعي ، تعتبر مصير دولة الاشتراكية الأولى ، شيئا مركزيا ، كان ينبغي أن يسترعى انتباه كل قسم من أقسام الأهمية وكل عضو من أعضائها كحلقة مركزية في مجمل إستراتيجها وتكتيكها . وكانت الأهمية تقوم نتيجة التباحث الجماعي فيما بينها ، بإصدار قرارات تعممها على أقسامها . وكان على قيادات الأقسام الالتزام بها عند تحليل الأحداث وتثقيف قواعدها بها دون مناقشتها . ونرى مثلا أن المؤتمر الخامس للأهمية ، الذي بدأ في مرحلة تطور جديدة للأحزاب الشيوعية ، بدأ يركز على مسألة استيعاب وتطبيق النظرية الماركسية - اللينينية ، أي عملية بلشفة كل حزب شيوعي أينما كان ، والاهتمام بالالتصاق بالجمهير والتركيز على التحالف الوطيد مع الاتحاد السوفييتي وحزبه الشيوعي .

ولما كان فهد قد درس في موسكو ، لذلك كانت عبارات مثل " منظمات بلشفية أو " تثقيف بلشفي" من المواضيع التي تطرق إليها . ومن المعروف أن الخطاب الدعائي الذي ألقاه جيورجي ديمتروف في المؤتمر العالمي السابع للأهمية الشيوعية ، كان يتضمن أسس ستراتييج وتكتيك الجبهة الوطنية والشعبية ضد الفاشية ، الأمر الذي أدى إلى بلورة مبدأ ماركسي - لينيني جديد في السياسة الجبهوية في نطاق الأهمية الشيوعية . كان لهذا الطرح الجديد أهمية كبيرة لرسم إستراتيج جبهوي من قبل الحزب الشيوعي العراقي في ضوء الظروف الملموسة في العراق .

4- رغم التثقيف الذي كان يقوم به فهد بالشيوعية ، واعتبار نفسه شيوعيا عند إلقاء القبض عليه لأول مرة ، فإنه أتفق مع الآخرين على تسمية الحزب ب(لجنة مكافحة الاستعمار) . ولم توافق الأهمية على طلبهم إلا بعد تغيير الاسم إلى الحزب الشيوعي العراقي ، حيث تمت الموافقة على الطلب في العام 1936 . ويبدو أن فهد ، بخلاف رفاقه ال 13 الآخرين ، كان إلى جانب العلنية في العمل ، بيد أن صدور قانون محاربة الشيوعية ، قد حال دون ذلك .



بسبب اختلاف الآراء بين فهد وبعض أعضاء اللجنة المركزية تجاه مسائل: دكتاتورية البروليتاريا والمركزية الديمقراطية وبعض المسائل التكتيكية ، نشأت مجموعات وتوجهات انشقاقية دائمة في الحركة الشيوعية العراقية . كان فهد يريد حزباً شيوعياً بلشفيّاً صارماً ، يلتزم بخط الأممية بثبات ومهما كلف الأمر ، بغض النظر عن الظروف الوطنية الملموسة ، في حين كانت المجاميع الأخرى تريد حزباً شيوعياً بدون ذكر شعارات "دكتاتورية البروليتاريا" أو "المركزية الديمقراطية" في النظام الداخلي . بيد أن ضعف الجانب النظري عند هؤلاء ، كان يحول دون التمكن من طرح آرائهم بشكل علمي في إطار الفكر الماركسي ، ناهيك عن أن ظروفهم كانت لا تتسجم مع خط الكومنترن . الأمر الذي أدى إلى أن ترتفع كفة فهد في الحزب ، هذا بالإضافة إلى قدراته التنظيمية والأيدولوجية والسياسية المتميزة .

كما حاول المؤلفان ، من خلال متابعة وتحليل كتابات فهد ، التعرف على مدى استيعاب وتطبيق مبادئ الماركسية - اللينينية (عملية بلشفة الحزب) من جانب فهد ، وإلقاء الضوء على مدى تنفيذه لمقررات وتوجيهات الأممية الشيوعية ولاسيما مؤتمرها السابع في الحزب الشيوعي العراقي وكذلك مدى أخذه الظروف الوطنية والموضوعية الملموسة بنظر الاعتبار .

ركزت الدراسة على الفترة الزمنية الواقعة بين 1941 إلى 1949 ، بدءاً من تسلم فهد قيادة الحزب إلى يوم إعدامه . كما جرى التطرق إلى الحركة الوطنية وبروز النزعات الاشتراكية قبل تأسيس الحزب الشيوعي العراقي .

لم يكن اهتمام الأممية الشيوعية بالحركة الشيوعية العربية بالشكل المطلوب ، إذ أن أول بادرة جدية وملموسة بهذا الشأن كان في 1936 / 2/29 ، حيث قامت سكرتارية المكتب التنفيذي للأممية الشيوعية بقيادة جيورجي ديمتروف وبمشاركة ممثلين من الأحزاب الشيوعية العربية بإصدار قرار جاء فيه: " إن الشيوعيين في البلدان العربية يجب أن يفهموا بأن النضال ضد النير الإمبريالي ومن أجل التحرر الوطني ، هو المسألة الرئيسية في مجمل نشاطهم ويعتبر مقياساً لوزنهم السياسي في البلد . إن مصير الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية يتقرر من مدى الموقف الصحيح من هذه المسألة . . . إن الأحزاب الشيوعية يجب أن تغير علاقتها بشكل جذري بالمنظمات والأحزاب الثورية الوطنية ، كما وعليها تغيير تكتيكها وموقفها من الإصلاحيين الوطنيين . إن شيوعيين البلدان العربية يجب أن يعملوا بشكل مشترك وثيق مع الوطنيين الثوريين ، ويصلوا إلى الظهور بصورة مشتركة مع المنظمات الإصلاحية الوطنية ، ويقوموا بمساندة مطالب هذه المنظمات التي توجه ضد المواقف الإمبريالية

في تلك الفترة كان فهد يدرس في " الجامعة الشيوعية لكادحي الشرق " في الاتحاد السوفييتي . وبعد ثلاث سنوات من عودته إلى الوطن ، التي تصادف كانون الثاني/ يناير 1938 ، وضع نفسه أمام مهمة خطيرة ومعقدة ، قدم حياته ثمناً لها ، ألا وهي إعادة تشكيل الحزب الممزق وبناءه على الأسس البلشفية .

إن احترام فهد وتقدير نضاله ودوره وتضحياته مسألة طبيعية ومطلوبة ، ولكن الاحترام هو غير التقديس ولا يعنيه ، كما أنه غير الخشية من ممارسة النقد إزاء نشاطاته أو ما ارتكبه من أخطاء إن وجدت خلال حياته . وينبغي أن لا نخلط بين المسألتين ، إذ عندها نفقد البوصلة ، ونسئ بوعي أو بغير وعي ، إلى تلك الشخصيات التي نحترمها ونقدر دورها ونرى أنها قدمت الكثير لشعبها ووطنها .

إن الاختلاف في وجهات النظر تعبير عن حيوية ومحاولة جادة للاجتهاد ما دامت تستهدف استخلاص الدروس لصالح المستقبل . ولهذا يأمل المؤلفان أن يكونا بهذه الدراسة قد قدما

خدمة متواضعة للماركسيين وكل التقدميين والديمقراطيين في العراق في شق طريقهم النضالي الشاق من أجل الديمقراطية والتقدم والعدالة الاجتماعية والسلام . ومن أجل إعادة النظر في مجمل نهجهم السابق بنظرة نقدية بناءة ، وعدم أخذ الأمور كمسلمات جاهزة غير قابلة للمناقشة والتغيير . ولا يريد المؤلفان في هذا السياق ، الادعاء بأنهما كانا من دعاة ورواد الاتجاه النقدي الذي لم يأخذ الأمور على علاتها ، إنهما رغم تحفظاتهما ، بهذا القدر أو ذاك ، إزاء هذه القضية أو تلك ، كانا ، مقتنعين ، ومؤمنين ، ومرتبطين ، وملتزمين ومحكومين بالخط العام أيضاً وشاركاً في ارتكاب الأخطاء ، بيد أنهما أحسا باكفهرار السماء ، قبل هطول الأمطار وحدث الزلزال . وهذا كله لا يعفيهما عن المسؤولية التي ساهما بحملها . ولعل النظرة النقدية الذاتية خير وسيلة لخدمة القضية التي نريد لها التقدم . ويدرك المؤلفان تماما بأن مثل هذه الدراسة تكون محفوفة بمصاعب كثيرة ولأسباب عديدة ، منها مثلاً شخصية فهد بالذات ، التي حاول البعض جعلها أسطورة .

إن ما نقدمه ، سواء أكان تقديراً لدور فهد الإيجابي أو نقداً لأخطائه ، يعتبر بدوره اجتهاداً من جانب المؤلفين ، وهو تقييم قابل للتعديل والتصحيح في مجرى الحوار . وربما لسنا في هذا البحث سوى البداية النقدية لبحوث لاحقة أكثر عمقا وتفصيلا واعتمادا على الوثائق التي لا نمتلكها حتى الآن أو التي لم تصل إلينا لأي سبب كان ، إذ إننا رغم كل محاولاتنا في أن تكون لنا رؤية واقعية وموضوعية لتلك الفترة التي بحثنا فيها ومن ثم لحياة فهد ، فإننا - ربما - مازلنا مشدودين ، بهذا القدر أو ذاك ، إلى المدرسة التي جننا منها وتبنينا فكرها وعملنا على هديها؛ إلى الماضي الذي عشناه وعملنا فيه ولا نستطيع الفكك من جوانبه السلبية تماما وكما ينبغي لمن يريد أن يعيد النظر ويدرس الماضي .

إن قناعة وإيمان المؤلفين بالحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية لا حدود لهما ، وكذا القناعة والإيمان بقدرات الشعوب على تحقيق هذا الحلم الإنساني النبيل ، حلم العيش في حياة حرة وديمقراطية ، كريمة وسعيدة وخالية من الاستغلال الرأسمالي المعولم ، وهما يجدان في المنهج المادي الديالكتيكي والمادي التاريخي ، منهج ماركس العلمي القابل للإغناء والتطوير المستمرين مع التغيرات والتطورات الجارية في الحياة ذاتها ، في العلوم والتقنيات الحديثة ، عالم ثورة الإنفوميديا ، خير وسيلة للبحث والاستقصاء من أجل فهم وتفسير الماضي ، من أجل وعي الواقع وإدراك أبعاده واستشراف المستقبل ، كما هو خير أداة لتحديد اتجاهات النضال لتغيير العالم ، على أن تبقى الأفكار والاستنتاجات مفتوحة على كل المناهج والنظريات الأخرى للتفاعل معها والتأثير المتبادل في ما بينها لتحقيق الأهداف المنشودة . إن حالات الانغلاق والجمود والأصولية والتعصب في الفكر والسياسة أمراض تدفع كلها إلى التكلس والاستعلاء ، وإلى فقدان الصلة بالحياة والناس ، وإلى التمسك بالماضي والحنين إليه واستعادته ، وكأنه الحلم الذي نسعى إليه والمستقبل الذي نريد تشييده ، وكأن لسان حالنا يقول: ليس في الإمكان أبدع مما كان! وهو ما لا يمكن القبول به والرضوخ إليه والسكوت عنه من جانبنا ، ولكن المؤلفين مقتنعان أيضاً بأن لكل إنسان الحق في التزام ما يقتنع به من وجهة فكرية ورأي سياسي ، إضافة إلى حقه في اختيار طريق النضال .

لقد بذلنا جهداً في أن نستمع إلى آراء البعض من الأصدقاء من اتجاهات ماركسية وتقدمية ومستقلة عديدة ، ونحن شاكرين لهم ملاحظاتهم القيمة ، ولكن تبقى مسؤولية الدراسة وما طرحت فيها من اجتهادات وتقديرات على عاتق الباحثين .

كان المفروض أن يصدر هذا الكتاب في عام 2001 ، أي في الذكرى المنوية لميلاد فهد ، وتعذر صدوره لأسباب خارج عن إرادة الكاتبين . وأخيراً تم الاتفاق مع الأخوة في دار الكنوز الأدبية على نشره ، فلهم منا جزيل الشكر والتقدير .

زهدي الداودي

كاظم حبيب

## الباب الأول : العراق في ظل الانتداب

### الفصل الأول : تكوين الدولة الحديثة وسياسات بريطانيا في العراق

ساهم نشر الوثائق السرية من جانب الدولة السوفيتية الفتية في أعقاب ثورة أكتوبر الاشتراكية في عام 1917 ، وخاصة اتفاقية سايكس-بيكو التي وقعت بين بريطانيا وفرنسا في الفترة الواقعة بين 15-17 من شهر مايس عام 1916 والتي وافقت عليه روسيا القيصرية بعد مفاوضاتهم المشتركة في بتروغراد ، في فضح الأطماع الاستعمارية البريطانية والفرنسية في العراق وفي بقية أشلاء الدولة العثمانية في المنطقة ، وأكد بأن بريطانيا كانت تسعى إلى فرض الهيمنة الكاملة على العراق والبقاء فهد حتى النهاية على غرار هيمنتها على الهند .5 وفي الخامس والعشرين من نيسان/إبريل 1920 صدر قرار عصبة الأمم في سان ريمو ، وبناء على طلب الحكومة البريطانية ، بجعل العراق تحت انتدابها وفقاً للفقرة الرابعة من المادة 22 من عهد عصبة الأمم التي تؤكد: "إن بعض البلاد كانت في القديم تابعة للإمبراطورية العثمانية ، وقد بلغت درجة راقية يمكن معها الاعتراف مبدئياً بكيانها كأمم مستقلة على أن تستمد الإرشاد والمساعدة من دولة أخرى حتى يأتي الزمن الذي تصبح فيه قادرة على الوقوف بمفردها وأن اعتبار رغبات هذه البلاد يجب أن يكون في المقام الأول من انتقاء الدولة المنتدبة" .6 وكان هذا القرار أحد عوامل انفجار ثورة العشرين في الأول من حزيران/ يونيو عام 1920 .

كانت الجهود البريطانية تتحرك باتجاهين: استهدف الاتجاه الأول ضمان الاتفاق النهائي مع فرنسا حول تقسيم مناطق النفوذ وإنجاز قضايا الحدود وفق مساومات معينة ، إضافة إلى تأمين نفوذ بريطاني معين في مناطق الاحتلال الفرنسي ، في حين استهدف الاتجاه الثاني ضمان حصول بريطانيا على تأييد وموافقة أشرف العراق والعرب لقرار فرض الحماية والانتداب الكامل على العراق وإقناع العالم بأن حالة التخلف وضعف الوعي السياسي تتطلبان مثل هذا الانتداب لحماية العراق من أطماع الدول الأخرى أو لتجنب الصراعات المحلية . وعقدت لهذا الغرض عدة مؤتمرات دولية وإقليمية ونشطت المناورات والدسائس الداخلية والعربية والدولية وشارك فيها عدد كبير من أعضاء حزب العهد العراقي وتلك القواعد الاجتماعية التي أوجدتها وعززت مواقعها الاقتصادية والاجتماعية في البلاد .7 ومن أجل تخفيف حدة التوترات التي سادت البلاد في هذه الفترة قبل وأثناء ثورة العشرين والتغلب على الصراع السياسي الذي احتدم بين الاتجاهات المختلفة ، اتخذ المندوب السامي البريطاني السير برسي زكريا كوكس ، وبدعم من المس جيرترود بل ، إجرائين في آن واحد هما تشكيل حكومة مؤقتة برئاسة أحد الشخصيات العراقية الموالية لبريطانيا والمتحمسة في

5 - آل فرعون ، فريق المزهري. الحقائق الناصعة في الثورة العراقية لسنة 1920 وتناجها. ط 1. مطبعة النجاح. بغداد. 1952. ص 53.

- أنطونيوس ، جورج. بقظة العرب. مصدر سابق. ص 271.

6 - الحسيني، عبد الرزاق. العراق في ظل المعاهدات. مطبعة دار الكتب. بيروت. 1975. ص 3-4.

7 - الحسن ، عبد الرزاق. الثورة العراقية الكبرى. مصدر سابق.

- أحمد ، كمال مظهر. الباحث عن العرش في مذكرات لويد جورج. في : مجلة "أفاق عربية". العدد 9. السنة الثانية. 1977. بغداد. ص 108-128.

الدفاع عن وجودها في العراق السيد عبد الرحمن الكيلاني ، نقيب بغداد ، من جهة ، والقيام باستفتاء الرأي العام العراقي بشأن مستقبل العراق تضمن ثلاثة أسئلة ، وهي:

" 1- هل يرغبون في دولة عربية واحدة ، تحت الوصاية البريطانية ، تمتد من الحدود الشمالية لولاية الموصل حتى الخليج الفارسي؟

2\_ هل يرغبون ، في هذه الحالة ، في رئيس عربي بالاسم يرأس هذه الدولة الجديدة ؟

3- من هو الرئيس الذي يريدونه في هذه الحالة؟" 8 .

تشير صيغة السؤال الأول إلى أن سلطات الاحتلال كانت تريد تكريس فكرة وصاية بريطانيا على العراق ، كما جاء في لائحة صك الانتداب أولاً ، وتركت الخيار مفتوحاً حول من يكون رئيساً أو ملكاً لدولة العراق ، علماً بأن إشاعة كانت قد راجت في بغداد وعموم العراق تشير إلى السير برسي كوكس يطمح في أن يكون رئيساً أو ملكاً أو حاكماً دائماً على العراق 9 ، إذ أن سلطات الاحتلال عمدت إلى تنظيم مضابط في جميع أنحاء العراق كان يشار فيها صراحة إلى رغبة العراقيين في استمرار الوجود البريطاني في العراق .

وإزاء هذا الهاجس توجه الناس في مناطق العراق الشيعية إلى آية الله محمد تقي الحائري الشيرازي يستفتونه بالموضوع . وكان ردّه الآتي: " ليس لأحد أن ينتخب ويختار غير المسلم للإمارة والسلطنة على المسلمين" 10 . وفي ضوء ذلك ازداد عدد المضابط المؤيدة لانتخاب شخص مسلم عربي لإدارة شؤون البلاد . 11 وابتداءً يمكن إبعاد فكرة أن يكون السير كوكس رئيساً للدولة العراقية الجديدة .

ومن الجدير بالإشارة إلى أن المجموعات الطليعية في السياسة العراقية حينذاك قد تباينت مواقفها في موضوع إقامة الملكية أم الجمهورية في العراق . ولم يقتصر الحوار حول النظام الملكي أو الجمهوري على عدد من محترفي السياسة 12 ، بل طرح بوضوح في الساحة السياسية والنقاش السياسي الشعبي في العراق حينذاك . وكانت الغالبية إلى جانب الملكية ، ومنهم غالبية علماء الدين في المناطق الشيعية ، إضافة إلى المناطق السنية . علماً بأن بريطانيا كانت قد حسمت الأمر قبل ذلك لصالح الملكية .

8 إبراهيم ، علي. طالب النقيب .... مجلة آفاق عربية. العدد 3. السنة 2. 1976. بغداد. ص 88.

9 الحسني ، عبد الرزاق. الثورة العراقية الكبرى. مصدر سابق. ص 36/35 و ص 40-44.

10 الحسني ، عبد الرزاق. الثورة العراقية الكبرى. مصدر سابق. ص 34.

11 نفس المصدر السابق. ص 41.

لأهمية المضابط نورد هنا بعضاً منها: صورة مضبطين مختلفتين هما مضبطة الموصل ومضبطة كربلاء:

صورة مضبطة الموصل: لغرض الشكر لدولة بريطانيا العظمى على إنقاذنا من الأتراك ، وتخليصنا من الهلاك ، وإعطائنا الحرية والعدالة ، والسعي في ترقى ولايتنا بالتجارة ، والزراعة ، والمعارف ، ونشر الأمن في جميع الأطراف. ونؤمل من الدولة المشار إليها أن تحسن علينا بحمايتنا ، وإدارة شؤون ولايتنا إلى زمن يمكن فيه أن نفوز بالنجاح ، ويحصل لنا الترقى والصلاح ، ونسترحم إبلاغ معروضاتنا هذه من سعادتك إلى عرش الملك جورج الأعظم والأمر لمن له الأمر". حرر في 10 كانون الثاني 1919

نفس المصدر السابق. ص 49.

صورة مضبطة كربلاء: "حسب تبليغ حاكم الحلة لنا عن الدولة المفخمة البريطانية أنها قد تفضلت على العراقيين بطلب انتخاب أي أمير يختارونه وقد أمرنا أن نجتمع ونتداول الرأي في ذلك ثم تقدم النتيجة إلى حاكم كربلاء فتلقينا أمره بتمام الرغبة وقد سبق الوعد المنشور من الدولة المفخمة البريطانية الاتفاق مع الدولة الفرنسية بالعبارة الآتية وهي أن غرض الحكومتين من الحرب في الشرق تحرير الشعوب تحريراً تاماً نهائياً وإنشاء حكومات وإدارات وطنية في سوريا والعراق تقوم بها الشعوب بذاتها من خالص رغبتها ومحض اختيارها كما نشرته جريدة (العرب) نمرة 140 الصادرة في 15 تشرين ثاني سنة 1918 وقد اجتمعنا نحن أهالي كربلاء امتثالاً لأمركم وبعد مداولة الآراء وملاحظة الأصول الإسلامية وطبقاً لها تقرر رأينا على أن نستظل بظل راية عربية إسلامية فانتخبنا أحد أنجال الشريف ليكون أميراً علينا مقيداً بمجلس منتخب من أهالي العراق لتسنين القواعد الموافقة لروحيات هذه الأمة وما تقتضيه شؤونها تحريراً في اليوم الخامس عشر من شهر ربيع الأول سنة 1337 هجرية ، الموافق 19 كانون الثاني 1919. راجع في هذا الصدد: آل فرعون ، فريق المزهر. الحقائق الناصعة في الثورة العراقية لسنة 1920 ونتائجها. مصدر سابق. مقابل ص 65.

12 جميل ، حسين. العراق شهادة سياسية. 1908-1987. دار اللام. لندن. ص 86-90.

وقبل القيام بالاستفتاء وبعده واصلت سلطات الاحتلال تشكيل المجالس البلدية وتنسيب رئاسة الإدارة فيها والإشراف على نشاطها إلى المستشارين الإنجليز ، وإيصال المهام البلدية إليهم والإيحاء بكون هذه المجالس تعبر عن مضمون "الحكم الذاتي" الذي كان يطمح إليه العراقيون . وأثار هذا السلوك الاستعماري ردود فعل شديدة مناهضة للإجراء ورفض غالبية العراقيين المعينين كأعضاء في هذه المجالس مواصلة العمل فيها .

وفي إقليم كردستان دأبت سلطات الاحتلال البريطاني إلى فصله عن الإقليم العربي وتنسيب الإدارة فيه إلى الشيخ محمود حفيد زادة ، الذي قاد فيما بعد انتفاضة السليمانية في عام 1919 . وقد أدرك الشيخ حفيد زادة بعد فترة وجيزة المكيدة التي كانت تدبرها السلطات البريطانية لإزاحته من رئاسة إدارة الإقليم .13 وكانت أوساط الشعب الكردي حينذاك تعارض الوجود البريطاني وتقوم بمحاولات جادة للإغارة على الوحدات العسكرية البريطانية في مناطق كردستان والاقتصاص من المتعاونين مع المحتلين ، إذ كانت الرغبة في الاستقلال والسيادة أو الإدارة الذاتية ، كحد أدنى ، شديدة في صفوف المتنورين والمثقفين والنشطين سياسياً في صفوف الشعب الكردي في ضوء الوعود التي كانت قد أعطيت لهم في مجرى الحرب العالمية الأولى . وتمكن الشيخ محمود حفيد زادة من تعبئة الرأي العام الكردي حوله والانتفاض على سلطات الاحتلال في مايس/أيار عام 1919 ، وهي الحركة التي سميت في تاريخ العراق النضالي بانتفاضة السليمانية .

إن محاولات سلطات الاحتلال البريطاني الالتفاف على إرادة القوى الوطنية بتشكيل إدارات عراقية تخضع لأوامر المستشارين الإنجليز أثارت الشعب عموماً والقوى الواعية من البرجوازية الوطنية والبرجوازية الصغيرة وعلماء الدين وشيوخ العشائر . إلا أن هذه الاحتجاجات التي وجدت تعبيرها في ثورة العشرين وغيرها لم تنفع إذ أن هؤلاء واصلوا مخططهم بأساليب وطرق أخرى . فبادرت إلى تشكيل مجلس وزراء مركزي مؤقت يدير شؤون البلاد -عدا السليمانية- برئاسة شخص عراقي وتحت توجيه وإشراف المندوب السامي البريطاني السر برسي كوكس . وأنيطت رئاسة الوزارة إلى السيد عبد الرحمن الكيلاني ، نقيب أشراف بغداد والذي كانت له علاقات حميمة بالدولة العثمانية ، ولكنه أوجد علاقات مهمة ومتطورة مع الشركات البريطانية التي كانت تعمل في العراق قبل ذلك ومع القنصلية البريطانية في بغداد ، ومن ثم مع سلطات الاحتلال البريطاني . وكونت مجلس وزراء يضم ثمانية وزراء

14.

وخلال تلك الفترة انغمرت الحكومة البريطانية وسلطات الاحتلال في التفتيش عن شخصية عربية مسلمة يمكنها أن ترضي العراقيين من جهة ، وتستجيب لتعليمات وتنفيذ أهداف سلطات الاحتلال . وأجرت الحكومة البريطانية مداورات واسعة مع الشريف حسين ، كما تم تدبير عدة لقاءات بين الأمير فيصل ولويد جورج ، رئيس الحكومة البريطانية حينذاك ، في لندن ، ثم في أثناء انعقاد مؤتمر باريس عام 1919 ، وأخيراً في مؤتمر القاهرة في آذار/مارس من عام 1921 .15 وتحقق للإنكليز بأن الأمير فيصل ، الذي كان قبل ذلك "قائداً للجيش الشمالي الذي دخل دمشق (1918) ، وكان تابعاً لقيادة الجنرال "النببي"16 ، الذي أعلن ملكاً على سورية ،

13 لازريف. المسألة الكردية 1917-1923. ط 1. دار الرازي. بيروت. 1991 ص 68-74.

14 أحمد ، كمال مظهر. الباحث عن العرش في مذكرات لويد جورج. في : مجلة "أفاق عربية". العدد 9. السنة الثانية. 1977. بغداد. ص 108-128.

15 الحسني ، عبد الرزاق. الثورة العراقية الكبرى. مصدر سابق. ص 344-352.

16 جميل ، حسين. العراق شهادة سياسية 1908-1930. دار اللام. لندن. 1987. ص 58.

ولكنه أبعد عنها ، شخصية تتمتع بالصفات المطلوبة وبإمكانية بريطانيا على التعاون والتعامل معه في كافة المجالات دون أن يلحق بها أضراراً ، بل ينفعها 17 ، كما أنها تلبي بذلك طموحات الشريف حسين في تولي أبنائه عروش بعض الدول العربية . وقد تم فعلاً تنصيب الأمير فيصل ملكاً على العراق في 11 تموز/ يوليو عام 181921 ، بعد أن أزيحت بقية الشخصيات التي كانت تطمح بالعرش على العراق ، وبخاصة الشخصية البصرية المعروفة السيد طالب النقيب . كما تمت في ذات الفترة ، أي في آذار/مارس من عام 1921 ، عملية تنصيب عبد الله بن حسين أميراً على شرقي الأردن بعد أن تم فرزها عن ولاية الشام واعتبارها إمارة وأرضاً منتدبة وشمولها بشروط صك الانتداب على فلسطين ووضعها تحت الانتداب البريطاني 19 .

كانت الأطماع البريطانية في العراق في أعقاب الحرب العالمية الأولى متجهة نحو فرض الانتداب الكامل وتنصيب المندوب السامي البريطاني ، باعتباره السلطة المركزية في البلاد وعلى غرار هيمنتها على الهند ، لضمان التطبيق الفعلي لاتفاقية سايكس-بيكو التي عقدت بصورة سرية بين بريطانيا وفرنسا في الفترة 15-17 من شهر مايس/ أيار عام 1916 التي أقرت من جانب روسيا القيصرية بعد مفاوضاتها معها في بتروغراد . وكانت الدولة السوفيتية الفتية قد قامت بنشر جميع الوثائق السرية التي عقدتها روسيا القيصرية مع الدول الاستعمارية لتقسيم مناطق نفوذ الدولة العثمانية بين الدول الاستعمارية الثلاث بريطانيا وفرنسا وروسيا 20.

## 1 . المعاهدات العراقية-البريطانية

عهد المندوب السامي والملك فيصل الأول إلى السيد عبد الرحمن الكيلاني ، نقيب بغداد ، بتشكيل حكومته الثانية بعد أن قدمت استقالته في أعقاب انتهاء مراسيم تتويج فيصل ملكاً على العراق واعتبار العراق دولة ملكية دستورية . وكانت كل الدلائل تشير إلى احتمال بدء مرحلة صعبة في العراق بسبب القضايا التي كان المندوب السامي يسعى إلى تحقيقها ، وخاصة عقد معاهدة تضمن الهيمنة الفعلية على العراق وتعوض عن حالة الانتداب التي يرفضها الشعب لتسبق بذلك وضع الدستور الذي حددت لوضعه ثلاث سنوات من تاريخ بدء الانتداب 21 . ولم يكن اختيار عبد الرحمن النقيب من جانب المندوب السامي اعتبارياً ، بل اعتمد على قناعته بإخلاص النقيب في صداقته لبريطانيا وقناعته الشخصية بأنها الدولة المنتصرة في الحرب التي يحق لها التصرف بالعراق كما تشاء ، كما أنها دولة قوية قادرة على دعم ومساعدة العراق . كان النقيب على علاقة مباشرة بمس بل وعبر لها عن أفكاره تلك حين قال لها: "خاتون إن أمتكم عظيمة وغنية وجبارة . فأين قوتنا؟ أنا أعترف بانتصاركم . . فأنتم الحاكمون وأنا

17 يشير الكاتب هنري هيبلي في كتابه "إنجلترا في الشرق الأوسط الملكية في العراق ومشكلة الموصل" إلى أنه كانت لجيتروود بل علاقات صداقية حميمة وقلبية مع فيصل بن الحسين نشر عن ذلك بعد وفاتها ، وكان لها الدور البارز في ترشيحه واختياره ملكاً على العراق. راجع في هذا الصدد:

Hoepli, Henry. England im Nahen Osten. Das Koenigreich Irak und die Mossulfrage. Verlag Palm & Enke in Erlangen. 1931. S. 75.

18 إبراهيم علي. طالب النقيب صريع التاج في العراق. في مجلة آفاق عربية. مجلة عراقية. بغداد. العدد 8. السنة 2. 1976. ص 86-93.

19 كوتلوف ، ل. ن. وليبيديف ، ي. ا. الأردن. في كتاب "تاريخ الأقطار العربية المعاصر". مصدر سابق. ص 241.

20 - آل فرعون ، فريق المزهري. الحقائق الناصعة في الثورة العراقية لسنة 1920 ونتائجها. ط 1. مطبعة النجاح. بغداد. 1952. ص 53.

- أنطونيوس ، جورج. يقظة العرب. مصدر سابق. ص 271.

21 الخطاب ، رجاء حسين حسني. العراق بين 1921-1927. دار الحرية للطباعة. بغداد. 1976. ص 21.

المحكوم . وإذا سنلت عن رأيي في استمرار الحكم البريطاني ، فإن جوابي هو أنني خاضع للمنتصر"22 . وكتب حسن العلوي عن النقيب يقول: "وقال النقيب للمس جيرترود بل ، أنكم بذلتم الأموال والنفوس في سبيل ذلك ولكم الحق في أن تنعموا بما بذلتكم"23 . يضاف إلى ذلك أن المندوب السامي نصح الحكومة البريطانية بمنح النقيب وسام الإمبراطورية البريطانية لتعزيز العلاقة به واستخدامه والاستفادة من نفوذ عائلته الاجتماعي لأغراض بريطانيا القادمة . وقد تحقق هذا فعلاً24 .

بدأت بريطانيا بالتحضير للمفاوضات مع الجانب العراقي من أجل حسم الموقف لصالحها إزاء المعاهدة حتى قبل إقرار القانون الأساسي العراقي وتشكيل المؤسسات الدستورية التي بموجبها يمكن المصادقة على المعاهدة الجديدة مع بريطانيا . إلا أن هذا الاتجاه واجه صعوبات فعلية لثلاثة أسباب: (1) رغبة الملك في عدم تجاوز الشعب ، خاصة وأن ثورة العشرين قد علمته درساً مهماً في كون الشعب يريد الحصول على الاستقلال الناجز وليس الاستقلال الشكلي حيث تكون الكلمة الأخيرة لبريطانيا وليس للشعب ، رغم أنه لم ينس فضل بريطانيا عليه في جعله ملكاً على العراق؛ (2) وجود قوى داخل الحكومة ذاتها كانت تريد تأمين الغطاء الشرعي للمعاهدة دون أن تتعرض لنقد المعارضة خارج الحكم ، إضافة إلى الشعور الوطني لدى البعض الآخر وخشيتها من أنها يمكن أن تتجاوز على حقوق الناس وتعيق الحصول على الاستقلال في حالة الموافقة على المعاهدة قبل إنجاز التشريعات والمؤسسات الدستورية؛ (3) تصاعد دور المعارضة العراقية خارج الحكومة والتي تمثلت في الحزبين السياسيين حينذاك ، إضافة إلى نشاط المثقفين وعلماء الدين الذين رفضوا مساندة توقيع أي معاهدة مع بريطانيا لا تستجيب لمصالح الشعب واستقلاله التام . ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أن المعارضة المنظمة كانت تريد نقل ساحة الصراع إلى الشارع العراقي وجعله يدور مباشرة بين الشعب وسلطات الاحتلال بدلاً من حصره في أروقة مجلس الوزراء والقصر الملكي ودار الاعتماد ، أي مقر المندوب السامي البريطاني . ولهذا السبب أمكن إطالة فترة المفاوضات بين الأطراف الثلاثة المندوب السامي (الممثل لوزارة المستعمرات البريطانية) والحكومة العراقية والملك ، إضافة إلى دور المعارضة غير المباشر ، وبالتالي أجبر المندوب السامي البريطاني على البدء في التحضير للقانون الأساسي العراقي ، إذ أصبح من باب المستحيل التصديق على المعاهدة قبل انتخاب ممثلي المجتمع العراقي . ورغم كل المحاولات التي بذلت من أجل وضع معاهدة تحالف بين طرفين ندين من جانب الملك أو بعض العناصر المسؤولة في الحكومة على نحو خاص ، جاءت المعاهدة في المحصلة النهائية بمثابة تأكيد غير مباشر لمضمون صك الانتداب وإصرار على بقاء بريطانيا سيدة الموقف والمسؤولة الفعلية عن السياسة العراقية ، الداخلية منها والخارجية ، عبر المندوب السامي وبقية المستشارين البريطانيين العاملين في الوزارات وفي الإدارات المحلية وبقية المرافق الأساسية . ولكنها في الوقت نفسه برزت استقطاباً جديداً في القوى المساندة للوجود والسياسة البريطانية وتلك التي تعارضهما . وكان أمد مشروع المعاهدة الأولى التي وضعت من قبل بريطانيا في نهاية عام 1921/1922 قد حدد بعشرين عاماً قابلاً للإنهاء أو التعديل أو التمديد وفق الظروف الملموسة ، علماً بأن مدة المعاهدة

22 العلوي ، حسن. التأثيرات التركية في المشروع القومي العربي في العراق. دار الزوراء. لندن. 1988. ص 89.

23 نفس المصدر السابق.

24- نفس المصدر السابق. ص ص 17-89.

- الحسني ، عبد الرزاق. تاريخ الوزارات العراقية. الجزء الأول. الطبعة الرابعة الموسعة. مطبعة دار الكتب. بغداد. 1974. ص



قدُقلت فيما بعد إلى أربع سنوات لتحل محلها معاهدة ثانية ، أي معاهدة عام 1926 ، ثم تبعتها معاهدة ثالثة في عام 1927 ، وأخيراً وضعت المعاهدة التي كانت تسعى بريطانيا إلى توقيعها ، وهي المعاهدة الرابعة في سلسلة المعاهدات خلال سنوات العقد الثالث ، معاهدة 1930 والملحقين العسكري والمالي ، إضافة إلى الاتفاقية العدلية الجديدة . ولم تكن تلك المعاهدات المتتابعة تختلف عن بعضها كثيراً<sup>25</sup> ، إلا في زيادة ثقل التزامات العراق إزاء بريطانيا ومصالحها .

تشير كثرة من الدراسات إلى أن رئيس الوزراء عبد المحسن السعدون لم يجرأ على التوقيع على تلك المعاهدة وملاحقتها ، بل فضل الانتحار ليتخلص من عبء اتهامه بالخيانة للوطن ، وفق الرسالة التي تركها لابنه قبل انتحاره ، علماً بأن نص الرسالة لم ينشر بالكامل ، إذ تضمنت معلومات إضافية لم ير المسؤولون حينذاك من مصلحتهم نشرها . كما لم تتوصل التحريات في العثور على النص الأصلي للرسالة حتى الآن . إن انتحار عبد المحسن السعدون لا يعني أنه كان على خلاف شديد مع بريطانيا أو أنه لم يكن شديد الولاء لبريطانيا ، كما كان عليه حال عبد الرحمن النقيب ، وساعياً إلى تأمين المصادقة على المعاهدة ، ولكن جوبه بمناورات من المجموعة التي كانت معه والتي كانت تسعى في أن يكون لها موقع المؤثر والقادر على إنجاز عقد المعاهدة لصالح بريطانيا ، والذي تحقق فعلاً بالوزارة التي شكلها نوري السعيد فيما بعد . واستقالت أكثر من وزارة عراقية لأنها لم تجد في تلك المعاهدة وملاحقتها ما يفيد العراق ويخدم مصالحه ، أو أنها لم تجرأ على توقيع المعاهدة خشية تفجر الأوضاع . وإزاء هذا الوضع بادر الملك فيصل الأول إلى دعوة نوري السعيد ، وبمبادرة من المندوب السامي البريطاني ، الذي عرف بعلاقته الحميمة بالدولة البريطانية وسلطات الاحتلال في بغداد ، وتكليفه بتشكيل وزارة جديدة في آذار من عام 1930 لكي تخلف وزارة توفيق السويدي المستقيلة ، بعد أن رفضت التوقيع على المعاهدة ، رغم مشاركة الوزارات السابقة بصياغة تلك المعاهدة بشكل عام والتمهيد العملي للتوقيع عليها ، ليكون نوري السعيد الأداة المباشرة القوية القادرة على فرض الاتفاقية على مجلس النواب والشعب العراقي<sup>26</sup> وهو ما

25 البرقاوي ، أحمد رفیق. العلاقات السياسية بين العراق وبريطانيا 1922-1932. منشورات وزارة الثقافة والإعلام. الجمهورية العراقية. سلسلة دراسات 217. دار الرشيد للنشر. بغداد. 1980. ص 233-235.

26 أورد الدكتور كمال مظهر أحمد مقطعا من جريدة "الفرات" العراقية التي كانت تصدر في فترة ثورة العشرين عن نوري السعيد جاء فيه ما يلي: "وسوف ترفعون شأن القطر وتعلون مكانته في انظار الأمم والشعوب بهذا المظهر الشريف الذي تظهرون به من حين لآخر كأمة راقية متحدة تطلب حقها الطبيعي بالاستقلال التام ، مما حمل كثيراً من الأمم على أن تفكر فيكم وتهتم بمصيركم ، وخصوصاً تلك الدولة التي تحتل جيوشها بلادكم اليوم. فإن حركات ساستها وتصريحات رجالها وأقوال صحفها تدل دلالة واضحة على ما يخامرها من القلق العظيم والاهتمام الكبير بأحوال العراق. أصبحت هذه الدولة تسعى السعي الحثيث للمحافظة على نظام حكمها الحالي في العراق مع تغيير طفيف تهدئة للخواطر الثائرة وتسكيناً للنفوس في الوقت الحاضر. وقد علمت أنها لا تنجح وحدها في الوصول إلى غايتها هذه بدون مساعدة بعض أبناء البلاد نفسها ، فبذلت جهودها للحصول على ذلك ، وتوهمت أنها نجحت في تسخير بعض العراقيين إلى مآربها هذه ... ربما يحضر إليكم من الشام الجنرال نوري السعيد ليقوم بهذه المهمة المشار إليها التي أناطتها به السلطة البريطانية ، ألا وهي توطيد أركان الاحتلال وتثبيت أقدامه في العراق بمفاوضة العراقيين ودرس أفكارهم وتسكين خواطرهم وتعليقهم بالأمانى والمواعيد الكاذبة ، وربما اتخذت السلطة المحتلة جميع الوسائل المادية والمعنوية التي من شأنها أن تجعل لكلامه شأناً ، ولشخصه قبولاً أينما حل ، فتكثر من ذكر اسمه مقروناً بالجهر والثناء عليه ، وعلى مبادئه ، وتنتظر باحترامه وتبجيله ... لا نحتاج بعد هذا أن نبين لكم واجبكم الذي تقومون به إزاء هذا الرجل إذا فارقنا إليكم بهذه المهمة؛ وخصوصاً الاجتهاد بمقاطعته، والإعراض عن أقواله ، وتحذير الناس من الوقوع في حباله ، والسهر على تتبع خطواته ، ومراقبة حركاته ، وعرقلته مساعيه ... اتبالوا ، أيها الأخوان ، ولا تقيموا له وزناً ولو ادعى الكلام باسم الملك حسين والملكين فيصل وعبد الله ، أو باسم المؤتمر العراقي ، أو أي جمعية أخرى ، فإنه غير مخفوض ، ولا مرخص ، وهكذا يجب عليكم الإعراض عن كل أحد يرد عليكم من الشام ، وعدم مذاكرته بمسائلكم ما لم يكن بيده تفويض من المؤتمر العراقي الموجود في حضرة الشام ... فلا تفتروا عن ترويج دعوتكم ، وبت روح النهضة في الأمة بكل وسيلة مع المحافظة على قواكم لاستعمالها في حين الحاجة ، هذا ونحن ننظر موافاتكم بالأخبار الطيبة على الدوام". راجع في هذا الصدد: أحمد ، كما مظهر د. صفحات من تاريخ العراق المعاصر. مصدر سابق. ص 49-51. ويبدو أن كاتب المقالة كان على معرفة دقيقة بالمهمات التي أنيطت بالسيد نوري السعيد في العراق منذ بدء الثورة العربية ضد العثمانيين وبالتعاون مع البريطانيين.

حصل فعلاً ، رغم احتجاجات قوى المعارضة البرلمانية والشعبية ، إذ أنها لم تكن تختلف عن المعاهدة المصرية البريطانية التي فرضت على مصر رغم الرفض الذي قوبلت به من جانب قوى المعارضة والشعب المصري . وكانت المعاهدة بالصيغة التي تم التوقيع عليها مقبولة من الملك فيصل الأول ، رغم التحفظات التي كانت تدور بخلفه أو التي حاول تمريرها عبر علاقاته برؤساء الوزارات أو بالمفاوضين العراقيين .

فما هي طبيعة معاهدة 1930 وملاحقتها ، وما هي الأسباب التي دعت قوى المعارضة الوطنية والغالبية العظمى من المجتمع إلى رفضها والنضال الطويل ضدها والسعي إلى إلغائها؟ حولت معاهدة 1930 العراق الجديد ، الذي كان يطمح شعبه أن يصبح مستقلاً ومسؤولاً مباشراً عن بلاده وثرواته وعن سياسة الدولة الداخلية والخارجية من خلال الدخول في عصبة الأمم ، إلى تابع فعلي للهيمنة البريطانية المباشرة على العراق وخاضعا في قراراته السياسية للسفير البريطاني في بغداد ومن خلاله لوزارة المستعمرات البريطانية . فمفعول المعاهدة يبدأ مع قبول العراق عضواً في عصبة الأمم ، إذ عندها ينتهي مفعول لائحة الانتداب البريطاني على العراق . ويبدو الموقف السياسي الراض للمعاهدة في نصها الواضح على ربط العراق بمصالح وسياسات الدولة البريطانية بشكل مباشر لا يقبل اللبس ، حيث ورد فيها ما يلي: "المادة 1 - يسود سلم وصداقة دائمين بين صاحب الجلالة ملك العراق وبين صاحب الجلالة البريطانية ويؤسس الفريقان الساميان المتعاقدان تحالفاً وثيقاً توطيداً لصداقتهم وتفاهمهما الودي وصلاتهما الحسنة . وتجري بينهما مشاورات تامة وصريحة في جميع شؤون السياسة الخارجية مما قد يكون له مساس بمصالحهما المشتركة . ويتعهد كل من الفريقين المتعاقدين بالابقاء في البلاد الأجنبية موقفاً لا يتفق وهذا التحالف أو قد يخلق مصاعب للفريق الآخر" 27

كانت بنود المعاهدة السياسية وبنود ملاحقتها العسكرية والمالية والعدلية تعتبر تدخلاً فظاً في شؤون العراق الداخلية وثلماً كبيراً في سيادته على البلاد . فهي تفرض الوجود العسكري البريطاني في العراق لسنوات طويلة لاحقة ، إضافة إلى أنها تحول أرض العراق إلى ساحة للعمليات العسكرية البريطانية في أي حرب تخوضها بريطانيا مع الدول الأخرى ، إذ كان على العراق أن يقف في كل الأحوال إلى جانب بريطانيا في أي من الحروب المحتملة . كما ربطت القوات المسلحة العراقية ، من حيث الأسلحة والتدريب والخبرة والمشورة والخبراء والمدربين ، بالقوات المسلحة البريطانية ، بحيث تبدو وكأن القوات المسلحة العراقية جزء من القوات المسلحة البريطانية ، إذ لا يحق للعراق استخدام عسكريين غير بريطانيين كخبراء ومدربين في القوات العراقية ، أو شراء أسلحة من دولة ثالثة ، كما لا يجوز إرسال البعثات الدراسية العسكرية والتدريب العسكري إلى بلد ثالث ، ويبقى حصراً ببريطانيا . كما لا يحق للعراق عقد اتفاقيات عسكرية مع دولة ثالثة دون موافقة بريطانيا على ذلك . ويتحمل العراق نفقات كل ذلك ، إضافة إلى مسؤوليته في وضع قواته وإمكاناته العسكرية في خدمة القوات البريطانية لصالح الحرب التي تخوضها ضد دولة ثالثة . ويقرر ملحق المعاهدة إعفاء القوات البريطانية من الضرائب على ما تدخله للعراق من مواد ، سواء كانت للأغراض العسكرية أو غيرها وتأمين المواقع العسكرية التي تحتاجها القوات البريطانية لإقامتها في الأراضي العراقية ، إضافة إلى تأمين الحماية للقوات البريطانية الجوية ، وتأمين التسهيلات الممكنة لمرور قوات

27 البرقاوي ، أحمد رفیق. العلاقات السياسية بين العراق وبريطانيا 1922-1932. مصدر سابق. نص معاهدة 1930. ص 226.

صاحب الجلالة البريطانية من جميع الصنوف العسكرية عبر العراق ، ولنقل وخزن جميع المؤن والتجهيزات التي قد تحتاج إليها هذه القوات في أثناء مرورها بالعراق .. إلخ .

وحملت الاتفاقية المالية العراق الكثير من التبعات المالية بما فيها شراء مخلفات المواقع العسكرية البريطانية أو تأمين الرواتب للخبراء والمستشارين البريطانيين المفروضين على العراق ، وضرورة عدم مطالبة الحكومة العراقية حكومة بريطانيا بدفع إيجارات للمواقع العسكرية والمطارات التي تستخدمها القوات البريطانية ، كما نصت على نقل ملكية سكك الحديد إلى الحكومة العراقية على أن تشكل لها نقابة مستقلة تدير شؤونها تشارك فيه بريطانيا باثنين من خمسة على أن يتم الاتفاق على رئيس النقابة . كما تدفع النقابة إيجارا ترضى به الحكومة البريطانية ، مع مساهمة الأخيرة برأسمال الشركة وأرباحها .

وتضمن الملحق العدلي لمعاهدة 1930 جملة من المواد التي تكشف بوضوح مضمون هذه المعاهدة غير المتكافئة في غير صالح العراق ، منها مثلاً:

- استخدام عدد محدود من الخبراء القانونيين في وزارة العدلية ، وفي محاكم العراق ... على أن يخول هؤلاء الخبراء سلطات قضائية وفقاً لقوانين العراق بشروط لا تقل ملائمة عن الشروط الموضوعية في اتفاقية الموظفين البريطانيين وبعقود مدتها عشر سنوات .
- وكان هذا يعني: تعيين مستشار قضائي بريطاني ، ورئيس بريطاني لمحكمة الاستئناف والتمييز ، ورؤساء بريطانيين لمحاكم البداءة والكبرى في بغداد والبصرة والموصل وفي غيرها أيضاً .
- يلتزم العراق بدفع رواتب ومخصصات هؤلاء الموظفين الأجانب .

## 2 . القانون الأساسي العراقي لعام 1925

في الوقت الذي كانت المفاوضات تسير ببطء ملموس في وضع صيغة المعاهدة العراقية - البريطانية لتعرض بعد التصديق عليها على عصابة الأمم ، بدأت لجنة حكومية بوضع القانون الأساسي العراقي (الدستور) ابتداءً من أيلول/سبتمبر عام 1921 ، التزاماً من بريطانيا بما ورد في المادة الأولى من لائحة الانتداب التي أكدت على أن: "المنتدب يضع في أقرب وقت ، لا يتجاوز ثلاث سنين من تاريخ تنفيذ الانتداب ، قانوناً أساسياً للعراق يعرض على مجلس جمعية الأمم للمصادقة فينشره سريعاً ، وهذا القانون يسن بمشورة الحكومة الوطنية ويبين حقوق الأهالي الساكنين ضمن البلاد ومنافعهم ورغائبهم ، ويحتوي على مواد تسهل تدرج العراق وترقيه كدولة مستقلة . وفي الفترة قبل العمل بالقانون الأساسي تجري إدارة العراق طبقاً لروح الانتداب" 28 . وتضمنت مسودة المعاهدة الأولى التي وضعتها بريطانيا نصاً يشير إلى ما يلي:

"على فيصل أن يصوغ بالتشاور مع المندوب السامي والسلطات الوطنية قانوناً أساسياً يأخذ على عاتقه جميع حقوق ومصالح ورغبات جميع سكان العراق ويطبق بشكل فعال المادتين 8 و 11 من صك الانتداب" 29 .

قبل أن يصبح فيصل بن الحسين ملكاً على العراق ، وبعد أن خسر موقعه كملك على بلاد الشام وغادر سوريا إلى ميلانو ، بادرت السلطات البريطانية بالتفاوض معه لإسناد منصب الملوكية له على العراق . كان ذلك في تموز عام 1920 ، أي بعد فترة وجيزة من اندلاع ثورة الثلاثين

28 الحسني ، عبد الرزاق. تاريخ الوزارات العراقية. الجزء الأول. مصدر سابق. لائحة الانتداب البريطاني على العراق. ص 279.  
29 الخطاب ، رجاء حسين حسن. العراق بين 1921-1927. مصدر سابق. ص 158/157.

من حزيران من نفس العام في العراق . ولم يكن فيصل في موقع يستطيع معه أن يكون مفاوضاً قوياً قادراً على فرض شروطه على الطرف البريطاني ، بل كان في موقف الضعيف الذي غادر سوريا على إثر حادثة ميسلون في العشرة الأخيرة من شهر تموز من نفس العام 30 . ولكن السلطات البريطانية كانت هي الأخرى في موقف حرج بسبب ثورة الوسط والجنوب في العراق أمام عصبية الأمم ، وكانت تريد إنهاء الوضع لصالحها بالسرعة الممكنة ، كما إنها كانت تريد إرضاء عائلة الحسين بن علي (1856-1931 م) بعد أن تنكرت لكل وعودها السابقة . وتمكنت بريطانيا من الاتفاق مع الأمير فيصل على شروط تنسجم مع المضمين الأساسية لللائحة الانتداب ومع أهدافها في العراق ، ومنها وضع قانون أساسي يستجيب لمصالح بريطانيا ويتجاوز مع التحولات التي تتوقعها عصبية الأمم ويأخذ بالاعتبار بعض المطالب التي طرحتها ثورة العشرين دون اعتبار فعلي لما طالب به الأكراد في انتفاضة 1919 ، إضافة إلى عقد معاهدة بين بريطانيا والعراق تكرر الانتداب وتكرس الوجود والهيمنة البريطانية إلى ما بعد الانتداب . وامتلك الطرف البريطاني مجموعة من قضايا وأدوات الضغط على الطرف العراقي من أجل تحقيق أهدافه المتوخاة ، ومنها عقد معاهدة تشد العراق إلى بريطانيا شداً تبعياً محكماً وطويلاً . وأولى تلك القضايا كانت ولاية الموصل ، أما الثانية فكانت القضية الكردية . ولم يكن ، كما يبدو ، أمام فيصل الأول إلا الموافقة على ما أرادته بريطانيا ، خاصة وكان في العراق أكثر من شخص قد رشح نفسه أو رشح ليكون ملكاً عليه ، إضافة إلى وجود أكثر من نجل واحد للحسين يمكن المساومة عليه وإسناد الملوكية له حينذاك . وكان التفاوض مع فيصل قد تحدد في ضوء ما جاء في لائحة الانتداب وما تريده بريطانيا في العراق ، إذ كانت بريطانيا غالباً ما تذكر الملك فيما بعد بالاتفاقات التي تمت بينهما عندما كان ينشأ أي تباين أو خلاف في وجهات النظر بين الطرف البريطاني والطرف العراقي في المفاوضات حول المعاهدة العراقية البريطانية على نحو خاص .

- كلف المندوب السامي البريطاني لجنة من دار الاعتماد البريطاني في بغداد بوضع مسودة لائحة القانون الأساسي العراقي لعرضها على وزارة المستعمرات أولاً ، وبعد الموافقة عليها تعرض على الطرف العراقي للمفاوضة بشأنها . تضمنت المسودة الأولى الاتجاهات التالية:
- الرغبة في تكريس الهيمنة البريطانية وفي امتلاك المندوب السامي الممثل لملك بريطانيا القرار النهائي في ما يصدر عن الدولة العراقية الحديثة من تشريعات وقوانين وقرارات وإجراءات على الصعيدين الداخلي والخارجي؛
  - الرغبة في منح العراق قانوناً أساسياً مدنياً حديثاً نسبياً يختلف عن الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي القائم حينذاك ، أي يختلف في مضامينه ووجهته عن واقع بلد خرج لتوه من هيمنة عثمانية إقطاعية شديدة الاستبداد والتخلف والتعصب القومي والديني والطائفي ، وفي مجتمع ما يزال يرزح تحت سيادة العلاقات البدوية الأبوية والإقطاعية البالية ، رغم وجود رغبة صادقة وملحة في أوساط المثقفين والمتعلمين ، وهم قلة في المجتمع ، للخلاص من تلك الأوضاع المزرية والسير على طريق التمدن؛
  - الرغبة في تجاوز مطالب الأكراد في إقامة الدولة الكردية المستقلة أو الحكم الذاتي للمنطقة الكردية الجنوبية ، ولكنها في الوقت نفسه تسعى إلى تأكيد أهمية تمتع الفرد العراقي ، بغض النظر عن قوميته ولغته ودينه ، بالحرية والحقوق الأساسية في العراق الجديد . ولم

تكن هذه الرغبة تمس الأكراد وحدهم ، بل كانت تشمل أيضاً الكلدان والآشوريين والأرمن والصابئة وبقية الأديان والطوائف؛

• وإذا كانت الرغبة في أن يكون العراق بلداً ديمقراطياً يحترم القوميات والأديان والطوائف المختلفة والحريات الفردية من جهة ، فأنها كانت من الجهة الأخرى محكومة بمصالح دولة استعمارية تريد فرض بعض الآليات التي يمكن أن تفرغ العمل الديمقراطي من محتواه الأساسي لتحقيق عبر ذلك ما يخدم تلك المصالح ويكرس الوجود أطول فترة ممكنة . إذ كانت ترى حتى بعد ثورة العشرين بأن المجتمع العراقي ، وبسبب ضعف مستوى تطوره مؤهل لحكم نفسه بنفسه ، بل يحتاج إلى يد قوية كاليد البريطانية الاستعمارية تساعده على التقدم والتطور ، كما كانت تعمل حينذاك في الهند!

وعلى هذا الأساس لم يكن سهلاً على الطرف العراقي ، الذي شكل لجنة خاصة مختلطة تضم بريطانيين من دار الاعتماد إلى جانب اثنين من العراقيين ، تحقيق الرؤية التي كانت تدور في بال الوطنيين العراقيين . وكان الحوار صعباً وطويلاً ، خاصة وأن الطرف العراقي ، الحكومة والمعارضة ، كانت تتنازع مختلف المصالح والاتجاهات والأفكار ، إذ كان فيه من هو إلى جانب الرأي البريطاني بحدود معينة ، كما كان فيه من يعارض بريطانيا في رأيها كلية . وكان على الجانبين إنجاز المهمة بسرعة وعرض المسودة على المجلس التأسيسي لإقرارها ، وبالتالي إقرار المعاهدة العراقية البريطانية بصيغتها النهائية التي وضعت لصالح بريطانيا وانتدابها وهيمنتها على العراق قبل ذلك . وكان لا بد خلال تلك الفترة انتخاب المجلس التأسيسي الذي يأخذ على عاتقه إقرار كل ذلك . وكان للمندوب السامي البريطاني دوره المباشر في التأثير على انتخاب المندوبين للمجلس والذي شكل محورا لصراع شديد بين الطرفين .

كانت تريد بريطانيا فرض هيمنة الملك على القرارات والتشريعات التي يصدرها مجلس النواب وسياسات مجلس الوزراء أولاً ، ثم فرض إرادتها وهيمنتها الحاسمة على قرارات الملك ثانياً . ولكن الطرف العراقي ، وبدفع من المعارضة العراقية ، تمكن الانتصار لصالح الشرعية الديمقراطية من حيث التشريع على الأقل ، إذ أصر على الأسس الديمقراطية التي كانت سائدة حينذاك في هذا المجال في بقية الدول الديمقراطية وأدخلها في صلب القانون الأساسي . ولهذا يمكن اعتبار القانون الأساسي العراقي لعام 1925 أحد المكاسب الجوهرية المهمة في الصراع الذي دار بين الطرف العراقي والسلطة البريطانية لصالح العراق ، رغم ما فيه من نواقص وتقييدات ، ورغم ما اقترن بذلك من تشويهات في الممارسة العملية لبنود القانون الأساسي والقانون الصادر على أساسه فيما بعد .

تضمن القانون الأساسي جملة من المبادئ والأفكار التي تضمنت من حيث التشريع الشخصية المستقلة ذات السيادة للدولة العراقية الملكية الحديثة وتؤمن حقها في انتهاج سياسات ديمقراطية على الصعيدين الداخلي والخارجي . وكان الخلل الكبير في هذه العملية قد نشأ من الاتفاقية العراقية البريطانية التي فرضتها السلطات البريطانية والتي كانت تؤمن من خلالها التجاوز على ما في الدستور من أسس ديمقراطية لصالح تمشية سياساتها ومصالحها ، وهو ما تحقق فعلاً قبل وأثناء وفي أعقاب إقرار القانون الأساسي .

حرص المفاوض العراقي ابتداءً الدفاع عن مصالح العراق والشعب العراقي إزاء المصالح البريطانية وقد تجلى ذلك في الواجهة العامة للقانون الأساسي وما تضمنه من دفاع عن حرية الرأي والعقيدة والمواطنة المتساوية بغض النظر عن القومية والدين واللغة والجنس ، إذ

تضمن القانون الأساسي في مادته الثانية النص التالي: "العراق ذات سيادة مستقلة حرة ملكها لا يتجزأ ، ولا يتنازل عن شيء منه ، وحكومته ملكية وراثية ، وشكلها نيابي" . أما المادة السادسة منه فقد تضمنت ما يلي: "لا فرق بين العراقيين في الحقوق أمام القانون وإن اختلفوا في القومية والدين واللغة" . وأكدت المادة السابعة على أن: "الحرية الشخصية مصونة لجميع سكان العراق من التعرض والتدخل ، ولا يجوز القبض على أحدهم ، أو توقيفه ، أو معاقبته ، أو إجباره على تبديل مسكنه ، أو تعريضه لقيود ، أو إجباره على الخدمة في القوات المسلحة إلا بمقتضى القانون . أما التعذيب ونفي العراقيين إلى خارج المملكة فممنوع بناتاً" 31 .

وأكد القانون الأساسي العراقي على الحقوق السياسية والمدنية للمواطن العراقي حين تضمنت المادة الثانية عشرة النص التالي: للعراقيين حرية إبداء الرأي ، والنشر ، والاجتماع ، وتأليف الجمعيات والانضمام إليها ، ضمن حدود القانون . كما منحت المادة الثالثة عشرة حرية الاعتقاد والقيام بشعائر العبادة وفقاً للعادات ، مع تأكيده على أن دين الدولة هو الإسلام ، وأن القانون يرفض العادات المخلة بالأمن والنظام التي تتنافى مع الآداب العامة . وقرر القانون أن تكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية للدولة العراقية ، ولكنه منح الفرصة لاستخدامات أخرى حين قال في المادة السابعة عشرة: "العربية هي اللغة الرسمية سوى ما ينص عليه بقانون" 32 .

ويلاحظ أن القانون الأساسي قد تجنب ذكر الأكراد والأقليات القومية الأخرى في العراق استناداً إلى مسألتين هما:

1. لم يكن الموقف من المنطقة الكردية قد حسم من جانب بريطانيا وعصبة الأمم ، رغم أن الاتجاه البريطاني كان واضحاً في جعل ولاية الموصل وكل المنطقة الكردية التي كانت في إطار تلك الولاية في العهد الأخير من الدولة العثمانية قبل انتهاء الحرب العالمية الأولى ضمن حدود العراق الحديث؛

2. أخذ القانون بمبدأ الفرد والحرية الفردية والمساواة بين الأفراد وفق القانون الفرنسي بدلاً من الأخذ بحق الجماعات المختلفة .

ولم يتغير القانون الأساسي حتى بعد دمج المنطقة الكردية بالدولة العراقية الجديدة ، رغم التوصيات والمواقف التي اتخذتها اللجان الخاصة التي شكلتها عصبة الأمم لدراسة الوضع في المنطقة الكردية حينذاك وتأكيدهم على حق الأكراد ورغبتهم في أن تكون لهم إدارة خاصة تستخدم الأكراد واللغة الكردية وكذلك استخدام اللغة الكردية في التعليم... الخ .

وبرزت إشكاليات العراق فيما بعد لا في القانون الأساسي ذاته ، إذ كان على العموم ديمقراطياً حديثاً وأبعد من مستوى التطور الاقتصادي والاجتماعي في العراق حينذاك ، بل في القوانين التي كان عليها أن تنظم الممارسات الفعلية للقانون الأساسي ، أي للتشريعات اللاحقة التي أساءت لمضمون القانون الأساسي . كما لعبت هيمنة الانتداب البريطاني وما نتج عنها من عقد معاهدات غير متكافئة مع العراق ومخلة باستقلاله وسيادته الوطنية وما ارتبط بها من فرض سياسات واتجاهات في الممارسة العملية وما نشأ عنها من تشريعات تفصيلية وإجراءات عملية دورها الأساسي في الإخلال بمضامين القانون الأساسي وتشويه سمعته عند العراقيين ، إضافة إلى المآخذ التي كانت فيه بالاستناد إلى ظروف المرحلة التي وضع فيها .

31 الحسني ، عبد الرزاق. تاريخ العراق السياسي الحديث. الجزء الأول. مصدر سابق. ص 268/267.

32 نفس المصدر السابق. ص 268.

### 3- منح امتيازات النفط لشركات النفط الاحتكارية

وجدت المصالح الاقتصادية البريطانية الاستعمارية طريقها إلى العراق منذ القرنين السابع عشر والثامن عشر . وابتداءً من القرن التاسع عشر أصبحت لبريطانيا أولاً وفرنسا بالدرجة الثانية علاقات اقتصادية تجارية متميزة مع العراق . وكانت هناك محاولات جادة من جانب ألمانيا وروسيا للظفر بموقع تحت الشمس في العراق وتأمين الحصول على مشاريع اقتصادية لتوظيف رؤوس أموالها فيها والسيطرة على الطرق التجارية وأسواق المنطقة الموصلة إلى سواحل الهند . وحظيت ألمانيا بقدر غير قليل من التفوق في الحصول على امتياز مدّ سكة حديد بغداد ، غير إنها ونتيجة التدخل البريطاني والفرنسي لم تستطع القيام بمد هذا الخط عملياً . وعندما تسنى لبريطانيا في عام 1917 احتلال العراق عسكرياً وطرد القوات العثمانية منه ، سعت إلى تعزيز مواقعها الاقتصادية وغلبة رؤوس أموالها في النشاط التجاري وفي النقل والمواصلات ، وفيما بعد قامت بتوظيف رؤوس أموالها في بعض مجالات الاقتصاد العراقي الأخرى ، وخاصة في قطاع صناعة النفط الخام الاستخراجية وإلى حد ما في زراعة القطن . وفي سبيل تحقيق هذا الهدف تعاونت مع مجموعة من التجار العراقيين التي تعاملت معها قبل الاحتلال المباشر للعراق . وكانت أهمية العراق بالنسبة إلى بريطانيا لا تكمن في سوقه التجارية فحسب ، بل وفي موقعه الجغرافي على طريق الهند وفي الموارد الأولية المطمورة في أرضه . وكانت في سعيها تستهدف الهيمنة على تلك الخصائص الثلاث التي تميز بها العراق ، خاصة وأن الهند كانت حينذاك مستعمرة تابعة للتاج البريطاني .

أدى التعاون بين الشركات التجارية الأجنبية وفئة التجار العراقيين إلى إجراء تقسيم عمل بينهما باتجاه هيمنة الأولى على الصادرات العراقية ، في حين أنيطت عمليات الاستيراد من بريطانيا حصراً تقريباً بالشركات العراقية تحت إشراف ومراقبة الشركات التجارية الأجنبية . وعبر هذا التعامل وتقسيم العمل أرسيت علاقات تحالف اقتصادي وسياسي بين الاحتكارات الأجنبية والتحالف الطبقي الرجعي الحاكم في غير صالح العراق . وكان الهدف من وراء هذا التحالف السياسي-الاقتصادي تحقيق ما يلي:

- + ضمان أسواق ثابتة للسلع المصنعة العائدة للاحتكارات البريطانية؛
- + ضمان الهيمنة على صادرات النفط الخام وصادرات السلع الزراعية المنتجة أساساً للمصانع البريطانية أو للسوق الاستهلاكي البريطاني؛
- + إعاقاة تنمية الصناعات الوطنية التي كانت تعني بدورها إعاقاة نمو وتطور البرجوازية الصناعية والطبقة العاملة؛
- + توجيه التنمية بما يسهم في استمرار التبعية وإعاقاة التراكم البدائي الضروري للرأسمال المحلي والاستحواذ على القسم الأعظم من الموارد المالية وتصديرها إلى الخارج؛
- + تنشيط النزعة الاستهلاكية والبذخية التي تتميز بها فئات الإقطاعيين وكبار ملاك الأراضي الزراعية والبرجوازية الكومبرادورية ، وبالتالي صرف القسم الأكبر من الدخل القومي الذي كانت تستولي عليه هذه الفئات بعد اقتسامه مع الشركات الاحتكارية الأجنبية ، على استيراد واستهلاك السلع الاستهلاكية والكمالية .

مع بدء الاحتلال البريطاني للعراق وسعت الاحتكارات البترولية الدولية نشاطها الاقتصادي وتحرياتها الفنية والتنقيب عن النفط الخام لتوظيف رؤوس أموالها فيه . كما عمدت إلى توسيع

دورها في عمليات استيراد وتصدير السلع والمواد الأولية المختلفة . وأقترن كل ذلك بتسليط استغلال شديد على العاملين في مشاريع هذه الشركات ، رغم أن أوضاعهم كانت أفضل من أوضاع بقية الشغيلة في المشاريع التابعة للقطاع الخاص المحلي . وأصبح قطاع النفط الخام الاستخراجي يحتل المركز الرئيسي في توظيفات الرأسمال الأجنبي في الاقتصاد العراقي والمجال الأساسي لإرباحه ، إضافة إلى تحول الإدارة البريطانية والمستشارين البريطانيين ، وخاصة في قطاع النفط الخام والسكك الحديد إلى دولة فعلية داخل الدولة العراقية . ومن هنا جاء قول فهد النائب ، عندما كتب عن إضرابات عمال السكك الحديد ، إذ قال بأن "الحكومات العراقية المتعاقبة هي طيارات ورقية خيوطها بيد سمث وآل سمث" 33 . كما هيمنت هذه الشركات الاحتكارية على قطاعات اقتصادية ومرافق عامة أخرى لتستكمل السيطرة الفعلية على المفاتيح الأساسية في الاقتصاد العراقي وعلى حركة رؤوس الأموال ومصادر التمويل المالي . . الخ .

إلا أن الاحتكارات البترولية البريطانية كانت تواجه منافسة حادة من جانب الاحتكارات البترولية القومية الأخرى ، وخاصة من جانب الاحتكارات الفرنسية والهولندية والأمريكية أجبرت معها على قبول مساومة معينة بحيث توزعت حصة شركة نفط تركيا بين تلك الاحتكارات على أساس التساوي ، إضافة إلى 5% إلى كولبنكيان عراب هذه الاحتكارات 34 . وكان توزيع الحصص على النحو الآتي: 35

1- شركة النفط البريطانية	23 ، 70% (بريطانية)
2- شركة رويال دش شيل	23 ، 75% (هولندية/بريطانية)
3- شركة نيوجرسي ستاندرد للبترو	11 ، 87% (أمريكية)
4- شركة سكوني موبيل للبترو	11 ، 75% (أمريكية)
5- شركة النفط الفرنسية	23 ، 75% (فرنسية)
6- حصة كولبنكيان	5 ، 00%
المجموع	100 ، 00%

وأجهزت شركات الولايات المتحدة الأمريكية على حصة بنك ألمانيا البالغة (23 ، 75%) . ولم تكن هذه الحصيلة نتيجة صراع حول النفط فحسب ، بل جاءت تحت تأثير ثلاثة أهداف بريطانية ، وهي:

- موافقة الولايات المتحدة الأمريكية على انتداب بريطانيا على العراق؛
- سكوتها على عقد المعاهدة الجائرة مع العراق التي كانت تتناقض مع المبادئ الأساسية الأربعة عشر ، وبضمنها مادة خاصة تتحدث عن تأمين حق تقرير المصير للشعوب المستعمرة ، التي نشرها ودعا إليها الرئيس الأمريكي حينذاك ويلسون والتي قادت إلى تشكيل عصبة الأمم بناء على مقترح رئيس وزراء جنوب أفريقيا حينذاك الجنرال سمتس 36 ، إضافة إلى إرضاء الولايات المتحدة الأمريكية التي أثارت زوبعة ضد الوجود البريطاني في العراق قبل قيام عصبة الأمم ، ولكي لا تلجأ أمريكا إلى إقامة صلات مع قوى المعارضة العراقية لمناهضة السياسة البريطانية في العراق . فعلى سبيل المثال لا الحصر

33 يوسف سلمان يوسف (فهد). كتابات فهد. مصدر سابق.

34 سليمان ، حكمت سامي. نفط العراق. مصدر سابق.

35 - ذهب ، صاحب د. البترول العربي الخام في السوق العالمية. المطبعة العالمية. القاهرة. 1969. ص 27-319.

- سليمان ، حكمت سامي د. نفط العراق. مصدر سابق. ص 106/107.

36 Hoepli, Henry. England im Nahen Osten. Das Koenigreich Irak und die Mossulfrage. Verlag Palm & Enke in Erlangen. 1931. S. 64.



كان ممثل الولايات المتحدة الأمريكية إلى مؤتمر السلام في باريس في عام 1919 الخبير الأمريكي ، الكابتن وليم بل ، قد كتب في مذكرة وجهها إلى هذا المؤتمر يقول: "إن احتكار موارد بترول العراق مسألة لا تؤثر على صناعة من أهم الصناعات الأمريكية وحسب ، بل إنها تؤثر على إيجاد حل مقبول للمسائل الناتجة عن تصفية الإمبراطورية العثمانية والمستعمرات الألمانية في جنوب أفريقيا . إن قضية الثقة والاستقامة في العلاقات التجارية العالمية وقضية سياسة (الباب المفتوح) مهددة جميعاً بالاحتكار الذي تعمل بريطانيا العظمى على فرضه على حقوق البترول في العراق . فضلاً عن ذلك فإن هناك خطراً جدياً لتصدع العلاقات الودية بين بريطانيا وأمريكا إن أبعدت بريطانيا المصالح البترولية الأمريكية عن العراق بواسطة نفوذها السياسي غير العادل . ولحين اتخاذ مؤتمر السلام قرارات نهائية بشأن الأقاليم العربية ، يجب عدم احترام أية امتيازات حصلت عليها أية جهة منذ الاحتلال البريطاني للعراق" 37 . ولا يحتاج الباحث إلى شرح مضامين مثل هذا النص الفاضح في محاولته ابتزاز بريطانيا لصالح الولايات المتحدة الأمريكية وعلى حساب الشعب العراقي .

• محاولة بريطانيا كسب الولايات المتحدة الأمريكية إلى جانبها في الصراع على الصعيدين العالمي والمنطقة مع الاتحاد السوفييتي ، وإزاء فرنسا ، المنافس المباشر لها في المنطقة ، خاصة وأن دور وتأثير الولايات المتحدة كان في تنامي ملموس في السياسة العالمية . وكان التنسيق بين بريطانيا وفرنسا دون علم الولايات المتحدة في قضايا النفط في العراق وتوزيع الحصص في ما بينها واستبعاد الشركات الأمريكية قد أثار غضب تلك الشركات وبالتالي غضب الحكومة الأمريكية ، إذ هددت الأخيرة بإثارة زوبعة ضد السياسة البريطانية في عصبة الأمم .

جاءت شروط اتفاقية النفط مع العراق في غير صالح العراق وبمناخ اتفاقية مفروضة على الطرف العراقي بسبب إجحافها بحقوق الشعب المشروعة . وكانت تجسيدا صارخاً لنموذج العلاقات الاقتصادية غير المتكافئة بين دولة مُستعمرة وبلد مُستعمر غير قادر على ردّ الضرر عنه . وكان الطرف البريطاني يواصل اللعب على ورقة ولاية الموصل من أجل انتزاع امتياز التنقيب عن النفط الخام واستخراجه وتصديره لصالح الاحتكارات البريطانية وغيرها 38 . كما يتوضح ذلك من بعض بنود هذه الاتفاقية التي وافق عليها الطرف العراقي قسراً في مقابل وعد من بريطانيا بمعالجة ثلاث قضايا أساسية لصالح العراق ، وهي: أ- إدخال العراق عضواً في عصبة الأمم من أجل حصوله على الاستقلال والسيادة الوطنية؛ ب- الموافقة على اعتبار ولاية الموصل جزءاً لا يتجزأ من التراب العراقي ورفض مطالب تركيا في أن تكون تابعة للدولة التركية؛ وج- عقد معاهدة تحالف بين العراق وبريطانيا تنهي بموجبه حالة الانتداب . فما هي أهم بنود اتفاقية منح امتياز النفط العراقي؟ وردت في الاتفاقية المواد الأساسية التالية:

37 علاوي ، إبراهيم. البترول العراقي والتحرر الوطني. ط 1. دار الطليعة للطباعة والنشر. بيروت. 1967. ص 46.

38 راجع:

- سليمان ، حكمت سامي. نفط العراق. مصدر سابق.
- العلوجي ، عبد الحميد واللامي ، خضير عباس. الأصول التاريخية للنفط العراقي. الجزء الثاني. سلسلة الكتب الحديثة 75. منشورات وزارة الإعلام. الجمهورية العراقية. بغداد. 1975.
- عبد الرزاق ، جعفر. الدستور والبرلمان في الفكر السياسي الشيعي 1905-1920. كتاب قضايا إسلامية معاصرة 22. مؤسسة الأعراف للنشر. دون ذكر مكان الصدور. 2000.
- هوليداي ، فريد. النفط والتحرر الوطني في الخليج العربي وإيران. دار ابن خلدون. بيروت. 1975. 10.
- حبيب ، كاظم. مشكلات النفط في العراق. رسالة ماجستير. كلية الاقتصاد. برلين. 1964.

- 1 . موافقة الحكومة العراقية على منح شركة النفط التركية ، التي سميت فيما بعد "شركة نفط العراق" ، حق البحث والتنقيب والاستخلاص والتحضير للتجارة والنقل والبيع - مادة النفط - والنفط الأسود - والغاز الطبيعي - والأوزر كايث .
  - 2 . تحديد مدة الاتفاقية ب 75 سنة ... .
  - 3 . قيام الشركة بعملية كشف جيولوجي واسع النطاق خلال ثمانية أشهر وفي ثلاث مناطق مننخبة .
  - 4 . اعتبار أراضي العراق كلها ضمن منطقة الامتياز واحتكارا محصورا بنشاطها .
  - 5 . تختار الشركة خلال 32 شهراً بعد تاريخ التوقيع على الاتفاقية - 24 بقعة بشرط أن لا تزيد مساحة كل منها على 8 أميال مربعة للارتياح والاستغلال على أن تبدأ أعمال التنقيب فيها خلال ثلاث سنوات... الخ .
  - 6 . تختار الحكومة العراقية خلال مدة الأربع سنوات بعد تاريخ التوقيع على الاتفاقية وفي كل سنة تلي الأربع سنوات ما لا يقل عن 24 قطعة مساحة كل منها 8 أميال مربعة - عدا ما انتخبته الشركة - تعرضها للمنافسة بين الشركات والأفراد دون النظر إلى أي اعتبار يقوم على الجنسية شريطة أن تقوم شركة النفط التركية بالنيابة عن الحكومة العراقية بإعلان ذلك في الصحف التجارية الواسعة الانتشار والجراند الرسمية للحكومات .
  - 7 . تدفع شركة النفط التركية للحكومة العراقية حصة قدرها 4 شلنات ذهبية عن كل طن من النفط لمدة قدرها 20 سنة - وذلك بعد إتمام خط الأنابيب إلى ميناء التصدير- وبعد ذلك التاريخ تقدر الحصة على أساس القيمة السائدة في أسواق النفط وخلال فترات كل فترة منها عشر سنوات على أن تكون كميات النفط التي تستعملها الشركة لعملياتها داخل العراق معفاة من رسوم العائدات 39 .
  - 8 . تكون الشركة ملزمة بتزويد حاجة العراق من النفط بسعر معين ثابت .
  - 9 . تبقى الشركة بريطانية وتسجل في بريطانيا ويكون مقر عملها الرئيسي ضمن مناطق النفوذ البريطاني (لندن) وأن يكون رئيس الشركة دائما وفي جميع الأوقات من التبعية البريطانية .
  - 10 . ويحق للعراق تعيين مدير في مجلس الشركة يتمتع بذات الحقوق التي يتمتع بها بقية المديرين 40 .
- وفيما بعد جرى تأسيس شركتين تابعتين لها في كل من الموصل والبصرة باسم شركة نفط الموصل (1932) وشركة نفط البصرة (1938) ، ثم جرى تأسيس شركة نفط خانقين ، وأجريت بعض التغييرات الطفيفة على الاتفاقية لتبقى غير متكافئة وفي صالح الشركات البترولية الأجنبية ، وألحقت جميع هذه الاتفاقيات أضرارا فادحة بمصالح العراق الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . وهو ما اتفقت عليه أغلب القوى السياسية العراقية ، رغم اختلاف وجهات نظرها ، كما أن الكثير ممن كانوا في الحكم قد تبني نفس الموقف ، ولكنه كان يتعلل

39 كتب يوسف رزق الله غنيمه في كتابه الموسوم "نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق" عن تحديد حصة العراق بأربعة شلنات ذهبية يقول: "وكان له (أي لحسقيل ساسون) موقف مشرف وهو وزير المالية سنة 1925 في وزارة ياسين الهاشمي ، إذ تولى المفاوضات مع شركة النفط فأصر على مساهمة العراق في الشركة المستثمرة ودفع العوائد على أساس الذهب. وقد قال فانق السامرائي نائب رئيس حزب الاستقلال سنة 1949 ، وهو يتكلم عن امتيازات النفط: "لقد كان إصرار المرحوم ساسون حسقيل في مفاوضاته مع شركة النفط البريطانية عام 1925 على وجوب دفع الشلن بالعملة الذهبية كان يبدو غريباً في وقته ، لأن الباوند الإسترليني كان يستند إلى قاعدة الذهب آنذاك. ولكن هذا النص بعد خروج بريطانيا على قاعدة الذهب أفاد العراق فائدة كبيرة وضاعف كثيراً من أرباحه". راجع في هذا الصدد: غنيمه ، يوسف رزق الله. نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق. دار الوراق للنشر. لندن. ط 2. 1997. ص 269/268.

40 قارن: سليمان ، حكمت سامي. نفط العراق. مصدر سابق. ص 104-106.

بأوراق الضغط التي كانت بيد بريطانيا ، وهي أوراق مهمة وقوية في آن واحد ، رغم أن كل الدلائل كانت تشير إلى أن بريطانيا ما كانت تقبل بأي حال من الأحوال ربط ولاية الموصل بتركيا أو التنازل عن أي جزء من المنطقة التي تحت انتدابها لصالح تركيا 41 . وإذا كان بعض السياسيين العراقيين قد أدرك هذه الحقيقة في حينها وحاول مقاومة الضغط البريطاني ، فإن البعض الآخر ، سواء بحسن نية أم بسبب موقفه الفكري والسياسي مع بريطانيا ، قد تبنى في المحصلة النهائية موقف بريطانيا ووافق على الاتفاقية التي اعتبرت غمطاً حقيقياً للمصالح العراقية . إن القراءة العامة لاتفاقية امتياز النفط تشير بشكل قاطع إلى أنها لم تعقد أساساً بين طرفين متكافئين . فالطرف البريطاني ، الذي كان يمثل جميع شركات النفط المساهمة حينذاك ، قد اعتمد في تفاوضه مع الطرف العراقي على قوة وسطوة الاحتلال البريطاني أولاً ، وعلى ورقة ولاية الموصل التي واصل التهديد بها ثانياً ، كما استفاد من أعوانه العراقيين في الضغط على المفاوض العراقي ثالثاً ، إضافة إلى تنشيط اعتداءات الوهابيين في السعودية على الحدود العراقية والريف وكذلك على بعض المدن العراقية لزيادة حرج الحكومة العراقية وتعجيل موافقتها على المعاهدة . كما أن المساومة بين الدول الرأسمالية الاستعمارية في حينها سهل عليها فرض اتفاقية عام 1925م .

---

41 Hoepfli, Henry. England im Nahen Osten - Das Koenigreich Irak und die Mossulfrage. Wichtiger Beitrag zur Frage der Kolonial-Mandate und zur Geschichte des Britischen Imperialismus. Verlag Palm & Enke in Erlangen. 1931.

42 سليمان ، حكمت سامي. نفط العراق. مصدر سابق. ص 110-115.

## الفصل الثاني : الحالة الاقتصادية في العراق

خلفت المعارك العسكرية خلال فترة الحرب العالمية الأولى بين القوات البريطانية وقوات الدولة العثمانية من جهة ، ومعارك ثورة العشرين في الكثير من مناطق العراق من جهة أخرى ، مزيداً من الخراب الاقتصادي في اقتصاد مخرب أصلاً ، بسبب سياسات وممارسات الدولة العثمانية وولاتها في العراق لعدة قرون ، كما تفاقم تدهور الإنتاج الزراعي ، وهو القطاع الأساسي المنتج للثروة الوطنية حينذاك ، ونشأت مصاعب جديدة أما تقدم الإنتاج السلعي الصغير من جهة أخرى . واقترن كل ذلك ببطالة واسعة ومصاعب مالية جمة كانت تعاني منها ميزانية الدولة ، إضافة إلى معاناة الغالبية العظمى من سكان العراق . واستمر هذا الوضع على امتداد سنوات العقد الثالث ، رغم محاولات تنشيط الاقتصاد الوطني وزيادة حجم التبادل التجاري وزيادة السيولة النقدية في الأسواق المحلية ، ومحاولات دفع أصحاب رؤوس الأموال المحليين نحو توظيف رؤوس أموالهم في مشاريع صناعية من خلال إصدار قانون خاص بحماية وتشجيع إقامة المشاريع الصناعية الوطنية يتضمن إعفاءات ورسوم جمركية غير قليلة . وكانت التوظيفات الرأسمالية الأجنبية الجديدة في قطاع النفط الخام هي المنشط النسبي المهم للاقتصاد من خلال تشغيل عدة آلاف من العراقيين في عمليات التنقيب عن البترول واستيراد ونصب المعدات الضرورية لاستخراج النفط الخام وتصديره ، وضمان حصول العراق على إيراد مالي سنوي قدره 400 ألف جنيه إسترليني تقريباً ابتداءً من عام 1927 إلى حين البدء بتصدير النفط الخام . وما أن بدأت محاولات أولية في مجال التصنيع المحلي وزيادة الجهود لزيادة الإنتاج الزراعي وتنشيط العلاقات الاقتصادية العربية والدولية حتى بدأت الأزمة العامة للرأسمالية على الصعيد الدولي لتي عانت منها جميع الدول الرأسمالية بنسب متفاوتة . وأطلق على هذه الأزمة بالكساد الأعظم . ففي عام 1929 بدأت أزمة النظام الرأسمالي العالمي وتجلت ابتداءً في انهيار سوق البورصة الأمريكية في نيويورك في الرابع والعشرين من شهر تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1929 ، وأطلق على هذا اليوم "الخميس الأسود" ، حيث "بيعت فيه كميات هائلة من الأسهم والسندات التي تمثل أعظم رأسمال الشركات الكبرى المتعاملة مع بورصة نيويورك ، إذ هبطت أسعارها إلى أسفل الدرك . وخسر آلاف الأفراد ثرواتهم ومدخراتهم في غضون ساعات قليلة" 43 . وتسببت هذه الأزمة في غلق أبواب عدد كبير من البنوك ، إذ أغلق في عام 1930 مثلاً 1325 بنكاً ، ثم ارتفع إلى 2292 بنكاً في عام 1931 . وبلغ عدد البنوك الذي أعلن في عام 1932 عن إفلاسه في الولايات المتحدة الأمريكية وحدها 1456 بنكاً . 44

وإذا كانت هذه الأزمة قد بدأت في الولايات المتحدة الأمريكية ، فأنها شملت تدريجاً أوروبا على نطاق واسع وامتدت لتشمل العالم كله ، بما فيه العراق ، في ما عدا الاتحاد السوفييتي حينذاك . ومن خلال شمول الأزمة لبريطانيا انتقلت بسرعة إلى الاقتصاد العراقي ، بسبب تبعيته الكاملة للاقتصاد البريطاني وعجزه عن اتخاذ الإجراءات الكفيلة بمواجهتها . ولكن ، كيف كان تأثير الأزمة على العراق؟

43 زكي ، رمزي د. الاقتصاد السياسي للبطالة. عالم المعرفة 226. الكويت. 1997. ص 320.

44 نفس المصدر السابق. ص 230.

وصلت الأزمة إلى بريطانيا بوقت متأخر ، أي في عام 1930 ، ولكنها أنزلت خسائر فادحة ومدمرة بالاقتصاد والمجتمع في بريطانيا ، ومنها انتقل إلى مستعمراتها ، ومنها العراق . أصابت الأزمة القطاعين الزراعي والتجاري مباشرة ، كما أثرت على الإنتاج الصناعي الجديد ، ثم انتقلت إلى بقية مجالات الحياة وخاصة قضايا التشغيل والخدمات الحكومية والأجور ومستويات المعيشة . ويمكن أن نلخص تأثيرات الأزمة على الاقتصاد والمجتمع العراقي في المؤشرات التالية:

• تدهور سريع في قيمة الصادرات العراقية ، وخاصة بالنسبة للسلع الزراعية ، إذ أن العراق كان وما يزال بلداً زراعياً بالدرجة الأولى رغم تخلف القطاع الزراعي فيه . كما تراجعت أسعاره كثيراً بسبب المنافسة الحامية في السوق الدولية . مع ضرورة الإشارة إلى أن السلع الزراعية كانت إلى حدود غير قليلة احتكاراً دولياً للسوق البريطانية والهندية . فعلى سبيل المثال لا الحصر تراجعت أثمان صادرات السلع الزراعية العراقية من 100% في عام 1927 إلى 43 ، 4% في عام 1933 . كما أن إجراء مقارنة بين متوسط سعر الطن الواحد من التمور للموسم الزراعي 1927/1926 حيث بلغ 15 ، 1 دينار ، ومتوسط سعره في الموسم الزراعي لعام 1930/1929 الذي بلغ 10 ، 4 دينار عراقي تبين فداحة الخسارة التي تحملها الاقتصاد العراقي 45 .

وإلقاء نظرة على أرقام صادرات القطن العراقي ، الذي أعتبر من المنتجات الصناعية الجديدة والمهمة والذي أبدت الشركات البريطانية اهتماماً بتعزيز توطينه في العراق والتوسع في إنتاجه وتصديره ، تشير إلى مدى تأثير الأزمة السلبية على صادرات القطن العراق وإيراداته السنوية . فبعد أن بلغت صادرات القطن في عام 1928 أكثر من 1230 طن متري ، تراجعت هذه الكمية إلى 66 طناً مترياً في عام 1932 وإلى 188 طناً مترياً في عام 1933 . 46

وكانت خسائر العراق بسبب ذلك كبيرة جداً بالنسبة للفلاحين وصغار المزارعين ، مما دفع بعدد غير قليل منهم إلى ترك الريف والهجرة إلى المدينة والتي استثمرت فيما بعد أثناء وضع وتطبيق قوانين داوسن .

• وصاحب هذا الواقع تراجعاً ملموساً في أثمان صادرات العراق من الخارج ، إضافة إلى اختلال التوازن بين قيمة الصادرات والواردات لصالح الواردات مما أوجد عجزاً مستمراً في الميزان التجاري العراقي وفي ميزان المدفوعات أيضاً . ويمكن للأرقام التالية أن توضح هذه العلاقة ، علماً بأن أثمان الاستيرادات تتضمن ما كانت تستورده شركة النفط الاحتكارية من معدات لصالح عمليات التنقيب عن النفط وغيرها .

جدول يوضح النسبة المئوية لقيمة المستورد والمصدر بين العراق وكل من إنكلترا والهند

#### في الفترة 1926-1932

1932	1929	1926	
34،9	31،7	30،8	إنكلترا:
37،4	20،6	23،9	المستورد منها للعراق
			المصدر إليها من

45 لانكلي ، كاتلين م. تصنيع العراق. مكتبة دار المتنبى. بغداد. 1963. ص 69.

46 قارن: لانكلي، كاتلين م. تصنيع العراق. مكتبة دار المتنبى. بغداد. 1963. ص 105.

			العراق
			الهند:
12,4	16,6	34,3	المستورد منها
11,6	22,4	19,3	للعراق المصدر إليها من العراق

المصدر: النجار ، عبد الوهاب حمدي . سياسة التجارة الخارجية في العراق . ط 1 . مطبعة الزهراء . بغداد . 1968 . ص 88 .

وإذا ما دمجتا صادرات وواردات العراق من إنكلترا والهند سنجد حصول انخفاض فيهما مع بروز عجز واضح في الميزان التجاري العراقي لصالح بريطانيا والهند خلال الفترة الواقعة بين 1926-1932 بلغ 3، 276 ألف دينار عراقي 47 . وبسبب من مصاعب التمويل وضعف حالة الفلاحين وصغار المزارعين اقتصر استيراد المضخات على أصحاب الأموال من كبار ملاكي الأراضي الزراعية ، ولكنها لم تتسع كثيراً في فترة الأزمة بسبب تراجع الرغبة في تطوير الزراعة وتراجع الإنتاج بسبب تقلص الطلب على السلع الزراعية . ومن مراجعة أرقام استيراد المضخات المانية سنجد أن عدد المضخات في المناطق النهرية بلغ 1481 مضخة في عام 1928 وارتفع إلى 2031 مضخة في عام 192948 ، وإلى 2150 مضخة في عام 1934 49 ، أي بزيادة قدرها 119 مضخة خلال خمس سنوات أو بمعدل سنوي قدره 24 مضخة لا غير .

• وبسبب من تراجع حجم التبادل التجاري وتدهور حركة الأسواق المحلية أشهر في عام 1930 وحدها "16" تاجراً عراقياً معروفاً في بغداد الإفلاس ، كما واصلت الصحف المحلية بعد ذلك بنشر حالات الإفلاس التي لم تنقطع طيلة فترة الأزمة 50؛

• إن تدهور حجم الإنتاج الزراعي ، بسبب تراجع الطلب عليه ، دفع بعدد غير قليل من الفلاحين وأصحاب الأراضي ترك المحاصيل الزراعية في الحقول دون حصادها ، إذ كانت تكاليف الحصاد أعلى بكثير من أسعار بيعها أو تكاليف خزنها ، إضافة إلى هجرة عدد غير قليل منهم من الريف صوب المدينة ، رغم البطالة التي كانت متفشية في المدينة أيضاً؛

• ولم يقتصر تأثير الأزمة على الإنتاج الزراعي ، بل شمل أيضاً الإنتاج الصناعي ، رغم صدور قانون يهدف إلى تشجيع إقامة المشاريع الصناعية ومنح إعفاءات عن استيراد المعدات والمكائن لهذا الغرض . فخلال الفترة الواقعة بين 1929-1933 ، ارتفع عدد المشاريع الصناعية ، وهي في الغالب الأعم صغيرة أو متوسطة بالنسبة لظروف العراق حينذاك ، من 8 مشاريع إلى 38 مشروعاً ، كانت كلها في الصناعات الاستهلاكية الخفيفة وخاصة إنتاج السجاير ، حيث بلغ عددها 11 مشروعاً ، و4 مشاريع لإنتاج الطابوق وبين 1 إلى 2 من المشاريع في كل من حلج الأقطان والدباغة وطحن الحبوب والطباعة والتقطير والجوارب

47 النجار ، عبد الوهاب حمدي ، سياسة التجارة الخارجية في العراق . مصدر سابق . ص 90 .

48 لانكلي ، كاتلين م . التصنيع في العراق . مصدر سابق . ص 85 .

49 الكاظمي ، نصير سعيد (عزيز سباهي) . الحزب الشيوعي والمسألة الزراعية في العراق . مصدر سابق . ص 119 .

50 أحمد ، كمال مظهر د . صفحات من تاريخ العراق المعاصر . مصدر سابق . ص 99 .

واستخراج الزيوت النباتية والغزل والنسيج وصناعة معدات بسيطة للمكانن الزراعية وإنتاج الأحذية<sup>51</sup>.

• ونتج عن كل ذلك تراجعاً شديداً في إمكانيات التشغيل وارتفاع عدد العاطلين عن العمل في الزراعة وفي الخدمات المختلفة ، رغم التشغيل النسبي الذي انفتح على العراق من جراء بدء عمليات التنقيب عن البترول واستخراجه ، وكذلك نشاط الموائى العراقية والسكك الحديد والبناء؛

• وبسبب الضائقة المالية وقلة إيرادات الدولة والنفط عمدت الدولة إلى تقليص عدد موظفيها بالفصل من الوظيفة ، إذ شمل هذا مجموعة كبيرة من الموظفين والمستخدمين والعمال العاملين في أجهزة ومؤسسات الدولة . فالمعلومات المتوفرة تشير إلى أن إيرادات الدولة قد تراجعت في فترة الأزمة على النحو الآتي:

جدول بإيرادات الدولة من المحاصيل الزراعية ونسبتها إلى الضرائب الأخرى  
للفترة بين 1928/1929-1932/1933

السنة	إيرادات الدولة من المحاصيل الزراعية بالدينار العراقي	نسبتها إلى الضرائب المباشرة	نسبتها إلى مجموع الضرائب	نسبتها إلى مجموع الدخل العام
1928/1929	1046267	69,8	28,4	23,5
1929/1930	889392	66,0	25,2	20,6
1930/1931	425768	48,1	15,4	12,2
1931/1932	352743	44,1	12,8	8,2
1932/1933	396439	47,6	13,8	9,4

قارن: - الكاظمي ، نصير سعيد (عزيز سباهي) . الحزب الشيوعي والمسألة الزراعية في العراق . مصدر سابق . ص 125 ..

- بطاطو ، حنا . العراق . الكتاب الأول . مصدر سابق . جدول رقم (6-2) . ص 133-135 .

ولا بد من الإشارة إلى أن إيرادات النفط كانت شحيحة للغاية إذ بلغ المتوسط السنوي لإيرادات العراق 691، 544 ديناراً عراقياً خلال الفترة الواقعة بين 1927-1930 ، ثم بلغ في أعوام 1931 و1932 و1933 المبالغ التالية على التوالي: 400000 ، 578000 و741877 ديناراً عراقي . وهي مبالغ ما كان في مقدورها الاستجابة لمتطلبات الإعمار في العراق<sup>52</sup> .

• تقلص كبير في أجور العمال ومرتبات الموظفين ودخول أصحاب المهن المختلفة ، إضافة إلى إعلان إفلاس الكثير من التجار وأصحاب الحرف . وخفضت المرتبات بنسبة تتراوح بين 5-

51 لانكلي ، كاتلين م. التصنيع في العراق. مصدر سابق. ص 94/95.  
52 سليمان ، حكمت سامي. نفط العراق. مصدر سابق. ص 136/137.

8% . وأشار الدكتور كمال أحمد مظهر إلى هذا الوضع بقوله " لذا ليس غريباً أن أطلق فلاحو الجنوب على فترة الأزمة الاقتصادية اسم "سنة اللوعة" وأن أطلق عليها فقراء كردستان اسم "سالي كرانيكة" (سنة الغلاء) رغم الانخفاض غير المعهود الذي طرأ على أسعار المواد الحياتية الأساسية"53 . وكان التخفيض الكبير في مدخولات أصحاب الدخل الثابت والكادحين ، ومنهم الباعة الجواله ، كبيراً . فعلى سبيل المثال لا الحصر "لم يكن بوسع الباعة الدوارين المرتبطين مباشرة بالأوساط الفقيرة سواء في الريف أو المدينة أن يحصلوا ما يعادل 16 إلى 32 فلساً في اليوم"54 .

• وفي ظل هذه الأزمة سعت بريطانيا إلى نقل ملكية بعض المنشآت التي كانت ملكاً لبريطانيا إلى الحكومة العراقية مقابل تعويضات سخية ، إذ كانت بريطانيا بأمس الحاجة إليها ، كما قامت بإنشاء مبنى لمديرية الموانئ في وقت كان العراق يعاني من أزمة مالية خانقة ، إذ أن هذا كان يساهم في إيجاد مورد مالي للبريطانيين في العراق؛

• وقاد هذا الوضع إلى بروز هجرة عراقية إلى البلدان المجاورة بأمل الحصول على فرص للعمل وتأمين مورد مالي للعاملين وأفراد عوائلهم؛

• ورغم المصاعب الكبيرة التي حلت بالمجتمع العراقي بشكل عام ، فإن جشع بعض التجار وأصحاب الأموال دفعهم إلى تنشيط المضاربة واحتكار السلع ومحاولة رفع الأسعار وتحقيق الأرباح على حساب السكان ، وخاصة الكادحين منهم ، رغم بقاء أسعار السلع الزراعية واطنة عموماً .

لقد هرست الأزمة الاقتصادية كادحي العراق وأشعرت قوى المعارضة بأهمية وضرورة تبني مشكلات الناس الاقتصادية والمعاشية والديمقراطية . ومن هنا جاء أيضاً تصاعد حركة المعارضة العراقية خلال الفترة بين 1928-1933 ، وتزايد عدد الإضرابات والمظاهرات المطالبة بتحسين الأوضاع المعيشية وتقليص الضرائب وتحسين خدمات الدولة وإيجاد فرص عمل جديدة للعاطلين . وكانت الأزمة الاقتصادية في هذه الفترة من بين العوامل المنشطة للحركة السياسية اليسارية التي ساعدت على توسيع مواقع الاتجاهات الفكرية والسياسية اليسارية والماركسية بشكل عام ، كما كانت البدايات الفعلية للتفكير الجاد بتوحيد نشاط تلك الجماعات الماركسية التي برزت منذ العشرينات في مدن عراقية عديدة أو التنسيق ومن ثم تأمين وحدة عملها . وقد حاولت هذه الاتجاهات الفكرية والسياسية إلى فهم طبيعة المرحلة وإلى إجراء تحليل للأوضاع التي كانت تمر بها البلاد وأسباب الأزمة الخانقة والسبيل إلى حلها ، إذ كانت الصحف المحلية تعكس تلك الاتجاهات بوضوح ملموس . وطرح على جدول عمل المعارضة العراقية المصالح الحيوية للسكان ومشكلاتهم وأوضاعهم المزرية وقلة الخدمات الاجتماعية المقدمة لهم ، بما فيها الخدمات الصحية والمياه الصالحة للشرب والخدمات التعليمية والنقل والمواصلات . لقد أعطت هذه الفترة دفعة قوية للحركة الوطنية العراقية ، ولكنها حملت معها في الوقت نفسه مخاطر التطرف الحكومي وسلطات الاحتلال في التشديد من إجراءاتها المناهضة لقوى المعارضة والتجاوز الفظ على الدستور وتزوير الانتخابات وتشويه الحياة النيابية . وهو ما وقع فعلاً .

لم تكن الدولة حتى نهاية الأزمة في عام 1933 قد وضعت في نهجها العام وسياساتها التنفيذية تصوراً محدداً حول دور ومكانة قطاع اقتصادي حكومي ، سواء كان ذلك في مجال الزراعة

53 لانكلي ، كاتلين م. التصنيع في العراق. مصدر سابق. ص 99.

54 نفس المصدر السابق. ص 99



والصناعة أم في مجال المصارف والمال أم في الخدمات الإنتاجية ، إذ "كانت النخب الحاكمة في العهد الملكي ، قبل ثورة تموز عام 1958 ، تدين بالذهب الاقتصادي الحر القائم على المشروع التنافسي الخاص" وعدم تدخل الدولة بالشؤون الاقتصادية<sup>55</sup> . ولكنها مع ذلك لم تقدم الدعم الضروري للقطاع الخاص لكي ينهض بأعباء التنمية في المطلوبة . اتجهت ميزانية الدولة الاعتيادية والاستثمارية في نشاطها بالأساس نحو القطاعات الخدمية ، وخاصة تنمية وتعزيز أجهزة الشرطة والجيش والأمن الداخلي وقضايا التعليم والصحة وبعض مجالات النقل والبريد والهاتف ، وكذلك قطاعات الري والطرق والجسور والشؤون الاجتماعية ، بما يخدم مصالح القطاع الخاص ويساعد على تطوره . وتعكس هذه الحقيقة ميزانيات الدولة خلال الفترة الواقعة بين تشكيل الدولة العراقية ونهاية العقد الخامس تقريبا . ومع أن إيرادات النفط الخام قد بدأت عمليا منذ منتصف سنوات العقد الثالث وكانت في البداية ضئيلة جدا ، ورغم وضع الدولة العديد من المناهج الاستثمارية خلال سنوات العقد الرابع التي لم يشهد أغلبها التنفيذ الفعلي ، والتي تركزت في مشاريع الري والبزل والأبنية الحكومية والطرق والجسور والنفقات الإدارية ، فإن الدولة لم تكن راغبة تماما على خوض ذلك النشاط الاقتصادي الذي يقود إلى نشوء وتطور قطاع الدولة .

إلا أن عوامل عديدة وضعت الدولة أمام مهمة إقامة قطاع دولة اقتصادي نشير فيما يلي إلى أهمها:56

1- التخلف الشامل الذي كان يعاني منه الاقتصاد والمجتمع في العراق وانعدام الديناميكية الذاتية في بنية العلاقات الإنتاجية التي سادت الاقتصاد وعجزها عن تأمين وتحقيق التراكم البدائي الضروري لرأس المال للانطلاق صوب عملية التنمية بالاعتماد على قدرات وإمكانات القطاع الخاص ، مما أستوجب موضوعيا تدخل الدولة في الشؤون الاقتصادية من جانب ، وتنشيط قطاع الدولة على أسس رأسمالية الدولة من جانب آخر .

2-توفر النفط الخام وتنامي حصة الدولة من عوائد تصديره ، وخاصة بعد عقد اتفاقية المناصفة في العوائد بين الدولة والاحتكارات النفطية الأجنبية ، مما لم يدع مجالاً للتسويق والمماثلة ، إضافة إلى أن الاحتكارات الرأسمالية الأجنبية كانت تخشى من استمرار التخلف بذلك الحجم الخطير وتنامي البطالة والفقر في المجتمع أن يعود بأوخم العواقب على ذات الاحتكارات والفئات الحاكمة؛

3- النضال الذي خاضته البرجوازية الوطنية وفئات الشعب الأخرى من أجل استخدام موارد الدولة المالية لصالح تنمية الاقتصاد الوطني وتعجيل معدلات نموه ومساعدة القطاع الخاص في المجالات التي سيعجز عن توظيف رؤوس أمواله فيها ، إضافة إلى المشاركة في إقامة الهياكل الارتكازية المساعدة على نمو وتطور القطاع الخاص أيضاً . وجاءت أحداث إيران حينذاك بمثابة إنذار صارخ للحكومة العراقية في أن الشعب لا يمكن أن يتحمل التبذير الشائن بموارده المالية وإعاقة عملية التنمية الوطنية؛

4- المستوى المتدني جدا لحياة ومعيشة الغالبية العظمى من سكان العراق ، وتدهور الأوضاع السياسية وتفجر النضالات الوطنية التي تريد تجاوز حالة التخلف والتبعية الاقتصادية ومكافحة البطالة المكشوفة والمقتعة المتفاقمة؛

55 السيد علي. عبد المنعم د. تجربة العراق مع القطاعين العام والخاص ومستقبل التجربة. في كتاب: القطاع العام والقطاع الخاص في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية. الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي. بيروت. 1990. ص 327-369.

56 حبيب، كاظم. تعقيب على بحث الدكتور عبد المنعم السيد علي. نفس المصدر السابق. ص 371-377.

5- استمرار عجز القطاع الخاص بسبب ضعف إمكانياته المالية عن ولوج دروب التنمية الوطنية التي تساهم في مكافحة العلاقات الإنتاجية الإقطاعية وفتح آفاق التخلص من سيطرة رؤوس الأموال الأجنبية؛

6- انتقال مجموعة من منشآت الرأسمال الأجنبي وسلطات الاحتلال البريطاني في فترات متفاوتة إلى ملكية الدولة مثل منشآت سكك الحديد ، البرق والبريد والموانئ والكهرباء والماء؛

7- النجاحات التي تحققت حينذاك لقطاع الدولة الاقتصادي الاشتراكي في الاتحاد السوفييتي وبقية بلدان المنظومة الاشتراكية حيث كانت لها تأثيرات إيجابية على القوى السياسية الديمقراطية للمطالبة بإقامة وتوسيع قاعدة قطاع الدولة وتعزيز دوره وضمان سلع جيدة وبأسعار مناسبة للفئات الكادحة من السكان؛

8- النظرة الكينزية الجديدة التي كانت قد تبلورت في العالم الرأسمالي المتقدم أثناء فترة الكساد العظيم التي انتعشت في أعقاب الحرب العالمية الثانية . ووجدت هذه النظرية تأييداً واسعاً لها بين الأوساط المالية الدولية الداعية ، ضمن مجموعة من الإجراءات ، إلى تنشيط دور الدولة الاقتصادي وتعزيز رقابتها ، إضافة إلى زيادة وتوسيع دور قطاع الدولة الرأسمالي في الاقتصاد الوطني وإقامة المؤسسات الاقتصادية من دون التقليل من نشاط ودور القطاع الخاص . وتجلى هذا الموقف في مبادرة الكثير من الخبراء الذين كانوا يعملون في المؤسسات المالية والعمرائية الدولية والذين أرسلوا للعمل كخبراء أو لتقدير إمكانيات تنمية البلدان النامية ومنها العراق .

اعتمدت الحكومات العراقية المتعاقبة منذ عام 1931 على وضع وإقرار برامج استثمارية حكومية تسعى من خلالها إلى تنفيذ بعض المشاريع الاقتصادية بما يتوفر لها من عائدات النفط الخام والضرائب المجبأة . ثم كفت عن هذه السياسة مع بدء الحرب العالمية الثانية حتى عام 1949 ، حيث عادت إليها مع تشكيل مجلس الإعمار . وخلال الفترة الواقعة بين 1931-1939 وضعت حكومات النظام الملكي سبعة برامج استثمارية يمكن توضيحها في الجدول التالي:

#### البرامج الاستثمارية وتخصيصاتها في العراق خلال الفترة الواقعة بين 1931-1939

البرامج الاستثمارية	فترة التنفيذ	مقدار التخصيصات المالية/دينار عراقي
البرنامج الخماسي الأول	1935-1931	2.210.000
البرنامج الخماسي الثاني	1938-1934	32,370,000
البرنامج الثلاثي	1939-1935	761,180
البرنامج الخماسي الثالث	1939-1935	4.120.000
البرنامج الخماسي الرابع	1941-1937	13.291.500
البرنامج الخماسي الخامس	1942-1938	8.320.000
البرنامج الرباعي	1942-1939	11.350.000
مجموع التخصيصات	-	72.420.680

المصدر: قارن: شمم ، أثير أيوب والواعظ ، انتصار . نتائج متابعة تنفيذ الأهداف الاستثمارية للمناهج والخطط الاقتصادية بالعراق 1951-1971 . دراسة موسعة . حزيران/يونيو 1972 . وزارة التخطيط . بغداد . 1972 . ص 210 .

ويمكن ، عند متابعة هذا الجدول والأرقام المتوفرة عن حقيقة التخصيصات وواقع التنفيذ ، تسجيل الملاحظات التالية:

- إن مجموع التخصيصات الفعلية كانت أقل مما هو مثبت هنا ، إذ أن هناك مبالغ متداخلة منقولة من برنامج إلى الذي يليه ، وبالتالي فإن مجموع التي أشار إليها الباحثان كانت 43 680. 289 دينار عراقي .
  - إن التنفيذ الفعلي لهذه البرامج من الناحية المالية بلغ 631. 692. 12 دينار عراقي فقط ، أي بنسبة قدرها 29 ، 3% من إجمالي التخصيصات الفعلية . وهذا يعني أن معدل التنفيذ السنوي خلال الفترة الواقعة بين 1931-1939 بلغ حوالي 1. 410. 292 دينار عراقي .
  - بلغت نسبة المبلغ المصروف على تنفيذ مشاريع البرامج الاستثمارية حوالي 33 ، 8% من إجمالي عائدات العراق المالية من النفط الخام والتي بلغت 742. 555. 37 دينار عراقي .
  - تركز الصرف المالي على مشاريع الطرق والجسور والري والبناء فقط . ولم يكن للصناعة شأن يذكر في هذه المشاريع ، إضافة إلى نسبة أخرى من موارد النفط الخام ذهبت للصرف على وزارة الدفاع والجيش والشرطة وعلى مواجهة الحركات السياسية والانتفاضات الشعبية التي حدثت في هذه الفترة بالذات والتي تحدثنا عنها في مكان آخر من هذا الكتاب .
  - لم يكن وضع البرامج الاستثمارية سياسة جادة أو ناشئة عن قناعة بذلك ، بل جاءت بسبب الضغوط التي مارسها القوى السياسية المعارضة للحكم والتي كانت تطالب بصرف موارد البلاد النفطية لأغراض تجلب النفع والتقدم للبلاد والشعب ، بدلاً من تبذيرها لصالح الفئات الحاكمة والنشاطات العسكرية للحكومات المتعاقبة . وكانت بمعنى آخر ذراً للرماد في العيون ، كما أنها كانت إحدى وسائل الصراع بين الحكومات المتعاقبة ، إذ كانت كل منها تتهم الأخرى بالعجز عن تنفيذ البرنامج ، فتلغيه لتضع برنامجاً آخر ، وهكذا عرفت هذه الفترة تبدلات وزارية بلغت 16 مرة وكانت هناك شخصيات سياسية شكلت وزارات متعاقبة في هذه الفترة ، ولهذا لم يكن عدد البرامج بقدر عدد التبدلات الوزارية ، بل بقدر تبدل رؤساء الوزارات .
  - وفي ضوء ذلك لم يبرز قطاع الدولة في المشاريع الصناعية ، إلا في السنوات الأخيرة من هذه الفترة والتي تركزت لاحقاً في صناعة السمنت على نحو خاص وفي الخمسينات .
- وخلال الفترة الواقعة بين البدء باستخراج وتصدير النفط الخام العراقي وقرار تأميم النفط في إيران من قبل حكومة الدكتور محمد مصدق استطاعت الشركات الاحتكارية الأجنبية التهام حصة العراق من الدخل القومي المنتج في العراق وتصديره إلى الخارج ومنعت عملياً تنمية التراكمات الرأسمالية الضرورية لتحقيق التنمية فيه وتعجيلها . ومن شأن الجدول التالي أن يقدم مقارنة بين حجم صادرات النفط العراقي ومقدار حصة العراق من عوائد النفط ببين عامي 1945-1951 على سبيل المثال:

كميات النفط المصدرة وعوائد العراق المالية من تصدير النفط الخام  
للفترة 1931-1950

السنة	كميات النفط المصدرة/ ألف طن	عوائد العراق المالية ب 000 د . ع .
1931	-	0,400

0,578	-	1932
0,742	-	1933
0,796	0,816	1934
0,929	3,558	1935
1,155	3,894	1936
1,259	4,113	1937
1,894	4,138	1938
2,222	3,788	1939
1,780	2,325	1940
1,626	2,263	1941
1,633	2,267	1942
2,032	3,321	1943
2,444	3,898	1944
2,604	4,315	1945
2,713	4,370	1946
2,696	4,354	1947
2,130	3,050	1948
3,119	3,701	1949
6,674	6,545	1950

المصدر: - محمود ، طارق شاكر د . اقتصاديات الأقطار المصدرة للنفط " أوبك " ، مصدر سابق . ص 200 .

■ مصدر سابق . 364 . Al-Durra، Sabah . Zur politischen und konomischen Problematik...

ومن الجدير بالإشارة إلى أن شركات النفط الاحتكارية كانت تتحكم تشريعا وفق قانون منح امتياز التنقيب عن النفط واستخراجه وتصديره وعمليا بأربع مؤشرات أساسية هي: كميات النفط المستخرجة سنويا ، وكميات النفط المصدرة سنويا ، والجهة التي يصدر إليها النفط الخام ، وأسعار النفط الخام .

كان لتطور صناعة استخراج النفط الخام في العراق أكبر الأثر على عدد من المؤشرات الاقتصادية المهمة . فقد ساهمت صناعة استخراج النفط الخام في تشغيل عدد كبير من العمال ، وأوجدت موردا ماليا مهما للعراق يتيح له فرصة تحقيق معدلات أسرع في التنمية الاقتصادية من ذي قبل وحسن من موقع العراق المالي ونمى السيولة النقدية الداخلية وحرك الأسواق المحلية وأعطى دفعة مهمة لعملية التصنيع . ولكن النقص الأساسي تجلى في حرمان العراق من استخدام نفطه في التنمية الصناعية التحويلية والاقتصار على استخدام كميات قليلة منه في عمليات التكرير المحدودة . وحرم العراق من إمكانية زيادة حلقات الإنتاج المرتبطة بوجود النفط والصناعة الاستخراجية وزيادة المشتغلين في الصناعة والمرافق الأخرى التي بالإمكان

تنشيطها وتطويرها عبر اقتصاد النفط ، وبالتالي حرمان العراق من تنمية ثروته الاجتماعية وإبقاء اقتصاده وحيد الجانب وتابع .

وفي منشآت النفط الخام والمؤسسات التابعة لها وفي المنشآت الصناعية والمرافق العامة كالموانئ والسكك الحديدية نشأت وتطورت النواة الأساسية للطبقة العاملة العراقية . وفي هذه المنشآت التابعة في حينها للاحتكارات الأجنبية خاضت الطبقة العاملة أولى معاركها السياسية ذات الطابع الوطني والطبقي والنقابي وراكتت تجاربها ومعارفها الثمينة في فهم طبيعة الاستعمار والهيمنة الأجنبية . وبرزت أولى تلك الفعاليات النضالية في منتصف الأربعينات ، إذ ما تزال إضراب العمال و "مجزرة كاورباغي" في عام 1946 ، ومسيرة عمال النفط في حديثة وإضرابات عمال الموانئ في البصرة وإضرابات السكك في بغداد طرية في أذهان الناس رغم مرور عدة عقود من السنين على تلك الأحداث .

## الفصل الثالث : السكان والتحويلات الطبقية في العراق

### المبحث الأول : التطورات الجارية في البنية السكانية

تجلت الاتجاهات الأساسية في سياسات الحكومات البريطانية المتعاقبة إزاء العراق في المجالين الاقتصادي والاجتماعي وإزاء النظام السياسي خلال الفترة الواقعة بين 1920-1950 في الممارسة العملية في أهداف خمسة متشابهة ، وهي:

1. تكريس الوجود البريطاني في العراق رسمياً وتأمين التحالفات الاجتماعية الضرورية لاستمراره .

2. توفير مستلزمات استثمار رؤوس الأموال البريطانية في العراق في ثلاثة قطاعات تشكل القاعدة الأساسية لاستمرار وجود وهيمنة بريطانيا على الاقتصاد والمجتمع العراقي ، وهي:

\* قطاع التنقيب عن النفط والخام واستخراجه وتصديره؛

\* القطاع الزراعي لتأمين إنتاج السلع الزراعية الأولية للمصانع البريطانية وخاصة القطن؛

\* قطاع التجارة الخارجية والنقل والبنوك لتأمين تنشيط حركة التبادل التجاري والهيمنة الكاملة على الأسواق العراقية التي لم تكن قد شكلت سوقاً وطنية واحدة ، بل كانت عبارة عن جملة أسواق ضعيفة وغير فاعلة في نظام أو شبكة واحدة ، وعلى العملة العراقية التي ربطت فيما بعد بمنطقة الجنيه الإسترليني .

3 . تكريس العلاقات الإنتاجية شبه الإقطاعية في الزراعة والريف العراقي وتجلياته المباشرة وغير المباشرة على المدينة وعلى البنية الطبقية للمجتمع بإزالة العلاقات الأبوية - البطرياركية - من خلال تحويل شيوخ العشائر إلى إقطاعيين يشكلون القاعدة الاجتماعية المهمة التي يستندون إليها في حكم البلاد ، ودورها في إعاقة سرعة التحويلات الرأسمالية والاجتماعية في البلاد؛

4 . السيطرة المباشرة على اتجاهات التصنيع وإقامة المشاريع الصناعية في العراق والحد من تطورها لضمان ثلاثة أهداف مهمة ، وهي:

\* استمرار تصدير السلع الصناعية البريطانية إلى الأسواق العراقية ، وكذلك استيراد المواد الأولية منه . وهي الوجهة التي تساهم في تحقيق المزيد من الأرباح للشركات الصناعية والتجارية البريطانية ، في حين تحرم الاقتصاد الوطني من التنمية والإعمار والتشغيل وزيادة الدخل الوطني؛

\* إعاقة نمو البرجوازية الصناعية في البلاد التي ، مع بروزها ، تنشأ تناقضات وصراعات فعلية مع البرجوازية الأجنبية المهيمنة على الأسواق المحلية ، ومع الإقطاعيين وكبار الملاكين الذين يحرمون الزراعة من التطور والنمو وإدخال الرأسمالية إليها؛

\* إعاقة نمو وتطور الطبقة العاملة .

5 . إعاقة نمو الوعي السياسي والاقتصادي والاجتماعي التحرري في البلاد ، والتصدي للأفكار التقدمية الداعية إلى تنمية الاقتصاد واستقلاله ، لتأمين استمرار وجودها في العراق وتأثيرها على سياساته مباشرة .

وتجلت عواقب هذه السياسة في البنى السكانية المختلفة ، سواء توزيعها بين البادية والريف والمدينة أم توزيعها الطبقي أم المهني والتعليمي . ويمكن للجدول التالي تبيان واقع توزيع السكان بين الحضر والريف على المناطق الجغرافية الثلاث في العراق خلال الفترة بين 1905-1947 .

التوزيع السكاني في العراق حسب الحضر والريف والمناطق الجغرافية خلال الفترة  
1947-1905

الولاية / السنة	الحضر بالآلاف	النسبة %	الريف بالآلاف	النسبة %	المجموع بالآلاف
<b>1905</b>					
الموصل (المنطقة الشمالية بضمنها كردستان العراق)	133	6، 24	407	4، 75	540
بغداد (المنطقة الوسطى)	335	8، 35	600	2، 64	935
البصرة (المنطقة الجنوبية)	65	3، 8	710	6، 91	775
المجموع	533	7، 23	717. 1	3، 76	250. 2
<b>*1919</b>					
الموصل (المنطقة الشمالية بضمنها كردستان العراق)	179	6، 24	549	4، 75	728
بغداد (المنطقة الوسطى)	434	6، 35	784	4، 64	218. 1
البصرة (المنطقة الجنوبية)	75	5، 8	811	5، 91	886
مجموع السكان	688	3، 24	144. 2	7، 75	832. 2
<b>1930</b>					
الموصل (المنطقة الشمالية بضمنها كردستان العراق)	214	5، 24	661	5، 75	875
بغداد (المنطقة الوسطى)	511	5، 35	929	5، 64	440. 1
البصرة (المنطقة الجنوبية)	83	5، 8	890	5، 91	973
مجموع السكان	808	6، 24	480. 2	4، 75	288. 3
<b>1947</b>					
الموصل (المنطقة الشمالية بضمنها كردستان العراق)	482	8، 35	865	2، 64	348. 1
بغداد (المنطقة الوسطى)	113. 1	8، 45	319. 1	3، 45	431. 2
البصرة (المنطقة الجنوبية)	139	3، 13	908	7، 86	047. 1
مجموع السكان	734. 1	9، 35	092. 3	1، 64	826. 4

قارن: - حسن ، محمد سلمان د . دراسات في الاقتصاد العراقي . دار الطليعة . ط 1 . بيروت . 1965 . ص 164 .  
- الأنصاري ، فاضل د . مشكلة السكان- نموذج القطر العراقي . منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي .  
دمشق . 1980 .  
ص 244 .  
- عيساوي ، شارل د . التاريخ الاقتصادي للهلال الخصيب 1800 - 1914 . مركز دراسات الوحدة العربية .  
بيروت . ط 1 . 1990 . ص 55 .  
\* تقديرات الباحث في ضوء اتجاهات التطور للفترة 1905 و 1930 ، ووفق معدلات النمو السنوية . وهي مقارنة  
للإحصاء الرسمي الذي وزع السكان بين الحضر والريف حيث بلغ المجموع 4816185 نسمة .



يستدل من الجدول في أعلاه على أن الحراك السكاني خلال الفترة الواقعة بين 1905-1919 ، وكذلك الفترة الواقعة بين 1920-1930 ، ثم الفترة الواقعة بين 1931-1947 ، حيث جرى في عام 1947 أول إحصاء عام ورسمي وناجح نسبياً للسكان في الدولة العراقية الحديثة<sup>58</sup> ، قد اتسم بما يلي:

\*\* كان النمو خلال الفترتين الأولى والثانية متقارباً على نطاق العراق عموماً ، ولكنه كانت متبايناً على نطاق الولايات الثلاث ، وفيما بعد المناطق الجغرافية الثلاث متبايناً ، لصالح المنطقة الوسطى أولاً والشمالية ثانياً ، في حين حافظت المنطقة الجنوبية بدون حراك ملموس فيها بين سكان الحضر والريف . ولكن تغير هذا الوضع في الفترة الثالثة ، إذ حصل حراك ملموس في المناطق الثلاث مع استمرار التباين في معدلات النمو أو النمو الإجمالي للفترة بكاملها لصالح المنطقة الوسطى ومن ثم المنطقة الشمالية ، فالمنطقة الجنوبية . ولم يقتصر التباين في النمو على المناطق فحسب ، بل شمل المدن المختلفة لصالح بعض المدن الوسطى ، وخاصة بغداد ، أو الموصل باعتبارها أكبر مدينة في المنطقة الشمالية ، ثم البصرة في إطار المنطقة الجنوبية ، رغم عدم توفر إحصائيات كافية عن جميع المدن العراقية . ويمكن أن نلاحظ ذلك من خلال نسب النمو في المناطق الثلاث ، بما فيها كردستان بالنسبة إلى المنطقة الشمالية . ففي الوقت الذي بلغت نسبة سكان الحضر في المنطقة الوسطى في عام 1947 حوالي 45 ، 8 % ، بلغت نسبتها في الشمال 35 ، 8 % في حين لم ترتفع في الجنوب عن 13 ، 3 % فقط ، وبالتالي ساهمت في تخفيض المعدل العام في عموم العراق إلى حدود 35 ، 9 % ، بالقياس إلى معدله الذي بلغ 23 ، 7 % في عام 1905 ، و 24 ، 3 % في عام 1919 ، و 24 ، 6 % في عام 1930

\*\* إن اتجاهات النمو السكانية في العراق تشير إلى حقيقة أساسية هو أن السنوات الواقعة بين 1905-1919 و 1920-1930 لم تشهد تغيراً ملموساً في البنية الاقتصادية للاقتصاد العراقي ، كما عرفت الفترة الثانية منها الكساد العظيم الذي دفع بأعداد غفيرة من السكان القادرين على العمل إلى أحضان البطالة . في حين حصل تحول محسوس في الفترة الثالثة 1930-1947 نتيجة حصول تطور في قطاعي الزراعة والصناعة والنقل والتجارة الذي استخدم عدداً إضافياً من القادرين على العمل النازحين من الريف إلى المدينة ، ولكنه بقي في الحدود الدنيا من التطور الصناعي والزراعي وبقيّة الأنشطة الاقتصادية ، ومنها الخدمية أيضاً .

\*\* وجددير بالإشارة إلى أن الحراك السكاني من الريف إلى المدينة لم يكن باستمرار إيجابياً ، إذ أنه عبر عن عدة إشكاليات مهمة ، وهي:

- تراجع قدرة الريف والزراعة على استيعاب القوى القادرة على العمل وعلى توفير وسائل العيش لهم ولأفراد عوائلهم ، مما كان يدفع بهم نحو المدينة بحثاً عن عمل؛
- بقاء عدد كبير من النازحين من الريف والزراعة دون عمل ، أو العثور على عمل موسمي ومؤقت أو العيش على هامش الحياة الاقتصادية . وتشكلت في المدينة خلال تلك الفترة فئة واسعة نسبياً ومتسعة باستمرار من أشباه البروليتاريا المعتمدين؛

58 في عامي 1927-1928 أول محاولة لجمع البيانات الإحصائية ، ولكنها لم تكن ناجحة وألغيت نتائجها. ثم جرت محاولة أخرى في عام 1934-1935 لأغراض تنفيذ قانون التجنيد الإجباري في العراق ، ولهذا الغرض فقط. راجع في هذا الصدد: الدكتور فاضل الأنصاري في كتابه "مشكلة السكان نموذج القطر العراقي". مصدر سابق. ص 46.

- مزاحمة سكان المدينة على الخدمات المحدودة التي كانت قائمة فيها وعجز الدولة عن توفير ما هو ضروري للجميع ، وأصبحت الحياة في المدينة صعبة للغاية بالنسبة للفئات الكادحة ، مما أبقى صلتهم بالريف والنشاط الزراعي قائمة؛  
- ورغم ذلك بقي الريف يحتفظ بعدد كبير من الفلاحين بحيث لم يشعر أصحاب الأراضي بضرورة

تغيير وتطوير طرق الزراعة ووسائل الإنتاج في الزراعة ، وحافظت معدلات الغلة وحجم الإنتاج الإجمالي على تخلفهما ، بالقياس إلى المساحات الواسعة نسبياً المستخدمة في الإنتاج؛

- وكان لكل ذلك تأثيره السلبي على تحقيق التراكم البدائي لرأس المال في الزراعة والصناعة وعموم الاقتصاد الوطني في البلاد .  
\*\* أن معدلات النمو السكانية كانت ، رغم ارتفاعها السنوي ، واطنة حقاً خلال تلك الفترات ، مع تحسن ملحوظ في الفترة الأخيرة نسبياً . ومع أن الأرقام المتوفرة كانت في الغالب تخمينية ويصعب الاعتماد عليها تماماً ، ولكن لا توجد غيرها ولا يمكن تجاوزها أيضاً . ويعود هذا إلى عدد من الحقائق المهمة ، وهي:

- ارتفاع نسبة الوفيات بين الأطفال الرضع والذين تقل أعمارهم عن خمس سنوات ، رغم أن نسبة الولادات الجديدة في العائلة الواحدة أو إجمالي السكان كانت عالية ، ولكن عدد من بقي منهم على قيد الحياة بالنسبة للعائلة الواحدة أو للمجتمع كان واطناً؛  
- ويعود هذا الواقع إلى انتشار الأمراض وتفشي الأوبئة وحصول الكوارث الطبيعية ، وخاصة الفيضانات من جهة ، وتردي القدرات الحكومية على توفير الرعاية الصحية والأطباء والأدوية الضرورية ، وخاصة بالنسبة للمناطق النائية من البلاد؛

■ قلة الخدمات العامة ، وبشكل خاص صعوبة طرق المواصلات وفقدان الماء الصالح للشرب والتغذية المناسبة . . الخ .

أما التركيب السكاني من حيث الجنس فكان حتى نهاية الثلاثينات تقريباً يشير إلى ارتفاع نسبية قليلة لعدد الذكور على عدد الإناث . ولكن ومنذ عام 1934 بدأت النسبة بالتغير لصالح زيادة نسبية صغيرة ومنتامية لصالح النساء . ويمكن تتبع هذا الواقع في الجدول الذي أورده الدكتور فاضل الأنصاري في كتابه الموسوم "مشكلة السكان نموذج القطر العراقي" .

توزيع عدد السكان بين الإناث والذكور في العراق

السنة	المجموع (000)	الذكور (000)	الإناث (000)	الفارق بين الذكور والإناث (000)
1927	2968	1512	1456	663
1934	3380	1788	1692	1002
1947	4816	2257	2559	1134
1957	6299	3155	3144	997
1965	8047	4103	3945	961
1977	12000	6183	5818	941

قارن: الأنصاري ، فاضل د . مشكلة السكان نموذج القطر العراقي . منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي . دمشق . 1980 . ص 216 .

تؤكد وقائع المجتمع العراقي أن الغالبية العظمى من نساء المدن كن ربات بيوت ، في حين الغالبية العظمى من النساء في الريف كن ، إلى جانب كونهن ربات بيوت ، عاملات في الحقل وفي تربية الحيوان وتهينة الوقود من فضلات الحيوانات وجلب الماء وما إلى ذلك ، وغالباً ما كان عمل النساء أشد وأقسى وأكثر من عمل الرجال في الحقل ، رغم قساوة العمل الأخير وشدته ، بسبب سلوك الإقطاعيين وسراكيلهم إزاء الفلاحين العاملين في الأراضي التي كانت تحت تصرفهم .

ولا شك أن البنية السكانية الأساسية للنساء والرجال كانت فنية ، إذ أن الأكثرية كانت في عمر الطفولة والصبا والشباب ، رغم بعض الثغرات فيها ، كما أظهره الدكتور الأنصاري في الهرم السكاني بالنسبة للفئة العمرية 20-29 سنة بالنسبة لعام 1947 والمرتبطة بأحداث وظروف الثلث الأول من القرن العشرين على الصعيد العراقي ، ومنها انتفاضة السليمانية وثورة العشرين والمشكلات العشائرية والغزو المتكرر للوهابيين من أراضي السعودية على مناطق وسط العراق ، وعلى الصعيدين الإقليمي والعالمي ، ومنها الحرب العالمية الأولى والكساد الأعظم 59 . ويمكن للجدول التالي الخاص بعام 1947 ووفق الإحصاء الرسمي أن يوضح فتوة الشعب العراقي .

#### التوزيع النسبي للسكان على أساس الأعمار في عام 1947

النسبة المنوية %	التركيب السكان العمري
41,5	0 - 15
51,7	16-59
6,9	60 فما فوق

المصدر: الخفاجي ، سعد . مساهمة حول العلاقة المتبادلة بين النمو الاقتصادي والنمو السكاني . رسالة دكتوراه . كلية الاقتصاد . برلين . 1974 . ص 52 .

ويستدل من هذا الجدول على أن 41 ، 4% من مجموع السكان كانوا في عمر يتراوح بين 0-15 سنة . وهي نسبة عالية تدل فتوة السكان ، كما كانت نسبة الذين تزيد أعمارهم عن 60 سنة واطنة جداً تدل على أن متوسط عمر الإنسان كان واطناً ، إضافة إلى معرفتنا الواقعية بكثرة الوفيات بين الأطفال .

أما عن البنية السكانية الدينية فتشير المعلومات المتوفرة إلى الواقع الوارد في الجدول التالي:

#### البنية الدينية للسكان في العراقي في عامي 1932 - 1947

السنة	1932		1947	
الديانة	النسبة %	العدد بالآلاف	النسبة %	العدد بالآلاف
مسلمون	92,7	2,641	93,6	4,509
مسيحيون	2,8	79	3,1	150
يهود	3,1	88	2,5	118
آخرون*	1,5	42	0,8	39
المجموع	100,0	2,849	100,0	4,816

59 قارن: الأنصاري ، فاضل د. مشكلة السكان نموذج القطر العراقي. مصدر سابق. ص 186-189.

المصدر: الأنصاري ، فاضل د . مشكلة السكان نموذج القطر العراقي . منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي . دمشق . 1980 . ص 30 . \* وتشمل أتباع الديانات الأخرى ، وهي الصابئة المندائية في وسط وجنوب العراق ، و الإيزيدية في كردستان العراق وشماله والفرس في وسط العراق على نحو خاص .

وفي هذا الجدول تبرز ظاهرة تراجع نسبة اليهود إلى إجمالي سكان العراق ، وهي ناجمة عن بدء نزوح أو هجرة المواطنين اليهود إلى خارج العراق ، والتي اتخذت فيما بعد عملية تهجير حكومية فعلية لهم في ضوء قرار رسمي صادر بهذا الصدد ، إذ بلغ عدد المهاجرين قسراً أو رغبة حتى عام 1952 أكثر من 120 ألف نسمة . وجاء هذا النزوح لحساب زيادة نسبة المسلمين إلى إجمالي السكان ، حيث ارتفعت النسبة من 7، 92 % إلى 6، 93 % أولاً ، ثم لصالح زيادة نسبة المسيحيين إلى إجمالي السكان . ولكن الجدول السابق لا يوضح تماماً البنية الدينية للسكان بشكل واضح بقدر ما يبين ذلك جزئياً ويسمح بالمقارنة في إجمالي النمو السكاني . لهذا يمكن هنا الاستعانة بالإحصائية التي أعدها حنا بطاطو . وهي تشمل في واقع الأمر الجانبين الديني والقومي للبنية السكانية في العراق خلال عام 1947 واستناداً إلى الإحصاء العام الذي جرى في العراق في نفس العام ، والذي اطلع على أولياته حنا بطاطو في وزارة الشؤون الاجتماعية .

#### التكوين الديني والقومي لسكان العراق في سنة 1947\*

المجموع		ريف		حضر		الطائفة
النسبة %	العدد 000	النسبة %	العدد 000	النسبة %	العدد 000	
25، 93	4256	82، 96	2866	66، 86	1390	إجمالي المسلمين
4، 51	2344	5، 56	1671	9، 41	673	عرب شيعة
7، 19	900	0، 16	472	7، 26	428	عرب سنة
4، 18	840	4، 22	662	9، 10	176	أكراد سنة
2، 1	52	1، 0	3	1، 3	49	فارسيون شيعة
1، 1	50	3، 0	11	5، 2	39	تركماني سنة
9، 0	42	1، 1	31	7، 0	11	تركماني شيعة
6، 0	30	5، 0	16	9، 0	14	أكراد شيعة فيلية
75، 6	310	24، 3	96	34، 13	214	إجمالي غير المسلمين
1، 3	149	8، 1	55	9، 5	94	مسيحيون
6، 2	117	2، 0	4	7، 0	113	يهود
8، 0	33	0، 1	31	1، 0	2	يزيدية وشبكيون
2، 0	7	1، 0	2	3، 0	5	صابئة
00، 10	4564	00، 100	2960	00، 100	1604	المجموع (000)

قارن: بطاطو ، حنا د . العراق . الكتاب الأول . مصدر سابق . ص 60 .

\* باستثناء رجال القبائل الرحل المقدر عددهم 170000 نسمة معظمهم من المسلمين . أي بلغ سكان في عام 1947 العراق حوالي 4734000 نسمة .

ومنه يتبين أن سكان العراق في عام 1947 قد تكون من العرب (71، 3%) عدا القبائل الرحل ، والأكراد (19، 8%) عدا القبائل الرحل ، والكلدان والآشوريين والأرمن (3، 1%) ، واليهود (2، 6%) والتركمان (2، 0%) ، والفرس (1، 2%) من الناحية القومية ، أما من الناحية الدينية فكانوا من المسلمين والمسيحيين واليهود والصابئة والإيزيدية والشبكية . وهي لوحة تدل على الموزانك العراقي .

## المبحث الثاني : البنية الطبقية

### 1 . الإقطاعيون (كبار ملاك الأراضي الزراعية)

مارس السلاطين والولاة العثمانيون في ولايات العراق الثلاث سياسة معقدة ومركبة إزاء العشائر الرحل والمستقرة في بادية وأرياف العراق . إذ كانوا يسعون إلى توطين القبائل الرحل وإسكانهم في الأرياف وعلى مشارف المدن بهدف إخضاعهم للسلطة المركزية والسيطرة على احتمالات تمردهم وتأمين جباية الضرائب منهم . وكان هذا الاتجاه يتضمن بدوره تقليص دور وتأثير شيوخ العشائر على الفلاحين وإضعاف مواقعهم في المنطقة لصالح الدولة المركزية ، إضافة إلى تفتيت التماسك الداخلي المعهود للعشائر . ولكنهم كانوا في الوقت نفسه يمنحون بعض شيوخ العشائر سلطات كبيرة ذات مضمون مركزي شبيه بسلطة الدولة المركزية على أفراد هذه العشيرة أو تلك وفي هذه المنطقة أو تلك أو على أفراد اتحاد بعض العشائر ، كما حصل مع آل السعدون في الناصرية أو آل ربيعة في الكوت مثلاً . وكان الاتجاه الأخير يعزز ، وبالضد من الاتجاه الأول ، سلطة الشيخ ومركزه الاجتماعي والسياسي ، خاصة وأن الدولة العثمانية كانت تمنح بعض هؤلاء الشيوخ ألقاباً ووظائف رسمية ورواتب ثابتة ، إضافة إلى وضع المزيد من الأراضي الزراعية تحت تصرفه واقتطاعه عملياً من أراضي "الديرة" التي كانت تستخدمها العشائر بصورة مشتركة<sup>60</sup> . وكان على شيخ العشيرة مقابل ذلك أداء واجبات محددة ، وهي:

- تأمين خضوع أفراد العشيرة للشيخ ومن خلالها لسلطة الدولة العثمانية؛
- تأمين جباية الضرائب المقررة على أفراد العشيرة ودفعها في أوقاتها المقررة؛
- حماية الأمن الداخلي وطرق المواصلات والقوافل التجارية من قطاع الطرق؛
- التعاون والتنسيق مع الجندرية العثمانية لإسناد الحملات العسكرية ضد بعض العشائر "المتردة" التي لا تدين بالولاء للسلطة العثمانية أو للولاة أو بسبب منازعات مع عشائر أخرى مساندة للإدارة العثمانية .

وكانت الدولة العثمانية غالباً ما تلعب دوراً سلبياً في العلاقة بين العشائر العراقية ، إذ كانت توجج البغضاء وتثير بعضها ضد البعض الآخر ، أو تسند بعضها في صراعه مع البعض الآخر عسكرياً والمشاركة بالمعارك الدائرة بينهما ، كما كان يحصل في منطقتي الناصرية والبصرة ، أو بين آل السعدون وآل النقيب ، أو في ما بين الأخوة من آل السعدون مثلاً . وكانت ترى في ذلك حماية لها من خلال ممارسة "سياسة فرق تسد" ، وكذلك سياسة "الجزرة والعصا" إذ أنها كانت السياسة السائدة في فترة الحكم العثماني في المناطق التابعة للدولة العثمانية .

60 الدوري، عبد العزيز د. مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي. دار الطليعة. بيروت. 1982. ص 124.

واستخدمت الدولة العثمانية الأرض الزراعية أداة أساسية لممارسة هذه السياسة . ففي الوقت الذي كانت تصدر الأراضي الزراعية من الفلاحين المستثمرين لها لأسباب وبأساليب وطرق مختلفة ، رغم قوانين الإصلاح التي أصدرتها في ما يخص سياستها إزاء الأرض الزراعية على امتداد القرن التاسع عشر ، كانت تقوم بتوزيع هذه الأراضي على الموالين لها ومنعها عن المختلفين معها . كما أنها كما أشرنا قد سجلت مساحات واسعة من تلك الأراضي باسم السلاطين وخاصة في فترة السلطان عبد الحميد وعائلته وحاشيته ، حتى شكلت هيئة خاصة لإدارة شؤون أراضي السلطان . وتجلى ذلك أيضاً في توزيع الحصص المائية على مختلف المناطق وعلى المستحويين على الأراضي الزراعية من كبار الملاكين وموظفي الدولة .

ورغم هذه السياسة ذات التكتيك المزدوج التي أعاققت تسريع عملية توطين القبائل الرحل وأعاققت عملية التفكك المنشودة في العلاقات العشائرية وبين شيوخ العشائر وأفرادها ، فأنها أضعفت ، وإلى حدود غير قليلة ، من التماسك العشائري والولاء المطلق للشيخ من جانب أفراد العشيرة . وبمرور الأيام تجسدت للفلاحين الفقراء والمعدمين الذين حرموا من الأرض الزراعية بشكل خاص ، الفجوة الكبيرة بين مستوى حياتهم البائسة ومستوى حياة الشيوخ المرفهة ، وبالتالي أوجدت نقاط احتكاك وصراع ونزاعات بين الشيوخ وأفراد العشائر في مختلف أرياف العراق .

وبخلاف هذه السياسة ، ورغم وجود عناصر منها في السياسة البريطانية ، انتهجت سلطات الاحتلال البريطاني سياسة جديدة ذات ثلاثة جوانب ، وهي:

1. العمل على تعجيل عملية التوطين للبدو الرحل في الأرياف العراقية وعلى مشارف المدن؛
2. العمل على تعزيز دور شيخ العشيرة في حياة العشيرة وفي الوظائف التي يؤديها لصالح سلطات الانتداب البريطاني على العراق؛
3. العمل على تحويل شيوخ العشائر إلى ملاكين كبار للأرض الزراعية ونشر علاقات الإنتاج شبه الإقطاعية في الريف العراقي .

فالتقارير التي كتبها الحكام السياسيون البريطانيون واللجان التي تشكلت أو الجماعة التي كانت تديرها وتشرف عليها الأنسة جيرترود بل ، (المعروفة باسم مس بل في العراق) ، تشير إلى أن سلطات الاحتلال البريطاني وجهت اهتمامها الخاص نحو شيوخ العشائر العراقية ، سواء كانوا رحلاً أم مستقرين ، بهدف الاعتماد عليهم في تكريس سيطرتهم في البلاد واعتبارهم القاعدة الاجتماعية الأساسية ولفترة طويلة قادمة لحكمهم في العراق . ومن أجل تأمين تطور هذه القاعدة الاجتماعية وتحسين مستوى الاستفادة منها عمدت سلطات الاحتلال منذ نهاية الحرب العالمية الأولى في عام 1918 إلى تنفيذ جملة من الإجراءات التي يمكن بلورتها في الملاحظات التالية:

- اعتماد نظام العشائر كأداة أساسية لتعزيز دور شيخ العشيرة في حياة البلاد الداخلية وفي تعزيز موقع بريطانيا في الصراع الدائر ضد الوجود البريطاني ، ومن ثم ضد الانتداب البريطاني . إذ استفادت من المشروع الذي وضعه الخبير البريطاني بشؤون القبائل "السير روبرت ساندمان" لمنطقة بلوجستان لوضع نظام مماثل له في العراق . يشير الدكتور الطاهر بأن الإدارة البريطانية أخذت بـ "خطة مماثلة لتعزيز النظام العشائري ، وبعث الحياة والنشاط في المشيخة . فوضع أسس هذا النظام الجديد "السيد هنري دوبس" ،

لتعزيز المشيخة وإشراك الشيوخ في الحكم ، ووضع نظام خاص لحسم النزاعات المدنية والجزائية بين أفراد العشائر وفق العادات والتقاليد العشائرية"61 .

كانت جيرترود بل ترى في هذا الاتجاه ضماناً كبيرة لتوطيد وتكريس الهيمنة البريطانية على العراق ، حيث كتبت تقول: "إن التدابير التي اتخذتها الإدارة البريطانية في إصدار دعاوى العشائر قد قوبلت بكل ترحاب من قبل العشائر . وقد عبر عن ذلك شيوخ العمارة والمنتفق ، وتقدم شيوخ العمارة برجاء إلى الإدارة البريطانية أن لا تضع أراضيهم في المزايدة ما دام المؤجر يقدم خدمات مهمة للحكومة البريطانية ، مما يدل دلالة واضحة على إرضاء هؤلاء الشيوخ باستمرار الإدارة البريطانية"62 . ولكن مس بل لم تتحدث عن موقف أفراد العشائر والمجتمع العراقي من هذا القانون ، كما لم تذكر الأضرار التي تلحق به من جراء تنفيذ قانونين مختلفين في العراق هما قانون مدني حديث وآخر عشائري متخلف ، وبشكل خاص في الجوانب الاجتماعية والاقتصادية . وتشير تقارير الحكام السياسيين البريطانيين إلى الواجبات التي كان على شيوخ العشائر القيام بها لصالح بريطانيا مقابل صدور وتنفيذ قانون العشائر ، إذ أنهم التزموا ب " ... المحافظة على الأمن والقبض على المجرمين ، وحماية طرق المواصلات ، وجمع الضرائب"63 . ولتحقيق هذا الهدف زودتهم سلطات الاحتلال البريطاني "بالهبات والسلاح ، وخصصت لهم الرواتب ، وفوضت لهم الأراضي التي كانت تتصرف بها العشائر ، مما أدى إلى حرمان كافة أفراد العشائر"64 ، من الأرض الزراعية . وتتطرق التقارير الرسمية البريطانية إلى تفاصيل العوامل التي دفعتهم إلى رعاية شيوخ العشائر والاستناد إليهم في تمشية الأمور والحكم في العراق فتشير إلى ما يلي: "إن العادات والحاجات المحلية هي التي توجد القوانين وتكيفها والقانون في كل قطر من أقطار العالم يستمد بنوره من الحاجات المحلية ومن التقاليد والعادات والفكر الاجتماعي والمقومات الحضارية دائماً"65 . وللأسباب التالية تقرر وضع اعتماد نظام المشيخة ونظام دعاوى العشائر:

"1- عدم استطاعة تطبيق القانون المدني وقانون العقوبات وأصول المرافعات الجزائية على أفراد العشائر .

2- إن وجود المجالس الإدارية المحلية في كل وحدة إدارية يجعل من الميسور التحقيق العاجل ومعرفة التقاليد والأعراف في المنطقة العشائرية .

3- إن الموظفين الإداريين البريطانيين مثقلون بالمسؤوليات مما يستوجب أن تعطى بعض مسؤولياتهم وتناط بشيوخ العشائر ورؤسائهم .

4- تشجيع سلطة الشيوخ في مناطقهم العشائرية للمحافظة على الأمن والنظام"66 .

وتبين هنا بوضوح أن سلطات الاحتلال البريطاني كانت تحاول تبرير انتهاجها تلك السياسة بالواقع القائم ، في حين أنها كانت لا تشير إلى العمل الفعلي الذي دفعها إلى تطبيق قانون دعاوى العشائر ، ونعني به مصالحها الاقتصادية والسياسية في العراق وتكريس وجودها بغض النظر عن الخسائر التي تصيب المجتمع العراقي من جراء ذلك ، فمصلحة بريطانيا فوق كل المصالح .

61 الطاهر، عبد الجليل د. العشائر العراقية. مكتبة المثني. بغداد. 1972. ص 41/40.

62 نفس المصدر السابق. ص 42.

63 نفس المصدر السابق. ص 41.

64 نفس المصدر السابق. ص 41.

65 نفس المصدر السابق. ص 42.

66 نفس المصدر السابق. ص 43.

وجاء في أحد التقارير البريطانية السرية في هذا الصدد ، والذي لخصه لنا الدكتور عبد الجليل الطاهر ، ما يلي: "إن وجود قوات عظيمة من الجيوش البريطانية-النظامية أو غير النظامية- حجب الوضع الحقيقي عن الأنظار وخلق شعوراً موهوماً بالطمأنينة والاستقرار ، بل علل البعض ذلك الهدوء بكفاءة الإدارة المدنية ، ولكن هذا البعض نسي أن ذلك الهدوء قائم على الدعم الأجنبي . أما في المستقبل فيجب معالجة الأوضاع المتأزمة دون اللجوء إلى استخدام القوة . ومن الخطأ حقاً أن يتخيل المرء بإمكانية تحقيق ذلك بوضع بعض القواعد مهما كانت جذابة لأولئك الذين تسحر قلوبهم الأفكار الحديثة . إن فرض القانون المدني في المناطق العشائرية يتطلب القوة . . . ولا يغيب عن البال ، أن توازن القوى السياسية في أيدي طبقة الأفندية الصغيرة الحجم والقليلة العدد ، في بلد يتألف من عشائر مسلحة تسليحاً تاماً . فعلى الإدارة البريطانية أن تعتمد من أجل المحافظة على سلطتها في المناطق العشائرية على قدرتها في الحفاظ على توازن القوة بين شيوخ العشائر"67 . والجدير بالإشارة إلى أن سلطات الاحتلال البريطاني منعت ولسنوات عديدة تعزيز وتوسيع الجيش العراقي لضمان بقاء العشائر قوة قادرة على الضغط المستمر على الحكومة العراقية وأداة مهمة بيدها ضد قوى المعارضة العراقية التي كانت تضغط على الحكومة لانتهاج سياسة شديدة إزاء رغبات بريطانيا في العراق

• خلق قوة اجتماعية في الريف موازية للقوى الاجتماعية الأخرى في المدينة ، خاصة وأن جمهرة من أبناء فئات المدينة ، وعلى رأسهم "الأفندية" ، أي المثقفين والمتعلمين وموظفي الدولة ومستخدميها ، قد دلل الكثير منهم على تمردهم على السلطات البريطانية ورفضه لكثير من القيود والمصالح التي كانت تريد فرضها على البلاد . إذ جاء في أحد التقارير البريطانية الذي كتبه مسؤول سياسي بريطاني في عام 1918 ونقله إلينا هنا بطايطو ما يلي: إن "الحفاظ على النظام القبلي لأطول ما يمكن هو الأفضل ، وعندما يسقط هذا النظام في النهاية لأسباب طبيعية ، يؤمل أن . . . لا يسمح لأي بغدادى وضيق الولادة الرقص على قبره قبل الأوان وبلا لياقة"68 . وفي هذا تعبير عن استعلاء صارخ و صلف واحتقار لا مبرر له من جانب أغلب الموظفين البريطانيين "للأفندية" العراقيين ، واستخفاف بإمكانياتهم . وكانت جيرترود بل بدورها تخشى المثقفين والمتعلمين وتريد إبعادهم عن الهيمنة على الحكم ، إذ رأت فيهم مصدراً لاحتتمال مناهضة الحكم البريطاني في العراق بسبب وعيهم وروحهم الوطنية ، ولذلك كانت تفضل شيوخ العشائر على الأفندية لحكم البلاد69 . وكانت تعتقد بأن شيوخ العشائر يشكلون القوة التي يمكن الاعتماد عليها لتكريس وجودهم في العراق . ولم يكن عبثاً قولها بأن شيوخ العشائر يشكلون العمود الفقري للبلاد ، إذ كتبت في عام 1922 تقول: "أنهم الناس الذين أحب ، وإنى أعرف كل رئيس عشيرة له قدر ما من الأهمية في طول العراق وعرضه ، وأعتقد أنهم العمود الفقري للبلاد"70 . ومثل هذا التقدير دل على الوعي الطبقي الذي تمتع به ممثلو الإمبريالية البريطانية حينذاك وفهمهم الواسع لطبيعة العلاقات الطبقية والاجتماعية التي سادت العراق حينذاك ، ودفاعهم الشديد عن مصالح بريطانيا وبالضد من مصالح العراق .

67 التقرير السري المرقم S.O. 2241 والمؤرخ في 19 كانون الأول/ديسمبر 1923. راجع في هذا الصدد: الطاهر، عبد الجليل د. العشائر العراقية. مصدر سابق. ص 43.

68 بطايطو ، حنا د. العراق. الكتاب الأول. مصدر سابق. ص 113.

69 الطاهر، عبد الجليل د. العشائر العراقية. مصدر سابق. ص 42.

70 نفس المصدر السابق. ص 113/114.



ولكن قوات الاحتلال البريطاني لم تكن موحدة في وجهة نظرها في هذا الصدد ، إذ كان هناك من يرى عكس ذلك ، ويرجح التعامل مع المثقفين والمتعلمين ، وكان يخشى ولا يرى فائدة قصوى من التعاون والاعتماد الزائد على شيوخ العشائر . فقد جاء في أحد التقارير البريطانية ما يلي: "إننا نميل إلى أن ننظر إلى الشيخ ، كشيخ ، على أنه ذو أهمية كبيرة في حفظ النظام في مقاطعته ، في حين أن الحقيقة هي أنه يكاد يكون رئيساً سورياً فحسب ، ليس له سوى قوة قليلة تضاف إلى ما يحصل عليه من دعم من الحكومة . وليس لشخصية الشيخ في هذا القطاع أكثر من حساب ضئيل جداً . لقد وقعنا في خطأ المبالغة في تقدير قيمته واستشارته أكثر من اللزوم ، وإلى درجة استبعاد رجال متعلمين وبعيدي النظر من طبقات أخرى . . . . لقد فقدنا القدرة على رؤية حقيقة أن الشيخ لا يمثل المصالح الزراعية ، لا من وجهة نظر "السركال" ولا من وجهة نظر الفلاحين الآخرين" 71 . وكان هذا التقدير من بين أحد العوامل المهمة التي اعتمدها بعض المسؤولين السياسيين والعسكريين البريطانيين في تعاملهم مع بعض شيوخ العشائر والسعي لإهانتهم بمختلف الطرق ، كما حصل مع الشيخ ضاري .

ومع ذلك فقد كان المخطط البريطاني يرمي إلى السير بالعراق وفق ثلاث مراحل ، وهي: مرحلة هيمنة شيوخ العشائر على المناطق المختلفة واعتمادهم في الحكم على عشائريهم ، ثم العبور منها إلى مرحلة الحكم المزدوج بين شيوخ العشائر والموظفين البريطانيين الذين يمثلون الإدارة البريطانية للقيام بجباية الضرائب وحماية الأمن ، والتي لاقت عدم استحسان من جانب شيوخ العشائر ، في حين كانت المرحلة الأولى مناسبة جداً لهم . ثم الانتقال إلى المرحلة الثالثة حيث تؤخذ السلطة من شيوخ العشائر وتركز بيد الحكام السياسيين البريطانيين ومعاونيهم ، إضافة إلى تكوين مجالس عشائرية مساعدة لهم 72 . وكانت سلطات الاحتلال البريطاني تسعى في الوقت نفسه إلى توطيد مشاركة رئيسية للإقطاعيين في حكم البلاد ، من خلال وجودهم المباشر في السلطة التشريعية - مجلس النواب ومجلس الأعيان- ، وتمثيلهم القوي في السلطة التنفيذية أيضاً . وكان تحقيق هذا الهدف يستوجب تأمين الهيمنة الاقتصادية لشيوخ العشائر من خلال توزيع الأراضي عليهم ، ومن خلال دعمهم سياسياً ، إضافة لما يملكونه من تأثير اجتماعي على الفلاحين والريف عموماً . ومن الجدير بالإشارة أن الحكومة البريطانية وحلفائها في العراق مارسوا المرحلة الأولى والثانية حتى نهاية عهد الانتداب في عام 1932 ، وانتقلت بعدها السلطة إلى العراقيين مباشرة . ولكن الحكم بقى موزعاً بين الفئات الاجتماعية المالكة للأرض والكومبرادور والبرجوازية البيروقراطية الماسكة بزمام الحكم ، وبالتحالف التبعية الوثيق مع بريطانيا حتى سقوط الملكية في العراق في عام 1958 .

• بدأت سلطات الاحتلال البريطاني منذ وقت مبكر ، أي منذ عام 1918 وواصلتها في السنوات اللاحقة ، بتوزيع الأراضي الصالحة للزراعة على شيوخ العشائر وبعض المتنفذين وكبار التجار والعوائل الميسورة في بغداد وغيرها من المدن العراقية بصيغ مختلفة . ومنح في عام 1927 الحق لمن ينصب مضخة مائية أن يتصرف بتلك الأرض الزراعية ، ومن ثم اعترف له فيما بعد بحق تملكها أيضاً . ولم يكن هناك من يستطيع القيام بمثل هذا العمل سوى أصحاب الأموال في المدن ، وهم في الغالب الأعم من التجار أو موظفي الدولة ، وشيوخ العشائر . ولكن سلطات الانتداب ، وبالتعاون مع الحكومة العراقية ، بدأت منذ عام 1929 بتنفيذ مشروع جديد يهدف بشكل مباشر وواضح ممارسة عملية تحويل سريعة

71 نفس المصدر السابق. ص 114.

72 الطاهر، عبد الجليل د. العشائر العراقية. مصدر سابق. ص 45/44.

لشيوخ العشائر والتجار في مختلف أنحاء العراق الملكي إلى ملاكين كبار للأرض الزراعية . ففي عام 1929 "استقدمت الخبير البريطاني أرنست داوسن ، الذي كان يشغل وظيفة المساح العام في مصر ، لتقديم مقترحاته حول سبل معالجة مشكلة الأرض وإيجارها والتزامها في العراق . وفي عام 1931 قدم داوسن تقريره ، الذي أصبح الخط العام الذي اهتدى به المشرع العراقي لوضع تشريعاته بشأن حقوق التصرف بالأرض الزراعية في العراق 73 . ولخص عزيز سباهي الخطوط الرئيسية لهذا التقرير والمقترحات التي تضمنها كما يلي:

- 1 . اعتبار الوحدات الكبيرة ذات أهمية بالغة من الوجهتين الإدارية والاقتصادية .
2. تثبيت حقوق التصرف في الأرض . وبغية تعيين حدود ذلك التصرف اقترح:
  - أ - إجراء تسوية لحقوق الأراضي على أن يراعى في ذلك: القبول إلى أبعد الحدود بطرق التعامل المألوفة والعرف المتبع والاعتراف بالأمر الواقع .
  - ب - الأخذ باللزمة كاعتراف قانوني بالحقوق المدعى عليها في الأراضي الأميرية . ولكن لما كانت لزمة العشيرة السابقة قد تضاءلت وحلت محلها ادعاءات فردية ، فإن من حق الذين يشغلون أرضاً أميرية ويزرعونها أن يواصلوا ذلك إن لم يكن هناك اعتراضات مقابلة .
  - ج - وحتى إكمال التسوية المنشودة ، فإن الأراضي غير المملوكة أو المفوضة بالطابو تظل في أيدي الذين كانوا يتصرفون بها منذ عشر سنوات وأكثر ، على أن يدخل هؤلاء في عقود إيجار مع الحكومة يراعى فيها التعامل الجاري وقابلة للتجديد .
3. تشكيل جهاز خاص بتسوية حقوق الأراضي"74 .

ويستدل من التقرير على أنه كان يتضمن مسالتين:

\*\* فهو من جانب قد النزم بشكل واضح جانب شيوخ العشائر الذين هيمنوا قبل ذاك على مساحات واسعة من الأراضي الزراعية التي كان حق الانتفاع منها يعود في حينها إلى كل أفراد العشيرة بدون استثناء؛

\*\* ولكن التقرير ، من الجانب الآخر ، كان حمال أوجه ، وكان في مقدور المسؤولين عن تنفيذه تحويل جملة من مضامينه لصالح أفراد العشيرة والفلاحين .

ولكن الحكام في العراق حينذاك ، وكذلك سلطات الاحتلال البريطاني ، لم يكونوا إلى جانب أفراد العشائر والفلاحين ، بل كانوا إلى جانب شيوخ العشائر وكبار المستحويين على مساحات واسعة من الأراضي الزراعية . وعلى هذا الأساس صدرت مجموعة من القوانين خلال الفترة الواقعة بين 1932 و1938 لتنظيم العلاقات الإقطاعية عملياً في العراق وتكرسها وتستبيح أراضي الدولة والتي كانت تحت تصرف أفراد العشائر بصورة مشتركة وتسجلها بأسماء شيوخ العشائر وغيرهم من أفراد العائلة الملكية والوزراء وكبار موظفي الدولة وميسوري المدن . ونشير فيما يلي إلى أبرز تلك القوانين:

"قانون تسوية حقوق الأراضي رقم 50 لسنة 1932 ، وقانون اللزمة رقم 51 لسنة 1932 ، وقانون العقر رقم 55 لسنة 1932 ، وكذلك القانون 51 لسنة 1932 ، وقانون حقوق وواجبات الزراع رقم 28 لسنة 1933 ، وقانون استملاك الأموال غير المنقولة رقم 43 لسنة 1934"75

73 الكاظمي، نصير سعيد (عزيز سباهي). الحزب الشيوعي والمسألة الزراعية في العراق. مصدر سابق. ص 108.

74 نفس المصدر السابق. ص 108.

75 نفس المصدر السابق. ص 109.

- راجع أيضاً: حبيب، كاظم. دراسات في الإصلاح والتعاون الزراعي الإنتاجي. مصدر سابق. ص 41.

، وقانون تسوية حقوق الأراضي الثاني رقم 29 لسنة 761938 . وكانت هذه القوانين قد وضعت ونفذت بما ينسجم كلية مع مصالح شيوخ العشائر والمستحوذين على مساحات واسعة من الأراضي الزراعية ، في حين أنها سلبت الفلاحين حقوقهم المشروعة في الأرض ومنعتهم حتى من حق الاعتراض على عملية السلب الجارية ضدهم . لقد أكدت هذه القوانين على تحالف المصالح الذي تم بين سلطات الاحتلال البريطاني ، سواء قبل رفع الانتداب ، ودور المستشارين البريطانيين بعد إلغاء الانتداب ، من جهة ، والحكومات العراقية المتعاقبة التي كانت تعمل لصالح شيوخ العشائر وكبار موظفي الدولة وميسوري المدن من جهة ثانية ، والمشرع العراقي ، أي مجلس النواب ومجلس الأعيان من جهة ثالثة لتكريس مصالح الإقطاعيين والحاقد أكبر الضرر بالفلاحين . ورغم أن هؤلاء جميعاً كانوا يمارسون سياسة تعزيز مواقعهم في الاقتصاد والمجتمع العراقي ، فأنهم كانوا من خلال تلك السياسة يدقون أسفين المزيد من العداء بين الجماهير الواسعة من الفلاحين وأفراد العشائر وأوساطاً واسعة من سكان المدن من عمال ومتقنين وموظفي دولة من جهة ، والفئات الحاكمة والمالكة لوسائل الإنتاج وسلطات الاحتلال البريطاني من جهة أخرى ، والذي تفاقم بمرور السنين ، حتى لم يعد ممكناً حله بالطرق الاعتيادية . ، وفي ضوء هذه القوانين التي وزعت الأراضي الزراعية على أساس الطابو ، واللزما والأراضي الأميرية الصرفة ، نشأت في العراق ثلاثة أنواع من الملكية وحق التصرف في الأرض الزراعية ، وهي 77:

1. ملكيات كبيرة خاصة ، بما فيها ملكيات الوقف الديني .
2. الملكيات الصغيرة العائدة للفلاحين .
3. الملكيات العائدة للدولة .

وفي ضوء عمليات التسوية وفق القانون رقم 50 لسنة 1932 والقانون رقم 29 لسنة 1938 "كان ما يزيد عن مليون ونصف المليون دونم قد استحوذ عليها الملاكون ، أغلبها في بغداد والكوت والديوانية والعمارة والدليم ، ناهيك عن تلك الأراضي الأميرية الصرفة التي كان عدد من شيوخ العمارة وغيرها يستحوذون عليها فعلاً ويتصرفون بها عاماً بعد عام وكأنها ملكهم ، رغم أنها تدرج ضمن سجلات الحكومة على أنها أراضٍ مؤجرة ، . . . 78" . ويمكن ملاحظة ذلك من الجدول التالي:

#### حصيلة تطبيق القانون رقم 50 لسنة 1932

صنف الأرض	المساحة بالدونمات	النسبة المئوية
المملوكة	52426	1,0
المتروكة	65427	1,2
الموقوفة	138849	2,6
المفوضة بالطابو	1090685	20,6

76 حبيب، كاظم. دراسات في الإصلاح والتعاون الزراعي الإنتاجي. مصدر سابق. ص 41.

77 Bodagh, Jamil. Zu einigen Problemen der Ruckstaendigkeit der Produktivkraefte unter der Herrschaft der halbfeudalen Produktionsverhaeltnisse in der Landwirtschaft des Irak. Dissertation. Hochschule fuer Oekonomie. Berlin. 1966. S.14.

78 الكاظمي، نصير سعيد (سباهي، عزيز). الحزب الشيوعي والمسألة الزراعية في العراق. مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي. ط 1. دمشق. 1986. ص 120.

31:3	1661971	الممنوحة باللزمة
43:3	2299365	الأميرية الصرفة
100:0	5308723	المجموع

المصدر: الكاظمي ، نصير سعيد (سباهي ، عزيز) . الحزب الشيوعي والمسألة الزراعية في

العراق . مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي . ط 1 . دمشق . 1986

. ص 120 .

إن جميع هذه الإجراءات وغيرها ساهمت في بلورة مجموعتين رئيسيتين في المجتمع العراقي ، وهما: الفلاحون بمختلف فئاتهم ، والإقطاعيون وكبار ملاكي الأراضي الزراعية ، إضافة إلى وجود فئات اجتماعية أخرى مدينية ، كان بعضها امتداداً للماضي وبعضها الآخر على طريق النمو والتطور التدريجي . وكانت جمهرة الفلاحين بمختلف فئاتها المعدمة والفقيرة والصغيرة والمتوسطة تشكل القاعدة الأساسية والنسبة العظمى من السكان ، في حين شكل الإقطاعيون وكبار الملاكين الطبقة الحائزة على وسيلة الإنتاج الأساسية حينذاك ، الأرض الزراعية ، والمستثمرة لها والمستغلة للفلاحين ، وهم أقلية ضئيلة جداً من نسبة السكان . وكانت فئات الحرفيين والمتعلمين والمتقنين وأغنياء المدن ، إضافة إلى العمال ، تشكل أقليات اجتماعية لم تكن حتى نهاية الحرب العالمية الأولى تشكل وزناً كبيراً في الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، وأن كان وزنها السياسي والفكري قد شهدا نمواً ملموساً .

وتداخلت العلاقات الإقطاعية الاستغلالية بالعلاقات العشائرية والدينية في الريف العراقي ، سواء الريف العربي منه أم الكردي . إذ كان بعض الإقطاعيين يحتلون موقع شيخ عشيرة وحسب ، في حين كان البعض الآخر منهم يحتل موقعاً دينياً أيضاً . وغالباً ما نجد ذلك في المنطقة الكردية ، كما نجد في المنطقة العربية والكردية بعض الإقطاعيين من السادة أو الأشراف أو الأغوات ، على أساس أنهم يعودون بنسبهم بشكل ما إلى النبي محمد بن عبد الله . توزع ملاكو الأراضي الزراعية على شرائح اجتماعية عديدة في إطار الفئة المالكة أو المستحوذة والمستفيدة من الأرض الزراعية . وكان المحدد في هذا الصدد أيضاً ، إضافة إلى مساحات الأراضي التي تحت تصرفهم وعدد الفلاحين الذين يعملون على تلك الأرض ، الدخل السنوي المتحقق لهم ، بالارتباط مع خصوبة الأرض التي تحت تصرفهم وقربها من المياه أو الحصة المائية المتحققة لهم فعلاً ، وطبيعة المحاصيل التي تزرع في الأرض التي تحت تصرفهم ومعدل الغلة المنتجة في الدونم الواحد ، إضافة إلى طبيعة توزيع المحصول بين المنتجين الفعليين ، وهم الفلاحون بمختلف مراتبهم ، ومختلف مراتب الإقطاعيين المتصرفين بالأرض الزراعية ، وكذلك الثروة الحيوانية التي يمتلكونها . وكان لهذه المؤشرات تأثير بارز على دور شيخ العشيرة الملاك وتأثيره في عشيرته وفي المنطقة التي تخضع لسيطرته ، بغض النظر عن وجوده في الريف أم في المدينة ، إذ أن أغلب هؤلاء كانوا من سكنة المدن ، ولكن هذه المؤشرات لم تكن وحدها ، بل كانت تتداخل مع موقعه الديني أو علاقته بعلماء الدين أو بالعتبات المقدسة لدى الشيعة والسنة ، كما في حالة سدنة الروضة الحسينية أو الحيدرية في كربلاء والنجف ، أم بالنسبة لعائلة النقيب الكيلاني في بغداد بالنسبة لمقام الشيخ عبد القادر الكيلاني مثلاً ، أو بالنسبة إلى موقعه من الحكم مباشرة أو مشاركته فيه .

وتشير المعطيات التي تحت تصرفنا إلى أن الحكم الملكي بمساعدة الإنكليز استطاع خلال الفترة الواقعة بين 1918 ونهاية العقد الخامس تسجيل مساحات واسعة من الأراضي الزراعية بأسماء

شيوخ العشائر وبعض أفراد العائلة المالكة وبعض الوزراء وكبار موظفي الدولة وبعض سادة أو أشراف بغداد والمدن العراقية الأخرى والعديد من أصحاب الأموال التجار ، سواء الشمالية منها ، ومنها كردستان العراق ، أو مدن الوسط والجنوب . ويمكننا أن نشير هنا إلى أن كبار ملاكي الأراضي الزراعية يتوزعون على فئتين أساسيتين هما:

1. الفئة الأولى المتكونة من شيوخ العشائر والأغوات ، وهم يستندون في ملكيتهم بشكل خاص على الأرض الزراعية ، باعتبارها وسيلة الإنتاج الأساسية في الزراعة ، ويستغلون الفلاحين على أساس ذلك ويتم توزيع الحاصل وفق مبدأ المحاصصة بين مالك الأرض والفلاح . أي أنهم يستحوذون على ما يطلق عليه ببيع الأرض الزراعية؛
2. الفئة الثانية المتكونة من بعض المنتسبين للبرجوازية التجارية والبرجوازية البيروقراطية الحاكمة (كبار موظفي الدولة) والعائلة المالكة وبعض أصحاب الأموال من أبناء العوائل الميسورة في المدن . وهم في علاقتهم بالأرض لا يعتمدون على الأرض الزراعية فحسب ، بل على رؤوس الأموال التي تحت تصرفهم أيضاً . إذ أنهم يحققون الربح من جهة أخرى من خلال علاقة ذات ثلاثة جوانب ، وهي: أ . شراء ونصب المضخات والحصول على حصة من الإنتاج لقاء إيصال المياه إلى الأرض الزراعية؛ ب . منح القروض المالية والحصول على فائدة عالية جداً تنتزع من الفلاحين ، علماً بأن بعض هؤلاء البرجوازيين يأخذون قروضاً من المصرف الزراعي التابع للدولة بفوائد واطنة جداً ، ويمنحونها للفلاحين بفوائد عالية جداً تفوق التصور وتصل إلى 60 % من مقدار القرض؛ ج . عبر شراء المحصول من الفلاح على الأخضر أحياناً وبعد النضج أحياناً أخرى ، ولكنها باستمرار بأسعار منخفضة جداً .

وعبر هذه العلاقات المتشابكة تطورت وتكرست في العراق ما يطلق عليه بالعلاقات الإنتاجية شبه الإقطاعية ، باعتبارها الشكل المميز لعلاقات الإنتاج في الريف العراقي ، التي تداخلت مع بعض أشكال من العلاقات الرأسمالية البسيطة ولكنها ذات طبيعة استغلالية عالية جداً . وكما هو معروف فإن هذه العلاقات تتميز بخصائص أربعة جوهرية ، وهي:

أ - الخصيصة الأولى: امتلاك خاص لمساحات واسعة من الأراضي الزراعية أو امتلاك حق استخدام تلك الأراضي الزراعية<sup>79</sup> .

#### واقع توزيع الأراضي الزراعية في العراق في عام 1952/1953

نسبة ملاكي الأراضي الزراعية إلى مجموع السكان %	حجم الملكية الزراعية التي يمتلكها كل واحد بالمشاركة <sup>80</sup>	التوزيع النسبي لمجموع الأراضي الزراعية المملوكة لهذه الفئات %
416، 1	من 1 إلى أقل من 100	9
0، 452	من 100 إلى أقل من 1000	31
051/0	من 1000 إلى أقل من 10000	40
004، 0	من 10000 مشاركة فأكثر	20
230، 1	من 1 إلى أكثر من 10000	100
077، 98	-	صفر
100، 00 % إجمالي الأراضي	1 - إلى أكثر من 10000 مشاركة	100، 00 %

79 Marx, Karl. Das Kapital. Dietz Verlag. B. III. Berlin. 1959. S. 663.

80 الدونم الواحد يساوي 2500 متر مربع ، أي ربع هكتار. وكذا المشاركة.

ويستدل من الجدول في أعلاه على أن أكثر من 98 % من سكان العراق ، وجلهم من سكان الريف والبادية كانوا محرومين من الأرض الزراعية ، وأن نسبة 0،004 % من السكان فقط كانت تهيمن على 20 % من الأراضي الزراعية وأن نسبة 0،051 % من السكان كانت تستحوذ على 40 % من الأراضي الزراعية . وأن نسبة 0،828 % ، أي أقل من واحد بالمائة من السكان ، كانت تستحوذ على 91 % من الأراضي الزراعية في العراق . وهي صورة قاتمة لا تحتاج إلى تحليل كثير لواقع وطبيعة الإقطاع في العراق .

ب - الخصيصة الثانية تحقيق المالك أو المستحوذ على الأرض الزراعية على دخله السنوي من ريع الأرض الناتج من عمل الآخرين في الأرض ، وهو في الغالب الأعم لا يدفع أية ضريبة للدولة باعتبار الأرض ملكاً له ، وفي حالة واحدة يدفع المستفيد من الأرض الأميرية الصرفة ضريبة منخفضة جداً للدولة يفتطعها من حصة الفلاح أساساً وبطرق شتى؛

ج . الخصيصة الثالثة: يمتلك المالك للأرض الزراعية أو المستحوذ عليها بطرق شتى حق التصرف عملياً وبصورة غير مباشرة بالفلاحين الذين يعيشون على تلك الأرض ويعملون فيها ، وهي علاقة تصل إلى مستوى القنائة في العلاقة بين الإقطاعي والفلاح الفقير المنتج للدخل<sup>81</sup> .

د . إن المالك أو المستحوذ على الأرض الزراعية بصورة "قانونية" ، يحتكر أيضاً المياه الضرورية لسقي المزروعات عملياً ، سواء بسبب امتلاكه للمضخة أم بسبب موقعه كمالك للأرض الزراعية ، إذ أن الدولة توفر له مثل هذا الحق ، ويستفيد من السدود التي تقيمها الدولة دون أن يدفع لها مقابل ذلك شيئاً ، ولكنه يفتطع من الفلاح حصة خاصة له تسمى حصة الماء دون وجه حق<sup>82</sup> . وعليه فإن عملية احتكار الماء ناشئة من التركيز الشديد للأرض الزراعية بيد عدد قليل من كبار ملاكي الأراضي الزراعية وعن موقعهم المتميز في الحكم المعبر عن مصالحهم .

إن ظاهرة التركيز والتمركز في الملكية والاستحواذ على الأرض الزراعية تعتبر السمة الأساسية المميزة للعلاقات الزراعية في الريف ، وهي التي تحققت بفعل النشاط الواسع لسلطات الانتداب البريطاني والخبراء البريطانيين لتحقيق مصالحهم ومصالح الفئات الحاكمة والعائلة المالكة . وأصبح العراق بفعل ذلك جحيماً لا يطاق بالنسبة لنسبة عالية من الفلاحين بمختلف مراتبهم .

إن الأحصائيات الرسمية للدولة العراقية تشير إلى أن 80 % من الفلاحين كانوا لا يملكون أرضاً زراعية حتى ثورة تموز عام 1958 ، وأن 20 % منهم فقط كانوا يملكون أرضاً زراعية ، ولكنها موزعة توزيعاً غير عادل وغير فعال ، إذ كان البون هائلاً بين الملكيات الصغيرة والكبيرة . فكان التركيز شديداً عند مجموعة صغيرة من كبار ملاكي الأراضي الزراعية . فعلى مستوى العراق وجدت ست عائلات كانت كل عائلة منها تمتلك أرضاً زراعية تزيد عن

81 Marx, Karl. Randglossen zum Programm der deutschen Arbeiterpartei. Ausgewählte Schriften. B. II. Dietz Verlag. Berlin. 1960. S. 11.

82 Bodagh, Jamil. Zu einigen Problemen der Rueckstaendigkeit der Produktivkraefte unter der Herrschaft der halbfeudalen Produktionsverhaeltnisse in der Landwirtschaft des Irak. Dissertation. Hochschule fuer Oekonomie. Berlin. 1966. S. 18-25.

500000 دونم ، وهي العائلات التالية: نايف ومحسن آل جريان ، عبد الرزاق وعبد العباس آل مرجان ، بلاسم وعبد الله آل ياسين ، إضافة إلى عائلتين كانت تمتلك كل منهما أكثر من مليون دونم وهما: أير ربيعة وموحان الخير الله 83 . وفي ما عدا ذلك كان هناك 530. 253 مالك للأرض الزراعية 8724 منهم يستحوذون على أكثر من 70 % من الأراضي الزراعية ، في مقابل 530. 244 مالك للأرض الزراعية لا تزيد مساحات الأراضي التي بحوزتهم عن 30 % من الأراضي الصالحة للزراعة والبالغة مساحتها في العراق حينذاك 813. 154. 32 دونم 84 . ويورد حنا بطاطو دراسة معمقة وتفصيلية وغنية بالأرقام عن لواء العمارة (ميسان حالياً) ، باعتباره نموذجاً صارخاً لبقية ألوية العراق في العهد الملكي ، تتوضح فيه التطورات التي حصلت في الملكية أو الاستحواذ على الأرض الزراعية في هذا اللواء وعلى مدخولاتهم السنوية وعن حالة الفلاحين في المنطقة . فعلى سبيل المثال تغير عدد وفنات حائزي الأراضي في العمارة للفترة الواقعة بين 1906 - 1951 على النحو الآتي:

#### عدد وفنات حائزي الأراضي في لواء العمارة للفترة 1906 - 1951

مجموع سكان اللواء في العام 1947		المجموع المقدر للمساحة المزروعة في العام 1930		مجموع مساحات حيازات الأرض في العام 1944		مجموع مساحات حيازات الأرض في العام 1951	
307021 نسمة	2672000 دونم	3647792 دونم	3422733 دونم				
السنة	مجموع عدد حائزي الأراضي	مشايخ	"سادة"	أبناء المدن	ملا		
1906	19	17		1	1		
1918	33	29	3	1			
1921	43	37	5	1			
1929	81	55	7	18	1		
1944	181		148				
1951	177		144				

المصدر: حنا بطاطو ، د . العراق . الكتاب الأول . مصدر سابق . ص 149 .

ويستدل من هذا الجدول على جملة من المسائل المهمة في السياسة الطبقيّة المتحيزة لصالح شيوخ العشائر وكبار المستحوذين على الأرض الزراعية وتشكيل القاعدة الاجتماعية الضرورية لدعم الوجود البريطاني في العراق ، والتي نشير إليها فيما يلي:

- بلغت الزيادة في عدد حيازات الأرض خلال الفترة الواقعة بين 1906-1918 (15) حيازة .
- وحصلت هذه الزيادة في العام 1918 حيث بدأت سلطات الاحتلال البريطاني بتوزيع الأراضي على شيوخ العشائر لكسبهم إلى جانبها . ثم ارتفع هذا العدد إلى 43 حيازة عائدة في الغالب لشيوخ العشائر مع عدد قليل للسادة ، لمواجهة ثورة العشرين ونتائجها حيث قفز العدد إلى 81 حيازة تركزت في الغالب في أيدي شيوخ العشائر .

83 Warriner, D. Land und Elend. Im Nahen Osten. Kairo. 1950. S. 142. In: Bodagh, Jamil. Zu einigen Problemen der Rueckstaendigkeit der Produktivkraefte unter der Herrschaft der halbfeudalen Produktionsverhaeltnisse in der Landwirtschaft des Irak. Dissertation. Hochschule fuer Oekonomie. Berlin. 1966. S. 17.

84 نفس المصدر السابق. ص 17.

- وبعد صدور قانون اللزمة وقانون التفويض بالطابو في عام 1932 وقانون التسوية الثاني لعام 1938 قفز عدد الحيازات من 81 إلى 181 حيازة في عام 1944 ، أي بنسبة قدرها حوالي 225 % . وبقيت النسبة العظمى من هذه الحيازات بيد شيوخ العشائر .
- وأدى هذا الواقع إلى ارتفاع كبير في مجموع مساحات حيازات الأراضي من 2672000 دونماً إلى 3647792 دونماً ، أو ما يعادل 136 ، 5% .
- وكانت حيازات الأراضي متباينة في توزيعها على شيوخ العشائر والسادة في لواء العمارة بين حيازات تتراوح بين 21-100 دونم و 10001 و 400000 دونم كما يوضحه الجدول التالي:

#### توزيع حيازات الأراضي في لواء العمارة في العام 1944

عدد حائزي الأراضي	مساحات حيازات الأراضي
9	من 12 إلى 100 دونم
29	من 101 إلى 1000 دونم
93	من 1001 إلى 10000 دونم
32	من 10001 إلى 30000 دونم
2	من 30001 إلى 50000 دونم
9	من 50001 إلى 100000 دونم
7	من 100001 إلى 400000 دونم
181	المجموع

المصدر: حنا بطاطو د . العراق . الكتاب الأول . مصدر سابق . ص 158 .

ومنه يستدل على أن نسبة عالية من مساحات الأراضي الزراعية قد تركت بأيدي عوائل محدودة جداً لا يزيد عددها عن 18 عائلة تراوحت مساحة الحيازات التي تحت تصرفهم بين أكثر من 10001 دونم و 400000 دونم ، وأن 7 من هؤلاء تراوحت مساحة الحيازة التي تحت تصرفهم بين 100000 - 400000 دونم . وبلغ مجموع المساحات التي تحت تصرف 4 عوائل من أبو محمد ، و 2 عائلة من إزيرج ، و 8 عوائل من بني لام و 2 عائلة من بني سعيد في العام 1951 حوالي: 1627110 دونماً . وهذا يعادل أكثر من 47 ، 5% من مساحة الحيازات كلها . أي أن 10 ، 2% من عدد الحائزين استحوذ على نسبة عالية جداً من الأراضي . ورغم الإجراءات التي اتخذتها الدولة لتنمية هذه الفئة على نطاق العراق كله وزيادة مساحات الأراضي الزراعية التي تحت تصرفها بمختلف أشكال الحيازة ، فأنها لم تكن تشكل سوى نسبة ضئيلة جداً من الشعب العراقي . فلو أخذنا عدد الملكيات الزراعية التي تتراوح مساحتها بين 1000 - وأكثر من 100000 دونم لوجدنا أنها لا تزيد على 3418 ملكية زراعية ، بغض النظر عن طبيعة الحيازة . وإذا ما افترضنا أن هذه الملكيات تعود لعائلات الإقطاعيين وكبار الملاكين والعائلة المالكة والوزراء وكبار موظفي الدولة وبعض الميسورين من سكان المدن ، فإن تقدير مجموع أفراد العوائل المستحوذة على الأرض لا يزيد في الغالب الأعم عن 50 ألف نسمة ، أو بمتوسط قدره 15 نسمة للعائلة الواحدة . وهي تختلف من الريف إلى المدينة . ووفق نتائج الإحصاء الزراعي لعام 1958 فإن هناك 5 عوائل عراقية تملك كل عائلة منها أكثر من



1000000 دونم ، و 19 عائلة عراقية تملك كل منها بين 50000 دونم وأقل من 100000 دونم ، وأن هناك 251 عائلة تملك كل منها بين 10000 دونم وأقل من 50000 دونم 85 . ولكن هذه الفئة الصغيرة من المستحوذين على الأرض الزراعية كانت تستخدم نسبة عالية من الفلاحين في تلك الأراضي وتسخرهم بشكل صارخ لصالحها وتستغلهم أبشع استغلال ، وبالتالي كانت تسيطر على النسبة العالية من الدخل المنتج في الريف والزراعة العراقية ، في وقت كانت البلاد أحوج ما تكون إلى الاستثمارات والتنمية الاقتصادية ، إذ كان النفط الخام حتى عام 1934/1933 لا يشكل إلا جزءاً ضئيلاً من إجمالي الناتج المحلي السنوي .

لم تمنح بريطانيا شيوخ العشائر القوة الاقتصادية في البلاد من خلال تسجيل الأراضي الواسعة بأسمائهم وإخضاع أعدادٍ غفيرة من الفلاحين للعمل عملياً في الأراضي التي تحت تصرفهم فحسب ، بل منحهم أيضاً السطوة السياسية والتشريعية في البلاد . إذ عمدت سلطات الاحتلال البريطاني ، وفيما بعد الحكومة العراقية ، إلى تعزيز مواقع شيوخ العشائر في السلطتين التشريعية والتنفيذية من خلال زيادة عدد ممثلي العشائر في المجلس النيابي ومجلس الأعيان من جهة ، وزيادة الأشخاص المؤيدين للإقطاع في التشكيلات الحكومية العراقية ، بغض النظر عن الفئة الاجتماعية التي يتحدرون منها ، إذ كان المهم بالنسبة لهم موقف هؤلاء من دور الإقطاعيين في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . وفي هذا الصدد أجرى حنا بطاطو تحليلاً قيماً وأورد أرقاماً ناطقة عن تطور سلطة الإقطاعيين وتمثيلهم في مجلس المبعوثان في الدولة العثمانية والمجلس النيابي العراقي . وتشير تلك الأرقام إلى الواقع التالي:

تمثيل المشايخ والأغوات في البرلمان في سنوات مختارة\*

النسبة المئوية	مجموع عدد النواب	المشايخ والأغوات	
9، 2	34 ***	1 **	- مجلس المبعوثان التركي 1914
3، 34	99	34	- الجمعية التأسيسية المتبناة بريطانياً 1924
			- برلمانات فيصل الأول للسنوات التالية:
3، 19	88	17	1925
8، 14	88	13	1928
9، 15	88	14	1930
5، 20	88	18	1933
9، 18	111	21	- البرلمان الذي تبناه العسكريون 1937
			- برلمانات عبد الإله أو نوري السعيد للسنوات التالية:
9، 31	116	37	1943
33، 3	135	45	1947
1، 34	135	46	1948
3، 36	135	49	1953
3، 35	135	49	1954 (حزيران/يونيو)
8، 37	135	51	1954 (أيلول/سبتمبر)
9، 35	145	52	1958

85 حبيب ، كاظم. دراسات في الإصلاح والتعاون الزراعي الإنتاجي. ط 1. مطبعة الغري الحديث، النجف. العراق. 1976. ص 44.

المصدر: بطاطو ، حنا د . العراق . الكتاب الأول . مصدر سابق . ص 130 .  
\* الأرقام لا تشمل الرؤساء العشائريين الذين كانوا في الوقت نفسه "سادة" أو زعماء طرق باطنية . وهذا يعني بأن العدد والنسبة ستكون أعلى مما هي مثبتة بالجدول .  
\*\* هذا النائب ابن لعائلة مشايخ في الأصل ، ولكنه لم يكن شيخاً نفسه .  
\*\*\* هذا عدد العراقيين فقط في المجلس ، وليس عدد كل النواب العثمانيين .

ويستدل منه على أن شيوخ العشائر ، وبالرغم من نفوذهم الواسع وسعة قاعدتهم السكانية ، سواء كانوا من القبائل الرحل أم المستقرة ، لم يكن لهم في مجلس المبعوثان سوى ممثل واحد من مجموع 34 مندوباً عن الولايات الثلاث الممثلة في هذا المجلس . كما أن هذا الشخص كان من حيث المبدأ مدنياً ، وهو عبد المحسن السعدون ، رغم انتمائه لعائلة آل سعدون في الناصرية . ومقابل هذا اتسع وتعزز تدريجاً وجود شيوخ العشائر وتمثيلهم في المجلس في الدورات المتلاحقة ، ومرّ بمرحلتين ، وهما:  
المرحلة الأولى: وتشمل الفترة الواقعة بين 1925 حتى نهاية دورة انتخابات عام 1937 . حيث تراوح العدد بين 13 و 21 من مجموع 88 نائباً و 111 نائباً؛  
المرحلة الثانية: وتشمل الفترة التي أعقبت أحداث 1941 ووقوف الكثير من شيوخ العشائر إلى جانب الإنكليز وعبد الإله ونوري السعيد ، حيث ارتفع التمثيل ليتراوح بين 37 و 45 في عامي 1943 و 1947 ، ثم ارتفع فيما بعد إلى 52 في عام 1952 من مجموع 116 في عام 1943 و 135 في الفترات اللاحقة و 145 نائباً في عام 1958 .  
كما احتل الشيوخ موقعاً متميزاً وقوياً في مجلس الأعيان العراقي في الفترة موضوع البحث ، إذ كان تعيينهم يتم بالاختيار والتنسيق بين الحكومة والملك وباستشارة من سلطات الاحتلال البريطاني أو السفير البريطاني فيما بعد .  
والجدير بالإشارة إلى أن هؤلاء الشيوخ ما كانوا يمثلون أفراد العشائر الرحل أو الفلاحية أو يعبرون عن مصالحهم ، بل كانوا يمثلون أنفسهم وعائلاتهم فقط . وكانت الانتخابات تزيف بالكامل لكي لا يفوز فيها سوى الذين تم الاتفاق حولهم مع الحكومة والمتصرفين والقائمقامية في الألوية والأقضية ، كما هو حال التزوير الذي كان يشمل المدن أيضاً . وأورد حنا بطاطو مقطعاً مهماً من تقرير سري بريطاني كتبه مفتش إداري بريطاني ووجهه إلى المستشار البريطاني في وزارة الداخلية في عام 1930 جاء فيه: "يمكن تقسيم الانتخابات عموماً إلى ثلاث مراحل . أولاً ، يضع القائمقام نفسه في موقع قوي ما أمكنه باختيار الرجال المناسبين للاقتراع عليهم كأعضاء للجنة التفتيش . ثانياً ، يجب على القائمقام أن يرتب إرسال رجل ذكي من اللجنة إلى المركز (المحطات) الخارجية لضمان ألا يصبح الشيخ فائق القوة بانتخاب كل أقربائه ، إضافة إلى القهوجي وكل الطفيليين الآخرين المرتبطين "بالمضيف" ، كناخبين ثانويين . لقد عرفت حالات لمشايع تلاعبوا بالانتخابات بحيث سيطروا هم على كل الأصوات الثانوية في العشيرة وكانوا بذلك في موقع بيع ثلاثين صوتاً أو أكثر بالمزاد لمن يدفع السعر الأعلى . بعد أن يتم ترتيب المرحلة الثانية كما يجب ، يصبح الوضع عندها جاهزاً للمرحلة الثالثة والأخيرة ، أي لانتخاب النواب ، الذي يتم ، كما يعرف كل إنسان ، بشكل غير رسمي قبل الحدث من قبل المتصرف في خصوصية مكتبه ومكتب القائمقام صاحب العلاقة" 86 . وكانت

86 بطاطو، حنا د. العراق. الكتاب الأول. مصدر سابق. ص 129.

العملية تجري في فترة الملك فيصل الأول لصالح أحد الأطراف الثلاثة: سلطات الاحتلال البريطاني أو ، فيما بعد ، السفارة البريطانية ، الحكومة العراقية ، والملك فيصل الأول ، أو ، فيما بعد ، عبد الإله . وكانت تجري إما بالتنسيق بين هذه الأطراف أو عبر المنافسة والصراع لكسب متصرفي هذا اللواء أو ذاك من جانب هذا الطرف أو ذاك أو عبر تحالف طرفين ضد الطرف الثالث ، ولكنها في المحصلة النهائية تخدم مصالح التحالف العام ، وضد مصالح البلاد وتزويراً لإرادة الشعب .

ولم يكن تمثيل الشيوخ في السلطة التنفيذية يتم على أساس الانتماء العائلي ، بل على أساس المصالح التي يلتزم بها ويدافع عنها . وكانت الحكومات المتعاقبة عموماً وأغلب الوزراء الذين شاركوا في تلك الحكومات يعبرون في سياساتهم عن مصالح الفئات الإقطاعية والكومبرادور الجاري والفئة البيروقراطية الحديثة التكوين ، ويجسدون إلى حدود بعيدة تحالف هذه الفئات مع بريطانيا . ولا شك في أن قلة من شيوخ العشائر من استوزر منهم ، ومنهم عبد المهدي المنتفكي ، وقلة من أبناء شيوخ العشائر من المتمدنين ، ومنهم عبد المحسن السعدون ، إذ أن الغالبية العظمى منهم كانت أمية القراءة والكتابة ، إضافة إلى أن عدداً غير قليل منهم كان بعيداً عن فهم تعقيدات الأوضاع السياسية أو تحليل اتجاهات التطور . لذلك كانوا يكتفون بالتأثير السياسي العام ويمارسون التأثير الاقتصادي والاجتماعي المطلوب . وعندما كانت تنشأ اختلافات في وجهات النظر ، كانوا يستخدمون التهديد والوعيد أو التمرد والانتفاضة لإجبار الحكومة على تنفيذ رغباتها أو رغبات من تتعامل وإياه ، وبشكل خاص الطرف البريطاني . وفي هذا الاتجاه استثناءات أيضاً تؤكد القاعدة .

## 2 . فنات الفلاحين

شكلت مراتب الفلاحين العديدة والمتقاربة في مستويات معيشتها النسبة العظمى من سكان العراق خلال الفترة الواقعة بين قيام الحكم الوطني ونهاية العقد الخامس ، رغم الهجرة غير المنقطعة والكبيرة ، وأحياناً كثيرة ، الجماعية من مناطق معينة للفلاحين من الريف إلى المدينة . ولعبت الهجرة المتواصلة من البادية إلى المدينة دورها في التغطية على واقع الهجرة المتزايدة من سكان الريف إلى المدينة ، حتى أنها ساهمت في رفع نسبة سكان الريف في إجمالي السكان بين عامي 1905 و 1947 . ففي الوقت الذي بلغت نسبة سكان البادية في عام 1905 حوالي 17 ، 5 % ، تراجعت في عام 1947 إلى 3 ، 4 % فقط من إجمالي سكان العراق ، في حين ارتفعت نسبة سكان الريف من 58 ، 8 % في عام 1905 إلى 61 ، 9 % في عام 1947 من إجمالي السكان ، كما ارتفع سكان المدينة من 23 ، 7 % إلى 34 ، 7 % خلال ذات الفترة . أي أن التغيير جاء على حساب سكان البادية ، وهي ظاهرة إيجابية عموماً .

وإذا كانت الغالبية العظمى من فئة الإقطاعيين وكبار الملاكين ومجموعات من السراكيل تعيش في المدينة ، فإن الغالبية العظمى من الفلاحين كانت تعيش في الريف وتعمل في الزراعة في ما عدا مجموعات صغيرة منهم كانت تحاول العمل في مواسم معينة في المدينة لتعود وتعيش في الريف في مواسم أخرى ، أو أنها كانت تنتقل بين الريف والمدينة بسبب أوضاعهم المعيشية المتردية في الريف .

ساهمت قوانين تسوية حقوق الأراضي التي وضعها أرست داوسن في سلب الفلاحين المزيد من الأراضي الزراعية وحولهم إلى فلاحين يعملون بأشكال علاقات متنوعة لدى الإقطاعيين وكبار ملاكي الأراضي الزراعية والسراكيل . ورغم التباين في تلك الأشكال من العلاقة بين الفلاح والمستحوذ على الأرض في مناطق العراق المختلفة ، فإنها جميعاً كانت تجسد علاقات استغلال شبه إقطاعية . وكان الفلاحون في مثل هذه العلاقات لا يعتبرون ألقاناً تماماً ، ولكنهم لم يكونوا أحراراً تماماً أيضاً ، فهم بين الاثنين ويواجهون أبشع أشكال الاستغلال والقيام بأعمال السخرة لصالح المستحوذين على الأرض الزراعية والمتمتعين بامتيازات معينة لدى الإقطاعيين .

فما هي أشكال العلاقات التي وجدت حينذاك؟

• كانت هناك مجموعات من الفلاحين المالكين للأرض الزراعية ذات المساحة الصغيرة والمستقلة في نشاطها الزراعي . ولم يرتفع عدد هؤلاء الملاكين خلال الفترة موضوع البحث ، بل لوحظ فقدان عدد غير قليل منهم للأرض التي كانت بحوزته لأسباب عديدة ، بما فيها ادعاءات كبار الملاكين بعانديتها لهم ، أو بسبب تركهم للأرض وهجرتهم إلى المدينة لعجزهم عن مواصلة النشاط الزراعي بسبب الديون المتراكمة بذمتهم . . الخ . وكانت هذه الفئة من الفلاحين موجودة في مختلف مناطق العراق ، ولكن على نحو خاص في منطقة الفرات الأوسط وعموم وسط العراق .

• وكانت هناك مجموعات أكبر من الفلاحين تعمل لدى كبار الملاكين المستحوذين على الأرض الزراعية على أساس استئجار الأرض الزراعية وتقسيم الحاصل بين أطراف العلاقة . وكانت حصة المستحوذ على الأرض متباينة من منطقة إلى أخرى بالارتباط مع التقاليد والعادات التي درجت عليها المنطقة قبل ذلك . وكان الريع الذي يستحوذ عليه المستحوذ

على الأرض ومن حوله يشكل الحصة الكبرى من مجموع إنتاج الفلاح ، وما يبقى منه لا يسد الرمق ، ويجعل الفلاح مديناً أبداً للمستحوذ على الأرض . فإلى جانب الإقطاعي والملاك الكبير كان المحصول يوزع ، باعتباره ريعاً ، على النحو الآتي:

■ تتراوح حصة المستحوذ على الأرض الزراعية كريع ، سواء كان مالكاً لها أو ممنوحة له باللزمة أو مفوضة له بالطابو بين 40-75 % من المحصول السنوي في الأرض التي وضعت تحت تصرف الفلاح لزراعتها وفق المناطق المختلفة من العراق ووفق العادات والتقاليد التي كرسها المستحوذون على الأرض الزراعية 87.

■ " كان يتعين على الفلاح أن يدفع صنوفاً من الضرائب والإتاوات للملاك بحسب الأعراف المحلية المأخوذ بها في المنطقة . فقد كان يترتب على الفلاح أن يدفع أربع كيلات في كل مئة كيلة أو مناً واحداً في "التغار" \* من مجموع المحاصيل في لواء العمارة للحراس الذين يخدمون لدى الشيخ في حراسة المحصول منذ نضجه وحتى تقسيمه ، وتعرف هذه "الضريبة" ب "الشحنية" . ويدفع الفلاح في اللواء المذكور "القهوجية" وتعادل ثلاث كيلات في المئة ، أو مناً من كل "تغار" للرجل الذي يعد القهوة في مضيف الشيخ . ويدفع الفلاح مناً من كل تغار في الفرات الأوسط (خمس كيلات في لواء العمارة) لقاء ما كان يعرف بالمأمورية ، أي ضريبة "المأمور) الذي يتولى الإشراف على توزيع المياه . وفي منطقة الفرات الأوسط كان يتعين على الفلاح أن يدفع ما يعرف ب "البرطيل" وتعادل منين من كل تغار لسد نفقات المضيف . وفي العمارة يدفع الفلاح 5 % من المحاصيل لقاء ما يعرف ب "الغعدة" لتغطية مصروفات المضيف . وفي العمارة أيضاً يدفع الفلاح ثلاث كيلات إلى رجل الدين "المؤمن" . ويدفع إلى الوزان خمس كيلات . وكان على الفلاحين في العمارة أن يزرعوا قطعة الأرض المخصصة إلى علماء الدين المواليين لهذا الإقطاعي أو ذاك والتي تعرف ب "المحرمات" 88 .

• ووجدت إلى جانب هذه المجموعات الكبيرة من الفلاحين مجموعة أخرى يطلق عليها بالتعبية أو المغارسين . وقد انتشرت طريقة التعامل هذه في لواء البصرة وعلى نحو خاص . حيث كان المستحوذ على الأرض يقسم الأرض إلى قطع صغيرة ويضعها تحت تصرف الفلاحين لاستثمارها . "وطبقاً للعرف الذي كان سارياً ، كما يشير إلى ذلك عزيز سباهي ، فإن حقوق التعب كانت إما "طينية" وتعني أن للتعب ، بعد انتهاء مدة العقد ، الحق في ربع الأرض مع مغروساتها بعد إخراج "رقبة الأرض" منها . ورقبة الأرض هذه ، التي تعود بكاملها للملاك ، تعادل ربع كامل الأرض المزروعة بما فيها من مغروسات . وهذا يعني أن للتعب الحق في ربع الأرباع الثلاثة المتبقية ، أي 18 ، 75 % من مجموع الأرض

87 حبيب، كاظم. دراسات في الإصلاح والتعاون الزراعي الإنتاجي. مصدر سابق. ص 74.  
\* المن، وحدة وزن. وكذا التغار أو الطغار. ويتفاوت بعضها في المناطق المختلفة. وفي لواء العمارة كان (التغار) يعادل (10) ورنات والوزنة تعادل 100 حقة أو أقة اسطنبول والأقة تعادل كيلو وربع تقريباً. والمن بزن 40 حقة أو أقة. راجع: الكاظمي، نصير سعيد. الحزب الشيوعي والمسألة الزراعية في العراق. مصدر سابق. الهامش على الصفحة 166.

88 - الكاظمي، نصير سعيد. الحزب الشيوعي والمسألة الزراعية في العراق مصدر سابق. ص 166.  
- حبيب، كاظم. دراسات في الإصلاح والتعاون الزراعي الإنتاجي. مصدر سابق. ص 75/74.  
- بطاطو، حنا. العراق. مصدر سابق. الجزء الأول. ص 172.

المتعوبة . أو أن تكون هذه الحقوق "تثمينية" ، أي للتعاب بعد إكمال غرس الأرض قيمة 18، 75% من قيمة المغروسات فقط ، أي لا حق له في الأرض ذاتها"89 .

• ووجدت في الريف العراقي مجموعة من العمال الزراعيين الذين كانوا يعملون وفق أجرة يومية تدفع لهم لقاء أتعابهم . وكان أغلب هؤلاء العمال يشتغلون عند التعابة أو المغارسين في البصرة . وكانت أوضاعهم مزرية حقاً بسبب تردي أوضاع التعابة أنفسهم وقلة الدخل السنوي المتحقق لهم . وأغلب هؤلاء كانوا يستخدمون في زراعة البساتين أو في جني المحاصيل في مواسم معينة . وكان الأجر يدفع أحياناً بصورة عينية أو نقدية وفق وضع التعاب أو المغارس ووفق الاتفاق الذي يتم بين الاثنين . وغالباً ما كان التمر يشكل الأجر العيني الذي يدفع للعامل الزراعي 90.

ولا بد من الإشارة إلى أن الفلاح كان مضطراً إلى أخذ سلفة أو قرض من الإقطاعي المستحوذ على الأرض أو من المرابين الذين كانوا يمولون الفلاحين بالقروض لقاء فائدة عالية جداً تصل إلى حدود 60% 91 . وكان التجار ينزلون آخر ضربة بإيرادات الفلاح السنوية من خلال شراء محصوله بأسعار واطنة جداً ، إذ لا يكفي مردود الحاصل المتبقي لديه لإشباع حاجاته السنوية أو توفير ما هو ضروري لإعادة الإنتاج . وكانت عادة بيع المحصول "على الأخضر" سارية في مناطق مختلفة من الريف العراقي ، حيث كان الفلاح مجبراً عليها لتمشية أمور معيشته اليومية والتي كانت تجهز على مورده السنوي بسبب ضالة السعر الذي كان يشتري بها التاجر المحصول الزراعي قبل نضجه ، والتي أشار إليها تقرير فهد إلى الكونغرس الحزبي في عام 1944 92.

كانت حياة الفلاح العراقي وحياة عائلته كلها بؤس وفاقة وحرمان وجهل ، وكانت أنواع الأمراض تطاردهم يومياً وتقضي على حياة نسبة مهمة من الولادات الجديدة ، إضافة إلى الأمراض التي كانت تصيب الكبار وتقلل من أعمارهم . نقل حنا بطاطو عن الدكتور مهدي مرتضى مقطوعاً من تقرير كتبه الأخير عن "الأوضاع الصحية في العراق" جاء فيه ما يدل على الحياة القاسية التي كانت تعاني منها العوائل الفلاحية:

"كان المريض يدخل إلى المستشفى . وبمجرد إلقاء نظرة عليه تعرف أنه مصاب بالانكلستوما ، وهو ما يؤكد فحص البراز . أنك لتصعق من الدرجة القصوى لما يعانيه من فقر الدم والحالة الواضحة للجوع . فنسبة الهيموغلوبين في الدم (أي نسبة ما يحتويه الدم من حديد) وجدت أنها لا تزيد عن 20% . وكانت خلايا الدم الحمراء لديه مليون في كل سم<sup>3</sup> . واعتماداً على الحديد في الفم والغذاء تحسنت أوضاعه . وفي شهر واحد ارتفع الهيموغلوبين لديه إلى 50% وارتفعت خلايا الدم الحمراء إلى ثلاثة ملايين في السنتيمتر المكعب . أعطي علاج ضد الانكلستوما ، وهو ما لم تكن تسمح به حالته السابقة . وفي غضون أسبوعين ارتفع الهيموغلوبين إلى 65% وخلايا الدم الحمراء إلى 3، 5 مليون في السنتيمتر المكعب الواحد . وصار يشعر بحالة أفضل ، وبدأ التحسن واضحاً على قواه العقلية . وهو يرغب في العودة إلى بيته وعمله . ونضطر إلى السماح له بالعودة إلى ذات البيئة . وبعد عام أعيد إدخاله إلى المستشفى لنفس الحالة"93 . وكانت الهوسات (الأهازيج) الشعبية الفلاحية خير معبر عن

89 الكاظمي، نصير سعيد. الحزب الشيوعي والمسألة الزراعية في العراق. مصدر سابق. ص 169.

90 نفس المصدر السابق. ص 171.

91 فهد. كتابات فهد. مصدر سابق. ص 109.

92 نفس المصدر السابق. ص 109.

93 حنا بطاطو، العراق. الجزء الأول. مصدر سابق. ص 170.

حياة ومعيشة الفلاحين في الريف العراقي . تقول إحدى تلك الهوسات التي واجه قائلها مفوض الشرطة ، الذي ترأس مجموعة من قوات الشرطة القادمة لقمع تحركهم الشعبي ، ما يلي:

كريم يركب كاديلاك وأنا بليه نعال

اسمع يا مفوض

كريم ياكل عنبر وأنا بليه دنان

اسمع يا مفوض\*

يتحدد مستوى معيشة الفلاح العراقي بعدد من المؤشرات الاقتصادية والاجتماعية المهمة ، وأهمها:

1. مستوى ملكيته للأرض الزراعية ، انطلاقاً من أن الأرض أهم وسيلة إنتاج في الزراعة . ووفق أوضاع العراق حينذاك ، واستناداً إلى طريقة الزراعة القائمة على أساس نير ونير (النيرين) ، فإنه سيحتاج إلى 60 دونماً في الأراضي المروية و120 دونماً في الأراضي الديمة (المطرية) لكي يستطيع الحصول على الحد الأدنى لمعيشته وأفراد عائلته . ويمكن للجدول التالي توضيح علاقات الملكية في العراق 94 .

توزيع الفلاحين وأصحاب الأراضي على مجموعات وفق ملكيتهم للأرض

المجموعات	مساحة الأرض الدونمات	نسبتها إلى الأراضي الصالحة للزراعة	نسبة المنشآت الفلاحية إلى المجموع	نسبتها إلى مجموع القادرين على العمل في الريف
فلاحون بلا أرض ومستأجرون	-	-	-	80 %
فلاحون فقراء	أقل من 60 دونم	5، 7	7، 78	9، 14
صغار الفلاحين	بين 60-100	1، 5	0، 9	8، 1
متوسطو وكبار الفلاحين	بين 100-400	0. 16	3، 12	3، 2
كبار الملاكين		4، 71	-	6، 0

Bodagh، Jamil . Zu einigen Problemen der Ruckstaendigkeit der Produktivkraefte unter der Herrschaft der halbfeudalen Produktionsverhaeltnisse in der Landwirtschaft des Irak .

Dissertation . Hochschule fuer Oekonomie . Berlin . 1966 . S . 32 .

ومنه يتبين أن حوالي 80 % من الفلاحين هم من الذين لا يملكون أرضاً زراعية ويعملون على أساس استئجار الأرض الزراعية من الملاكين ويعملون على أساس المحاصصة ، وأن أكثر من 95 % من الفلاحين لا يملكون أرضاً أو يملكون الحد الأدنى الضروري لتأمين معيشتهم وإعادة إنتاج قوة عملهم ، وأن 3، 2 % من الفلاحين ممن يعتبرون ضمن متوسطي وكبار الفلاحين ، في حين أن نسبة كبار الملاكين إلى المجموع لا يتجاوز 0، 6 % من المجموع .

\* كريم، اسم لأحد الإقطاعيين. كاديلاك، سيارة أمريكية مرفهة، بليه، بدون. نعال. (نعل) الحذاء الشعبي الواسع الانتشار في العراق. عنبر، نوع من الرز العراقي الممتاز، دنان، نوع من العشب غير النافع يختلط بالرز أثناء الحصاد.

94 Bodagh, Jamil. Zu einigen Problemen der Ruckstaendigkeit der Produktivkraefte unter der Herrschaft der halbfeudalen Produktionsverhaeltnisse in der Landwirtschaft des Irak. Dissertation. Hochschule fuer Oekonomie. Berlin. 1966. S. 32.

2. مقدار ملكيته من حيوانات الجر . ومن المعروف أن قلة من الفلاحين ممن يمتلك حيوانات الجر؛

3. مقدار ملكيته للماشية ، مثل الأغنام والماعز والبقر؛

4. مقدار حصته من المحصول السنوي؛

5. إجمالي وضعه المالي .

وفي ضوء ذلك يمكن الوصول إلى تحديد الفئات التالية في المجتمع الزراعي العراقي:  
فقراء الريف: تشكل هذه الفئة من الفلاحين الغالبية العظمى من أصحاب الملكيات الزراعية الصغيرة التي تقل مساحة الأرض التي تحت تصرفهم عن 60 دونماً وأحياناً لا تزيد عن خمس دونمات أو حتى أقل من ذلك . وهي تتوزع على مجموعتين كبيرتين هما: الفلاحين الفقراء والفلاحين المعدمين ، أو كما يطلق عليهم أحياناً بأشباه البروليتاريا . ويتحقق الدخل السنوي للفلاحين الفقراء من عملهم وأفراد عائلاتهم في الحقل وعلى الأرض التي تحت تصرفهم . وتشكل هذه الفئة الكبيرة 78، 8% من إجمالي أصحاب الملكيات الزراعية . وغالباً ما يصعب على هؤلاء الفلاحين تحقيق دخل مناسب لإشباع حاجاتهم وحاجات أفراد عائلاتهم الأساسية ، وتجديد قوة عملهم أو حتى تجديد الإنتاج الزراعي ، مما يدفعهم إلى طلب القروض من المرابين الذين يلتهمون جزءاً مهماً من محصولهم السنوي . وكثيراً ما فقد أفراد هذه الفئة أرضهم الزراعية بسبب الديون التي تراكت بذمتهم أو بسبب هجرتهم إلى المدينة هرباً من أوضاع المتردية . ويضطر البعض من هؤلاء إلى العمل بأجرة في بعض المواسم الزراعية عند أغنياء الفلاحين أو كبار الملاكين لتأمين دخل إضافي يساعدهم على العيش والبقاء في الريف . ويصعب وصف حالة الفلاحين المعدمين ، إذ أنهم لا يملكون أرضاً زراعية ، وبالتالي يلجؤون إلى استئجار قطعة أرض صغيرة للعمل مع أفراد عائلاتهم عليها . ويجري اقتطاع نسبة عالية من محصولهم السنوي لقاء إيجار الأرض ، أو كفايدة لقاء القرض الذي حصلوا عليه من المرابي . وأفراد هذه الفئة الكادحة غالباً ما يتركون الأرض التي استأجروها ويرحلوا إلى المدينة طلباً للرزق ، أو أنهم يعملون لقاء أجر في أراضي الإقطاعي أو السركال ، وأحياناً حتى دون أجر وما يسمى بالسخرة . إن أفراد هذه الفئة يشكلون المجموعة الأكثر فقراً وكدحاً والأقصر عمراً والأتعس عيشاً والأقل تمتعاً بخدمات الدولة والأكثر إصابة بالأمراض في المجتمع . وكان المهاجرون من هؤلاء إلى المدينة يعيشون في أوضاع بائسة جداً من حيث المأكل والملبس والسكن في أطراف المدن ، والكثير منهم يعاني من بطالة طويلة ، ومستعدون للعمل في ما يطلب منهم ، سواء كان في أعمال الطين أو النقل أو البيع بعربات في الشوارع أو في سلك الشرطة... الخ .

صغار الفلاحين: وهي الفئة التي تتراوح ملكية الأرض التي تحت تصرفها بين ستين دونماً في الأراضي المروية و100 دونماً في الأراضي الديمة (المطرية) . وأفراد هذه الفئة من صغار الفلاحين يحققون دخلهم السنوي من استهلاك قوة عملهم وأفراد عائلاتهم . ودخلهم السنوي يحقق لهم حداً أدنى من العيش في الريف ، ولكنهم غالباً ما كانوا يعانون من وطأة الديون التي بذمتهم إلى المرابين . وكانت الهجرة إلى المدينة مصير عدد غير قليل منهم ، مما سمح باستيلاء كبار ملاكي الأراضي على أراضيهم وبصيغ شتى . وفي المواسم الزراعية غير الجيدة ، حيث تقل الأمطار أو صعوبة الحصول على مياه لإرواء مزارعهم ، يجبرون على أخذ القروض من المرابين التي تبقى تطاردهم طويلاً وتصبح عبئاً ثقيلاً عليهم ، مما يقود إلى فقدان البعض غير القليل منهم إلى الأرض التي كانت تحت تصرفه أو ملكاً له .



متوسطو وأغنياء الفلاحين: إن السمة التي تميز هذه الفئة من الفلاحين هو مشاركة أفراد العائلة في الزراعة ، فدخلهم السنوي يحققونه بنشاطهم الاقتصادي أولاً ، وعبر تشغيل بعض العمال الزراعيين في مواسم الحصاد أو البذار مثلاً . وأغلب أفراد هذه الفئة من الفلاحين تملك ، إلى جانب الأرض الزراعية التي تتراوح مساحتها بين 100 - 400 دونم ، بعض حيوانات الجر ، إضافة إلى بعض المواشي . وفي الوقت الذي يقوم أفراد هذه الفئة باستغلال بعض الفلاحين الفقراء والعمال الزراعيين ، فإنهم يتعرضون لاستغلال المرابين والتجار أيضاً ، علماً بأن بعضهم يقوم بتسليف الفلاحين بنسبة فائدة عالية 95 ، وربما يستولي الفلاح الغني على أرض بعض صغار الفلاحين وفقراء الريف من جراء الديون المتراكمة بذمتهم له . وتسنى لعدد كبير من أغنياء الفلاحين وبعض متوسطيهم اقتناء مضخات نقل المياه أو بعض المكنائن الزراعية ، سواء عبر مدخولاته السنوية أو عبر قروض تمنح لهذا البعض لهذا الغرض من قبل المصرف الزراعي .

العمال الزراعيين: يحقق أفراد هذه الفئة الاجتماعية دخلهم اليومي نقداً أو عيناً من خلال بيع قوة عملهم . وبالكاد يكفي هذا الدخل لإشباع حاجاتهم وأفراد عائلاتهم وتجديد قوة عملهم . وانتشرت هوسية بين الأوساط العراقية في الوسط والجنوب تشير إلى واقع أجرة الفلاح اليومية الواطنة جداً بالقياس إلى الجهد الذي يبذله ، إذ أنها لا تزيد عن 300 فلس ، ولكنها كانت أفضل حالاً بالمقارنة مع فئات كادحة أخرى . ومن بين مت ترده هذه الهوسية (الأهزوجة) الشعبية: "شلون تموت وانت من أهل العمارة شلون تموت ويوميتك ثلثية" 96 .

وبمعنى آخر ، لم يعد لهذه العائلة العمالية الزراعية الفقيرة في لواء العمارة (ميسان حالياً) من يساعدها على توفير مصاريف العيش والحياة . وقدر عدد أفراد هذه الفئة من العمال الزراعيين حتى نهاية الحكم الملكي بحدود 40. 000 شخص 97 . أما الذين يعملون على أساس عيني ، فهم في الغالب يرتبطون بالعوائل التي يشتغلون لديها بأواصر القربى والعيش المشترك ، أو أولئك العمال البوساء الذين يشتغلون عند المغارسين أو التعابة الفقراء في لواء البصرة .

ومما هو جدير بالإشارة إلى أن تسارع انتقال البدو إلى حياة الاستقرار في الريف العراقي والارتباط بالنشاط والإنتاج الزراعي النباتي والحيواني لم يغير كثيراً من طبيعة العلاقات العشائرية القائمة بين عائلة شيخ العشيرة والعوائل المنتفذة الأخرى في العشيرة وبين أفراد العشيرة الذين تحولوا من بدو إلى فلاحين يزرعون الأرض ويحصدون الحاصل تحت إشراف ورقابة الشيخ وسراكيه بأشكال من العلاقات ذات المضمون الاستغلالي شبه الإقطاعي . حتى أن العلاقات العشائرية انتقلت من الريف إلى المدينة مع اتساع هجرة الفلاحين إلى المدينة بسبب أوضاع الريف وظروف حياة ومعيشة الفلاحين البائسة والاستغلال البشع الذي كانوا يتعرضون له . وقد استثمرت هذه العلاقات العشائرية المنتقلة من الريف إلى المدينة بصيغ مختلفة من جانب شيوخ العشائر لصالح تعزيز مراكزهم لا في الريف فحسب ، بل وفي المدينة

95 Bodagh, Jamil. Zu einigen Problemen der Rueckstaendigkeit der Produktivkraefte unter der Herrschaft der halbfeudalen Produktionsverhaeltnisse in der Landwirtschaft des Irak. Dissertation. Hochschule fuer Oekonomie. Berlin. 1966. S. 33/34.

96 كيف تموت وأنت من أبناء لواء العمارة الفقير، كيف تموت ولك أجرة تبلغ ثلاثمائة فلس في اليوم"، إنها تعبير عن الحسرة على موت الرجل وعلى الأجر الذي كان يحققه للعائلة الفقيرة.

97 Bodagh, Jamil. Zu einigen Problemen der Rueckstaendigkeit der Produktivkraefte unter der Herrschaft der halbfeudalen Produktionsverhaeltnisse in der Landwirtschaft des Irak. Dissertation. Hochschule fuer Oekonomie. Berlin. 1966. S.36.

أيضاً ، وبشكل خاص في فترة الانتخابات للحصول على أصواتهم الانتخابية . كما حافظ المؤمن أو السيد (الملة) على علاقاته بهؤلاء الفلاحين الذين انتقلوا إلى المدينة ، وكان يساهم في المحافظة على علاقات شيخ العشيرة بأفراد عشيرته المنتقلين إلى المدينة . وبذل المؤمنون ، وهم في الغالب من علماء الدين الشيعة الصغار ، جهداً كبيراً للمحافظة على تقاليد إقامة الطقوس المذهبية الشيعية في المناطق التي انتقل إليها الفلاحون في المدن المختلفة ، ومنها بغداد ، بما فيها إقامة التعازي في ذكرى استشهاد الحسين بن علي بن أبي طالب ، أو السفر بمواكب حسينية كبيرة إلى كربلاء لإقامة شعائر عاشوراء والحزن على مقتله . ونجحت العلاقات العشائرية في المدينة في إقامة صندوق خاص بكل عشيرة تجمع فيه التبرعات للإسهام بنشاطات مشتركة أو دفع فدية دم أو ما شاكل ذلك . ولا شك في أن علاقات المدينة كانت قد تركت تدريجاً طابعها الحضري على بنات وأبناء الفلاحين من الأجيال التالية وغيرت بعض أو الكثير من تقاليدهم وعاداتهم الريفية بمرور الوقت ، ولكنها لم تستطع تغيير طابع وتقاليد وعادات الجيل الأول أو الآباء والأمهات كثيراً .

### 3 . البرجوازية الوطنية والبرجوازية الصغيرة

كان الميسورون من سكان المدن في مختلف ألوية العراق ينتمون إلى الأشراف أو السادة أو شيوخ العشائر الذين انتقلوا للسكن في المدن ، أو التجار الذين ارتبطوا قبل الحرب العالمية الأولى بالشركات التجارية الأجنبية ، وبشكل خاص الشركات البريطانية . وكان كبار الموظفين يشكلون جزءاً من هذه المجموعة الميسورة من سكان المدن . وأصبحت هذه المجموعات السكانية الصغيرة المعين المباشر لبروز وتطور ثلاث فئات اجتماعية لعبت دوراً مهماً في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في البلاد ، ونعني بها البرجوازية التجارية بمراتبها المختلفة ومجالات نشاطها التجاري ، ومنها تشكلت فئة الكومبرادور ذات التبعية الفعلية والمباشرة للشركات التجارية البريطانية العاملة في العراق ، التي ارتبطت بمصالحها بوجود والنشاط الاقتصادي البريطاني . ومنها ومن بعض الحرفيين وأصحاب المهن الصناعية الحرة ، برزت في سنوات متأخرة من هذه الفترة فئة البرجوازية الصناعية التي اصطدمت بمصالحها بمصالح الإقطاعيين والكومبرادور وتعارضت مع مصالح الشركات الرأسمالية الأجنبية العاملة في مجال التجارة وتلك التي هيمنت على قطاع النفط الاستخراجي . ومن العوامل المرتبطة بهذه المجموعات السكانية برز القسم الأكبر من المثقفين والمتعلمين الأفندية في العراق والذين احتلوا مراكز مهمة في أجهزة الدولة المختلفة . وكانت هذه الفئات الاجتماعية الجديدة المعين الذي رقد الجيش العراقي بالوجبات المتتالية من ضباط الجيش العراقي .

وفي ظل الهيمنة الإمبريالية البريطانية وتفاقم الصراع بين قوى المعارضة ، ومعها جماهير شعبية واسعة ، وبين الشركات الرأسمالية الاحتكارية والوجود الأجنبي في العراق ، ومعها حلفائها من الفئات الحاكمة ، نشأت وتطورت ببطء شديد علاقات الإنتاج الرأسمالية في قطاع الصناعة ، وتركزت حتى نهاية الأربعينيات في مشروعات القطاع الخاص . وبفعل نضالات الشعب المتواصلة أمكن خلال الفترة موضوع البحث إعطاء ثلاث دفعات معجلة لعملية إقامة المشاريع الصناعية الحديثة في العراق:

1- في فترة الأزمة الخانقة التي اجتاحت العالم الرأسمالي بين 1929-1933 ، حيث أمكن ، تحت ضغط مجموعات من الوطنيين والمثقفين الواعين للخروج من واقع التخلف في العراق ، تحقيق أمرين مهمين في الفترة الأخيرة من العقد الثالث ، وهما:

- تأسيس "جمعية أصحاب الصنائع" في عام 1929 ، وهو يعبر عن وعي نقابي مبكر ، له تاريخه الطويل عند أصحاب الحرف في عراق العباسيين؛
- صدور قانون تشجيع الصناعة الوطنية في عام 1929 .

وإذا كان تأسيس الجمعية ثمرة جهود الفئة الواعية من العاملين في الحقل الصناعي والعمالي حينذاك ، دفاعاً عن مصالحهم ، فإن صدور قانون تشجيع الصناعة الوطنية جاء نتيجة نضال مؤسسي الجمعية ومطالبتهم المستمرة بصدوره ، الذي يفترض أن يقدم ما يشجع أصحاب الأموال العراقيين على توظيف رؤوس أموالهم في الصناعة ، ومنها على نحو خاص ، كما ورد في القانون: "... إعفاءات خاصة من ضريبة الدخل والمكوس وضريبة الأملاك ، كما سمح باستعمال الأراضي الحكومية غير المستغلة بشرط أن تلتزم المؤسسات بتنفيذ الشروط ، مثلاً أن البضائع المصنوعة يجب أن تكون بشكل يختلف عن المادة الخام المستعملة ، وأن تستعمل الطاقة البشرية في عمليات إنتاجها ، وأن نسبة المستخدمين من غير العراقيين لا تزيد

على 10% من مجموع الأيدي العاملة المستخدمة في المؤسسة (باستثناء الخبراء والفنيين) وأن رأسمال المؤسسة عند تأسيسها لا يقل عن 30،000 روبية (2250 ديناراً). أما الإعفاءات المسموح بها فكانت لمدة عشر سنوات عن ضريبة الدخل ولمدة خمس عشرة سنة عن الضريبة الجمركية على المكنان والمواد الخام، ولمدة عشر سنوات عن ضريبة العقار ولمدة غير محدودة عن ضريبة التصدير. وفي الوقت نفسه زادت الضريبة الجمركية المفروضة على المستوردات من التبغ والكحول والسجاد والحرير والحلويات<sup>98</sup>.

2- وفي الفترة التي أشعلت النازية الألمانية والفاشية الإيطالية والعسكرية اليابانية الحرب العالمية الثانية، حيث فرضت ظروف الحرب والتموين المستمر لجبهات القتال بالمعدات الحربية والاستهلاكية على الحكومة البريطانية التساهل أمام إقامة جملة من المشاريع الصناعية الاستهلاكية المعوضة عن نقص القدرات التصديرية للسلع البريطانية إلى العراق، إضافة إلى حاجة الجيش البريطاني إلى بعض من تلك السلع المنتجة محلياً؛

3- كما أمكن توسيع قاعدة الإنتاج الصناعي الوطني بعد الحرب العالمية الثانية وبخاصة في سنوات الخمسينات بالارتباط مع تصاعد النضال من أجل تأمين النفط في المنطقة وارتفاع حصة العراق المالية في نفطه المستخرج والمصدر من جانب شركات النفط الاحتكارية وتفاقم المشكلات الاجتماعية والبطالة في البلاد.

وخلال الفترة التي أعقبت الحرب شهد قطاع الصناعة التحويلية نمواً جديداً في نشاط قطاع الدولة إلى جانب القطاع الخاص بالارتباط مع إقامة مجلس الإعمار ووزارة الإعمار في أوائل الخمسينات وبناء على مقترحات من الخبراء الأجانب الذين زاروا العراق وقدموا توصياتهم بهذا الخصوص.

وخلال الفترة موضوع البحث ارتفع عدد المشاريع الصناعية الذي أقيم في العراق من 8 مشاريع في عام 1930/1929 إلى 52 مشروعاً صناعياً في عام 1945/1944، وإلى 149 مشروعاً صناعياً في عام 1950/1949<sup>99</sup>. ويمكن للجدول التالي أن يوضح هذا التوسع في إقامة المشاريع الصناعية في العراق.

#### تطور عدد المشاريع الصناعية في العراق خلال الفترة 1929-1949

السنة	عدد المشاريع الصناعية
1929	8
1933	38
1937	59
1941	77
1945	96

98 لانكلي كاثلين م. تصنيع العراق. مكتبة دار المتنبى - مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر. بغداد-نيويورك. مطابع دار التضامن. بغداد. 1963. ص 57/56.

99 وخلال الفترة التي الواقعة بين 1951/1950 - 1959/1958، وهي ليست ضمن إطار بحثنا، ارتفع عدد المشاريع الصناعية إلى 259 مشروعاً صناعياً. وإذا كان عدد العاملين في المشاريع الصناعية في عام 1930/1929 لا يزيد على بضعة عشرات من العمال فإنه بلغ في عام 1959 إلى حوالي 42800 عاملاً. (راجع في هذا الصدد الإحصاء الصناعي الشهري لسنة 1959. وزارة التخطيط، بغداد. 1961. ص 706). وتشير بعض الإحصائيات المتوفرة إلى أن عدد العمال العراقيين قد ارتفع حتى عام 1957 إلى 262000 عاملاً يشتغل في قطاعات الصناعة التحويلية (95200) والصناعات الصغيرة (75000) والنفط الخام (10600) والبناء (81200)، إضافة إلى 12000 عاملاً يشتغل في المرافق العامة. وبلغت قيمة الإنتاج الصناعي في عام 1957 مبلغاً يتراوح بين 25-30 مليون دينار عراقي. (راجع في هذا الصدد: الإحصاء الصناعي الشهري لسنة 1959. مصدر سابق. وكذلك الدكتور عبد الرحمن الجليلي. محاضرات في اقتصاديات العراق. معهد الدراسات العربية العالية. جامعة الدول العربية. مطبعة الرسالة. القاهرة. 1955. ص 80/79).

145	1949
-----	------

المصدر: حبيب ، كاظم . دراسة في اتجاهات التطور الصناعي في العراق للفترة 1917-1963 .  
مجلة الجامعة المستنصرية . العدد 2 - السنة 1971 . مطبعة سلمان الأعظمي . بغداد . ص 10 .

ويتبين من هذا الجدول أن سرعة نمو المشاريع الصناعية في العراق شهدت قفزة في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية ، وفي الوقت الذي ارتفع عدد امشاريع الصناعية خلال الفترة 1929-1945 من 8 إلى 96 مشروعاً ، أي بزيادة قدرها 88 مشروعاً وبمعدل سنوي قدره خمسة مشاريع ، ارتفع خلال الفترة 1945-1949 من 96 إلى 145 مشروعاً ، أي بزيادة قدرها 49 مشروعاً وبمعدل سنوي بلغ أكثر من عشرة مشاريع .  
ولا يوضح الجدول طبيعة المشاريع الصناعية التي أقيمت في العراق خلال هذه الفترة ، إذ أنها كانت مشاريع صناعية استهلاكية ذات حجوم صغيرة وإنتاج محدود وكثافة ضعيفة في عدد العاملين فيها وفي رؤوس الأموال الموظفة والتقنيات المستخدمة . ويمكن للجدول التالي أن يوضح طبيعة تلك المشاريع الصناعية لسنوات مختارة .

مجموع المؤسسات الصناعية التي استفادت من قانون تشجيع الصناعة العام  
للسنوات 1929 ، 1935 ، 1939 و 1945

1945	1939	1935	1929	السلعة المنتجة
19	13	4	2	الطابوق
3	3	2	1	حلج الأقطان
4	2	2	1	الدباغة
6	4	4	1	طحن الحبوب
8	2	2	1	الطباعة
6	4	3	1	الصابون
5	4	3	1	التقطير
1	1	1		عمل الفلين
8	10	12		السيكاير
1	1	1		الجوارب
2	2	1		أدوات المكنان الزراعية
1	1	1		استخراج الزيوت النباتية
3	1	1		عمل الأحذية
5	5	5		الشخاط
3	3	1		الكاشي
1	1	1		غطاء الرأس
1	1	1		الورق المقوى
1	1			الأوكسجين
1	1			منتجات اللبان
1	1			السلومايت
1	1			الجمعة (البيرة)
..	..			تحضير اللحوم والفواكه والبيض
1	1			الحلويات
1	1			الاسطوانات
1	1			المعروني
8	5	4		الغزل والنسيج
1	1			عمل الأزرار والخرز
1	1			عمل الجص
1				قطع الصخور
1				السمنت
96	87	53	8	المجموع

قارن: لانكلي ، م . كاتلين . تصنيع العراق . مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ومكتبة دار المتنبي . نيويورك-بغداد .  
1963 . ص 95/94 . مأخوذ عن: الحكومة العراقية . الخلاصة الإحصائية (1929-1945) .

ويستدل من هذا الجدول على أن النمو الصناعي لم يكن محدوداً فحسب ، بل ومشوهاً أيضاً من حيث حاجات السكان وإمكانيات السوق على الاستيعاب ، إضافة إلى علاقة سير الإنتاج بتوفر المواد الأولية لتلك الصناعات في الداخل . وكان إنتاج الطابوق أكثر الصناعات رواجاً في البلاد ، بسبب حاجتها إلى إقامة الدور والمشاريع المختلفة ، تلاها قطاع الغزل والنسيج باعتباره من القطاعات التقليدية في الإنتاج المحلي ، ثم تلاه قطاع الطباعة ، إذ كان اهتمام الناس بالتعليم ونشر الكتب والحركة السياسية قد فرض هذا النمو السريع نسبياً ، إضافة إلى سهولة العمل فيه . كما حظى قطاعي السيكايير والتقطير بحركة نشطة نسبياً لرواج سوقهما وتنامي عدد المدخنين وشاربي العرق العراقي المشهور . وبلغ رأس المال المدفوع لهذه المشاريع 3 ، 183 ، 741 ، دينار عراقي وقيمة الإنتاج فيها 1 ، 403 ، 372 ، دينار عراقي وعدد العاملين فيها 1649 ، شخصاً ، كما يوضحه الجدول التالي .100

#### بعض مؤشرات القطاع الصناعي في العراق في أعوام 1948/1949 و 1949/1950

السنة	رأس المال المدفوع/د.ع.	قيمة الإنتاج د.ع.	عدد العاملين
49/1948	741، 183، 3	372، 403، 1	1649
50/1949	000، 914، 3	428، 555، 1	2626

المصدر: الدرة ، صباح مصطفى د . التطور الصناعي في العراق . القطاع الخاص . مطبعة النجوم . بغداد . 1968 . ص 47 .

إن العدد القليل من العاملين في هذه المشاريع الصناعية لا يجوز تفسيره باستخدام تقنيات حديثة ، بل بصغر حجمها وضآلة حجم إنتاجها الإجمالي . وكانت خشية البرجوازية الوطنية الحديثة من التوظيف في القطاع الصناعي كبيرة ، بسبب المزاحمة الأجنبية الحادة لمنتجاتها وخشيتها من تعرضها إلى خسارة رؤوس أموالها ، كما لم يشارك المصرف الصناعي بشكل فعال في دعم الراغبين في التوظيف الصناعي إلا بحدود ضيقة . ويمكن أن تدلل على ذلك حجم الاستثمارات المباشرة والقروض الممنوحة من جانب المصرف الصناعي العراقي . فالمثير للانتباه أن المصرف الزراعي الصناعي الذي أسس في نهاية العقد الثالث ، ثم تقرر فصل نشاط المصرف إلى مصرف زراعي وآخر صناعي ، حيث تم في عام 1940 تأسيس المصرف الصناعي المستقل ، لم يبدأ نشاطه الفعلي إلا في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وتحديداً في عام 1946 . وكان نشاطه محدوداً جداً ، بالرغم من الأهداف الكبيرة التي أخذها على عاتقه وفق ما جاء في قانون تأسيس المصرف . أكد القانون على المهمات التالي:

1. إنشاء مشروعات صناعية خاصة على حسابه الخاص .
2. الإشراف والمشاركة في شركات أهلية وحكومية .
3. الإسهام في الشركات الصناعية القائمة أو التي على وشك التأسيس .
4. تقديم السلف لاستيراد المواد الأولية وتصدير المنتجات .
5. إعطاء القروض لأصحاب المؤسسات الصناعية الذين يرغبون في إنشاء المصانع أو توسيعها أو تحسينها .

6. التوسط لاستيراد المكنان والمعدات والمواد الأولية وكذلك التوسط لتصدير السلع لأصحاب المصانع أو المؤسسات الرسمية وشبه الرسمية .

7. إعطاء القروض للتجار المساهمين في مؤسسات يشرف عليها أو يسهم فيها المصرف .

8. إعطاء القروض لأصحاب المصانع لشراء المكنان والأدوات والمواد الأولية وتصريف السلع المنتجة في داخل العراق وخارجه .

9. القيام بالأعمال الصيرفية التي من شأنها تسهيل المعاملات الصناعية .101

وتشير المعلومات المتوفرة إلى أن مجموع القروض والاستثمارات الصناعية للمصرف الصناعي بلغ في عام 1949 (594، 782) دينار عراقي ، كان منها 24، 9% قروضاً والباقي استثمارات المصرف في مختلف النشاطات . ومن الجدير بالإشارة إلى أن المصرف الصناعي قد سار على نهج التوظيف ثم بيع حصته لأصحاب رؤوس الأموال بعد أن تكون المشاريع قد تجاوزت مرحلة الخطر واحتمال الخسارة ، والبدء بتحقيق الأرباح . وكانت القروض التي يمنحها المصرف قصيرة الأجل لا تزيد عن ثلاث سنوات 102 .

تعتبر بداية النشاط الصناعي في العراق البداية الفعلية لنشوء وتطور البرجوازية الصناعية وبداية لنشاطها السياسي الوطني . إلا أن ضعف حركة التنمية الصناعية وقلة عدد المشاريع الصناعية وضعف حجم رؤوس الأموال الموظفة في الصناعة عموماً وقلة رؤوس الأموال التي كانت تحت تصرف المصرف الصناعي لدعم التنمية الصناعية ترك بصماته الواضحة على ضعف قدرات البرجوازية الوطنية الصناعية ، إضافة إلى أن طبيعة علاقاتها التي لم تنقطع بالأرض والنشاط الزراعي وبكبار ملاكي الأراضي الزراعية حدت من جذريتها في النضال ضد العلاقات الإنتاجية شبه الإقطاعية ومن سعيها لنشر العلاقات الإنتاجية الرأسمالية أو من طموحها لاستلام السلطة السياسية وبرزت استعدادها للمساومة . إلا أن هذه الملاحظة يفترض فيها أن لا تقلل من الدور المهم والنضالي الذي مارسته البرجوازية الوطنية في سبيل الحد من دور الاحتكارات النفطية في الاقتصاد العراقي وتقليص دور البرجوازية التجارية الكومبرادورية ، أو دورها في دعم نشاط الفلاحين في سبيل تغيير علاقات الأرض الزراعية لصالح إشاعة العلاقات الجديدة في الريف والزراعة العراقية ودعوتها إلى إصلاح زراعي ديمقراطي .

وحسب المعلومات المتوفرة فقد بلغ عدد شركات القطاع الخاص في قطاع الصناعة والتجارة والزراعة في عامي 1944/1945 وعامي 1949/1950 ، على النحو الآتي:

جدول يوضح مجموع الشركات الخاصة والعامة في العراق لبعض السنوات

معدل رأس المال/قطاع خاص	عدد الشركات المحدودة المسجلة *								سنة التسجيل
	المجموع **	مختلفة	خدمات	تأمين	نقل	زراعية	تجارية	صناعية	
دينار عراقي									
11، 27	52	3	10	..	1	1	20	17	45/1944
400، 30	39	14	..	1	3	..	14	7	46/1945
000، 25	27	14	1	..	..	1	8	11	47/1946
000، 56	20	4	1	..	3	..	11	2	48/1947

101 لانكلي. م. كاتلين. تصنيع العراق. مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ومكتبة دار المتنبي. نيويورك-بغداد. 1963. ص 226.

102 نفس المصدر السابق. ص 236/237.



500، 31	16	3	1	1	..	..	4	7	49/1948
900، 19	19	5	..	..	..	..	12	5	50/1949

المصدر: المجموعة الإحصائية السنوية . 1951-1944 . الحكومة العراقية . بغداد .

\* و \*\* المجموع يضم أيضاً شركات تابعة للقطاع العام ، وهي على التوالي ابتداءً من عام 1045/1944 حتى نهاية الفترة: 7 ، 1 ، 8 ، 1 ، 2 و 1 . فقط ، والبقية كانت للقطاع الخاص . وكان معدل رأس المال الموظف في منشآت القطاع الحكومي ، بلغ في السنوات المذكورة على التوالي كما يلي: 103 ، 100 ، 000 ، 165 ، 625 ، 000 ، 137 ، 100 ، 500 ، و 50 ، 000 دينار عراقي .

وإلى جانب المشاريع الصناعية والتجارية التابعة للبرجوازية الوطنية النامية حديثاً كانت هناك المشاريع الصناعية والتجارية الأخرى التابعة للبرجوازية الصغيرة ، أي التي ترتبط بعلاقات الإنتاج السلعية الصغيرة . فهذه الفئة بإنتاجها الحرفي ومبيعاتها في السوق التجاري الداخلي شكلت قاعدة الإنتاج الصناعي والتجاري في العراق ، رغم المصاعب الجمة التي واجهتها ، بسبب مواقف السلطات العثمانية ، وزيادة استيراد السلع الأجنبية المصنعة . ومع ذلك بقيت هذه العلاقات واسعة نسبياً وتشمل حرفاً كثيرة ونشاطات عديدة بحكم مستوى تطور المجتمع وسيادة العلاقات الإنتاجية شبه الإقطاعية وبطء تغلغل العلاقات الإنتاجية الرأسمالية في الاقتصاد العراقي . وكانت تلك الأوضاع تسهم في إعادة إنتاج علاقات الإنتاج السلعية الصغيرة وإلى استمرار مشاركة هذه الصناعات بنسبة مهمة في تكوين الدخل القومي المنتج والمتحقق في البلاد . وكان جل الحرفيين يتوارثون الصنعة ويحافظون على أسرارها ويرتبطون بعلاقات داخلية متميزة لحمايتها . إلا أنهم مع ذلك كانوا يعانون من تخلف في وسائل الإنتاج المستخدمة ومصاعب غير قليلة أمام استيرادها أو استيراد المواد الأولية الضرورية لتطوير الإنتاج فيها ، مما كان يترك أثره المباشر على شحة مداخيلهم وشظف عيش الغالبية العظمى منهم . ودفع هذا الوضع المزري فئات البرجوازية الصغيرة ، وخاصة الصناعية منها ، إضافة إلى العاملين في مجالات التعليم والطلبة والمنقذين ، إلى تشديد النضال في وقت مبكر ضد الهيمنة الإمبريالية و ضد العلاقات الإنتاجية شبه الإقطاعية والكومبرادورية في آن واحد . ولعبت هذه الفئات دوراً بارزاً و متميزاً في الحركة الوطنية العراقية في فترة العشرينات وبداية الثلاثينات ، كما كان لممثليها وجود سياسي بارز في كل الأحزاب السياسية العراقية حينذاك . ودفعت المنافسة الحادة التي واجهها قطاع الصناعات الحرفية من السلع المستوردة أصحاب هذه الصناعات الحرفية إلى أحد أمرين:

1. السعي إلى تجديد وسائل الإنتاج المتوفرة لديها وتحسين نوعية الإنتاج من خلال استيراد معدات حديثة نسبياً؛

2. إغلاق محلاتهم والانتقال للعمل لدى أصحاب الورش الآخرين ، أو الانتقال إلى العمل في المشاريع التابعة لسلطات الاحتلال أو التابعة للدولة أو المشاريع الصناعية التي قامت بتأسيسها الفئة البرجوازية الصناعية الحديثة كعمال أجراء . وشمل هذا الواقع مختلف الصناعات اليدوية ، ومنها صناعات الغزل والنسيج والأحذية وكبس التمور وغيرها ، وبشكل خاص في المدن الرئيسية مثل بغداد والبصرة والموصل ، في حين واصل الإنتاج الحرفي الصغير في المدن الصغيرة قائماً مع صعوبات غير قليلة وإغلاق عدد غير قليل من المحلات الحرفية التابعة لهم .

ولم تكن فئات الحرفيين ومجموعات من المزارعين ينتمون إلى البرجوازية الصغيرة فحسب ، بل كانت هناك مراتب أخرى منها مجموعة كبيرة من صغار ومتوسطي المستخدمين والموظفين في دوائر الدولة وفي القوات المسلحة ، الجيش والشرطة والأمن الداخلي ، وكذلك جمهرة المعلمين وجماعات كبيرة من الطلبة ، إضافة إلى فئة المثقفين العاملين في مختلف مجالات الثقافة . والسمة المميزة لهذه المراتب الاجتماعية أنها تشكل الطليعة الفكرية والمتعلمة في المجتمع والتي كانت وما تزال تلعب دوراً مهماً في عمليات التنوير الفكري والسياسي في المجتمع . ومن بين أوساطها برزت شخصيات ومجموعات ساهمت بتشكيل العديد من الأحزاب السياسية العراقية أو أعضاء عاملين فيها ، كما أنها كانت من بين الفئات السبّاقة في النضال الوطني . وكانت نسبة غير قليلة من أبناء هذه المراتب الاجتماعية تحصل على مرتب شهري يوفر لها جزءاً أساسياً من حاجتها المعاشية ، ولكن نسبة عالية منها كانت تعاني من ضعف الحال بسبب ضعف الرواتب التي كانت تدفع للموظفين والمستخدمين في أجهزة الدولة أو في التعليم الابتدائي والثانوي والمهني . وكانت نسبة مهمة منهم تعاني من شظف العيش ، وخاصة تلك التي كانت من المراتب الدنيا في سلك الشرطة والجيش والأمن . كما كانت نسبة أخرى من هذه المراتب تعاني من البطالة والحرمان وتحول بعضها عالة على عوائلهم الفقيرة أصلاً .

#### 4 . الطبقة العاملة خلال الفترة 1921-1950

لم يكن تطور الطبقة العاملة العراقية واحداً في مختلف القطاعات الاقتصادية ، سواء الإنتاجية منها أم الخدمية ، بل تميز بالتفاوت الشديد ، مجسداً في ذلك الاختلال الذي تميز به الاقتصاد العراقي في نمو مختلف قطاعاته وفروعه الاقتصادية وتأثير ذلك على الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية . ففي الوقت الذي خلا العراق من صناعات آلية وتقنيات حديثة خلال الفترة الواقعة بين نهاية القرن التاسع عشر ونهاية الحرب العالمية الأولى ، إذ كان العراق لا يملك حينذاك سوى بعض المشاريع الصناعية البسيطة التي أقامتها الحكومة العثمانية لأغراض تأمين بعض مستلزمات القوات المسلحة للسلع الاستهلاكية كالغزل والنسيج أو العتاد الحربي أو الطباعة . وعلى هذا الأساس لم تكن هناك طبقة عاملة بالمعنى الحديث للكلمة ، إذ وجدت مجموعات غير قليلة من العمال المشتغلين في مجالات غير قليلة ، وبشكل خاص في الخدمات كالنقل أو في إقامة السدود والجسور أو في الأعمال الترابية أو في كبس التمور على الطريقة التقليدية أو في محالج القطن البدائية التطور أو العمال الذين كانوا يعملون في الورش الصغيرة للصناعات الحرفية اليدوية المنتشرة في أنحاء البلاد . وتوسع تشغيل العمال بالسخرة أو بأجور واطنة جداً خلال فترة الحرب العالمية الأولى لخدمة المصالح البريطانية وقواتها ومشاريعها الخاصة المرتبطة مباشرة بوجودها ونشاطها العسكري . وقبل وخلال فترة الحرب العالمية الأولى وما بعدها نشأت وتطورت تدريجاً بعض المشاريع المهمة التي شغلت عدداً أكبر من العمال العراقيين والأجانب مثل منشآت السكك الحديدية والميناء ، إضافة إلى أعمال التنقيب عن النفط الخام ومد أنابيبه واستخراجه وتصديره .

وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى ونتيجة تزايد الحاجة المحلية وحاجة القوات البريطانية في العراق إلى الكثير من النشاطات الاقتصادية والعسكرية ، وكذلك إلى السلع الصناعية ورغبة الرأسماليين البريطانيين في استثمار رؤوس أموالهم في العراق لتعزيز مواقع المصالح البريطانية وتحقيق الأرباح ، أقيمت بعض المشاريع الصناعية الجديدة . وجرت محاولات لتنمية الصناعات الزراعية باعتبار العراق بلداً زراعياً ، مثل زراعة القطن ، إضافة إلى ولوج قطاع استخراج النفط الخام وتصديره وتكريره بعضه في داخل البلاد . ولم تكن التوظيفات في هذه المشاريع عراقية ، بل كانت في الغالب الأعم أجنبية وعائدة للحكومة البريطانية أو الرأسماليين البريطانيين . وتركز نشاط الرأسمال البريطاني في العراق في اتجاهات ثلاثة كان يؤمل منها أن تؤمن لبريطانيا الموقع المهيمن في الاقتصاد العراقي والمحقق للربح الذي تتوخاه الشركات الرأسمالية والحكومة البريطانية ، وهي:

- تنمية وتوسيع حركة التبادل التجاري بين الإمبراطورية البريطانية والعراق ، والتي تطلبت بدورها إيلاء اهتمام خاص بالموانئ والسكك الحديدية وطرق المواصلات البرية الأخرى والنهرية وتأمين سلامة وصول السلع إلى المستهلك العراقي أو وصول السلع المصدرة إلى المصانع والمستهلك البريطاني؛
  - توظيف رؤوس الأموال البريطانية في قطاع التنقيب عن النفط الخام واستخراجه ، وكذلك في قطاع الزراعة ، وخاصة في زراعة القطن ، وفي بعض المشاريع الخدمية الأخرى للاستفادة القصوى من الموارد الأولية المتوفرة في العراق والأيدي العاملة غير الماهرة والرخيصة جداً ، وكذلك تأمين مستلزمات احتكار السوق العراقي من جانب الشركات الصناعية والتجارية البريطانية؛
  - استثمار رؤوس أموال حكومية بريطانية غير قليلة لتأمين مستلزمات الاحتفاظ بقوات عسكرية ومدنية بريطانية قادرة على حماية مصالح الرأسمال والحكومة البريطانية في العراق ، باعتباره منطقة استراتيجية في الخليج والشرق الأوسط .
- ولتحقيق هذه الأغراض بدأت سلطات الاحتلال البريطاني باستكمال خطوط السكك الحديدية التي بدأت منذ عام 1913 على أيدي الألمان ، وتنشيط وتوسيع قدرة الموانئ العراقية على استقبال وتفريغ أو شحن البضائع من ميناء البصرة ، والتوسع في استخدام الطرق النهرية وتأمين مستلزمات كرى الأنهار والسدود وشق الطرق البرية لتسهيل حركة قواتها وتجاريتها بين المدن العراقية . كما أبدت اهتماماً خاصاً بالتمور العراقية ، وهي سلعة مهمة ورائجة لأغراض التصدير ، وكانت تحقق أرباحاً مجزية للمستثمرين الأجانب ، وكذلك تنشيط زراعة القطن واستيراد مكائن لحلجه .
- يعتبر عام 1926 البداية الفعلية لإقامة أول مشروع صناعي آلي حديث نسبياً للغزل والنسيج في العراق بمبادرة من مجموعة من أصحاب الأموال العراقيين . ويعتبر هذا التاريخ البداية العملية لنشوء البرجوازية الصناعية العراقية ، التي حاولت في نهاية سنوات العقد الثالث من القرن العشرين أن تنشط هذه العملية من خلال الضغط لإصدار المزيد من القوانين لتشجيع الصناعة الوطنية وحمايتها من المنافسة الأجنبية وتأمين الدعم لها من خلال الإعفاءات الجمركية على مستورداتها ومبيعاتها . لقد كانت ولادة الصناعة العراقية وكذا البرجوازية الصناعية عسيرة جداً في العراق ، وكذا كان حال نمو الطبقة العاملة الصناعية ، التي سبقت نشوء وتطور البرجوازية الصناعية . ولكن البرجوازية الوطنية عرفت نمواً أسرع لها في مجالات التجارة الداخلية والتصدير . وتمتعت البدايات بدعم مباشر من فئات الأفندية العاملة في الحقل السياسي والمرتبطة بالحزب الوطني على نحو خاص ، كما حصلت على دعم من الحلقات الماركسية من خلال دعواتها للتصنيع ومناهضتها للهيمنة الأجنبية . واستطاعت

جماعات الضغط أن تؤثر على الساحة السياسية والشارع العراقي ، إضافة إلى تأثيرها على الحكومة وعلى مجلي النواب والأعيان ، حيث صدر عنهما القوانين التي أشرنا إليها سابقاً  
103.

تركز نمو الطبقة العاملة العراقية الجديدة في المشاريع التابعة للمصالح البريطانية وبعض المنشآت الحكومية العراقية وفي البعض القليل من مشاريع القطاع الخاص المحلي ، كما يوضحها الجدول التالي وفق إحصائيات عام 1931:

عدد العمال العراقيين في المؤسسات العراقية حتى عام 1931

القطاع	عدد العاملين/ نسمة*
السكك الحديدية	9000
ميناء البصرة	1272
مديرية الأشغال العامة	4550
البرق والبريد	206
مديرية المساحة العامة	350
شركة نفط العراق	1000
شركة نفط خانقين	718
جمعية زراعة القطن البريطانية	180-43
معمل فتاح باشا	200
مكابيس التمور	50، 000**
عدد سواق سيارات الحمل	1، 000***
عمال الطابوق	200، 2
عمال السيكانر	عدة مئات

\* قارن: لانكلي ، كاتلين م . تصنيع العراق . قارن: مصدر سابق . ص 89 .

\*\* قارن: أحمد ، كمال مظهر د . الطبقة العاملة العراقية . مصدر سابق . ص 63 .

ويفترض أن يشار إلى أن هناك جمهرة أخرى من العمال الذين كانوا يعملون في العديد من المشاريع الصناعية كالمطاحن ومعامل الثلج والمخابز ، أو في مشاريع البنية التحتية وعمال

103 El-Obidi, Khalil Mohamed. Zu einigen Fragen der Industrialisierung im Irak. Dissertation zur Erlangung des Grades eines Doktors der Wirtschaftswissenschaften. Hochschule fuer Oekonomie. Berlin. 1965. S.15.

النقل والبناء في القطاع الخاص وكذلك العاملين لدى المنشآت البريطانية التابعة للقوات المسلحة في الحبانية والشعبية وفي غيرها أيضاً .  
 أما الفترة التي أعقبت دخول العراق في عصبة الأمم وانتهاء فترة الانتداب حتى بداية الحرب العالمية الثانية ، ورغم التوترات السياسية في الداخل حصل بعض التطور في المشاريع الصناعية العراقية وعدد العاملين في تلك المشاريع ، كما نما عدد العاملين في شركات النفط الأجنبية العاملة في العراق . ويمكن للجدول التالي توضيح هذا التطور:

#### المشاريع الصناعية الوطنية وعدد العاملين فيها في العراق في عام 1939/1938

المشروع	عدد العاملين العراقيين	عدد العاملين الأجانب	مجموع العاملين
السيكاير	726	54	780
الكحوليات	73	1	74
الأحذية	28	2	30
الفزل	1644	-	1644
الحلويات	27	-	27
المعكرونة	12	-	12
المطاحن	90	-	90
الجلود والدباغة	11	1	12
الكاشي	40	1	41
الشخاط	85	6	91
الصابون	40	1	41

المصدر: العبيدي ، خليل محمد . بعض قضايا التصنيع في العراق . رسالة دكتوراه .

مصدر سابق . ص 24 .

وفي الفترة الواقعة بين بداية الحرب حتى نهاية الفترة التي نحن بصدد البحث بها ، جرى تطور أكثر سرعة في عمليات إنشاء المشاريع العراقية وفي إقامة مشاريع الهياكل الارتكازية ومشاريع النفط التابعة لشركة نفط العراق وشركتي نفط الموصل و نفط البصرة والسكك الحديد والميناء وغيرها . ولا تتوفر معلومات مدققة عن عدد العاملين في المشاريع الصناعية المختلفة ، سواء كانت مشاريع كبيرة أم متوسطة أم صغيرة . فتقرير البنك الدولي لعام 1951 يشير إلى "أنه بالرغم من وجود أكثر من 60، 000 شخص يعملون في الإنتاج الصناعي ، ما

عدا النفط ، إلا أن من الواضح أن كلهم كانوا تقريباً يشتغلون في مؤسسات صغيرة ويدوية .  
وقدر بنحو 2000 عامل فقط يشتغلون في معامل صناعية حديثة"104 .  
أما في قطاع النفط الخام ارتفع عدد العاملين خلال الفترة الواقعة بين 1931 و1939 من  
1718 عاملاً عراقياً وأجنبياً إلى 4364 عاملاً عراقياً وأجنبياً ، منهم 259 عاملاً أجنبياً105 .  
ثم ارتفع هذا العدد ليبلغ في عام 1950 (11374) شخصاً ، منهم 796 عاملاً أجنبياً106 .  
وفي ضوء ذلك يمكن القول بأن عدد العاملين في الإنتاج الصناعي المحلي والأجنبي بلغ في  
عام 1951/1950 حوالي 72، 000 عامل . ويزداد عدد هؤلاء العمال في العراق ، إذا ما  
أضيف إليهم العمال الذسن كانوا يعملون في مشاريع القطاعات الاقتصادية الأخرى مثل السكك  
والميناء والكهرباء والماء ومختلف الخدمات الاجتماعية والنقل والمواصلات... الخ .  
ومن الجدير بالإشارة إلى أن الأجور التي كانت تدفع للعاملين في القطاع الصناعي كانت واطنة  
جداً ، في ما عدا قطاع النفط الخام ، حيث كانوا يتقاضون أجوراً أعلى من زملائهم العمال  
الآخرين في القطاعات الاقتصادية المحلية . فحتى عام 1939 كان العامل الذي يشتغل عشر  
ساعات في اليوم يتقاضى أجراً يتراوح بين 20-40 سنتاً لا غير ، أو ما يتراوح بين 80-160  
فلساً . أما الأطفال فكانوا يتقاضون لنفس ساعات العمل أجراً يتراوح بين 10-20 سنتاً أو 40-  
80 فلساً فقط ، وهي مقاربة للأجرة التي كانت تدفع للنساء العاملات . وقد تحسن هذا الوضع  
قليلاً في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، إلا أنه بقي واطناً جداً . إذ كانت عائلة يتراوح عدد  
أفرادها بين 4-5 أشخاص تحقق دخلاً يتراوح بين 5-7 دينار عراقي شهرياً107 ، أي بمعدل  
يومي يتراوح بين 166-233 فلساً فقط . كانت حالة البؤس والفاقة والحرمان تميز حياة العمال  
العراقيين في مختلف أرجاء العراق . وأشار إلى ذلك أحد الباحثين البريطانيين حين كتب يقول:  
"العمال الصناعيين في شركات النفط يتقاضون أجوراً جيدة ، كما يلاقون رعاية جيدة ، وغالباً  
ما كانوا يحصل على سكن . ولكن الحالة العامة للعمال في بقية الفروع فهي مشابهة لحالة  
العمال الصناعيين في بريطانيا العظمى قبل قرن لفترة نظام المصانع"108 .

104 نفس المصدر السابق. ص 145.

105 El-Obidi, Khalil Mohamed. Zu einigen Fragen der Industrialisierung im Irak. Dissertation zur Erlangung des Grades eines Doktors der Wirtschaftswissenschaften. Hochschule fuer Oekonomie. Berlin. 1965. S.33.

El-Obidi, Khalil Mohamed. Zu einigen Fragen der Industrialisierung im Irak. S. 33. 106  
مصدر سابق

107 نفس المصدر السابق. ص 26.

108 Grunwald and Ronall. Industialization in the Middle East. Council for Middle East  
Affairs Press. New York. 1960. P. 251.

## الباب الثاني : فهد والحزب الشيوعي العراقي

### الفصل الأول : بدايات نشوء وتطور القوى الماركسية والشيوعية في العراق

كان العراق حتى أواخر الحرب العالمية الأولى يزرع تحت الهيمنة العثمانية الاستبدادية والظلم الإقطاعي والتخلف الاقتصادي والاجتماعي الشديدين . وكان يعاني من التلوث المرعب الفقر والجهل والمرض . كما كان التعليم في أدنى مستوياته كما وكيفاً . وكانت علاقات الإنتاج الأبوية وشبه الإقطاعية تتشابكان معا وتساهمان في إعادة إنتاج التخلف والبؤس والاستغلال في أرياف ومدن العراق . كانت البداوة والرعي والفلاحة والإنتاج السلعي الصغير سمات تميز الاقتصاد ونشاط المجتمع في الولايات الثلاثة بغداد والبصرة والموصل ، التي ضمت منطقة كردستان الجنوبية أيضاً . كان العراق العثماني يعيش ارتدادا حضاريا كبيرا بالمقارنة مع العهود العراقية القديمة ومع القرنين التاسع والعاشر الميلاديين أيام ازدهار الدولة العباسية .

لم تتسم سياسة الدولة العثمانية بالطبيعة القرقوشية والخرافية والانفلات والظلم والبطش ونهب المجتمع وإفقار البلاد وتخلف البنية التحتية والخدمات فحسب ، بل اتسمت أيضاً بعنصرية متوحشة وتعصب ديني شرس ومسعى مستمر لعملية تترك قسرية للمجتمعين العربي والكردي في آن واحد . كما إنها لم تهتم بتنمية وتطوير الاقتصاد في هذه المنطقة ، بل تركز همها الأساسي على جباية وانتزاع أكبر قدر ممكن من الضرائب والأتاوات من الفلاحين الفقراء وصغار المزارعين والكسبة والحرفيين ، مما أدى إلى مزيد من التدهور في مستوى حياة ومعيشة الغالبية العظمى من هؤلاء الناس وفي مجمل الوضع الاقتصادي في البلاد ، كما خلق رأياً عاماً مناهضاً جداً للدولة العثمانية بسبب سياساتها العنصرية والشوفينية ، رغم ادعائها بكونها وريثة الخلافة الإسلامية وحامي حمى الإسلام والمسلمين والديار الإسلامية . وكانت الفئات الفلاحية والريفية الفقيرة وسكان البادية تشكل الغالبية العظمى من سكان العراق حينذاك ، في حين لم تكن الفئات الأخرى تشكل سوى أقليات صغيرة موزعة على المدن الرئيسية . وكانت فئة المتعلمين والمتقنين العراقيين من العرب والکرد والترکمان أو من الأقليات القومية والدينية الأخرى لا تشكل سوى فئة صغيرة جدا من فئات المجتمع ، التي كانت رغم ذلك تحاول التأثير في الحياة الثقافية والسياسية للبلاد .



ومنذ فترة مبكرة من القرن التاسع عشر ، وخاصة بعد الاحتلال العثماني الثاني للعراق في عام 1831م ، حتى مطلع القرن العشرين كان النفوذ البريطاني والفرنسي قد امتد إلى ولايات بغداد والبصرة والموصل ، وأصبحت لديهما مواقع مهمة للتأثير على السياسات المحلية ، كما تغلغل الرأسمال البريطاني التجاري إلى اقتصاد العراق . وفي هذه الفترة اشتد التنافس بين الشركات الرأسمالية الأجنبية من أجل الهيمنة على الأسواق التجارية وتصريف سلعها الصناعية ، وكذلك من أجل السيطرة على أو احتكار مجالات توظيف رؤوس الأموال من جانب بريطانيا العظمى وفرنسا وألمانيا ، وإلى حد ما روسيا ، في بعض مجالات البنية التحتية ومواد الخام في باطن الأرض وعلى سطحها ، لتعزيز مواقع ونفوذ هذه الدول في المنطقة . وتوجه الهم الرئيسي نحو انتزاع امتياز مد خط سكك حديد بغداد - الموصل وامتياز التنقيب عن النفط والخامات الأخرى وعلى الأسواق المحلية من سلاطين الإمبراطورية العثمانية ، إذ كانت الإمبراطورية ، الرجل المريض ، في حالة تفسخ وانهيار مستمرين ومتسارعين .

ورغم الطبيعة الاستعمارية والاستغلالية للرأسمال الأجنبي ، إلا إنه كان في الوقت نفسه يشكل النافذة الوحيدة الواسعة نسبياً التي فتحت على العراق لدخول نسيم الحضارة الأوروبية والتقنيات الحديثة إليه ، رغم محدوديته ، في حين كانت هناك نوافذ صغيرة أخرى مفتوحة على العراق من البلدان المجاورة تساهم في تسييس وتنوير بطيء للمجتمع . وكان هذا يعني بأن العراق ، رغم كل ذلك ، لم يكن معزولاً تماماً أو مقطوعاً عن الأحداث السياسية التي كانت تجري وتتفاعل في تلك المرحلة وكانت حبلية بأحداث كبيرة . ويفترض أن يشار في هذا الصدد إلى التأثير الفكري والسياسي لكل من مصر وسوريا ولبنان ، إضافة إلى إيران المجاورة والنشاطات الثورية في روسيا القيصرية حينذاك ، التي لم تكن أخبارها تصل إلى الشعب بقدر ما كانت تصل إلى بعض القوى المتنورة فيه ذات العلاقة بالدول المجاورة .

كانت الدولة العثمانية تموج بحركة الدستوريين الوطنية التي كانت تتطلع للخلاص من الخلافة المتخلفة وكسر المركزية المتشددة في نظام الحكم وفتح عهد جديد للبرجوازية التجارية التركية وللرأسمال الأجنبي للولوج إلى إرغائها ، وخاصة بعد ثورة 1908 في مركز الدولة العثمانية ، التي فتحت الطريق لحركات فكرية وسياسية لاحقة في مختلف أرجاء الدولة العثمانية . وكان العراق ، باعتباره جزءاً من تلك الإمبراطورية ، يتأثر بأوضاعها ويشارك بعض أبنائه ببعض أحداثها ، وخاصة أولئك الذين كانوا يعملون في الجيش أو في سلك التعليم أو بعض الموظفين والمتقنين من أبناء العائلات الميسورة .

أما الجارة إيران فكانت تعيش حركة المشروطية (الدستورية) منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، حيث تفجرت أحداث 1905 التي كانت تطالب بالحياة الدستورية للشعب كله . وكان علماء الدين والمتقنون الإيرانيون والبازار الإيراني (السوق التجارية) يقفون على

رأس تلك الحركة الجديدة . ولم يكن التواصل والتفاعل مقطوعا بين سكان وعلماء الدين في كل من إيران والعراق بل كان قائما ومؤثرا ومفيدا أيضاً .  
وفي مصر وسوريا ولبنان لعبت الحركات الوطنية المتسمة بمسحة دينية مشحونة بنزعات تنويرية عامة وبأفكار الثورة الفرنسية البرجوازية دورا مهما لا في تنشيط النضال من أجل الاستقلال والتحرر والتقدم فحسب ، بل وفي محاولة تخليص الدين من القوى الأكثر تخلفا ورجعية وتقييدا لحركة المجتمع ، رغم أنها كانت مقيدة ومطبوعة باتجاهات سلفية أيضاً .  
واستطاعت بعض العناصر التقدمية أیصال الفكر التحرري والتقدمي إلى بلدان الجوار ومنها العراق ، رغم أن المجالات والكتب ، التي كانت تصدر في تلك البلدان ، كانت تصل إلى العراق بأعداد قليلة جدا وبفترات متقطعة . كتب عامر حسن فياض مشيراً بصواب إلى تأثير المثقفين في الدول العربية والصحف العربية على الفكر الاشتراكي والتقدمي في العراق ، استناداً إلى مصادر كثيرة ، يقول: " عرف العراقيون الاشتراكية بوسائل متعددة كالصحف والمجلات العربية والأجنبية ، أو علاقات الجيرة مع تركيا وإيران الملاصقتين لأول دولة اشتراكية في العالم ، وهذه التأثيرات هي التي روجت الأفكار الاشتراكية وأعطتها القدرة على سرعة الذبوع والانتشار والتبني ، فقد دخلت العراق الأفكار الحديثة ، منها ما هو متوافق مع المجتمع العراقي ومنها ما فرضته الظروف الدولية والعربية ، على أننا نجد النزعة الرامية إلى التغيير والطموح إلى ما هو أفضل ضمن هذه الأفكار " 109 .

أما روسيا ، جارة إيران المباشرة ، فكانت شعوبها تعيش خلال تلك الفترة أوضاعا اقتصادية واجتماعية متدهورة وكانت الإقطاعية ، وكذلك الرأسمالية المتغلغلة حديثاً إليها ، تستغلان المجتمع أبشع استغلال وتساهمان في تنشيط مختلف الحركات السياسية المناهضة للقيصرية والحكم الاستبدادي والإقطاعي ومن أجل الخلاص من جرائم راسبوتين وستولوبين . وكان الفكر البرجوازي التحرري والفكر العمالي الاشتراكي قد ولجا روسيا وتغلغلا في أوساط البرجوازية الروسية والمثقفين والفلاحين والعمال والكسبة ، وإلى عقول وقلوب الشباب ، والطلاب منهم على نحو خاص . ومن أوروبا ، وخاصة أثناء وفي أعقاب ثورة 1905 والأحد الدامي ، وصلت تلك الأفكار التنويرية إلى إيران ومصر ولبنان وسوريا وفلسطين وأصابت ونوّرت شظاياها القليلة العراق أيضاً ، حيث كانت صحيفة (الرقيب) البغدادية تنقل بعضاً من تلك الأخبار 110 .  
وجاءت الحرب العالمية الأولى ، التي فجرها المستعمرون لإعادة تقسيم مناطق النفوذ في العالم والإجهاز على الدولة العثمانية واقتسام مستعمراتها ، لتكون سببا في سقوط ملايين الضحايا

109 فياض ، عامر حسن. جذور الفكر الاشتراكي في العراق 1920-1934. جريدة "الفكر الجديد" العدد 277. 4 شباط/فبراير 1978. بغداد. ص 3 و15. ملخص مكثف لرسالة ماجستير. ص 2.  
110 نفس المصدر السابق. ص 2.

وتدمير هائل لمعالم الحضارة البشرية وخسائر مادية كبيرة ، واقتربت باتساع البطالة وتفاقم مظاهر الجوع والحرمان وانتشار الأمراض والأوبئة . ولكنها كانت في الوقت نفسه سببا في التملل والتحرك السياسي الثوري في أوروبا وفي مناطق أخرى من العالم . وكان العراق أحد المسارح المهمة للحرب العالمية الأولى ، باعتباره جزءا من الدولة العثمانية ، حيث وقعت على أرضه العديد من المعارك الدامية بين القوات العثمانية والقوات البريطانية . ومع الجانبين شارك عراقيون ، ومنهم سقطت ضحايا غير قليلة .

وجاءت ثورة شباط ، ثم الثورة الروسية الاشتراكية في أكتوبر عام 1917 في روسيا القيصرية ، لتساهمان لا في تعجيل إنهاء الحرب والتوجه صوب السلم فحسب ، بل طرحت الأخيرة فكرا ماركسيا واشتراكيا جديدا على المنطقة ، وتجربة سياسية جديدة لم تكن معهودة من قبل ، كما لعبت دورا متميزا في فضح الاتفاقيات السرية ، التي كانت قد عقدت قبل الحرب العالمية الأولى وأثناء الحرب بين الدول الاستعمارية ، حول تقسيم مناطق النفوذ في ما بينها وعلى حساب مصالح وشعوب البلدان التي كانت تابعة قبل ذاك للدولة العثمانية ، ومنها الولايات العربية . وفي البلدان المجاورة لروسيا ، سواء كان ذلك في أوروبا أم في آسيا ، استقبل الناس الثورة الاشتراكية والتجربة الجديدة بالترحاب والتأييد ، وسرت عدواها لتشمل ألمانيا وبعض الدول الأوروبية الأخرى مثل هنغاريا وبولونيا وبلغاريا وغيرها . ولكنها قوبلت بالرفض والعداء والحرب من جانب الدول الاستعمارية على نحو خاص ، كما سجلت بداية نمو ملموس في حركة تحرر الشعوب المضطهدة والمستغلة .

تميز العقدان الأول والثاني من القرن العشرين بثلاثة أحداث عالمية كبرى أثرت بحسم على مجرى التطور العالمي حتى نهاية العقد التاسع من القرن العشرين . كما كانت لها تأثيرات مباشرة وغير مباشرة على أوضاع العراق وأوضاع المنطقة بشكل عام ، ونعني بها:

(1) الحرب العالمية الأولى وانهايار الدولة العثمانية واحتلال العراق من قبل الدولة البريطانية وفرض الوصاية عليه؛

(2) ثورة أكتوبر الاشتراكية في روسيا؛

(3) الحركات السياسية المتنامية في منطقة الشرق الأوسط وثورة مصر عام 1919 والنضال المتصاعد في كل من سوريا ولبنان وبدايات التوجه صوب إقامة الدولة الإسرائيلية في فلسطين وفق وعد بلفور عام 1917 . يضاف إلى ذلك مظاهر الاستغلال والبؤس والحرمان التي كانت تعاني منها الأوساط الشعبية الواسعة ، مما رفع من درجة التذمر .

ولم يقتصر تأثير الحركات السياسية في كل من إيران وتركيا ومصر وسوريا على المثقفين في العراق فحسب ، بل شمل أيضاً جمهرة واسعة من علماء الدين وشيوخ العشائر المتضررين من وجود الاحتلال البريطاني والفلاحين المحرومين من الأرض والعيش الكريم ، وكذلك التجار

وبعض أصحاب الحرف الصغيرة الذين كانوا يعانون من انحسار النشاط الاقتصادي . كما أن الحكومة البريطانية نكثت بوعدها الذي قطعتة للعرب وللشريف حسين بإقامة الدولة العربية الواحدة ، وكذلك النكوص عن الوعد الذي أعطي لبعض القيادات الكردية في مسانبتها لإقامة كيان مستقل للأكراد ، ساهما في تأجيج مشاعر العراقيين من عرب وكرد حينذاك .

وكان للأجانب القادمين أو العاملين في العراق تأثير مناسب ، رغم محدوديته ، على الشباب العراقي المتعطش للفكر الجديد ، فورد عند عامر حسن فياض في هذا الصدد قوله: "ومن جملة المؤثرات الأجنبية أيضاً هو أن بعض الأجانب ممن يحملون الأفكار الاشتراكية قد جاءوا إلى العراق يبذرون هذه الأفكار بمن يتصلون به كالمعلمة الأمريكية (المس كير) وناظر المعارف الاسترالي (رايلي) بالإضافة إلى الأستكتندي (دونون مكنزي) صاحب مكتبة مكنزي آنذاك" 111 . وكان الأخير يقوم باستيراد العديد من الكتب الماركسية باللغة الإنكليزية لبيعها في مكتبته في بغداد ، ومنها اقتنى العراقيون بعض تلك الكتب ، ومنها كتاب رأس المال لكارل ماركس .

وتحت تأثير تلك العوامل انطلقت انتفاضة الشعب الكردي في السليمانية في عام 1919 ، وثورة 1920 في وسط وجنوب العراق لتساهمان في بلورة الوعي الوطني والقومي في العراق وتلعبان دورا مهما في الأحداث اللاحقة . وقدر للحركتين ، رغم إنهما لم تحققا الأهداف التي كانتا تسعىان إليها ، أن تلعبا دورا مباشرا في قيام الدولة العراقية الراهنة وفي زج مجموعات واسعة من سكان العراق بالنشاط الفكري والسياسي ، كما نشطنا المطالبة بالحقوق السياسية والاقتصادية التي طرحتها الأحزاب التي تشكلت في العقد الأول والثاني من القرن العشرين ، مثل حزب العهد العراقي المنبثق عن جمعية العهد في مصر ، وجمعية حرس الاستقلال والجمعية الوطنية الإسلامية ، وكذلك الصحف الشحيحة التي كانت تصدر حينذاك .

ولم يبق أمام قوات الاحتلال البريطاني إلا التعجيل بقيام الدولة العراقية وتجنب مضاعفات لا تحمد عقباه . فأقامت الملكية الدستورية في العراق وأنشأت الجيش والشرطة وشكلت حكومة من القوى التي كانت لا تعارض الوجود البريطاني في العراق ، كما وافقت على وضع وأجراء استفتاء شعبي حول دستور متقدم نسبيا ، قياسا إلى أوضاع العراق في ظل الدولة العثمانية ، يقبل بالديمقراطية وبالعديد من أبرز أسس المجتمع المدني . وكان هذا الدستور رغم نواقصه مكسبا مهما للمجتمع لو تمكن الشعب من الانتفاع به وممارسة بنوده عمليا . ولم يكن ذلك ممكنا بسبب طبيعة الهيمنة البريطانية وطبيعة الحكومات المتعاقبة ، إضافة إلى واقع بنية المجتمع المنبثقة عن مستوى تطور بنيته الاقتصادية .

وعلى هذا الأساس أقام الإنجليز نظاما سياسيا مدنيا قائما على قاعدة اجتماعية شبه بدوية شبه فلاحية تسود فيها الأحكام والقوانين المدنية الحديثة بجوار القوانين والتقاليد والأعراف

111 فياض ، عامر بدر حسن. جذور الفكر الاشتراكي في العراق. مصدر سابق. ص 2.

العشائرية التي تعود في جوهرها إلى قرون سحيقة ، ووضعت تلك السلطات الأجنبية على رأس السلطة المحلية والمؤسسات شبه المدنية مجموعة سياسية متحدرة من عوائل عسكرية وأبناء إقطاعيين وعوائل بغدادية ميسورة وتجار كبار كانت تعمل بذهنية تتشابه فيها المصالح الخاصة لمن يمثلونهم مع مصالح القوى الأجنبية ومصالح المجتمع ، ولكنها كانت في كل الأحوال قاصرة عن فهم طبيعة ومهمات ومستلزمات تطور المجتمع المدني الديمقراطي ، إذ إنها كانت قد تشربت بأساليب فترة الحكم العثماني ، التي لم تكن في كل الأحوال ديمقراطية . وأطلق الشيخ شعلان ابو الجون ، أحد اقطاب ثورة العشرين ، على هذه المجموعة الحاكمة "حكومة محلية لكنها ترطن" 112 ، في حديث له في حينها مع السير برسي كوكس .

ومع قيام الدولة العراقية الملكية الحديثة اتخذت الحكومة البريطانية إجراءات عديدة ومتشابكة من أجل تأمين مصالحها في العراق وتكريس احتلالها والهيمنة الفعلية الكاملة على موارد العراق الأولية واتجاهات تطوره اللاحقة . وقد أنجزت لهذا الغرض ما يلي:

1. عقد اتفاقيات طويلة الأمد تسمح لبريطانيا بتصدير النفط الخام ، إضافة إلى احتكار قطاع التجارة الخارجية استيرادا وتصديرا وضمان الإشراف على سياساتها الاقتصادية؛

2. عقد اتفاقيات عسكرية تضمن لبريطانيا بموجبها وجود قوات عسكرية بريطانية في قاعدتين أساسيتين هما الحبانية ، القريبة من بغداد ، مركز الحكم ، والشعبية القريبة من منابع النفط في الجنوب ومن منطقة الخليج الغنية بالنفط؛

3. تأمين الإشراف المباشر على تشكيل الحكومات العراقية وسياساتها الاقتصادية والاجتماعية والعربية والدولية لضمان المصالح البريطانية الحيوية وتأمين إعادة إنتاج النخبة السياسية المؤيدة للعلاقات القائمة بين العراق وبريطانيا .

ومن أجل ضمان تحقيق بنود تلك الاتفاقيات لصالح بريطانيا كان لا بد لها من اتخاذ سلسلة من الإجراءات التي تساهم في خلق الاستقرار السياسي من خلال إقامة تحالف سياسي-اجتماعي يستند إلى أرضية ومصالح اقتصادية لفئات اجتماعية عراقية . وكان قوام هذا التحالف:

• النخبة السياسية الحاكمة التي تسلمت زمام الحكم في العراق والتي تعاونت مع بريطانيا بالارتباط مع تحالف الشريف حسين مع بريطانيا . وكانت في الغالب الأعم من العوائل الميسورة في بغداد ومن الضباط الشريفيين؛

• فئة كبار ملاكي الأراضي الزراعية وشيوخ العشائر ذات النفوذ الاجتماعي الواسع في الريف؛

• فئة التجار الذين هيمنوا على التجارة الداخلية بسبب علاقاتهم المباشرة بالشركات التجارية البريطانية كوسيط في السوق الداخلية وبميسوري بغداد ، إضافة إلى علاقتهم بالأرض

112 الرطانة، هي النطق العربي بلكنة أجنبية.

والإقطاعية . إنها الفئة التي أطلق عليها بالكومبرادور التجاري المهيمن على السوق الداخلية . وهي الفئات ذاتها التي ساندت عقد الاتفاقيات المتنوعة مع بريطانيا ولصالحها . ومن أجل تفعيل هذا التحالف وتكريسه أطول فترة ممكنة قامت سلطات الاحتلال البريطانية في فترات متباينة بعمليتين مهمتين في آن واحد ، وهما :

انتزاع المزيد من مساحات الأراضي الزراعية التي كانت بحوزة فقراء وصغار الفلاحين والمزارعين من جهة ، ومنح تلك الأراضي ، إضافة إلى الأرض الزراعية التي كانت ما تزال رقبته للدولة ، إلى كبار ملاكي الأراضي الزراعية من شيوخ العشائر في الريف العراقي من جهة أخرى . وبالتالي كرست في العراق العلاقات الإنتاجية شبه الإقطاعية وعززت الأساس المادي لتحالف الإقطاع مع الكومبرادور التجاري والمناهض في الوقت نفسه لنمو وتطور الصناعة المحلية في البلاد .

ومع التدفق التدريجي لموارد النفط المالية نشأت إكاثيات غير قليلة لتنمية الصناعة المحلية وتنشيط الأسواق الداخلية وزيادة عدد العاملين وتقليص البطالة الداخلية ، التي لم تستثمر إلا بحدود ضيقة جدا ، بسبب ذلك التحالف الذي وفرت بريطانيا مستلزماته الموضوعية . ولكنها عمدت إلى تطوير الموانئ والسكك الحديدية وبعض مشاريع الماء والكهرباء لارتباطها بمصالحها التجارية المباشرة وغير المباشرة . وأصبحت السكك الحديدية والموانئ ومشاريع التنقيب واستخراج النفط الخام ، المواقع المهمة لنشوء وتطور مراكز التجمع العمالي في العراق .

كانت سنوات العقد الثالث فترة نشاط سياسي واسع نسبيا ، إذ كانت الدوائر البريطانية تسعى إلى وضع الدستور العراقي والتأثير المباشر على بنية الدولة العراقية ووجهة تطورها اللاحقة ، كما كانت تريد عقد معاهدة تلزم العراق بموجبها البقاء تحت الهيمنة البريطانية ومنحها امتيازات النفط مقابل الموافقة على بقاء ولاية الموصل في إطار الدولة العراقية الجديدة . كتب عبد الله إسماعيل عن حق يقول "لقد وضعت بريطانيا حكومة السيد ياسين الهاشمي ، التي تشكلت بتاريخ 14 آب-أغسطس 1924 أمام خيارين كلاهما مرَّهما: قبول توقيع اتفاقية النفط بالشروط التي يريدونها مساهمو شركة النفط التركية أو ضياع ولاية الموصل واتخاذ قرار بألحاق تلك الألوية بتركيا . حيث كانت قضية الموصل معروضة على عصبة الأمم بعد أن فشل الجانبان التركي والبريطاني في التوصل إلى اتفاق يحسم الموضوع" 113 . وظهرت مجموعة من الأحزاب الوطنية التي راحت تخوض النضال للتأثير في الأحداث باتجاه الحد من المساومة المحتملة على المصالح الوطنية ، خاصة وأن قضية الموصل استخدمت من جانب البريطانيين لابتزاز حكام العراق حينذاك . فإلى جانب حزب التقدم ( عبد المحسن السعدون) ، وجد حزب الإخاء الوطني (ياسين الهاشمي) ، والحزب الوطني العراقي (محمد جعفر أبو التمن) ، بعد أن

113 إسماعيل. عبد الله. مفاوضات العراق النفطية 1952-1968. دار اللام. لندن. 1989. ص 16.

غابت الأحزاب التي كانت قد تشكلت في الفترة بين 1908-1920 وبتأثير الحركات القومية والدينية والحركات الإصلاحية التركية والعربية حينذاك .

لم يكن وضع العراق يختلف كثيراً عن بقية دول المنطقة في أوضاعه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، وبالتالي بالتناقضات والصراعات التي كانت تتفاعل وتنتج فعلها في المجتمع . كما لم يكن العراق يختلف عن بقية دول المنطقة في كيفية نشوء وتطور الفكر الديمقراطي والتقدمي الذي يلتزم بقضايا الفئات الاجتماعية الكادحة والفقيرة والمنزوعة الملكية في الريف والمدينة ، وله في هذا الشأن تراث غني ومعروف يمتد إلى فترات أصحاب العقل في البصرة والكوفة وبغداد ، ومنهم المعتزلة ، وحركات الزنج والقرامطة . وهكذا ينسحب الأمر أيضاً على كيفية أو سبل وصول الفكر اليساري والماركسي إلى العراق ، شأنه في ذلك شأن بقية دول المنطقة . وربما قد تأخر الفكر الماركسي قليلاً في الولوج إلى العراق بالمقارنة مع إيران ومصر وسوريا ولبنان وفلسطين ، بسبب الهيمنة العثمانية الشديدة على العراق وبسبب التخلف العام الذي ساد البلاد بالمقارنة مع الدول العربية المجاورة ، خاصة مصر والشام (سوريا ولبنان وفلسطين) . وكان الاحتكاك مع الدول الأوروبية والحركات السياسية في الدول المجاورة والثورات الأوروبية المناهضة للرأسمالية في روسيا وألمانيا وغيرها والاطلاع على الأدب السياسي المصري واللبناني - السوري والإيراني قد فتحا نوافذ مهمة للإنسان العراقي المتعلم والمثقف ليزيد من معارفه ومعلوماته ويتبنى الأفكار الديمقراطية الحرة واليسارية ومن ثم الأفكار الماركسية باتجاهاتها العامة ، بسبب انتمائها إلى مواقع الفكر اليساري . ويفترض هنا أن نلاحظ بأن الفكر الاشتراكي الذي وصل إلى العراق لم يكن قد تبلور بالاتجاه الانشطاري الذي كان واقعاً في أوروبا ، أي الفكر الاشتراكي والفكر الشيوعي ، إلا أن هذين الاتجاهين قد تبلورا في نهاية العقد الثالث وبداية العقد الرابع ، أي حين برزت "جماعة الأهالي" بفكرها الاشتراكي الإصلاحي ، و "جمعية ضد الاستعمار" بفكرها الاشتراكي الماركسي-اللينيني .

وتكونت أولى الحلقات الماركسية في البصرة وبغداد والناصرية ، إذ ضمت إليها عدداً صغيراً من المثقفين والمتعلمين أو صغار الموظفين وبعض الكادحين المتعلمين الذين أبدوا اهتماماً بمشكلات العراق السياسية والاقتصادية والاجتماعية وتفاعلوا وساهموا قبل ذاك بأحداث ثورة العشرين وإشكاليات قيام الدولة العراقية والهيمنة البريطانية على العراق . وقد أبدى أفراد هذه الحلقات اهتماماً خاصاً بعدد من المسائل ذات الاهتمام العام ، مثل: الحرية والاستقلال والسيادة الوطنية ، قضايا الديمقراطية وحقوق المواطن ، الموقف من المعاهدة التي كان يراد فرضها على العراق ، امتياز النفط الخام ، العلاقات مع بقية المناطق أو الدول العربية . ولكن اهتمامهم لم يقتصر على هذه المجالات العامة فحسب ، بل تجاوزوها إلى الاهتمام بقضايا اجتماعية

محددة لم تطرح من قبل من جانب الأحزاب السياسية ، أو كان تبنيها يجري بشكل فردي من هذا الشخص أو ذاك ، ونعني بها: موضوعات مثل الأرض ومشكلة الإقطاع والفلاحين ، مشكلة العدالة الاجتماعية وسيادة الفقر والبطالة في المجتمع ، مشكلة المرأة وحريتها وحقوقها ، العمال وحقوقهم وحررياتهم وضعف أجورهم والاستغلال الذي يتعرضون له . وكانت هذه الجماعة تطرح في الساحة السياسية العراقية مواقف ومسائل اجتماعية جديدة لم تطرحها القوى الأخرى قبل ذلك وبهذا الوضوح النسبي . وبالتالي أوجدت خلفية جديدة للمواقف السياسية ، خلفية اقتصادية-اجتماعية ذات أهمية كبيرة لحياة ومستقبل المجتمع العراقي . ولم يكن هذا الطرح سوى استلهاً واستيعاباً للماضي العراقي وللمشكلات والعذابات المترابطة التي كان العراقيون يعانون منها ، رجالاً ونساءً ، رغم أن عذابات النسوة كانت أكبر بما لا يقاس .

وإذا كان للحلقات الماركسية في بغداد دورها وفضلها الملموس في نشر الفكر الماركسي المبسط أو الفكر الديمقراطي اليساري بصفة عامة ، فإن الحلقات الماركسية في البصرة والناصرية كان لها الدور والفضل في التعبئة النضالية العملية والربط الفعلي بين الفكر والسياسة واتخاذ المواقف والاستفادة من المجالات التي كانت متوفرة حينذاك . وبسبب الحرية النسبية والتفتح النسبي لمجتمع بغداد ، كان النشاط العلني في إطار الجمعيات المختلفة أكثر سهولة من النشاط الفكري في الناصرية مثلاً ، والذي كان ما يزال مجتمعاً فلاحياً ، رغم أنه قد تميز بالثورية بسبب العلاقات التي كانت قائمة بين آل السعدون ، هذه العائلة الإقطاعية المتشددة في استغلالها للفلاحين ومصادرتها لأراضيهم والقاسية في تعاملها معهم ، وبين هؤلاء الفلاحين الذين كانوا يعانون الأمرين تحت وطأة هذا الاستغلال والاضطهاد وسجون الإقطاعية . كما كانت العلاقات بين هذه العائلة والكثير من العشائر الأخرى في المنطقة غير ودية ، رغم الاتحاد الذي نشأ وجمع فيه بني مالك والأجود وبني سعيد ، والذي أطلق عليه اتحاد المنتفق . وترأس هذا الاتحاد بنو مالك وهم من آل السعدون ، وكان يتضمن إزدالاً لعشيرتي الأجود وبني سعيد 114 . وكانت قوة بني مالك أو آل سعدون تعني المزيد من الاضطهاد والعسف بالفلاحين من أهالي هذه المنطقة التي كانت تقع ضمن سيطرتهم . ولهذا كان الحقد شديداً على رئاسة هذه العشيرة من الناس في المنطقة ، وخاصة من الفلاحين . وكان الفلاحون

114 الطاهر ، عبد الجليل د. العشائر العراقية. مكتبة المثني. بغداد. 1972. ص 63/62. يشير الكاتب في هامش كتابه ، العشائر العراقية ، إلى حالة الإزدال التي تعرضت لها عشيرة الأجود من عشيرة بني مالك عندما كان شبيب السعدون رئيس الأسرة ورئيس عشائر المنتفق فيقول: رفض الشيخ شبيب السعدون "قبول الدية حسماً للنزاع الذي حصل نتيجة لاغتيال ولده من قبل أحد رعاة عشيرة الأجود. أراد "شبيب" أن يتخذ من مقتل ابنه وسيلة لتقوية مركزه وتوطيد سلطته ، فوضع الشروط التالية: (1) أن لا يتكلف بالقيام إذا قدم أحد شيوخ الأجود عليه. (2) يجب أن يقبل كل شيخ قادم من الأجود كتفه أو وجهه ويقبل أولاده قديمه. (3) حيثما يذهب ويتنقل في ديار الأجود فعليهم أن يقدموا الحليب ، والصوف ، والأغنام. فوافقت عشائر الأجود بكل سرور ودعيت هذه الشروط "الذبيحة والمنيحة" وتعني "المنيحة" (الخدمة) وهكذا أدل آل سعدون عشيرة الأجود". الهامش رقم 1 ، ص 63. ثم وافقت عشيرة بني سعيد من الجزيرة على هذا الاتفاق والتحتت بالاتحاد. ص 63.



يدركون الدعم الذي كانت تستند إليه عائلة السعدون من الحكم العثماني ، لذلك كان الحقد موجهاً ضد العثمانيين أيضاً ، ومن ثم ضد الإنكليز الذين أخذوا موقع العثمانيين وساندوا آل السعدون أيضاً . أورد الدكتور الطاهر ما كتبه الحاكم السياسي البريطاني في الناصرية في تقريره المرفوع سنة 1916 في كتابه العشائر العراقية ما يلي: "يجب أن نأخذ بنظر الاعتبار كراهية عشائر المنتفق لأي تنظيم سياسي ، ولهذه الظاهرة أسباب منها:

- 1- أن لأبناء عشائر هذه المنطقة تجارب مريرة ومؤلّمة بأسوأ أنواع الحكم العثماني .
- 2- لقد قاسى أبناء العشائر أبشع أنواع المظالم من السعدون الذين نصبهم العثمانيون حكاماً .
- 3- لقد ذاق أبناء العشائر حلاوة التحرر من كل الالتزامات اللإنسانية في السنوات الخمس عشرة الأخيرة . فلم يدفعوا الضرائب إلى الأتراك ، وأنكروا حتى الملاكية الوهمية لأصحاب السندات .

4- تعلموا كيف يدافعون عن حقوقهم بالسلاح .

تتلخص المشكلة الملتهبة في المنطقة في إنصاف الألوف من الفلاحين من أبناء العشائر ، وعدم قبول الحقوق التي فرضها الأتراك بالقوة على عشائر المنتفق . ويجب الاعتراف بوجود موجة عارمة من التذمر والسخط ، تشبه الموجة التي سبقت اندلاع الثورة الفرنسية . كانت بكل تأكيد ثورة عبيد الأرض ضد طبقة لوردات الأراضي-ارستقراطية الأرض- واللوردات الغائبين" 115 . لهذا كانت منطقة الناصرية أرضاً بكرةً وصالحة لتقبل الفكر المعارض المناهض لتلك العلاقات الإقطاعية الجائرة التي عاشت في ظلها ، ولهذا بالضبط وجد فهد ورفاقه أساساً صالحاً لعملهم في المنطقة وفي تشكيل الحلقات الماركسية أو تنشيط الحياة السياسية في إطار الحزب الوطني . وسنحاول تناول هذه الحلقات من خلال تناول حياة ونشاط أحد أبرز قادة الحركة السياسية الوطنية العراقية في الربع الثاني من القرن العشرين ، حياة ونشاط يوسف سلمان يوسف (فهد) .

## الفصل الثاني : المراحل النضالية لفهد في الحركة الوطنية العراقية

عند دراسة حياة فهد السياسية ، الوطنية منها والطبقية ، ونضاله الدؤوب الذي لم يعرف الكلل ، وجد الباحثان أنها اقترنت بعدد من الاتجاهات الأساسية التي لا بد من أخذها بنظر الاعتبار ابتداءً ، وهي:

1. مشاركته في الحركة الوطنية العراقية منذ أن تفتحت عيناه عليها ووجد نفسه في خضمها ، أي منذ أواخر النصف الثاني من العقد الثاني من القرن العشرين ، ثم التحاقه بالحزب الوطني منذ تأسيسه في عام 1922م؛

2. مشاركته في الحركة النقابية العراقية وفي النشاط العمالي في فترة مبكرة من شبابه في البصرة والناصرية ثم تطورت فيما بعد في بغداد . ووجد في منشآت الميناء والنفط والسكك مجالاً حيويًا لنشاطه مع مجموعة مهمة من المناضلين النقابيين ، رغم أن الحركة النقابية في الناصرية كانت غائبة حينذاك ، فإن حياة وأوضاع الفلاحين أصبحت مجالاً حيويًا لنشاطه وكتاباته الصحفية؛

3. مشاركته المتميزة في النضال الطبقي وفي تكوين الحلقات الماركسية وفي تأسيس الحزب الشيوعي العراقي ، والتي أصبحت السمة المميزة لدوره ونضاله الوطني في العراق ، حيث التصق اسمه بهذا الحزب ونضاله حتى استشهاده في عام 1949؛

4. التزامه الثابت والصارم بالفكر الماركسي-اللينيني والأممية الشيوعية وإيمانه الشديد بانتصار الاشتراكية والشيوعية في العراق في الأمد البعيد؛

5. تميزه بذات السمات التي تميزت بها الغالبية العظمى من قادة الأحزاب الشيوعية والعمالية المرتبطة بالأممية الشيوعية في النصف الأول من القرن العشرين ، حيث لعبت الاتجاهات الستالينية دورها البارز في تكريس تلك السمات .

شهدت حياة فهد النضالية ثلاث مراحل أساسية سنحاول التطرق إليها فيما يلي ، محاولين من خلالها التعرف على اتجاهات نشاط فهد والدور الذي لعبه في الحياة الفكرية والسياسية العراقية ، سواء في إطار الحزب الشيوعي العراقي أم الحركة الوطنية العراقية أم في المنظمات المهنية .

## المرحلة الأولى : مرحلة النضال الوطني وبداية التكوين الفكري والسياسي

ولد يوسف سلمان يوسف (فهد) في مدينة بغداد في اليوم التاسع عشر من حزيران/يونيو عام 1901 في أحضان عائلة عمالية عراقية كلدانية كادحة ومنتورة 116 ، عجزت عن توفير فرصة استمرار تعليم أبنائها ، ومن بينهم يوسف 117 ، كما هو حال عشرات ألوف العوائل العراقية حينذاك ، وأجبرت على دفع يوسف للعمل منذ أن كان في سن العاشرة من أجل كسب الرزق والمشاركة في تأمين احتياجات العائلة . ومما هو جدير بالإشارة إلى أن نسبة المتعلمين في العراق في أعقاب الحرب العالمية الأولى لم تزيد عن 1% من السكان . وهي تعبر عن طبيعة السياسة المعادية للتعليم التي مارستها أجهزة الدولة العثمانية في المناطق التي خضعت لهيمنتها 118 . ولكن سني الدراسة القليلة في مرحلتي الدراسة الابتدائية ، (مدرسة السريان الابتدائية في البصرة) ، والمتوسطة ، (مدرسة الرجاء الصالح الأمريكية في البصرة) ، وفرت له سلاح القراءة والكتابة باللغتين العربية والإنكليزية ، إضافة إلى اللغة السريانية . وأفادته اللغة الإنكليزية في تكوين ثقافته السياسية والاجتماعية والاطلاع على كتب اقتصادية وسياسية وفلسفية لم تكن مترجمة إلى اللغة العربية ، ولم يكن في مقدور المواطن الاعتيادي الاطلاع عليها أو التثقف بها . ويشار إلى أن والده المتنقل أبدا بين الدول المجاورة والمدن العراقية سعيا وراء لقمة العيش ، لعب دورا مهما في غرس البدايات الفكرية العمالية الأولى في مدارك أبنه الأولى ، في حين يشار إلى أن والده لم يتسن له إيلاء أبنه الاهتمام الكافي بسبب ظروف عمله وضعف قدراته المالية وتنقلاته الكثيرة . وأورد الكاتب العراقي زهير الجزائري في مقال له عن فهد في هذا الصدد يقول: "من والده سمع فهد أول تعريف بالشيوعية ، كما قال لي أحد

---

116 تباين الكتاب في ذكر تاريخ ولادة فهد ، وإذ اتفقوا على السنة اختلفوا في اليوم والشهر. فالدكتورة سعاد خيري تشير في كتابها الموسوم فهد والنهج الماركسي اللينيني في قضايا الثورة إلى أنه وفد في شهر آذار من عام 1901 ، يشير مصدر آخر إلى أن ولادته كانت في السابع عشر من تموز من نفس العام. أما طريق الشعب فنشرت في عددها العدد التاسع/ السنة 66/نيسان 2001 مقالاً عن حياة فهد بقلم أبو ثبات يشير إلى أن ولادته كانت في الثامن من شهر تموز من عام 1901. ويمكن الاعتماد على التاريخ الذي ثبته الأستاذ الدكتور حنا بطاطو على الصفحة 144/145 من ترجمة الجزء الثاني من كتابه الموسوم "العراق" إلى العربية والذي يبحث فيه عن الحزب الشيوعي العراقي ، إذ أنه تمكن من الوصول إلى ملف الشرطة التي لديها الخبر اليقين، مستندة في ذلك إلى إفادة فهد ذاته أثناء التحقيق معه. ورقم ملف الشرطة العراقية المشار إليه هو 487.

117 أنجبت عائلة سلمان يوسف أربعة أبناء وبنت واحدة هم: هم داود ، فرج ، يوسف وعبودي. راجع: سيف ، مالك. تجربتي في الحزب الشيوعي. بيروت. 1974. ص 29.

118 الوكيل ، فواد حسين. جماعة الأهالي في العراق. دار الرشيد للنشر. بغداد. 1979. ص 51. ومن الجدير بالإشارة إلى أن من الصعب جداً إن لم يكن أقرب إلى المستحيل تحقق التعليم الواسع النطاق أو الشامل للأطفال في بلدان العالم الثالث الأكثر تخلفاً وفقراً ما لم تتجه حكومات تلك البلدان والمنظمات الدولية إلى التعاون معها لتحقيق ثلاثة شروط أساسية لتسريع التعليم الابتدائي فيها والمراحل اللاحقة له ، وأعني بها: (! مجانية التعليم؛ تأمين راتب مناسب للتلميذ أو الطالب ليتسنى له تأمين احتياجاته المباشرة ، ضمان قدرة العائلة على الاستغناء عن عمل أبنها ليساهم في توفير لقمة العيش للعائلة.

أقارب فهد ومعايشيه . فقد عمل (سلمان) الشاب متنقلاً بين إيران والعراق والهند والفقاس . وخلال جولاته الطويلة تعرف على شيوعيين ساعدهم على التنقل وسمع منهم شرحاً للفكرة الشيوعية . الوالد الذي تعب من الترحال الطويل ، تحدث لولديه يوسف وداود بإعجاب عن الشيوعيين الذين رأهم وعن الفكرة الشيوعية التي تمنى لو يتعرف عليها . وهكذا سمع الولدان عن الشيوعية لأول مرة من أبيهما"119 .

وفي البيئة البصرية العمالية والفلاحية ، الموائى والسكك وبساتين النخيل والزراعات التحتية حيث الكدح المرهق وظروف الحياة القاسية والاستغلال الشديد ، وحيث كانت القوات البريطانية قد غزت البصرة وسيطرت عليها وفرضت إدارة الاحتلال عليها بعد فشل المقاومة العراقية ، وكذلك في البيئة الفلاحية في الناصرية ، حيث يسود البؤس والفاقة والجهل والمرض بين الغالبية العظمى من الفلاحين وسكان المدن ، وحيث يصعب على العوائل الفلاحية إشباع البطون وسد الرمق ، نشأ وتطور فهد فكرياً وسياسياً وبرز في النضال السياسي اليومي ، سواء على صعيد الجماهير أم في صفوف الحزب الوطني العراقي برئاسة محمد جعفر أبو التمن . فبعد وفاة والده في البصرة في عام 1916 انتقل إلى الناصرية وعمل لفترة قصيرة في معمل الثلج الصغير العائد لأخيه الأكبر داود120 . ثم عاد إلى البصرة وعمل كمستخدم في مؤسسة الكهرباء التابعة لميناء البصرة وشارك في إضراب عمال المسفن وأرصفة الميناء (الدوكيارد) في عام 1918 وتعرف بشكل مباشر على شراسة وصلافة سلطات الاحتلال البريطانية التي تصدت للمضربين وأفشلت بالعنف إضرابهم رغم بساطة المطالب التي طرحها المضربون حينذاك121 .

تأثر فهد ، كغيره من شباب العراق في مناطق الوسط والجنوب ، بثورة العشرين وبأهدافها وبالقوى التي كانت توجهها ، وخاصة أولئك الذين لعبوا دوراً مهماً في التعريف بها وكسب المتقنين والمتعلمين إلى جانبها . إذ كانت مناطق الوسط والجنوب أبرز مراكز ثورة العشرين التي شهدت أشرس المعارك ضد قوات الاحتلال البريطاني وقدمت الكثير من الضحايا واسقطت الكثير من قوات الاحتلال . كما كانت نتائج الثورة وما أعقبها أحد العوامل البارزة في تنامي إرادة النضال ضد المحتلين ، خاصة وأن الشبيبة في الوسط والجنوب كانت تعيش حالة التداعي والتمزق في قوى الثورة من جراء الدور الذي لعبته سلطات الاحتلال البريطانية لا في المعارك العسكرية فحسب ، بل وفي شراء ذمم بعض كبار الإقطاعيين وشيوخ العشائر وبعض التجار من أفراد العوائل الميسورة وأشرف بغداد وكسبهم إلى جانب وجودها في العراق . وكان الشباب

119 الجزائري ، زهير. شباب (فهد) وصبا الحركة الشيوعية في العراق. مجلة "الثقافة الجديدة". شهرية يصدرها الحزب الشيوعي العراقي. العدد 132 (9) السنة 28. تموز/يوليو 1981. ص 23.

120 خيرى ، سعاد د. فهد والنهج الماركسي اللينيني في قضايا الثورة. دار الفارابي. بيروت. ط 2. 1974. ص 8 .

121 خيرى ، سعاد د. نضال الطبقة العاملة العراقية من أجل قانون العمال. بمناسبة مرور 40 عاماً على صدور أول قانون للعمل في العراق. مجلة الثقافة الجديدة العراقية. بغداد. العدد 85/ أيلول/سبتمبر 1974. ص 48.

معجبين أيضاً بتلك الشخصيات التي رفضت الاحتلال ورفضت المساومة واستمرت في مقاومة الوجود البريطاني في العراق بمختلف السبل ولفترات طويلة لاحقة ، ومنهم بعض علماء الدين وشيوخ العشائر والتجار . ومن بين قادة الثورة ودعاتها من المجموعة الأخيرة حينذاك يبرز محمد جعفر أبو التمن ، الذي أسس بعد الثورة ، أي في عام 1922 ، "الحزب الوطني" العراقي ، الذي تبنى عملياً مطالب الثورة التي عجز الثوار عن تحقيقها . وساهم ذلك في انشداد فهد إلى الحزب الوطني حال تأسيسه والقيام بالدعاية له وللأهداف التي حملها ودعا إليها . إلا أن الضربة التي وجهت للحزب الوطني وحزب النهضة في نهاية عام 1922 وبداية عام 1923 أوقفت نشاط هذين الحزبين مما دفعت بهم إلى التحري عن مجالات أخرى للعمل السياسي . وفي أثناء وجود فهد في البصرة ساهم مع آخرين ، ومنهم حسن العياش ، في قيادة الإضراب العمالي الذي نظم في ميناء البصرة في عام 1924 وطرح مطالب عمالية . وبرز بين عامي 1926/1927 "نادي الشبيبة" في البصرة الذي أصبح مركزاً لتجمع الشباب الديمقراطي اليساري والنقابي . ومن بين أعضاء نادي الشبيبة والعاملين في الميناء وغيرهم ظهرت لأول مرة في البصرة أول حلقة للفكر الوطني والتقدمي التي كان يقودها عبد الحميد الخطيب<sup>122</sup> ، والتي برزت فيها الاتجاهات الماركسية بوضوح وشارك في عضويتها فهد . وكانت هذه الفترة غنية لا بالحركة السياسية فحسب ، بل وفي الاطلاع الفكري والسياسي على ما كان يصل إلى العراق ، رغم شحته من صحف ومجلات مصرية وسورية ولبنانية ومن كتابات الاشتراكيين الأوائل والمناهضين للاحتلال والاستبداد ، ومنهم الكاتب السوري عبد الرحمن الكواكبي ، صاحب كتاب "طبائع الاستبداد" ، وعدد من الكتاب المصريين مثل شبلي شميل وسلامة موسى وأمين الريحاني ويوسف إبراهيم يزبك وغيرهم<sup>123</sup> . وتأثير هذه الحلقة ونشاطها في نادي الشبيبة أمكن في عام 1929 تشكيل "جمعية الأحرار" التي اتخذت من نادي الشبيبة مجالاً حيويًا لنشاطها الفكري والاجتماعي والسياسي . واتخذت هذه الجمعية الفتية من شعارات الثورة البرجوازية الفرنسية ، شعارات الحرية ، الإخاء والمساواة ، أساساً لدعايتها بين الشباب كما استفادت من مضمون مقولة عمر بن الخطاب "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً" ، أو كما يشير حنا بطاطو إلى أن الجمعية أعلنت تمسكها بأن العراقيين "ولدوا أحراراً" لـ "يعيشوا أحراراً"<sup>124</sup> . وكان نادي الشبيبة موقعاً حيويًا لمناقشات شباب الجمعية الجديدة حول النظريات الاجتماعية الحديثة القادمة لهم من مختلف أنحاء العالم<sup>125</sup> ، وخاصة

122 بعد أن عاد عبد الحميد الخطيب من فترة دراسته في الاتحاد السوفييتي 1931-1932 استسلم للشرطة العراقية وعمل معها

وخان القضية التي التزم أمام رفاقه بها وساهم في كسبهم للوجهة الفكرية التي كان يعمل من أجلها.

123 الجزائري ، زهير. شباب (فهد) وصبا الحركة الشيوعية في العراق. مصدر سابق. ص 23.

124 بطاطو ، حنا د. العراق. الجزء الثاني. الحزب الشيوعي العراقي. مصدر سابق. ص 57.

125 بطاطو ، حنا د. العراق. الجزء الثاني. الحزب الشيوعي العراقي. مصدر سابق. ص 58/56

تلك التي حملتها لهم قبل ذاك الصحافة المصرية والسورية واللبنانية عن ثورة أكتوبر الاشتراكية في روسيا ، إضافة إلى الفعاليات الشبابية والعمالية التي كانت تجري في تلك البلدان والتي كانت تنعكس على صفحات الصحف القادمة إلى البصرة . وكان فهد وبقيّة الديمقراطيين من مؤيدي الحزب الوطني يلتقون في هذا النادي ، فهو نادي ليبرالي متفتح يحتضن جمعية ماركسية ليبرالية . ومن المهمات التي حملها برنامج الجمعية يتعرف الإنسان على الاتجاهات العلمانية الجديدة والاتجاهات الماركسية والشيوعية الحديثة للعاملين فيها أو لقيادة هذه الجمعية . وعبرت الجمعية في نشاطها عن جرأة في الطرح ووضوح في الرؤية المنشودة مع تجاوز نسبي على قدرة المجتمع على قبول أو هضم بعض تلك الأفكار ، ومنها العلاقة بين العائلة والدين مثلاً أو تلك الحركة التي سميت "بالحركة اللادينية" . وقد تأسست الجمعية باعتبارها واحدة من مؤسسات المجتمع المدني الحديث التي بدأ التعرف عليها في العراق وممارستها منذ دخول البريطانيين إليه على نطاق أوسع مما كان في الفترة العثمانية . وتلخصت أهداف الجمعية بما يلي:

" (1) تحرير العقل والروح والجسد ونشر حرية التفكير والكلمة والفعل بكل الوسائل المشروعة .

(2) أ . العمل بلا هوادة ، وبكل الطرق القانونية ، من أجل فصل الدين عن كل الشؤون الزمنية ، أي عن "السياسة ، و "التعليم" و "الحياة العائلية" ... الخ .

ب . الاحتجاج بقوة ... على أي عمل ديني يضر بوحدة الشعب .

(3) نشر التسامح الديني ... في كل البلاد العربية...

(4) يتم تحقيق هذه الأهداف بالتغييرات التشريعية ... وبالمشاركة في الانتخابات النيابية...

(5) ... فضح مدى انحراف علماء الدين في سلوكهم عن الجوهر الأساسي للدين ، مع الأخذ في الاعتبار أن الأديان كانت السبب الرئيسي في التفرقة وأن الهدف الأسمى للجمعية هو توحيد قوى الشعب المبعثرة .

(6) عقد اجتماعات عامة بهدف تعريف الناس بأحدث الأفكار العلمية والاجتماعية ... وإطلاعهم على آخر التطورات الدولية...

(7) تحرير المرأة العربية من أغلال الانحطاط والجهل...

(8) ترويح مشاعر الزمالة بين الناس ... .

(9) تشجيع المدارس الوطنية العربية فقط والنظر إلى كل البلاد العربية كبلد واحد" 126 .

ويبدو مناسباً أن نسجل هنا بعض الملاحظات المفيدة حول ما ورد في هذا البرنامج ، الذي شارك فهد في وضعه أيضاً ، إذ أنها تضعنا أمام الأفكار التي طرحها فهد في نشاطه في

- الناصرية والبيانات التي صدرت عنه حينذاك ، أو حتى في رسمه لاستراتيج وتكتيك الحزب الشيوعي العراقي وتجنبه الصدام مع الدستور العراقي ، ومنها:
- الإشارة الواضحة إلى أن الجماعة لا تدين بالعنف ، بل تؤمن بالطريق الدستوري والحياة التشريعية والانتخابات ، وهي مسألة تجلت في نشاط فهد وفي البرنامج الذي طرحه لاحقاً للحزب الشيوعي العراقي 127؛
  - الوعي بأهمية وضرورة ممارسة النشاط الفكري والاجتماعي في صفوف الناس ، بسبب التخلف الشديد الذي تسببت به الدولة العثمانية وعزلت العراق عن الحياة الحضارية والتقدم الحاصل في بقية ارجاء العالم؛
  - بداية التسرب الموقف الجديد من المرأة إلى جميع القوى التقدمية العاملة في المجال السياسي والاجتماعي والمطالبة الواضحة بتحرير المرأة ومساواتها بالرجل؛
  - إدانة الشعوذة الدينية والطائفية أو التمييز بسبب الدين أو الطائفة والدعوة إلى التسامح الديني من منطلق الاعتراف بتعدد الأديان . وكان لهذا الموقف أهمية بالغة بسبب كون النادي يجمع خليطاً من الناس من مختلف الأديان والمذاهب ، إذ كان المجتمع البصري يقوم على هذا الأساس أيضاً ، رغم وجود أكثرية مسلمة؛
  - وكانت الدعوة إلى فصل الدين عن الدولة واحدة من أهم وأبرز القضايا التي مست المجتمع المتحفظ القادم لتوه من مجتمع عثماني إقطاعي - أوتوقراطي متشدد ومتخلف . ولهذا أوجدت هذه الدعوة هزة شديدة في المجتمع الذي اطلع على هذه الفقرة وخاصة تلك التي تريد فصل الدين عن الحياة العائلية ، والتي استثمرت بذكاء وصلافة من القوى الرجعية في البصرة . وكان نفس النهج موجوداً عند جماعة بغداد . ولكن كلا المجموعتين تخلتا عن هذا الموضوع وعن إقحام الدين في نشاطاتها السياسية والدعائية . وجدير بالإشارة إلى أن موقف الحلقات الماركسية من الدين جاء بتأثير الاتجاهات اليسارية والانعزالية التي تبنتها الأهمية الشيوعية في وقت مبكر ، والتي يتطرق الكتاب إليها الباحثان في موقع آخر من هذا الكتاب . وهذه الملاحظة لا تمس الموقف الصائب الذي اتخذته تلك الحلقات والداعي إلى فصل الدين عن الدولة ، باعتباره موقفاً مبدئياً وعلماً ثابته لا يصح التشكيك فيه ، بل تمس مسألة خوض نقاشات غير ضرورية بصدد الدين ذاته ، والموقف من موضوع المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية فيما بعد وعلاقتها بالعضوية في الحزب الشيوعي العراقي؛
  - إدانة الإقطاع والتزام جانب كادحي الريف المستغلين والنضال في سبيل رفع الظلم عنهم وتتفق كثرة من المصادر المتوفرة على أن تشكيل هذه الحلقة الماركسية جاء بتأثير مباشر من العامل الشيوعي الثوري والأممي "المحترف" بيوتر فاسيلي 128 ، وهو آثوري من سكان

العمادية في شمال العراق ، إضافة إلى تأثيرات الجماعة الثورية في المحمرة ، خاصة وأن الطريق بين المحمرة والبصرة كان مفتوحاً والعلاقات العائلية والتجارية كانت متينة . وكان لمكانة البصرة كميناء تصل إليه البواخر من بلدان عديدة دورها في وصول الفكر الديمقراطي والتقدمي ومن ثم الماركسي إلى العاملين في الميناء ، ومنهم إلى أهالي البصرة . وكانت تصل مع المسافرين الكتب والصحف والمجلات المختلفة أيضاً .

وفي عام 1927 انتقل فهد نهائياً من البصرة واستقر في مدينة الناصرية ليمارس العمل في معمل أخيه ثانياً . ولم يكن هذا الانتقال بمعزل عن الوجهة العامة في نقل الفكر الماركسي إلى مدن أخرى والعمل من أجل تشكيل حلقات ماركسية في مدن أخرى . ولم يكن يعني هذا الانتقال قطع الصلة بالبصرة أو عدم السفر إليها وممارسة العمل النضالي فيها بين فترة وأخرى . وكانت نهاية العقد الثالث وبداية العقد الرابع فترة متميزة في تبلور أفكار فهد واتجاهات نضاله والقضايا التي كانت تشغله بالنسبة للمجتمع العراقي . كما كانت فترة التزود بالمعرفة العامة والماركسية خاصة ، إذ تسنى له قراءة العديد من الكتب الماركسية . وكانت حياة الكدح المريرة في البصرة وحياة البؤس والاضطهاد لفلاح الناصرية الملهم الفعلي لحيويته النضالية ومناهضته الصلبة للهيمنة الأجنبية وللعلاقات الإقطاعية . وتسنى لفهد الاستفادة الفعالة ، ولو لفترة قصيرة ، من المكتبة التي افتتحها مع آخرين ، وكذلك من علاقته الحميمة بأهل المدينة ، أن يجمع حوله شلة من المناضلين الشعبيين الذين كانوا يحسون بأوضاع الناس ويتفاعلون معها ويتبنون قضاياها باعتبارها قضاياهم فعلاً . وأذ انشغل المناضلون في بغداد بالصراع العام الذي عم البلاد في نهاية العشرينات ، وخاصة موضوع المعاهدة ومجلس النواب والقضية الفلسطينية ، والتي لم تغب عن بال المناضلين في البصرة والناصرية ، فأنهم ربطوا كل ذلك بأحوال الناس الكادحين وبهمومهم اليومية . ومن هنا برزت ميزة هذه الجماعة العملية والحركية وديمومتها أيضاً . وفي عام 1929 ، أي مع بداية انفجار الأزمة الرأسمالية ، الكساد العظيم الذي شمل العراق أيضاً ، بادر فهد إلى تشكيل أول حلقة ماركسية في الناصرية ضمت في صفوفها إلى جانبه كلاً من غالي زويّد وحמיד الكسار وعبد الرحمن داود والخياط بطرس وأحمد جمال الدين ، إذ كانت الحركة الجماهيرية المتصاعدة تتطلب جهوداً مشتركة ومنظمة . وأخذت هذه الحلقة على عاتقها نشر الفكر الماركسي والوعي السياسي بين أهالي الناصرية والاختلاط بالطلاب والمعلمين والفلاحين وتحريضهم على النضال والمطالبة بحقوقهم . وبسبب الطبيعة الشعبية البسيطة لهذه المجموعة كان في مقدورها التأثير الأكبر على أبناء هذه المدينة الثورية التي كانت تقف على برميل من بارود قابل للاشتعال في كل لحظة . واستطاعت خلال فترة وجيزة من نشاطها أن تزيد من عدد النشطاء المرتبطين بتلك الحلقات الماركسية ، كما بدأ



العمل من أجل تشكيل مثل هذه الحلقات في مناطق أخرى من العراق . وفي هذه الفترة رفع فهد من درجة اهتمامه بالمجالات الحيوية التالية:

• الاهتمام بزيادة معارفه النظرية وتكوينه السياسي ومعرفته بتاريخ العراق وأحوال سكانه ومشكلاتهم والتعرف الجيد على القوى الاجتماعية والسياسية الفاعلة في المجتمع والمؤثرة عليه ، سواء الداخلية منها أم الخارجية؛

• التعرف على الأوضاع في الأقطار العربية وعلى طبيعة العلاقة القائمة بين العراق والدول العربية الشقيقة والبلدان المجاورة والمشكلات التي تواجهها والأهداف المشتركة في ما بين شعوبها؛

• الاهتمام بتكوين نواتة صغيرة من الشباب القريبين منه والمحتكين بنشاطه السياسي والمؤيدين لتوجهاته العامة والسعي إلى تأهيل هؤلاء فكرياً وتنظيماً ودعائياً . وتشير بعض المعلومات الشحيحة المتوفرة عن هذه الفترة إلى الأسلوب الحوارى الاستفزازي ، بالمعنى الإيجابي للكلمة ، الذي مارسه فهد في بث دعاة الفكر الماركسي في صفوف الناس وفي المقاهي لإثارة نقاش بين مجموعتين من الماركسيين ، إحداهما تقف إلى جانب الموضوعات التي يطرحها الماركسيون والأخرى تقف إلى جانب المناهضين لتلك الموضوعات . وكان الحوار يقود بالمحصلة النهائية إلى انتصار الجماعة الماركسية ، إذ كانت الحجج المزودين بها قوية ، رغم الطريقة والأسئلة المخرجة التي كانت الجماعة الأخرى تطرحها في النقاش . ويقال أن فهد كان يجلس في ركن في المقهى ليستمع إلى هذا النقاش دون التدخل فيه ليسجل ملاحظاته حول الحوار والمشاركين فيه ليستفيد منها في تشخيص قدرات العناصر المختلفة أو لتحسين النقاشات اللاحقة<sup>129</sup>؛

• الاهتمام بالدعاية الفكرية والسياسية الواسعة بين الأوساط الشعبية مستفيداً من ثلاث وسائل مهمة هي الحوار مع الناس ومقارعة الحجة بالحجة ونشر التقارير والمقالات عن الأوضاع الحياتية السيئة للسكان في كل من البصرة والناصرية وغيرهما ، وكذلك عن حالة العمال والفلاحين والكسبة ومحاولة تنويرهم بالأسباب الكامنة وراء واقعهم المزري في الصحف المحلية . فلم يكن يتجاوز متوسط عمر الإنسان في العراق حينذاك 35 سنة تقريباً ، وكانت الوفيات بين الأطفال عالية جداً ، كما كانت الأمراض السارية كالسل والملاريا والزحار والجذري والتراخوما منتشرة على نطاق واسع ، كما كانت ظروف العمل صعبة والأجور واطنة جداً بالكاد تكفي لسد الرمق؛

• العمل من أجل نشر الفكر الماركسي أو اسم وأفكار الشيوعية وجعلها متداولة في أوساط الناس ، كما بذل جهداً لتأمين بعض الكتب المناسبة للقراء الشباب . ولهذا الغرض شارك في

129 الجزائري ، زهير. شباب (فهد) وصبا... . مصدر سابق. ص 29.

فتح مكتبة للشباب ، كان من خلالها يوصل الكتب المنشودة إلى القراء وترويج قراءتها ، أو الاتصال بالمراسلة مع "جمعية الصداقة السوفيتية - البريطانية" في لندن للحصول منها على ما ينفعه في نشاطه الفكري والسياسي ومن أجل مواجهة الدعايات البريطانية في العراق التي كانت موجهة ضد الاتحاد السوفيتي وتشويه الفكر الشيوعي130؛

• الاستفادة من الحزب الوطني العراقي ومن منابره العلنية للتبشير بأفكاره وآرائه حول الوضع الاقتصادي والاجتماعي في العراق وتبني قضايا الكادحين ، إضافة إلى الاستفادة من وسائل الإعلام المتوفرة لهذا الغرض؛

• إصدار البيانات التي كان يوقعها بأسم عامل شيوعي للترويج لأفكاره الوطنية ونشر كلمة الشيوعية على نطاق أوسع . ومن الجدير بالإشارة إلى أن فهد وصحبه كانوا يتحرون باستمرار عن أساليب جديدة لنشر أفكارهم ومواقفهم السياسية بين الأوساط الشعبية . ومن هنا جاءت فكرته التي اقترتها مجموعته وقامت بتنفيذها . إذ تقرر المشاركة بمواكب العزاء التي تذهب كل عام إلى مدينة كربلاء للتعزية بذكرى استشهاد الحسين على أيدي قوات الخليفة الأموي ، يزيد بن معاوية بن ابي سفيان ، أثناء حكمه في الشام ، ونقل المنشورات إلى هناك وتوزيعها على المواكب القادمة من عدد كبير من مدن العراق ومن الخارج . وحصل هذا فعلاً وحقق نجاحاً ملموساً ، بعد أن نقلت تلك البيانات في بطن القدور النحاسية التي كانت تستخدم لطبخ الرز والمرقة في خانات كربلاء لتوزع مجاناً على المشاركين في المواكب الحسينية ، والتي لم تعثر عليها الشرطة أثناء تفتيش القطر في طريقه إلى كربلاء بعد أن قامت المجموعة بتوزيعه من شبابيك عربات القطر بعد انطلاقه من مدينة الناصرية131 .

• العمل من أجل تعبئة وزج الجماهير في فعاليات نضالية ، كما حصل في تنظيم وقيادة الإضراب الجماهيري في مختلف أنحاء العراق ضد زيادة الضرائب في عام 1931 . وكانت واحدة من أبرز الفعاليات في بداية العقد الرابع من القرن العشرين تلك التي حصلت في مدينة الناصرية حيث اصطدمت الجماهير المتذمرة والمندفعة بحماس شديد برجال الشرطة المسلحة وسالت فيها الدماء . وساهم فهد في قيادة إضرابات عمال البصرة في أعقاب ذلك بعد أن أجبر على مغادرتها تخلصاً من مطاردة الشرطة له . وفي هذه الأجواء النضالية تمّ إعدام العامل حسين عياش ، صديق فهد ، من قبل السلطة العراقية وبالتعاون الوثيق مع قوات الاحتلال البريطانية . وكان أول ماركسي عراقي يحكم بالإعدام وينفذ فيه الحكم . وفي تلك الفترة تعرض

130 الجزائرني ، زهير . شباب (فهد) وصبا الحركة الشيوعية في العراق. مصدر سابق. ص 25.

131 أبو سليمان. ذكريات وانطباعات عن الرفيق فهد. لقاء مع عبد الكريم حسون جار الله. مجلة الثقافة الجديدة. الحزب الشيوعي العراقي. العدد 132. (9). 1981 مصدر سابق. ص 34/33.

فهد للمطاردة البوليسية من جديد أجبرته على العودة السرية إلى مدينة الناصرية ومواصلة نضاله هناك .

كانت مجتمعات البصرة والناصرية ومناطق أخرى من وسط وجنوب العراق مستعدة إلى حدود غير في قبول تلك الأفكار الجديدة المناهضة للاستعمار والسلطة والداعية إلى الحرية والعدالة الاجتماعية وتبنيها والعمل من أجلها . ويفترض أن نشير هنا إلى أن هذه المنطقة عُرُفت في تاريخ العراق الأموي والعباسي وكذلك العثماني بكونها موطناً للحركات الفكرية والسياسية المعارضة والمطالبة بالعدالة الاجتماعية . وتشير كتب التاريخ إلى أن جنوب ووسط العراق (أرض السواد) كانتنا موطناً لحركة التصوف والمعتزلة وحركة الزنج وحركة القرامطة التي كانت كلها ، وبأساليبها المتنوعة والمختلفة ، حركات مناضلة ضد ظلم وطغيان الدولة العباسية وفي سبيل العدالة الاجتماعية ، إضافة إلى إنها كانت معقلاً أساسياً من معاقل النضال ضد طغيان السلطة العثمانية وقوات الاحتلال البريطاني في الحرب العالمية الأولى وفي ثورة العشرين . وهي المنطقة التي أرسل إليها الحجاج بن يوسف الثقفي ليكون والياً على العراق "ليؤدب" سكانها ، وهو أحد أبرز سفاحي وجلادي العراق على مدى العصور المنصرمة التي سبقت وصول صدام حسين إلى السلطة ، وهو القائل عن العراق وأهله ما يلي: "أرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها وأني لأصحابها..." . ولهذا كان فهد محظوظاً وموفقاً في آن واحد ، سواء بوجوده في منطقة الناصرية وكذلك البصرة ذات التاريخ الحضاري والثوري العريقين ، أم بوجوده في منطقة ذات مشكلات اقتصادية واجتماعية وعلاقات استغلالية اقطاعية اقرب ما تكون إلى علاقات مزيج من الرق والقناتة والأبوية في التعامل مع الفلاحين ، كما أن الأزمة الاقتصادية العالمية التي وجدت طريقها إلى المجتمع العراقي ، ساهمت في تقبل الناس لهذه الأفكار التي كانت تفضح الرأسمالية والاستعمار والهيمنة الإقطاعية .

وفي عام 1929 أمكن تنظيم حملة وكتابة مذكرة تدعو الحزب الوطني الذي يترأسه محمد جعفر أبو التمن بتأسيس فرع للحزب في الناصرية ، حيث جرى جمع التواقيع عليها . وكان فهد من بين النشطاء في هذه الحملة . وفي نفس العام "افتتح مقر الفرع بمهرجان جماهيري ألقى فيه فهد خطاباً حماسياً لفت انتباه الجماهير المحتشدة . وكان فهد ورفاقه من أوائل من حصلوا على استمارة عضوية الحزب"132 . وكان عبد الجبار حسون جار الله رئيس الفرع حينذاك . "وأخذ رفاق فهد على عاتقهم تعليم عمال الحزب الوطني وفلاحيه القراءة والكتابة . وكانت كلمة (النقابة) هي أول الكلمات التي تعلموا كتابتها وتعلموا معناها"133 .

132 الجزائري ، زهير. شباب فهد وصبا الحركة الشيوعية العراقية. مصدر سابق. ص 27.

133 نفس المصدر السابق. ص 27.

كان محمد جعفر أبو التمن ، وهو الوطني الورع والواعي والمتحرر من بعض القيود والأمراض الاجتماعية ، ومنها التمييز الديني أو الطائفي ، والمتتبع للاتجاهات الفكرية والسياسية في عصره ، على علم ووعي بنشاط فهد في الحزب الوطني في الناصرية ، وكان يدافع عنه أيضاً عندما كانت تتوجه أنظار السلطة وأعضاء من حزبه إلى الاتجاهات المتميزة التي كان يدعو لها فهد وتنبهه للمخاطر التي يمكن أن تتهدد مصالحها بسبب تنامي تلك النشاطات وانتقالها إلى الشارع العراقي ، حيث قيل له مرة ، بأن رئيس فرع الناصرية للحزب الوطني العراقي ، والمقصود فهد ، هو شخص "هذام" ، فرد عليهم بقوله أنه رجل "بناء" 134 . وكان فهد يشجع حتى ذلك الحين على الانتماء لهذا الحزب والمشاركة الفعالة في نشاطه والاستفادة من إمكانياته في العمل السياسي المشروع . وقد استطاع فهد في فترة وجيزة تأمين تأييد مناسب لنشاطه وتوجهاته في البصرة بين عمال الموانئ وفي الناصرية بين بعض العمال والكسبة وبعض الفلاحين والطلاب ، وكذلك في مناطق قريبة منها . وبهذه المجموعات الصغيرة والحيوية والمتحمسة انطلق فهد يحاول إيجاد السبل المناسبة للتعاون مع المجموعات الماركسية الأخرى التي نشأت في بغداد خلال ذات الفترة . ولا شك في أن المجموعات الأخرى كانت تتحرى عن مثل هذه المناسبة أيضاً لتأمين التعاون والتنسيق في ما بين الحركات الماركسية الصغيرة والفتية حينذاك .

بدأ فهد بممارسة الكتابة ونشر التقارير في جريدة البلاد لصاحبها رفائيل بطي عن حالة الفلاحين في الناصرية وعن البؤس والفاقة التي تشمل الغالبية العظمى من سكان هذه المدينة التي تهيم عليها العائلة الإقطاعية المعروفة ، عائلة ناصر آل السعدون . وتميزت تلك التقارير بالحيوية والحس الطبقي والالتزام الثابت بقضايا الكادحين . وفي عام 1930 قام يوسف سلمان ، وبعد أن تيقن من إمكانية استمرار وتطور العمل في خلايا الرفاق في كل من البصرة والناصرية ، بجولة سياحية استطلاعية في الأقطار العربية ، ومنها سوريا ولبنان وفلسطين . وكان يسعى من وراء هذه السفارة تأمين عدة أهداف أساسية:

- الاطلاع على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في هذه البلدان وفهم المشكلات التي تعاني منها ، والتي لم تكن تختلف كثيراً عن أوضاع العراق حينذاك؛
- محاولة التعرف على النشاط الماركسي في هذه البلدان وإيجاد علاقات معها والتعرف على تجربتها في النشاط السياسي والجماهيري ، خاصة وأن سنوات العقد الثالث من القرن العشرين شهدت عمليات تأسيس الأحزاب الشيوعية في كل من مصر وفلسطين ولبنان

134 خيرى ، زكي. دراسات في تاريخ الحزب الشيوعي العراقي. المجلد الأول. إصدار البيويل الذهبي. ط 1. لندن. 1984. ص 32. وتجدر الإشارة إلى أن فهد لم يكن رئيساً لفرع الحزب الوطني في الناصرية، بل كان عضواً في قيادته، وكان السيد عبد الجبار حسون جار الله رئيساً لفرع الحزب حينذاك.

وسوريا . وكانت الأممية الشيوعية الثالثة قد تأسست لتوها في موسكو ، اي في عام 1919 ، وشكلت لها مكاتب لدعم نشاط أو دعم قيام أحزاب شيوعية في مختلف بلدان العالم .

- إطلاع القارئ العراقي على أوضاع الأقطار العربية كما يراها من خلال نشر ملاحظاته بتقارير في جريدة البلاد ، باعتباره مراسلاً لهذه الجريدة .
- وليست لدينا معلومات يقينية تؤكد نشوء علاقة بين فهد ومحمود الأطرش ، القائد الشيوعي الفلسطيني-الجزائري في هذه الفترة ، حيكان الأخير يعمل حينذاك في قيادة الحزب الشيوعي الفلسطيني ، كما كان عاملاً في مزارع الحمضيات .

وفي 1931/5/7 أعلن في بغداد الإضراب العام احتجاجاً على رفع الضرائب وعلى اتساع حالة البطالة بسبب شمول العراق بالكساد الكبير الذي شمل العالم الرأسمالي كله وبسبب تهور مستوى معيشة الفلاحين وتكدس المحاصيل الزراعية وتعثر الزراعة وهجرة المزيد من الفلاحين للمزارع التي يعملون فيها نحو المدينة تحرياً عن فرص للعمل وإشباع البطون . وجاء هذا الإضراب بعد عام واحد تقريباً من توقيع معاهدة 30 حزيران/يونيو 1930 التي رفضها الشعب العراقي ورفض استمرار وجود البريطانيين في العراق . وكان الإضراب مشحوناً بمضامين مهنية ووطنية عامة . وعم الإضراب ليشمل مدن العراق المختلفة ، ومنها مدن الجنوب . وفي الناصرية قاد فهد وحسن عياش وعبد الجبار حسون هذا الإضراب ولعبوا دوراً أساسياً في تعبئة الناس واستمرار الإضراب . وكان لهذا الإضراب صداه الواسع في مدن العراق والأقطار العربية ، بعد أن اشتبكت قوات الشرطة بالجماهير المضربة وسقط العديد من القتلى والجرحى برصاص الشرطة . كما تدخلت قوات الاحتلال البريطاني لصالح الحكومة العراقية والشرطة ، وخاصة في البصرة . إذ تشير الدكتورة سعاد خيري إلى أن البوارج الحربية البريطانية وجهت مدافعها صوب مدينة البصرة مهددة بضربها 135 .

وفي عام 1932 أصدر فهد بياناً عبر فيه عما كان يدور في خلد إزاء الوضع في العراق والاستعمار وإزاء الحكم ومعاناة العمال والفلاحين وسائر كادحي البلاد ، وقام بالصاق هذا البيان وبخط يده في 18 مكاناً مختلفاً في مدينة الناصرية في ليلة 13 كانون الأول/ديسمبر 1932 . واستطاع حنا بطاطو الوصول إلى هذا البيان الموجود في ملف الشرطة العراقية رقم 487 حول فهد . فماذا تضمن هذا البيان الثوري الذي حمل شعار "يا عمال العالم ، اتحدوا !" و "عاش اتحاد جمهوريات العمال والفلاحين في البلاد العربية" ، كما حمل توقيع "عامل شيوعي" :

135 خيري ، سعاد د. نضال الطبقة العاملة العراقية من أجل قانون العمل. مجلة الثقافة الجديدة العراقية. بغداد. العدد 1976/85. ص 50.

"أيها العمال ! ... العاطلون عن العمل يملؤون الشوارع ... نساؤهم وأطفالهم لا يملكون ما يقاتون به ... هل فكرت الحكومة بمساعدتهم في هذا الطقس البارد؟ لم يحصل شيء من هذا ... لأن الحكومة ليست إلا عصابة تعمل ضد الشعب...

أيها العمال ! إن للناس حقوقاً لن يؤمنوها إلا بالقوة . هذا ما أكدته دروس التاريخ ... ما من أحد يمكنه أن يشعر ببؤس العمال إلا العمال أنفسهم . ولا أحد يعرف آلام الجوع إلا الجائع . لماذا نلوم الذين يأكلون ثمار عملنا ... إذا كنا نحن أنفسنا نشجعهم على سرفقتنا؟ ... لا تُخدعوا باسم فلان من الناس لكونه من الأعيان أو لكونه غنياً أو من عائلة كبيرة ، فكل الرذائل تأتي من العائلات الكبيرة التي يزعم أنها شريفة حيث لا شرف إلا في العمل ، وما من شريف غير العامل والفلاح ...

تشجعوا أيها الرفاق ! فنحن نناضل في سبيل شرفنا وحياتنا وخير أجيالنا المقبلة . إلى الأمام أيها العمال ! تقدموا إلى العمل المثمر وإلى الحرية وإلى الرفاهية !" 136 .  
وفي 24/23 كانون الأول/ديسمبر 1932 أصدر فهد بياناً ثانياً موجهاً إلى العمال لفضح نوايا الحكومة العراقية حول معاهدة 1930 . وجاء في البيان ما يلي: 137  
اتحدوا يا عمال العالم

### ليحيى اتحاد جمهور عمال وفلاحى البلاد العربية أيها العمال:

لقد حلت الحكومة المجلس السابق بحجة أنها تريد استفتاء الشعب ، والمجلس المنحل لم يكن سوى مجلس استفتاء في المعاهدة العراقية - الإنكليزية ، ونوابه لم يكونوا سوى أصنام نحتها نوري ومسيرو نوري فصدقوا المعاهدة التي بها جعلنا عبيد المصالح الاستعمارية - البريطانية وشرعوا قوانين جائرة لا يرضخ لها زواج أفريقيا المتأخرون . فهل يجوز لهم أن يدعوا أنهم استفتوا الشعب ورضي الشعب ببيع نفسه . والحكومة اليوم تريد أن تمثل دور استفتاء آخر فنشرت منهاجاً ملؤه الإبهام والمغالطة ، أنها تريد ترقية الزراعة وقد سلب الفلاح المسكين آخر فلس عنده حتى اضطرت له لبيع مسحاته وكذلك تريد نشر المعارف والثقافة العالية وإذا بنا نرى المدارس العالية الواحدة بعد الأخرى! وتقول أنها تريد تعزيز الدفاع الوطني وهذا - على الأكثر - هو السبب الوحيد لترخيص المجلس السابق بعد أن لوثت نوابه بالخزي والعار لتجمع نواباً آخرين بعد أن تستوثق من صنعتهم - وتأخذ منهم المستندات لكي يوافقوها على خططها ويرضخوا لمشينتها أو مشينة الاستعمار البريطاني الذي يسير وفق أغراضه . وسيقررون لها

136 بطاطو ، حنا د. العراق. الجزء الثالث. الحزب الشيوعي العراقي. مصدر سابق. ص 80.  
137 وثائق من وزارة الخارجية البريطانية عن الرفيق فهد تنشر لأول مرة. مجلة الثقافة الجديدة. العدد 132 (9). 1981. ص 76/75.

فرض الخدمة العسكرية الإجبارية لا لتعزيز الدفاع الوطني كما يوهموننا بل لحراسة المصالح الإنكليزية ومنها حراسة شركات النفط وأنابيبها التي تنوي مدها في الصحراء وربما أقضت سياستهم أن يسوقوننا لمحاربة جارتنا إيران التي أخذت تنفض عنها غبار الذل والاستسلام للمتعجرف البريطاني . هذا هو غرضهم من جمع مجلس جديد - ولا شك أنهم الآن قد وجدوا الأشخاص الذين يشاركونهم أعمالهم وصدروا أوامرهم إلى المتصرفين لإخراجهم نواباً . أما الانتخابات والتظاهر بها فما هي إلا العوبة يسترون بها حياتهم . هذا هو استفتاؤهم ايها الرفاق فهل فيكم من يرضى أن يسفك دمه من أجل مصالح الإنكليز ، إذن فودعوا أهلکم وأطفالکم واتركوهم هنا تحت رحمة أعدانکم الموجودين في داخل البلاد واذهبوا وقتلوا أعداء أعدانکم . لقد حذرتکم في نشرتي السابقة وأنا أحذركم الآن والوقت عسيب جداً فمن العار علينا أن نطأ رؤوسنا للظلم ايها الرفاق .

فإلى الأمام

- عامل شيوعي -

وفي أعقاب توزيع هذين البيانين النارين المتتاليين وترجمة واستنساخ البيان الشيوعي وتوزيعه في الناصرية في عام 1932 ، 138 ألفت الشرطة في 21 شباط/فبراير من عام 1933 القبض على فهد وأبقتة في التوقيف الاحترازي لمدة شهر وأجرت التحقيق معه ، ثم اضطرت على إطلاق سراحه\* ، إذ لم تكن هناك مادة قانونية تجيز اعتقاله ، رغم كونه قد "اعترف عند التحقيق معه بكونه شيوعياً ، وألقى محاضرة مطوّلة عن "الرأسماليين" و "الجماهير الكادحة" 139 . ولم يجد الحاكم مادة قانونية تسمح له بالحكم عليه فأطلق سراحه ، علماً بأن السيد عبود الشالجي كان الحاكم الذي أطلق سراحه ، وساهم تدخل محمد جعفر أبو التمن لصالحه باعتباره عضواً في حزبه على التعجيل بالإفراج عنه 140 . وفي هذه الفترة كان فهد ما

138 ونقل زهير الجزائري في مقاله المذكور سابقاً "شباب فهد وصبا..." عن لقاءاته مع الرواد الأوائل قول عبد الكريم حسون جار الله "أتذكر أني تسلمت منه البيان الشيوعي مخطوطاً باليد..." ، أي من يد فهد. ص 25.

\* في لقاء مع جريدة "المؤتمر" نشر في العدد 268 بتاريخ 25-31 آب/أغسطس 2001 والذي أعده رشيد الخيون يقول عبود الشالجي بهذا الخصوص: "كنت حاكماً في الناصرية العام 1934 عندما ألقى القبض على شخص يدعى يوسف سلمان ، المعروف بفهد ، وهو مؤسس الحزب الشيوعي العراقي ، وقدم لمحاكمته. سألته: ما هي تهمةك؟ قال أنا من الحزب الشيوعي ولكن لا أشير بالمذهب الشيوعي. وكان القانون صريح بالمعاقبة على التبشير بالشيوعية. وقد وجهت السؤال لوكيل المدعي العام: هل عندك دليل على أنه يبشر للشيوعية؟ وبعد يومين قال لي المدعي العام: لا يوجد لدينا أي دليل. وحينها أطلقت سراح المتهم. ولكن بعد فترة قصيرة جداً تغير القانون مباشرة ، وأصبح ينص على معاقبة من ينتمي للحزب الشيوعي ومن يبشر بأفكاره". (راجع قانون العقوبات البغدادي حيث أضيف تعديل في العام 1938 يعاقب من يروج للشيوعية. (ك. حبيب)

139 نفس المصدر السابق. ص 81.

140 من المفيد هنا نشر الجزء الأساسي من الوثيقة التي حصل عليها الحزب الشيوعي العراقي ونشرها في مجلة الثقافة الجديدة في عددها 132 (9) لشهر تموز/يوليو من عام 1981 ، ص 67/66.

الديوان الملكي  
11 آذار 1933  
العدد د / 121

الحكومة العراقية  
وزارة الداخلية  
شعبة المخابرات السرية

يزال يعمل في إطار الحزب الوطني في الناصرية ويجد في هذا الموقع حصانة لنشاطه السياسي المشروع رغم تنبيه أفكاراً أبعد وأغنى مما كان مطروحاً في برنامج الحزب الوطني . وكان عام 1932/1933 بداية للتحالف الذي أمكن إقامته بين الحزب الوطني وحزب الإخاء الوطني لمواجهة الأوضاع الجديدة في العراق . إلا أن حزب الإخاء الوطني ، أخل بهذا التحالف ووافق على تشكيل وزارة يتحمل مسؤوليتها حزب الإخاء الوطني برئاسة عضو قيادة الحزب رشيد عالي الكيلاني ومشاركة رئيس الحزب بحقيبة وزارة الداخلية ، إضافة إلى عدد من الحقائب الوزارية التي تقلدها قياديون في الحزب ، كما احتل نوري السعيد ، الذي وقّع تلك المعاهدة ، حقيبة وزارة الخارجية . وبهذا يكون قد تخلى في البرنامج الوزاري الجديد عن المسألة المركزية التي كان ينظر إليها الحزبان ويناضلان من أجل إلغاء معاهدة 1930 . وأصيب محمد جعفر أبو التمن بخيبة أمل شديدة دفعته إلى تجميد نشاطه ونشاط الحزب الوطني عملياً ابتداءً من الأول من تشرين الثاني/نوفمبر من عام 1933 . وأغضب هذا الموقف الكثير من أعضاء الحزب ، إذ كانوا يكتفون لجعفر أبو التمن الاحترام والتقدير . وكان فهد يحمل جل الاحترام

سري

بغداد 1 مارت 1933

العدد س / 441

مديرية الشرطة العامة

الموضوع / فهد المشبوه بالشيوعية

نبحث اليكم في طيه بصورة كتاب متصرفية لواء المنتفك المرقم 42 والمورخ في 21 شباط 1933 حول ما قامت به المتصرفية من الإجراءات ضد من اشتبه به باشتغاله في الشيوعية ، للاطلاع والإيعاز لمن يلزم بإجراء المراقبة اللازمة . صورة منه مع صورة كتاب المتصرفية المذكورة مع مرفقه إلى /

رئاسة الديوان الملكي

سكرتارية مجلس الوزراء للاطلاع

متصرفية لواء المنتفك / للاطلاع بالإشارة إلى كتابها المنوه في أعلاه .

الموضوع / العامل الشيوعي

الحاقا بكتابنا المرقم 30 والمورخ في 12 شباط 1933

لقد أخذت الشرطة بالسير في تحقيق قضية إلقاء الإذاعات بتوقيع عامل شيوعي في قضية الناصرية بين أونة وأخرى ، وقد اجتمعت الدلائل التي أوّمل أن يقال أنها كافية للاتهام من أن المدير والمنظم لهذه الأعمال هو عبد الجبار الحسون الذي أخذ رهن التوقيف اعتباراً من 19 الجاري بعد الظهر ، كما أنه قد أوقف اثنين آخرين وهما عبد الجبار ابن غفوري ويوسف بن سلمان الذي يظن أنهما هما الذين كانا يكتبان هذه الإذاعات بتوقيع العامل الشيوعي . وبتاريخ 20 منه جلب يوسف سلمان لأجل الاستكتاب نظراً "للشبهة الحوله من أنه أحد أعضاء هذه الجماعة بهذا العمل ، ولدى استكتابه من قبل مفوض التحقيق أخذ يتصنع بشكل يجعل خطه غير طبيعي ولما طلب منه أن يكتب بصورة طبيعية امتنع عن الكتابة وبين بصورة واضحة للمفوض من أنه رجل شيوعي ، فإذا كان الاستكتاب من أجل ذلك فهو شيوعي وهذا معتقده ومذهبه فأخذه فوراً" لمدير الشرطة فأيد ذلك بحضور مدير الشرطة وامتنع أيضاً عن الكتابة وعليه عمل ورقة ضبط بحق المرقوم ثم أرسله للحاكم فايد عين ما قاله بحضور مدير الشرطة عند الحاكم ثم أحضره أمامي ، فبعد المباحثة معه عن شغله وصنعتة ومقدار دخله الشهري ، وما يملكه ومسقط رأسه أجاب أنه عامل ميكانيكي ، أما دخلي في أيام الصيف كان بين الخمسة وستة دنانير وذلك من واردات ماكنتي الثلج والطحين اللتين لي بهما الربيع وليس لدى الشيوعي مالا عدا الألبسة والاضطهاد من المجتمع وأصحاب رؤوس الأموال وأنتي على ذلك مضطهداً في بيتي أيضاً ومسقط رأسي فهو بغداد . وكانت أجوبته هذه بكل برودة دم وتأييده وتعريف لي من أنه شيوعي دون أن يسأل عن ذلك ولما سألته عن امتناعه عن الاستكتاب أجاب إذا كان المراد مقابلة خطه فهو الذي كتبه أمام المفوض هو كافي للتطبيق وأنه لا يحرر غيره . ولما سألته عما إذا كان هو المحرر للمناشير التي بتوقيع عامل شيوعي أجاب لا أتخطر ولا يجوز فعله طبعاً توقف المرقوم وكبس داره وقد عثر على بعض الكتب والمراسلات ولم يتم فحصها بعد" .



والتقدير لهذه الشخصية الوطنية ، وبالتالي لم يكن سهلاً عليه أن يقبل بذلك التجميد لأنه كان يرى ضرورة الصلابة والاستمرارية في نضال الحزب الوطني وقائد الحزب أبو التمن . وخلال هذه الفترة كانت الحلقات الماركسية وخلايا الشيوعيين ما تزال تبحث عن صيغة عملية لتوحيد نشاطها السياسي على نطاق القطر . وكان فهد من بين أوائل الذين يبحثون عن تلك الصيغة .

## الفصل الثالث : الحلقات الماركسية في بغداد

بعيدا عن البصرة والناصرية ، في بغداد العاصمة ، بدأت محاولات مهمة ومماثلة لما حصل في البصرة والناصرية في وقت مبكر ، أي في النصف الأول من العقد الثالث ، من جانب عدد من المثقفين الذين تبنا الفكر الاشتراكي والفكر الماركسي واليساري عموماً وسعوا إلى نشره بين أوساط المثقفين ، من أولئك الذين ساندوا ثورة العشرين ووقفوا ضد الاحتلال البريطاني للعراق وضد الانتداب ، كما قاوموا مشروع معاهدة 1922 والمشاريع اللاحقة التي تم التوقيع عليها . وكان هذا التحرك الفكري والسياسي في أكثر من مدينة واحدة وفي أوقات متقاربة وبصورة عفوية ودون تنسيق يدل على مسألة مهمة وأساسية ، وهي أن الظروف الموضوعية التي كانت تسود العراق حينذاك ، كانت مهياة نسبياً لتقبل ونشوء مثل هذا الاتجاه في الفكر والسياسة ، بغض النظر عن العوامل الخارجية أو مجيء أفراد من الخارج للدعاية لمثل هذه الأفكار . وإذا كان النضال ضد الهيمنة الأجنبية قد ارتبط عضويًا بمستوى وعي الناس الذي كان مناهضاً للإنكليز باعتبارهم أجانِب وكفار ، فإن القوى الجديدة طرحت فكرياً آخر لا يمس موضوع الكفر أو ما شاكل ، بل ارتبط عضويًا بفكر تحرري جديد . وكان هذا الفكر الجديد يعبر عن رياح التغيير التي شملت أوروبا كلها حينذاك وولجت العراق بفترة متأخرة . وكان لهذا العامل الفكري الخارجي أهمية غير قليلة في شحن النضال العراقي بشحنات جديدة لم يعرفها من قبل ، كما ساعد على تحفيز وتنشيط الانفتاح الفكري عند المثقفين العراقيين . وكان في طليعة هؤلاء الرواد الأوائل حسين الرحال ، وفيما بعد ، أخته أمينة الرحال . تعرف حسين الرحال على الفكر الماركسي لأول مرة في ألمانيا عندما سافر إليها بمعية والده ودرس في مدارسها وعاش ثورة 1918 وتعرف على المظاهرات التي كانت تكتسح الشوارع وصدّامات الجماهير مع الشرطة البروسية . وعاش اندلاع الثورة وانتصارها ثم القضاء عليها في عام 1919 ، وعرف باغتيال روزا لوكسمبورغ وكارل ليبكنخت من قبل الشرطة السرية الألمانية الحاقدة على الثوار ، وبشكل خاص على "عصبة سبارتاكوس" ، وهي المجموعة التي تشكل منها الحزب الشيوعي الألماني لاحقاً ، التي قادت الثورة في العاصمة برلين . وعندما عاد إلى بغداد ، وبعد جولة قام بها في الهند ، بدأ العمل للتبشير بتلك الأفكار وجمع حوله مجموعة من المثقفين من بينهم محمود أحمد السيد وعبد الله جدوع وسليم فتاح ومصطفى علي وعوني بكر صدقي141 ، إضافة إلى محمد سليم وفاضل محمد 142 ، حيث كانوا يجتمعون منذ العام 1922

141 الوكيل ، فؤاد حسن. جماعة الأهلالي في العراق. مصدر سابق. ص 57.

142 حميدي ، جعفر عباس. التطورات السياسية في العراق 1941-1953. ص 339.

في جامع الحيدرخانة ، إذ حصلوا على غرفة في صحن الجامع بواسطة والد محمد أحمد السيد (المدرس) 143 ، وأطلق على أسم مجموعته "متدارسي الأفكار الحرة" . وكان هم هذه المجموعة في البداية يتجه صوب عدة قضايا أساسية ، وهي:

• بذل أقصى الجهود للتثقيف والتأهيل الفكري وعقد الحلقات الحوارية حول أبرز القضايا الفكرية والسياسية والاجتماعية التي تواجه البلاد ، ولكنها كانت بعيداً عن الناس ، إذ كانت محاولات للتثقيف الذاتي؛

• الهجوم على الفكر الرجعي الذي كان ما يزال شديد التأثير في الحياة الاجتماعية للبلاد؛  
• نشر الفكر التقدمي الذي يتحاورون حوله في الصحف التي يمكنها أن تنشره وتروجه لهم؛  
• العمل من أجل الحصول على أداة للتثقيف وترويج المسائل السياسية والاجتماعية التي اقتنعوا بها؛

• خوض النضال ضد الوجود والسياسة البريطانية في العراق وضد المعاهدة واتفاقية منح امتياز النفط الخام لبريطانيا والشركات الدولية الأخرى المتعانة؛  
• مساندة قضية فلسطين والنضال ضد الصهيونية وفضح علاقتها بالفكر العنصري والاستعمار .

وعلى ذات الطريق بدأت "جماعة الرحال" تبشر بمسائل جوهرية منها الموقف من تحرير المرأة والموقف من الدين ، وكذلك الموقف من حرية الفكر والديمقراطية ، إضافة إلى موقفها الواضح والسليم من القضية الفلسطينية ، رغم اهتماماتها القليلة بالقضايا القومية العامة ، باعتبارها قضايا لم تكن ناضجة حتى ذلك الحين ، إضافة إلى أن من تبنى القضايا القومية حينذاك كان يحسب على القوى الحاكمة والقوى اليمينية التي كانت تختلط عندها المواقف القومية بالمواقف الاجتماعية الرجعية من أمثال محمد بهجت الأثري ونجم الدين الواعظ ، على سبيل المثال لا الحصر 144 . واستفادت لهذا الغرض من حصول الجماعة على امتياز إصدار مجلة "الصحيفة" في عام 1924 ، حيث صدر العدد الأول منها في تشرين الثاني/كانون الأول من عام 1924 . ولم تتواصل طويلاً ، إذ عطلت ثم صدرت ثانية ثم عطلت نهائياً . وقد صدر منها ستة أعداد فقط 145 . وكان هذا النضال الاجتماعي المبكر نسبياً بالنسبة للعراق المتأخر جداً بمثابة الهزة التي تصيب المجتمعات التي عاشت فترة سبات فكرية طويلة ، وبشكل خاص بالنسبة للشبيبة وكانت بحاجة لها ، رغم النتائج السلبية التي تحملتها جماعة الرحال . ولعبت

143 الحافظ صفاء د. المنذلاوي ، سالم. ذكريات من أدب العشرينات. حوار مع الأستاذ مصطفى علي. مجلة الثقافة الجديدة. عدد 9-8. آب - أيلول 1975. ص 79-86.

144 الراوي ، عبد اللطيف د. عصبة مكافحة الصهيونية في العراق 1945-1946. دار وهران. دمشق. 1986. ص 12.

145 الحافظ صفاء د. المنذلاوي ، سالم. ذكريات من أدب العشرينات. حوار مع الأستاذ مصطفى علي. نفس المصدر السابق. ص 86-79.

مجموعة من الشخصيات الاجتماعية البارزة في هذا الصدد ومنهم الشاعر جميل صدقي الزهاوي الذي خاض معركة الحجاب والسفور وتحمل الكثير من الإساءات بسبب ذلك . وفي مقابلة صحفية أشار مصطفى علي إلى الموضوعات التي كانت تعالجها الصحيفة<sup>146</sup> . ويتبين مما قاله أن مقالاتها وترجماتها للفكر التقدمي والماركسي أثارت حينذاك مجموعتين من الناس: إذ كانت تقدم للشباب العراقي ما لا يمكنهم الحصول عليه من خلال النشر اليومي في الصحافة العراقية الأخرى ، وبالتالي كان يساعدهم على الاطلاع والتفكير والتجديد الفكري والتبني الفعلي لتلك الأفكار ، أو أنها كانت تثير على أقل تقدير الصراع في فكر الإنسان إزاء ما هو قائم ومكرس من قرون طويلة في ذهن وممارسات الإنسان في العراق . ولكنها كانت في الوقت نفسه تعتبر استفزازاً مثيراً بالنسبة إلى بعض القوى الدينية والقوى الأكثر رجعية من الناحيتين الفكرية والاجتماعية . وبصدد الاتجاه الثاني كتب زهير الجزائري يقول: "وقد استقبلت المجلة بحملة رجعية حامية . حتى إن محمد بهجت الأثرى ونجم الدين الواعظ دعوا إلى قتل الرحال وجماعته لأنهم متهتكون ملحدون . وهكذا أغلقت أول صحيفة ماركسية بعد صدور عددها الخامس ، مخلفة أثراً عميقاً في الذهن العراقي المتعطش للفكر الآخر الذي لا يكف الإنكليز عن مهاجمته"<sup>147</sup> .

وكانت هذه المجموعة الشبابية تستفيد من الصحافة الشيوعية الصادرة في بريطانيا وفرنسا ، إضافة إلى ما كان يصل إليها من صحف مصرية ولبنانية وسورية ، حيث كانت النهضة الفكرية والنشر الصحفي في مصر على نحو خاص متقدماً نسبياً .

وفي عام 1926 أسست هذه الجماعة وبالتعاون مع آخرين نادي التضامن الذي ترأسه يوسف زينل . وأصبح هذا النادي الغطاء الذي تحرك في إطاره هذه القوى الجديدة ، إضافة إلى عدد آخر من الديمقراطيين من طلبة ومستخدمين ، جننا على ذكرهم في مكان آخر من هذا الكتاب . وشاركت هذه المجموعة بالاحتجاج ضد زيارة الفريد موند إلى بغداد في 8 شباط/فبراير عام 1928 باعتباره من دعاة الصهيونية البريطانية ومن المناهضين للقضايا العربية وقضية الشعب الفلسطيني . وساهم نادي التضامن كغطاء مناسب لتنظيم حركة الاحتجاج التي عبرت عن حس قومي سليم إزاء قضية فلسطين وفهم واضح وعميق إزاء مفهوم الصهيونية عند هذه الجماعة<sup>148</sup> ، التي استمر عملها حتى نهاية عام 1927 وبداية عام 1928 تقريباً .

---

146 لم يكن كل العاملين في "الصحيفة" من الماركسيين ، بل كانوا في الغالب ديمقراطيين ويساريين تقدميين ، كما أن بعضهم كان ما يزال يبحث عن وجهته الفكرية والسياسية. شارك في النشر فيها مصطفى علي ، حسين الرحال ، محمود أحمد السيد ، عبد الحميد رفعت ، عوني بكر صدقي وسليم فتاح. وكان مصطفى علي رئيس تحريرها وحسين الرحال صاحبها. راجع: نفس المصدر السابق.

147 الجزائري ، زهير. شباب (فهد) وصبا الحركة الشيوعية في العراق. مصدر سابق. ص 24.

148 الراوي ، عبد اللطيف د. عصابة مكافحة الصهيونية في العراق 1945-1946. مصدر سابق. ص 12.

وفيما بعد تشكلت المجموعة البغدادية الأولى التي تبنت الفكر الماركسي ، بغض النظر عن التباين في مستويات أفرادها من الناحيتين الفكرية والسياسية ، إذ ضمت في صفوفها كلاً من عاصم فليح وقاسم حسن ومهدي هاشم وحسن عباس الكرباسي . كما كانت بجوارها مجموعة بغدادية أخرى ضمت إليها جميل توما ونوري رفائيل ويوسف إسماعيل . أما المجموعة البغدادية الثالثة فضمت إليها كلاً من زكي خيري ويوسف متي 149 . وساهم وجود هذه المجموعات في مناطق متقاربة من بغداد في حصول تفاعل ملموس وكبير وتشابك بينها وبين وجوه أخرى مستقلة أو مرتبطة بقوى سياسية أخرى مثل الحزب الوطني ، ونعني بهم عبد القادر إسماعيل وحسين جميل وغيرهم . وكان التمايز بين الخلايا التي نظمها فهد والحلقات الماركسية التي نظمتها جماعة المثقفين في بغداد بارزة وتتجلى في الطابع الشعبي والحركي لخلايا الجنوب وبين الطابع النخبوي والتثقيفي الضيق لحلقات بغداد .

ولعبت الحلقات الماركسية في بغداد دوراً مهماً باتجاهات ثلاثة أساسية ، بسبب طبيعة العناصر المثقفة التي كانت تعمل فيها ، وبسبب وجودها في العاصمة بغداد ، حيث مركز السلطة ، وبسبب وجود مباشر لقوى وأحزاب معارضة للسلطة كان في مقدورها أن تستند إليها وتعمل في صفوفها أو قريباً منها ، وهي:

• إثارة موضوعات حساسة جداً للحوار وتنشيط الفكر لا في صفوف السياسيين فحسب ، بل وفي أوساط المثقفين وفئات أخرى من المجتمع ، ومنها قضية المرأة والموقف من الدين ودوره في المجتمع؛

• الدفع باتجاه تأسيس حركة عمالية نقابية تتبنى القضايا المهنية للعمال والقضايا الوطنية الآتية؛

• التحرك النشط في الساحة السياسية والإعلامية العراقية والاستفادة من حركة الإضرابات لصالح تعزيز مكانتها في صفوف الناس .

أمكن لهذا النشاط أن يدفع إلى تأسيس "جمعية أصحاب الصنائع" التي أغلقت فيما من بعد جانب الدولة لمشاركتها في تأييد ودعم الإضراب ، لينشأ على أنقاضها في عام 1933 اتحاد النقابات العمالية ، بعد أن فشلت الحكومة في فرض نقاباتها الصغرى على العمال العراقيين . وكان لسنوات الأزمة الخائفة وسياسات الحكومة المجافية لمصالح الغالبية العظمى من السكان أن تأججت في بغداد في أعقاب ثورة العشرين ، أي بين عام 1922 حتى عام 1933 أكثر من إضراب عمالي ومظاهرة احتجاجية ومطالبة بتحسين الأوضاع المعاشية وتقليص البطالة وتشغيل العاطلين عن العمل وتحسين مستوى الأجور ورفع أسعار المحصولات الزراعية والعمل من أجل تنشيط التصدير وزيادة الاستيراد . كتب عبد الرزاق الحسني حول الوضع في العراق ،

149 بطاطو ، حنا د. العراق. الجزء الثاني. الحزب الشيوعي العراقي. مصدر سابق. ص 68-72.

وخصوصاً في بغداد ، في هذه الفترة ما يلي: "وكان العالم قد تعرض في أواخر عام 1933 إلى أزمة اقتصادية عنيفة لم ينج حتى العراق من آثارها السيئة 150 ، فقد انتشرت البطالة فيه ، وهبطت أسعار محصولاته هبوطاً عظيماً ، وارتبك وضعه المالي ارتباكاً اضطر الحكومات المتعاقبة فيه إلى تنزيل بعض الرسوم ، وتخفيف الكثير من الضرائب والأجور لتخفيف آثار تلك الأزمة الخائقة .

شعر البغداديون - ولا سيما طبقة العمال منهم - بفداحة أجور التنوير التي تستوفيهما شركة الكهرباء المذكورة (وهي شركة أجنبية صارت تستوفي 28 فلساً عن كل وحدة كهربائية - كيلو واط) فقرروا مقاطعة الشركة مقاطعة تامة ، حتى تخفيض هذه الأجور إلى الحد المعقول ، ومهدوا لهذه المقاطعة بمفاوضات مع رجال الشركة بدأت أيام الوزارة "الكيلانية" فلم تسفر عن نتيجة ما فلما كانت أيام "الوزارة المدفعية الأولى" قرر "مجلس اتحاد نقابة عمال بغداد" إعلان المقاطعة بصورة رسمية وعينوا مساء اليوم الخامس من شهر كانون الأول سنة 1933 موعداً لذلك ، بعد أن أبدت كافة الصحف وجوب إجراء التخفيض في الأسعار ، وبعد أن استعد الأهلون للاستعاضة عن الكهرباء ، بالزيوت والشموع ، والمصابيح اللوكس" 151 . ويضيف السيد الحسني قائلا: "وكان سيف الله خندان أحد النواب المرموقين ومن المقربين إلى رستم حيدر ، وكيلاً لهذه الشركة" 152 ، إذ كان رستم حيدر وزيراً للاقتصاد والمواصلات في وزارة المدفعية التي قمعت الإضراب . وقد وجهت الحكومة ضربة إلى المضربين ورئيسهم محمد صالح القرزاز عندما أمرت باعتقاله ومجموعة من العاملين معه ومن العاملين في الحركة الوطنية وعطلت الصحف المساندة للإضراب . وكان وزير الداخلية حينذاك ناجي شوكت ، الذي تأمر مع الشركة وبقية المسؤولين لإفشال الإضراب مهما كلف الأمر . وإزاء هذا الوضع لم يكن غريباً أن تتسع قاعدة المشاركين في النشاط الماركسي حينذاك ، حيث تبنى الإضراب وساهم في التعبئة له . ولعبت الحلقات الماركسية دوراً متزايداً في هذا الصدد ، أدى إلى حصول اعتقالات في صفوفها في سنوات النصف الأول من العقد الرابع . ويشير عبد الرزاق الحسني ، مؤلف كتاب "تاريخ الوزارات العراقية . إلى موضع انتشار الشيوعية في بغداد إلى ما يلي:

"انتشرت الأفكار الشيوعية بين الأهلين في بغداد انتشاراً كبيراً أيام هذه الوزارة (يقصد بها وزارة علي جودت الأيوبي) ، واشتبهت الشرطة بعدد من الكتاب والمحامين ببثهم هذه السموم

150 يقع الكاتب السيد عبد الرزاق الحسني بخطاً واضح حين يقول بان العالم قد تعرض في عام 1933 إلى أزمة اقتصادية عنيفة ، إذ أن الأزمة أو الكساد العظيم ، قد بدأت ، كما هو معروف ، في عام 1929 واستمرت حتى عام 1933 ، وهذا يعني أن هذا العام قد عرف استمراراً للأزمة ونهايتها أيضاً ، رغم أن آثارها لم تنته بسرعة ، وخاصة على بلدان المستعمرات وأشبه المستعمرات والتابعة ، كما هو حال العراق ، بل استمرت طويلاً بعدها أيضاً.

151 الحسني ، عبد الرزاق. تاريخ الوزارات العراقية. الجزء الرابع. مصدر سابق. ص 8.

152 نفس المصدر السابق. ص 8.

في العراق 153 ، فقبضت عليهم في يوم 4 تشرين الأول 1934 وساقتهم إلى الناصرية لإجراء محاكمتهم فيها ، وبعد أن لبثوا في السجن مدة ظهرت براءة البعض منهم ، وحكم على البعض الآخر بعقوبات منوعة "154 .

وفي الوقت الذي كان الحديث يجري عن انتشار الأفكار الشيوعية وتزايد النشاط الشيوعي في العراق ، وخاصة في بغداد ، لم يكن في واقع الحال يزيد عدد أعضاء الحلقات الماركسية أو خلايا الرفاق في كل من البصرة والناصرية في عام 1933 عن 60 مناضلاً ، ولكنهم كانوا يتميزون بثلاث سمات أساسية:

- إيمانهم بصواب القضية التي يناضلون من أجلها؛
- استعدادهم للبذل والعطاء والجهادية العالية في سبيل القضية التي يناضلون من أجلها؛
- اتساع قاعدة العمال والكادحين بأجر في العراق ، إضافة إلى بؤس حال الغالبية العظمى من الفلاحين والكسبة والحرفيين ، وخاصة في فترة الأزمة الرأسمالية . وعندما يلقي المرء نظرة على تطور عدد العاملين في المشاريع الصناعية المختلفة في العراق سيجد أمامه اللوحة التالية:

جدول يوضح عدد العاملين في المشاريع الصناعية الأجنبية والحكومية في العراق في عام 1929

النسبة المئوية	عدد العمال	المشروع
		مشاريع القطاع الأجنبي
98، 47	9000	السكك الحديدية
77، 6	1270	ميناء البصرة
66، 10	2000	شركة نفط العراق
33، 5	1000	شركة نفط خانقين
96، 0	180	جمعية زراعة القطن البريطانية
70، 71	13450	المجموع
		مشاريع القطاع الحكومي

153 من المفيد الإشارة إلى أن السيد عبد الرزاق الحسني ، صاحب الكثير من المؤلفات القيمة حول تاريخ العراق الحديث ، ومنها تاريخ الوزارات العراقية ، وتاريخ العراق السياسي الحديث ... الخ ، كان قد اعتقل في أعقاب انهيار حركة نيسان/مايس عام 1941 وحكم عليه بالحبس لمدة أربع سنوات ، بسبب تأييده للانقلاب وعمله معهم. راجع تاريخ الوزارات. الجزء السادس. ص 3. وكان الحسني من المعجبين جداً بالسيد رشيد عالي الكيلاني ، وأشار إلى عودة الكيلاني إلى بغداد في أعقاب ثورة تموز فقال: "... ارتحل الكيلاني إلى القاهرة ثم عاد إلى العراق بعد زوال نظام الحكم الملكي عنه في 14 تموز سنة 1958 فاستقبل استقبالاً لم ير مثله أنس ولا جان!!". راجع: نفس المصدر. ص 72 من الجزء السادس.

154 الحسني ، عبد الرزاق. تاريخ الوزارات العراقية. الجزء الرابع. مصدر سابق. ص 30.

06، 1	206	مديرية البريد والبرق
26، 24	4550	مديرية الأشغال العامة
87، 1	350	مديرية المساحة العامة
06، 1	200	معمل فتاح باشا
30، 28	5306	المجموع
100	18756	الإجمالي

قارن: الدرّة ، صباح د . التطور الصناعي في العراق- القطاع الخاص . بغداد . ص 8/7 .

يضاف إلى ذلك وجود عدد كبير من العمال الذين كانوا يعملون بصورة وقتية أو موسمية في مجالات المقاولات والنشاطات الاقتصادية الأخرى التابعة للقطاع الخاص في جميع أنحاء العراق حيث بلغ حسب تقديرات ستيفنسن لونكريك التي احتسبها الدكتور صباح الدرّة بحدود 50 ألف عامل . ولم يزد عدد المشاريع الصناعية عن 8 منشآت صناعية في عام 1929 ، في حين ارتفع عددها إلى 38 منشأة صناعية صغيرة ومتوسطة في عام 1933 . وإذا كان التقدير يشير إلى أن مجموع عدد العمال الدائمين والموسميين قد بلغ في عام 1929 حوالي 60 ألف عامل في العراق كله ، فإن التقدير لعام 1933 وصل إلى حدود 70 ألف من العمال الدائمين والموسميين . أما عدد العاطلين فقد بلغ عشرات ألوف الناس القادرين على العمل ولكنهم في حالة بطالة دائمة ، وهم يشكلون عملياً فئة أشباه البروليتاريا التي كانت تعيش على هامش الحياة الاقتصادية ، كما تحولت إلى مشكلة كبيرة لسكان المدن ، إذ كان العاطلون عن العمل يشكلون ضغطاً مستمراً على مستوى الأجور وشروط وظروف عمل العاملين ، رغم أنهم كانوا ضمن الاحتياطي المهم في النضال ضد الحكم الذي يعجز عن توفير العمل ولقمة العيش لهم ولأفراد عوائلهم . ولم تكن إمكانية التلاعب بأصوات هؤلاء في الانتخابات صعبة ، إذ كانت أوضاعهم المعاشية الواطئة وعلاقاتهم الريفية والعشائرية تسمح باستخدامهم لصالح الفئات الحاكمة والمالكة لوسائل الإنتاج بالضد من مصلحة الغالبية العظمى من السكان . وغالباً ما كان هؤلاء العمال النازحون حديثاً من الريف يضعون قدماً في المدينة والقدم الأخرى في الريف ويخضعون للتقاليد العشائرية ، خاصة وأن قانون العشائر كان فاعلاً حينذاك ، إلى جانب القوانين المدنية الحديثة .

ومن الجدير بالإشارة إلى أن الفترة الواقعة بين نهاية الحرب العالمية الأولى والنصف الأول من العقد الرابع حصل تحسن ملموس في مستوى التعليم في العراق الذي أصبحت له أهمية في رفع مستوى الوعي والإدراك الشعبيين للقضايا الجارية في البلاد والمشاركة في الحياة السياسية



بمستويات أفضل بكثير من الفترات السابقة . كما أجريت تعديلات على ميزانية الدولة السنوية المخصصة لأغراض وزارة المعارف العراقية والتي كانت تعني بدورها زيادة الصرف على مجالات التعليم وفتح المزيد من المدارس في مختلف أنحاء العراق ، رغم اقتصرها على المدن والتباين في التمتع بامتياز وجود مدرسة أو إمكانية الحصول على فرصة اللوج للتعليم . ويوضح الجدول التالي ضآلة حجم الميزانية والحصة المحدودة لوزارة المعارف ونموها السنوي البطيء خلال الفترة الواقعة بين 1920-1932 .

#### جدول يوضح التطور في ميزانية وزارة المعارف العراقية في أوائل العشرينات والثلاثينات

السنة المالية	الميزانية العامة	ميزانية وزارة المعارف	نسبتها إلى العامة
1921-1920	5556574	130360	2، 3%
1922-1921	4436065	142425	3، 2%
1931-1930	3994337	294262	7، 3%
1932-1931	3567897	206334	8، 2%

المصدر: قارن الوكيل ، فؤاد حسين . جماعة الأهالي في العراق . مصدر سابق . ص 53 . استناداً إلى: الهلالي ، عبد الرزاق . معجم العراق . ج 1 . مطبعة النجاح . بغداد . 1953 . ص 267 .

ومع ذلك كان لهذا التحسن النسبي الضئيل في ميزانية المعارف تأثيره الإيجابي على حصيلته التعليم في العراق . فورد في كتاب السيد فؤاد حسن الوكيل بهذا الصدد ما يلي: "وتبعاً لهذا فقد ارتفع عدد الطلاب ، والمدارس الابتدائية والثانوية والمعلمين والمعلمات . ففي حين كان في العراق ، في العام 1913 فقط 160 مدرسة ابتدائية تضم 6000 طالباً ، و184 مدرسة في العام 1920 تضم 6737 طالباً ، أصبح عددها 247 مدرسة للبنين تضم 24900 طالباً و44 مدرسة للبنات تضم 6000 طالبة ، وذلك في العام 1931 . في حين بلغ عدد المعلمين والمعلمات ، في نفس العام الأخير 1350 معلماً ومعلمة ، كان خمسة أسداسهم قد تخرجوا في دار المعلمين والمعلمات . ونفس الشيء يقال عن المدارس الثانوية التي زاد عددها من 4 مدارس تضم 233 طالباً في العام 1923 إلى 15 مدرسة تضم 1863 طالباً في العام 1930" 155 .

155 الوكيل ، فؤاد حسين . جماعة الأهالي في العراق . مصدر سابق . ص 53 . استناداً إلى: الهلالي ، عبد الرزاق . معجم العراق . ج 1 . مطبعة النجاح . بغداد . 1953 . ص 267 .

## الفصل الرابع : (المرحلة الثانية) دور فهد في تأسيس الحزب

ارتبطت حياة ونشاط فهد السياسي الوطني والطبقي بشكل عضوي بنشوء وتطور الحزب الشيوعي العراق . كما ارتبط تأسيس هذا الحزب بالمحصلة النهائية وبحق باسم فهد أيضاً ، رغم كونه لم يكن أول سكرتير لهذا الحزب . ولهذا الارتباط عوامل عديدة سنأتي على ذكرها في حينه . ولكن لا تقلل هذه الحقيقة ، ويجب أن لا تقلل بأي حال ، من أهمية المبادرة التي قام بها والدور الذي لعبه أشخاص آخرون في هذا التأسيس ، سواء ارتبط هذا الدور بنشر الفكر الماركسي ، أم المساهمة الفعلية والعملية في التأسيس ، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ، حسين الرحال وعاصم فليح ( وانتخب الأخير سكرتيراً للحزب عند التأسيس ) وقاسم حسن وحسن عباس الكرباسي وزكي خيرى ومهدي هاشم ويوسف متي وغالي زويد وجميل توما ويوسف إسماعيل ونوري رفائيل وغيرهم . ويفترض أن لا ينسى الشيوعيون العراقيون دور هؤلاء وغيرهم في هذا الإنجاز ، بغض النظر عن مدى مساهمتهم ومواصلتهم فيما بعد في العملية النضالية أم تخليهم فيما بعد عن النضال الفعلي عموماً أو في صفوف الحزب الشيوعي الذي ساهموا في تأسيسه خصوصاً ، أو حتى إن كانت أدوار بعضهم فيما بعد سيئة بالنسبة للحزب ، إذ يفترض أن يشار إلى واقع التاريخ بشكل دقيق أولاً ، وأن يكون البحث حضارياً ثانياً ، كما يمكن أن يشار إلى الأدوار الأخرى التي أعقبت ذلك بالنسبة إلى هذا الشخص أو ذلك كما هي في الواقع . وتتضمن هذه المرحلة الفترة الواقعة بين بدء الجهود لتأسيس الحزب وعام 1943 حيث تسلم فهد قيادة الحزب الفعلية .

يسمح تتبع نشاط المجموعات الماركسية في سنوات النصف الثاني من العقد الثالث والنصف الأول من العقد الرابع بالتحرف ، في ضوء ما أشير إليه سابقاً ، على مجموعتين رئيسيتين من الماركسيين الأوائل ، كانت الأولى تبدي اهتماماً مركزياً بالتنقيف الفكري الماركسي ومحاولة رفع مستوى العاملين فيها نوعياً وعدم التوسع في بناء الخلايا القاعدية أو إقامة تنظيم واسع . وكانت هذه المجموعة البغدادية تتشكل أساساً من جماعة متعلمة وتمتلك ثقافة أعلى من المستوى التعليمي والثقافي العام في البلاد . أما المجموعة الثانية فانصب جل اهتمامها على مسألتين رئيسيتين هما الدعاية والتبشير والعمل السياسي من جهة ، وإقامة التنظيمات الحلقية الصغيرة المتميزة بالحركية والاتصاق بالفئات الكادحة والجهادية العالية من جهة أخرى ، إضافة إلى سعيها من أجل إشراك وتدريب هذه المجموعات في العملية النضالية اليومية . أي أنها كانت تركز على العمل التعبوي مستفيدة من الشعور الوطني العام الذي تُعرف به البصرة والناصرية على سبيل المثال لا الحصر . وكان جُلّ العاملين في هذه المجالات من الكسبة والعمال الكادحين والحرفيين والفلاحين وبعض الطلاب . ويبدو لنا اليوم بأن الماركسية ما كان

لها أن تنتشر وتصبح مدرسة لعدد كبير جدا من مثقفي العراق في العقود التالية لولا عمل هاتين الجماعتين التنويري والتنظيمي والتعبوي المبكر . إذ تكامل نشاطهما الفكري والسياسي والتنظيمي وساهما معاً في إنعاش النضال الثوري في العراق ونقله إلى مستويات ومضامين أخرى أكثر عمقاً وحيوية وأكثر فاعلية وتنشيطاً للعقل والتفكير . إذ أن اللقاء بين هاتين المجموعتين في النصف الأول من العقد الرابع والتنسيق بينهما والاتفاق على العمل المشترك والموحد وتشكيل تنظيم جديد باسم "لجنة مكافحة الاستعمار والاستثمار" هو الذي سمح لاحقاً بقيام "الحزب الشيوعي العراقي" . ولهذا لا يمكن الادعاء بأن المجموعة الأولى لم تؤد دوراً مهماً في النضال والتنوعية والتنوير أو في إقامة الحزب الشيوعي العراقي ، إذ كانت العملية النضالية بحاجة إلى الجماعتين في آن واحد ، خاصة وأن المجموعة الأولى كانت في العاصمة بغداد ، رغم أن الفترات اللاحقة عرفت انحساراً في عدد العاملين من الجماعة الأولى وفي تخلي بعضهم عن النضال عموماً أو عن الحزب خصوصاً ، ولكن مع ذلك كان لها الفضل في المشاركة بتلك الريادة وذلك التأسيس . ومن هنا تصبح تلك الملاحظات التي تحاول التقليل من أهمية جماعات بغداد ومن دورهم في العملية النضالية وفي بناء الحزب الشيوعي العراقي خارج السياق في كل الأحوال . كتب زهير الجزائري يقول: "وفي الوقت الذي كانت الشيوعية في بغداد مجرد فكرة يتداولها مثقفون أنيقون ابتلعت الوظائف معظمهم ، كان هاجس فهد هو تحويل الأفكار الشيوعية إلى سلاح جماهيري . كان يذهب ويدفع رفاقه إلى حيث توجد الجماهير الكادحة" 156 . ثم يواصل قوله في مكان آخر: "وكلما توسع عمل الحزب وانتشرت خلاياه عمل فهد على تخليص الحزب ، وخاصة قيادته ، من (الأفندية) ، أي العناصر البرجوازية والمتقفين الأرستقراطيين الذين يطرحون الاعتراضات الذاتية أضعاف ما يعملون بين الجماهير . وكان يختار ويدرب العناصر المنحدرة من أصول بروليتارية للاضطلاع بدور قيادي" 157 . ولم تقتصر مثل هذه الإشارة السلبية على زهير الجزائري ، بل نجدها عند زكي خيري وغيره من الكتاب والمناضلين الشيوعيين دون التمعن والتفكير الوافي بأكثر من سؤال ، منها مثلاً: هل كان تخليص الحزب من "البرجوازيين والمتقفين الأرستقراطيين" لأسباب مشروعة وواقعية ، أم كان لمجرد كونهم متقفين ، وبرجوازيين؟ وهل كان اختيار عناصر منحدرة من أصول بروليتارية ، كانت فعلاً ذات أصول بروليتارية في بلد كانت البروليتاريا فيه نادرة الوجود؟ وهل كان لهذا التخليص من هؤلاء آثاره السلبية أم الإيجابية على مستوى الحزب الفكري والسياسي العام وعلى قدرة الشيوعيين على الحوار والتفكير المستقل حينذاك ولاحقاً؟ سنحاول الإجابة عن هذه الأسئلة لاحقاً بهدف الابتعاد عن التعميم والآثار السلبية المحتملة من هكذا تعميمات ، إذ

156 الجزائري ، زهير. شباب (فهد) وصبا الحركة الشيوعية العراقية. ص 29  
157 نفس المصدر السابق. ص 29.

كانت لها ، لا في الحزب الشيوعي العراقي وحده ، بل في سائر الأحزاب الشيوعية حينذاك وفيما بعد آثارها الواضحة في الموقف من المثقفين في الأحزاب الشيوعية والعمالية عموماً . وإذا كان بعض هؤلاء قد تخلى عن الحزب لأي سبب كان فأنهم قد لعبوا دوراً فكرياً مهماً في تبني مجموعات جديدة حلت محلها للفكر الماركسي وشاركت فيما بعد في البناء الوطني والشيوعي في العراق . ولهذا فأن في مثل هذه الجمل الكثير من الغبن للرواد الأوائل ودورهم . وإذا كنا سابقاً نرددها بسبب موقفنا من المثقفين الحزبيين عموماً ، وليس من المثقفين خارج الحزب ، فأن الوقت قد حان أن لا نردد جملاً لم تعد مناسبة وربما جارحة ولا معنى لها ، كما يمكن أن تكون مضرة بالمستوى الفكري والسياسي للحزب الشيوعي العراقي .

كان نشاط ودأب حلقات بغداد ملموساً وفعالاً في آن واحد ، كما أن فهذا لم يكن بعيداً عن تنظيمات ونشاط بغداد . ولم تكن الصلة بين الحلقات الماركسية التي تكونت في الجنوب مقطوعة عن الحلقات التي تشكلت في بغداد ، بل كانت هناك صلات قائمة وعلاقات فعلية في ما بينها . كما أن هذه الصلة لم تكن من طرف واحد ، أي لم تكن من البصرة والناصرية صوب بغداد ، بل كانت الصلة من بغداد صوب المدينتين الجنوبيتين قائمة أيضاً . فكانت زيارات فهد إلى بغداد مستمرة منذ نهاية العشرينات وبداية الثلاثينات ، كما كان على صلة بعدد من الصحف التي كانت تصدر في حينها باعتباره كان كاتباً فيها أو وكيلاً لها في البصرة . فعندما صدرت مجلة "الشباب" في بغداد في العام 1929 لصاحبها سعيد السامرائي ومديرها المسؤول عبد القادر إسماعيل ، وفي حينها لم يكن الأخير شيوعياً ، نشرت في غلافها الأخير إعلاناً للخياط العصري عاصم فليح ، كما ذكرت اسم "يوسف أفندي سلمان" باعتباره وكيلاً للمجلة في البصرة 158 . ولم يكن عبثاً إرسال قاسم حسن وآخرين إلى الناصرية لمحاكمته مع فهد في نهاية 1932 وأوائل 1933 ، بل كانت هناك قناعات لدى التحقيقات الجنائية والمستشارين البريطانيين عن وجود مثل هذه العلاقة بين الناصرية وبغداد قبل فترة غير قصيرة . والمعلومات المتوفرة تشير إلى نشوء علاقة بين بعض طلاب مدرسة الصناعة في بغداد وبين "الأسطة" ، إذ كان يشار إلى فهد بهذه الكنية . وكان من بين هؤلاء الطالب عبد الرحمن داود ، وهو من أهالي الناصرية ، الذي قام بتقديم الطالب حسن عباس الكرباسي ، الطالب في نفس المدرسة ، إلى يوسف سلمان ، بعد أن توثقت العلاقة بين الطالبين وبعد أن تعرف أحدهما على الآخر عن قرب . كتب حسن عباس الكرباسي في مذكراته الشخصية التي لم تنشر حتى الآن ، يقول: "بعد عودة عبد الرحمن داود من زيارة قصيرة لأهله بالناصرية ، قال لي أنه كلم الأسطة (يوسف سلمان) عني وأن الأسطة قال له سيأتي ليتعرف عليّ في زيارته القادمة إلى بغداد . بعد وقت لا أستطيع تعيينه هل كان في نهاية عام 1932 أم في بداية 1933 (ويقول الكرباسي في الهامش:

158 الوكيل ، فؤاد حسين. جماعة الأهالي في العراق. مصدر سابق. ص 80 ، وكذلك الهامش رقم 66 على الصفحة ذاتها.

الأرجح أنه في نهاية 1932) ، وإذا بي أسمع من عبد الرحمن أن الأسطة قد أوقفته الشرطة في مدينة الناصرية (...). بعد خروج يوسف بالإفراج عنه في محكمة الناصرية توجه إلى بغداد حسب عاداته في التردد عليها وقصد القسم الداخلي لمدرستنا حيث تعارفنا مع بعضنا عن طريق عبد الرحمن داود"159. ثم يشير إلى المقهى التي كان يتردد مع فهد إليها في أحد كراجات بغداد160 ، حيث عرّفه بشكل مباشر على قاسم حسن ، فكتب يقول: "قام يوسف بالتعارف بيني وبين الشاب الأنيق واسمه قاسم حسن . . . وقال يوسف بحضور قاسم وخاطبني: حسن أنت أتصل بقاسم واعمل معه ، وكانت هذه أول مقابلة لي مع قاسم الذي لم يتأخر أن أعلمني كيف ومتى أن ألتقي به..."161. وكان حسن الكرباسي وعبد الرحمن داود يقومان بزيارة قاسم حسن في بيته سوياً . وعن طريق قاسم حسن تم اللقاء بين حسن الكرباسي و "الأسطة" الآخر ، أي عاصم فليح . ويقول حسن متمماً "إلا أن قاسماً قال لي بعد ذلك مبتسماً أنه ، ويقصد عاصم فليح ، هو الأسطة" . والأسطة إشارة إلى الاصطلاح الذي كنا أنا وعبد الرحمن نردده للإشارة إلى يوسف سلمان ، وتعني هنا بتعبير آخر الشخص الأول أو السكرتير"162 ، وكان هذا الحديث ، كما يبدو من تسلسل مذكرات حسن عباس الكرباسي ، قد تم بينهما في نهاية 1933. ويبدو أن الصلات بين فهد وجماعة بغداد قديمة نسبياً ، أي منذ نهاية العقد الثالث على الأقل ، وأنه كان على معرفة بأفراد هذه الجماعات تقريباً ، إذ من خلال فهد تعرف حسن على عدد كبير من هؤلاء الرواد . وأن الصلات منذ تلك الفترة قد بدأت للتنسيق في ما بين تلك الحلقات ، ولكنها لم تكن الظروف ناضجة لعمل معين ، حتى عودة كل من عاصم فليح وقاسم حسن على التوالي من الخارج ، سواء كان سفرهم لحضور اجتماعات الأمانة الثالثة أم للدراسة في المدرسة الحزبية أو "الجامعة الشيوعية لكادحي الشرق" في الاتحاد السوفييتي . وإذا كانت علاقاته بجماعة بغداد قد بدأت منذ نهاية العشرينات وبداية الثلاثينات ، إذ أن هناك

159 الكرباسي ، حسن عباس. سير نضالية في مذكرات- مهداة إلى الحزب الشيوعي العراقي. ليست معدة للنشر. برلين. الشهر العاشر من عام 1982. ص 11. توفي المحامي حسن عباس الكرباسي عن عمر ناهز الثمانين في مدينة برلين في عام 1995 ودفن فيها. وساهمت جمهرة من العراقيين في تشييعه إلى مقبرة برلين.

160 يشير حسن عباس الكرباسي إلى أن "هذا الكراج يقع بين دربوثة الخناق التي تخرج من شارع الرشيد وبين شارع الكيلاني من بدايته في شارع الرشيد على بعد 150 متراً من جهته اليمنى. جداره على شارع الكيلاني والمدخل من الجينكو وبعض الأخشاب وجدرانه الأخرى من الطين "الطوف"... وكان الكراج أشبه بالنادي لجماعة معينة سيأتي ذكر أفرادها وهم الذين تعرفت عليهم بواسطة فهد بعد الإفراج عنه من محكمة الناصرية في نهاية 1932. وقد استمرت زيارات يوسف إلى بغداد والتردد على الكراج حتى سفره في نهاية 1934 إلى خارج العراق". راجع الكرباسي ، حسن عباس. سيرة نضالية. نفس المصدر السابق. ص 13/12.

161 الكرباسي ، حسن عباس. نفس المصدر السابق. ص 13.

162 نفس المصدر السابق. ص 16.

163 كتب السيد عبد الرزاق الحسني في مؤلفه "تاريخ الوزارات العراقية" في الجزء السابع منه ، في معرض حديثه عن موقف الشيوعيين من القضية الفلسطينية ، يقول: "أما الحزب الشيوعي السري الذي تألف في بغداد سنة 1933 وتتمل من رفاقه وسريته بعد بعث الحياة الحزبية في العراق في سنة 1946 فقد قام بمظاهرات صاخبة...". راجع الحسني ، عبد الرزاق. "تاريخ الوزارات العراقية". عشرة أجزاء في خمسة مجلدات. المجلد 7-8. الجزء 7. مطبعة العرفان. صيدا-بيروت. 1968. ص 197/198.

الكثير من الشواهد على وجود مثل هذه العلاقات السياسية ، عندها يمكن توقع أن السفارة السياحية التي قام بها إلى بعض الأقطار العربية لم تكن دون تنسيق معين مع بعض أفراد تلك الجماعات ، منهم مثلاً قاسم حسن أو عاصم فليح ، في محاولة لإيجاد أكثر من صلة بالقوى الماركسية والشيوعية والتعرف على تجربتهم في بناء الحركة الشيوعية في كل من فلسطين وسوريا ولبنان ومصر والاستفادة منها في تأسيس الحزب الشيوعي العراقي . إذ كانت له رغبة فعلية في الوصول إلى هذه الدول ، ولكنه لم يستطع الوصول إلى مصر بسبب قطعه لزيارته وعودته إلى بغداد للتعاون مع رفاقه في مواجهة معاهدة 1930 التي كان نوري السعيد قد أعلن عن توقيعها والمصادقة عليها في الثلاثين من حزيران ، وهو اليوم الذي سجل ذكرى انطلاقته ثورة 1920 ضد الانتداب والاحتلال البريطاني للعراق ، وكأني بهؤلاء ، نوري السعيد ورهطه وسلطات الاحتلال البريطانية ، يعلنون عن تحديهم للشعب العراقي وكل المناهضين للمعاهدة بإعلانها في يوم الذكرى العاشرة للثورة .

جميع المعطيات التي لدينا تشير إلى أن فهداً كان أحد النشطاء البارزين لا على صعيد البصرة والناصرية فحسب ، بل وعلى صعيد بغداد وبعض المدن الجنوبية أيضاً ، كما أنه لم يكن نشطاً في العلاقات مع الأفراد الذين كانوا يلتحقون تدريجاً بالمجموعات الماركسية فحسب ، بل كانت له علاقات واسعة بالآخرين الذين كانوا يلتقون في مقاهي بغداد أو عند بعض الأصدقاء وفي الكراج الذي أشير إليه في هامش سابق ، كما كان نشطاً في الكتابة والنشر الصحفي حول العراق ، وكان مهتماً بالتحقيق واقتناء الكتب من مكتبة مكنزي ، ومنها كتاب "الرأسمال" بالإنكليزية لصالح مجموعة بغداد . ومن هنا يفترض أن يعاد النظر في دور فهد في بغداد أيضاً وأن لا يحصر دوره في الناصرية والبصرة وحدهما ، خاصة وأن فهداً كان يدرك أهمية العاصمة في عملية التبشير والتنوير الفكري والسياسي الماركسي . فالاجتماع الأول لممثلي الحلقات لم يكن في عام 1935 ، بل كان قبل ذلك في نهاية 1933 (1933/12/27) حيث تم التوصل فيه إلى صيغة مناسبة للعلاقة المشتركة بين هذه الحلقات الماركسية ، ثم الاتفاق على إصدار أول بيان مشترك أعلن فيه المجتمعون عن احتجاجهم على حل اتحاد النقابات واحتجاز ونفي قادته ، ومنهم محمد صالح القزاز 164 .

وتجدر الإشارة إلى أن المؤتمر السادس للأمم المتحدة الشيوعية المنعقد في الفترة الواقعة بين السابع عشر من تموز/يوليو والأول من أيلول/سبتمبر 1928 قد أكد على العمل من أجل تأسيس وتعزيز الأحزاب الشيوعية الجماهيرية في المستعمرات باعتبارها أحزاباً بروليتارية طليعية

164 خيرى ، زكي. دراسات في تاريخ الحزب الشيوعي العراق. مصدر سابق. ص 34.

وقوى قائدة في النضالات الثورية القادمة ، والعمل على شد أزرها من كل الجوانب .165 وتحت تأثير مقررات المؤتمر السادس للأمم المتحدة الشيوعية الذي عرف في حينها بخطة اليساري ، والذي تم توجيه النقد لجملة من قراراته فيما بعد ، توجهت الصحافة الشيوعية التابعة للأمم المتحدة إلى نشر المقالات التي تؤكد مهمة تكوين الأحزاب الشيوعية في البلدان المستعمرة والتابعة ، دون النظر إلى واقع التركيب الاجتماعي في هذه البلدان . وفي السنة التي تعتبر سنة تأسيس الحزب الشيوعي العراقي احتمالاً ، أي عام 1933 ، نشر (س . مصطفى) من بغداد مقالاً في صحيفة روندشاو بحث فيه مجموعة من القضايا المهمة في تلك الفترة ، وتطرق إلى دور البرجوازية العراقية والحكومة والمجموعات الشيوعية . وبصدد القضية الأخيرة تضمن المقال عشر نقاط برنامجية ، اعتبرها واجباً ملزماً للمجموعات الشيوعية العراقية التي لم تكن قد أسست حزبيها بعد . وبسبب الأهمية التاريخية لهذه المقالة والنقاط الواردة فيها ووجهتها وارتباطها العضوي بحركة تأسيس الحزب الشيوعي العراقي في نفس العام أو في السنة التالية ، نعيد نشر النقاط العشرة باللغة العربية لأول مرة ، وهي كما يلي:

"لقد آن الأوان من أجل أن تخرج المجموعات الشيوعية في العراق من سلبيتها ، وضرورة أخذ واجباتها الثورية التي تقع على عاتقها في هذه اللحظة بيدها . عليها أن تقوم بحملة دعائية كبيرة من أجل النقاط التالية:

1. إفهام الجماهير العربية بأن العراق مستعمرة بريطانية ، وأن الاستعمار البريطاني لا ولن يخرج بملء إرادته ، كما هو الحال في مصر والهند .
2. إن الحكومة العراقية الراهنة ، هي في الحقيقة ، لعبة بيد الحاكم الإنكليزي العام . وأن وجود ملك ومجلس وزراء ، هو في الأساس ، أداة استعمارية فحسب ، وذلك من أجل الحفاظ على أسس معاهدة تثبت أركان سيطرتها بمساعدة البرجوازية المحلية والإقطاعيين .
3. إن الحكومة الراهنة في العراق ، هي حكومة رجعية ، تمثل مصالح الطبقات الحاكمة ، التي لا ولن تمثل مصالح الجماهير العربية المسحوقة .
4. إن إنهاء الانتداب من خلال معاهدة تؤدي مهماته والموافقة على ضم العراق إلى عصابة الأمم ، هما مناورة إمبريالية من أجل الحفاظ على الطريق المهم إلى الهند من جهة ، وضمانة في حالة نشوب حرب ضد الاتحاد السوفياتي وتأمين الهيمنة الاستعمارية على البلدين شبه المستعمرتين (إيران وتركيا) من جهة أخرى .

---

165 Protokoll 10. Plenum des Exekutivkomitees der KI. Moskau. 3. Bis 10. Juli 1929. Hamburg-Berlin. o.j.

5. إن كل صحيفة أو مجموعة سياسية في العراق تعمل مع الحكومة أو تساندها ، والتي تدعي بأن العراق دولة مستقلة وليست مستعمرة ، إنما هي عميلة للاستعمار البريطاني ، جلد الشغيلة العراقية ، سواء بوعي أو بدون وعي .
6. إن كل دعاية توجه ضد الأقليات القومية ، بدلاً من النضال الحقيقي ضد الإمبريالية ، إنما هي دعاية إجرامية .
7. إن الإمبريالية تحاول في الحقيقة توجيه الأقليات القومية ضد حركة التحرر في العراق ، وإنها لمن واجب الشيوعيين إفهام شغيلة هذه الأقليات ، بأن شغيلة جميع الأمم إنما تستغل من قبل الإمبريالية ، وبأن تحررهم لا يمكن أن يتم بدون نضالهم المشترك 166
8. إن "جمعية الدفاع الوطني" هي جمعية لا ثورية ، هدفها مساندة القوى الرجعية في البلد ، مهاجمة الجماهير الكادحة وافتعال المعارك الجانبية: إن على الشيوعيين العراقيين أن يكافحوا هذه الجمعية بلا هوادة .
9. هناك في العراق عناصر وطنية ثورية ، مستعدة للنضال جنباً إلى جنب في صفوف الجماهير العربية من أجل إنقاذ العراق من النير الاستعماري: إن واجب رفاقنا هو ، جر هذه العناصر إلى النضال المعادي للاستعمار .
10. يجب على الحزب جمع شمل العمال والفلاحين والجنود تحت قيادته ، وإفهام العمال بأنهم يعتبرون طليعة الحركة التحررية ، وكذلك إفهام الفلاحين بأنه لا يمكن حل المسألة الزراعية إلا من خلال النضال مع العمال ، وذلك من أجل الاستيلاء على أراضي الإقطاعيين والدولة .
- عندما يضع الحزب نفسه على رأس الحركة الوطنية التحررية للجماهير ، سيرى بأنه القائد الحقيقي الوحيد للنضال ضد الاستعمار وضد الاستغلال الاجتماعي . وأنه سيقود جماهير الشغيلة لتأسيس حكومة ديمقراطية للعمال والفلاحين ، والتي تضمن لوحدها الحرية التامة والمساواة للأقليات القومية" 167 .

166 من المفيد هنا أن ننتبه إلى عدة ملاحظات مهمة حول هذه النقاط ، وهي:

1. الدعوة إلى تشكيل حزب شيوعي عراقي من جانب المجموعات الشيوعية التي كانت قائمة حينذاك؛
2. الحديث يوجه عموماً إلى الجماهير العربية في العراق ، وليس إلى كل الشعب العراقي بجميع قومياته وأقلياته القومية. وقد ساد هذا الحديث فترة طويلة في الحركة الوطنية العراقية وفي صحافة الحزب أيضاً؛
3. محاولة تصوير أن كل حركات الأقليات القومية ، بما فيها حركات الشعب الكردي والآثوريين وغيرها على أنها حركات مدبرة من قبل الاستعمار أو بتحريض منه ، وهو ما ورد في أدبيات الحزب فيما بعد أيضاً.
4. إن التشخيصات التي طرحت حينذاك لم تكن تتسجم مع الواقع العراقي ، وكان كاتبها لا يعرف العراق تماماً ، خاصة في الموقف من البرجوازية العراقية ، أو حتى من الحكومات العراقية حينذاك ، ولا عن البنية الطبقيّة أو الاجتماعية للشعب العراقي ، وعن مكانة الطبقة العاملة فيها حينذاك. وفي الوقت الذي تضمنت أفكاراً يسارية متطرفة. فأنها تضمنت أيضاً أفكاراً واقعية وسليمة.
5. إنه ، وفي الوقت الذي كان يتحدث عن المجموعات الشيوعية ، طرح في آخر نقطة عن الحزب وكأنه حقيقة موجودة عليه أن يعمل من أجل وحدة العمال والفلاحين تحت قيادته... الخ. وهذه الملاحظة تشير بدورها إلى احتمال نشوء الحزب في عام 1933 أو بعد ذلك بقليل ، إذ أن المقالة قد نشرت في شهر أيلول سبتمبر من عام 1933.

167 Rundschau. Nr. 4. vom 15. September 1933. S 1310-1312.



إن المقالات التي كانت تنشر في صحافة الحركة الشيوعية العالمية حينذاك ، كانت خاضعة لرقابة الكتب التنفيذي للأممىة الشيوعية وبالتالي كانت المهمات التي ترد فيها تعبر عن وجهة نظر المكتب ، وملزمة لمن يريد الارتباط بالحركة الشيوعية العالمية .

وتجدر هنا الإشارة إلى أن فهذا كان في عام 1933 كثير التردد على بغداد ، لا لأغراض إنجاز مهمات شخصية ، بل كانت من أجل التواصل مع جماعة بغداد والمشاركة في اجتماعاتهم وتبادل المعلومات والبيانات أو ما متاح من كتب ونشريات أو إصدارات جديدة ، إضافة إلى مشروع توحيد تلك المجموعات أو الحلقات الماركسية . إلا أن هذه اللقاءات كانت تتم بين بعض الوجوه القيادية وليس بين كل أعضاء هذه الجماعات . وهي معروفة لنا بشكل خاص بالنسبة إلى عاصم فليح وقاسم حسن ونوري روفانيل وآخرين والتي يؤكد لها أكثر من شخص ممن عملوا في تلك الفترة . أما حنا بطاطو فيشير ، وفق الوثائق المتوفرة لديه ، إلى أن اللقاء الأول الذي عقد في 8 آذار/مارس 1935 ضم كلاً من عاصم فليح ومهدي هاشم وقاسم حسن وحسن عباس الكرباسي 168 ويوسف إسماعيل ونوري روفانيل وانتهى بتأسيس التنظيم الذي طال انتظاره: "الجمعية ضد الاستعمار" 169 . واختارت القيادة عاصم فليح ، وهو خياط معروف في

168 تشير المذكرات غير المنشورة للمحامي حسن عباس الكرباسي إلى أنه كان مع الجماعة بطبيعة الحال ، ولكنه لم يشارك في الاجتماع الذي أصدر بيان "الجمعية ضد الاستعمار" . إذ كتب يقول ، وهو في هذا واضح جداً ، ما يلي: "في مساء 1935/3/13 بعد موعد مسبق مع قاسم حسن جنته إلى بيته وبعد كلام موجز حول المهمة ، سرعان ما خرجنا وسار بي قليلاً حول بيتهم - في منطقة باب الشيخ- ثم عرج كما لو أننا نعود ، ولكنه وقف أمام مدخل زقاق خاص كانت له باب خشبية لم يبق منها سوى البجة العليا (جسر الباب الأعلى) ، وبعد أن تأكد من خلو الشارع من المارة ، دخل إلى الزقاق ورفع يده نحو البجة من الداخل وأنزل رزمة سلمني إياها. وكان الوقت بعد حلول الظلام. فأخذت الرزمة وذهبت إلى بيتنا ، ... وفي البيت جلست أولاً وقرأت المنشور ، وكانت تفعم قلبي سروراً لتعابيره ومضامينه المطالبة بحقوق العمال وترديد سن المشروعات لحمايتهم وتطلب طرد القواعد العسكرية البريطانية ...". راجع نفس المصدر السابق. ص 37.

169 بطاطو ، حنا د. العراق. الجزء الثاني. الحزب الشيوعي العراقي. مصدر سابق. ص 83. يناقش حنا بطاطو في الهامش رقم 44 على الصفحة 83 تاريخ ولادة الحزب الشيوعي العراقي ، كما يحاول في ضوء ما لديه من وثائق تأكيد أن ميلاد الحزب لم يكن في عام 1934. وأن إعلان اسم الحزب قد تم في تموز/يوليو 1935. وهنا يناقش حسن عباس الكرباسي هذه المسألة في ضوء المعطيات التي كانت لديه وفي ضوء معيشتها للأحداث ويؤكد على خطأ جملة من التواريخ التي أوردها حنا بطاطو بما فيها تاريخ اعتقال قاسم حسن ومحاكمته في الناصرية وتاريخ عودة عاصم فليح من موسكو ، ويشير إلى أن تاريخ تأسيس الجمعية يختلف عن تاريخ الإعلان عنها ، فتأسيسها تم في آذار من عام 1934 والنقاشات حول تأسيسها بدأت حتى قبل ذلك في عام 1933 ، ولكن الإعلان عنها تم في آذار من عام 1935 ، حيث قام هو في توزيع البيان بعد تسلمه له من قاسم حسن ، وقد تم اعتقاله في ليلة توزيع البيان. ولهذا لا يمكنه نسيان هذه التواريخ بما فيها تاريخ اعتقاله. راجع في هذا الصدد: مقالة على شكل رسالة موجهة إلى الرفيق ... يناقش فيها كتاب حنا بطاطو. نسخة من الرسالة الأصلية المكتوبة في 15.4.1984 لم تنشر حتى الآن وموجودة لدى الباحثين. ص 7 من أصل المقالة. ويبدو لنا بأن المحامي الكرباسي على حق في ما كتبه في هذا الشأن و صواب التواريخ التي أوردها بشأن اعتقال ومحكمة قاسم حسن في دعوى واحدة مع فهد في الناصرية في شباط/فبراير من العام 1933. ولا بد لنا من الإشارة إلى أن الباحث حنا بطاطو ، الذي توفرت لديه فرصة الوصول إلى ملفات التحقيقات الجنائية (الأمن العراقي) وغيرها ، وهي فرصة ثمينة ، قد اعتمدها بشكل كامل تقريباً ، رغم أن تلك الملفات لم تكن ولا يمكن أن تكون بالضرورة القول الفصل الذي ينبغي الاعتماد عليه دون تحفظات ، إذ لم يكن كل شيء موجوداً لدى التحقيقات ، إضافة إلى احتمالات أخرى. وهذا ما أكده حسن عباس الكرباسي وكذلك عزيز الحاج في ملاحظتهما على بحث حنا بطاطو ، كما يمكنني أن أؤكد من الأحداث التي عشتها ولم تأت بشكلها الواقعي عند حنا بطاطو. راجع في هذا الصدد: الحاج ، عزيز. حنا بطاطو والحركة الشيوعية في العراق (الكتاب وترجمته العربية). كراس أصدره د. عزيز الحاج في مارس-آذار 1998. باريس. طبعة خاصة بصاحب الكتاب.

بغداد ، كأول مسؤول أو سكرتير لهذه الجمعية واللجنة القيادية ، بعد أن كان قد عاد لتوه من دراسة حزبية قصيرة في موسكو . كما انتخب فهد في قيادتها ، رغم عدم وجود وثائق تشير إلى ذلك ، ولكن وجوده مع الجماعة ودوره النشط والأساسي وعلاقاته بالمجموعة كلها وتنهيته لمثل هذا اللقاء يؤكد ذلك ، خاصة وأن مستواه الثقافي كان حينذاك يفوق عموماً مستوى بقية المشاركين في المجموعات الماركسية<sup>170</sup> . ويبدو أن سبب عدم ذكر اسمه مرتبط بالقرار الذي اتخذته الاجتماع بايفاد فهد للدراسة الحزبية في الجامعة الشيوعية لكادحي الشرق . ونشر الأستاذ حنا بطاطو جزءاً مهماً من البيان المذكور نوره كما جاء في كتابه "العراق" (الجزء الثاني . الحزب الشيوعي العراقي) ، مع الإشارة إلى بعض الملاحظات التي وردت بشأنه:

بيان الجمعية ضد الاستعمار<sup>171</sup>

"إلى العمال والفلاحين ، إلى الجنود والطلاب ، إلى كل المضطهدين!  
على سواعدنا قامت الثورة العراقية الأولى ، نحن جماهير العمال والفلاحين . ومن طبقتنا انطلقت الآلام والتضحيات وعشرات الآلاف من الضحايا ... وذهبت الفوائد إلى الممولين والإقطاعيين وكبار المسؤولين . . ولم يكن من نصيبنا إلا الجوع والبرد والمرض الذي لا يرحم ... وقطيع من محصلي الضرائب الذين ليست لديهم لمسة من الرحمة أو الإنسانية ...  
ويشترك الإنكليز والطبقة الحاكمة اليوم في حلف يهدف إلى الإبقاء على الاضطهاد والاستغلال اللذين نعانيهما ... ولقد أصبح النفط والمواد الخام الأخرى في البلاد حكراً على الإنكليز ، وتحول العراق إلى منفذ لبضائعهم وفائض رأس المال وإلى قاعدة للحرب التي تُشن ضد شعوب مجاورة وضد أية طموحات قد تكون لدى البلدان العربية للحرية . وتنهب الطبقة الحاكمة ، من ناحيتها ، عائدات الضرائب وتستولي على الأراضي وتبني القصور على شواطئ دجلة والفرات ، في الوقت الذي يجوع فيه ملايين الفلاحين وينزفون ويتلوون أماً ...  
علينا أن نضع حداً لأوضاع وصلت إلى هذا المدى من الظلم وصارت لا تحتمل . إننا نطالب بتغيير كل أسس الحياة تغييراً جذرياً لصالح كل الطبقات المنتجة . لنرفع صوتنا ثانية في الأرض ، وليتقدم هادراً يزرع الرعب في قلوب مضطهديننا . ليسر أبناء المدن والقرى ، العمال

170 كتب حسن عباس الكرياسي في مذكراته يقول: " والآن لو عملت جرداً -على حد إطلاعي- للأشخاص الذين استهدفوا الماركسية اللينينية كوسيلة للنضال الطبقي والتحرر الوطني حتى نهاية عام 1934 بل وإلى الربع الأول من عام 1935 لوجدته كالتالي:

1) فهد (فهد فيما بعد) ، 2) عاصم فليح (لم يكن يتردد على الكراج) ، 3) قاسم حسن ، 4) مهدي هاشم ، 5) نوري روفانيل ، 6) حسن عباس ، 7) يوسف إسماعيل ، 8) عيد الرحمن داود ، 9) موسى حبيب. " ، ثم يشير لاحقاً إلى انسحاب يوسف إسماعيل ونوري روفانيل وموسى حبيب. قيل الإعلان عن تأسيس الحزب. ويلاحظ هنا أن حسن عباس يضع نفسه ضمن الذين شاركوا مادياً في ولادة الحزب. ولكنه لم يكن حاضراً الاجتماع الذي وضع البيان الذي ساهم بتوزيعه. راجع: المذكرات. سيرة نضالية. ص 22.  
171 يشير زكي خيري وحسن عباس الكرياسي إلى أن البيان حمل عنوان "بيان لجنة مكافحة الاستعمار والاستثمار" ، ويرد أحياناً "لجنة مكافحة الاستعمار" (راجع في هذا الصدد: خيري ، زكي: دراسات في تاريخ الحزب الشيوعي العراقي. إصدار البوبيل الذهبي. ط 1. لندن. 1984. ص 36/35).

والفلاحون ، الذين لا تفرقهم طائفة أو عرق ، مؤيدين بالمفكرين الثوريين ، جنباً إلى جنب ،  
لتحقيق المرحلة الأولى من النضال:

■ إلغاء كل ديون الفلاحين ، وتحريرهم من الضرائب المرهقة ، وتوزيع أراضي الدولة على  
الفقراء وتأمين القروض اللازمة لهم .

■ ضمان حرية العمال في الاجتماع والكلام ... ، وإعادة فتح نوادي العمال ونقاباتهم وتطبيق  
قانون حماية العمال ... ضد التسريح التعسفي وتأمينهم ضد الجوع في شيخوختهم ،  
وتطبيق يوم العمل البالغ ثماني ساعات في كل أماكن العمل العراقية والتي يملكها الأجانب

...

يسقط الاستعمار الإنكليزي! تسقط كل معاهدات الاستعباد! عاشت الجبهة الموحدة ضد  
الاستعمار وضد مضطهدي الفلاحين والعمال" 172 .

ومن الجدير بالإشارة إلى أن زكي خيري في مذكراته ، وكذلك في كتابه المشترك مع زوجته  
الدكتورة سعاد خيري ، يشير إلى الأهداف التالية التي تضمنها البيان والتي لم ترد بالنص عليها  
في ما أورده اختصاراً حنا بطاطو 173 ، ومنها:

172 بطاطو ، حنا. العراق. الجزء الثالث. الحزب الشيوعي العراقي. مصدر سابق. ص 84.  
173 حصل الحزب الشيوعي على صورة من نسخة البيان الذي أصدرته الجمعية ووزع في النجف صباح 1935/3/21 محفوظة  
في المركز الوطني لحفظ الوثائق -مف وزارة الداخلية- سجلات البلاط الملكي. وجاء في هذا البيان ما يلي:  
ماذا نريد

لم نحمل السلاح ونثور ونقف بوجه المستعمرين وأتباعهم ممن فرضوا فرضاً على العراق وحسبوا من أبنائه من أجل أشخاص  
معدودين غايتهم واحدة (وأن اختلفوا بالوصول إليها وكونوا صوراً بشكله في هذه البلاد يغشون الجماهير فتحسب أن فريقاً منهم  
يعمل لصالحنا) نحن دافعوا الضرائب الجياح إنما هي ثورة من الصميم علة قوامها في صدورنا سنين عديدة ، وهي الآن تتفجر لا  
لترضي وتشجع جشع أشخاص معدودين... الهاشمي ، المدفعي ، السعيد ، الأيوبي ، العسكري ، وغيرهم وغيرهم ، كلهم جربوا  
وكلهم جاءوا الحكم فلم يحدث أي تبدل ملموس في حياة الملايين الكادحة من الجماهير بالعكس كل منهم قام بقسمه من أغلالنا بقيود  
العبودية ، المعاهدة وذبولها ، اتفاقيات النفط المحجفة بحقنا مشاريع أصفر واللطيفية ومشروع الحبانية الخ..

نحن نريد

أولاً - قلع سن الذبان والهندي والشعبية من الأساس لا نريد أي قاعدة حربية للإنكليز عندنا .  
ثانياً - تعديل المعاهدة من الأساس وجعلها بشكل معاهدة بين الند والند ، لا بين سيد وعبد مصبوغة بألوان كاشفة.  
ثالثاً - لا نريد أن توافق الحكومة العراقية بصورة تامة على مشروع سكة حديد حيفا - بغداد إذ هو طريق استعباد وغل للأجيال  
الآتية.

رابعاً - نريد إبدال اتفاقية النفط بشكل يكون لصالحنا على أن نقر ذلك نحن أبناء الشعب.  
خامساً - تخفيض الرواتب الضخمة لكبار الموظفين والوزراء تخفيضاً محسوساً.  
سادساً - توزيع جميع الأراضي الأميرية حالاً على فقراء الفلاحين.

سابعاً - إلغاء جميع الديون المتركمة على الفلاحين وتخفيض الضرائب تخفيضاً كبيراً ، والاستعاضة عن الضرائب بالإكثار من  
حصتنا من تبديل اتفاقيات النفط.  
ثامناً - سن قانون حماية العمال.

تاسعاً نريد حالاً الضرب على أيدي بعض الصحف المعلومة التي تتناول أجوراً من الجهات الأجنبية المعروفة في بغداد - للتبشير  
بالدعاية الاستعمارية لحكوماتها وعلاوة على ذلك تتناول رواتب من المخصصات السرية التي هي نفس الضرائب التي جبيت منا  
بالسياط ، هؤلاء الذين يشتمون الثورة ورجالها والرجال المخلصين وإلا فسيرون جزائهم منا إن لم تتخذ التدابير الفعالة بحقهم.

عاشراً - نريد انتخاباً مباشراً حراً أي من دون منتخبين ثانويين الشكل الاستعماري تلعب من ورائه الاستعمار.  
الحادي عشر - نريد إخراج جميع العناصر التي تعمل على بث التفرقة بين أبناء الشعب العراقي الواحد المتكاتف الأفراد من العراق.

"... أن البيان كان يحتوي على الشعارات الأساسية للمرحلة تحت عنوان: ماذا نريد؟

- إلغاء معاهدة 1930 .
  - قلع سن الذبان والشعبية (يعني إلغاء القواعد العسكرية البريطانية) .
  - حل المجلس النيابي أو إجراء انتخابات حرة .
  - توزيع الأراضي الأميرية على الفلاحين .
  - تحديد يوم عمل بثمانى ساعات .
  - استقلال كردستان .
  - ومطالب أخرى لا أذكرها"174 .
- أما حسن عباس الكرباسي فيتفق مع القضايا التي يشير إليها زكي خيري ويجد أن البيان الذي نشره حنا بطاطو ناقص ولا يعبر عن القضايا الأساسية التي وردت فيه ، أي أن هناك اختصار مخل بمضمون البيان175 .
- ومما يؤكد على صواب ما جاء عند زكي خيري بشأن هذا الموضوع ، ما جاء في العدد الأول من جريدة كفاح الشعب176 حول المطالب الأتية للشعب العراقي والتي أوردها زكي خيري في كتابه الموسوم "دراسات في تاريخ الحزب الشيوعي العراقي" التي تتطابق مع تلك التي وردت في بيان لجنة مكافحة الاستعمار والاستثمار177 ، إذ جرى تأكيد خاص على المطالب التالية:
- " 1 . طرد المستعمرين ، وضمان حرية الشعب والاستقلال الكامل للأكراد وضمان الحقوق الثقافية... لكل الأقليات178 .

اللجنة المركزية لجمعية ضد الاستعمار

راجع في هذا الصدد: الثقافة الجديدة. الحزب الشيوعي العراقي. العدد 132 (9 تموز/يوليو 1981. ص 70/69.

174 خيري ، زكي. صدى السنين في ذاكرة شيوعي عراقي مخضرم. مصدر سابق. ص 82/81.

175 الكرباسي ، حسن عباس. مقالة حول كتاب حنا بطاطو. مصدر سابق. ص 8. لا أجد ما يبرر القول بأن حنا بطاطو قا اقتطع من البيان عمداً ، كما يلمح إلى ذلك حسن عباس الكرباسي في مقالته المشار إليها سابقاً ، إذ أن بطاطو قد أشار إلى موقف الحزب من تلك القضايا تفصيلاً في مواقع أخرى ، ولم يبق أي شك في مواقف الحزب منها ، سواء تلك المتعلقة بقضية المعاهدة أم بقضية امتياز النفط الخام أم القضايا العمالية والفلاحية. ويمكن أن ما حصل عليه من البيان هو ما نقله لنا في كتابه الأنف الذكر.

176 تعتبر جريدة "كفاح الشعب" لسان حال اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي ، أول جريدة سرية في تاريخ الصحافة العراقية المعروفة لدينا. وقد أشار إلى ذلك أيضاً السيد جعفر عباس حميدي في كتابه الموسوم التطورات السياسية في العراق 1941-1953. مصدر سابق. ص 343.

177 خيري ، زكي. دراسات في تاريخ الحزب الشيوعي العراقي. البيوبيل الذهبي. مصدر سابق. ص 37.

178 ومن الجدير بالإشارة إلى أن الموقف من القضية الكردية قد ارتبط في حينها بمسألتين ، رغم أنه لم يكن في عضوية اللجنة المركزية الأولى أي مواطن كردي ، وهما: ! إن الأكراد في حينها كانوا يطالبون بالاستقلال وقبل انتفاضة السليمانية ، وبالتالي كان الموقف يعبر عن استجابة لهذا المطلب؛ 2. أن هؤلاء كانوا يعبرون عن موقفهم الأسمى القائل بحق الشعوب كبيرها وصغيرها بتقرير المصير ، بما فيه الانفصال وإقامة الدولة المستقلة. علماً بأن الموقف لم يكن عملياً ، خاصة وأن قرار عصبة الأمم كان قد انتهى لتوه بربط ولاية الموصل ، ومنها المنطقة الكردية ، بالعراق. وفي عام 1935 وردت في جريدة كفاح الشعب ما يؤكد حق الأكراد بالاستقلال الكامل. وفيما بعد طرحت المسألة الكردية بشكل آخر في برنامج الحزب في الأربعينات. ثم عاد الحديث عن استقلال كردستان في عام 1953 عندما كان حميد عثمان ومجموعة الرفاق الأكراد على رأس الحزب ، حيث ورد في برنامج الحزب الجديد

2. توزيع الأراضي على الفلاحين .
  3. إلغاء كل ديون الأراضي ورهوناتها...
  4. مصادرة كل أملاك المستعمرين - من المصارف إلى حقول النفط وأعمال السكك الحديدية وغيرها - ونزع ملكية العقارات الزراعية الكبيرة .
  5. تركيز السلطة في أيدي العمال والفلاحين .
- إطلاق الثورة الاجتماعية - بلا تأخير - في كل مجالات الحياة الأخرى وتحرير الناس من أشكال الخضوع المتنوعة"179 .

وفي عام 1935 استبدل اسم الجمعية باسم الحزب الشيوعي العراقي . وحين صدر العدد الأول من جريدة الحزب "كفاح الشعب" كان يحمل في صفحته الأولى اسم "الحزب الشيوعي العراقي" . وفي أعقاب هذا الاجتماع تقرر إيفاد فهد للدراسة الحزبية في "الجامعة الشيوعية لكادحي الشرق" في موسكو ولمدة ثلاث سنوات تقريبا . وفي عام 1935 التحق زكي خيرى بالحزب وضم إلى عضوية اللجنة المركزية ، علما بأنه كان من المشاركين في النشاط الوطني العام في بغداد منذ سنوات وكان صديقا شخصيا لعدد من كوادر الحزب حينذاك ، ومنهم حسين الرحال ، كما كان يعمل في إحدى الحلقات الماركسية . أن إرسال فهد إلى المدرسة الحزبية قد أضعف الجناح الذي اختلف مع عاصم فليح بشأن إصدار الجريدة وإيقاف العمل في صفوف الأهالي الذي تبناه فهد وجماعة الناصرية ، وكذلك مجموعة من بغداد ، منهم يوسف إسماعيل ونوري رفائيل ، في حين ساندت جماعة البصرة مجموعة عاصم فليح .

وفي بغداد اجتمعت اللجنة المركزية وانتخبت عاصم فليح سكرتيراً لها وضمت إلى جانبه الأشخاص التالية أسماؤهم: مهدي هاشم وقاسم حسن وزكي خيرى ويوسف متي . ولكن عمل هذه المجموعة ، التي وقفت على رأس الحزب ، لم يستمر طويلاً ، إذ سرعان ما تعرضت لإرهاب السلطة ، فتخلى البعض من أعضاء القيادة عن النشاط السياسي والحزبي ، كما خان البعض الآخر الأمانة التي وضعت في عنقه اختياراً لا قسراً ، كما تشتت البعض الآخر ، وتوقفت جريدة الحزب عن الصدور بعد أن اعتقل آخر عضو في القيادة ، زكي خيرى .

---

حق الشعب الكردي في تقرير مصيره ، بما فيه حقه في الانفصال. راجع: بطاطو ، حنا. العراق. الجزء الثاني. الحزب الشيوعي العراقي. مصدر سابق. ص 90. الهامش رقم 16.

179 بطاطو ، حنا. العراق. الجزء الثاني. مصدر سابق. ص 90.

## الفصل الخامس : فهد والحركة الشيوعية العالمية

### المبحث الأول : فهد في المدرسة الحزبية لكادحي الشرق

كان عمر فهد (سعيد180) قد تجاوز الرابعة والثلاثين عاماً عندما غادر العراق للدراسة الحزبية في موسكو وفق قرار صادر عن اللجنة المركزية للحزب الجديد . وكان ، وهو في هذا العمر ، يحمل معه تجربة غنية في النضال الوطني وفي الدعوة للشيوعية وتشكيل الحلقات الماركسية والعمل النقابي . كما كان يتسم بالحيوية والحركة والمبادرة والذهن المتفتح . وكانت ثقافته الماركسية عامة ودراسته لها غير منهجية ومحدودة بسبب قلة المصادر الماركسية المتوفرة لدراستها في العراق في تلك الفترة . وكان عليه أن يقرأ ما هو متيسر وما يمكن أن تقع عليه اليد أو كان يسعى للحصول على هذا الكتاب الماركسي أو ذاك من خلال اقتنائه من مكتبة مكنزي في بغداد . ولم تكن الجهود الذاتية ، مهما كانت جادة ، كافية للتزود المتعدد الجوانب بالمنهج العلمي ، المادي الديالكتيكي والتاريخي وبالفكر الماركسي وبالمعالجات الماركسية المختلفة لجوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ولما يشار إليه في الأدب الماركسي بالمصادر الثلاثة للماركسية: الاقتصاد السياسي والفلسفة والاشتراكية العلمية . ولهذا كانت الدراسة الحزبية بالنسبة لفهد فرصة ثمينة لتنمية وتطوير تكوينه الماركسي وتنويع وإغناء تجربته السياسية والحياتية . كما أن الاتحاد السوفييتي ، باعتباره بلد الاشتراكية الأول ، بلد العمال والفلاحين وسائر الكادحين ، كان معلماً ثورياً ومطمحاً عظيماً للزيارة من غالبية الثوريين في العالم في تلك الفترة من حياة الشعوب السوفييتية . غادر فهد بغداد للدراسة في موسكو في فترة تميزت بالكثير من التعقيد والتشابك بالنسبة إلى أوروبا والعالم ، كما كان الوضع في العراق ذاته كثير التعقيد والاحتمالات .

فمنذ أن تسلم ستالين دفة الحياة السياسية في الاتحاد السوفييتي ، قيادة الحزب والدولة ، بعد وفاة لينين عام 1924 ، رغم أنه كان قد تسلمها قبل ذلك ابتداءً من عام 1922 عندما أصيب لينين بمرض لم يشف منه . كما تسلم ستالين وبشكل أوتوماتيكي قيادة الحركة الشيوعية الفتية ، الكومنترن ، حيث كان مكتب الحركة في موسكو . وبدأ ستالين بتغيير سياسة لينين التي أطلق عليها في حينها السياسة الاقتصادية الجديدة ، نيب ، وأعلن توجهه لاستكمال بناء الاشتراكية وطرح برنامج التصنيع الكثيف للفترة 1926-1929 ، وبرنامج التحول السلمي للزراعة للفترة 1930-1934 الذي تضمن بالأساس القضاء على الزراعة الفردية وتصفية الكولاك كطبقة

180 سعيد هو الاسم الحزبي لفهد قبل تغييره إلى "فهد".

اجتماعية بدلاً من الحد من نشاط أفرادها والتحول صوب بناء التعاونيات الزراعية والمزارع الجماعية الحكومية في جميع أرجاء الاتحاد السوفييتي والتي جوبهت بمقاومة شديدة لا من الكولاك وأغنياء الريف فحسب ، بل ومن كثرة من صغار الفلاحين الذين لم تبذل الجهود الكافية لإقناعهم بأهميتها ودورها ، إذ جرى في الممارسة العملية التخلي عن المبادئ التي وضعها لينين قبل ذلك لبناء المزارع التعاونية والحكومية ، أي الكولخوزات والسوفخوزات ، في الاتحاد السوفييتي ، والتي تسببت بوقوع خسائر فادحة في البشر والحيوانات والمحاصيل الزراعية . وتشير الدراسات الخاصة بهذه المسألة إلى أن أخطاء فادحة وخسائر كبيرة تحملها الاقتصاد والمجتمع السوفييتي ، وبشكل خاص صغار وفقراء الفلاحين ، بسبب تلك السياسات . وقد أثارت هذه المشكلة الخلاف والصراع في قيادة الحزب الشيوعي السوفييتي ، وبالتالي تعمقت تلك الخلافات التي كانت قد تفجرت في أعقاب ثورة أكتوبر الاشتراكية أو في الفترة اللاحقة أثناء حياة لينين بصدد طبيعة المرحلة ووجهة وأدوات وأساليب التطور . ولم تمض سنوات قليلة على تسلم ستالين قيادة الكومنترن وكل الحركة الشيوعية والعمالية العالمية باستخدام مصطلح الماركسية - اللينينية بدلاً عن الماركسية . واعتبر أن اللينينية هي ماركسية عصر الإمبريالية والثورة البروليتارية ، نظرية عصر انهيار النظام الاستعماري وانتصار حركات التحرر الوطني ، إنها نظرية المرحلة الجديدة مرحلة انتقال البشرية من الرأسمالية إلى الاشتراكية . وبهذا الطرح الجديد فتح ستالين الطريق على مصراعيه أمام إضافة جديدة لاحقة هي الستالينية إلى الماركسية - اللينينية أو كما أخذ به في الحركة الشيوعية: ماركس - أنجلز - لينين - ستالين ، باعتبارهم الأربعة العظام . واقتصر التنقيف في الحركة الشيوعية العالمية عملياً على مختارات من كتابات هؤلاء الأربعة . وجوبهت إجراءات ستالين بمقاومة مجموعة من أعضاء قيادة الحزب والدولة السوفييتية ، ومنهم تروتسكي وزينوفيف وآخرين . مما دفع ستالين إلى طردهم من اللجنة المركزية والحزب . واتخذ مؤتمر الحزب الخامس عشر القرارات التي اقترحها ستالين لمواجهة المعارضة الحزبية لإجراءات ستالين . وتفاقم هذا الصراع في الثلاثينات ومع بداية عمليات تطبيق السياسة الزراعية في الاتحاد السوفييتي .

إن النجاحات التي تحققت في البناء الاقتصادي والاجتماعي في الاتحاد السوفييتي بشكل عام أغرت ستالين على طرح قضايا جديدة لم تكن مطروحة قبل ذلك أو لم يكن قد نضج أوانها ، ومنها بشكل خاص موضوع تغيير دستور الاتحاد السوفييتي الذي أقر في عام 1924 ، ووضع دستور جديد سمي بدستور ستالين رسمياً ، وهكذا ورد في الأدب السوفييتي وفي الإنسكلوبيديا السوفييتية لعام 1952 مثلاً ، خاصة وأن عدداً جديداً من الجمهوريات ذات الحكم الذاتي أو غيرها قد دخل في إطار الدولة السوفييتية الجديدة . ففي عام 1936 ومن على منصة المؤتمر

الثامن الاستثنائي لمجلس السوفييت الأعلى طرح ستالين هذا الدستور مبرراً ذلك بما يلي: "نحن نمتلك اليوم اقتصاداً اشتراكياً لا يعرف الأزمات والبطالة ، لا يعرف البؤس أو الخراب ، ويمنح مواطني الدولة كل الإمكانيات للرفاهية والحياة الثقافية" 181 . واعتبر أن الاتحاد السوفييتي يبني الاشتراكية ويسير قدماً صوب الشيوعية وأن المجتمع لم يعد يعرف الصراع الطبقي ، فالتناقضات تضحل بسبب تصفية المجتمع وإلى الأبد لملاكي الأراضي والكولاك والتجار والمرابين .182

وفي عام 1935 أصدر ستالين كتابه الجديد الموسوم "في سبيل تكوين بولشفي" ، الذي حدد فيه السمات التي يفترض أن يتميز بها الشيوعي في حزب من طراز جديد ، في حزب لينيني الطراز والفكر والممارسة . وفي هذا الكراس الستاليني أعلن ستالين الحرب الشعواء ضد كل الاتجاهات الفكرية والسياسية المخالفة لوجهات نظره ، سواء كانت في الفكر أم السياسة ، وطالب الشيوعيين بالتصدي لهؤلاء والكشف عن تخريباتهم ومعاقتهم . وقد شملت حملة الكشف والطرده والمعاقبة الحزبية والحكومية والشعبية جمهرة كبيرة من المثقفين السوفييت في مختلف الاختصاصات والمجالات ، ممن كانوا على خلاف مع ستالين ووجهته . أي أن الحزب الشيوعي السوفييتي رفض في هذه الفترة المناير الفكرية المتعددة في الحزب والمجتمع ، واعتبر البلاد تخضع لفكر واحد وحزب واحد وسياسة واحدة وقائد واحد . وكان في هذه الوجة المأساة السوفييتية ومشكلة الشيوعيين على الصعيد العالمي . وفي الوقت الذي رفض ستالين وجود قوى أخرى في البلاد أو إقامة تحالفات معها ، كانت الفاشية على الصعيد الأوروبي تتحرك بحوية كبيرة في مواجهة الشيوعية والديمقراطية على الصعيد الدولي . وكانت الأممية الشيوعية قد شخصت المخاطر الجديدة التي تهدد العالم والتي تهدد في الوقت نفسه الاتحاد السوفييتي . ولهذا انطلقت وعلى خلاف ما كان يجري في الاتحاد السوفييتي ، بالدعوة إلى إقامة الجبهات الشعبية على الصعيد الدولي وإيجاد لغة مشتركة مع الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية ومع القوى القومية الإصلاحية والبرجوازيات الوطنية المحلية . ومن هنا نتبين وجود خطين واضحين ، بالرغم من أن هذا الخط الأممي للكومنتيرين لم يجد تعبيره الضروري على صعيد الاتحاد السوفييتي ، ولم يجد أصحاب الخط الثاني تناقضاً أو تعارضاً مع الخط الأول .

في مثل هذه الأجواء وصل فهد إلى موسكو للدراسة الحزبية . وكانت المناهج التدريسية في الجامعة الشيوعية لكادحي الشرق تستند إلى المصادر الثلاثة للماركسية ، بمواد عديدة ، إضافة

---

181 S. I. Wawilow. K. J. Woroschilow. A. J. Wzschinski. P. I. Lebedew-Polijanski. F. N. Petrow. F. A. Rotstein. O. J. Schmidt. Grosse Sowjet-Enzyklopaedie. Band 1. Union der sozialistischen Sowjetrepublik. 2. Auflage. Verlag Kultur und Fortschritt Berlin. 1952. S. 730.

182 نفس المصدر السابق. ص 730.



إلى زيارات لبعض المنشآت والمزارع الجديدة ولقاءات مختلفة وزيارات للمسرح والاطلاع على الحياة السوفيتية . وكان المنهج التدريسي يتضمن المواد التالية:

• المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية المستند إلى بعض الأدبيات الخاصة ومنها كتاب لينين المادية والنقد التجريبي .

• الحركة العمالية العالمية وتطور الأممية الشيوعية (الأمميات الثلاث) ، وتاريخ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي .

• الاقتصاد السياسي في ضوء أبحاث الكتاب السوفيت . ويمكن أن يقدم كتاب نيكيتين نموذجاً حياً لمادة الاقتصاد السياسي .

• حركة التحرر الوطني في البلدان المستعمرة وأشباه المستعمرات والتابعة .

• دور الأحزاب الشيوعية والشيوعيين في النضال من أجل استقلال وسيادة أوطانهم .

• الموقف من الحرب والفاشية على الصعيد العالمي .

• الديمقراطية البرجوازية والديمقراطية الشعبية ودكتاتورية البروليتاريا .

• أسس الماركسية - اللينينية .

• بناء الحزب .

• الدعاية والتحريض .

• أساليب وتجارب العمل السري .

• الدين والفقهاء الإسلاميين وتأثير الإسلام على المجتمع في إطار الموضوعات الإقليمية .

إلى جانب ذلك كانت تعقد ندوات تناقش فيها القضايا الإقليمية للبلدان المختلفة وكذلك القضايا الأتية في تلك الأقاليم ، كما كانت المدرسة تدعو شخصيات متخصصة وقادة أو كوادر متقدمة

من أحزاب شيوعية ومن مكتب الكومنتيرين لإلقاء محاضرات على طلابها والنقاش حولها .

وكانت صلة الحزب الشيوعي العراقي ، إلى جانب كونها مع الأحزاب الشيوعية في البلدان

العربية ، مع الحزب الشيوعي البريطاني باعتباره أقرب إلى معرفة الواقع العراقي نتيجة وجود

الهيمنة البريطانية على العراق ، أي مع مجموعة الكومولث ، رغم كون العراق لم يكن ضمن

دول الكومولث ، في حين كانت الأحزاب الشيوعية في المغرب العربي على علاقة مع الحزب

الشيوعي الفرنسي .

هيمن الفكر اللينيني - الستاليني خلال هذه الفترة على الحياة الفكرية والسياسية والمناهج

الدراسية للمدرسة الحزبية ، إذ وجد المشرفون على المدرسة ضرورة إبعاد كل فكر مخالف أو

معارض عن المدرسة وعن الحياة الحزبية والسياسية وعن المناهج التدريسية . وأصبح كتاب

أسس الماركسية - اللينينية هو المعول عليه في تدريس بناء الحزب في المدرسة الحزبية والتي

ركزت على موضوعات أساسية في البنية الحزبية والأسس التي تعمل بموجبها الأحزاب

السياسية والتي استمر فعلها فيما بعد لعقود عديدة . وركز ستالين في التثقيف الحزبي على نطاق الحركة الشيوعية ، ومنها المدارس الحزبية على مجموعة من القضايا ذات الأهمية الفائقة في فكر ونشاط وممارسات الأحزاب الشيوعية الأخرى كأحزاب وكأفراد . وفيما يلي محاولة لبلورة البعض من تلك الأفكار التي تغذى بها طلاب المدرسة الحزبية في موسكو حينذاك ، ومنهم فهد:

- اعتبار الماركسية -اللينينية هي النظرية العلمية الوحيدة القادرة على فهم وتفسير العالم ، وبالتالي فهي تمتلك الحقيقة ، والحقيقة إلى جانبها أبدأ؛
- اعتبار الاتحاد السوفييتي بلد الاشتراكية الأول الذي يفترض في كل الشيوعيين والتقدميين الدفاع عنه ومساندته ودعم توجهاته؛
- اعتبار المعارضين والمختلفين مع الحزب الشيوعي السوفييتي أعداء له وبالتالي فهم أعداء الحركة الشيوعية العالمية ، ومنهم كل الانتهازيين والمحرفين الذين يفترض محاربتهم بكل السبل الممكنة باعتبارهم مطايا الإمبريالية في الحركة الشيوعية والعمالية العالمية؛
- اعتبار الحزب الشيوعي هو حزب الطبقة العاملة والفلاحين بالمطلق ولا يمكن ولا يجوز أن يوجد غيره ، وفي حالة بروز حزب آخر منافس فلا بد أن يكون خاطئاً ويفترض محاربتة؛
- تأكيد دراسة الماركسية اعتماداً على كتابات ماركس ، إنجلز ، لينين وستالين باعتبارهم من الكلاسيكيين والابتعاد عن غيرهم؛
- اعتبار أحزاب الاشتراكية الديمقراطية جزءاً من أحزاب الأممية الثانية التي خانت قضية الطبقة العاملة في العالم منذ أوائل القرن العشرين وتجسد ذلك في موقفها من الحرب العالمية الأولى ، ويفترض مواجهة أفكارها واجتهاداتها بالتفنيد والمحاربة الكاملة؛
- واعتبار ستالين المرجع الفكري للثلاثي ماركس - إنجلز ولينين ، وبالتالي يصبح هو القائد الفعلي للحركة الشيوعية العالمية وللشيوعيين في العالم . ويفترض أن تدرس كتاباته ومنها حول المسألة القومية وفي سبيل تكوين بولشفي وحول أسس الماركسية-اللينينية التي كانت تتضمن إلى جوانب عديدة وأساسية أخرى ، قضايا الحزب من الطراز الجديد والطاعة الكاملة لشخصية "أب الشعوب" .
- وكانت هذه المقولة الأخيرة تتضمن اعتبار الحزب الماركسي اللينيني يمتلك الخصائص التالية:

■ أن الحزب هو طليعة الطبقة العاملة وتنتظم في عضويته خيرة أبناء الطبقة العاملة الذين يتحملون مسؤولية وضع برنامج في ضوء النظرية الثورية والنضال من أجل تحقيقه؛

- والحزب هو الطليعة المنظمة للطبقة العاملة حيث يعمل أعضائه بالضرورة في إحدى تنظيماته القاعدية ويؤدون مهماتهم بحيوية؛
  - وتمتلك الطبقة العاملة مجموعة من المنظمات كالشباب والنساء والنقابات . إلا أن الحزب هو الشكل الأرقى لتنظيم الطبقة العاملة وقيادة نضالها . وتبقى تلك التنظيمات وسيلة التواصل مع الجماهير والتعبير عن مصالحها وتعبئتها للنضال؛
  - والمبدأ الأساسي في التنظيم الحزبي هو المركزية الديمقراطية ، وهي أداة البروليتاريا التي لا تمتلك غيرها في الوصول إلى السلطة . وطبيعة بناء الحزب هي التي تقر ما إذا كان الحزب ثورياً أم لا . ويحتاج الحزب لتحقيق مهماته قيادة مركزية وانضباطاً حزبياً صارماً ، إضافة إلى المشاركة في قرارات ونشاط الحزب وممارسة مبدأ النقد والنقد الذاتي . ويتطلب تنظيم العلاقة بين مختلف مستويات الحزب الاستناد إلى قاعدة المركزية الديمقراطية؛
  - ويفترض في الحزب أن يطور نفسه من خلال مواجهة المهمات الجديدة التي تطرحها الحياة والعملية النضالية وفق الظروف الملموسة في كل بلد من البلدان . ويتحمل الحزب مسؤولية محاربة الاتجاهات الانتهازية اليمينية واليسارية ، التحريفية والجمود العقائدي استناداً إلى فهم القوانين العامة والمحركة والظروف الملموسة؛
  - إن تحرير البروليتاريا يمكن أن يتم من خلال ممارسة النضال الأممي لكل الفصائل الوطنية للطبقة العاملة وتنفيذ التزاماتها إزاء البروليتاريا العالمية . إنها التجسيد العملي لشعار "يا عمال العالم اتحدوا" ، إذ في مقدور فصائل الطبقة العاملة أن تناضل وطنياً وتتضامن دولياً على قاعدة ومبدأ الأممية الاشتراكية .
  - إن الحزب الماركسي اللينيني القائد على الصعيد الدولي هو الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي . والاعتراف بدوره القيادي للحركة الشيوعية والعمالية العالمية ينطلق من دوره التاريخي في النضال التحرري للطبقة العاملة وحلفائها على الصعيد العالمي ، وهو الذي يقود بناء الاشتراكية في روسيا ويقود عملية انتصار العلاقات الإنتاجية على صعيد الاتحاد السوفيتي .
  - ويعتبر الموقف من الحزب الشيوعي السوفيتي والدولة السوفيتية هو المحك الأساسي عن مدى إخلاص كل حزب شيوعي وكل رفيق شيوعي ، وبالتالي فإن التعلم منهما هو بمثابة تعلم الانتصار .
- وكان الاتجاه السائد في تدريس مادة الديمقراطية البرجوازية ودكتاتورية البروليتاريا يستند إلى كتابات لينين منذ عام 1919 وما بعدها ، إذ وضع نصب عينيه مهاجمة الديمقراطية البرجوازية

وشرحتها وإبراز جوانب ضعفها من جهة وتأكيد اعتماد الحزب الشيوعي السوفييتي على موضوعة الديمقراطية الشعبية ودكتاتورية البروليتاريا باعتبارها ديمقراطية الأكثرية ضد الأقلية في حين أن الديمقراطية البرجوازية هي دكتاتورية الأقلية ضد الأكثرية ، ومشيراً إلى أن الديمقراطية البرجوازية كانت تقدمية في القرون الوسطى ولم تعد كذلك في مرحلة الإمبريالية . ويمكن العودة هنا إلى الكثير من خطابات لينين في اجتماعات كثيرة خصصت لهذا الغرض ، بما فيها مؤتمرات الحركة الشيوعية العالمية من خلال الكومنتيرن في أعوام 1919-1922 على سبيل المثال لا الحصر 183 .

• كان تثقيف الكوادر الشيوعية القادمة من بلدان الشرق في الجامعة الشيوعية لكادحي الشرق الحزبية في الاتحاد السوفييتي يرتكز على مؤلفات ماركس وإنجلز ولينين وستالين ، وعلى عدد من الأبحاث الخاصة بالفلسفة المادية والاقتصاد السياسي التي كانت تعد من قبل الكتاب السوفييت . واحتل الصراع ضد الاتجاهات الفكرية والسياسية المخالفة لتحليلات الحزب الشيوعي السوفييتي وستالين مركز الصدارة في التثقيف أو التدريس اليومي ، وخاصة الدراسات المناهضة للفكر الاشتراكي الديمقراطي باعتباره فكراً انتهازياً غريباً وحصان طروادة في الحركة العمالية العالمية ، إضافة إلى مناهضة الفكر والممارسات التروتسكية . وكان الموقف من الدولة الاشتراكية الأولى في العالم ، الاتحاد السوفييتي ، يحتل مكانة بارزة في التثقيف اليومي ، باعتباره المحك الذي تمتحن عنده الروح الأممية والموقف الأممي للمناضل الشيوعي . فحب الاتحاد السوفييتي والإخلاص له والدفاع عنه والتعلم منه يعني الأممية بعينها ويعني التعلم على الانتصار ، وبخلاف ذلك يعني الانتهازية والانحراف والخيانة للماركسية-اللينينية . وكانت الماركسية في هذه الفترة وما بعدها لعقود لاحقة طريفاً واحداً باتجاه واحد لا غير هي اللينينية وعبادتها خروج عن الماركسية وانتهازية وتحريفية . وعمق ستالين هذه الاتجاهات في أكثر من خطاب وحوار له في إطار الحزب الشيوعي السوفييتي والأممية الشيوعية وفي كراسيه الشهيرين "أسس الماركسية - اللينينية و" في سبيل تكوين بولشفي" .

• عاد فهد إلى العراق مشعباً بهذه الأفكار ومقتنعاً وموئناً بها تماماً ومصمماً على جعلها جزءاً من فكر وممارسات الحزب الشيوعي العراقي . وتقدم إجابات فهد على أسئلة أحد المستفسرين عن بعض القضايا الفكرية والحزبية في كراس "حزب شيوعي لا اشتراكية

183 - لينين ، ف. إ. عن "الديمقراطية" والديكتاتورية. المختارات في عشر مجلدات. المجلد 8. دار التقدم موسكو. 1977. ص 316-322. باللغة العربية.

- لينين ، ف. إ. موضوعات وتقرير عن الديمقراطية البرجوازية وديكتاتورية البروليتاريا. (4 آذار-مارس) في المؤتمر الأول للأممية الشيوعية المنعقد في 2-6 آذار 1919. نفس المصدر السابق. ص 364-388.

ديمقراطية" والمستند في القسم الأعظم منه إلى جملة من إجابات لينين وعلى كتابات ستالين وخطاباته منذ عام 1925 ، أي حين بدأ ستالين تشديد صراعه ضد بعض قياديي الحزب الذين اتهمهم بالتحريفية والانتهازية أو بالخيانة للوطن والحزب .

## المبحث الثاني : فهد والأممية الشيوعية

وإلى جوار المدرسة الحزبية كانت هناك سكرتارية اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية ، الكومنتيرن ، التي كانت تعقد اجتماعاتها ومؤتمرات الأممية واجتماعات أقسامها المختلفة في الاتحاد السوفييتي ، التي كان لها دور ملموس و متميز على فكر ونشاط فهد قبل وبعد سفره إلى موسكو للدراسة الحزبية . ومن المفيد في هذا الصدد أن نتعرف على الأممية الشيوعية بشيء من الاختصار لكي يتسنى لنا تحديد تأثيرها على فهد ، وبالتالي تأثيرها على عملية تأسيس ثم إعادة بناء الحزب الشيوعي العراقي وعلى سياساته ومواقفه العملية .

في أعقاب انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية في روسيا وقيام السلطة السوفييتية الجديدة نشطت الدول الرأسمالية المتقدمة والأوساط الاستعمارية في التآلب على الدولة الجديدة وتنظيم عمليات تدخل عسكرية مباشرة في الشؤون الداخلية من أجل إلحاق الهزيمة بالثورة والسلطة السوفييتية الفتية . ولم تكن خيارات التعبئة والدفاع ومقاومة الغزاة أمام الحزب الشيوعي السوفييتي والسلطة السوفييتية ولينين كثيرة ، بل كانت محدودة حقاً ، خاصة وأن فصائل من الحركة العمالية العالمية ، وخاصة مجموعات من أحزاب الأممية الثانية قد أعلنت عن رفضها للدولة الجديدة ومقاومتها لها ، مما عمق الخلاف بين الأممية الثانية والحزب البولشفي السوفييتي والقوى التي كانت تؤيد هذا الحزب . وإزاء هذا الوضع برزت أمام لينين إمكانية الاستفادة من تلك القوى ، التي وجدت في نشوء الدولة الجديدة انتصاراً للطبقة العاملة لا على صعيد روسيا فحسب ، بل وعلى الصعيد العالمي والتي ساندت الحزب البولشفي في صراعه مع الغالبية العظمى من الأحزاب الاشتراكية حول الموقف من الحرب العالمية الأولى ، حرب توزيع مناطق النفوذ الاستعماري بين الدول الرأسمالية الاستعمارية المتقدمة ، لصالح تعزيز الدولة الجديدة وشن النضال ضد الدول الإمبريالية التي وقفت ضد الثورة والدولة . وتبلور الموقف عند لينين عندما وجه في كانون الأول من عام 1918 الدعوة إلى شيوعيي العالم للمشاركة في العمل من أجل وحدة شيوعيي العالم . "وفي 2 آذار/مارس 1919 بدأ في موسكو الكونغرس الشيوعي الأممي . . . وفي 4 آذار/مارس أعلن أعضاء الكونغرس أنه المؤتمر الأول (التأسيسي) للأممية الشيوعية" 184 . فما هي الأهداف التي كان يتوخاها لينين والحزب الشيوعي السوفييتي والدولة السوفييتية الجديدة من هذه الحركة الأممية الجديدة ، الأممية الثالثة؟ يمكن الإجابة عن هذا السؤال ، استناداً إلى وثائق الأممية الثالثة وخطابات وتقارير

184 ريزنيكوف ، أ. الكومنترن والشرق - الاستراتيجي والتاكتيكات. ترجمة نصير سعيد الكاظمي (عزيز سباهي). مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي. دار الفارابي. بيروت. ط 1. 1987. ص 73.

لينين واللجنة التنفيذية وسكرتاريتها وقرارات مؤتمراتها واجتماعات أقسامها المختلفة ، بما يلي:

- تحديد وإعلان التمايز القائم والمتفاهم بين تلك الأحزاب التي تنتمي إلى الأممية الثالثة الجديدة وتلك التي تنتمي إلى أحزاب الأممية الثانية ، أي أحزاب الاشتراكية الديمقراطية ، انطلاقاً من كون الأولى أحزاباً ثورية والأخرى أحزاباً إصلاحية مساومة ، خاصة وأن أحزاب الأممية الثانية أعلنت عن مواقفها المناهضة للثورة البلشفية وللدولة السوفييتية الجديدة ، علماً بأن بعض أجنحتها اليسارية كانت قد اتخذت مواقف إيجابية من الدولة السوفييتية؛
- تقديم الدعم والتأييد للحزب الشيوعي الروسي (البلشفي) والدولة السوفييتية الفتية في مواجهة النشاط المتفاهم المعادي لهما والساعي إلى إسقاط هذه الدولة ، خاصة وأن النشاط الإعلامي المعادي وحرب التدخل العسكري الدولي قد تفاقما واتخذاً أبعاداً جديدة في سنوات 1919-1922 . وفي ضوء ذلك كان لينين يسعى إلى إيجاد جبهة عالمية تساند الدولة السوفييتية وتناهض الدول الإمبريالية منطلقاً من تقدير أساسي له تبنته فيما بعد الحركة الشيوعية العالمية يؤكد " أن عصرًا جديدًا قد وُلد ! عصر انحلال الرأسمالية ، تفسخها الداخلي . عصر الثورة الشيوعية البروليتارية . "185؛
- تعزيز روح الكفاح المشترك بين فصائل الحركة العمالية وقوى حركة التحرير الوطنية في الشرق استناداً إلى الأهداف المشتركة التي تجمع بينهما ، أهداف النضال ضد الهيمنة الاستعمارية والاستغلال الرأسمالي . وكان لينين قد توصل منذ وقت مبكر إلى استنتاجين بصدد الموقف في آسيا وأفريقيا وعمل من أجل تكريسهما في ستراتييج وتكتيك الأممية الشيوعية يؤكد فيهما ما يلي: " أولهما يتعلق بالأسلوب: المسار السياسي للشيوعيين في الشرق لم يكن أكثر من جزء من الخطة العظمى للتحويل الاشتراكي في العالم التي كان يجري تنفيذها من جانب القوى الثورية الرئيسية في العصر وعلى رأسها الطبقة العاملة . الاستنتاج الثاني أن الشيوعيين لا يمكنهم أن يعززوا بنجاح الجناح الشرقي للعملية الثورية العالمية إلا بانتهاج سياسة التحالف مع القوى غير البروليتارية المعادية للإمبريالية من الشعوب المضطهدة بشرط التقيد الصارم بالمحافظة على استقلال حركتهم وصيانتها . وقد كان يراد بهذه الاستنتاجات كامل عهد التحويل الاشتراكي للعالم "186؛
- العمل الجاد والواسع والمركز من أجل تشكيل أحزاب شيوعية في مختلف بقاع العالم ودفعها للعمل لمساندة الثورة الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي من خلال تبني قضاياها

185 ريزنيكوف ، أ. الكومنترن والشرق - الاستراتيجي والتاكتيكات. نفس المصدر السابق. ص 73.

186 نفس المصدر السابق. ص 420/419.

الوطنية المناهضة للاستعمار وتنشيط نضالها ضد الدول الرأسمالية المستعمرة ، إضافة إلى الكشف عن أهداف الاستعمار العالمي في محاربة الثورة الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي؛

- تعبئة الرأي العام الوطني في كل بلد من البلدان والرأي العام العالمي في النضال ضد الاستعمار العالمي والرأسمالية الدولية ، وتقديم التأييد والدعم المباشر وغير المباشر للثورة الاشتراكية والسلطة السوفييتية . وكان هذا يعني عدم التفريط بقوى البرجوازية الوطنية والبرجوازية الصغيرة في البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة ، بل العمل معها من أجل تحقيق تلك الأهداف .

ولم يخف لينين هذه الأهداف ، بل بسطها في كل خطابه ومناقشاته في المؤتمرات التي تسنى له حضورها أو الكتابة لها . إذ كانت لأهداف التأسيس هذه دورها البارز في التأثير على مضمون وقرارات مؤتمرات الأممية الشيوعية ، خاصة وأن لينين والحزب الشيوعي الروسي (البولشفي) لعبا دوراً مركزياً موجهاً ومقررراً للاتجاهات الفكرية والسياسية والنضالية للأممية الشيوعية خلال فترة وجود لينين على رأس الحزب والدولة السوفييتية ، ثم تحول هذا الدور إلى ستالين فقط بعد تسلمه قيادة الحزب والدولة السوفييتية عملياً .

ويمكن الاستدلال على ما أشير إليه في أعلاه في تلك الصياغة التي وضعها لينين محدداً العلاقة بين الدولة السوفييتية الجديدة وحركة التحرر الوطني حين كتب في تقريره إلى المؤتمر الثاني لعامة روسيا للمنظمات الشيوعية لشعوب الشرق يقول: "إن موضوع تقريره هو الوضع الراهن ، ويخيل إلي أن النقطة الجوهرية في هذا الوضع هي اليوم موقف شعوب الشرق من الاستعمار والحركة الثورية بين هذه الشعوب . وغني عن القول أن حركة شعوب الشرق الثورية هذه ، إذا لم تكن على صلة وثيقة بالنضال الثوري الذي تخوضه جمهوريتنا السوفييتية ضد الاستعمار العالمي ، لا يمكنها أن تتطور اليوم بنجاح ، كما لا يمكنها أن تجد حلها . . . ولذلك فإن مجرى الأحداث المتوقعة في المستقبل القريب ينبئ بأن النضال ضد الاستعمار العالمي سيتسع ويشتد وبأنه سيكون حتماً على اتصال بنضال الجمهورية السوفييتية ضد قوى الاستعمار الموحد -ألمانيا ، فرنسا ، إنجلترا وأمريكا" 187 . هذا وجه واحد من العملة ، أما الوجه الثاني فقد برز في قول لينين بوضوح تام: "ينبغي أن ندرك كل الإدراك أنه لا يمكن للطليعة وحدها أن تحقق الانتقال إلى الشيوعية . المهمة هي أن نوظف في جماهير الكادحين النشاط الثوري الذي يحفزها إلى العمل والتنظيم بصرف النظر عن مستوى هذه الجماهير ، وأن ننقل إلى لغة كل شعب التعاليم الشيوعية الحقة المعدة للشيوعيين في البلدان الأرقى ، وأن

---

187 لينين. ف. إ. حركة شعوب الشرق الوطنية التحريرية. دار الطباعة والنشر باللغات الأجنبية. موسكو. بدون تاريخ. ص 317/316.



نحقق المهام العملية التي تتطلب التحقيق دون إبطاء وأن نندمج في النضال العام مع بروليتاريا البلدان الأخرى" 188 .

وكانت الحركة الثورية الأوروبية حينذاك في نشاط ملموس ومتصاعد حتى أنها هددت من خلال نشاطاتها العديد من الحكومات البرجوازية الأوروبية . "ففي كانون الثاني /يناير 1918 أضرب ما يقرب من مليوني عامل في النمسا والمجر وألمانيا ضد الشروط المجحفة التي قدمت إلى روسيا السوفيتية لعقد صلح بريست . وفي الشهر ذاته اندلعت ثورة بروليتارية في فنلندا واستمرت الحكومة العمالية قائمة فيها حتى (أيار) . وفي أيلول/سبتمبر من ذلك العام حدث تمرد عسكري في الجيش البلغاري لم تستطع الحكومة إخماده إلا بمعونة قوات أجنبية . وفي أكتوبر ونوفمبر/تشرين أول وتشرين ثاني أطيح بالملكية النمساوية - الهنغارية بعد الاندحار العسكري وكثيرة للنهوض في الحركة الثورية . واندلعت ثورة في ألمانيا في نوفمبر/تشرين الثاني ... . واكتسحت حركة إضرابات جماهيرية عديداً من الدول الأوروبية في أوائل 1919 . وبدأت تتحرك الشعوب المضطهدة في الشرق: وأكثر هذه الحركات أهمية كانت حركة الرابع من أيار في الصين ، وأحداث أمرتسار في الهند والانتفاضة في كوريا . وانطلقت شعوب تركيا وإيران وأفغانستان ومنغوليا إلى النضال التحرري" 189 .

دفع كل ذلك لينين إلى القول من على منصة نفس المؤتمر ما يلي: "يعلم الجميع أن الثورة الاجتماعية تنضج في أوروبا الغربية لا من يوم ليوم ، بل من ساعة لأخرى ، وأن الشيء نفسه يجري في أمريكا وإنجلترا ، في هذين البلدين اللذين يزعم أنهما ممثلا الحضارة والمدنية ، في البلدين المنتصرين على الهون الاستعماريين الألمان ، ... "190 ، ثم قال في مكان آخر "إذ يتضح كل الوضوح أن الثورة الاشتراكية التي تختمر في جميع بقاع العالم لن تكون قط مجرد انتصار للبروليتاريا في كل بلد على برجوازياتها ... ، إنما ستكون نضالاً من قبل جميع المستعمرات والبلدان التي يظلمها الاستعمار ، نضالاً من قبل جميع البلدان التابعة ضد الاستعمار العالمي." 191 .

وعبر عن أهمية التحالف بين الحركة العمالية العالمية والاتحاد السوفييتي من جهة ، وحركة التحرر الوطني من جهة أخرى في الموضوعات التي قدمها في مشروع المبادئ في المسألة الوطنية ومسألة المستعمرات إلى مؤتمر الأمم المتحدة الثاني ، بعد أن طرح المبادئ التي يفترض أن تلتزم بها أحزاب الأمم المتحدة الثالثة ، حين كتب يقول:

188 نفس المصدر السابق. ص 331.

189 ريزنيكوف ، أ. الكومنترن والشرق - الاستراتيجي والتكتيكي. مصدر السابق. ص 72.

190 لينين ، ف. إ. تقرير في المؤتمر الثاني لعامة روسيا للمنظمات الشيوعية لشعوب الشرق. في كتاب حركة شعوب الشرق الوطنية التحريرية . دار الطبع والنشر باللغات الأجنبية. موسكو. بدون تاريخ. ص 322.

191 لينين ، ف. إ. نفس المصدر السابق. ص 327.

"... ينبغي على الأممية الشيوعية أن تجعل من التقارب بين البروليتاريين وجماهير الكادحين في جميع الأمم والبلدان بغية النضال الثوري المشترك من أجل إسقاط الإقطاعيين والبرجوازية حجر الزاوية لكامل سياستها في المسألة الوطنية ومسألة المستعمرات . ذلك لأن هذا التقارب هو الأمر الوحيد الذي يضمن الانتصار على الرأسمالية ، وبدون هذا الانتصار يستحيل القضاء على الظلم الوطني وعدم المساواة الوطنية" 192 .

كما أكد لينين في هذه الموضوعات أهمية تقديم الأحزاب الشيوعية في البلدان الاستعمارية ، التي تنتسب فعلاً أو التي تريد الانتساب إلى الأممية الشيوعية ، أن تدعم نضال شعوب البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة والتابعة دون قيد أو شرط ضد مستعمراتها ومغتصبي حقوقها ، كما رفض الحجج التي تقول بأنها ستتهم بالخيانة من قبل عمال بلدانها ، في رده على مندوب الحزب الاشتراكي البريطاني ، كفيلتش ، عضو اللجنة المختصة بالمسألة الوطنية ومسألة المستعمرات في اجتماعات المؤتمر الثاني للأممية الشيوعية 193 .

وفي مشروع المبادئ في المسألة الوطنية ومسألة المستعمرات أثار لينين عدة قضايا كان لها التأثير الملموس على عمل ونقاشات الماركسيين والحلقات الماركسية في العشرينات من القرن العشرين ، بما فيها حواراتهم وكتاباتهم ، ومنها موضوع علماء الدين . في النقطة 11 من هذا المشروع كتب لينين يقول:

" 11 . وبالنسبة للدول والأمم الأقل تطوراً ، حيث تسود العلاقات الإقطاعية أو البطريركية والبطريركية-الفلاحية ، ينبغي أن لا يغرب عن البال بوجه خاص:

أولاً: ضرورة مساعدة جميع الأحزاب الشيوعية للحركة التحريرية البرجوازية الديمقراطية في هذه البلدان؛ وواجب تقديم أنشط المساعدة يلقي بالدرجة الأولى على العمال في البلاد التي توجد الأمة المتأخرة في وضع مستعمرة لها أو في حالة تبعية مالية؛

ثانياً: ضرورة النضال ضد علماء الدين وغيرهم من عناصر الرجعية والقرون الوسطى ذوي النفوذ في البلدان المتأخرة؛

ثالثاً: ضرورة النضال ضد الجامعة الإسلامية وما شاكلها من التيارات التي تحاول ربط الحركة التحريرية المناهضة للاستعمار الأوروبي والأمريكي بتوطيد مراكز الخانات والإقطاعيين والشيوخ الخ؛

رابعاً: ضرورة تأييد حركات الفلاحين الصريف المناضلة في البلدان المتأخرة ضد كبار ملاكي الأراضي والملكية الكبيرة للأرض وضد كل مظهر من مظاهر الإقطاعية أو بقية من

192 لينين ، ف. إ. مشروع المبادئ في المسألة الوطنية ومسألة المستعمرات (إلى المؤتمر الثاني للأممية الشيوعية. في 5 حزيران/يونيو 1920. نفس المصدر السابق. ص 350.

193 نفس المصدر السابق. ص 373/374.

بقاها ، والسعي لإعطاء حركة الفلاحين طابعاً ثورياً ما أمكن مع تحقيق تحالف وثيق ما أمكن بين البروليتاريا الشيوعية في أوروبا الغربية وحركة الفلاحين الثورية في الشرق ، في المستعمرات والبلدان المتأخرة بوجه عام... "194 .

إن هذا التوسع في إيراد المقتطفات من خطب ومشروعات لينين ، التي تحولت عملياً إلى قرارات للأممية الشيوعية حينذاك ، يراد به ربط مضامين تلك المقتطفات بالسياسات العملية التي مورست في العراق من قبل أعضاء الحلقات الماركسية ، ومنهم بشكل خاص فهد ، في العشرينات ، ومن ثم التحولات التي طرأت على تلك المواقف في الثلاثينات والأربعينات .

وخلال الفترة الواقعة بين 1919 ،-1924 ، أي في الفترة التي كان لينين على رأس الحزب الشيوعي الروسي (البولشفي) ، عقدت الأممية الشيوعية خمسة مؤتمرات متتالية لم تتغير فيها الاتجاهات الأساسية وحافظت على مضامينها إزاء حركات التحرر الوطني التي تميزت بالاعتدال عموماً ، رغم الزخم الثوري الذي تضمنته ، الذي ربما تجاوز قدرات حركات التحرر الوطني على تحملها والإيفاء بها ، ورغم الممارسات اليسارية الانعزالية التي تجلت في كتابات ونشاطات الرواد الأوائل في مختلف البلدان ، ومنها العراق . ومنذ عام 1924 حتى حل الكومنتيرن لم تعقد الأممية الثالثة سوى مؤتمرين هما المؤتمر السادس ، إذ عقد في عام 1928 ، والمؤتمر السابع ، الذي عقد في عام 1935 ، أي في فترة وجود يوسف ستالين على رأس الحزب الشيوعي السوفييتي والدولة السوفييتية .

واستناداً إلى الاتجاهات والمهام الأساسية التي شخصتها المؤتمرات الخمسة في فترة لينين ، انطلق الدعاة الذين شاركوا في تلك المؤتمرات أو الذين أعدوا لهذا الغرض ، إلى عدد كبير من بلدان المستعمرة وشبه المستعمرة ينشرون الفكر الماركسي ويدعون إلى الثورة ضد الاستعمار ودعم الدولة السوفييتية الجديدة . وكان بعض هؤلاء الدعاة من أبناء ذات البلدان المستعمرة . كما وصل منهم إلى العراق والأقطار العربية ممن كان قد حضر المؤتمر الثاني للأممية الشيوعية أو اطلع على تلك التقارير والقرارات . ومن بين من حمل راية هذا الدعوة بيوتر فاسيلي ، الذي وصل العراق في عام 1922 ، حاملاً معه أفكار وروح الأممية الشيوعية ، وتنقل في بعض مدنه ، ومنها البصرة . وهناك تعرف على فهد والمجموعة التقدمية والماركسية الجديدة . وتلقفت مجموعات من العراقيين تلك الأفكار عبر هذا الطريق وطرق أخرى عديدة وتبنتها باتجاهات مختلفة وسعت إلى التعبير عنها بأساليب عديدة أيضاً . ومن بين هؤلاء نشأت وتطورت تلك الحلقات الماركسية في العديد من المدن العراقية .

وفي أعقاب موت لينين وتفاقم الصراع الداخلي في الاتحاد السوفييتي بين مختلف التيارات في الحزب الشيوعي السوفييتي ، اتخذت قيادة الحزب ، التي كان يوسف ستالين يقف على رأسها

، قرارات جديدة في مجال تكثيف وتوسيع عمليات التصنيع وتنشيط التجارة الخارجية وتحقيق جملة من المهمات المباشرة ، كما قررت تنشيط الكفاح ضد من اتهموا بخيانة الحزب والدولة السوفييتية . وانعكس كل ذلك على الأهمية الشيوعية ونشاطها ودورها وما نشرته من كتابات ابتداءً من عام 1925 . ففي العدد التاسع/ السنة الخامسة 1925 من صحافة الأهمية الدورية Internationale Presse Korrespondenz نشر بحث مطول عن الأسس الأيديولوجية للتروتسكية بقلم بيلا كون ، كما امتلأت الصحافة السوفييتية بدراسات حول هذا الموضوع . واتخذ المؤتمر السادس للأهمية الشيوعية في عام 1928 جملة من القرارات المتشددة بشأن التكتلات الماركسية غير اللينينية ، إذ كان ستالين قد بدأ بتشديد كفاحه باتجاهين ضد أحزاب الأهمية الثانية ، باعتبارها ذات اتجاهات يمينية تساومية مع الرأسمالية العالمية ، وضد الاتجاهات التروتسكية ، باعتبارها حركة ذات اتجاهات يسارية متطرفة ومطية من مطايا الإمبريالية العالمية في صفوف الطبقة العاملة العالمية . فكانت قرارات المؤتمر السادس للأهمية الشيوعية ذات طبيعة انعزالية يسارية ناشئة عن المواقف والقرارات التي اتخذتها اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي بقيادة ستالين التي تمثلت بإجراء التحولات الجذرية في الزراعة الفردية إلى الزراعة التعاونية والجماعية الحكومية -الكولخوزات والسوفخوزات- التي عمقت المشكلات السياسية والاقتصادية في البلاد السوفييتية ، والتي تلت قرارات التصنيع المكثف والواسع الذي اتخذته الحزب في عام 1925 وتجلى في برنامج 1926-1929 . وكان لهذه المواقف الجديدة تأثيراتها المباشرة على الحركة الوطنية والديمقراطية في البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة ، ومنها العراق ، حيث تميزت النشاطات العامة للحلقات الماركسية بتلك الأجواء الفكرية التي سادت الأهمية الشيوعية في العشرينات . ولكن هذا الخط اليساري الانعزالي لم يستمر طويلا ، إذ سرعان ما أجبرت وقائع الحياة تغييره على صعيد الأهمية الشيوعية ، رغم أنه لم يتغير كثيراً على صعيد الدولة السوفييتية والحزب الشيوعي السوفييتي ، وفي حياة ونشاط وأساليب عمل يوسف ستالين ، قائد الحزب والدولة السوفييتية وقائد الحركة الشيوعية العالمية عملياً . ويبدو مفيداً أن نتناول بعض الاتجاهات اليسارية الانعزالية التي تميزت بها سياسة الأهمية الشيوعية قبل المؤتمر السادس وبعدها حتى تعديل بعض تلك الاتجاهات بشكل واسع النطاق منذ عام 1934 وتكرست في المؤتمر السابع عام 1935 .

فرضت وقائع التطور في البلدان الأوروبية على الأحزاب الشيوعية والعمالية المنتسبة إلى الأهمية الشيوعية تغيير مسارها السياسي ونشاطها العملي ، وأجبرت اللجنة التنفيذية للأهمية ، ابتداءً من عام 1932 ، على إعادة النظر باتجاهاتها الفكرية وممارساتها العملية على صعيد الحركة الشيوعية العالمية وسياسات أحزابها الوطنية . وابتداءً من عام 1933 تم تشكيل لجنة

لصياغة الموضوعات الجديدة بشأن عدد من المسائل الأساسية ، وبشكل خاص حول الهجوم الذي بدأت تشنه الفاشية في أوروبا ، ومخاطر نشوب حرب استعمارية جديدة ، وحول التحالفات الطبقية والوطنية على الصعيدين الوطني والأممي لمواجهة هذين الخطرين الداهمين

ابتداءً شخص المؤتمر السابع بأن المؤتمر السادس للأممية الشيوعية انتهج خطأ يسارياً انعزالياً غير مبرر وطنياً ودولياً وغير مفهوم من الأوساط الشعبية في عدد من المسائل الجوهرية ، منها على سبيل المثال لا الحصر:195

• الموقف من الأممية الثانية والأحزاب الاشتراكية الديمقراطية ، وبشكل خاص من جماهير هذه الأحزاب ، وخوض صراعات غير مبررة وعدم التفتيش عن نقاط الالتقاء معها في مواجهة الأوضاع الجديدة ، خاصة وأن الفاشية استطاعت أن تحرز مواقع مهمة في أوروبا ومنها إسبانيا والنمسا . لقد سارت الأممية الشيوعية منذ مؤتمرها السادس وفق الاتجاه الانعزالي الخاطئ والمضر الذي رسمه لها ستالين في الموقف من الاشتراكية الديمقراطية إذ اعتبرها "كتوأم للفاشية" ، وضرورة توجيه الهجوم الأساسي نحو الاشتراكية الديمقراطية والقومية الإصلاحية ، واعتبار الاتجاه اليساري في الحركة الاشتراكية الديمقراطية الخطر الذي يهدد النضال ضد الإمبريالية أو تفسير الجبهة الموحدة على أنها تحالف سياسي يمكن ويجب أن تقام في كل الظروف من "الأسفل" فقط وبقيادة الحزب الشيوعي فقط196 . ولا بد من الإشارة إلى أن أحزاب الأممية الثانية هي الأخرى لم تكف عن اعتبار الأحزاب الشيوعية أو البولشفية عدوها السياسي الذي ينبغي التخلص منه إذ اعتبرتها الخطر الذي يهدد السلام في العالم197؛

• الاعتقاد بأن البروليتاريا في المستعمرات وأشباه المستعمرات قد أحرزت بالفعل قيادة حركة التحرر الوطني ، وأن النضال يفترض أن يتوجه صوب إقامة سلطة العمال والفلاحين ضد البرجوازية الوطنية باعتبارها قوة رجعية مكشوفة والنظر إلى جناحها اليساري كقوة خطيرة للغاية يفترض توجيه النضال ضدها198 . وكان هذا لا يعني سوى أن الفئات المتوسطة في المجتمع لم تعد قادرة على خوض النضال وقيادته ، وأن على الطبقة العاملة وحزبها قيادة هذا النضال ، "وأن الانتفاضات الوطنية الظاهرة في هذه البلدان قد تفتح

---

195 VII. Weltkongress der kommunistischen Internationale. Resolutionen und Beschlüsse. Verlagsgenossenschaft auslaendischer Arbeiter in der UdSSR. Moskau-Leningrad. 1935. S. 3-8.

196 ريزنيكوف ، أ. الكومنترن والشرق - الاستراتيجي والتكتيكات. مصدر السابق. ص 416.

197 نفس المصدر السابق. ص 363.

198 نفس المصدر السابق. ص 385.

- الطريق أمام تطورها المباشر نحو الاشتراكية وتجنبها مرحلة الرأسمالية ، شريطة أن تقدم لها مساعدة حقيقية وجبارة من تلك البلدان التي أقيمت فيها دكتاتورية البروليتاريا . "199؛
- إهمال العمل بين الشباب والنساء رغم الأهمية البالغة لهذه المجالات ، إضافة إلى إهمال العمل بين الفلاحين والمتقنين؛
  - التأخر في ممارسة سياسة التحالفات السياسية مع القوى الأخرى لمواجهة الهجوم الفاشي في السياسات الداخلية للدول الأوروبية؛
  - التدخل في سياسات الأحزاب الشيوعية الداخلية من جانب الأهمية الشيوعية؛
  - ممارسة الأساليب والتقاليد القديمة في العمل الحزبي والسياسي وفي الدعاية والتحريض ، رغم التغيرات التي طرأت على الأوضاع الداخلية والدولية .
- ومما هو جدير بالإشارة إلى أن ستالين قد طرح ولأول مرة من على منصة المؤتمر السادس للأهمية الشيوعية الذي عقد في الفترة الواقعة بين 17 تموز والأول من أيلول عام 1928 ، على الحزب والشعب السوفييتي إضافة اللينينية إلى الماركسية ، بحيث تصبح مثلاً في ضوء الماركسية-اللينينية باعتبارها ماركسية القرن العشرين ، ماركسية عصر الإمبريالية والثورة الاشتراكية . وكانت هذه الخطوة الأولى على طريق إضافة الستالينية إلى اللينينية في المؤتمر السابع للأهمية الشيوعية ، كما أنه كان وراء القسم الأعظم من الأطروحات التي أقرت في المؤتمر السادس للأهمية الشيوعية .200
- طرح المؤتمر السابع للأهمية الشيوعية خطأً جديداً في موضوع التحالفات الطبقة والسياسية في ضوء التحولات الجارية على الصعيد العالمي ، وخاصة في أعقاب وصول الحزب النازي

199 نفس المصدر السابق. ص 366.

200 ملاحظة: صدر في منتصف العقد التاسع من القرن العشرين كتاب باسم "الكومنترن والشرق - إستراتيج والتكتيكات لمؤلفه أ. ريزنيكوف. وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية من نصير سعيد الكاظمي (عزيز سباهي) ونشر عن مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي في دمشق ودار الفارابي في بيروت في عام 1987. وعندما يقرأ الإنسان هذا الكتاب سيصطدم بحقيقة مؤسفة هي أن مؤلف هذا الكتاب ، الذي تحدث عن الأهمية الشيوعية منذ تأسيسها في عام 1919 حتى حلها في عام 1943 لم يورد اسم ستالين حتى ولا مرة واحدة في هذا الكتاب الذي بلغت صفحاته 432 صفحة. وهذا الكاتب يعرف تماماً بأن ستالين قد تسلم قيادة الحزب الشيوعي في عام 1924 ، كما تسلم عملياً قيادة الأهمية الشيوعية في أعقاب موت لينين ، وأنه قد لعب الدور الأساسي في تحديد الخط العام للحزب ابتداءً من عام 1925 ، وبشكل خاص في تقريره الرئيسي إلى المؤتمر الخامس عشر للحزب الشيوعي أكتوبر/تشرين أول- نوفمبر/تشرين ثاني 1926 ، ومن ثم في الاجتماع الموسع السابع للجنة التنفيذية للأهمية الشيوعية الذي عقد في موسكو في عام 1926 أيضاً. وبالتالي فالمؤلف يرتكب خطيئتين في أن واحد ، وهما: أولاً: تزوير التاريخ من خلال تجاوز الأحداث الحقيقية والشخصيات التي لعبت دوراً أساسياً في مرحلة معينة بغض النظر عن مدى صواب أو خطأ ما حصل منهم ، وفي هذا الصدد يكون الكاتب قد تجاوز أو تناسى دور ستالين الأساسي والرئيسي في هذه الفترة قصداً ومع سبق إصرار؛ وثانياً: أنه يعفي عملياً ستالين ، ومعه بقية قيادة الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي ، إذ كانا الموجهان الفعليان لسياسة الأهمية الشيوعية حينذاك على امتداد فترة وجود ونشاط الكومنترن ، من الأخطاء الفادحة التي وقعت في هذه المرحلة. كما أن هذا الأسلوب في التحليل التاريخي لا يقدم الدروس الضرورية والغنية لما نجم عن سيادة عبادة الفرد ودور هذا التقديس للفرد في صياغة القرارات الفردية وفي فرضها بمختلف الأساليب والطرق على الآخرين ، أو القبول بها لا تحت تأثير فهم المبادئ بقدر ما هو إيمان وعقيدة بعدم ارتكاب القائد الفرد أخطاءً وأنه الأكثر وعياً وقدرة على فهم وتحليل الأحداث واتخاذ القرارات. وفي هذا تجاوز على الماركسية والمنهج المادي الديالكتيكي والمادي التاريخي ، أو المنهج العلمي في التحليل.

إلى السلطة في ألمانيا في عام 1933 ، رغم أنه فشل في الوصول إلى السلطة في عام 1932 . إذ عجز الحزب الشيوعي الألماني والحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني عن إيجاد قواسم مشتركة للتعاون في ما بينهما لعرقلة مجيء الهتلرية إلى السلطة ، رغم وجود مهمات وطنية وطبقية كثيرة كانت تستوجب تحقيق مثل هذا التعاون . وكانت الاتهامات والمهاترات المتبادلة تعيق أي شكل من أشكال التعاون بينهما . وكانت لهذه التجربة القاسية التي سمحت للهتلرية بالفقز إلى السلطة تأثيرها البالغ على الأممية الشيوعية ودفع الأحزاب الشيوعية إلى ممارسة سياسات تتسم بالرغبة في التحالف مع الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية وغيرها من القوى الديمقراطية لمنع وصول الأحزاب الفاشية الأوروبية إلى السلطة ومجابهة سياسات الحرب التي كانت تبدو في الأفق . وكانت أحداث عام 1934 ومحاولات الوصول إلى السلطة من جانب الأحزاب الفاشية في عدد من البلدان الأوروبية ، ومنها فرنسا والنمسا وأسبانيا والبرتغال مثل ، دافعاً إضافياً للعمل من أجل تحقيق سياسات الجبهة الشعبية . وإذ فشل الحزب الفاشي في فرنسا تحقيق ذلك ، نجح الفاشيون النمساويون في تحقيق هذا الهدف وتمكنوا من دحر مقاومة العمال الشيوعيين والاشتراكيين وبقية المناضلين ضد الفاشية . واجه المؤتمر السابع للأممية الشيوعية هجوماً واسعاً من جانب القوى الفاشية على الدول الأوروبية ، فكان عليه أن يتحرك لصد هذه الهجوم ومنع تطور الأحداث باتجاه الهيمنة الفاشية وإثارة حرب عالمية جديدة . وفي ضوء نشاطات اللجنة التحضيرية للإعداد للمؤتمر السابع للأممية منذ عام 1933/1934 قدمت ثلاثة تقارير أساسية إلى المؤتمرين والمراقبين ، وهي:

• تقرير القائد الشيوعي الألماني وعضو هيئة رئاسة اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية فيلهلم بيك (1876-1960) الذي استعرض فيه نشاط اللجنة التنفيذية خلال الفترة الواقعة بين المؤتمر السادس والمؤتمر السابع للأممية مشيراً إلى النجاحات التي تحققت للحركة الشيوعية العالمية من حيث التوسع الأفقي وعدد الأحزاب التي شكلت في الفترة المنصرمة ، ثم التطورات الجارية في مواقف الأحزاب من حيث شعاراتها وأساليب عملها منتقداً بعض الشعارات والأساليب المتخلفة والانعزالية التي تلحق أضراراً فادحة بالحركة الشيوعية في كل من تلك البلدان والتي لم تكن تنسجم مع المرحلة الجديدة والتحويلات الجارية على الصعيد العالمي والمخاطر التي تجابه العالم .

• تقرير القائد الشيوعي البلغاري وعضو هيئة رئاسة اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية والسكرتير العام للكومنتيرن جيورجي ديمتروف (1882-1949) الذي برز فيه المهمات العاجلة التي تواجه الحركة الشيوعية العالمية وأحزابها مؤكداً على الموضوعة الرئيسية للمؤتمر ، وهي إقامة التحالفات الشعبية والوطنية لمواجهة مخاطر الفاشية والحرب العالمية المحتملة . وكان على ديمتروف أن يؤكد بأن المهمة ليست في دفاع الشيوعيين عن أحزابهم

وبلدانهم ، بل في شن الهجوم على الفاشية والعدو الطبقي ومنعهما من اكتساح البلدان الأوروبية ، إذ أن الهجوم وبهذا المعنى خير وسيلة للدفاع عن النفس والوطن . وقال في تقريره: "بسبب الأوضاع الداخلية والدولية المستجدة ، تستحوذ مسألة الجبهة المتحدة المعادية للإمبريالية على أهمية خاصة في كافة البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة . ومن الضروري عند تشكيل الجبهة المتحدة المعادية للإمبريالية ، أن يؤخذ بعين الاعتبار ، قبل كل شيء اختلاف الظروف التي يجري فيها النضال الجماهيري المعادي للإمبريالية ، ودرجة اختلاف نضج حركة التحرر الوطني ، ودور البروليتاريا فيها ، ونفوذ الحزب الشيوعي على الجماهير العريضة" 201 . وإذ كانت الأحزاب الشيوعية تطالب باستمرار في أن تكون القائد للجبهات الوطنية في مختلف بلدان العالم ، فإن المؤتمر السابع للأمم المتحدة قد أشار مستوعباً الظروف الجديدة وداعياً الأحزاب الشيوعية إلى عدم التثبث بمثل هذا الموقف ، وخاصة تلك الأحزاب الشيوعية الجديدة التي تكونت لتوها في البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة والقبول بغير ذلك ، إذ دعاها إلى تجاوز هذا المطلب و "إلى المساهمة في كافة الأعمال الجماهيرية المعادية للإمبريالية - حتى لو كانت تجري تحت إشراف العناصر القومية - الإصلاحية ، والعمل على دعم هذه الأعمال والسعي في سبيل توسيع نطاقها" 202

• تقرير القائد الشيوعي الإيطالي وعضو سكرتارية الأمم المتحدة الشيوعية (1893-1964) الذي تناول فيه موضوع الحرب والإمبريالية وعلاقتها بالفاشية وأهمية خوض النضال ضدها لضمان إبعاد خطر الحرب واستتباب السلام في العالم .

وفي إطار مناقشات المؤتمر للموضوعات الرئيسية طرحت مجموعة من الأفكار حول النضال الذي تخوضه الشعوب المستعمرة وشبه المستعمرة في سبيل حريتها واستقلالها وتطورها الديمقراطي شارك فيه العديد من الممثلين بمن فيهم المندوب الصيني والمندوب العربي . 203 وتدرجت الأمم المتحدة الشيوعية في إبراز ستالين كقائد للحركة الشيوعية العالمية من خلال نشاط السكرتارية واللجنة التنفيذية ، إذ كان مقرهما في موسكو . وفي المؤتمر السابع للأمم المتحدة أفصحت بشكل واضح عن تنامي دور وفكر وتأثير ستالين على نشاط الأمم المتحدة الشيوعية . فقد جاء في قرارات المؤتمر السابع بشأن الوضع في الاتحاد السوفييتي فقرة تتضمن ثلاثة

201 ديمتروف ، جيورجي . هجوم الفاشية ومهمات الأمم المتحدة الشيوعية في النضال من أجل وحدة الطبقة العاملة ضد الفاشية . في : مجلة الثقافة الجديدة مقالة للدكتور ماهر الشريف . فلسطين والمشرق العربي في نقاشات المؤتمر السابع للأمم المتحدة الشيوعية . العدد 125 . مصدر سابق . ص 29 .

202 نفس المصدر السابق . ص 29 .

203 الشريف ، ماهر د . فلسطين والمشرق العربي في نقاشات المؤتمر السابع للأمم المتحدة الشيوعية . القسم الأول . في : مجلة الثقافة الجديدة . الحزب الشيوعي العراقي . العدد 125 . تشرين الأول/كانون الأول 1980 . ص 34 .



مؤشرات على بروز شديد لعبادة ستالين بعد البدء بالتحضير له من خلال عبادة شخص لينين ، وهي:

- الإشارة الواضحة والصريحة إلى اللينينية-الستالينية في المسألة القومية ، بعد أن كان الحديث يجري منذ عام 1928 عن اللينينية فقط ، وقبل ذلك عن الماركسية فقط؛
  - التمجيد بالقائد الشيوعي الحكيم والذي ناضل جنباً إلى جانب مع لينين العظيم ، الرفيق يوسف ستالين ، وربط انتصار الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي بقيادته الحكيمة ، لقد كانت عملية تأليه ملموسة للفرد ، لشخص ستالين ، التي اتخذت أبعاداً جديدة في الحرب الوطنية ضد الفاشية وفي أعقاب الانتصار عليها؛
  - اعتبار القائد الحكيم الرفيق يوسف ستالين ليس قائداً للحزب الشيوعي السوفييتي والشعب السوفييتي فحسب ، بل وقائداً للحركة الشيوعية العالمية وللبروليتاريا في العالم .
- ورد في قرار المؤتمر السابع للأمم المتحدة الشيوعية النص التالي: "إن انتصار الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي هو انتصار له مغزاه الدولي ، فانتصار الاشتراكية ، الذي تحقق للشغيلة والفلاحين التعاونيين في الاتحاد السوفييتي ، جاء بدعم من البروليتاريا العالمية ، وتحت قيادة أفضل رفيق نضال للينين العظيم ، القائد الحكيم لشغيلة العالم أجمع ، الرفيق ستالين ، وهو تأكيد على التحول العميق الجاري في وعي شغيلة جميع البلدان ، ... "204 .
- لخص المؤتمر السابع للأمم المتحدة الشيوعية قراراته بالمهام الجديدة التالية ، التي يفترض في الأحزاب الشيوعية تحمل عبء النهوض بها في البلدان المختلفة ، وهي:
- العمل من أجل إقامة التحالفات الجبهوية الشعبية والوطنية في ضوء واقع وإمكانات ومستوى تطور الحركة للنضال الدؤوب ضد الفاشية والحرب باعتبارهما الخطرين الداهمين؛
  - العمل الجاد للتخلص من تقاليد وأساليب عمل الماضي والتحري عن نقاط التقاء مع قواعد الأحزاب العمالية الأخرى ، أي الحركة الاشتراكية الديمقراطية؛
  - تنشيط العمل بين الشباب والنساء والفلاحين من خلال إعلان الالتزام بالمهام الآتية التي تمس حياة ونشاط ومصالح وظروف عمل هذه الجماعات البشرية الكبيرة؛
  - تعبئة الجماهير الواسعة للدفاع عن أمن وسلامة واستمرار وجود وتطور الدولة السوفييتية الجديدة باعتبارها حصن السلام والأمن والدفاع عن مصالح الشغيلة ، من خلال تشديد

---

204 VII. Weltkongress der kommunistischen Internationale. Resolutionen und Beschlüsse. Verlagsgenossenschaft auslaendischer Arbeiter in der UdSSR. Moskau-Leningrad. 1935. S. 54.

الكفاح والتعاون في ما بين الحركة العمالية العالمية وحركة التحرير الوطنية في البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة .

وفي أعقاب المؤتمر السابع عقدت سكرتارية اللجنة التنفيذية للأمم المتحدة الشيوعية اجتماعات إقليمية غير قليلة ، ومنها اجتماعين في عام 1936 بحضور مندوبين عن الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية خصصا لدراسة موضوعات عديدة منها قضية تنظيم الصلات والعلاقات في ما بين تلك الأحزاب وبينها وبين مكتب سكرتارية اللجنة التنفيذية ، ومهمات هذه الأحزاب في البلدان العربية في ضوء قرارات المؤتمر السابع للأمم المتحدة ، إضافة إلى بحثها موضوعات مثل الوحدة العربية وفكرة إقامة حزب شيوعي عربي موحد . وعقد هذان الاجتماعان باشتراك عدد من أبرز قادة الأمم المتحدة الشيوعية مثل "ديميتروف" و "كوسينين" و "مانويلسكي" 205 .

• سبل تعزيز وجود ونشاط الأحزاب الشيوعية في مختلف بلدان العالم لتنشيط النضال ضد الإمبريالية والهيمنة الاستعمارية وفي سبيل استقلال وسيادة تلك البلدان ،

• سبل مساندة الاتحاد السوفييتي كأول دولة اشتراكية مظفرة في العالم والتصدي للدعاية المضادة؛

• سبل النضال ضد الحرب والفاشية ، خاصة بعد وصول هتلر إلى السلطة وهيمنة الحزب النازي على الدولة والمجتمع والرايخشتاغ (المجلس النيابي الملكي الألماني ) ، كما كان موسوليني في السلطة ، إضافة إلى تفاقم نشاط العسكرية اليابانية؛

• تأسيس الجبهات الشعبية بين الأحزاب الشيوعية والاشتراكية الديمقراطية والقوى القومية الإصلاحية ، إضافة إلى تشكيل الجبهات الوطنية في المستعمرات وأشباه المستعمرات بين الأحزاب الشيوعية وأحزاب البرجوازية الصغيرة والقوى القومية الإصلاحية و أحزاب البرجوازية الوطنية المحلية لمواجهة خطر الحرب والفاشية في العالم وضد الهيمنة الاستعمارية على بلدانها .

ورغم كل ذلك لا بد من الإشارة الواضحة إلى عدد من الاستنتاجات المهمة التي لعبت دوراً مهماً في تفكير واتجاهات قرارات وميزت عمل ونشاط الشيوعيين في العالم خلال الفترة التي وجدت وعملت فيها اللجنة التنفيذية للأمم المتحدة الشيوعية أو بعد حلها حتى وفاة ستالين على الأقل ، والتي يمكن تلخيصها بما يلي:

---

205 الشريف ، ماهر د. فلسطين والمشرق العربي في نقاشات المؤتمر السابع للأمم المتحدة الشيوعية . القسم الثاني. في: مجلة الثقافة الجديدة. الحزب الشيوعي العراقي. العدد 126. تشرين الأول/كانون الأول 1980. ص 51.

1. حقيقة وجود دولة سوفيتية وحزب شيوعي يقود هذه الدولة ، وبالتالي ، فهو حزب من جهة ودولة من جهة أخرى ملهمان لنضال بقية الشيوعيين في سائر أرجاء العالم ويدفعان باتجاه السعي لإقامة ما يماثل ذلك في بلدانهم؛
2. حقيقة ممارسة دكتاتورية البروليتاريا من جانب الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي واعتبار ذلك شرطاً لا غنى عنه لمن يريد البقاء في السلطة بعد الوصول إليها؛
3. وأن الحزب الذي يريد الوصول إلى السلطة يفترض فيه العمل في ضوء المبادئ اللينينية التي تنص على وحدة الرأي والعمل في الحزب والمركزية الديمقراطية والطاعة الواعية والضبط الحديدي والتخلص من الاتجاهات التحريفية اليمينية واليسارية ... ؛
4. الدور القائد والرائد الذي لعبه ستالين في الحزب والدولة وفي الحركة الشيوعية العالمية وفي أجزاء أساسية من الحركة العمالية العالمية . ولعب كل من ستالين وقيادة الحزب الشيوعي السوفيتي ، دوراً أساسياً في خلق عبادة فعلية للفرد وحالة تقديس غير معهودة إلا في الديانات المختلفة . وتركت هذه الحالة بصماتها على سلوك بقية قيادي الأحزاب الشيوعية حيث نشأت حولهم هالة مماثلة تقريباً من القدسية والرؤية الأسطورية التي لا تمت للإنسان بصلة . وكانت لها نتائج سلبية عموماً على مجمل الحركة وعلى فصائلها المختلفة في مختلف البلدان التي وجدت فيها أحزاب شيوعية مرتبطة بالأممية الثالثة ، أو ضمن حركتها . وإذا بدا للبعض بأن لهذه الظواهر جوانب إيجابية في فترات أو مراحل معينة ، فأنها حملت معها جوانب سلبية أيضاً والتي لم يلتفت لها كل الشيوعيين وبمستوى واحد إلا بعد فوات وقت طويل ، ولم تستند من دروسها سوى غالبية الأحزاب الشيوعية الأوروبية ومجموعة غير كبيرة من الأحزاب الشيوعية في بلدان العالم الثالث حتى الآن .
5. الخلل الفكري الكبير الذي ساد الأممية الشيوعية ، سواء قبل أم حتى بعد المؤتمر السابع ، إزاء أحزاب الأممية الثانية باعتبارها الخطر الأعظم على الحركة الشيوعية والشعوب ، وخاصة أجنحتها اليسارية ، في الممارسة العملية و ضد المختلفين في الرأي مع الأحزاب الشيوعية . ولم يكن الموقف إزاء البرجوازيات الوطنية وأحزابها باستمرار صائباً ، بل تلبسته الهواجس الشديدة في بلدان المستعمرات وأشباه المستعمرات والشدة في التعامل والقسوة في النقد ، مما أوجد أوضاعاً صعبة ، خاصة وأن الأحزاب الشيوعية كانت تسعى لإقامة جبهات شعبية من الأسف بهدف قيادتها والتأثير من خلالها على الأحزاب الأخرى . ورغم حصول تحسن نسبي في هذا الموقف في أعقاب المؤتمر السابع للأممية ، ولكنه كان في الممارسة العملية ينطلق من الرؤية الستالينية المتطرفة للبرجوازية والبرجوازية الصغيرة في مختلف البلدان ، بما فيها البلدان المتخلفة التطور .

تسنى لفهد حضور المؤتمر السابع للأممىة كمراقب بسبب وجوده في المدرسة الحزبية حينذاك ، كما كان عضواً في قيادة لجنة الجمعية التي تحول اسمها إلى الحزب الشيوعي العراقي في شهر تموز من عام 1935 ، أي أثناء انعقاد المؤتمر السابع للأممىة الشيوعية ، إلى جانب مندوب الحزب الشيوعي العراقي ، قاسم حسن ، الذي ساهم في التحضير لإصدار العدد الأول من جريدة كفاح الشعب الذي حمل اسم الحزب على صفحته الأولى قبل مغادرته العراق للمشاركة في المؤتمر . وأعتبر قاسم حسن مراقباً أيضاً بسبب كون الحزب لم يكن بعد قد قبل عضواً في الأممىة الثالثة ، وتعذر على عاصم فليح ، سكرتير الحزب ، حضور المؤتمر بسبب تعقيدات الخروج من سوريا إلى موسكو . وإذ عاد قاسم حسن بعد انتهاء المؤتمر إلى بغداد ، واصل فهد دراسته الحزبية . ثم شارك أثناء ذلك في الاجتماعين الآخرين اللذين عقدا في عام 1936 لدراسة القضايا الخاصة بالعالم العربي . وتسنى لفهد أن يستمع إلى النصائح التي وجهت للأحزاب الشيوعية في البلدان العربية عموماً وكل على انفراد من جانب الكومنترن ، بما فيها النصيحة التي وجهت للشيوعيين العراقيين . "وكان الكومنترن يرى أن الهدف الأساسي في العراق هو إقامة حركة وطنية - ثورية جماهيرية ، وتوحيد العناصر الوطنية الثورية في حزب قانوني جماهيري يرفع برنامجاً ديمقراطياً عريضاً" 206 .

من هنا يتبين للقارئ بأن الفترة التي كان فيها فهد موجوداً في موسكو . كانت مليئة بالأحداث والتحركات السياسية والاجتماعات واللقاءات على مختلف المستويات ، كما تسنى له التعرف على التثقيف في المدرسة الحزبية وعلى المواد التي طرحها المؤتمر السابع للأممىة الشيوعية والتي لم تكن تتطابق تماماً مع الممارسة السوفييتية الفعلية ، كما تسنى له الاطلاع على الحياة السوفييتية . ولا نعرف إن كان يوسف قد تسنى لفهد التعرف على الفوارق بين الأفكار والسياسات التي طرحها المؤتمر السابع للأممىة الشيوعية وتلك التي كانت تدرس في المدرسة الحزبية ، وما كان يجري على الساحة السياسية العملية في الاتحاد السوفييتي ، خاصة وأن الحملة ضد من أطلق عليهم "بأعداء البلاد" من المخالفين لسياسة قيادة الحزب الشيوعي السوفييتي وعلى رأسها ستالين كانت في تفاقم مستمر . ولم تكن الحملة موجهة ضد الجماعات التروتسكية فحسب ، بل توجهت أيضاً ضد العديد من الكتل الفكرية والسياسية التي أفرزتها تلك المرحلة من تاريخ الاتحاد السوفييتي . ولم يكن سهلاً على طلبة المدرسة الحزبية أن يتبينوا مثل هذا الواقع ، خاصة وأن إمكانية الوصول إلى والتحدث مع المخالفين كان صعباً إن لم يكن مستحيلاً ، كما أن الحماس للحزب الشيوعي السوفييتي وللشيوعية وكان يمنع الرؤية المدققة للواقع القائم حينذاك . ولم يكن سهلاً على الشيوعيين في الكثير من بقاع العالم وبعد مرور سنوات طويلة أن يصدقوا ما أذيع من جرائم ارتكبت بحق الشيوعيين والمواطنين السوفييت في

206 ريزنيكوف ، أ. الكومنترن والشرق - الاستراتيجي والتاكتيكات. مصدر السابق. ص 340.

تلك الفترة من قبل ستالين وأجهزة الأمن السوفييتية (KGB) . وإذا كان البعض في حينها قد شخص مثل هذا التناقض ، فإنه في الغالب الأعم لم يجرأ على طرحه بصوت مرتفع ، إلا من جانب بعض القوى المختلفة مع السياسة الرسمية للحزب الشيوعي السوفييتي أو من خارج الاتحاد السوفييتي . وعرفت هذا الفترة تشابكاً أو خلطاً شديداً في عملية التثقيف من جانب الدولة السوفييتية والحزب الشيوعي السوفييتي بين تلك القوى التي كانت تختلف في مواقفها مع الحزب الشيوعي السوفييتي ، وبين المناوئين للحزب الشيوعي السوفييتي والشيوعية بشكل عام ، بحيث أعتبر جميع المختلفين مع ستالين بمثابة مطايا أو حصان طروادة للبرجوازية في صفوف الطبقة العاملة والحركة الثورية والأحزاب الشيوعية التي ينبغي مقاومتها وفضحها وإبعادها عن الحركة الثورية أو حتى تصفيتهم فكراً وجسدياً . وكان لهذا التثقيف تأثيره الواضح على النشاط الفكري والسياسي والإعلامي للأحزاب الشيوعية في جميع أرجاء العالم في تلك الفترة التي كانت النازية الألمانية فيها تستعد لخوض حرب عالمية جديدة . وتشير المعلومات القليلة عن حياة يوسف في المدرسة الحزبية إلى أنها تميزت ، بما كان يتصف به عموماً بالجدية والصرامة مع النفس والانكباب على الدراسة والتثقيف الذاتي واستيعاب الجوانب المختلفة للفكر الماركسي-اللينيني ، ولكنه كان عموماً بعيداً عن أفكار وكتابات المفكرين الآخرين في الاتحاد السوفييتي ممن غيب الحزب الشيوعي السوفييتي دراسة كتبهم ، حتى بعد ذلك لعشرات السنين ، وانتقلت العدوى إلى كل الأحزاب الشيوعية والشيوعيين ، حتى أصبح من "الخصال الحميدة" عند الشيوعي من يرفض قراءة أدبيات وكتابات أخرى لكتاب آخرين من غير الذين كانت تبشر بهم وكتاباتهم الحركة الشيوعية العالمية ، وهم: ماركس ، إنجلز ، لينين وستالين ، إضافة إلى كتاب الأهمية الشيوعية من أعضاء اللجنة التنفيذية ، ومنهم ديمتروف ، توغلياتي موريس توريس ، على سبيل المثال لا الحصر .

كانت لفهد علاقات طيبة مع محمود الأطرش ، مندوب الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية في اللجنة التنفيذية للأهمية الشيوعية . إذ تعرف عليه قبل ذلك عندما كان فهد في زيارة إلى فلسطين والحزب الشيوعي الفلسطيني في عام 1930 ، كما التقاه ثانية في بيروت في عام 1935/1934 وهو في طريقه إلى المدرسة الحزبية . وكان اللقاء الثالث في موسكو عندما أطلق سراح محمود الأطرش من السجن وغادر إلى موسكو باعتباره عضواً في اللجنة التنفيذية للأهمية الشيوعية . ويبدو أن التعاون بينهما كان متوفراً . وكان خالد بكداش زميل فهد في المدرسة الحزبية حينذاك . إن الاطلاع على المقال الذي كتبه محمود الأطرش باسمه الحزبي (سليم عبود) حول أحداث العراق في تلك الفترة وفي أعقاب انقلاب بكر صدقي بتأييد من جماعة الأهالي ، تشير إلى أن فهد زود محمود الأطرش بتلك المعلومات أو أن فهداً شاركه في صياغة المقال ، إذ أن المقال تضمن معلومات قريبة جداً من الأحداث ، وأن الكاتب كان على

معرفة بالشخصيات التي قادت الانقلاب ، وعلى علم بالتطورات والتغيرات التي طرأت على قيادة الانقلاب والنتائج التي آل إليها الانقلاب 207 . أي أن المقالة كانت تتضمن تقييم الحزب حينذاك لبداية الانقلاب ثم التحولات التي طرأت على بكر صدقي ثم النهاية التي انتهى إليها الانقلاب .

تواصلت دراسة فهد في المدرسة الحزبية في موسكو ثلاث سنوات دراسية ، 1935-1937 . كانت غنية ومليئة ، سواء بالمطالعات أم بالنقاشات الفكرية والسياسية ، إضافة إلى الأحداث المتلاحقة والعاصفة في أوروبا والاتحاد السوفييتي ، واستفاد منها في حياته ونشاطاته الفكرية والسياسية وفي دوره اللاحق في الحزب الشيوعي العراقي . وكان لا بد لفهد أن يغتنى بتجارب الأحزاب الشيوعية الأخرى في عدد من القضايا والمجالات الأساسية ، وهي:

• صياغة إستراتيج وتكتيك الحزب الشيوعي العراقي في ضوء تجارب الأحزاب الأخرى والأوضاع الملموسة للعراق واستناداً إلى الوعي الكامل بالمسؤولية إزاء مصائر الوطن والشعب والدفاع عن استقلال وسيادة الوطن وتقدمهما والسعي لتحقيق الديمقراطية والعدالة الاجتماعية؛

• الموقف من إشكالية الوحدة العربية والاتحاد العربي والمشكلات التي ما تزال تواجهها بسبب الهيمنة الاستعمارية المباشرة وغير المباشرة على شعوبها واقتصاداتها وسياسات حكوماتها ، إضافة إلى إشكالية الانتداب على فلسطين والنشاط الصهيوني في فلسطين ، إذ لعبت الحوارات بين الأحزاب الشيوعية ، ومنها العربية ، في إطار الأممية الشيوعية دورها في بلورة أكبر لهذه القضية ولصالح الوحدة العربية والدولة الفلسطينية؛

• بناء الحزب في ضوء القواعد التي صاغها لينين في خضم الحياة السياسية الروسية والتي سميت بالمبادئ اللينينية في بناء وحياة الحزب الداخلية ونضاله في صفوف الجماهير وأساليب وأدوات عمله ، أي السعي لبناء "حزب بولشفي من طراز جديد" ، يستند إلى المركزية الديمقراطية ويتسم بالوحدة الفكرية والسياسية والطاعة الواعية...؛

• الإخلاص اللامتناهي للطبقة العاملة العالمية والحركة الشيوعية وللحزب الشيوعي السوفييتي والدولة الاشتراكية المظفرة الأولى في العالم ، الاتحاد السوفييتي ، إضافة إلى الكره العميق للفاشية والحرب والعنصرية والشوفينية .

---

207 تعرفت على المناضل والرفيق محمود الأطرش في الجزائر وبرلين في نهاية السبعينات وأوائل عام 1980. وجرت بيننا أحاديث طويلة بما فيها عن ذكرياته عن الرفيق فهد وعن فترة وجود فهد في الاتحاد السوفييتي وكذلك عن لقاءاته بفهد ، كما قام في حينها بتسجيل مذكراته بجلسات عديدة ، إذ كان الرفيق مريضاً في حينها ولم يكن قادراً على التواصل. وقد ساهم فيها الرفيق واثق الدليمي في برلين. عند مغادرتي الجزائر قدم لي الرفيق صادق الهجرس ، سكرتير عام حزب الطلبة الاشتراكية ، في صيف عام 1981 هدية ثمينة هي صورة مكبرة للرفيق محمود الأطرش ما زلت محتفظاً بها. (ك. حبيب)

• ولا شك في أن المواد والطريقة والأساليب التي كانت تدرس في المدرسة الحزبية من جهة ، وتلك التي كانت تقاد بها الأممية الشيوعية من جهة أخرى ، والطريقة التي كان ستالين يمارس بها القيادة في المجتمع السوفييتي وتحوله تدريجاً إلى قائد شعبي محبوب على نطاق الشعب من خلال أساليب الدعاية والنشر ، أو ما يطلق عليه بعبادة الفرد وتقديس شخص ستالين ، من جهة ثالثة ، والتحويلات التي كانت تجري في البلاد السوفييتية من جهة رابعة ، إضافة إلى جملة من الظروف الموضوعية السائدة هناك ، وجدت تعبيرها في شخصية فهد وفي دوره وقيادته وتأثيره على الشيوعيين والحزب الشيوعي العراقي فيما بعد . وهذه المسائل ستكون مثار البحث في هذا الكتاب أيضاً .

• قبل مجيء البولشفيك إلى السلطة كرس لينين في مناقشاته وكتاباته فكرة مفادها أن البولشفيك وحدهم هم الذين يحق لهم الادعاء بتمثيل الطبقة العاملة وهم الذين يعبرون عن الفكر الماركسي أو النظرية الماركسية . وانتقلت هذه الفكرة إلى الحركة الشيوعية في فترة مبكرة من نشوء الأممية الشيوعية ، وإلى بقية الأحزاب الشيوعية في كل بلد من البلدان . وأصبح لدى قادة وأعضاء الأحزاب الشيوعية إيماناً وقناعةً بأنهم وحدهم يمثلون الطبقة العاملة والنظرية الماركسية ولا يحق لأي حزب آخر ادعاء ذلك . ووجهت أصابع الاتهام بالانحراف عن النظرية أو الارتداد عنها وخيانتها إلى كل من اختلف مع الحزب الشيوعي أو ادعى تمثيل الطبقة العاملة أو تبنى الماركسية . وعمق ادعاء احتكار أو مصادرة الماركسية من جانب حزب واحد إشكاليات الحركة العمالية وشدت من صراع أجنتها المختلفة وقاد إلى خسائر فادحة وأضرار فكرية وسياسية كبيرة جداً . ولعبت المدارس الحزبية ونشاط الأممية الشيوعية دوراً أساسياً في تربية الكادر الشيوعي بهذه الواجهة ، على اعتبار أن الانتهازيين هم مطايا الإمبريالية في صفوف الحركة العمالية ، وبالتالي فهي أخطر من العدو المكشوف ، الإمبريالية ، ولهذا لا بد من محاربة هذه التكتلات بشكل أكثر صرامة وعنفاً لتصفيتها والتخلص منها . وجميع الكوادر التي عادت من المدرسة الحزبية واستمرت في النضال في صفوف الأحزاب الشيوعية في البلدان المختلفة ، ومنها كوادر وأعضاء الحزب الشيوعي العراقي ، كانت تحمل مثل هذه القناعة الراسخة والإيمان الذي لا يتزعزع بالحق الكامل الذي يمتلكه الحزب الشيوعي بتمثيله للطبقة العاملة والنظرية الماركسية ، إضافة إلى امتلاكه الحقيقة كلها ، وبالعداء الشديد "لمطايا العدو الطبقي" في صفوف الحزب أو الحركة العمالية .

ترك فهد موسكو في كانون الثاني من عام 1938 بعد أن تسلم في صيف عام 1937 شهادة التخرج من المدرسة الحزبية ، كما جرى توديع الدفعة الجديدة من الكوادر الحزبية الوطنية من

قبل رئيس جمهورية الاتحاد السوفييتي حينذاك كالينين 208 ، متوجهاً إلى عدد من البلدان الأوروبية للاطلاع على تجاربها في تطوير الحركة الشيوعية وبناء الحزب والسياسات التكتيكية التي تمارسها تلك الأحزاب في النضال ضد الفاشية والحرب . ومن بين الدول التي زارها كانت فرنسا وبلجيكا .

---

208 بطاطو ، حنا د. العراق. الكتاب الثاني. الحزب الشيوعي. مصدر سابق. ص 148.



## الفصل السادس : المرحلة الثالثة: عودة فهد إلى العراق

لم تكن عملية تأسيس الحزب باسم "لجنة مكافحة الاستعمار والاستثمار" مهمة سهلة ، إذ احتاجت إلى جهود كبيرة ومكثفة من الحلقات الماركسية في كل من بغداد والناصرية والبصرة ، وفي ظروف السرية ، رغم أن الوجوه البارزة في المجموعات لم تكن غير معروفة لأجهزة التحقيقات الجنائية والشرطة العراقية . وكان اختيار الاسم موفقاً ومنسجماً مع طبيعة المرحلة التي كان يمر بها العراق والمهمات النضالية التي كان يواجهها الشعب العراقي وقواه السياسية المختلفة ، خاصة وأن الانتداب البريطاني كان لتوه قد ترك مهمة الهيمنة على العراق لبندود معاهدة 1930 لتحكم الطوق على اتجاهات التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي في العراق . وإذا كانت هذه اللجنة الجديدة قد أقيمت بصورة سرية بالنسبة لأجهزة الحكم القمعية ، فإنها لم تكن سراً على المجموعات المحيطة بالعمل الوطني . ونبعت صعوبة تشكيل مثل هذا الحزب حينذاك من طبيعة المجتمع العراقي الذي تميز بسيادة العلاقات الإنتاجية شبه الإقطاعية في الريف وتجلياتها في مختلف جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والتخلف الشديد في القوى المنتجة المادية والبشرية ، وفي ضعف انتشار ومستوى التعليم والثقافة والوعي الاقتصادي والاجتماعي لدى الجماهير الواسعة ، خاصة وأن العلاقات العشائرية والتقاليد الموروثة كانت ضاربة بجذورها في صفوف نسبة عالية جداً من سكان العراق ، إضافة إلى علاقة الناس الحميمة بالدين ، مع قلة التزام أو الالتزام الشديد بكل أركان الدين ، ودور ومشاركة مجموعات معينة من رجال الدين بالحملة التي نظمتها سلطات الاحتلال البريطانية والنخبة الحاكمة لتشيويه مبادئ الشيوعية والإساءة إلى سمعة الشيوعيين . ولعب ضعف مستوى وعي الشيوعيين ومداركهم العامة واستيعابهم المحدود للنظرية الماركسية أو قراءتهم الساذجة لها ، وسبل التعامل مع الجماهير والقوى السياسية الأخرى ومع السلطة القائمة والقوى المضادة ، إضافة إلى طريقة التعامل في ما بين الحلقات التي توحدت لتوها والتي لم تكن قد تعرفت بما فيه الكفاية على بعضها الآخر ، وصعوبات الوضع السياسي التي وجددت نفسها فيه ، دوراً كبيراً في وقوع أول خلاف في اللجنة المركزية أدى إلى انسحاب كل من يوسف إسماعيل ونوري روفائيل من القيادة الجديدة . ولم يكن هذا الانسحاب أمراً عابراً إذ أنه أثر على ولاء المنظمات الحزبية في مدن الوسط والجنوب لهذه المجموعة أو للجنة القيادية . وكان فهد حينذاك في طريقه إلى موسكو للدراسة الحزبية . وكان على القيادة التي يقف عاصم فليح على رأسها باعتباره سكرتيراً منتخباً لها ، أن يعيد ترتيب أوضاع القيادة . فبادر فعلاً إلى استكمال بنية اللجنة المركزية بإضافة زكي خيري ويوسف متي إليها ، وهما من تشكيلة زكي

خيرى المنفردة والتي كانت لها قبل ذلك معرفة وعلاقات متينة مع الآخرين . وعليه اصبح قوام اللجنة المركزية على النحو الآتي:

### اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي في عام 1935

عاصم فليح	السكرتير
مهدي هاشم	مسؤول الفرات الأوسط
قاسم حسن	مكلف للمشاركة في المؤتمر السابع
زكي خيرى	مسؤول جنوب العراق والعمل في الجيش
يوسف متى	مسؤول بغداد
فهد	مرسل إلى الدراسة الحزبية

قارن: بطاطو ، حنا د . العراق . الكتاب الثاني . الحزب الشيوعي العراقي . مصدر سابق . ص 89 .

وقعت على عاتق اللجنة المركزية مسؤولية ومهمة النهوض بأعباء قيادة الحزب الجديد حيثما وجدت منظمات حزبية والعمل من أجل توسيعها والتأثير في الأحداث السياسية الجارية ، أي كان عليها العمل بعدة اتجاهات في آن واحد ، وهي: العمل في المجالات العمالية والنقابية والحركة الجماهيرية ، العمل في الجيش ، والنشاط الدعائي والتحريري ، ومنها إصدار صحيفة الحزب والنشر في الصحف الأخرى ، ملاحقة الوضع السياسي والتأثير في عدد من الفعاليات السياسية التي كانت تجري حينذاك ، ومنها انتفاضة الفلاحين في سوق الشيوخ والفرات الأوسط عموماً ، خاصة وأن الناصرية كانت أحد المواقع المهمة للحلقات الماركسية قبل ذلك وللحزب الجديد . كما كان عليها أن تعزز علاقتها بالمرجعية الفكرية والسياسية للحركة الشيوعية العالمية ، بمكتب سكرتارية اللجنة التنفيذية في موسكو . وكان العراق في هذه الفترة يعيش حركة سياسية دائية ، كما بدأت الحكومة منذ عام 1934 بشن حملات واسعة ضد الوطنيين وقوى المعارضة السياسية وأجرت محاكمات للشيوعيين ومن اتهمتهم بالتحريض ضدها وبالتأييد للحركات الفلاحية ، وكان من بينهم قاسم حسن ، في الناصرية ، وحكمت على بعضهم أحكاماً مختلفة . وهبَّ الفلاحون العراقيون في الوسط احتجاجاً على السياسة التي واصلتها الحكومات العراقية المتعاقبة ، وقبلها سلطات الاحتلال البريطانية ، في جباية حصة الدولة من المحاصيل الزراعية (الضريبة) عبر وكلاء أو سراكيل يقومون بهذه المهمة مقابل حصولهم على ما يعادل خمس تلك الحصة من الفلاحين قبل وصوله للدولة . كما كانت الحكومة قد شرّعت في هذه الفترة قانون التجنيد الإجباري الذي رفضه الفلاحون والمستحوذون على الأرض الزراعية على حد سواء . وحصل تحالف بين العشائر في مواجهة الحكومة ومساندة

قوى المعارضة في بغداد . وكانت أوضاع الفلاحين الاقتصادية والمعاشية بانسة حقاً ، كما كان يصعب عليهم القبول بالتنازل عن مشاركة أبن أو أكثر في النشاط الاقتصادي وإعالة العائلة لصالح الخدمة العسكرية . وكانت السلطة قد أغلقت الصحف ونشرت الإرهاب في البلاد كما وجهت قوات الجيش لقمع انتفاضة سوق الشيوخ وإخماد التحركات الفلاحية وتحالف القبائل الذي نشأ حينذاك للتعاون مع قوى المعارضة الحكومية في بغداد . ولاحظ الفلاحون وجماهير واسعة من الشعب بصواب أن الحكومات المتعاقبة كانت لا تهتم بأوضاعهم والمشكلات التي يعانون منها من جهة ، وأنها كانت تستخدم الجيش ، الذي يتشكل من أبنائهم وأسس لحماية حدود البلاد ، لإخماد التحركات الشعبية الفلاحية في أي مكان من العراق ، وبالتالي تعاضمت خشيتهم الواقعية من أن تنامي قوة الجيش بأبنائهم سيكون لها مردود سلبي عليهم إذ ستتوجه بنادق هؤلاء الجنود إلى صدور العشائر التي انحدروا منها ، أي إلى صدورهم . وخلال هذه الفترة ساهم الحزب الشيوعي بفعالية ملموسة في تحريض وتعبئة الفلاحين للنضال ضد سياسات الحكومة ، كان عليه أن يواصل دعم نضال الفلاحين أيضاً ، فأصدر لهذا الغرض بياناً نارياً موجهاً إلى جماهير الشعب مستهلاً ذلك بشعارات: "إلى الثورة! إلى السلاح! إلى الكفاح!" ومختتما إياه بالنداءات التالية:

1. فلتسقط كافة الضرائب والديون الحكومية!

2. فلتسقط كافة الاتفاقات والمفاوضات!

3. فليسقط الاستعمار وأعدائه من الخونة والمرتشين!

4. يجب توزيع الأراضي الأميرية على صغار وفقراء الفلاحين "209 .

وتشير صياغة النداءات إلى غياب التمييز الدقيق والواقعي بين المفاوضات التي يفترض أن تتواصل والنتائج التي تنتهي إليها تلك المفاوضات ، والتي تتجلى في الاتفاقيات المحتملة ، وكذلك عدم التمييز بين مختلف الضرائب التي تفرض على أفراد المجتمع ، إذ المطالبة بإلغاء كافة الضرائب أمر غير معقول وغير ممكن أيضاً ، إذ لا يميز بين أصحاب الريع والدخول العالية ، وبين المنتجين الفعليين والكادحين ، أو التمييز بين الضرائب المباشرة وغير المباشرة . وفي الوقت نفسه خلا بيان الحزب من مطلب تصفية علاقات الإنتاج شبه الإقطاعية وإيقاف عمليات تسجيل الأراضي باسم شيوخ العشائر وكبار الإقطاعيين واكتفي بالمطالبة بتوزيع الأراضي الأميرية على صغار الفلاحين . والبيان ، بالرغم من أهميته ، يعبر عن مستوى المعرفة والوعي عند الكادر حينذاك .

وفيما بعد أصدر الحزب بياناً عاماً وشاملاً لم يطرح فيه قضايا الفلاحين في سوق الشيوخ والفرات الأوسط فحسب ، بل وطرح فيه المهمات الآتية التي كان يرى أنها ضرورية وملحة

وقابلة للتنفيذ من أجل مواجهة الوضع في العراق ، والتي تجلت في بيان "لجنة مكافحة الاستعمار" . أغضب هذا البيان حكومة طه الهاشمي التي كانت قد تشكلت لتوها ، أي في 17 آذار/مارس من عام 1935 ، في أعقاب استقالة وزارة المدفعي الثانية في الخامس عشر من آذار/مارس من نفس العام بعد أن فشلت في معالجة المشكلات الفلاحية والتعامل مع تحالف القبائل الذي تشكل قبل ذلك مسانداً للمعارضة في بغداد ، التي جربت بدورها العنف لمعالجة تلك المشكلات . وكلف رشيد عالي الكيلان بحقيبة وزارة الداخلية ونوري السعيد بالخارجية وجعفر العسكري بالدفاع . وعلى خلاف ما كان منتظراً ، ورطت الحكومة الجديدة الجيش بقيادة الفريق بكر صدقي العسكري من جديد في التصدي للمحتجين وتوجيه نيرانه ضد الفلاحين وأبناء العشائر . وأدت تلك الحملة العسكرية والمواجهة غير المتكافئة والقسوة التي مارسها بكر صدقي إلى سقوط ضحايا كثيرة خلال أحداث 1935 و1936 في الوسط والجنوب . ولم يمض وقت طويل على ذلك البيان حتى صدر العدد الأول من جريدة "كفاح الشعب" ، في وقت كانت الصحافة الوطنية العلنية قد منعت من الصدور بقرار من الحكومة ، ولكن الجريدة لم تكن تحمل احتجاجاً ضد الحكم أو تأييداً للفلاحين فحسب ، بل حملت في صدر صفحتها الأولى مسألتين أساسيتين أو قنبلتين أثارتا الحكومة والسفارة البريطانية في العراق ، وهما:

• الإعلان عن وجود ونشاط الحزب الشيوعي العراقي ، إذ حمل العدد الأول اسم الحزب؛  
• الإعلان عن أن الحزب الشيوعي العراقي يشكل جزءاً من الحركة الشيوعية العالمية ، ورفع تأكيداً لذلك شعار "يا عمال العالم اتحدوا" إلى جانب شعار "يا عمال العراق اتحدوا" .  
كما أعلن الحزب في بيانه الأول ولأول مرة عن:

• اعتماده العنف والقوة في مواجهة الإمبريالية والطبقة الحاكمة ، حيث أشير في افتتاحية العدد ، التي كتبها ، كما يبدو ، عاصم فليح ، إلى أن الحزب " ... يعتمد القوة والعنف لأنه يعلم جيداً بأنه ليس هناك دولة إمبريالية تعطي بمحض إرادتها الحقوق للشعوب المستعبدة كما أنه ليس هناك طبقة تتخلى عن امتيازاتها سلمياً ... إنه يعتبر نفسه حارساً على مصالح جماهير العمال والفلاحين ويرى من واجبه إنهاء هذه الجماهير من أجل الدفاع عن عدالة قضيتها ورفع مستواها لممارسة الكفاح الطبقي الواعي" 210 .

• تبنيه الشيوعية ونضاله في سبيل إقامة العدالة الاجتماعية .  
لم تطرح الحلقات الماركسية أسلوباً محدداً للنضال الذي تخوضه في سبيل تحقيق أهدافها والمهمات التي تسعى إليها ، ولكنها لم تتبن في الوقت نفسه شعار القوة والعنف في هذا النضال ، في حين كانت الجماعات التي نشأت في البصرة ، ومعهم فهد ، قد تبنت النضال السلمي لتحقيق المهمات . ومع أن الباحثين لا يستطيعان تأكيد السبب وراء ذلك ، إلا أنهما

210 خيرى ، زكي وسعاد. دراسات في تاريخ الحزب الشيوعي العراقي. مصدر أبق. ص 38.

يعتقدان بأن التغيير الذي حصل في حينه في بنية اللجنة المركزية بدخول زكي خيري ومجموعته ، التي كانت تعمل بشكل واسع في الجيش وتتبنى النشاط العسكري ، هي التي دفعت بهذا الاتجاه الجديد . ومن المفيد الإشارة إلى أن فهد لم يكن في كل مواقفه السابقة حتى استشهاده قد طرح شعار العنف أداة أو سبيلاً لتحقيق الأهداف المنشودة . وهذه الحقيقة تجسدت في جميع ما كتبه وما وصل إلينا من كتابات فهد .

ويبدو أن ما تردد بين أوساط الشيوعيين منذ ذلك الحين حتى الوقت الحاضر حول موقف رشيد عالي الكيلاني من جريدة كفاح الشعب كان صحيحاً حين قال ، بعد قمع انتفاضة الفلاحين في الوسط والجنوب وبعد عثوره على نسخة من جريدة الحزب الشيوعي على منضدته في الوزارة ، ما يلي: "إن هذه الوريقة أشد خطراً من ثورة سوق الشيوخ ، فإذا ما نبت جذور أفكارها فسيستحيل علينا قلعها" 211 .

أثارت هذه النشاطات المكثفة والمتتالية مخاوف السلطات الحكومية والأمنية من تنامي نشاط الشيوعيين وازدياد تأثيرهم على الأحداث الفلاحية فقررت توجيه الضربة للحزب الفتى من أجل شل نشاطه ، وبالتالي إعاقه نموه وتطوره . وكانت المعلومات قد تجمعت ووصلت إلى الحكومة العراقية وقوى الأمن المحلية والبريطانية عن ثلاث مسائل أساسية هي:

1. عن وحدة الشيوعيين وتنامي نشاطهم الفكري والسياسي وازدياد تأثيرهم في مجموعات غير قليلة من الشباب والطلاب والعمال ، إضافة إلى تأثيرهم في مناطق الفلاحين؛  
2. بداية بروز نشاط للحزب في الجيش ، خاصة وأن النشاط في هذا المجال لم يكن مستوراً تماماً؛

3. وجود علاقة فعلية بين الحزب الشيوعي العراقي والحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي والحركة الشيوعية العالمية والأحزاب الشيوعية العربية وإيران من خلال المعلومات التي قدمها الجاسوس عبد الحميد الخطيب إلى القنصلية البريطانية في إيران بعد عودته من المشاركة في دورة دراسية حزبية في موسكو ، إضافة إلى المعلومات التي كانت تصلهم من جواسيس النظام والأمن البريطاني .

حفظت هذه المعلومات السلطة وأجهزة الأمن على تشديد المراقبة وتوجيه ضربة قاسية للتنظيم المدني ، ثم توسيع المراقبة على النشاط الشيوعي في الجيش . إذ أنها استطاعت خلال أعوام 1935-1937 توجيه ضربات حادة إلى تنظيمات الحزب الفتية في القطاعين المدني والعسكري ، أدت بدورها إلى شل العديد من التنظيمات والنشاطات ، كما تخلّى البعض من قادة الحزب ، وبشكل خاص السكرتير ، عن العمل في الحزب . فبعد اعتقال عاصم فليح بفترة وجيزة في عام 1935 تخلّى الرجل عن العمل الحزبي وكف عن النشاط السياسي وقدم تعهداً بذلك لأجهزة

211 خيري ، زكي وسعاد. دراسات في تاريخ الحزب الشيوعي العراقي. مصدر سابق. ص 43.

الأمن العراقية مما ساعد على إطلاق سراحه . وبعد عودة قاسم حسن من موسكو بفترة من الزمن اعتقل هو الآخر وتخاذل أمام أجهزة التحقيقات الجنائية العراقية وتخلي عن حزبه وسلم المعلومات التي لديه عن الحزب إلى تلك الأجهزة . وتم تدريجاً اعتقال بقية القيادة ، وكان آخرهم زكي خيري ، الذي استطاع بصموده إيقاف حملة التداعي والسقوط أمام الأجهزة الأمنية . ولكن الضربة الأساسية التي تلقاها الحزب كانت في الجيش ، حيث تم اعتقال حوالي 65 عسكرياً من مجموع 200 عسكرياً كانوا ضمن التنظيم الشيوعي حينذاك ، وحكم على ثلاثة منهم بالإعدام ونفذ بهم الحكم فعلاً ، كما حكم على آخرين بأحكام مختلفة ومنهم زكي خيري ورفاقه<sup>212</sup> .

ومع ذلك ، ورغم الضربات القاسية لم تستطع أجهزة الدولة الأمنية إيقاف الزرع الجديد الذي نبت في التربة العراقية الخصبة والطيبة ذات المياه العذبة ، أفكار الحرية والديمقراطية والمعاداة للإمبريالية وفي سبيل العدالة الاجتماعية والاشتراكية والشيوعية ، كما لم تستطع تصفية كل التنظيمات التي وجدت حينذاك ، سواء في القطاع المدني أم العسكري . ولهذا أمكن مواصلة العمل ، ولكن بصعوبات بالغة ، رغم أن الشيوعيين وجدوا متنفساً لهم بعد انقلاب بكر صدقي العسكري في عام 1936 ، حيث أطلق سراح المعتقلين منهم وبرز نشاطهم في النشر الصحفي . لكن هذه الفترة لم تدم طويلاً ، فإلى جانب اتسام نشاط الحزب باليسارية والانغزالية والصبيانية الواضحة أحياناً غير قليلة لا إزاء الحكم فحسب ، بل وإزاء جماعة الأهالي التي ساندت الحكم وشاركت فيه ثم تخلت عنه سريعاً ، (وهي مسألة اعتيادية بالنسبة لحزب جديد يحمل مثل تلك الأفكار والاتجاهات غير المعهودة في المجتمع العراقي سابقاً ، كانت أجهزة الأمن تجمع المعلومات عن نشاط الشيوعيين لتوجه الضربة لهم . لقد كان الحكم الانقلابي الجديد يحمل في بنيته بذرة الدكتاتورية العسكرية والانفراد بالسلطة الجديدة ، والرغبة الواضحة في ممارسة العنف إزاء المعارضة ، إذ جرى تلمسها مباشرة بعد الانقلاب حين أوعز إلى الجماعة التي اعتقلت جعفر العسكري إلى تصفيته قبل وصوله إليه ، علماً بأنه كان يحمل رسالة من الملك غازي أولاً ، كما أنه كان زميلاً له في الجيش وابن قريته ، ولكنه كان ، كما يبدو ، غريمه أيضاً . وتغلبت بذرة الاستبداد على الجانب الديمقراطي في المجموعة الحاكمة ، فوجهت ضربات غير قليلة للشيوعيين والديمقراطيين وغير المتفقين معهم . وقادت هذه السياسة إلى تدبير مؤامرة تمت بقتل بكر صدقي فعلاً وانهايار الحكم العسكري ، الذي تسبب بدوره بهجوم جديد على الشيوعيين ، وخاصة على العسكريين منهم ، بعد أن انكشفت لقوات الأمن مواقع الشيوعيين وأصدقاء الحزب في الجيش . وحول سياسات الحزب التي اتسمت باليسارية والانغزالية حينذاك كتب زكي خيري يقول بأن فهد عندما عاد إلى الوطن "وجد أمامه

212 خيري ، زكي وسعاد. دراسات في تاريخ الحزب الشيوعي العراقي. مصدر سابق. ص 39.

حالة الحزب المشتتة وأمام مناخ فكري يتسم باليمينية والضبائية"213. وإذ لا جدال في كون الحزب في هذه الفترة كان ما يزال يعيش في شيء من ضبابية الفكر والسياسة وقلّة التجربة ، إلا أن سياسة الحزب لم تكن في كل الأحوال يمينية ، بل يسارية انعزالية واضحة ، تجلت في أكثر من موقف ، بما فيه الموقف من العنف والقوة ومن جماعة الأهالي أو مضمون البيانات التي صدرت عن الحزب ، بما فيه موضوع العنف . ولكن كانت اتجاهات زكي خيري منذ البدء يسارية ، وأن تقلبت أحياناً بين اليمين واليسار . وأشار إلى هذه الحقيقة في أكثر من مكان في كتابه الأول "دراسات في تاريخ الحزب الشيوعي العراقي" وكتابه الثاني "صدى السنين في ذكارة شيوعي عراقي مخضرم" . ولهذا وجد نفسه بعيداً عن الحزب ولفترة غير قصيرة ، بعد أن أصبح فهد على رأس الحزب .

ورغم النشاط الفكري والسياسي للحلقات الماركسية قبل تشكيل الحزب ، ومن ثم بعد تشكيله ، وإصدار البيانات العديدة حول الكثير من المناسبات ، فإن المتوفر من بيانات تلك الفترة يشير إلى أن تلك الحلقات ، وكذا الحزب بعد تأسيسه ، لم تتطرق ، بأي شكل من الأشكال إلى المجزرة الوحشية التي قادها بكر صدقي العسكري ، بأمر من رئيس الوزراء ، رشيد عالي الكيلاني ووزارته ، ضد الحركة الآشورية (الأتورية) والآشوريين عموماً في عام 1933 ، والتي سقط فيها مئات الناس الأبرياء ، ومنها مجزرة قرية سميل214 . ويبدو أن سبب تجاهل أو تأييد القوى التقدمية والديمقراطية ، وسكوت الحلقات الماركسية ، وفيما بعد الحزب الشيوعي العراقي ، لهذه المجزرة ، هو التعاون الذي سبق وأن حصل بين جمهرة واسعة من الرجال الآشوريين والقوات البريطانية وعملهم ضمن قوات اللفي حينذاك ، والتي كانت توجه لقمع الحركات المناهضة للحكومة . وبرزت بعض البيانات التي كانت تعتبر بعض تلك الحركات وكأنها موجهة من قبل الاستعماريين ، وهي التهمة التي وجهت للآشوريين أيضاً ، في حين أن مشكلاتهم وخوفهم من المستقبل المجهول هو الذي حركهم ووجدوا المساندة والتأييد من رئيسهم الروحي (الديني) المار شمعون . كما لم تثر الحملات العسكرية ضد الأكراد الإيزيديين وغيرهم حينذاك أي احتجاج من جانب القوى الديمقراطية . وهو أمر يعبر عن ضعف الوعي الديمقراطي وعدم إدراك أهمية رفض مثل هذه الأساليب العنيفة في معالجة المشكلات الداخلية في العراق . وبالتالي فإن تأييد القوى الديمقراطية للقمع الوحشي الذي ارتكب ضد الآشوريين وضد الإيزيديين الأكراد أو سكوتها على الجرائم البشعة والقتل الواسع لهؤلاء المواطنين لم يكن خاطئاً ومضراً فحسب ، بل شجع الدولة على استخدامه لاحقاً ضد الشعب الكردي بقيادة

213 خيري ، زكي وسعاد. دراسات في تاريخ الحزب الشيوعي العراقي. مصدر سابق. ص 52.  
(1) 214 فتح الله ، جرجيس. رجال ووقائع في الميزان. ط 1. دار ناراس للطباعة والنشر. السلسلة الثقافية. أربيل. 2001.  
ص262/261.

الملا مصطفى البارزاني ، و ضد القوى الوطنية والديمقراطية ومنها الحزب الشيوعي العراقي . وفي الوقت الذي كان موقف القوى الوطنية هذا خاطئاً ، كان موقفها صحيحاً عندما رفضت الحملات العسكرية التي نظمتها الحكومة ضد عشائر الوسط والجنوب في عامي 1936/1935 ، والتي قادها بكر صدقي أيضاً وراح ضحيتها مئات الفلاحين الأبرياء .



## المبحث الأول : المهام الجديدة

بدأت بعض العناصر الجديدة في الحزب ، مع حلول عام 1938 ، تلملم بقايا التنظيمات التي تلقت ضربات قاسية من أجهزة الأمن العراقية ، وتعيد من جديد بناء الحزب بعد خفت قليلاً حملة المطاردة ضد الشيوعيين ، إذ أن أجهزة الأمن اعتبرت الضربات التي وجهت لتنظيمات الحزب قد قضت عليه نهائياً ، أو أنها ستعيق عمله لسنوات طويلة لاحقة ، خاصة وأن نشاط الشيوعيين بالذات كان قد تراجع كثيراً بفعل تلك الضربات . كان الشيوعيون مشتتين ، وكانت ثقتهم متزعزعة ، بسبب تخلي أو انهيار وحيانة البعض منهم لأسرار الحزب . كما أن البعض الآخر بدأ يعمل بمفرده ليعيد النشاط الحزبي إلى مجراه الطبيعي . وتمكن عبد الله مسعود القريني تحقيق نتائج إيجابية بصدد لملمة الكوادر وإعادة الصلة بالعناصر المنقطعة عن الحزب ، وبالتالي تسلم عملياً مسؤولية مركزة النشاط الحزبي . في هذه الفترة تماماً وصل فهد في الثلاثين من كانون الثاني عام 1938 إلى بغداد عائداً من دراسته الحزبية ومن جولته في بعض المدن الأوروبية ، إذ أنها كانت زيارة ذات طبيعة استطلاعية ودراسية لمختلف جوانب نشاط وعمل الأحزاب الشيوعية في الدول التي زارها في محاولة لدمج الدراسة الفكرية بالتجارب الفعلية . بدأ فهد محاولاته الجادة ، وبالتعاون الوثيق مع عبد الله مسعود ، لاستكمال إعادة بناء الحزب وكله طاقة وحيوية وإصرار على مواصلة النضال واستكمال المسيرة التي بدأ بها منذ ما يزيد على عقد ونصف العقد من السنين . ولم يكن هذه المرة مسلحاً بتجربته الذاتية وإمكاناته الفكرية والسياسية السابقة فحسب ، بل وبتجربته الجديدة وتجارب الأحزاب الشيوعية والمدرسة الحزبية ، كما اغتنى فكرياً وسياسياً من دراسته في المدرسة الحزبية ودراساته الذاتية المكثفة ، إضافة إلى الحماس الذي بثه فيه وجوده في أول دولة مظفرة للعمال والفلاحين بعد كومونة باريس التي لم تدم طويلاً . ولعبت لقاءاته مع كادحي موسكو والمناطق الأخرى التي زارها وفق برنامج المدرسة الحزبية دوراً مهماً في الحماس الذي تحلى به بعد عودته من الخارج . وبالتالي ، كان وصول فهد إلى بغداد بمثابة عملية إسعاف جدية للكادر الجديد الذي لم تكن له الخبرة الكافية ، وأغلبهم أعضاء جدد في الحزب وفي الحركة الوطنية العراقية ، على إعادة البناء أو الربط بحيوية وفعالية بين النظرية والتطبيق بما يقلل من الخسائر ويزيد من النفع للحزب . لقد واجه فهد عندما عاد إلى بغداد وضعاً صعباً للغاية يمكن تشخيصه بالملاحم التالية:

- إرهاب مستمر من جانب وزارة المدفعي ، التي تسلمت الحكم في أعقاب سقوط وزارة الانقلاب العسكري التي ترأسها حكمت سليمان ، ضد القوى الديمقراطية ، وتركزت ضد التنظيمات الشيوعية في القطاعين المدني والعسكري؛
- تنظيمات حزبية مهشمة ، وخاصة في العاصمة بغداد ، وبقايا شيوعيين يتحرون عن أفضل السبل لإعادة العلاقات وشد المتبقين بعضهم بالبعض الآخر ، إذ كان في مقدمة هؤلاء عبد الله مسعود القريني؛
- وجود عدد مهم من الكوادر النشطة وذات خبرة جيدة نسبياً في سجون الحكم الملكي . وكانت المحاكم تصدر أحكامها جزافاً ضد الشيوعيين ، وبشكل خاص الحاكم عبد العزيز الأعرجي؛
- خيبات أمل واسعة وتزعزع الثقة بالنفس وبالأخرين عند المناضلين وبضعف الاستعداد للعمل الحزبي بسبب الإخفاقات والضربات وبعض الاعترافات أو التخلي عن العمل لدى بعض المسؤولين في التنظيمات الحزبية؛
- أجواء التراجع عن العمل السياسي لدى بعض الأوساط الوطنية في صفوف البرجوازية الوطنية والبرجوازية الصغيرة ، وخاصة في أعقاب فشل انقلاب صدقي-سليمان . ومع ذلك وجد فهد أمامه إلى جانب ذلك أوضاعاً أخرى تبشر بالخير ، ومنها:
- وجود مجموعة ، وأن كانت صغيرة ، من بقايا التنظيمات تسعى مجدداً إلى لئمة الصفوف وإعادة بناء التنظيمات في بغداد ، كما أن بعض المجموعات من الشيوعيين في بعض المدن لم تكن قد تضررت كثيراً ، وبالتالي يمكن الاعتماد عليها في إعادة البناء؛
- وجود أوضاع اقتصادية متردية لم تستطع الحكومة ، رغم دعم البريطانيين لها ، من تحسين الأوضاع الاقتصادية وتوفير فرص عمل للعدد المتزايد من العاطلين عن العمل ، إضافة إلى صعوبة استيعاب العدد المتزايد من الخريجين في دوائر الدولة أو في المشاريع الاقتصادية المحدودة حينذاك؛
- مواصلة سياسة القمع التي كانت تلقى الكراهية من جانب الشعب كله ، وبالتالي كانت الدعوات المضادة لها تلقى تأييداً من الشارع العراقي ، وأصبحت الساحة أرحب لعمل الشيوعيين بين الأوساط الشعبية وبين المثقفين في آن واحد . ولكن أجواء الشيوعيين ذاتهم كانت صعبة للغاية بسبب التجربة القاسية التي مروا بها والخيبات التي تعرضوا لها ، ولهذا كانوا بحاجة إلى من يمنحهم الثقة بالنفس ويدفعهم باتجاه العمل السياسي الحزبي . وكان أحد أهم قوانين القمع والإرهاب الفكري والسياسي قد صدر في هذا العام عندما نشرته جريدة الوقائع العراقية الرسمية بتاريخ 9 مايس/أيار 1938 " ، (ذيل قانون العقوبات البغدادي المرقم 51 لسنة 1938) ، الذي نص في مادته الأولى على ما يلي: "يعاقب

بالأشغال الشاقة أو الحبس مدة لا تزيد على سبع سنين أو بالغرامة أو بهما كل من حبذ أو روج بإحدى وسائل النشر المنصوص عليها في المادة 78 من هذا القانون أياً من المذاهب الاشتراكية البلشفية (الشيوعية) والفوضوية والإباحية وما يماثلها التي ترمي إلى تغيير نظام الحكم والمبادئ والأوضاع السياسية للهيئة الاجتماعية المصونة بالقانون الأساسي"215؛

- نمو ملموس للحركة القومية العربية في صفوف الجيش وفي أوساط المثقفين والمتعلمين ، وخاصة في دوائر الدولة ، بسبب العلاقات التي كانت تربط هذه القوى بالحكم ذاته ، إضافة إلى تنامي دور الجيش في الحياة السياسية في أعقاب فشل انقلاب بكر صدقي . وكان بعض القوى الفاعلة والقريبة من النخبة السياسية الحاكمة قد تبني الاتجاهات القومية التي قادت فيما بعد انقلاب رشيد عالي الكيلاني ، إذ لم يكن الأخير يختلف كثيراً عن بقية أفراد النخبة السياسية ، بل جزءاً منها ، وكان أكثر منها يمينية وانتهازية وعداءاً للديمقراطية وحرية الفكر . فبعض أطراف المعارضة القومية كان ينطلق في واقع الأمر من الأوساط الحاكمة ذاتها ، وكان يعمل معها وقريب منها .

في ضوء هذا الواقع واجهت فهد بعد عودته إلى العراق مجموعة متكاملة من المهمات توزعت على مجالات مختلفة يمكن تلخيصها فيما يلي:

#### 1. المهمات المباشرة على صعيد الحزب

ويمكن تكثيف هذه المهمات في المجال التنظيمي على النحو التالي:

- إعادة بناء الحزب على المستويين القاعدي والقيادي وعلى مستوى القطر وحيثما أمكن من خلال تشكيل خلايا حزبية أو حلقات أصدقاء ، وتأمين ارتباطها بالمركز الحزبي الذي أقيم مؤقتاً؛
- إيجاد سياج من الجماهير الصديقة للحزب التي يكون في مقدورها حماية الخلايا الحزبية ونشاطها خلال الفترة القادمة؛
- مواجهة الانقسامات المحتملة في الحزب والتي يمكن أن تنشأ لأسباب عديدة؛
- تعزيز المركزية والانضباط والتماسك في صفوف الشيوعيين وإعادة الثقة بالنفس وبالآخرين بعد تعرضها للاهتزاز خلال السنوات المنصرمة؛
- العمل في المجالات النقابية وتنشيط العمل النقابي وتوسيعه والعمل من أجل قيادته والتأثير فيه ، إضافة إلى العمل بين مختلف الأوساط الشعبية ، وخاصة بين العمال والفلاحين والطلاب والكسبة والحرفيين وغيرهم ، بما يعزز قدرة التنظيمات على قيادة

215 حميدي ، جعفر عباس. التطورات السياسية في العراق 1941-1953. ص 345.

- العمل الجماهيري . وهذا يتطلب بدوره السعي إلى الربط السليم بين الشعارات أو المهام الوطنية وبين الشعارات أو المهام الخاصة بمصالح الفئات المختلفة؛
- تأمين تنمية وتطوير العمل الحزبي والسياسي في صفوف الجيش .
  - 2 . أما مهام الحزب على الصعيد الفكري فتلخصت بما يلي:
  - العمل من أجل نشر الفكر الماركسي-اللينيني بين أعضاء ومرشحي وأصدقاء الحزب وتنشيط الصراع الفكري حول القضايا الرئيسية المطروحة حينذاك؛
  - زيادة المطبوعات الماركسية باللغة العربية ، سواء من خلال الترجمة المباشرة أو الحصول عليها من الخارج؛
  - توفير إمكانات تحصين الشيوعيين بما يساعد على مواجهة الأفكار التحريفية والانتهازية واليسارية الانعزالية والشوفينية إلى أذهان قواعد وقيادات التنظيمات الحزبية .
  - العمل الحثيث على غرس أفكار الأممية الشيوعية والإخلاص لها والتفاني في سبيلها ، إضافة إلى حب واحترام الدولة السوفييتية الجديدة وحزبها الشيوعي في عمليات تثقيف الشيوعيين العراقيين ، مع محاولة الموائمة والربط العضوي بين الأممية والوطنية .
- 3 . مهام الحزب السياسية على الصعيد الداخلي والخارجي .
- وتبلورت المهام السياسية على الصعيد الداخلي في كيفية تعامل الحزب مع القضايا الأساسية التالية:
- الموقف من السلطة السياسية ومن قوى المعارضة العراقية الفاعلة فعلاً في الأحداث الجارية؛
  - الموقف من الاستعمار البريطاني ومعاهدة 1930؛
  - الموقف من الحرب والفاشية باعتبارهما خطراً يهدد العالم؛
  - الموقف من المشكلات المحلية ، ومنها المسألة الكردية والموقف من الأقليات القومية والدينية؛
  - الموقف من الصهيونية والنشاط المتفاقم في فلسطين ضد العرب ، حيث كان التحالف البريطاني-الصهيوني الدولي ، بالارتباط مع وعد بلفور عام 1917 ، يمارس دوره ضد العرب من أجل إقامة الدولة العبرية على أرض فلسطين؛
  - الموقف من قضية الوحدة العربية والتضامن العربي .

وكل المعلومات الشحيحة الموجودة تشير إلى أن فهداً قد تسلم المسؤولية مباشرة بعد عودته من الخارج من عبد الله مسعود ، رغم عدم الإعلان عن ذلك باعتباره كان عضواً في أول لجنة مركزية للحزب وعاد لتوه من دراسة حزبية وساهم كمراقب في المؤتمر السابع للأمم المتحدة الشيوعية وعلى صلة وثيقة باللجنة التنفيذية للأمم المتحدة الشيوعية . ولم يكن في مقدور عبد الله مسعود أمام السمات التي تميز بها فهد إلا القبول بذلك . ولكن فهد لم يبق في بغداد فترة طويلة بعد عودته من الخارج . فبعد أن عزز علاقته بعبد الله مسعود والمجموعة العاملة في بغداد وتيقن من سير عملها ، غادرها متوجهاً ومتجولاً في المدن العراقية الأخرى من أجل تحقيق جملة من المهمات والأهداف التي يمكن تلخيصها فيما يلي:

• إعادة تنظيم الجماعات المبعثرة في المدن الأخرى التي كانت للحزب تنظيماً سابقة أو أعضاء وأصدقاء فيها من أجل إعادة أو تعزيز علاقتهم بالحزب وبالمركز القيادي الذي كان يسعى إلى تكوينه وبقيادته؛

• تأمين توسيع نطاق عمل الحزب لا على صعيد بغداد فحسب ، بل وفي المدن الأخرى التي يستوجبها النضال السياسي والتعبئة الجماهيرية للشعارات السياسية التي رفعها الحزب حينذاك؛

• اختيار مجموعة من الكوادر القادرة على مساعدته في عمله القيادي في اللجنة المركزية للحزب وفي المدن الأخرى؛

• تأمين الموارد المالية المناسبة من خلال التوسع في العلاقات الحزبية وإقامة العلاقات مع الأصدقاء والمؤيدين لضمان ذلك؛

• دفع أعضاء وأصدقاء الحزب لتنشيط وتطوير العمل النقابي ، رغم المشاكل التي كانت تواجه الحركة النقابية بسبب دور الحكومات المتعاقبة في مطاردة النقابيين وقمع إضراباتهم واحتجاجاتهم المهمة التي وقعت في أعوام 1936-1937 بعد أن كانوا قد حصلوا في فترة حكومة الفريق بكر صدقي ، وبدعم مباشر من جماعة الأهالي والشيوعيين ، على تشريع قانون العمل رقم 72 لسنة 1936 ، والاستفادة من هذا القانون لصالح العمال . وخلال عام 1938 نشطت الحركة النقابية ونجحت في تنظيم العديد من الإضرابات المهمة .

وبسبب سفر فهد إلى المدن الأخرى لإعادة تجميع وتنظيم الشيوعيين ، بقي المركز الحزبي بيد عبد الله مسعود ، الذي لعب خلال تلك الفترة دوراً مهماً وإيجابياً في بغداد وتمكن من توسيع قاعدة التنظيم ، كما وجد نفسه قادراً على إصدار جريدة للحزب بعد التوقف الطويل لجريدة كفاح الشعب ، واعتبر نفسه ، كما لوحظ من طريقة عمله ، المسؤول الأول عن الحزب عموماً أو عن بغداد على نحو خاص . فبادر إلى إصدار جريدة الشرارة في شهر كانون الأول/ديسمبر من عام 1940 دون العودة إلى فهد معتبراً ذلك أمراً ضرورياً وممكناً وضمن صلاحياته . وفي

هذه النقطة نشأ خلاف بين فهد وعبد الله مسعود عندما عاد الأول إلى بغداد . وكان نفس الخلاف قد نشأ قبل ذلك بين فهد وعاصم فليح حول إصدار أول جريدة للحزب باسم "كفاح الشعب" ، إذ كان عاصم يريد إصدار الجريدة وكان فهد يرى الأمر متعجلاً . كان فهد يدرك أهمية الجريدة في حياة الحزب الداخلية ، وفي توطيد علاقة الشيوعيين بالأوساط الشعبية التي تتسلم تلك الجريدة ، وفي تعبئة الناس حول شعارات الحزب وشرح سياسته . ولكنه ، كما يبدو ، كان يرى بأن خطوة عبد الله مسعود كانت متعجلة للأسباب التالية:

• كانت التنظيمات الحزبية ما تزال في بداية عملية إعادة بناء الحزب ، وبالتالي يفترض التحلي بالهدوء والابتعاد عن جلب انتباه الشرطة والحكم إلى نشاط الشيوعيين المنظم والموحد ، إذ أن صدور الجريدة كان يعني استقرار التنظيمات الحزبية وتحسن إمكانياتها وتوسع كواردها ونمو مواردها المالية بما يساعدها على إصدار جريدة مركزية للحزب؛

• لم تكن الكوادر المؤهلة لمواصلة إصدار الجريدة بمستوى مناسب متوفرة حينذاك بعد الملاحقات والضربات القاسية التي تلتها قيادة الحزب وكوادره وأعضائه في الفترة الواقعة بين 1935 وأواخر 1937 وأدت إلى شل العديد من التنظيمات الحزبية؛

• كان فهد ما يزال بعيداً عن مركز القيادة ومشغولاً بإعادة بناء المنظمات الحزبية واختيار الكوادر المناسبة لمختلف المجالات ، وبالتالي كان يخشى من احتمال ارتكاب الهيئة المشرفة على إصدار الجريدة ، وهو بعيد عنها ، أخطاءً سياسية أو انحرافاً عن فكر وسياسة الحزب في فترة إعادة البناء ، خاصة وأن الحزب كان قبل ذلك بفترة وجيزة ، أي في عام 1936 ، قُبِلَ عضواً في الأمانة الشيوعية ، التي كانت تستوجب المزيد من اليقظة والحذر في معالجة الكثير من الأمور الفكرية والسياسية والتنظيمية .

وأمكن تسوية الخلاف بين فهد وعبد الله مسعود من خلال استمرار صدورهما ، إذ لم يعد مناسباً إيقافها ، على أن يلتزم عبد الله مسعود ، وهو المهم عند فهد ، بالعودة إليه في شؤون الجريدة المختلفة ، باعتباره المسؤول الأول عن الحزب . وكان الحوار حول الجريدة فرصة مواتية أمام فهد لحسم الموقف بالنسبة للمسؤولية الأولى في الحزب . إذ عمد فهد إلى تأكيد ثلاث مسائل أساسية تعزز موقعه في مركز القيادة ، وهي:

1. أنه ، ومنذ الآن ، يتحمل المسؤولية الأولى في الحزب وفي جميع شؤون الحزب دون استثناء ، ويفترض الإقرار بذلك من قبل عبد الله مسعود وبقيّة أعضاء القيادة؛

2. وأن الوقت قد حان لتشكيل مركز جديد يحمل اسم اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي ، مهما كان أمر تشكيل هذه اللجنة مؤقتاً أو ضعيفاً ، إذ أنه يوحى للآخرين بمسؤولياتهم وبوجود مركز يتحمل مسؤولية نشاط الحزب وقراراته ويمنح الشيوعيين ومؤيدي وأصدقاء الحزب الثقة بالحزب وبأنفسهم . وتزداد أهمية ذلك عندما يتعلق الأمر بالأشرف على جريدة

مركزية للحزب يراد من خلالها التعبير عن وجهات نظر الحزب وقيادته وترويج ونشر أفكاره وسياساته وقراراته؛

3. وأن العمل الحزبي واتخاذ القرارات يفترض التشاور بشأنها مع سكرتير الحزب وبعيداً عن التسرع وتعريض عملية إعادة بناء الحزب إلى مخاطر غير مبررة .

وكان فهد من خلال ذلك يؤكد قيادته للحزب بلا منازع ، وهي الخاصية التي تميزت بها الأحزاب الشيوعية في الفترة الستالينية وما بعدها لسنوات طويلة ، باعتبار المسؤول الأول هو القائد الفعلي الوحيد في الحزب ، وهو الذي يتخذ بالمحصلة النهائية القرارات ويحسم الأمور . وكانت مهمات وصلاحيات الحزب بكل قواعده وكوادره تتراجع لصالح اللجنة المركزية ، ومهمات وصلاحيات الأخيرة تتراجع لصالح المكتب السياسي ، و تتراجع صلاحيات ومهمات المكتب السياسي لصالح السكرتير العام . ، وكانت كل هذه التراجعات تشكل تشديداً متواصلاً للمركزية وتراجعاً شديداً للديمقراطية ، وهيمنة للفردية على حساب الجماعية .

وخلال تلك الفترة عمد فهد فعلاً إلى تشكيل قيادة الحزب لتشرف على مجمل عمل الحزب وعلاقاته ونشاطه والصحيفة التي يصدرها . ولم يكن هناك من يمكنه أن يتدخل في تشكيل اللجنة المركزية الجديدة ، إذ اعتبر فهد نفسه الخميرة الوحيدة المتبقية والعاملة من اللجنة المركزية السابقة . فعمد في كانون الثاني/يناير عام 1940 إلى اختيار عددٍ محدودٍ من الشيوعيين شكل منهم اللجنة المركزية ، وكانت على النحو التالي: فهد السكرتير العام ، عبد الله مسعود ، وديع ظلية ، جورج يوسف ستو ، نعيم طويق وحسين طه 216 . ولم يكن هذا الاختيار قائماً على امتلاك هؤلاء لخصائص استثنائية و متميزة ، بل تركز بالأساس على معايير معينة منها المعرفة المباشرة والثقة بالمرشح لهذا المركز من جانب فهد ، والاستعداد للعمل والتنوع بالنسبة إلى المناطق التي ينحدرون منها ، بسبب أهمية الحفاظ على استمرارية علاقاتهم بتلك المناطق التي جاءوا منها . وكان بعض هؤلاء جديداً في الحزب ولكنهم معاً كانوا يشكلون بالنسبة إلى فهد المجموعة الأفضل بالمقارنة مع الآخرين . وفي هذه الفترة من نشاط اللجنة المركزية ووجود فهد على رأسها قامت الجماعات القومية بحركة انقلابية عسكرية تسلمت السلطة التنفيذية بيديها . فكيف كان موقف الحزب الشيوعي العراقي من هذه الحركة الانقلابية؟ سنجيب عن هذا السؤال في مكان آخر من هذا الكتاب .

## المبحث الثاني : فهد وعملية إعادة بناء الحزب

اتسمت سنوات العقد الرابع في أوروبا ببروز ظاهرتين رئيسيتين أثرتا على وجهة التطور اللاحقة للعالم بأسره ولسنوات طويلة لاحقة ، ونعني بهما:

(1) استمرار وجود وتطور الاتحاد السوفييتي وتحقيق نجاحات في البناء الاقتصادي والتعبئة السياسية الداخلية ، إضافة إلى تزايد عدد الأحزاب الشيوعية في بلدان جديدة واتساع نشاطها وزيادة تأثير الأممية الشيوعية على الحياة السياسية لتلك الأحزاب وعلى الصعيد الدولي . كما تنامي دور وتأثير قيادة الحزب الشيوعي السوفييتي على الأممية الشيوعية وعلى قراراتها ومواقفها السياسية واتجاهات نشاطها .

(2) وصول الحزب النازي إلى السلطة في ألمانيا وتنامي نفوذه في أوساط الشعب الألماني ، وتعزز مواقع الفاشية في إيطاليا والعسكرية في اليابان . وتطلع هذه الدول الثلاث ، وخاصة ألمانيا واحتكاراتها الكبرى ، في الهيمنة على السياسة الدولية وفي إعادة تقسيم مناطق النفوذ الاستعماري وتغيير النتائج التي انتهت إليها الحرب العالمية الأولى لصالح ألمانيا الرأسمالية النازية . ووجدت هذه القوى مؤيدين لها في خارج ألمانيا وفي بلدان غير قليلة ، ومنها العراق والعديد من الدول العربية . ولم يكن هذا التأييد بسبب الاتجاهات الفكرية والسياسية القومية والشوفينية وسياسات الاستعلاء القومي فحسب ، بل وبسبب كره غالبية سكان العراق وبقية الدول العربية للاحتلال والهيمنة البريطانية والفرنسية وتطلعها نحو الحرية والاستقلال والوحدة العربية . وبدأت في حينها بوادر الدفع باتجاه الحرب تظهر في سياسة ألمانيا وفي علاقاتها مع البلدان المجاورة ، كما أن ألمانيا عمدت إلى تعزيز علاقاتها بشكل خاص مع إيطاليا واليابان وأسبانيا .

وعلى هامش الاتجاه ، الذي نحن بصدد ، تبلورت في سياسة الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي جملة من المظاهر السلبية التي يفترض الإشارة إليها والتي لها ، بهذا القدر أو ذاك ، علاقة مباشرة أو غير مباشرة مع دور فهد في العراق ، منها:

- تفاقم ظاهرة عبادة الفرد في الاتحاد السوفييتي التي تمثلت بعبادة شخصية ستالين ، وخاصة في سنوات العقدين الثالث والرابع وأثناء الحرب العالمية الثانية حتى وفاته في عام 1953 . واستفاد ستالين من الأجواء المؤيدة له لينزل عبر أجهزة الأمن السوفييتية أقصى الضربات والتصفيات الجسدية بمن اعتبرهم ضمن الانتهازيين والمحرفين وخونة الحزب والبلاد ، في حين كانوا ضمن المجتهدين في الفكر والسياسة والمختلفين معه والمخالفين له في التحليل والتشخيص والمواقف ووجهة تطور الاتحاد السوفييتي . وكانت الحملة شديدة وقاسية واستمرت لثلاثة عقود تقريباً .



- تحول الحزب الشيوعي السوفييتي إلى أداة طيعة بيد ستالين ومنفذ لإجراءاته ومتعاون مع أجهزة الأمن السوفييتية . وأصبح التمييز بين الحزب والدولة متعذراً ، وأصبحت قرارات الحزب ، أو قرارات ستالين بمثابة قرارات للحزب والدولة السوفييتية في آن .

-تفاقم تبعية الكومنترن ومن ثم الحركة الشيوعية العالمية للحزب الشيوعي السوفييتي ولفرد ستالين باعتباره قائد الحركة الشيوعية العالمية ومرجعها الأول ومرشدها الفكري والسياسي؛

- اتساع مظاهر الاختلاف في وجهات النظر وتفاقم الصراعات والنزاعات الحادة بين أحزاب الأهمية الثانية الاشتراكية ، وأحزاب الأهمية الثالثة الشيوعية ، باتجاه اليمين واليسار على التوالي ، وتراجع فرصة التلاقي والسير في درب واحد ، باعتبارهما حزبين لحركة عمالية واحدة على الصعيد العالمي .

وكانت هذه الاتجاهات تقود ، شاء الإنسان أم أبى ، إلى تقليص الديمقراطية الداخلية في الحزب ، التي تفاقمت سنة بعد أخرى بحكم إرهاب السلطة وغياب الديمقراطية عن حياة ونشاط وعلاقات المجتمع .

وعلى هامش الظاهرة الثانية تبلورت الاتجاهات التالية التي وجدت تعبيرها في الأحداث السياسية في العراق أيضاً ، ومنها حركة رشيد علي الكيلاني:

- ممارسة سياسات استبدادية وعنصرية في ألمانيا موجهة ضد اليهود والغجر (الروما والسنتي) وضد الشيوعيين والاشتراكيين والديمقراطيين المسيحيين وبناء معسكرات الاعتقال لأعداد كبيرة من هؤلاء الناس؛

- التحضير لحرب عالمية جديدة وتشكيل التحالف الثلاثي لدول المحور وخوض الحرب فعلاً ، ثم انهيار هذا التحالف وسقوط الفاشية على أيدي التحالف الديمقراطي على الصعيد العالمي؛

- هيمنة الإمبريالية العالمية على أقسام كبيرة من العالم والتحكم في موارده وأسواقه وحركة رؤوس الأموال فيه؛

- تطور حركة التحرر الوطني وتنامي نضالاتها لانتزاع الاستقلال والسيادة الوطنية .

في هذه الفترة عاش فهد في موسكو وشهد بعض التطورات الجارية في أوروبا ثم عاد إلى العراق ليمارس عمله الحزبي . وتؤكد المعطيات التي تحت تصرفنا إلى أن فهداً ، كما هو حال بقية الكوادر الشيوعية التي درست في الاتحاد السوفييتي في تلك الفترة التي كان يعول عليها في قيادة أحزابها الشيوعية الحديثة التكوين ، تأثر كثيراً وإلى حدود بعيدة بالحزب الشيوعي السوفييتي ، الذي كان يبني أول تجربة اشتراكية في العالم ، وتحت قيادة ستالين ، الذي لم يكن قائداً للحزب والدولة السوفييتية في عملية البناء فحسب ، بل كان القائد الفعلي للأهمية الثالثة الشيوعية برمتها . وعندما عاد إلى الوطن كان فهد مشبعاً بالنهج البولشفي السوفييتي أو الستاليني ، سواء كان ذلك بالنسبة للعمل السياسي ، أم بالنسبة لبناء ونشاط الحزب ، إذ كانت

قد ارتسمت في ذهنه صورة كاملة تقريباً عن عملية إعادة تشكيل الحزب السري بالصورة المحددة التي طرحها اللينينية وشددت منها البولشفية الستالينية ودرسها في المدرسة الحزبية والحياة العملية ، في بلد كان متخلفاً يعاني من الأمية والجوع والمرض والاستغلال ويعاني من نير الإمبريالية البريطانية ونهبها لخيراتهِ . ولم تكن هذه الصورة بالضرورة هي التي كانت في أذهان الشيوعيين الذين لم يغادروا الوطن وتركز عملهم في الداخل ، كما كانت دراستهم للماركسية واللينينية والاتجاهات الستالينية الجديدة محدودة تماماً . وهنا نعني بأن فهماً عندما عاد كان مشبعاً بالفكر الاشتراكي السوفييتي من جهة ، ومشبعاً بالكراهية للفاشية والحرب المحتملة التي كانت تبدو واضحة في السياسة الدولية من جهة أخرى . وكان لا بد أن ينعكس كل ذلك على طريقة واتجاه نشاطه العملي .

ولكن فهماً ، أثناء محاولاته الجادة والناجحة لإعادة بناء الحزب الشيوعي العراقي فكراً وسياسياً وتنظيماً ، لم ينس الأخذ بنظر الاعتبار الظروف الذاتية والموضوعية والوطنية الملموسة في العراق عند رسمه لسياسة الحزب 217 ، رغم أن مجال الحركة الذي تركته له الأممية الشيوعية بشروطها الكثيرة الملزمة لم يكن واسعاً ، وكذلك أسس وقواعد اللينينية الخاصة ببناء الحزب البلشفي . إذ كان فهد ملزماً بممارسة تلك الشروط في بناء الحزب الشيوعي العراقي وقواعد العمل التي وضعت له . إن أسس بناء الحزب التي حددها لينين ووافقت عليها الأممية الثالثة كانت نتيجة نقاش وصراع طويلين في قيادة الأممية الثانية وممثليها في روسيا على نحو خاص ، والتي شملت مسائل الثورة الروسية (1905) والحزب السياسي للبروليتاريا ، وقضايا التحالف بين البروليتاريا والفلاحين ، ومسألة دكتاتورية البروليتاريا وقضية الديمقراطية السياسية والنضال البرلماني والديمقراطي ، وعلاقة الكفاح الاقتصادي بالكفاح السياسي ، والعلاقة بين الإضراب السياسي والانتفاضة المسلحة وأرجحية الثورة البرجوازية-الديمقراطية على الثورة الاشتراكية . ولعبت التجربة الروسية والسوفييتية دورها المباشر في صياغة النظام الداخلي للحزب الشيوعي وفي تحديد شروط بناء الحزب والانخراط في عضوية الأممية الثالثة 218 . وجدير بالإشارة إلى أن دراسة القسم الأعظم من مؤلفات ماركس وإنجلز لم تكن ممكنة في تلك الفترة القصيرة ولا الاطلاع على كل الحوارات والنقاشات التي دارت في الأممية الثانية وبين الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية بأجنحتها المختلفة على صعيد روسيا وأوروبا ، في حين كان الاطلاع على ودراسة كتابات لينين وستالين متاحين في الاتحاد السوفييتي على نطاق واسع .

217 فهد. كتابات فهد. حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية. مصدر سابق.

218 نفس المصدر السابق.

بدأ العمل المركز لفهد في قيادة الحزب في العام 1941 . ولا نمتلك حتى الآن معلومات كافية ودقيقة عن نشاطه في الفترة 1938-1940 . ولكن المرجح أن نشاطه في هذه الفترة قد انصب على تجميع وتوحيد الخلايا المبعثرة في مختلف مدن ألوية الوسط والجنوب من أجل شدها إلى الحزب واللجنة المركزية الصغيرة التي كان يقودها السكرتير الأول عبد الله مسعود 219 . ومنذ هذه الفترة ارتبط اسم الحزب الشيوعي العراقي بفهد مباشرة ، كما اقترن اسم فهد باسم الحزب الشيوعي العراقي . ولا شك في وجود جملة من الجوانب الإيجابية والسلبية في مثل هكذا رابطة لا تخفى على متتبعي نشاط الحزب وعلى ما يطلق عليه صواباً بعبادة الفرد في الحركة الشيوعية العالمية والتي سادت الأحزاب الشيوعية عقوداً من الزمن . كانت الواجبات الملحة التي واجهت الحزب في بداية الأربعينات تتمثل في استكمال بناء الحزب سياسياً وأيديولوجياً وتنظيماً وتحشيد الجماهير حوله ، أي السعي لتحويل الحزب إلى حزب جماهيري يمتلك القدرة في التأثير على الشارع العراقي ، بعد أن عزل الحزب عن الحياة السياسية العلنية المشروعة . وكان الحزب يفترق إلى النظام الداخلي وإلى برنامج مرحلي . وكان لأعضاء الحزب آراء وتصورات مختلفة حول مفهوم الماركسية - اللينينية والاشتراكية . وكان فهد يدرك تماماً بأن معظم رفاقه تعوزهم معرفة المبادئ الأولية لهذه النظرية . لذلك بادر إلى نشر سلسلة مقالات في جريدة الشرارة (1941-1942) والقاعدة في (1943 - 1946) وفي مجلتي "المثل العليا" و "المجلة" ، عالج فيها المسائل الآتية المطروحة في بداية الأربعينات مثل تحسين أوضاع الجماهير المعيشية والصحية والثقافية والنضال من أجل الديمقراطية وحرية الصحافة . كما عالج مسائل الشبيبية وحقوق المرأة وحقوق الشعب الكردي ، ومسائل الجبهة الوطنية وحقيقة الصهيونية وقضية حركة التحرر العربية والنضال ضد الرجعية والإقطاع والفاشية والاستعمار . وكان فهد يسعى من خلال كل ذلك تحقيق ثلاثة أهداف أساسية ، وهي: تنوير الشيوعيين وغيرهم بهذه الآراء التي تعتبر في بعضها الكثير جديدة على المجتمع العراقي أولاً ، وتحقيق وحدة الرأي الفكري والسياسي لدى الشيوعيين العراقيين وموازري الحزب ثانياً ، وتنشيط النضال من أجل تحقيق تلك الأهداف ثالثاً . وتبدو هذه الأهداف واضحة من سلسلة المقالات التي نشرها أو دفع إلى كتابتها ونشرها فهد ، وشاركه في هذا النشاط حسين محمد الشبيبي . وكانت المعالجات تتضمن تحليلاً اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً معمقاً لواقع العراق وسياسات الحكومة والمعالجات المطلوبة لمثل هذه الأوضاع بالمقارنة مع دراسات تلك الفترة ، معتمداً في هذا التحليل على المنهج الماركسي العلمي ، المادي الديالكتيكي والمادي التاريخي . وكانت معالجاتهما ، ولا سيما فهد ، واقعية ومقتعة في مختلف الموضوعات التي بحثاً فيها ، إذ استطاعت أن تلف حولها كثرة من المثقفين والطلبة ، إضافة

إلى مجموعات من السياسيين الديمقراطيين والفئات الكادحة التي وجدت في تلك التحليلات أسلوباً معمقاً ومنطقياً في التحليل وفي صياغة المهمات .

ومنذ عام 1941 بدأ فهد يتطرق في مقالاته إلى مفهوم وبناء الحزب وأهمية وحدة الحزب لتحقيق المهمات التي يسعى إليها . ففي هذه الفترة بالذات بدأت بعض النشاطات التكتيلية بالظهور في داخل الحزب . وكان الحزب ما يزال يفتقد إلى نظام داخلي مقرر من قبل مؤتمر حزبي . بيد أن فهداً كان يدرك ب " أن المرء يمكن أن يعمل بدون النظام الداخلي أيضاً" 220 . إلا أن لينين كان قد اهتم بقضية أخرى ، إذ طرح على نفسه السؤال التالي: "بأي شئ نبدأ؟" ، وكانت الإجابة عن هذا السؤال شيئاً حاسماً بالنسبة للرفاق العراقيين أيضاً ، حين أصدرت اللجنة المركزية الفتية جريدتها المركزية (الشرارة) التي اهدت في ما تنشره بالماركسية-اللينينية .

يبدو أن الأهمية الشيوعية ، وبعد أن تعرفت جيداً على سمات وخصائص فهد ، بما فيها همته العالية وإخلاصه للقضية التي تبناها بقناعة ملموسة وإيمان كبير ، تيقنت من جدارته وقدرته على قيادة الحزب وإعادة تنظيمه ، بعد أن عجز الذين سبقوه في الدراسة الحزبية عن مواصلة المهمة . وكان فهد جديراً بتلك الثقة والمهمة التي نذر حياته في سبيلها .

ومنذ اللحظة الأولى لوصوله إلى بغداد عمل فهد من أجل تأسيس حزب شيوعي من طراز جديد ، طراز بلشفي ، يلتزم بشروط الانتماء إلى الأهمية الشيوعية بدون قيد أو شرط ، واعتبر نفسه الممثل الرسمي الوحيد للكومنترن . كان انتخاب فهد سكرتيراً عاماً للجنة المركزية بغياب عبد الله مسعود ، الذي كان حتى ذلك الحين في السجن ، مسألة منطقية ، وما كان وجوده سيغير من هذه النتيجة . ويكمن السبب وراء هذا التقدير في الملاحظات التالية:

1 . كان فهد عضواً مؤسساً للحزب منذ عامي 1933/1934 ، كما كان مسؤولاً عن أكثر الحلقات الماركسية فعالية وجماهيرية ، وهي حلقات البصرة والناصرية ، التي تميزت بالجهادية والعملية والالتصاق بالناس؛

2 . وكان قد أرسل للدراسة الحزبية في ضوء السمات التي كان يتمتع بها ، إضافة إلى أن القيادة توسمت فيه القدرة على مواصلة النضال على الطريق الذي اختاره؛

3 . وكان فهد يتمتع بمستوى فكري وسياسي يفوق كثيراً مستويات بقية الرفاق العاملين معه في التنظيم ، إضافة إلى تجربته التنظيمية والعملية ومعرفته الواسعة بأحوال العراق ، إضافة إلى سنه حيث كان قد تجاوز حينذاك سن الأربعين سنة؛

4 . انتدابه فعلياً من مكتب الأهمية الشيوعية لهذه المهمة؛

220 لينين ، ف. إ. الأعمال. الفروقات في الحركة العمالية الأوروبية. في: المجلد 16. الطبعة الألمانية. دار ديتس للنشر. برلين. 1961. ص 354.

5 . قناعة الآخرين بقدراته وكفاءاته بالمقارنة مع عبد الله مسعود .

وكان فهد يعتقد بمحدودية عبد الله مسعود وضعف مستوى قدراته الفكرية والسياسية والتنظيمية ، ولكن ثمن فيه مواصلته العمل وتحمله المسؤولية خلال الفترة 1938 - 1941 ، إلا أن المرحلة الجديدة كانت تتطلب مسؤولاً آخر يمتلك خصائص وسمات أخرى . ويبدو أن عبد الله مسعود لم يكن مقتنعاً بكل ذلك ، مما دفعه إلى محاولة عقد مؤتمره الخاص الذي بحثنا فيه في موقع آخر من هذا الكتاب .

عقدت اللجنة المركزية للحزب بقيادة فهد اجتماعاً خاصاً في كانون الأول/ديسمبر 1942 ، أي بعد عودة فهد من الاتحاد السوفييتي ، لمعالجة موضوع الانشقاق وتأمين مواصلة العمل ، وكذلك العمل من أجل إعادة الشيوعيين الذين ذهبوا مع عبد الله مسعود إلى الحزب ثانية والقيام بجولات في المدن العراقية المختلفة حيث توجد فيها تنظيمات للحزب . كما قدم فهد في هذا الاجتماع تقريراً سياسياً عاماً ، نشرته جريدة "القاعدة" ، باعتبارها اللسان الجديد الناطق باسم اللجنة المركزية في عدد كانون الثاني/يناير 1943 . بدأ التقرير بمقدمة حول الأوضاع السياسية في العالم ، جاء فيه ما يلي: "إن الرجعية المحلية والأجنبية لا تسمح لها مصالحها الطبقية طبعاً أن تغض عينها عن كفاحنا المجيد ولكن الأعمال البطولية التي قام ولا يزال يقوم بها الجيش الأحمر وعظمة الاتحاد السوفييتي الجبار التي باتت جلية ساطعة لكل ذي عينين مهما كان بهما من رمد وزعامة الاتحاد لجهة الشعوب الديمقراطية العالمية وعبقرية زعيم البروليتاريا العالمية الرفيق ستالين من جهة ونضالنا المجيد الذي أعلنه حزبنا ضد الرتل الخامس الأثيم ومن النازية والفاشية المجرمتين ومركزة نشاطاتنا وأيماننا وتقوية الرفاق جميعاً ومكان العراق في جبهة الديمقراطية العالمية من الجهة الثانية كل هذه كانت عوامل شن هجوم الرجعية المحلية والأجنبية العلني على الحزب الشيوعي العراقي . في مثل هذه الظروف حاول قادر متكناً على مساعدته فاضل ومحمود سمساري الرجعية القيام بأعماله التخريبية لنسف الحزب من الداخل لأعمال الهدم الأثمة في بنیان الحزب الشيوعي العراقي حزب الطبقة العاملة العراقية صوت الجماهير العراقية الوحيد الأمين . ولكن محاولات قادر وفاضل ومحمود خنقت وهي في مهدها بفضل قيادة الحزب الساهرة وبفضل ثورة قاعدة الحزب الواعية على الخونة المخربين . وفي 16 آب 1942 قررت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي بالإجماع طرد الأعضاء الثلاثة الخونة المارقين فتخلص الحزب من قسم من الانتهازيين الذين أبت انتهازيتهم إلا التماذي في ظلالهم فراحوا يجمعون حولهم مخدوعين طبييين وآخرين لا هم مخدوعون ولا هم طبييون وأطلقوا على هذا أسم "المؤتمرين" الذين لم تتكون نواتهم في الحقيقة والواقع إلا من مغامرین على سلامة الحزب الشيوعي العراقي وعلى مصالح الشعب

العراقي" 221 . ويتضمن هذا النص جملة من الأفكار والممارسات التي هيمنت على نشاط الحركة الشيوعية العالمية على امتداد عقود طويلة كنا شهودها وساهمنا فيها ، ومنها:  
\* الإصرار على احتكار الماركسية من جانب الأحزاب الماركسية - اللينينية ، الشيوعية ، واستنكار تبنيتها من أية جهة أخرى؛

\* لا يجوز وجود أكثر من حزب شيوعي واحد يحمل الفكر الماركسي - اللينيني ،  
\* اتهام كل الذين يدعون تبنيهم للماركسية من خارج الحزب الشيوعي بالانتهازية والتحريرية والسطو على الفكر الماركسي والخيانة وخدمة البرجوازية .  
وهذه الواجهة في التحليل هي التي ميزت كتابات فهد في قضايا الحزب والأممية الشيوعية ، وبشكل خاص في كراسه "حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية" .

وعلى إثر الانشقاق وفي أعقاب اجتماع اللجنة المركزية تبلورت عند فهد فكرة اصدر كراس يبحث فيه من النواحي الإيديولوجية والسياسية والتنظيمية أهمية بناء حزب شيوعي من طراز بلشفي في العراق . وانكب فعلاً على إنجاز هذا الكراس في عام 1943 مجسداً فيه الرؤية اللينينية - الستالينية لطبيعة وبناء ونشاط أو مهمات الحزب الشيوعي واختلافه من مختلف الأوجه والجوانب عن الحزب الاشتراكي الديمقراطي . واستخدم طريقة لينين في الإجابة عن أسئلة رفيق شيوعي ، وسمي الكراس "حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية" 222 . وتضمن الكراس معالجات للمسائل التالية:

- 1- حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية .
- 2- هل هناك قاعدة ثابتة في التنظيم؟
- 3- ما هو واجب الأقلية الصحيحة تجاه الأكثرية الخاطئة؟
- 4- الفروق الجوهرية بين الطرق التنظيمية في حزبين شيوعيين أحدهما سري والآخر علني .
- 5- جذور الانتهازية .

كانت تلك المسائل تطرح عادة وتثير تساؤلات الأعضاء داخل الحزب الذي لا يمتلك نظاماً داخلياً وبرنامجاً مقرين من قبل مؤتمر حزبي شرعي ، كي يهتدي بهما أعضاء الحزب ومرشحيه لنيل العضوية والمشاركة المسؤولة في نشاطات الحزب . وكان فهد يدرك مدى أهمية البرنامج ، ولكن ما فائدة مثل هذا البرنامج إن لم يكن هناك الحزب الذي يسعى إلى ترويجه وتنفيذه . لذلك بدأ أولاً بجمع شمل أعضاء الحزب وتعزيزه وتطوير نشاطه ثم الأعداد لعقد الكونغرس الحزبي الأول الذي يمهد الدرب لعقد المؤتمر الوطني الأول .

221 فهد. المؤلفات. تقرير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي في اجتماعها المنعقد في كانون الأول 1942. ص 398/397.

222 فهد المؤلفات. حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية. مصدر سابق. ص 17-99.

اعتمد فهد في إجاباته عن أسئلة "مقدم" على عدة مصادر أساسية ، وهي:

- 1 . كتابات لينين ، وبشكل خاص "الأعمال" ، المجلدين 3 و 11 ، إضافة إلى "الفروقات في الحركة العمالية الأوروبية" و "إحدى المسائل الأساسية في الثورة" و "بأي شيء نبدأ"؛
- 2 . كتابات ستالين ، "مسائل اللينينية" و "في سبيل تكوين بولشفي"؛
- 3 . كراسات خاصة بالمدرسة الحزبية ، ومنها: تاريخ الحزب الشيوعي السوفييتي ، قضايا بناء الحزب ، الخلافات في الحركة العمالية العالمية ، إضافة إلى تلك الكراسات والمقالات التي صدرت عن مكتب الأمم المتحدة ، والخاصة ببشفة الأحزاب الشيوعية؛
- 4 . خبرته العملية التي تجمعت لديه سواء في المدرسة الحزبية أم في عمله في العراق أم على ما اطلع عليه من تجارب أحزاب أخرى في جولاته الأوروبية بعد الانتهاء من دراسته في موسكو ، وخاصة خبرة الحزب الشيوعي الفرنسي والحزب الشيوعي الإيطالي والحزب الشيوعي البلجيكي .

ومن الجدير بالإشارة إلى أن فهداً اعتمد على المصادر الرئيسية في كتابات لينين وستالين أو بعض الدراسات الخاصة بالأحزاب الأخرى ومنها الدراسات الخاصة بالأممية الشيوعية . وفي معرض بحثه لأهمية وحدة الحزب الفكرية والسياسية والتنظيمية والإعلامية أو الدعاية والتحرير كتب فهد يقول: "كانت للينين غاية فسافر من أجلها إلى خارج روسيا ، وكانت تلك الغاية إصدار جريدة وكانت للينين غاية وهي خلق حزب من نوع جديد ، حزب بروتيتاري خال من الانتهازية ومن نفوذ الطبقات الغربية فأصدر جريدته "أيسكرا" لتضع الأسس لذلك الحزب وتهيئ له ، وكانت للينين غاية وهي إسقاط الأوتوقراطية والبرجوازية وتحويل السلطة إلى أيدي البروليتاريا ، فخلق الحزب ذا النظام الحديدي المسلح بالنظرية الثورية والخطط الحكيمة ، وعندما دقت ساعة الخلاص من الملاكين والرأسماليين برهن هذا الحزب على جدارته في قيادة الطبقة العاملة بأسرها وفي قيادة حلفاء هذه الطبقة واعني الفلاحين وشعوب مستعمرات القيصرية ، وتوجيه هذه القوى المتجمعة لك صرح حكم الملاكين والرأسماليين وإقامة دكتاتورية الطبقة البروليتارية"223 .

وبعد أن تطرق فهد إلى دور الحزب الروسي البلشفي وقادته مثل لينين وستالين في تحقيق الثورة وإسقاط البرجوازية وإقامة دكتاتورية البروليتاريا ، عرج على ذكر شرط من شروط الأممية التي يجب أن تلتزم بها الأحزاب الشيوعية وربط ذلك بنقد شديد موجه إلى عبد الله مسعود قانلا: "قلنا إن الهدف النهائي للحزب البولشفي كما سجلته مناهجه كان إسقاط البرجوازية وإقامة الدكتاتورية . ولم يقف حزب شيوعي في العالم إلا على هذا الأساس ، كما أن ذلك شرط من شروط الأممية الشيوعية . (إن الأحزاب الانتهازية ومنها حزب رياض تنكر

223 فهد المؤلفات. حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية. ص 35.

الدكتاتورية البروليتارية وتتجنب ذكرها في مناهجها كما يتجنب اللص ارتياد المكان الذي سطا عليه) ،... " 224 .

وانطلاقاً من المبدأ اللينيني في مفهوم الحزب وواجباته في المرحلة الإمبريالية ، يواصل فهد قوله: "ولكي تستطيع الأحزاب الشيوعية في العالم القيام بتأدية واجباتها في هذه المرحلة- مرحلة الإمبريالية- تحتتم عليها أن تكون أحزاباً مجاهدة ، أحزاباً جماهيرية ، لها قواعد عامة ثابتة (بالنسبة للدور الذي هي فيه من أدوار نضال الطبقة العاملة) كأن يكون الحزب مركزياً- غير مفكك - لكي يستطيع مقارعة العدو الموحد ، الرأسمالية الاحتكارية (التي تتمثل اليوم بالفاشية) وأن يكون حراً من تأثيرات النفوذ الأجنبي ، نفوذ الطبقات المعادية ، التي تستخدم الانتهازيين مطايا لها داخل الحزب وهكذا يحافظ الحزب على وحدته ، إذ يظهر الحزب نفسه لا من العناصر الخائنة فقط بل ومن العناصر الثائرة والخاملة والمخالفة لمبادئه وتعاليمه أيضاً . وهنا يقتبس فهد فقرة من لينين دون أن يشير إلى المصدر: "يقول لينين (عندما تكون البروليتاريا في معارك فاصلة مع البرجوازية من أجل السلطة فمن الضروري ليس إقصاء المنشقين والإصلاحيين والتورانيين "منشفيك إيطاليا" فحسب بل قد يكون من المفيد أيضاً إقصاء شيوعيين طبيين قد يتذبذبون أو يكشفون عن ميل التذبذبات نحو الوحدة مع الإصلاحيين . يجب إقصاء هؤلاء عن جميع المراكز ذات المسؤولية في الحزب) ، أن يتبع أشكال التنظيم التي تمكنه من استغلال جميع الإمكانيات في العمل ، أن يدرّب قادته وكادره تدريباً يجعلهم أهلاً لقيادة حزب مفروض عليه أن يقوم بدور الطليعة ، أن يسير على قاعدة المركزية الديمقراطية ، أن يأخذ بقدر المستطاع (عندما يكون في حالة سرية أو في ظروف خاصة) بمبدأ المركزية الديمقراطية ، وأن يتقيد بقواعد عمومية تقررها الأممية الشيوعية وأن لا يبني تنظيمه الحاضر فقط دون الاحتياطات للطوارئ" 225 .

ومن أجل نقل أسس البلشفية إلى رفاقه وتثبيتها في منظمات الحزب من خلال الحدث التاريخي الملموس ، ولكي يبرهن على أن اللجنة المركزية لمسعود والمؤتمر الذي أنتخبه قد وضعوا أنفسهم خارج صفوف الحزب ، تطرق فهد إلى تاريخ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي بقوله: "إن الحزب البلشفي حزب في الحكم لديه جميع الإمكانيات السياسية والاقتصادية والثقافية ، أنه استطاع أن ينظف صفوفه وبلادته من التيارات الانتهازية وأظهر أصحابها فيما بعد كخونة مخربين ، إنه خاض معامع ومعارك طبقية وحروباً أهلية وتحررية صلبت عود رجاله وقادته وحنكتهم وجعلتهم محترمين محبوبين ومطاعين ، وأصبح ما يقوله قائدهم الأكبر ستالين ، وما يأمر به ، واجبا مقدسا وأمراماً مطاعاً ليس فقط من قبل أعضاء الحزب والطبقة

224 نفس المصدر السابق. ص 36.

225 نفس المصدر السابق. ص 37.



البروليتارية السوفييتية والشعوب السوفييتية بل من البروليتاريا العالمية والشعوب" 226 .  
(الخطوط الداكنة من وضع المؤلفين) . ويمكن للمتتبع أن يلاحظ هنا بأن فهذاً كان على علم بأن  
ستالين قد نظف الحزب والبلاد من التيارات الانتهازية . ، التي لم تكن تعني سوى أحد  
أمرين: إما الطرد من البلاد أو التصفية الجسدية . وأن هذه الإجراءات عادلة لأنها تخلص البلاد  
من الخونة المارقين . ولكن تهمة الخيانة والعمالة ، التي اعتقدنا بهما ، لم تكونا في الواقع  
سوى وجهات نظر فكرية وسياسية مخالفة لوجهة نظر ستالين أو قيادة الحزب الشيوعي  
السوفييتي أو حتى أعضاء في اللجنة المركزية للحزب . لقد هللنا جميعاً ليس في وقت  
التطهيرات تلك ، إذ لم نكن جميعاً قد ولدنا أساساً ، ولكن حتى بعد ذلك لإيماننا بأنه الطريق  
الوحيد ، وكنا على خطأ جسيم .

ورغم تأكيد ضرورة الالتزام المطلق بمبادئ وقرارات الكومنترن والحزب البلشفي ، يلمح فهد  
إلى وجود شيء من الاستقلالية لدى تلك الأحزاب ، إذ كتب يقول: "إن الأحزاب العمالية تدرس  
تنظيم الحزب البلشفي وتعتبره (العلنية منها) أعلى أشكال التنظيم وتقتدي به ، لكنها لا تقلده  
تقليداً أعمى لا يتفق وظروفها الخاصة الذاتية منها والموضوعية" 227 .

لا شك في أن الأحزاب الشيوعية كانت تتمتع ببعض الاستقلالية في صياغة جملة من مهماتها  
اليومية وسبل التعامل مع القوى الأخرى ، ولكنها لم تكن مستقلة قطعاً في قضايا اعتبرت  
قرارات ملزمة للجميع ، وبضمنها شروط العضوية في الأممية الثالثة ، راجع الملحق رقم (1) .  
ويمكن في هذا الصدد إيراد الكثير من الأمثلة ، ولكننا نقتصر على ثلاثة أمثلة مهمة ، وهي:  
\* اسم الحزب الشيوعي المصري: بذل الشيوعيون المصريون محاولات فاشلة للاحتفاظ باسم  
حزبهم القديم ، الحزب الاشتراكي وعدم تبديله إلى الحزب الشيوعي بحجة واقعية هي أن تبديله  
بالشيوعي لا يلائم البلد . بيد أن الكومنترن أصر على أن الانتماء لا يمكن أن يتم إلا بحمل أسم  
"الحزب الشيوعي المصري" .

\* رفض طلب "الجمعية ضد الاستعمار" العراقية الانتماء إلى الكومنترن ، إلا بعد تغيير اسم  
الحزب إلى الحزب الشيوعي العراقي ، . وبعد أن صدر العدد الأول من جريدة "كفاح الشعب"  
وهي تحمل على صدرها "لسان حال الحزب الشيوعي العراقي" التي حملها قاسم حسن إلى  
مؤتمر الأممية السابع في عام 1935و وكان فهد حاضراً بصفة مراقب ، وفي ضوء التغيير قبل  
الحزب منذ عام 1936 عضواً كاملاً في الأممية الشيوعية .

\* وبعد مرور أكثر من عقدين من الزمن على حل الكومنترن ، صبت الحركة الشيوعية بقيادة  
الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي جام غضبها على الحزبين الشيوعيين الفرنسي

226 نفس المصدر السابق. ص 39/38.

227 نفس المصدر السابق. ص 39.

والإيطالي واتهمتهما بمختلف النعوت التحريفية والإصلاحية الخ . . بسبب استغنائهما عن مبدأ "دكتاتورية البروليتاريا" في نظامهما الداخلي .

وفي معالجة فهد لموضوع: "واجب الأقلية الصحيحة تجاه الأكثرية الخاطئة" تطرق إلى الأممية الثانية ونشوء الأممية الشيوعية ، والتفريد بمبادئها محاولاً تبرير أسس البلشفية وعزل أولئك الذين كانوا يدعون إلى إقامة حزب شيوعي من طراز آخر ، يخلو من قواعد ومبادئ المركزية الديمقراطية ودكتاتورية البروليتاريا . ويبدو أن النقاشات الحادة بهذا الخصوص داخل قيادة الحزب كانت ظاهرة بارزة لم يتم حلها بالحوار الموضوعي ، بل انتهى إلى عمليات انشاقية أضعفت الجميع . ولا شك في أن ظاهرة الحوار والتباين في وجهات النظر والصراع حولها تعتبر من الظواهر الصحية التي قمعت في حينها من قبل الحركة الشيوعية العالمية ، ومنها الحزب الشيوعي العراقي . وهي إحدى الأخطاء الفادحة التي ما تزال آثارها باقية حتى الآن ، كما تمارسها بعض القوى والأحزاب اللينينية التي لم تتعلم من دروس العقود المنصرمة .

وجه فهد اتهاماً لجماعة عبد الله مسعود بأنها ترفض دكتاتورية البروليتاريا والمركزية الديمقراطية من الناحية العملية ، ولكنها تتحجج ب (دكتاتورية القيادة) وب (انقياد اللجنة المركزية للسكرتير) وأخيراً ب (دكتاتورية الحزب) 228 . وكان هذا الاتهام في حينها يعتبر انحرافاً كاملاً عن الماركسية - اللينينية وسقوطاً في مستنقع الانتهازية التحريفية والأممية الاشتراكية الثانية . ويتعرف القارئ من مضمون نقاش فهد مع "الشرابين الجدد" ، أي جماعة عبد الله مسعود ، على وجود ظاهرة صحية في الحزب كانت تطالب بالديمقراطية داخل الحزب والتقليل من المركزية المشددة التي تفرضها الصيغة البولشفية في حياة الحزب الداخلية ، وكذلك الدعوة إلى حرية الانتقاد . وكانت هذه الجماعة تشير إلى أن من لا يمارس الديمقراطية على نفسه ، لا يمكنه ممارستها عندما يكون على رأس الدولة وقيادة المجتمع . وكانت أغلب الانتقادات موجهة إلى طريقة فهد في قيادة الحزب . وطرح فهد هذه المسألة بالطريقة التالية: "أما عن أولئك الذين ينشدون مثل هذه الشعارات فأنهم يعرفون ماذا يهاجمون ، ويعلمون ماذا يذيعون . إنهم يركزون هجومهم على القيادة ، أي على السكرتير ، وبالتالي على المركزية الديمقراطية ولكنهم يحتفظون بالديمقراطية لأنفسهم ، ويهاجمون المركزية . إنهم لا ينشدون سوى التحرر ، يطلبون الحرية ، الحرية بشكلها المطلق ، بمعناها البرجوازي ، بأسلوبها الانتهازي" 229 . لقد اتسمت الحركة الماركسية في العالم كله بالحيوية والتأثير الكبير عندما تميزت بوجود أكثر من رؤية واحدة إزاء المسائل المطروحة للبحث ،

228 نفس المصدر السابق. ص 26.

229 نفس المصدر السابق. ص 28.

سواء كانت قضايا فكرية أم سياسية أم تنظيمية ، ولكنها انتهت إلى الجمود أو التيبس ودخلت في أزمة حقيقية عندما سيطر عليها الرأي الواحد ودحرت الآراء الأخرى لا بالحوار ، بل بالقوة والتحرير . إذ كان لينين قد أدخل في عام 1922 هذا الاتجاه عملياً في الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي ، ثم كرسه ستالين لا في الحزب الشيوعي السوفييتي فحسب ، بل وفي الحركة الشيوعية برمتها ، ومنها الحزب الشيوعي العراقي . وكان موقف فهد بولشفيّاً صارماً إزاء هذه المجموعة والمجموعات الأخرى أيضاً .

وفي موضوع: "الفروق الجوهرية بين الطرق التنظيمية في حزبين شيوعيين أحدهما سري والآخر علني" عالج فهد المسائل التالية 230:

1- الوظيفة في الحزب السري

2- مؤتمر الحزب

3- عضوية الحزب والكادر

4- الكادر الحزبي والكادر القيادي

5- المقررات الحزبية في الحزب السري

وبعد أن تطرق فهد إلى جملة من الأمثلة من تاريخ البلشفية ، ووجه نقداً قاسياً إلى "الفوضويين العراقيين" ، انتقل إلى موضوع: "جذور الانتهازية" ، محاولاً عزل المناهضين لقيادته أكثر فأكثر ، وذلك بإلقاء اللوم ليس على أشخاص حسب ، بل على انحذاراتهم الطبقية أيضاً ، يقول فهد: "إني ذكرت لكم أشخاصاً جاؤوا بانحرافات وقاموا بتخريبات ، ولكي أحذركم من الظن بأن ذلك لم يكن ليحدث لولا أولئك الأشخاص المعينون ، أحذركم من الظن بأن ما حدث وما يحدث في الحزب مجرد أعمال شخصية (لا تيارات وان لم تتبلور بشكلها النهائي بعد) متصلة بحركتنا ، وأن كانت غريبة عنها أيديولوجياً . وفي سياق كلامه يطرح فهد فكرة محددة يضعها بين قوسين وبخط داكن ، تعبر عن طريقة تفكير ستالينية بات يفكر بها ويمارسها الشيوعيون في شتى بقاع العالم ، إذ يقول فيها: "إني لا أنكر دور الأشخاص في هذه الانحرافات ولكنهم ليسوا مصدرها إنهم نباتات جذورها الراسخة في تربة قطرنا . إن العدو يضحك من عقولنا ويفرح إن نحن حاربنا أوراق الشجرة وأغصانها وتركنا جذورها سالمة . علينا أن لا نكون أغبياء إلى حد اعتبار الأخطاء التي نشأت وتنشأ في وسطنا متأتية عن أولئك الأشخاص فنحاربهم دون محاربة التيارات الانحرافية وتنظيف حركتنا منها" 231 . وكما يبدو من هذا المقطع أن هذا الخطاب لا ينسجم تماماً مع طبيعة الحركة التي برزت حينذاك ، ولا مع مخاطرها على الحزب ، ولكنه بشكل عام كان خطاباً ستالينياً يعود للأمية الثالثة ويعبر عن

230 نفس المصدر السابق. ص 37-39.

231 نفس المصدر السابق. ص 72.

الصراعات التي كانت تواجه الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي وبعض الأحزاب الشيوعية في بعض البلدان الأوروبية حينذاك ، ولكنها لم تكن في كل الأحوال تواجه الحزب الشيوعي ولا تعبر عن الواقع القائم في العراق حينذاك .

وبعد أن اتهم فهد مجموعة عبد الله مسعود ، الذين أطلق عليهم تسمية الشراريين الجدد ، بالمساومة العنيفة والسرية مع السلطة ، اقتبس بعض الفقرات من خطاب ستالين الذي ألقاه في الاجتماع الموسع للجنة موسكو ولجنة المراقبة لمنظمة موسكو- للحزب الشيوعي- البولشفي- في 19 تشرين الأول من عام 1929 والذي عالج فيه مسألة الانحراف اليميني ليؤكد ما ذهب إليه . وهو بذلك كان يحاول المقارنة بين (اليمينيين) العراقيين واليمينيين الروس ، رغم اختلاف الأوضاع بين البلدين ، وتوصل إلى ما يلي:

" وللمحافظة على الحزب من هجمات منحرفي اليمين والكتلية علينا أن نشدد في ضبط حديدي في الحزب وعلى خضوع لا شرطي من قبل أعضاء الحزب لهذا الضبط وبدون هذا لا يمكن أن تثار حرب جدية ضد منحرفي اليمين ، أظن في ما نقلته عن الرفيق ستالين الكفاية ليوضح لنا

-:

1 . إن الانحرافات في الأحزاب الشيوعية في الأقطار الرأسمالية ، هي ميل ، ومن قبل قسم من الشيوعيين للابتعاد عن الخطة اللينينية الثورية والاتجاه نحو الاشتراكية الديمقراطية ، وتكييف الشيوعية وفق الاشتراكية الديمقراطية التي هي دعامة الطبقات المستثمرة في حركة العمال .

2 . وإن الحرب ضد الانحرافات يجب أن لا تقتصر على تحية الانتهازيين وتطهير الحزب منهم ، بل أن نحارب الانحرافات كميل خطر جدا له جذوره في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في القطر ، أي أن نحارب الأفكار التي تنبعث منها الانتهازية .

3 . أن لا ينشغل الثوريون عن الانحرافات باعتبارها خطرا على الحزب ، بأعمالهم الحزبية الاعتيادية الآنية دون التفكير بمستقبل الحركة وأهدافها ، وبدون الانتباه إلى أن انتصار الانحرافات داخل الحزب معناه ضياع الأمل بتطور الحركة .

4 . وجوب تطهير الأحزاب الشيوعية من المنحرفين باعتبارهم أداة النفوذ البرجوازي- المعادي داخل حزب البروليتاريا ، وأن تثن الحرب لا على الانتهازيين المفصوحين فحسب بل كذلك على الموفقين .

5 . أن يفرض ضبط حديدي على الأعضاء وخضوع لا شرطي لهذا الضبط وبهذا فقط يمكن تحطيم تكتلات المنحرفين داخل الحزب ، بالوقوف ضد هجماتهم لتنفيذ شعار تطهير الحزب الشيوعي من الانتهازيين" 232 .

وفي مجرى تحليله لجذور الانتهازية ، التي يقول عنها بأنها ظهرت في الحزب بشكل انحرافات يمينية ويسارية عن الخطة الثورية اللينينية ، حاول فهد أن يرجع أسبابها إلى التخلف الذي يعاني منه البلد ، إذ كتب يقول: "ولم يكن من الغريب أن تظهر انعكاسات هذه الانتهازية... ، في حزبنا بشكل انحرافات يمينية ويسارية عن الخطة الثورية اللينينية ، ولم يكن من الغريب أن تظهر بشكل عنيف وجارف ، وفي الوقت نفسه مبهم ومشوش ، وما سبب ذلك إلا ظروفنا الذاتية والموضوعية ظروفنا السياسية والاجتماعية ، هذا القطر الصغير المتأخر ، والجامع في الوقت نفسه لحزمة من متناقضات الإمبريالية ، وظروف طبقتنا العاملة الفتية التي لم يمض وقت طويل على خروجها من طبقة الفلاحين والحرفيين وصناعهم وممن أنحدر من مراتب البرجوازية والبرجوازية الصغيرة .

إن بلادنا مستقلة وغير مستقلة ، تحكم من قبل وطنيين لكنها لا تملك السيادة الوطنية ، إنها ديمقراطية لكن الشعب لا يستطيع ممارستها . . . إنتاجنا متأخر وفلاحونا يقلبون الأرض بمحراث خشبي ويحصدون بمنجل يدوي وأحيانا يقلعون الحاصل قلعا من جذوره بأيديهم . . . 233".

تميز الصراع الذي نشب بين الجماعات الماركسية في العراق ، سواء كان ذلك داخل الحزب أم خارجه ، بالحدة والقسوة وتوجيه الاتهامات التي لم تكن واقعية ، فلم يكن هؤلاء الناس مطايا للإمبريالية أو للعدو الطبقي في الحزب الشيوعي العراقي أو في المجتمع العراقي ، ولا هم أعداء الماركسية ، بل كانت لهم وجهات نظر تختلف عن وجهات نظر فهد أو قيادة الحزب عموماً . ولكن توجيه الاتهامات كانت إحدى سمات الصراع في الحركات السياسية عموماً وفي الحركة الشيوعية خصوصاً ، وهو المرض الذي رافق هذه الحركة طويلاً وما زال فيها ولم يفارقها تماماً . ويصعب في الغالب الأعم ممارسة النقد إزاء الحركة الشيوعية العراقية أو الحزب الشيوعي العراقي ، إذ سرعان ما توجه الاتهامات غير الواقعية لهؤلاء الناس ، سواء كانوا من داخل الحزب أم من خارجه . إن هذا التقليد ليس من أخلاقيات أو نتائج فهد ، بل هي من تقاليد وعادات الحركة الشيوعية أو المدرسة الستالينية بشكل خاص التي كنا تلاميذ فيها . وإذا كان النقد الصارم والتهم هي الطريقة التي كانت تمارسها الأحزاب الشيوعية السرية ، فأن الأحزاب التي كانت في السلطة مارست أساليب أخرى بما فيها الإعدامات والتصفيات الجسدية والسجن والتعذيب أيضاً . ويمكن العودة في هذا الصدد إلى فترة ستالين في الاتحاد السوفيتي أو الديمقراطيات الشعبية في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية والبلدان الاشتراكية لتتعرف على هذه الممارسات المخلة بمبادئ الاشتراكية والتي تتعارض مع النهج الماركسي ،

تلك الممارسات التي لم يسمح إيماننا الشديد على رؤيتها على حقيقتها لنتخذ الموقف المناسب بشأنها .

إن الوصفة الروسية للشيوعية ، كما أطلقتها روزا لوكسمبورغ على البلشفية ، أو روسنة الماركسية ، كان يراد لها أن تتحقق في العراق أيضاً وفق مواصفات الكومنترن على يد فهد ، سواء ساعدت الظروف الملموسة للعراق أم لم تساعد ، في وقت كانت الماركسية فيه احتكاراً للأمية الشيوعية . كان على فهد أن يقوم بتكييف أوضاع العراق للماركسيه-اللينينية وليس العكس ، كي يتحقق الحزب الذي تتطلبه مواصفات الكومنترن . وكان فهد خلال دراسته في الاتحاد السوفييتي قد أقتنع بالخط وبالممارسات الستالينية وآمن بها من كل أعماقه ، فلم يتمكن من رؤية السلبيات الموجودة في الاتحاد السوفييتي وحزبه البلشفي ، كما لم يلحظ ذلك أو يتحدث عنه كثرة من الشيوعيين في سائر أنحاء العالم ، ليس في تلك الفترة المبكرة فحسب ، بل وبعد ذلك بعقود عديدة ، ونحن منهم . والأسباب كثيرة لسنا الآن بصدد البحث فيها وتبيان الأرضية التي استندت إليها ، إلا أنها لا تخلو من دور كبير لعبته الإمبريالية العالمية في هذا الصدد أيضاً من خلال دورها الشرس في مكافحة حركات التحرر الوطني والحركات الماركسية والشيوعية في مختلف بقاع العالم ، إضافة إلى طريقتنا الإيمانية ذات الخلفية الدينية إلى النظرية الماركسية .

دأب فهد على تحليل البنية الطبقيّة للمجتمع العراقي وتوصل إلى استنتاجات مهمة وواقعية بهذا الصدد خلال الفترة التي عاش فيها . ولكن فهد يقع في تناقض واضح جرته إليه السياسة غير الواقعية للأمية الشيوعية إزاء بلد مثل العراق . فهو من خلال تحليله للمجتمع العراقي وطبقاته يثبت بعدم وجود طبقة عمالية حقيقية وفق المفهوم العلمي الماركسي ، إذ أن الطبقة العمالية وفق المفهوم الأخير ، لها علاقة مباشرة بالصناعة المتقدمة ، ومثل هذه الصناعة كانت غير موجودة في العراق ، إذ كانت هناك جزرات صغيرة ، مثل النفط والميناء والسكك الحديدية على سبيل المثال لا الحصر . وفي ضوء هذا المنطق والمنطلق يكون الحديث عن البرجوازية (الصناعية) في تلك الفترة غير وارد . وهنا لابد من العودة إلى فهد لمعرفة رأيه بخصوص تكوين الطبقة العاملة وأوضاعها ، حيث يقول: "ومما ساعد على بروز الانحرافات داخل حزبنا بشكل خطر ، حادثة عهد البروليتاريا العراقية إذ أن معظم عمالنا العراقيين جاءوا حديثاً من طبقة الفلاحين والحرفيين ولا يزالون بتفكيرهم أقرب إلى البرجوازية الصغيرة من البروليتاريا ، يضاف إلى ذلك قلة اختبارهم بأساليب الانتهازية ، وقلة الكادر الحزبي المتقن للنظرية الثورية وتطبيقها ، يضاف إلى ذلك انعدام الأحزاب العنوية (الديمقراطية) والنقابات في القطر ، مما دفع كثيراً من العناصر غير البروليتارية من أعداء الاستعمار وأعداء الوضع بصورة عامة ، والموظفين والطلاب غير المسموح لهم بالاشتغال بالسياسة وطلاب التزعم

والمراكز وعشاق حب الظهور وأقسام العمال الذين لا يهتمهم سوى تحسين أحوالهم المعاشية ، أقول مما دفع جميع هؤلاء إلى التهافت على الحزب الشيوعي للعمل فيه . فلو كانت في القطر أحزاب ديمقراطية ونقابات لوجد هؤلاء ضالتهم فيها ، ولتمكن الحزب في الوقت نفسه من تجنيد الطليعة على أساس اختبار نضالهم وميولهم في تلك المؤسسات" 234 . هذا التشخيص الذي قدمه فهد كان واقعياً وسليماً يطابق واقع العراق . رغم أن الحزب لم يواجه في فترة فهد تهافتاً كبيراً على الحزب ، بل كان محدوداً في عضويته ، ولكنه كانت له مكانة مرموقة في نفوس الناس وجماهيرية واسعة . ولذلك فإن استخدام فهد لعبارات نابية ومصطلحات حادة كانت تعتبر في حينها شتائم سياسية قاسية لا غير رفاق كانوا بالأمر القريب في الحزب ثم دخلوا السجن معه وعانوا مع بقية السجناء من عسف الحكم واستهتاره بحريات وحقوق المواطنين ، لم يكن يتطابق مع الواقع ، ولكنه كان يتطابق تماماً مع استخدام ستالين لكلمة (الانتهازية) بكثرة ، إذ كان يطلقها على أعدائه ، أي على أولئك الذين كان يعتقد أنهم يريدون القفز إلى مراكز المسؤولية العليا في الحزب والدولة وإزاحته منها ، وكان يخص بذلك منافسه الأول وليس الأخير وعدوه اللدود تروتسكي . إن الأشخاص الذين كان فهد يطلق عليهم صفة الانتهازيين ، كانوا من المناضلين الماركسيين الذين غامروا بحياتهم في سبيل خدمة الشعب العراقي والنضال ضد الرجعية والكولونيالية ، فالانتهازي الحقيقي لا يبحث عن المنافع والفرص في حزب سري مطارد ، بل يلتجئ إلى السلطة ومغرياتها . ولم يكن هؤلاء جميعاً من هذا الصنف من الرجال . ولكن كانت لهم اجتهاداتهم الخاصة .

وإذا كان الوضع السياسي والاجتماعي في المجتمع العراقي بهذا الشكل الذي يصفه فهد بدقة متناهية ، وهو كذلك ، فلم كان الإصرار على تسمية الحزب الجديد بالحزب الشيوعي العراقي؟ أما كان من المستحسن لم صفوف هذا العدد الهائل من المعارضين القادمين من مختلف طبقات ومراتب الشعب ضمن حزب ثوري ديمقراطي- تحرري يهتدي بالماركسية ويأخذ ظروف العراق الملموسة بنظر الاعتبار حقا ، دون التمسك الجامد بقرار الأمانة الثالثة حول تسمية الحزب ، وبالتالي اتهام من يرفض ذلك بالمنحرفين والانتهازيين ، ومن ثم توفير مستلزمات نشوب صراع لا معنى له بين الشيوعيين المدافعين عن هذا الاسم والرافضين له ولبعض المبادئ أو القواعد التي أصرت عليها الأمانة الثالثة؟ يبدو لنا ، وفي ضوء ما تجمع لدينا من معلومات إلى أن الكوادر الأساسية في الحلقات الماركسية لم ترغب بتسميته بالحزب الشيوعي ، وبضمنهم فهد . ولكن إصرار الأمانة على ذلك هو الذي فرض الاسم على الجميع . وكان في مقدور حزب من النوع الذي قاده فهد ، لو أخذ بنظر الاعتبار مجموعة من المستلزمات الخاصة بالوضع الداخلي ، لربما كان في مقدوره ، حيث يصعب القطع بذلك ، أن يدفع بالحركة الوطنية

خطوات أبعد مما حققها الحزب الشيوعي العراقي ، رغم أن الحزب الشيوعي العراقي لعب دوراً متميزاً وكبيراً في حياة ونضال الشعب العراقي .

في كراسه (حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية) لا يعالج فهد الواجبات التنظيمية للحزب فحسب ، بل يتطرق إلى المواضيع التالية أيضاً:

- الرسالة التاريخية للطبقة العاملة؛ - دكتاتورية البروليتاريا؛ - جوهر البلشفية؛ - الأمميات الثلاث ، - وحدة النظرية والتطبيق؛ - الانتهازية ، - الانحرافات اليمينية واليسارية في الحركة العمالية؛ - الفروق بين الحزب العلني والسري؛ - الكادر الحزبي والكادر القيادي ، - الاتجاهات الاقتصادية في الحركة العمالية؛ - حل الأممية الشيوعية؛ - مسائل الإستراتيج والتكتيك؛ - التركيب الاجتماعي للعراق؛ - الطبقة العاملة ووعيها؛ - حلفاء الطبقة العاملة؛ .. الخ .

اعتبرت هذه الموضوعات والحوارات حولها في تلك المرحلة من حياة الحزب والحركة الشيوعية العالمية الأساس المادي لبناء حزب شيوعي ماركسي - لينيني من طراز بولشفي جديد قادر على الصمود بوجه السلطة الرجعية وأجهزتها الأمنية والقوى الأجنبية المعادية للحركة الوطنية العراقية . ومتابعة كتابات الرفيق فهد تعيد الإنسان إلى مرحلة ثورية شديدة الحركة والحيوية من تاريخ العراق الحديث ، حيث المناقشات والحوارات السياسية والاجتماعية والاقتصادية المحتممة ، وحيث النضالات العنيدة في سبيل الديمقراطية والتقدم والاستقلال السياسي وضد الإمبريالية والفاشية والإقطاع والرجعية ، وضد التخلف والفقر والاستغلال الأجنبي والإقطاعي في عراق الأربعينات .

أنجز فهد القسم الأكبر من كتاباته في الفترة الواقعة من 1941-1946 ، حيث عاش مختفياً كقائد حزبي في بغداد . ورغم أن معظم تلك المساهمات قد نشرت في جريدتي الحزب: الشرارة والقاعدة ، وكذلك في مجلة المثل العليا ومجلة المجلة ، وصدرت في كراسات بطبعات لم تتجاوز عدة مئات من النسخ ، فأنها كانت معروفة في داخل التنظيمات الحزبية والأوساط القريبة من الحزب .

اتسمت معالجات فهد بطابع تربوي وتثقيفي عام وملموس ، تساهم في خلق روح الوطنية عند الإنسان القارئ لها ، إذ يدعوها فيها ، وبطريقة واعية وهادفة ، إلى المشاركة في النضال من أجل مجتمع أفضل والوقوف إلى جانب النضال العادل للطبقة العاملة وكادحي الريف . وكانت مقالاته موجهة بالأساس إلى العمال والفلاحين وصغار الموظفين والمستخدمين والجنود ، إلى الطلبة والنساء وربات البيوت ، إلى شرائح واسعة من الشعب العراقي التي حرمت من حياة كريمة ومستقرة وعيش رغيد . وكانت مقالاته سريعة الفهم لبساطة أسلوبها وكثرة الأمثلة الشعبية العراقية المتداولة التي كان يستخدمها والتي كان في مقدورها تقريب المضامين التي يريد إيصالها إلى أذهان الناس . ويفترض أن يبتعد الباحث عن التجريد عند تقييم مسيرة



وتطور فهد ، إذ سيقع في الخطأ عند تناوله بعيداً عن الزمان والمكان اللذين عاش فيهما وللناس الذين كتب لهما ومستوى الوعي الاقتصادي والاجتماعي والسياسي عند الغالبية العظمى من السكان . ومن أجل فهمه بشكل واقعي ، ينبغي ليس فقط أخذ شروط كفاح الشعب العراقي في تلك الظروف بنظر الاعتبار ، بل الالتفات إلى سمة العصر في تلك الفترة بشكل عام أيضاً ، إضافة إلى دور الأممية الشيوعية في كتابات ونشاط فهد .

حاول فهد في كتاباته أن يبرهن على صواب استخدام النظرية الماركسية ليس في البلدان الرأسمالية المتطورة فحسب ، بل في البلدان المتخلفة أيضاً . وانطلق في ذلك من الطابع الأممي لجوهرها وعالميتها . وكان مصيباً في هذا التوجه ، شريطة أن يستخدم المنهج الماركسي في التحليل وتشخيص الأوضاع وطرح المعالجات العملية لتلك الأوضاع بصورة صحيحة . واعتمد فهد في تحليلاته على موضوعات لينين ، التي أراد خلالها البرهنة على إمكانية انتصار الاشتراكية في الشرق المتخلف ، بخلاف ماركس الذي أكد بأن الاشتراكية إذا انتصرت ففي غرب أوروبا ، حيث الحركة العمالية المتطورة ، ودعم ذلك بموضوعه المعروفة بأن أي تشكيلة اجتماعية-اقتصادية جديدة لا يمكن أن تظهر وتنتصر إلا بعد أن تصل التشكيلة القديمة إلى ذروة التطور فالانحلال . وربط ذلك بنوعين من الثورات التي تحسم تلك العملية: ثورة من تحت وثورة من فوق . واعتمد ماركس في تحليله هذا على المسيرة التاريخية الحتمية لانتقال المجتمعات من تشكيلة إلى أخرى بفترات تاريخية غير قصيرة ومتباينة . ففي الشرق مثلاً جرى الانتقال من المشاعية البدائية إلى المجتمع الطبقي الأول في فترة استغرقت ثلاث آلاف سنة وما زالت بقايا وعناصر المشاعية البدائية موجودة هنا وهناك في المجتمعات التي ما تزال تدور على محيط المراكز الرأسمالية المتقدمة أو التي تعيش على هامش الرأسمالية . وأما في الغرب ، فإن الانتقال جرى إلى العبودية المقيتة واستغرقت سبعة قرون . كما استغرقت عملية الانتقال إلى الإقطاع في أوروبا خمسة قرون . وإذا اعتبرنا الثورة الفرنسية 1789 كانت تجسيدا لبداية ناجحة في الانتقال إلى الرأسمالية التي لا زالت تتوغل إلى الأجزاء البعيدة عنها ، نرى أنها احتاجت إلى أكثر من قرنين من الزمن . فكم سنحتاج يا ترى من الزمن كي نرى ذروة تطور الرأسمالية وانحلالها في بلادنا ، رغم التحولات الكبيرة الجارية على الصعيد العالمي؟ و كما نرى فأنها عملية تاريخية معقدة وطويلة المدى ، لا يمكن للمرء بعمره القصير أن يعايشها . وكان فهد واضحا في هذه المسألة أيضاً عندما أشار مرة إلى بعد الهدف الشيوعي عن المرحلة التي كان العراق يعيش فيها ، إذ أن معرفته بواقع العلاقات الإنتاجية شبه الإقطاعية وبقايا العلاقات الأبوية التي كانت تسود العراق حينذاك ، إضافة إلى معرفته بطبيعة الهيمنة الأجنبية وضعف نمو علاقات الإنتاج الرأسمالية ، وبالتالي بطء نمو البرجوازية الصناعية والطبقة العاملة العراقية الحديثة ، هي التي جعلته أكثر واقعية في

معالجته لمشكلات العراق الاقتصادية والاجتماعية الملموسة في العراق وفي موقفه من الملكية أيضاً .

وفي ضوء هذه النظرة التاريخية الموضوعية وبعيداً عن العواطف ، نرى بأن ثورة شباط 1917 الروسية - البرجوازية التي جاءت من تحت ، كانت بداية طبيعية لنقل المجتمعات في روسيا القيصرية المتباينة في تطورها من كافة أشكال العلاقات الإنتاجية ما قبل الرأسمالية إلى العلاقات الرأسمالية . ولكن كان على الماركسيين والثوريين الروس من مختلف الاتجاهات دعم هذه الثورة وتوجيهها في الطريق الصحيح وتجنب الاستفزازات التي طبعت نشاط المنشفيك حينذاك ، أو حتى بعد قيام ثورة أكتوبر بقيادة لينين ، التي قال عنها غرامشي ، مؤسس الحزب الشيوعي الإيطالي: بأنها مجرد انقلاب فوقى لا علاقة لها بالاشتراكية ، قام بها عدة منات من المسلحين . إذ كان على لينين بعد نجاح تلك العملية دفع مسيرة البلاد نحو استكمال مستلزمات الثورة البرجوازية . ولكن ، وبسبب الكثير من التعقيدات التي رافقت المرحلة ، اعتبر لينين وصحبه الثوار في الحزب البولشفي بأن الثورة الاشتراكية قد انتصرت وأن العالم دخل بذلك مرحلة انتقال جديدة من العلاقات الرأسمالية إلى الاشتراكية . وتجدر هنا الإشارة إلى أن لينين كان قبل الثورة يؤكد أن روسيا غير مؤهلة لبناء العلاقات الاشتراكية ، إذ أنها ما تزال في طور متأخر من علاقات الإنتاج الرأسمالية . ويمكن أن يجد الإنسان ذلك في كتابيه "التطور الراسمالي في روسيا" و "الإمبريالية أعلى مراحل الراسمالية" . واعتقدنا نحن أيضاً بأن الثورة الاشتراكية انتصرت في روسيا وعملنا على هذا الأساس وبإيمانية عالية وبكل ما يرتبط بمثل هذه الإيمانية من جوانب سلبية وإيجابية . ولكن هذا الاعتقاد كان بعيداً عن الواقع . وظلت هذه الموضوعية الجامدة سائدة ، دون أن يجرأ مفكر ماركسي - لينيني ، شيوعي ، على تناولها بالنقد ، إلى أن انهارت العملية بكاملها نتيجة للأزمة الحادة التي رافقتها منذ الولادة . وعلمنا أن لا ننسى الإشارة إلى أن قلة من مفكري الماركسية - اللينينية ، أي من أعضاء الأحزاب الشيوعية ، التي تجرأت على ممارسة النقد إزاء العمليات التي كانت تجري في الاتحاد السوفييتي ، وهو عيب كبير كان يفترض أن يكون بعيداً عن الممتثقفين بالفكر الماركسي العلمي الرصين . وكان صوت هذه القلة غير مسموع ، بل ومكبوت . وكانت ، بلا شك ، انتقادات أخرى من آخرين ينتمون إلى أحزاب أخرى أو مستقلين ، ولكن كان التشكيك بها كبيراً . ولكن يا ترى ، هل كان الانهيار حتمياً؟ أم أن هيمنة الحزب على الدولة والمجتمع وغياب الديمقراطية السياسية وفرض الأساليب الدكتاتورية على المجتمع والدولة والحزب ومصادرة الكثير من حقوق الإنسان والتفسخ والفساد الوظيفي وفرض "التطبيقات الاشتراكية" بأوامر فوقية وعسكرة الإنتاج والادعاء بأن المجتمع الاشتراكي القائم لا يعرف التناقضات الاجتماعية والصراعات الطبقيّة ، وأنه يقترب من تحقيق حلم الإنسانية الكبير ، بناء الشيوعية... الخ ،

هي التي مهدت السبيل إلى مثل هذا الانهيار الدراماتيكي؟ كانت الحياة أجدر منا جميعاً في الإجابة عن هذه الأسئلة ، حيث وضعنا أمام الواقع الذي رفضنا الاعتراف به طويلاً . ليست روزا لوكسمبورغ ، المعروفة بوجهتها اليسارية في الحركة الماركسية ، وحدها التي انتقدت النهج اللينيني بشدة واعتبرت البلشفية وصفة روسية لا يمكن تطبيقها إلا هناك ، بل أن المفكر الماركسي كارل كاوتسكي (1854 - 1938) ، الذي اعتبره إنجلز خليفة له بعد وفاته ، تناول النهج اللينيني بالنقد ولا سيما في كتابه (دكتاتورية البروليتاريا) حيث أكد ، بأن الاشتراكية يمكن أن تتحقق ، ولكن ليس عن طريق دكتاتورية البروليتاريا ، بل عن طريق الديمقراطية . وجاءته الإجابة من لينين في كراسه المعروف: (المرتد كاوتسكي) . وبرهنت الحياة ، بعد حصول كوارث دامية ، فشل التجربة اللينينية في هذا الصدد . وهنا لا نريد الادعاء بأن التاريخ أكد صحة كل آراء كاوتسكي ، الذي تتلمذ بشكل مباشر على أيدي ماركس وإنجلز والذي أعطى ، ضمن تحليله للماركسية في مجال الاقتصاد والصراع الطبقي ، طابع الارتقاء والنشوء لمجمل النظرية ، وأكد بقناعة تامة بأن الاشتراكية ، انطلاقا من قانون التطور ، ستنتصر بشكل طبيعي . ولذلك أشار بأن الصراع الطبقي السافر مسألة فائضة عن الحاجة ، واعتبر الجمهورية الديمقراطية إطارا صالحاً لتحقيق الاشتراكية . وكانت آراء بيرنشتاين تصب في نفس الاتجاه . ولكن نريد أن نشير هنا إلى أن صحة نظرية ما لا يمكن التنبؤ بها مسبقاً ، بل هي مسألة متروكة للحياة ، ومن ثم للتاريخ لكي يقول فيها كلمته . ولكن تباين وجهات النظر وفسح المجال أمام الآراء لكي تتصارع دون خشية أو قمع ، يقود دون أدنى ريب إلى الوصول إلى ما هو أفضل لصالح الإنسان .

وانطلاقاً من الموضوعة الماركسية القائلة بأن القوى المنتجة تلعب دوراً حاسماً في المجتمع ، واستناداً إلى ما جاء في المؤتمر العالمي السادس للكومنترن بخصوص اندام الصناعة الثقيلة في البلدان الكولونيالية وشبه الكولونيالية والتأثير السلبي لذلك على نمو الطبقة العاملة الفتية ، التي تشكل نسبة ضئيلة جداً من حيث عدد النفوس ، كتب فهد مقالا بعنوان: "الصناعة الثقيلة أساس نضالنا الاقتصادي" بقلم: يوسف سلمان " فهد" وذلك في مجلة "المجلة" العننية ، العدد(4) السنة الثالثة ، 1 أيار 1941 ، أكد فيه بأن تصنيع البلد على أساس الصناعة الثقيلة يشكل شرطا للتغلب على التخلف في المجتمع العراقي . واستناداً إلى تجربة الاتحاد السوفياتي في هذا المجال ، فإن فقدان الصناعة الثقيلة يعتبر ضمن أسباب التبعية الاقتصادية والسياسية . وعند التدقيق في هذه الموضوعة يفترض أن نميز بين مسألتين ، وهما: الجانب النظري والجانب العملي وفق الظروف الملموسة لكل بلد من البلدان وفي إطار العلاقات الاقتصادية الدولية وتوفر مستلزمات تطوير الإنتاج الصناعي ... الخ . لا شك في أن الصناعة بفرعها ، أي إنتاج وسائل الإنتاج وإنتاج وسائل الاستهلاك ، يشكلان وحدة عضوية في عملية

إعادة الإنتاج الموسعة ، وأن تطورهما في بلد ما بصورة عقلانية ومتجانسة ، إضافة إلى تطوير القطاع الزراعي والهيكل الارتكازية ، يساعد على تحقيق التنمية المعجلة وتحقيق المزيد من التراكم في رأس المال والتخلص من وحدانية الجانب في التطور أو التبعية الخائفة للخارج . إلا أن تحقيق هذه العملية وتأمين الوحدة الداخلية الضرورية لعملية إعادة الإنتاج ليست قضية سهلة أو يمكن تحقيقها في ظروف بلد متخلف مثل العراق حينذاك كان قد خرج لتوه من ظلمات العهد العثماني البغيض . فالصناعة الثقيلة لا يمكن أن تتحقق إلا بالاستناد إلى مجموعة من الشروط والمستلزمات والتقاليد الصناعية وتراكم رأس المال ، هذه العملية التي يمكن أن تنشأ بالتدريج وبدءاً من إقامة وتعزيز سلسلة من الصناعات الخفيفة والثقيلة التي يمكن إقامتها في العراق ، إضافة إلى تحديث الزراعة وتأمين علاقات اقتصادية دولية مناسبة . ويفترض أن نشير هنا إلى أن هذه النظرة حافظت على فعلها في أذهان الشيوعيين والمتخصصين منهم سنوات طويلة لاحقة دون أن تكون هناك رؤية واقعية لمسيرة تطور الاقتصاد العراقي ، بسبب نظرنا المتفائلة جداً حول التحولات التي يفرضها العصر . وكانت المعالجة مجرد أمنية وفيها الكثير من التبسيط وذات طابع نظري ، ولكنها لم تكن واقعية تماماً في تلك الفترة . إن هذا لا يعني بأي حال بأن ما كان مطروحاً حينذاك وفيما بعد ، كان كله خاطئاً . إن البرنامج الاقتصادي الذي طرحه الحزب الشيوعي العراقي في فترة فهد كان بخطوطه العامة صالحاً وجيداً ، وكان أقرب إلى الواقع من البرامج الأخرى أو أكثر تعبيراً عن مصالح وحاجات الناس . وكان فهد متوازناً في موقفه الداعي إلى تنمية قطاع الدولة والقطاع الخاص ، وافتقدنا لهذه النظرة الواقعية في الفترة اللاحقة وتحت تأثيرات جملة من التنظيرات السوفيتية التسطيفية حول العلاقة بين القطاعين العام والخاص .

وفي تلك الفترة أهتم فهد بتحريك العمل الحزبي ولا سيما في أوساط عمال بغداد . وكان ينظم بنفسه عدة حلقات عمالية . وأهتم ضمن عمله الإيديولوجي بثلاث نقاط:

النضال ضد الكولونيالية الإنكليزية بتحقيق الديمقراطية الصحيحة والدعاية للاتحاد السوفيتي ومكافحة الفاشية . وطالب فهد بتنظيمات الحزب بالعمل في صفوف الجيش وتشكيل الخلايا بينها

وانطلاقاً من إستراتيج وتاكتيك الكومنترن ، ولا سيما تلك المقررات التي صدرت عن المؤتمر العالمي السابع ، حلل فهد الوضع السياسي وعلاقات القوى في العراق والشرق الأوسط أخذاً بالوضع العالمي آنذاك بنظر الاعتبار ، وذلك في جريدة الحزب "الشرارة" أولاً و "القاعدة" فيما بعد . قدم فهد فيها مختلف الاقتراحات والحلول حول سبل ووسائل قيادة الجماهير والعمل الدعائي والتحريكي . وغالباً ما كان يذكر أمثالا لديمتروف محاولاً ربطها بأوضاع العراق الملموسة:

"إننا نريد أن نسلح رفاقنا لحل المشاكل السياسية المعقدة التي تجابههم . لذلك ينبغي علينا أن نرفع من مستواهم الأيديولوجي بشكل مستمر ، أن نربيهم بالروح الحية للماركسية-اللينينية ، وليس بروح الجمود العقائدي . . . إننا نريد أن يتعلموا بسرعة ويسبحوا في بحر الصراع الطبقي الهانج ، ولا نريدهم أن يبقوا واقفين على الساحل يراقبون تلاطم الأمواج وينتظرون حلول الطقس الجميل"235 .

وفي ضوء ذلك يقول فهد : "علينا قبل كل شيء أن نوفر لرفاقنا الأدبيات الثورية ونحثهم على الدراسة ونطلب منهم أن يتسلحوا بالنظرية الثورية إذ(بدون نظرية ثورية لا يمكن أن تكون حركة ثورية- لينين) وعلينا أن نتعهد بتدريبتهم وننسق لهم المواضيع . . . إن الماركسية ليست وصفة جاهزة تعطى لكل الحالات . . ."236 . ويقول فهد في مكان آخر: "فالجماهير الشعبية لا تتدرب على النضال السياسي بدون توجيه من الواعين المنتظمين وبدون كسب الخبر من ممارسة النضال الفعلي ، فالإنسان لا يتعلم السباحة بدون النزول إلى الماء . . ."237 .

إن عملية استيعاب وتطبيق مبادئ الماركسية-اللينينية (البلاشفة) التي حاول فهد تنفيذها في الحزب الشيوعي العراقي ، كانت تعني اكتساب خبرات حزب لينين ، دراسة تاريخ الحزب الشيوعي السوفييتي والتجربة السوفييتية وثورة أكتوبر وإستراتيج وتكتيك البلاشفة وكذلك التوغل في خبرات الكومنترن وتفاصيل أشكال الصراع الطبقي وخبرات الجماهير . كان فهد يعرف هذه الحقيقة ، ولذلك نراه في العديد من معالجاته يتطرق إلى تاريخ الحزب الشيوعي السوفييتي وإلى تأسيس ونشوء الحزب البلاشفي والكومنترن وثورة أكتوبر .

بعد الهجوم الهتلري على الاتحاد السوفييتي في 22 حزيران/ يونيو 1941 ، تغير في العراق ميزان القوى ، إذ أن الحكومة العراقية أعلنت وقوفها إلى جانب جبهة الشعوب ضد الفاشية . وراحت النوادي وجمعيات الصداقة التي أسسها الإنكليز تجاهر علنا بالنقد اللاذع ضد ألمانيا الهتلرية وضد الذين ساهموا في حركة الكيلاني . ومن القوى التي بدأت بالظهور والعمل العلني في فضح الفاشية ، جماعة "الأهالي" ، التي كان قد توقف نشاطها منذ 1937 .

في تلك الفترة أصدر فهد أول وثيقة علنية للحزب ، هي : "قرار اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي . موقفنا من هذه الحرب" ، حيث أعتمد في مضمون هذه الوثيقة على تقرير

---

235 Pieck, W., Dimitroff, G., Togliatti, P., Die Offensive des Faschismus und die Aufgaben der Kommunisten im Kampf fuer die Volksfront gegen Krieg und Faschismus. Referate auf dem VII. Kongress der KI (1935). Berlin. 1960. S. 178.

236 (37) المؤلفات: ص 48.

237 نفس المصدر: ص 220.

ديمتروف : "الهجوم الفاشي وواجبات الأممية الشيوعية في النضال من أجل وحدة الطبقة العاملة ضد الفاشية" 238 ، محاولاً ممارسة نفس التحليل والموقف وفق الظروف الملموسة في العراق وتوصل إلى ما يلي:

- إن الهجوم الفاشي على الاتحاد السوفييتي ، وطن الاشتراكية ، يعني أن الفاشية تريد بسط سيطرتها على جميع أنحاء العالم .

- إن الحرب تجري بين الإنسانية وأعدائها . على جميع الشعوب والأمم سواء أكانت حرة أم تكافح من أجل حريتها ، أن تناضل بلا هوادة ضد الفاشية الهتلرية .

- على الأمة العربية المعترزة بقوميتها أن لا تصدق الأكاذيب والوعود الفاشية الديماغوغية . إنها حربنا ضد الفاشية .

وأما موقف الحزب تجاه الحكومة ، فكما يلي:  
"إننا نساند كل حكومة تعمل من أجل تقوية الجبهة الديمقراطية وتطهر البلد من مؤيدي وجواسيس المحور" 239 .

ويوجه التقرير المطالب التالية إلى الحكومة:

- تطهير دوائر الدولة من العناصر الفاشية التي تجهر برأيها علناً ،

- إطلاق سراح الشيوعيين والديمقراطيين ،

- تحقيق الديمقراطية السياسية ،

- البدء بالعلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفييتي ،

- مكافحة الغلاء وتوزيع بطاقات التموين على جميع فئات الشعب .

ويقدم التقرير جملة من المطالب والمقترحات بخصوص إدارة الدولة والاقتصاد والديمقراطية والنقابات والصحة العامة والتعليم . كما يخص وزارة المعارف ومديرية الدعاية العامة بالنقد ، وذلك لتحويلهما إلى منبرين للدعاية الفاشية . ويطلب التقرير بوضع مناهج دراسية جديدة تتلاءم مع الوضع الجديد .

وعلى الصفحة الأولى من العدد 10 من الشرارة نقرأ ما يلي: "علينا أن نقوي الأحزاب الشيوعية بكل الطرق ونزيد عضويتها لأننا نريد تقوية الجبهة الموحدة . . ديمتروف" .

ولأول مرة يجري التطرق إلى عملية بلشفة الحزب في نفس العدد من الشرارة التي تحمل في نفس الوقت : "تقرير الرفيق فهد في اجتماع 17 أيار سنة 1942 للجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي" . يبدأ التقرير بالمقدمة التالية:

"ننشر فيما يلي التقرير الذي قدمه الرفيق فهد السكرتير العام للحزب الشيوعي العراقي في اجتماع لجنة الحزب المركزية بتاريخ 17 أيار 1942 قال الرفيق فهد:"  
في هذا التقرير الذي يبدأ لأول مرة بإبراز شخصية فهد كسكرتير عام للحزب ، يحاول فهد رسم إستراتيج وتكتيك الحزب في ضوء التطورات العالمية وتغيير ميزان القوى ، وذلك بتركيز النضال ضد الفاشية ومن أجل تحقيق الجبهة الموحدة ، ويؤكد على ضرورة صيانة الحزب من الانحرافات اليمينية واليسارية . وإذا علمنا بأن تأكيد الدور المتميز والحاسم لشخصية السكرتير العام وقديسته وعصمته عن الخطأ هي من السمات البارزة في الحزب البلشفي ، نرى بأن فهد قد بدأ بالخطوة الأولى في سبيل بلشفة الحزب ، وذلك بحصر القيادة بيديه كتمثل رسمي للكومنترن في العراق ، فأى ممثل آخر للماركسية ، مهما كان ، لا يعترف بقيادته لا يمكن أن يكون سوى مارقا ، منحرفا ، خائنا . . الخ ، إذ أن الماركسية آنذاك وحتى إلى يوم سقوط الاتحاد السوفييتي والمعسكر الاشتراكي ، كان احتكارا لخط موسكو ، كما لا يجوز وجود حزبين شيوعيين في بلد واحد ، فلا بد أن يكون أحدهما خاطئا حسب المفهوم البلشفي . وكنا نؤمن بذلك إلى حدود بعيدة .

يقول التقرير: "تعلمون جميعا أن الحكومة الحاضرة تكافح النازية ، ولكن يجب أن لا ننسى في الوقت نفسه أن أعضاء الحكومة أنفسهم هم الذين كانوا يحاربون الديمقراطية في الداخل . غير أن هناك حقيقة أخرى يجب أن لا تغيب عن بالنا وهي أن هذه الحكومة نفسها قد نظفت الجهاز من كثير من العناصر المثيرة للفتن ، كما أن سلوكها في ما يخص النشر قد . . . . (حرية كبيرة) لإظهار حقيقة كفاح الاتحاد السوفييتي وغيره ، ويتوصل التقرير إلى الاستنتاجات التالية:

- أن يقف الحزب إلى جانب الحكومة ويؤيد إجراءاتها الإيجابية على أن لا يتوانى عن انتقاد الجوانب السلبية والخاطئة ومكافحتها .
- الحصول على الحقوق الديمقراطية لا يمكن أن يتم ، إلا بالنضال بمختلف الوسائل .
- تشديد النضال من أجل تحسين الأوضاع المعاشية للشعب .
- يجب عدم خلط الأوراق في توجيه الانتقاد إلى الحكومة ، فإذا كان أحد الوزراء سيئا ، فلا يمكن تحميل وزره للحكومة .
- لا يجوز السكوت عن بيروقراطية الحكومة .
- يعتبر العراق جزءا من جبهة الشعوب الديمقراطية ، ولذلك فإن الحرب ضد الفاشية تؤدي إلى خلق الجبهة الموحدة . أي هزيمة لأي جزء هو هزيمة للاتحاد السوفييتي .
- ليس من مصلحة الجبهة الموحدة إلحاق الخسائر بالجيش الإنكليزي ، لأننا إن شننا أم أبينا فإنما نقف إلى جانب بريطانيا .

- على كل الشعب والقوى الديمقراطية أن تقف ضد الفاشية . إن الكفاح ليس هو واجب الشيوعيين ولا هي قضية خاصة بالبروليتاريا ، إنما هو واجب كل الطبقات .  
- إن واجب الحزب الشيوعي هو خلق حركة واسعة ضد الفاشية ، ومثل هذا الشيء لا يمكن أن يتحقق إلا عبر جبهة شعبية ، تضم كل القوى السياسية .  
- يجب تقوية المنظمات الحزبية في المعامل والمدارس والدوائر . عليها أن تدرس مشاكل الجماهير وتهتم بها .  
- يجب ربط العمل العلني بالعمل السري . الخ . . . وينتهي التقرير بما يلي: "وبهذه المناسبة شدد الرفيق فهد على ضرورة الضبط الحزبي (الطاعة) لدى الرفاق ووجوب الانتظام في العمل . . . "240 .

في الوقت الذي نرى أن فهداً قد التزم بمقررات المؤتمر العالمي السابع للكومنترن ، آخذاً بنظر الاعتبار ، وبجراً الظروف الموضوعية في العراق - مثال ذلك: الموقف من القوات البريطانية- ودعوته إلى جبهة شعبية عريضة ، نجده متشدداً في مسألة بلشفة الحزب ، ففي الوقت الذي حصر السكرتارية العامة منذ البداية بيده ، لم ينس تأكيد مسألة الضبط الحزبي ، الذي وضعه التقرير بين قوسين موضحاً إياه ب (الطاعة) ، التي هي المحتوى الحقيقي لمبدأ (المركزية الديمقراطية) .

ومما لا يمكن للتاريخ أن ينكره هو أن الحزب الشيوعي العراقي في تلك الفترة وبجريدته المتواضعتين الشرارة والقاعدة استطاع أن يتحول إلى مدرسة لشرح وتبسيط المسائل السياسية المعقدة التي كانت تشغل العصر ، على الأقل لأبناء المدن الكبيرة ، فإلى جانب قضايا الشعب المعاشية والأجور والأسعار والبطالة ومشاكل العمال والفلاحين وصغار الموظفين والطلبة والصحة العامة وتحرر المرأة والقضية الكردية وحقوق الأقليات ، كانت جريدتا الشرارة والقاعدة تعالجان بالتفصيل مسائل الجبهة الشعبية والديمقراطية السياسية وقضية التحرر الوطني والاستقلال والرجعية والإقطاع والإمبريالية والفاشية والصهيونية والحرب العالمية والعلاقات الدولية ومفهوم جبهة الشعوب والمحور الخ . . ورغم انتشار الأمية والفرق الكبير بين المدينة والريف إذ ذاك ، فإن الأفكار كانت تنتشر بسرعة ، إذ أن الفراغ السياسي وعدم وجود ما يلتهي به الناس ، كانا عاملين مهمين لإثارة اهتمام الناس بالسياسة . كانت المقاهي الشعبية والمدارس والكليات والمعامل وثكنات الجيش منابر رئيسية لالتقاط الأخبار والآراء لبتها فيما بعد في البيوت والأزقة والشوارع والقرى . يقول حسن الكرباسي ، أحد معاصري فهد الأوائل ، جواباً عن سؤال حول اهتمامات الناس السياسية في نهاية الثلاثينات



وبداية الاربعينات : "كانت هناك موضتان ، الشيوعية والفاشية ، فإما أن تكون مع هذه أو تلك . وأما كيف كانت تصورات الناس حول المفهومين فمسألة أخرى" 241 .

وفي خضم هذه المواضيع العديدة والمعقدة والمتداخلة ، حدد الحزب الشيوعي موقفه من السلطة التي تقف إلى جانب معسكر الشعوب ، إذ عليه أن يؤيدها وفي نفس الوقت أن يناضل ضدها . أمر لم يكن استيعابه سهلاً بالنسبة للمواطن العادي . وهكذا نجد إستراتيج وتكتيك الحزب يتبلور في مقال: "ميثاق التحالف العظيم بين الاتحاد السوفييتي وبريطانيا العظمى فوز دبلوماسي مبين لجميع الشعوب وحافز جديد للشعوب العربية المناضلة" ، ضمن النقاط التالية: - النضال من أجل الجبهة الشعبية في داخل القطر ، خطوة للعمل المشترك مع الجبهة الديمقراطية العالمية .

- المسؤولية الرئيسية لبناء جبهة الشعب يتحملها التجار والعمال والفلاحين والمتقنين والحرفيين والموظفين الصغار وكل مؤيد للديمقراطية ومناهض للفاشية .

- النضال الرئيسي هو من أجل الديمقراطية الحقيقية . 242

وفي العدد 2 شباط/فبراير 1943 ، ص5 من جريدة القاعدة نقراً مقالاً بعنوان: "ما نطلب من الحكومة القيام به بعد إعلان الحرب على دول المحور" يعتبر تكثيفاً وجزءاً مهماً من الإستراتيج الجديد ، حيث نجد ما يلي:

- ضرورة تحول الدعاية المكثفة ضد دول المحور من أجل تحقيق الجبهة الديمقراطية في العالم .

- إجراء العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفييتي .

- إجراء العلاقات الاقتصادية مع الاتحاد السوفييتي من أجل حل مشكلة الغذاء .

لم يكن المطلب الأخير عملياً أو واقعياً ، بسبب الظروف الاقتصادية الصعبة جداً التي كان يمر بها الاتحاد السوفييتي حينذاك ، إذ لم يكن سهلاً عليه توفير المواد الغذائية للقوات المقاتلة على جبهة واسعة وعميقة من جهة ، وللشعب السوفييتي من جهة أخرى . لهذا يمكن القول بأن فهداً كان يريد بهذا المطلب جلب انتباه الشعب العراقي إلى أهمية إقامة علاقات متعددة الجوانب مع الاتحاد السوفييتي سواء في فترة الحرب أم في فترة السلام . ولا نشك في أن فهداً كان على إطلاع جيد على الأوضاع في الاتحاد السوفييتي حينذاك وعلى ما ألحقته الحرب من دمار واسع فيه .

وكتب فهد سلسلة من المقالات والتقارير حول الوضع الاجتماعي والديمقراطية السياسية في البلد ، نذكر منها:

241 الكرياسي ، حسن عباس. لن ننسك يا فهد. من وحي المشائق بمناسبة يوم 14 شباط. (مذكرات). 1985. مصدر سابق.

242 الشرارة. العدد 12 ، حزيران 1942.

"لا مشكلة تموين في العراق ، بل جريمة احتكار" 243 .

"أوضاع الجنود في المعسكرات"

"شكوى تلميذ في مدرسة الصنائع العراقية" .

"حول أوضاع العمال ورسائلهم"

وفي العدد الخامس ، حزيران 1943 من جريدة القاعدة نقرأ البيان الصادر من الحزب الشيوعي العراقي والموقع باسم فهد ، ونجد مانشيتين كما يلي:

"تنشر الحكومة البيانات والوعود بيدها اليسرى وتزج بيدها اليمنى أبناء الشعب المخلصين في غياهب السجون" و "يطالبون بالخبز فيلقون الإهانات والسجون" .

وصدر عن الحزب بياناً احتجاجياً ضد حملة الشرطة على الشيوعيين والديمقراطيين . وفي الوقت الذي ينتقد فيه فهد إجراءات السلطة في قمع المظاهرات السلمية ، يمتدح في مكان آخر الخطوات الإيجابية ويقدم المقترحات لتطويرها . عالج فهد كل تلك المسائل بروح إستراتيجية وتكتيك الكومنترن التي رسمها مؤتمره العالمي السابع . وتذكرنا هذه السياسة بالشعار الذي رفعه سلام عادل في بداية الستينات ( تضامن-كفاح-تضامن) ، الذي تحول عند بدء المد الرجعي إلى (كفاح- تضامن-كفاح) . إن مثل هذه السياسة نجدها في المقالات التالية التي كتبها فهد:

"الديمقراطية نظام عملي لا أسلوب إنشائي"

"حول الأممية الشيوعية والواجبات المترتبة على حزبنا"

"نضالنا الوطني الديمقراطي"

وأما بالنسبة إلى النظام الداخلي وبرنامج الحزب ، فإنهما قد تم تثبيتهما لأول مرة في المؤتمر الأول للحزب الذي عقد في العام 1945 . كانت شروط العضوية كما يلي:

1 - الاعتراف بمنهاج الحزب والتفقد بنظامه الداخلي الحزب ،

2 - مساعدة الحزب مادياً ،

3 - العمل في إحدى منظمات الحزب .

والقاعدة الأولى تعني: أن على عضو الحزب الشيوعي العراقي أن يعرف بأن الحزب يدين بالتعاليم الماركسية- اللينينية ، وأن أهدافه البعيدة هي عين أهداف الأحزاب الشيوعية العالمية ، كما بينها معلمو الاشتراكية العلمية ماركس- أنجلز- لينين- ستالين ، وأن نظرته إلى الكون وإلى جميع القضايا الاجتماعية مادية دياكتيكية مستقاة من تلك التعاليم الثورية التي برهنت

الحياة على صوابها . . . . . 244 ولا شك في أن هذا النص كان مطلباً ثابتاً من مطالب الأممية الشيوعية التي يمنع تجاوزها . رغم أنها كانت لا تنسجم بالضرورة مع أوضاع العراق حينذاك . من خلال تحليل كل ما سبق نتوصل إلى تسجيل بعض الملاحظات:

1- انطلق فهد ، بغض النظر عن الظروف الموضوعية والذاتية والعلاقات الاجتماعية وتقاليدھا في المجتمع ، من قاعدة أن تشكيل حزب شيوعي لا يمكن أن يتم ، إلا بالالتزام التام بشروط الأممية ، إذ إن ذكر ما يسمى (بأخذ الظروف الملموسة بنظر الاعتبار) ليس سوى تكرار لما ذكره الكلاسيكيون والكومنترن .

2- رغم أن فهداً أنتقد معارضيه في كراسه حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية ، بسبب رفضهم لشعار دكتاتورية البروليتاريا ، فإنه لم يثبت في النظام الداخلي الصادر عن المؤتمر الأول ، علماً بأن هذا الإجراء يعتبر من وجهة النظر الأنية عملاً إيجابياً ووعياً بطبيعة المرحلة ومهامها .

3- يدل أسلوب العمل ونهج المناقشات الدائرة وما جاء في الفقرة 25 من النظام الداخلي بخصوص الدور المميز للسكرتير العام ، وكذلك عبارات مثل: "وعلى رأسهم الرفيق فهد سكرتيرنا المؤيد الذي يعود له الفضل بالدرجة الأولى في القيادة الحكيمة . . ." أو "إن كل هذه انتصارات رائعة حققها الحزب بفضل قيادة سكرتيرنا المؤيد الرفيق فهد . . ." الخ ، أو "وأصبح ما يقوله قائدهم الأكبر ستالين ، وما يأمر به ، واجبا مقدسا وأمرًا مطاعا ليس فقط من قبل أعضاء الحزب والطبقة البروليتارية السوفيتية والشعوب السوفيتية بل من البروليتاريا العالمية والشعوب . . ." 245 ، كل ذلك يدل على أن البصمات الستالينية في عبادة الفرد وتشديد المركزية وفرض الطاعة ، كانت شديدة ومهيمنة على الحياة الحزبية الداخلية وكان فهد مقتنعاً بها وساعياً إلى تثبيتها في حياة الحزب الداخلية .

4- غالباً ما ردد فهد عبارات ومفاهيم مستقاة من الأدبيات الشيوعية مثل البرجوازية ، الاشتراكية الديمقراطية ، الانتهازية ، الفوضوية ، التصفية ، التوفيقية ، التروتسكية . . الخ ، واستخدمها في مواجهة خصومه الماركسيين ، وذلك بصورة مجردة ، وغالباً ما كانت بعيدة عن الواقع العراقي الرعوي- الفلاحي ، شبه الإقطاعي وشبه الرأسمالي . وأدى استعمال مثل هذه العبارات بكثرة وفي غير محلها إلى نشوء مناخ غير ودي في صفوف الحركة الثورية وشدت من الخلافات والمهاترات وقادت إلى انشقاقات أيضاً .

5- في رده على خطاب العرش فيما يخص مسألة عدم تدخل الجيش في السياسة ، ينظر فهد إلى مسألة الانقلابات العسكرية بصورة إيجابية غير حذرة ، دون أن يفكر في العواقب التي قد

244 المؤلفات: ص 156.

245 نفس المصدر السابق. المقدمة. بقلم صارم ص 19-30.

يجلبها تدخل الجيش في الحياة السياسية على الحياة الديمقراطية . كانت المرحلة تتطلب النضال من أجل تطوير بصيص الديمقراطية الموجودة آنذاك . وأثبتت الأحداث مدى عنف الكوارث التي حصلت جراء الانقلابات العسكرية .

6- إن وجود الحزب الشيوعي العراقي وتحليلاته العلمية للأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية لعبت دورا كبيرا في خلق وتطوير عملية التنوير الفكري وتعميق الوعي السياسي عند الشعب ، الأمر الذي خدم الشعب في نضاله العنيد ضد الاستعمار والفاشية والرجعية ومن أجل الديمقراطية والتقدم الاجتماعي .

## الفصل السابع : فهد والحركات الانشقاقية في الحزب

جاء تشكيل اللجنة المركزية الجديدة على عجل شديد وبعيدة عن مستلزمات الوضع القائم وطموحات فهد في بناء حزب شيوعي من طراز جديد (بولشفي) يسعى إلى المشاركة الحيوية والفعالة والمؤثرة في سياسة البلاد وفي تعبئة الجماهير الواسعة للنضال في سبيل أهدافها ومصالحها . وبدا ضعف القيادة واضحاً في جانيها النوعي والكمي ، خاصة وأن المرحلة التي كان يمر بها الحزب عرفت توسعاً ملموساً في عضوية الحزب وفي علاقاته الجماهيرية وفي تنوع العناصر التي انخرطت فيه ، مما كان يستوجب وجود كوادر حزبية ذات وعي فكري واجتماعي مناسب وإدراك سياسي متقدم وذات جهادية عالية وهمة التواصل في العمل . وفي نفس الوقت ازدادت مهمات الحزب وتعقدت الأوضاع السياسية وتفاقت باتجاه سلبي في أعقاب تصفية حركة مايس الانقلابية وشن حملة اعتقالات واسعة ضد القوميين المساندين للحركة وضد عدد غير قليل من الشيوعيين والديمقراطيين المستقلين بحجة تأييدهم للانقلاب . ولهذا عمد فهد في تشرين الثاني من عام 1941 إلى إعادة تكوين اللجنة المركزية بإضافة أعضاء جدد إليها وإزاحة اثنين منها ، بسبب عجزهما عن أداء مهماتهما على الوجه المناسب ، وهما حسين طه وجورج يوسف ستو ، وجه فهد دعوة إلى عدد من أعضاء الحزب لحضور اجتماع اللجنة المركزية الجديدة ، وهم: 246

يوسف سلمان يوسف (فهد) السكرتير العام للحزب

عبد الله مسعود

صفاء الدين مصطفى

حسين محمد الشبيبي

وديع طلبة

نعيم طويق

داود الصائغ

ذو النون أيوب

أمينة الرحال

زكي بسيم

لم يتسن لعبد الله مسعود حضور الاجتماع بسبب وجوده في منفاه بالبصرة . ولكنه مع ذلك اعتبر عضواً في اللجنة المركزية الجديدة وفي مكتبها السياسي . وتشير المعلومات المتوفرة حتى الآن إلى أن فهداً لم يرجع في تشكيله للجنة المركزية الجديدة إلى أحد من هؤلاء لاستشارته أو الاستفسار عنه مباشرة من الآخرين المرشحين من قبله للجنة المركزية . شكل الأربعة الأوائل المكتب السياسي للجنة المركزية وانتخب المشاركون بالاجتماع فهداً بالإجماع سكرتيراً عاماً للحزب 247 . وعند إلقاء نظرة فاحصة على أعضاء اللجنة المركزية سيجد القارئ أنهم جميعاً ينتمون إلى فئات البرجوازية الصغيرة بمراتبها الدنيا والمتوسطة ، وجلهم من المتعلمين والمتقنين والمستخدمين في التعليم أو في مجالات أخرى 248 . وعند محاولة تحليل العوامل الكامنة وراء الفردية التي برزت في الإجراءات التي مارسها فهدي في تشكيل اللجنة المركزية يجد الباحث تعليلاً لها في الملاحظات التالية:

- لم يبق من الكوادر القديمة وذات الخبرة ممن كان يمكن الاعتماد عليه في عملية الاختيار ، إذ أنهم إما كانوا قد تخلّوا عن العمل الحزبي أو أنهم كانوا في السجن أو المنفى؛
  - السرية العالية في العمل وعدم التعارف الجيد في ما بين الشيوعيين الذين اختيروا لهذا المركز ، خاصة وأن التعاون بين أجهزة التحقيقات الجنائية وأجهزة الأمن البريطانية كان مستمراً وموجهاً ضد نشاط الشيوعيين ، كما كان هناك محاولات جادة لدس المخبرين في صفوف الحزب الفتى . وكان هذا الهاجس ، إضافة إلى الخشية من ولوج المحرفين والانتهازيين إلى صفوف الحزب ، قد ساهم في تشديد المركزية والفردية في تلك الفترة من حياة الحزب ، إضافة إلى وجود قرارات صادرة عن الأمانة الشيوعية تؤكد ضرورة تشديد المركزية في بناء الأحزاب الشيوعية العاملة في السرية .
  - الاعتداد العالي بالنفس والثقة بالتجربة التي كان يمتلكها وبقدرته على تشخيص الكادر للمهام الصعبة ، وهي لا تخلوا من القناعة بضعف إمكانية الآخرين على ممارسة التشخيص المناسب للكادر ، وبالتالي امتلاكه الحق في مثل هذه المركزية الفردية في العمل؛
- استمر عمل اللجنة المركزية حتى منتصف عام 1942 دون إشكاليات كبيرة ، ولكن لم يكن يعني ذلك عدم وجود تحركات من بعض أعضاء اللجنة المركزية تنبئ باحتمال نشوء تكتل داخلها معارض لقيادة فهدي أو للطريقة التي كان يمارس بها القيادة . ولم تكن مثل هذه التكتلات غريبة

---

247 كتب حنا بطاطو في كتابه الثاني عن الحزب الشيوعي العراقي ، استناداً إلى أحاديث مباشرة مع عدد من الذين ساهموا في ذلك الاجتماع الذي تم فيه تحديد اللجنة المركزية وانتخاب فهدي سكرتيراً عاماً ، يقول: "وقد افتتح فهدي الاجتماع ... ببيان قصير فهمنا منه أن الأشخاص الحاضرين وعبد الله مسعود المنفي ، يشكلون اللجنة المركزية الجديدة. وعندما انتهى الرفيق فهدي من الإدلاء بملاحظاته سأله ذو النون أيوب إن كان لديه أي تكليف من الخارج ، أي من الكومنترن ، بتنظيم قيادة للحزب. ورد فهدي بالإيجاب. ولم يرنا أية وثيقة ، ولكننا اكتفينا بذلك. وصوت الجميع للتو على تثبيته سكرتيراً عاماً للحزب". راجع فيه هذا الصدق: بطاطو ، حنا د. العراق. الكتاب الثاني. الحزب الشيوعي. مصدر سابق. ص 152.

248 بطاطو ، حنا د. العراق. نفس المصدر السابق. ص 104 و ص 150.

على الأحزاب الشيوعية في مختلف بلدان العالم ، وهي مرتبطة بعدد من العوامل التي تكمن بشكل خاص في الأسس والمبادئ التي وضعها واعتمدها لينين في تشكيل وعمل الأحزاب البولشفية عموماً والسرية منها على وجه أخص من جهة ، وعلى تعقيدات الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي من جهة أخرى ، وإلى المستويات الفكرية والوعي السياسي والمواقع الفنية أو الطبقة للمناضلين في هذه الأحزاب من جهة ثالثة ، إضافة إلى الأوضاع النفسية التي كانت تلعب دورها بالنسبة إلى كل منهم والطموحات الشخصية والتصورات الخاصة عن قدراتهم الشخصية التي كانت تحركهم من جهة رابعة . ويبدو مناسباً الإشارة هنا إلى أن الأحزاب الشيوعية كلها كانت ترفض حينذاك وجود منابر متباينة في التحليل والاجتهاد والوجهة ، إذ أن أي اختلاف مع الواجهة المركزية التي أقرتها اللجنة المركزية بالأكثريّة كان بمثابة خروج عن فكر وسياسة الحزب ، وبالتالي ، يمكن أن يوضع الشخص في خاتمة اليسار أو اليمين ، وبالتالي ، كان يعتبر بمثابة خروج على مبادئ وقرارات الأمانة الشيوعية وخيانة للثورة البروليتارية . وعند ذلك تبدأ نهاية هذه المجموعة أو تلك في صفوف الحزب الشيوعي . وكانت الأحزاب الشيوعية تعتمد في عملها على مبدأ وحدة الفكر والعمل وترفض أي خروج على هذه الوحدة ، حتى لو كانت شكلية ، وعلى الأقلية أن تلتزم برأي الأكثرية لا بالسكوت فحسب ، بل عيها المشاركة بتنقيف الآخرين برأي الأكثرية أيضاً رغم اختلافها مع تلك الأكثرية . وكانت مثل هذه الأوضاع غالباً ما تقود إلى حركات تأمرية سرية من هذه المجموعة أو تلك ضد الأكثرية وضد السكرتير العام ، وتقود بالتالي أما إلى السيطرة على الحزب أو إلى الطرد منه بسبب فشل مؤامرتها وانقلابها على الوضع القائم . وهذا ما حدث فعلاً خلال عامي 1942 و1943 . كما كانت تصيب الإنسان بشيء من الشزفرينة أو الازدواجية المرضية . وكانت مثل هذه التحركات والإجراءات المضادة تضعف بشكل عام الحزب الشيوعي ، إذ أن الصراع في ما بين الفصائل يصبح هو الأساسي في النشاط وينشغل به الرفاق وتنسى بحدود معينة القضية الأساسية المشتركة التي يفترض توجيه الجهد نحوها . ولا شك في أن الكثير من تلك التحركات والاختلافات في وجهات النظر ، وخاصة من جانب المنقفيين في الأحزاب الشيوعية كانت تعتبر ناشئة عن أرضية البرجوازية الصغيرة ، أي عن أرضية إصلاحيّة ووسطية توفيقية مرفوضة تؤدي بأصحابها إلى خارج صفوف الحزب من خلال حملات التطهير الدورية التي أوصلت بها قرارات المؤتمر العالمي الثاني للأمانة الشيوعية في عام 1920 .

وخلال عام 1942 طرح عضو الحزب يعقوب كوهين ، وكان طالب طب حينذاك ، عدداً من الموضوعات الفكرية ودعا الحزب إلى الأخذ بها ، وهي:

• الدور المتميز والقيادي الذي يفترض أن يلعبه المنقفون في الحزب وفي المجتمع؛

. العمل من أجل تنشيط عمل المثقفين في الحزب لتأمين تثقيف قواعده وكوادر الحزب بالثقافة الماركسية؛

. تعتبر الاشتراكية الهدف المباشر لنضال الحزب الشيوعي في المرحلة الراهنة .  
انطلق يعقوب كوهين في موضوعاته من اتجاهين متناقضين أحدهما يساري متطرف يتضمن هروباً إلى الأمام في بلد متخلف جداً ، إذ رأى في الاشتراكية هدفاً مباشراً لنضال الحزب والشعب العراقي . والاتجاه الآخر عبر فيه عن الدور القيادي الذي يفترض في المثقفين أن يلعبوه في الحزب الشيوعي من أجل تنوير المجتمع ورفع مستواه الفكري والسياسي . وكان هذا يعني تقليلاً من دور الطبقة العاملة في العملية النضالية للحزب الشيوعي . وإذا كان فهد مقتنعاً بأهمية المثقفين ودورهم في عملية التنوير ، فإنه لم يكن مقتنعاً قطعاً بدورهم القيادي في الحزب وفي النضال الشعبي . كما أن فهداً كان غير مقتنع بالرأي القائل بأن مهمات الحزب الآتية هي النضال من أجل الاشتراكية . ولهذا كان الاختلاف كبيراً والتغلب عليه صعباً .

وجرت محاولة لإقناعه بخطأ الأفكار التي كان يعرضها للنقاش ويدعو إليها بإصرار دون فائدة ، مما تطلب في حينها ، ووفق قرارات الأمانة الشيوعية التي تطلب بتطهير الحزب من عناصر البرجوازية التي تثير البلبلّة الفكرية في صفوف الحزب ، فقد شكل المكتب السياسي لجنة خاصة لمحاسبة يعقوب كوهين مكونة من يوسف سلمان يوسف (فهد) وعبد الله مسعود (رياض) وصفاء الدين مصطفى (صالح) وذو النون أيوب (قادر) . وتوصلت اللجنة إلى قرار يدعو إلى التراجع عن أفكاره الخاطئة وإعادة تكوين نفسه بدراسة الكتب الماركسية الكلاسيكية . رفض يعقوب كوهين هذا الموقف ، فاتخذ المكتب السياسي للجنة المركزية ، وبمشاركة بعض أعضاء اللجنة المركزية ، قراراً بطرده من الحزب للأسباب التالية: رفضه التراجع عن نظريته الخاطئة في فهم طبيعة المرحلة وفي دور الطبقة العاملة والمثقفين في النضال الذي يخوضه الحزب الشيوعي وفي هجومه غير المبرر على قيادة الحزب ، إضافة إلى رفضه واستخفافه بالقرار الذي أصدرته لجنة المحاسبة بحقه وإصراره على السير على النهج الذي اختطه لنفسه . إن الاتجاهات الأساسية في نشاط الأحزاب الشيوعية والأمنية الثالثة لا تسمح لنا بالاعتقاد الجاد بأن حواراً جاداً ومسؤولاً جرى بين قيادة الحزب ويعقوب كوهين حول أفكاره التي يختلف بها مع آراء الحزب ، وأن يعقوب ، وكان ما يزال طالباً ، كان في مقدور القيادة بذل جهود أكبر لإقناعه بدلاً من دعوته من موقع مترفع إلى إعادة تثقيف نفسه وتغيير وجهات نظره أو طرده من الحزب ، وهو ما وقع فعلاً . إن هذا الموقف يدل بما لا يقبل الشك على الموقف العام لفهد بشكل خاص الـ1 لا يحتمل الرأي الآخر ويراه خروجاً على الماركسية-اللينينية . وكانت نتيجة هذا التشديد تحول آخرين ، وفي مقدمتهم ذنون أيوب صوب يعقوب كوهين وحدث انشقاق في الحزب .



اتخذ ذنون أيوب موقفاً مخالفاً لهذا القرار ، بغض النظر عن الأسباب الكامنة وراء هذا الموقف ، و حاول الاستفادة من جماعته لتشكيل جماعة خاصة بهما . و فعلاً عجل اللقاء بين الاثنين إلى إصدار جريدة باسم " إلى الأمام " ، حيث سميت الجماعة فيما بعد باسم الجريدة . بدأت الجريدة بطرح وجهات نظر ذو النون أيوب ، إضافة إلى أفكار يعقوب كوهين ، التي يمكن تلخيصها في النقاط الأساسية التالية:

1. غياب الديمقراطية عن حياة الحزب الداخلية ؛
2. عدم وجود نظام داخلي يستند إليه الحزب في تعامله مع التنظيمات الحزبية ومع الشيوعيين؛
3. مطالبة الحزب بعقد مؤتمره من أجل إقرار نظام داخلي له وبرنامج ، ثم انتخاب هيئته القيادية الجديدة بشكل نظامي؛
4. تعزيز دور المثقفين في نشاط الحزب؛
5. النضال من أجل بناء الاشتراكية في العراق .

ويبدو لنا اليوم بأن الجماعة لم تكن في كل مواقفها النقدية خاطئة ، بل كان في بعضها ما هو صائب ، ومنها ضعف الديمقراطية في حياة الحزب الداخلية ، على سبيل المثال لا الحصر . وإزاء هذه الواجهة التي أعلنتها جماعة ذو النون أيوب-يعقوب كوهين ، قررت اللجنة المركزية بالإجماع طرد ذو النون أيوب من عضويتها ومن الحزب في آن واحد . وكان عبد الله مسعود القريني مشاركاً في اتخاذ هذا القرار بحق ذو النون أيوب . وطرح فهد في كراسه "حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية" الذي أصدره في نهاية 1943 وبداية 1944 الأسباب التي دعت اللجنة المركزية إلى اتخاذ قرار طرد ذو النون أيوب ومجموعته من الحزب . ومن يتابع صحافة الحزب وكتابات فهد سيجد اللغة القاسية التي كتب بها فهد ضد رفاقه في اللجنة المركزية بعد اختلافه معهم . فبعد قرار طرد ذو النون أيوب شن الحزب حملة شديدة عليه وعلى الجماعة التي معه . ولم يتحملها الأخير لقسوتها فكتب إلى وصفي البني ، في سوريا رسالة شكوى مرة جاء فيها: إن "الشيوعيين ينظرون إلى وإلى رفاقي كـ "جواسيس" و "نازيين" ، بينما ينظر النازيون ورجال الشرطة إلينا كشيوعيين ... إن اتفاق نازي و شيوعي أسهل من أن يعمل شيوعيان يداً بيد" 249 .

لم تمض فترة طويلة على قرار طرد ذو النون أيوب حتى بدأ عبد الله مسعود محاولته لتشكيل كتلة حزبية قوية في مواجهة فهد ، بعد أن كان قد أفرج عنه في عام 1942 ، حيث احتل مركز الرجل الثاني في المكتب السياسي واللجنة المركزية والحزب . وأثناء عمل اللجنة المركزية شخص ضعف نشاط عدد من أعضاء اللجنة المركزية وكان يرى ضرورة الاستعاضة عنهم

249 بطاطو ، حنا د. العراق. الكتاب الثالث. الحزب الشيوعي. مصدر سابق. ص 143.

بآخرين ، الأمر الذي اعتبر من جانب عبد الله مسعود محاولة لأضعاف مركزه في اللجنة المركزية ، إضافة إلى أنه كان أساساً يرى بأنه أحق بهذا المركز من فهد ، دون أن يدلل على ذلك ، ولكنه كان على الأقل غائباً عن الاجتماع ، حيث تمت إزاحته من مركزه كسكرتير للحزب وانتخاب فهد بدلاً عنه واعتباره مساعداً للسكرتير العام للجنة المركزية . وبرز الخلاف في اللجنة المركزية التي عقدت اجتماعين لمعالجة المشكلة ، رغم مشاركة عضو اللجنة المركزية السابق وعضو حزب الشعب ، تودة ، الإيراني ، مهدي هاشم ، لمعالجة الخلاف القائم . وكان فهد على وشك مغادرة العراق إلى موسكو لحضور اجتماع الأحزاب الشيوعية حينذاك للتدارس بشأن الموقف من نشاط الأممية الشيوعية . وفي ضوء ذلك تقرر تجميد الخلاف ومعالجته بعد عودته من الخارج من خلال عقد مؤتمر للحزب وإعداد وثائقه الأساسية .

كانت اللجنة المركزية للحزب في هذه الفترة منقسمة عملياً إلى مجموعتين تقاسمتا في ما بينهما الأصوات بنسب متقاربة . إذ كانت هناك مجموعة التفت أثناء الحوار حول النقاط المختلف عليها حول عبد الله مسعود تضم عبد الله مسعود وصفاء الدين مصطفى ، وهما أعضاء في المكتب السياسي ، ونعيم طويق ووديع طلية ، وهما أعضاء في اللجنة المركزية ، أي بنسبة 44 ، 4 % من مجموع أعضاء اللجنة المركزية . أما المجموعة التي التفت حول فهد فضمت ، إلى جانبه ، داود الصانع وحسين محمد الشبيبي ، وهما أعضاء في المكتب السياسي ، وأمينة الرحال وزكي بسيم ، وهما أعضاء في اللجنة المركزية ، أي بنسبة قدرها 55 ، 6 % من إجمالي أعضاء اللجنة المركزية .

وحالما غادر فهد العراق إلى موسكو تحرك عبد الله مسعود ، وبالاتفاق مع جماعته المكتب السياسي وفي اللجنة المركزية ، ودعا إلى عقد مؤتمر للحزب وعمل مع الآخرين بسرعة على انتداب الجماعة المؤيدة له في تنظيمات الحزب في بغداد والمدن الأخرى لحضور المؤتمر . وفعلاً تم عقد المؤتمر بحضور 26 مندوباً كلهم من جماعة عبد الله مسعود .

وأطلق على المؤتمر اسم مؤتمر "وعي البروليتاريا العراقية" . وفي هذا المؤتمر تقرر ما يلي:

- إبعاد أربعة من أعضاء اللجنة المركزية والمكتب السياسي من قيادة الحزب ، وهم داود الصانع ، حسين الشبيبي ، أمينة الرحال وزكي بسيم؛
- إبقاء فهد عضواً في المكتب السياسي واللجنة المركزية؛
- انتخاب عبد الله مسعود سكرتيراً عاماً للحزب؛
- انتخاب أحد عشر عضواً في اللجنة المركزية ، أربعة منهم من أعضاء اللجنة التي حلها مؤتمر "وعي البروليتاريا العراقية" ، كما أضيف إليهم سبعة أعضاء آخرين من بينهم

حميد هندي ، عبد الوهاب عبد الرزاق ، ويوسف مكمّل ، وإبراهيم ناجي شميلي ، وإبراهيم ذيب؛

. السيطرة على أجهزة الطباعة ومصادرتها والقيام بإصدار جريدة باسم "الشرارة الجديدة" .  
وابتعد عبد الله مسعود عن مجموعة ذو النون أيوب ورفض عملياً الاحتكاك بها ومشاركتها في مؤتمره . وبهذه الإجراءات يكون عبد الله مسعود قد نفذ عملية انشقاق فعلية في صفوف الحزب الشيوعي العراقي . ورغم أن عبد الله مسعود استطاع تجميع 26 كادراً حزبياً حوله لعقد مؤتمره ، فإن عقد هذا المؤتمر كان من حيث المبدأ بالصد من قرار سبق وأن اتخذته اللجنة المركزية بعقد المؤتمر بعد عودة فهد من زيارته الطارئة إلى موسكو ، كما جرى دون إعلامه بعقد المؤتمر ، ودون استشارة أعضاء المكتب السياسي الآخرين واستبعاد بعض أعضاء اللجنة المركزية من حضور المؤتمر . وكانت هذه الواجهة تؤكد تصميم عبد الله مسعود على التخلص من "أتباع" فهد ، وتكوين أكثرية في القيادة لصالحه ، وبالتالي لم يكن مهماً إن بقي فهد في المكتب السياسي أم أبعد عنها ، إذ أن استمرار وجود اسمه يرضي الآخرين من جهة ، كما أنه كان يدرك بأن فهداً سوف يرفض تلك الإجراءات المتخذة بغيابه من جهة أخرى .

في مقابل هذا النشاط تصدى بقية أعضاء اللجنة المركزية والمكتب السياسي إلى الإجراءات التي اتخذها عبد الله مسعود وجماعته بعيداً عن الشرعية الحزبية وعن الاتفاق الذي تم في اللجنة المركزية في سبيل حل الخلافات بصورة رفاقية وعقد مؤتمر الحزب في أعقاب عودة فهد من سفرته إلى موسكو . فعقدت اجتماعاً لها في يوم 24 /11/ 1942 ، أي بعد أربعة أيام من عقد مؤتمر "وعي البروليتاريا العراقية" حيث أدين فيه مؤتمر جماعة عبد الله مسعود ونتائجه واعتباره مؤتمراً غير شرعي ، كما تقرر إصدار جريدة للحزب باسم جديد هو القاعدة . وفي 26 /11/ 1942 صدر العدد الأول من جريدة القاعدة ، أي قبل عودة فهد إلى بغداد بعدة شهور .

أدرك فهد المغزى من عقد المؤتمر في بغداد من جانب عبد الله مسعود وبغيابه ، إذ أنه كان مسبقاً بانشقاق جماعة إلى الأمام ، ومن ثم التحركات التي بدت قبل ذلك من جانب عبد الله مسعود . وحصل فهد ابتداءً على شجب لذلك التحرك من جانب الأهمية وحصل على تأكيد جديد بقيادته للحزب . كما أن وجوده في موسكو وفر له فرصة الاستفادة من المصادر التي يحتاجها والحوارات التي يمكن أن يجريها في ضوء تجارب الآخرين لإعداد كراسه الموسوم "حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية" ، علماً بأن صياغة الكراس قد تمت في شهر كانون الأول/ديسمبر 1943 وبداية عام 1944 .

لم يتأخر فهد طويلاً في موسكو بعد أن عرف بالانشقاق ومخاطره على الحزب ، فأيد حالاً القرارات التي اتخذها أعضاء اللجنة المركزية والمكتب السياسي بقيادة داود الصانع ، كما قرر

عقد لقاءات مثمرة مع جماعة عبد الله مسعود لمعالجة المشكلة التي تسبب بها الأخير . ولم تسفر تلك المفاوضات عن نتيجة معينة ، وقاد ذلك إلى تكريس الانشقاق لفترة قصيرة لاحقة . فبادر فهد إلى صياغة وإصدار كراسه "حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية" ، سعى فيه إلى تحليل العوامل التي أدت إلى وقوع الانشقاكين وكيفية التعامل معهما . واضطر فهد إلى إعادة النظر في تشكيلة اللجنة المركزية للحزب وحددها على النحو الآتي:250

فهد

داود الصانع

حسين محمد الشبيبي

زكي بسيم

أحمد عباس (عبد تمر)

وفي التشكيلة الجديدة للجنة المركزية أبعاد فهد أمينة الرحال عن عضوية اللجنة المركزية ، ولكنه أضاف إليها أحمد عباس المعروف بعبد تمر . كما أنه عمد إلى تقليص عدد أعضاء اللجنة المركزية من عشرة أشخاص إلى خمسة أشخاص فقط ، وبالتالي ضمن إلى حد غير قليل إمكانية تحقيق الانسجام داخل اللجنة المركزية .

وهكذا واجه الحزب مجموعتين وقفنا في صراع مع الحزب في فترة وجيزة وفي بداية إعادة بناء الحزب بعد الضربات السابقة التي تلقاها ، وهما جماعة "إلى الأمام" ، وجماعة "الشرارة الجديدة" ، أو كتلة عبد الله مسعود .

وبعد ما يقرب من عام على إصدار فهد كراسه المعنون "حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية" ، حيث كان داود الصانع ما يزال عضواً في اللجنة المركزية ومكتبها السياسي ، برزت حركة انشقاكية جديدة في الحزب كان مصدرها هذه المرة داود الصانع ذاته . وتشير تجارب الحزب الشيوعي العراقي والأحزاب الشيوعية الأخرى إلى أن وراء مثل هذه الحركات الانشقاكية غالباً ما تكون عوامل ذاتية أكثر منها خلافاً فكرية وسياسية ، رغم أنها تتطور لتتحول إلى خلافاً واختلافات في الفكر والسياسة . وإذا كان بالإمكان الحوار حول المبادئ والاختلافات الفكرية ، فإن القضايا الذاتية أو الشخصية غالباً ما يصعب الوصول إلى حلول توفيقية بشأنها . وإذا كانت القضايا الشخصية واضحة جداً في الانشقاكين الأول والثاني ، أي في مواقف ذو النون أيوب وعبد الله مسعود القريني رغم إنكارهما لها ، فإن حركة داود الصانع الانشقاكية كانت أكثر وضوحاً في هذا الصدد . وكان تشخيص حنا بطاطو لطبيعة داود الصانع والدوافع وراء حركته الانشقاكية سليماً تماماً . إذ كتب يقول: "وكان داود نفسه يمتلك بعض القدرة ، وكثيراً من الطموح ، وإيماناً غير قليل بقيمته . وكانت قدرته من النوع السلبي ، ويبدو

250 بطاطو ، حنا د. العراق. الكتاب الثاني. الحزب الشيوعي. مصدر سابق. ص 158.

أنه كان يشعر بأنه أكثر طبيعية في موقعه كناقد ومعارض منه في أي دور آخر . ويؤكد أعداؤه - وفي الذهن خصوصاً خدماته اللاحقة التي قدمها للزعيم عبد الكريم قاسم - أنه إنسان بلا مبادئ لن يتردد في تدمير الحزب في سبيل الارتقاء بنفسه . وربما كان الأعدل القول بأنه كان يملك العيب الشائع جداً والذي يتلخص بالخلط بين رغباته الخاصة ومصصلحة الحزب ، وعدم القدرة على السير بالإيقاع المناسب بقدر مماثل "251 ، وأنه "كان محامياً بلا قضية"252 .

غادر داود الصائغ الحزب في أوائل عام 1944 وشكل مجموعته الجديدة التي أطلق عليها اسم "رابطة الشيوعيين العراقيين" وأصدر أول عدد من جريدته المسماة "العمل" في نيسان من نفس العام . وتجمعت حوله مجموعة من أعضاء الحزب ومؤيديه في القطاع المدني والعسكري .

تركزت كل هذه الحركات الفكرية التكتلية في بغداد على نحو خاص ، رغم أنها شملت شيوعيين في مدن أخرى أيضاً . وفي عام 1944 برزت حركة جديدة أطلق عليها أصحابها "وحدة النضال" . أصدرت هذه المجموعة جريدة بنفس الاسم ضمت في صفوفها مجموعة من الشيوعيين القدامى المطرودين الذين عملوا مع جماعة إلى الأمام وجماعة وعي البروليتاريا العراقية مع مجموعة من المثقفين الشباب . وكان على رأس هذه الجماعة يوسف زلخا . والجدير بالإشارة أن اسم هذه المجموعة ظهر في كردستان العراق أيضاً ، حيث سميت بـ "يكتي تيكوشين" التي تحولت فيما بعد إلى مجموعة شورش وأصدرت جريدة بنفس الاسم ، علماً بأن مجموعة منها التحقت بالحزب أيضاً . وكان على فهد أن يكافح على هذه الجبهة من جهة ، وأن يجيب عن مجموعة من الأسئلة والقضايا التي أثارها المنشقون على الحزب وأعضائه من جهة أخرى ، وأن يتخذ موقفاً من الهجمات التي شنت ضد قيادة الحزب والتي استهدفته مباشرة من جهة ثالثة . فكيف واجه الحزب بقيادة فهد هذه المجموعات المنشقة من الناحيتين الفكرية والسياسية ، وكيف أجاب عن الأسئلة المطروحة حينذاك؟

اتخذ فهد مواقفه على جبهات ثلاث ، وهي: أولاً: الصعيد الفكري؛ ثانياً: الصعيد السياسي؛ ثالثاً: الصعيد التنظيمي .

أولاً : الصعيد الفكري

251 بطاطو ، حنا د. العراق. الكتاب الثاني. الحزب الشيوعي. مصدر سابق. ص 162/163.

252 نفس المصدر السابق. ص 162.

أبدى فهد اهتماماً كبيراً ومستمراً في معالجته الفكرية للاتجاهات التكتلية والانشقاقية في الحزب ، إذ احتلت عنده عملية فضح قاعدتها الفكرية والكشف عن مصدرها الطبقي وأهدافها السياسية أهمية فائقة واستثنائية من أجل تحصين الحزب ضد الحركات والأفكار الانتهازية والتحريرية المناهية للماركسية-اللينينية والفكر والممارسة الستالينية . ويمكن للباحث أن يعثر على تلك المعالجات في المصادر التالية:

- كراس فهد الموسوم "حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية؛
  - كتابات فهد في تلك الفترة التي نشرتها جريدة القاعدة؛
  - الممارسات الفعلية التي مارسها الحزب وفهد إزاء تلك الجماعات المنشقة وخلفية انشقاقاتهم التي انعكست في ذكريات مجموعة من الشيوعيين القدامى الذين عايشوا تلك المرحلة واطلعوا على النتائج التي ترتبت عنها أو انتهت إليها تلك الإجراءات .
- وكان فهد ، وهو يقود الحزب ، متأثراً ومحكوماً في تعامله مع هذه الحركات الانشقاقية ومع القضايا الفكرية المطروحة بخمسة عوامل ، وهي:

1. القرارات الصادرة عن الأمانة الشيوعية التي كانت تلزم الأحزاب الشيوعية حتى ذلك الحين بتنفيذها إزاء مجموعات من هذا النوع ، والتي تعود إلى شروط قبول الأحزاب الشيوعية في الأمانة الشيوعية والتي أقرت في المؤتمر الثاني للأمانة الشيوعية في منتصف عام 1920 (راجع الملحق رقم 1)؛

2. السياسات التي مارسها ستالين وأكدها في كتاباته وخطبه وفي مؤتمرات الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي والأمانة الشيوعية والتي تجلت أيضاً في كراسيه "في سبيل تكوين بولشفي" و "الأسس اللينينية"؛

3. وكانت لفهد ، دون أدنى ريب ، قراءته الخاصة للفكر الماركسي - اللينيني في الأوضاع التي تميز بها المجتمع العراقي المتخلف ، وهي لا تنفصل عن طبيعة العملية التثقيفية اللينينية - الستالينية التي خضع لها الكادر القيادي للأحزاب الشيوعية حينذاك ، ومنهم فهد .

4. التجارب العملية التي كدستها الأحزاب الشيوعية وانعكست في دراسات وحوارات في المدرسة الحزبية؛

5. السياسات والممارسات الفعلية التي اعتمدها الجماعات المنشقة في مواجهة الحزب وفهد . إذ تشير بعض المعلومات إلى أن بعضهم كانت تحدوه المصلحة الشخصية والطموحات الذاتية للوصول إلى قيادة الحزب دون أن تكون لديه المؤهلات الضرورية والإمكانات الفعلية لأداء مثل هذا الدور أو لاحتلال موقع السكرتير العام للحزب .

كان على فهد ، وهو يعالج إشكاليات التكتل الفكري والسياسي في صفوف الحزب الشيوعي ، أن يأخذ بنظر الاعتبار قرارات المؤتمر الثاني للأمانة الشيوعية التي ثبتها في كراسه "حزب

شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية" حين أشار إلى الشرطين الثاني والسابع على التوالي حيث جاء فيهما ما يلي:

"2 . يجب على كل منظمة تريد الانضمام إلى الكومنترن أن تعمل بطريقة مبرمجة وبلا انقطاع على تنحية الإصلاحيين وأتباع الوسط من جميع المراكز ذات المسؤولية في حركة العمال ( في التنظيم الحزبي ، وفي هيئة التحرير ، والنقابات ، والكتلة البرلمانية ، الجمعيات التعاونية ، البلديات ... الخ) وتستعيز عنهم بشيوعيين يعتمد عليهم . ويجب أن لا يفوتهم أن في بعض الحالات يقتضي لهم في بادئ الأمر أن يستعيزوا بعمال اعتياديين بدل "سياسيين" من ذوي الخبرة"253 .

"7 . يجب على الأحزاب التي تريد الانتساب للأمممية الشيوعية أن تقطع بالضرورة علاقتها بالإصلاحيين وبسياسة الوسطيين بشكل تام ومطلق . ويجب القيام بدعاية واسعة حول قطع هذه العلاقة بين قواعد الحزب ، إذ بدون ذلك يصبح من المتعذر انتهاج سياسة شيوعية حازمة

تطلب الأمممية الشيوعية بصورة إنذارية وحتمية أن يحدث الانفصال في أقرب وقت ، إذ أن الأمممية الشيوعية لا تستطيع أن تسمح للمعروفين بإصلاحيتهم من أمثال توراني ومودلياني وآخرين بأن يكون لهم حق ادعاء عضوية الأمممية الثالثة ، إذ أن حالات كهذه تؤدي إلى صيرورة الأمممية الثالثة شبيهة إلى حد بعيد بالأمممية الثانية المتدهورة"254 .

ومثل هذه النصوص ، التي كانت قد استكملت بقرار المؤتمر الثاني القائل "تعتبر كافة قرارات الأمممية الشيوعية وقرارات لجننتها التنفيذية ملزمة لجميع الأحزاب المنتسبة إلى الأمممية الشيوعية . على الأحزاب الشيوعية التي تعمل تحت ظروف الحرب الأهلية القاسية أن تبنى وفق أسس أشد مركزية من أحزاب الأمممية الثانية . ... 255" ، كانت ملزمة لكل الأحزاب الشيوعية ، ومنها الحزب الشيوعي العراقي . وتجلت هذه الحقيقة في الأسلوب الذي واجه به فهد أعضاء تلك الكتل الانشاقية ، سواء الذين طردوا من الحزب لاختلاف في وجهات النظر وإصدارهم نشرات استفزازية أو غير استفزازية ضد وجهات نظر الحزب مثل ذو النون أيوب ويعقوب كوهين (إلى الأمام) ، أم تلك التي انشقت على الحزب وشكلت تنظيمات جديدة باسم الحزب الشيوعي العراقي وأصدرت جريدتها "الشرارة الجديدة" مثل عبد الله مسعود ، أم حتى تلك المجموعة التي انسحبت من الحزب ، ومنهم داود الصانع ، وشكلت حزباً جديداً باسم

253 لينين ، ف. إ. المؤلفات. المجلد 31. باللغة الألمانية. دار ديتس للنشر. برلين. 1959. ص 194.

254 نفس المصدر السابق. ص 195.

255 لينين ، ف. إ. المؤلفات. المجلد 31. باللغة الألمانية. دار ديتس للنشر. برلين. 1959. ص 196.

"رابطة الشيوعيين العراقيين" وأصدرت جريدة "العمل" ، في أعقاب صدور كراس فهد "حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية" . كتب فهد بهذا الصدد يقول:

"إن المنظمة التروتسكية (التي اندمجت فيما بعد مع الخونة المطرودين من الحزب ومع بعض الجواسيس الذين انضموا إليهم وألفوا ما يسمونه بحركة المؤتمرين كانت منظمة لا نشاط لها البتة بين الجماهير ، عدا بعض أفراد منهم اندسوا هنا وهناك بقصد التخريب . لكن أعضاء هذه المنظمة لم يقطعوا الصلة فيما بينهم ، ولم يصفوا منظماتهم مع علمهم الأكيد بأنها منظمة عاطلة لا فائدة منها ، إلا أنهم انتظروا وانتظروا طويلاً ذلك اليوم الذي تلقي الشرطة القبض على قادة الحزب الشيوعي فيبرزوا حينذاك من مكنهم ليحلوا محل الشيوعيين . ولما بأسوا أخيراً انقسموا فيما بينهم ، فمنهم من طلب الانتماء إلى الحزب ، والآخرون فضلوا الانتظار معتمدين على زملائهم الذين أرسلوهم إلى الحزب ، لكن الحزب قبل بعضهم كمرشحين ، وقبل انتهاء مدة ترشيحهم وجددهم (جميع أعضاء منظماتهم) قد طُفروا إلى جانب الخونة قادر وفاضل 256 وشركائهما ، فادعى قادر أنه انفصل عن الحزب لأن الحزب لم يعقد مؤتمراً لانتخاب لجنة مركزية (شرعية) مع العلم أن الخائن لم يطلب عقد مؤتمر عندما كان داخل الحزب لا هو ولا شركاؤه أي أنه لم يرده عندما كان داخل الحزب وأصبح يريد هو والتروتسكيون والجواسيس الذين انضموا إليهم ، وقد نسي هؤلاء جميعاً أن الأحزاب الشيوعية لا تنتدب ممثلين في مؤتمراتها إلا من بين أعضائها الحزبيين . ... "257 . وبما أن تلك الحركات كانت توصف من جانب الأممية الثالثة بأنها العدو الرئيسي والخطر المباشر الذي يجابه الأحزاب الشيوعية ، كتب فهد يقول: " ليعلم الانتهازيون ... أننا سنركز ضدكم 90 بالمئة من قوتنا ولن يكون هذا عبثاً لأننا سنشن الحرب في أجواء العمل الجماهيري الطبقي والوطني" 258 ، رغم أن فهداً كان يدرك في قرارة نفسه بأن هذه العناصر المنشقة لم تكن عميلة للأجنبي أو جواسيس للمستعمرين وللحكومات الرجعية ، كما أنها كانت مجرد عناصر ذات اتجاهات فكرية وسياسية مختلفة غير قادرة على تهديد الحزب ، ولكنها كانت بطبيعة الحال تثير الضجة ضد الحزب وتتسبب ، بهذا القدر أو ذاك ، في خلق بلبلة فكرية وسياسية في الحزب والمحيط الذي يحيط بالحزب . وهو الأمر الذي كانت لا تحتمله الأممية الثالثة والأحزاب الشيوعية ، ومنها الحزب الشيوعي العراقي .

ولكن فهداً ، الذي وجه نيران نقده ضد هؤلاء المنشقين ، عمد في الوقت نفسه إلى تحليل وتشخيص الأساس المادي الذي كانت تنطلق منه هذه الجماعات في العراق ، حيث كتب يقول:

256 قادر: ذو النون أيوب ، فاضل: يعقوب كوهين.

257 فهد كتابات الرفيق فهد. من وثائق الحزب الشيوعي العراقي. دار الفارابي - بيروت. الطريق الجديد - بغداد. 1976. ص 57/56.

258 بطاطو ، حنا د. العراق. الكتاب الثاني. الحزب الشيوعي. مصدر سابق. ص 162.



"ومما ساعد على بروز الانحرافات داخل حزبنا بشكل خطر ، حادثة عهد البروليتارية العراقية ، إذ أن معظم عمالنا العراقيين جاؤوا حديثاً من طبقة الفلاحين والحرفيين ولا يزالون بتفكيرهم أقرب إلى البرجوازية الصغيرة من البروليتاريا ، يضاف إلى ذلك قلة خبرة اختبارهم بأساليب الانتهازية ، وقلة الكادر الحزبي المتقن للنظرية الثورية وتطبيقها ، يضاف إلى ذلك انعدام الأحزاب العننية (الديمقراطية ، والنقابات في القطر) مما دفع الكثير من العناصر غير البروليتارية من أعداء الاستعمار وأعداء الوضع بصورة عامة ، والموظفين والطلاب غير المسموح لهم بالاشتغال بالسياسة وطلاب التزعم والمراكز وعشاق حب الظهور ، وأقسام من العمال الذين لا يهتمهم سوى تحسين أحوالهم المعاشية ، أقول مما يدفع جميع هؤلاء إلى التهافت على الحزب الشيوعي للعمل فيه . فلو كانت في القطر أحزاب ديمقراطية ونقابات لوجد هؤلاء ضالتهم فيها ولتمكن الحزب في الوقت نفسه من تجنيد الطليعة على أساس اختبار نضالهم وميولهم في تلك المؤسسات" 259 .

في هذا النص المركز يقدم فهد تحليلاً واقعياً وملموساً لظروف العراق وتركيبية المجتمع الطبقي وإمكانية بروز أفكار وسياسات ومواقف متباينة من جانب المواطنين العراقيين حول الأوضاع السائدة من جهة ، وتوجه مجموعات غير قليلة من المواطنين من أعداء الاستعمار إلى صفوف الحزب من جهة أخرى . ولكنه في الوقت نفسه ، وبسبب التباين في التحليل والتشخيص والاجتهاد مع هؤلاء الأشخاص ، وجه لهم تهمة الانتهازية والتحريفية والخروج على الماركسية والخيانة الطبقيّة والعمالة أو التجسس للعدو الطبقي والرغبة في تخريب الحزب عبر نشاطاتهم الفكرية والسياسية وتشكيلهم كتكتلات حزبية وانشاقية باسم الماركسية . وهي بطبيعة الحال كانت لا تعبر عن واقع هؤلاء الناس ، بغض النظر عن مواقفهم ، سواء كانت خاطئة أم صائبة ، بل كانت تهمة ظالمة ومضرة بسمعة هؤلاء الناس وقاسية جداً . وبقدر ما كانت تحليلات فهد الأولى صائبة ومرنة ومعبرة عن واقع الحال ، كانت التهم التي وجهها لرفاقه في النضال خاطئة واستفزازية غير مبررة من ناحية الواقع العراقي ، ولكنه كان أمام قرارات الأممية الثالثة ، رغم حلها ، التي نشطت دوره في مواجهة ومهاجمة تلك الجماعات . ويبدو أنه كان مقتنعاً تماماً بما كان يقوم به ويتحدث عنه أيضاً ، أي أنه لم يكن مجبراً على قول كل ذلك بحق هؤلاء ، بل كان يريد قول ذلك لتدميرهم وتدمير تنظيماتهم التي كان يعتبرها معادية للحزب . ويبدو هنا تأثير فكر وممارسات ستالين صارخة في موقف فهد من تلك الجماعات ، كما كانت غير بعيدة عن أساليب لينين في مهاجمة من يختلف معه في الرأي . ففهد الذي تتلمذ في المدرسة الحزبية واقتنع بقرارات الأممية الشيوعية والتزم بموقف ستالين من التكتلات الفكرية

259 فهد. كتابات فهد. حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية. مصدر سابق. ص 96.

والسياسية في الحزب ، أورد مقتطفات ضافية من خطاب ستالين في عام 1929 عن الانحراف اليميني في الحزب البولشفي -اختلافات مع بوخارين في قضايا الكومنترن- ، في كراسه "حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية" ، ليبرر الموقف الذي اتخذهُ إزاء هؤلاء الأشخاص ، ثم عاد ولخص تلك الأفكار في خمس نقاط تؤكد تلك الوجهة التي اعتبرت كل اجتهاد خارج إطار ستالين وقيادة الحزب الشيوعي السوفييتي بمثابة خروج عن الماركسية وانحراف عن اللينينية . كتب فهد يقول:

"أظن أن فيما نقلته عن الرفيق ستالين الكفاية ليوضح لنا:-

1- أن الانحرافات في الأحزاب الشيوعية في الأقطار الرأسمالية ، هو ميل ، ومن قبل قسم من الشيوعيين للابتعاد عن الخطة اللينينية الثورية والاتجاه نحو الاشتراكية الديمقراطية . وتكييف الشيوعية وفق الاشتراكية الديمقراطية التي هي دعامة الطبقات المستثمرة في حركة العمال .

2- وأن الحرب ضد الانحرافات يجب أن لا تقتصر على تنحية الانتهازيين وتطهير الحزب منهم ، بل أن تحارب الانحرافات كميل خطر له جذوره في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في القطر ، أي أن نحارب الأفكار التي تنبعث منها الانتهازية .

3- أن لا ينشغل الثوريون عن الانحرافات باعتبارها خطراً على الحزب ، بأعمالهم الحزبية الاعتيادية الآتية دون التفكير بمستقبل الحركة وأهدافها ، وبدون الانتباه إلى أن انتصار الانحرافات داخل الحزب معناه ضياع الأمل بتطور الحركة .

4- وجوب تطهير الأحزاب الشيوعية من المنحرفين باعتبارهم أداة النفوذ البرجوازي -المعادي داخل حزب البروليتاريا ، وأن تشن الحرب لا على الانتهازيين المفصوحين فحسب بل كذلك على الموفقين .

5- أن يفرض ضبط حديدي على الأعضاء وخضوع لا شرطي لهذا الضبط وبهذا فقط يمكن تحطيم تكتلات المنحرفين داخل الحزب ، بالوقوف ضد هجماتهم لتنفيذ شعار تطهير الحزب الشيوعي من الانتهازيين "260 .

6- وركز الحزب في تثقيفه في هذه الفترة من تاريخه على مجموعة من كتابات لينين وستالين وبعض قادة الحركة الشيوعية العالمية ، وخاصة القضايا التي تمس الفاشية والحرب من جهة ، وتلك التي تتوجه ضد الانتهازية اليمينية والتحريرية والاتجاهات التروتسكية في الحركة الشيوعية من جهة أخرى ، إضافة إلى بعض كتابات ماركس وإنجلز المترجمة أو التي دفع الحزب إلى ترجمتها ونشرها .

إن النص الخاص بتطهير الأحزاب الشيوعية من المنحرفين ، الذي طرحه ستالين وثبته فهد ، يعيد في الواقع قراءة جزء من خطاب ستالين في الاجتماع الموسع للجنة المركزية للحزب

260 فهد. كتابات الرفيق فهد. من وثائق الحزب الشيوعي العراقي. مصدر سابق. ص 93/92.

الشيوعي السوفييتي حول الانحرافات اليمينية في الحزب في عام 1929 والتي أقرها المؤتمر السادس عشر للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي 261 ، ويؤكد ثلاث مسائل كانت تعتبر جوهرية بالنسبة للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي والأممية الشيوعية لا يجوز الإخلال بها من جانب كافة الأحزاب الشيوعية ، ولكنها كانت غير واقعية بالنسبة لأوضاع العراق ، وكانت ، كما تبدو لنا اليوم ، هاجساً ووهماً غير مبررين ، وهي:

- القناعة التامة لدى الأحزاب الشيوعية بأنها ، وبسبب امتلاكها المنهج المادي الديالكتيكي والمادي التاريخي أو النظرية الماركسية-اللينينية ، تمتلك الحقيقة كلها دون أن تترك أي مجال للشك في ما تطرحه أو فرصة لأي اجتهاد آخر . وهي قناعة لا تستند إلى أي أساس علمي أو أنها نظرة غير عامية أصلاً؛
- اعتبار الأحزاب الشيوعية أن الأممية الثانية هي العدو الرئيسي الذي ينبغي محاربتة ، إنها الحرب التي يفترض أن تشن ضد هؤلاء المنحرفين عن الخط اللينيني بلا هوادة . ولهذا أشار فهد إلى أن الحزب سيوجه 90 % من نشاطه ضد هؤلاء الانتهازيين والمنحرفين . ولم يكن هذا الاتجاه خاطئاً بالنسبة للحركة الشيوعية العالمية وللحزب الشيوعي العراقي فحسب ، بل وكان في الواقع الأمر ينسى العدو الرئيسي الذي كان يواجهه العالم حينذاك ، وكذا العدو الرئيسي في العراق؛
- وكان العمل في سبيل التخلص من هؤلاء وتطهير الأحزاب الشيوعية منهم ومحاربتهم هو المهمة المباشرة للشيوعيين . وإذا كانت الأحزاب الشيوعية العاملة في السرية مارست النقد والاتهام والمحاربة السياسية ضد تلك القوى ، فإن الحزب الشيوعي السوفييتي الذي كان في السلطة وبقيادة ستالين مارس باسم المبادئ والحزب والوطن ، وبدو رافة التصفيات الجسدية ، إضافة إلى التصفيات السياسية ، ضد تلك القوى المخالفة لوجهة نظر الحزب أو ستالين ، والتي كانت في الغالب الأعم مخصصة في مواقفها وصريحها في طرح أفكارها .

---

261 Geschichte der kommunistischen Partei der Sowjetunion. Dietz Verlag. Berlin. 1975. S. 505.

## ثانياً : الصعيد السياسي

كان فهد واعياً بأهمية التثقيف الفكري والسياسي في عمل الحزب الشيوعي وفي الموقف من الكتل الانشاقية ، ولكنه كان يدرك أيضاً بأن العمل في هذا المجال يبقى غير كاف لمعالجة التكتلات الفكرية والسياسية ، إذ أنه بحاجة إلى عمل سياسي وإلى استجابة مباشرة لعدد من المطالب التي طرحتها تلك الجماعات والتي وجدت لها صدى إيجابياً وقبولاً واسعاً في صفوف الحزب . لهذا بادر إلى إعداد الوثائق الضرورية لعقد المؤتمر الوطني الأول للحزب والانتهاه من الشكوك التي كانت تثيرها تلك الجماعات . والمعلومات المتوفرة تشير إلى أن فهداً سافر إلى موسكو في أوائل تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1942 وعاد إلى بغداد في ربيع عام 1943 . وارتبطت هذه السفارة بخمس مهمات أساسية ، يصعب إثباتها بشكل قاطع وفق المعطيات المتوفرة لدينا حتى الآن ، ولكن هناك من المؤشرات المهمة ما يؤكد ذلك . ونعتمد في هذا التقدير على قرارات الأهمية وشروطها في العضوية ، وعلى الممارسات اللاحقة ، إذ كانت الأحزاب الشيوعية ملزمة بعرض برامجها ونظمها الداخلية أو التعديلات عليها على مكتب سكرتارية الأهمية الثالثة ، وفيما بعد على الحزب الشيوعي السوفييتي ، حيث كانت تشكل لجنة من علماء شيوعيين سوفييت يتحملون مسؤوليات مباشرة في الحزب ومن متخصصين بشؤون البلدان المختلفة لخوض النقاش حول تلك البرامج أو النظم الداخلية وتقديم الملاحظات بشأنها . ويمكن مواصلة التحري عن هذا الموضوع لتغطية الفجوة في المعلومات المتوفرة . ونشير فيما يلي إلى المهمات الخمس التي تبلورت لدينا:

1. كانت اللجنة التنفيذية للأهمية الشيوعية تناقش حينذاك مع بقية الأحزاب الشيوعية الموقف من استمرار العمل بالكومنترن والذي تحول في حينها إلى الكومنفورم ، إذ كانت قد نشأت ظروف جديدة استوجبت اتخاذ قرار حل مكاتب الأهمية الشيوعية . وكان لا بد لمشروع قرار من هذا النوع أن يناقش مع بقية الأحزاب الشيوعية الأعضاء في الأهمية الشيوعية؛
2. مناقشة الوضع في الحزب الشيوعي العراقي والتطورات الجارية في نشاطه وقدراته وكفاءة الأداء ، إذ أن اللجنة المركزية لم تعقد أي مؤتمر آخر لها بعد المؤتمر السابع الذي عقد في عام 1935 وافتتت باجتماعات اللجنة التنفيذية ، وكان لا بد من استشارات حزبية بين فترة وأخرى بين هذا الحزب أو ذاك أو مجموعات إقليمية من الأحزاب الشيوعية أو الراغبة في عضوية جديدة؛
3. مناقشة الوثائق التي كان فهد قد أعدها لتطرح على المؤتمر الوطني الأول للحزب ، بشكل خاص الميثاق الوطني والنظام الداخلي للحزب ، وعلى الإجراءات التي كان لا بد من اتخاذها

بالتشاور مع اللجنة التنفيذية ، إذ كان قرار المؤتمر الثاني للأممية الشيوعية يحتم الحصول على موافقة اللجنة التنفيذية على البرنامج الذي يراود إقراره من قبل هذا الحزب الشيوعي أو ذلك 262 . وكان فهد في قرارة نفسه يتفق مع أهمية عقد مثل هذا المؤتمر ولكن بعيداً عن الضغط واحتمال الوقوع بأخطاء قاتلة للحزب الجديد وفي ظروف الإرهاب والسرية المشددة ، إضافة إلى ضرورة مناقشة مكتب الأممية بشأنها . ويقدم فهد تبريرات مثل عدم التسرع في عقد المؤتمر في كراسه "حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية" حيث يقول: "يصعب على الأحزاب الشيوعية عقد مؤتمرات لها وكثيراً ما تبقى هذه الأحزاب بدون مؤتمر لعشر سنوات ، وأحياناً لأكثر من هذه المدة ، ... " . وأن هذه الصعوبات تتبلور عنده في : 1- خطر الشرطة . 2- معرفة المندوبين بعضهم للبعض خصوصاً في القطر الصغير . 3- عدم إمكانية حضور القادة البارزين إلى المؤتمر لوجودهم في السجون أو المهجر ، ... " 263 . كما أشار إلى عامل مهم آخر هو حداثة تشكيل الحزب حيث كتب في جريدة القاعدة في عام 1943 وقبل صدور كراس "حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية" يقول: "في البداية ، ما زال الحزب في مرحلة لينة ، وما زالت تشكيلاته ضعيفة إلى حدّ مذهل وكوادره محدودة وتفترق إلى الخبرة . وفي ظل هذه الظروف لا يمكن لمؤتمر أن ينتج إلا صخباً فارغاً إن هو لم يخلق تشوشاً أيديولوجياً" 264 . وإذ ركز فهد على تلك العوامل ، وأهمها خطر الشرطة وحداثة تشكيل الحزب وليونة تنظيماته ورفاقه ، لم يرغب في حينها ، كما يبدو ، الإشارة إلى بقية الأسباب ، ومنها تلك التي ترتبط برقابة ومصادقة الأممية الشيوعية على وثائق المؤتمر الوطني للحزب ، والتي كانت شرطاً من شروط العضوية في الأممية الشيوعية؛

4. التطورات السياسية الجارية في العراق وفي المنطقة ومواقف الحزب الشيوعي العراقي منها ، خاصة وأن العراق الرسمي كان قد أعلن الحرب على دول المحور وأصبح في معسكر القوى المناهضة للفاشية؛

5. التشاور مع ممثلي الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية التي كانت موجودة في تلك الفترة في موسكو أيضاً ، حول الوضع العربي والدولي والموقف من اتجاهات تطور الحرب العالمية الثانية .

لم يتأخر فهد بعد عودته من موسكو ، وبعد أن واجهته إشكالية عقد مؤتمر "وعي البروليتارية العراقية" لجماعة عبد الله مسعود والاستيلاء على مطبعة الحزب وكسب العديد من منظمات الحزب وكوادره القيادية إلى جانبهم ، من العمل الدؤوب والكثيف ، مع بقية رفاق اللجنة

262 راجع في هذا الصدد الشرط رقم 16 من شروط الانتساب إلى الأممية الشيوعية. الملحق رقم (1).

263 فهد. كتابات الرفيق فهد. "حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية. مصدر سابق. ص 56/55.

264 جريدة القاعدة. الجريدة المركزية للحزب الشيوعي العراقي. العدد 4. حزيران/يونيو. 1943. 6-4-6.

المركزية والمكتب السياسي والكوادر والتنظيمات الراضة للانشقاق ، من أجل إعادة ترتيب الأوضاع والتهنية في ذات الوقت لإصدار كراس "حزب شيوعي لا اشتراكية ديموقراطية" والتحضير للكونفرانس الحزبي الأول الذي يهين مستلزمات عقد المؤتمر . وكان على فهد من الناحية السياسية ، وهو يقود الحزب ، أن يطرح برنامجاً سياسياً منسجماً مع طبيعة المرحلة والمهمات المطلوبة على مختلف الأصعدة ، وبالنسبة لتلك الفئات التي تبني الحزب مصالحها وطرح نفسه ممثلاً عنها ومدافعاً عن تلك المصالح ، كما كان عليه أن يطرح الشعارات المناسبة للمهمات الوطنية والطبقية والمهنية للحركة الوطنية العراقية ، من وجهة نظر الحزب الشيوعي ، من جهة ، وأن يؤكد بأن الحزب الذي يقوده يحظى بتأييد الأممية الشيوعية في مواجهة المجموعات التي كانت تدعي غير ذلك أو تريد الحلول محل الحزب من خلال تبني القضايا التي تطرحها الأممية الشيوعية من جهة ثانية ، إضافة إلى أنه كان يرفض الاعتراف بأي طرف آخر يعمل في الساحة السياسية العراقية ويتبنى الماركسية ويدعي العمل بموجبها ، إذ كان فهد يعتقد ، كما هو حال بقية الأحزاب الشيوعية والشيوعيين في الحركة الشيوعية العالمية حينذاك ولعدد من العقود اللاحقة ، بأن وجود حزبين ماركسيين في بلد واحد لا بد أن يكون أحدها على خطأ .

### ثالثاً : الصعيد التنظيمي

استمع فهد بعد عودته من موسكو إلى تقرير مفصل قدمه بقية أعضاء اللجنة المركزية حول الحركة الانشاقية التي قادها عبد الله مسعود القريني والنتائج التي تمخضت عنها أو ترتبت عليها ، وما تبقى للحزب من تنظيمات ورفاق في بغداد والمناطق الأخرى . وكانت المجموعات التي التحقت بعبد الله مسعود كبيرة نسبياً ، وما تبقى كان قليلاً . ثم شرحوا له الإجراءات التي اتخذوها في مواجهة هذه الحركة الانشاقية . أعرب فهد عن ارتياحه للموقف الحازم الذي اتخذته المجموعة المتبقية ، وبشكل خاص حازم وصارم ، كما أبدى أسفه لما حدث . وفي أعقاب ذلك دعا فهد إلى اجتماع للجنة المركزية عقد في نيسان من عام 1943 وتمت فيه مناقشة الأوضاع المستجدة وسبل مواجهة الانشقاق وعواقبه . ثم اتفق الحضور على التحرك المكثف والسريع صوب المهمات وممارسة الإجراءات التالية:

- ترصين التنظيمات التي رفضت القبول بالعمل مع جماعة "الشرارة الجديدة" في بغداد وفي مختلف المدن الأخرى التي توجد فيها تنظيمات حزبية؛
- إقامة الجسور مع التنظيمات التي جرّتها إلى جانبها جماعة الشرارة الجديدة من أجل تحريكها وإقناعها بالعودة إلى صفوف الحزب

- تنمية وتوسيع قاعدة الحزب التنظيمية وعلاقاته بال جماهير وبال قوى السياسية الأخرى ، وخاصة تنشيط عمل الحزب بين الشباب؛
  - الابتعاد ، عند اختيار الكادر القيادي ، عن إغراق القيادة بالعناصر المثقفة ، وبذل الجهد للاعتماد على العمال والفلاحين أو الكادحين بشكل عام . ولم تكن المهمة الأخيرة سهلة ، وهي في الوقت نفسه ذات آثار باتجاهين متعاكسين على المستويات الفكرية والسياسية والتنظيمية والتي سنأتي عليها في مكان آخر من هذا الكتاب . ومع ذلك لم يكن في مقدور فهد ، بالارتباط مع واقع العراق أن يتجنب المثقفين والمتعلمين ، وهي الظاهرة التي تجلت في الكونغرس الحزبي الأول وفي المؤتمر الوطني الأول في آن واحد؛
  - إغارة انتباه أكبر للحركة العمالية العراقية والسعي إلى كسب المزيد من العمال إلى صفوف الحزب؛
  - وكان الهدف الأساسي من وراء كل ذلك هو تنشيط الحركة الوطنية العراقية واعتبار القوى الديمقراطية هي العامل المحرك والمنشط في العملية النضالية الجارية ، والسعي إلى إجراء إقامة التحالفات الجبهوية .
  - كما نوه الاجتماع بالمصاعب التي تواجه الحزب حالياً لعقد مؤتمره ، خاصة وأن أجهزة الدولة المسؤولة كانت قد عبأت الشرطة العننية والسرية لمراقبة تحركات الشيوعيين وأصدقاء الحزب .
- تمكن فهد من إعادة تشكيل اللجنة المركزية ومكتبها السياسي بسرعة كبيرة بعد عودته مباشرة لتصبح الأساس في التوجه صوب المؤتمر ، رغم انفصال داود الصانع عنه حتى قبل عقد الكونغرس الحزبي . وأبدى فهد اهتماماً خاصاً في تكوين "النواة اللينينية الصلبة" عند إعادة تشكيل اللجنة المركزية ومكتبها السياسي . وتم له ذلك فعلاً ، إذ كَوّن نواته الصلبة من عناصر خبرها في النضال اليومي ، وخاصة في أعقاب انشقاق عبد الله مسعود القريني ، وهم ثلاثة فقط: فهد وحازم وصارم شكلوا معاً المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب . وكان مصطلح "النواة اللينينية الصلبة" قد دخل في قاموس ونشاط الأحزاب الشيوعية في فترة ستالين ، وكان يعني به مسألتين هما:
- أولاً: أن تتوفر عند السكرتير العام إزاء أعضاء النواة: \* ثقة كاملة ومتبادلة بالمجموعة المنتقاة التي يفترض أن تلتف حول السكرتير العام؛ \* استعداد كامل لتحمل المسؤوليات التي ينيطها السكرتير العام بأفراد هذه النواة ، فهم من أصحاب المهمات الصعبة؛ \* العودة إليها والتشاور معها قبل طرح المسائل على المكتب السياسي للجنة المركزية ، وبالتالي ضمان التأييد لتلك القضايا المطروحة ، بعد الحوار حولها فيما بين أفراد "النواة اللينينية الصلبة"؛ \*

الصلابة والصمود في مواجهة العدو وأجهزته وصيانة الأمانة الحزبية وأسرار الحزب حتى النهاية .

ثانياً: إن الوجود غير الرسمي "للنواة اللينينية الصلبة" وغير المعنن عنها يتطلب ثقة عالية جداً من جانب السكرتير العام للحزب بإخلاص المجموعة لا للمبادئ والأهداف ، وهي ضرورية وأساسية جداً ، فحسب ، بل وللسكرتير العام أيضاً من جهة ، واقتناع حقيقي من جانب أفراد هذه النواة اللينينية الصلبة بقدرات وكفاءات وإخلاص السكرتير العام للحزب وثقة عالية بشخصه وقيادته للحزب ، وبالتالي ، استعداد كامل للدفاع عنه أمام مختلف الهجمات الفكرية والسياسية من جهة ثانية . ولا تشترط عضوية هذه النواة مستوى فكري أو سياسي معين ، أي من الممكن أن يكون في المكتب السياسي واللجنة المركزية عناصر أخرى أكثر وعياً وكفاءة فكرية وسياسية وقدرات تنظيمية من أعضاء النواة ، فالإخلاص اللامتناهي للأمية الشيوعية وحركة البروليتارية العالمية ، إضافة إلى الإخلاص التام لقضية الشعب العراقي ، إضافة إلى ما أشير إليه سابقاً ، هي من المعايير الأساسية في هذا الاختيار ، وخاصة في ظروف العمل السري وفي ظل سيطرة القوى الرجعية وسيادة الإرهاب في البلاد . ويمكن أن يتلمس المتتبع لتلك الفترة هذه الحقيقة في الأشخاص الذين اختارهم فهد في المكتب السياسي واللجنة المركزية ، ثم الشخصين اللذين انتقاها وجعلهما قريبين منه ، أي في النواة اللينينية ، إذ أن القادة الثلاثة ارتقوا المشائق ورؤوسهم عالية تعانق السحاب ، ولكن الاثنين ، حازم وصارم ، لم يكونا بالضرورة من حيث المستوى الفكري والثقافي أو السياسي الأكثر تقدماً في اللجنة المركزية . ولا شك في أن لهذا الواقع ما هو سلبي وما هو إيجابي ، خاصة إذا كانت الفجوة الفكرية والسياسية والتنظيمية واسعة عموماً بين السكرتير العام وأعضاء النواة اللينينية الصلبة ، إذ تتحول العلاقة إلى أشبه ما تكون بين أستاذ وتلاميذ ، أو بين راند ومريديه . إضافة إلى أن السكرتير العام يمكن أن يهمل تدريجاً بعض أعضاء المكتب السياسي واللجنة المركزية ويقصر عمله وعلاقته على النواة اللينينية تحت العديد من الذرائع ، رغم أن جميع أعضاء المكتب السياسي واللجنة المركزية يتمتعون بنفس الحقوق والواجبات في الحزب وفي القيادة .

وإذا كانت هذه الخطوة الأولى التي عمد إليها فهد بعد عودته الثانية من موسكو ، فإنه لجأ إلى التحرك السريع والمكثف إلى عدد من المدن العراقية التي يعرفها جيداً ليعيد إلى الحزب التنظيمات وكذلك العناصر التي يعرفها جيداً ويثق بها وتثق به شخصياً ، ويمنحها الثقة ويدفع بها للنشاط والحركة وكسب الجديد من العناصر ، في وقت كان العراق أحوج ما يكون إلى المحرك للنشاط السياسي في أطراف الحركة الوطنية العراقية في ظل حكومات محافظة ورجعية وتمارس الإرهاب الشرس ضد قوى المعارضة ، وسيطرة إنكليزية قوية تفرض رؤيتها على تلك الحكومات المتعاقبة . وفي فترة وجيزة استطاع فهد تحقيق هذه المهمة ، في وقت تراجعت



قدرات وخفت نشاطات المجموعات الأخرى ، خاصة بعد اعتقال مجموعة عبد الله مسعود ، إذ أن طريقتها في التحضير لمؤتمرها والضجة الداخلية التي رافقته والمطاردة المستمرة من جانب أجهزة الأمن العراقية ومساعدات خبراء بريطانيا لها في هذا الخصوص وقلة تجربة الآخرين ساعدت على توجيه الضربة بعد المؤتمر بفترة قصيرة ، وأتت على القسم الأعظم من تنظيمات جماعة الشرارة الجديدة . وأدى تمزق هذه المجموعة إلى عودة البعض منهم إلى صفوف الحزب ثانية . واستقطب الحزب في الفترة الواقعة بين 1943 - 1944 المزيد من العناصر التي اعتمدها فهد للعمل في مختلف المجالات والتي انعكست في حضور بعضهم للكونغرس الحزبي الأول في عام 1944 ، وكذلك في المؤتمر الوطني الأول للحزب في عام 1945 . وكان المفروض في فهد أن يعيد النظر ، بعد حملة الاعتقالات ضد جماعة عبد الله مسعود ، بالاتهامات التي وجهها إلى هذه الجماعة ، وبشكل خاص كونها مطايا البرجوازية في الحركة العمالية والحزب الشيوعي ، وخدم الاستعمار . الخ ، إذ من غير المعقول أن توجه الحكومة وأجهزة الأمن ضربات قاسية تهشمية لمن يكون في خدمة الاستعمار والبرجوازية . ولم يحصل مثل هذا التراجع من جانب فهد أو الحزب .

كان أمام فهد أن يعيد تشكيل المنظمات الحزبية في بغداد وفي تلك الألوية التي كانت للحزب قواعد فيها ، وبشكل خاص في بغداد والبصرة والناصرية والنجف ، كما أنه أبدى اهتماماً بكرديستان والشمال عموماً ، وأن كان حتى ذلك الحين لم تتحقق نتائج ملموسة ومهمة في المدن الكردية . وبسبب أهمية بغداد وجه فهد تنظيمات الحزب للعمل المكثف والدؤوب في المجالات المهنية ، كالتقابات والطلاب والكليات والمعاهد والمدارس الثانوية ، وكذلك في صفوف الأقليات القومية والدينية ، التي كانت ، وما تزال ، تعبر بطبيعة الحال عن حالة الموزائيك القومي والديني والطائفي القائمة في العراق ، والتي تجسد بدورها تاريخ وتراث وتنوع وغنى حضارة العراق ، رغم ما يمكن أن تتضمنه ، في ظروف غياب الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية وضعف التفاعل الشعبي وعدم الاعتراف المتبادل بالعام والخاص لكل منها ، من مخاطر على العلاقات الإنسانية والودية والطبيعية في ما بين هذا لتنوع الإنساني . وأصبحت أمام فهد الآن مهمة تأمين الشرعية لدوره القيادي في الحزب ولقيادة الحزب التي شكلها في أعقاب انشقاق عبد الله مسعود وداود الصائغ من خلال التحضير وأعداد وثائق وعقد المؤتمر الوطني الأول للحزب .

## الفصل الثامن : فهد والشرعية الحزبية

خلال الفترة الواقعة بين 1938-1945 وجه فهد جلّ وقته واهتمامه المركزي نحو ثلاث مسائل رئيسية ، كما لعب دوراً رئيسياً ومباشراً في تبني الحزب لها والنضال في سبيلها ، وهي:

1. تحليل الأوضاع القائمة وتشخيص المهمات المرحلية وذات المدى المتوسط ، أو وضع استراتيجيات وتكتيك الحزب؛

2. استكمال بناء الحزب وتعزيز أسس ومبادئ اللينينية والأممية الشيوعية والتزام الحزب بها في نشاطه اللاحق ، مع الأخذ بنظر الاعتبار ، وبهذا القدر أو ذاك ، واقع العراق القائم؛
3. تنشيط دور الحزب في الحركة الوطنية العراقية وزيادة فاعليته ومساهمته في إقامة جبهة وطنية موحدة تعمل من أجل إقامة حكومة وطنية ديمقراطية تلتزم بإرادة ومصالح الشعب وتتخلص من الالتزامات والمعاهدات الدولية المخلة بسيادة واستقلال البلاد .

وكانت المصادر التي استند إليها في تحديد طبيعة هذه الاتجاهات في العمل ، كما تشير إليه أغلب مقالاته وكتاباته التي تحت تصرفنا ، هي:

- تراث وتقاليد وتاريخ الشعب العراقي وواقعه الراهن وبنيته الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ووعيه السياسي ، وكذلك المشكلات والمصاعب التي يواجهها في نضاله من أجل التغيير .
- القوى السياسية القائمة والفاعلة في العراق وصراعاتها الجارية والتغيرات التي طرأت عليها منذ قيام الدولة العراقية بعد ثورة العشرين العراقية حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، مروراً بالانقلابات والتغييرات الوزارية والتحويلات في العلاقة مع بريطانيا العظمى كدولة محتلة ثم منتدبة ثم مهيمنة عبر معاهدة 1930 وملحقاتها واتفاقية امتياز التنقيب عن النفط واستخراجه وتصديره .
- علاقات العراق الداخلية بين القوى المختلفة وعلاقاته العربية والإقليمية والدولية وإمكانيات وضرورات التعاون والتنسيق العربي في النضال ضد الاستعمار وفي سبيل التقدم .
- قرارات وتوصيات الأممية الشيوعية الثالثة في مؤتمرها السابع وكذلك قرارات سكرتارية المكتب التنفيذي للأممية في ما يخص بناء الحزب ووجهة نضاله والمبادئ التي يستند إليها . وكانت لأفكار وممارسات وتوصيات ستالين الدور المتميز في تحديد الموقف من الاتحاد السوفييتي والفاشية والعديد من القضايا الأساسية .
- التجربة الواسعة التي اكتسبها فهد في العراق وفي المدرسة الحزبية وفي جولته الخارجية .

كان فهد إذن أمام مهمة وضع ميثاق وطني ونظام داخلي للحزب من أجل اكتساب الشرعية الداخلية والأممية . ولهذا دأب على صياغة الأفكار الأساسية التي يفترض فيها أن تتجسد في هاتين الوثيقتين أثناء قيادته نضال الحزب في المجالات الفكرية والسياسية والتنظيمية .

وخلال سنوات الحرب العالمية الثانية مارس فهد ، وبعد تغلغل القوات الألمانية في عمق الاتحاد السوفييتي ودخول الأخيرة طرفاً أساسياً معتدى عليه في هذه الحرب إلى جانب الحلفاء ، سياسة داخلية مرنة وفعالة في آن واحد ، مع الأخذ بنظر الاعتبار بأن الحزب كان يعمل في السرية التامة ، ولكنه كان مع ذلك قريباً من الأوساط الشعبية ومشاكلها ومصالحها والقضايا التي تريد تحقيقها وعلى صلة واحتكاك مستمرين بالقوى السياسية الأخرى . وهي التي سمحت لفهد أن يشخص بعناية جيدة السياسات والشعارات التي في مقدور الحزب رفعها ، سواء بالنسبة للقضايا الداخلية والعربية أم الدولية ، والتي يمكن أن تكون في الوقت نفسه شعارات الأحزاب والقوى الوطنية ، إضافة إلى الأوساط الواسعة التي كان الحزب يريد التوجه لها والعمل معها . وتبلورت أثنى وأبرز مشاركات فهد السياسية في هذه الفترة في اتجاهات عدة ، وهي:

1. التزام الحزب الثابت والصارم في فضح الإيديولوجية الفاشية والأهداف الاستعمارية والحرب . وقد وظف فهد صحافة ونشريات الحزب والصحف العلنية التي سعى للنشر فيها بأسماء مختلفة إلى تأمين وصول هذه الأفكار إلى أوساط واسعة من الشعب العراقي . ولم تقتصر مهمات وعمليات فضح الفكر الفاشي على الحزب الشيوعي العراقي وفهد ، بل مارستها قوى وأحزاب أخرى ، إضافة إلى عدد مهم من قياديين تلك الأحزاب ، ومنها بعض قادة جماعة الأهالي القديمة والتكتلات اليسارية ، كما كان من بينهم عبد الفتاح إبراهيم وعزيز شريف وكامل الجادرجي ، الذين رأوا في الفاشية خطراً فكرياً وسياسياً ، خطراً يحمل معه ذهنية عنصرية دنسة ضد الشعوب الأخرى وتثير النزاعات بين الشعوب . وكان لهذا الجهد الفكري أثره البارز على موقف الناس من الفاشية في نهاية الحرب العالمية الثانية بالمقارنة مع بدايتها ومع الدعاية القومية التي ارتبطت بها . ولا بد من الإشارة إلى أنه لم يكن كل أصحاب الفكر القومي يُحسبون على الاتجاهات المتطرفة أو النازية ، كما لا يصح ذلك ، ولكن مجموعة غير قليلة منها كانت تحمل فكراً فاشياً حقاً ، وكانت تمارسه حيثما أمكن؛

2. تأكيد الحزب أهمية وضرورة التعاون مع اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية باعتباره أحد أركان السلام في العالم والمناهض للاستعمار والسيطرة الأجنبية ، كما دعا ، وبعد دخول الاتحاد السوفييتي الحرب ، إلى إعلان العراق الحرب على دول المحور والتحالف مع دول التحالف المناهض ، باعتبار الدولة السوفييتية دولة محبة للسلام ومناهضة للاستعمار والهيمنة الأجنبية ، كما تعبر في حقيقة الأمر عن الصراع بين الفاشية من جهة ،

والاشتراكية والديمقراطية من جهة أخرى . ومن هذا الفهم أيضاً طرح الجواهري البيت الشعري المعروف حين قال:265

ساعت البلوى فأحسن البلاء  
بُعدُ بين الرجس والطهر

يا عروس "الفلغ" والفولغام  
صُبغ "الدون" دمايين  
التقاء

فوقها الضدين صباحاً ومساءً  
رمز عهدين انحطاطاً وارتقاءً

وجرت أمواجه حاملةً  
وعلى الجرفين عظامان هما

3. دعم الحزب سياسة الحكومة العراقية إزاء دول المحور وتعاونها بشأن الحرب مع الحلفاء ، رغم معرفته بطبيعة نوري السعيد وسياساته الموالية لبريطانيا ، انطلاقاً من السياسة التي انتهجها نوري السعيد إزاء الحرب و ضد الدولة الهتلرية وشجب الهجوم على الاتحاد السوفييتي ، كما أكد على أهمية ممارسة الديمقراطية في حياة البلاد؛

4. تبني الحزب بشكل قاطع مطالب الفئات الكادحة التي كانت تعاني من ويلات الحرب غير المباشرة التي كانت تتجلى في عملية التمويل وفي توزيع ما هو متوفر من مواد غذائية وألبسة وغيرها . وساند الحزب إضرابات العمال وشارك في تنظيمها وتعبئة الرأي العام حولها ، وتصدى لإجراءات الدولة في خنق الحريات الديمقراطية وتزوير الانتخابات النيابية ، كما دعا بوضوح كبير إلى تحالف القوى السياسية لتنشيط قوى المعارضة السياسية باتجاه انتزاع المزيد من المكاسب من جانب الدولة . وكان الحزب يتشبث بحق بمواد الدستور التي يتجاهلها الحكم في العراق والتي تعود بالضرر على حياة ونشاط ودور المجتمع؛

5. وساند بوضوح مطالب البرجوازية الصغيرة الحرفية والبرجوازية الوطنية في العمل على تصنيع البلاد وتنظيم التجارة وزيادة دور الشركات المحلية في التجارة العراقية ، كما أكد على أهمية وضرورة تطوير قطاع الدولة . وشن حملة فكرية وسياسية ضد البطالة ، ثم أكد على أهمية دور النقابات في هذه العملية وضرورة تأمين التضامن العمالي . وركز على ضرورة حل المسألة الزراعية لصالح الفلاحين وصغار المزارعين والتطوير الرأسمالي للزراعة منطلقاً من طبيعة المرحلة ومهامها الأساسية . وجسد فهد ، ومعه الحزب ، أهمية العناية بالتعاون والتنسيق العربي والتضامن لمواجهة المشكلات المشتركة . وأبدى عناية ملموسة بالقضية الكردية ، كما ساند حق الشعب الكردي في تقرير مصيره وحقه في الاستقلال ، والتي أشرنا إليها في مكان آخر من هذا الكتاب . وساند فهد بحرارة التحالف الكفاحي بين العرب والأكراد وشجب العنف والجور اللذين تعرضت لهما الحركة الكردية وبشكل خاص تشريد البارزانيين في أعقاب فشل حركات 1946 . وانعكست هذه القضايا

265 الجواهري ، محمد مهدي . ذكرياتي . الجزء الأول . ط 1 . دار الرافدين . دمشق . 1988 . ص 534/535 .

بشكل عام في وثيقتين كان لفهد الدور الأكبر في وضعهما وإقرارهما في الكونغرس الحزبي الأول (1944) وفي المؤتمر الوطني الأول للحزب (1945) ، وثيقتي الميثاق الوطني والنظام الداخلي على التوالي . وفي التقارير التي طرحها فهد والوثيقتين اللتين أقرهما الكونغرس والمؤتمر تجلت إحدى أبرز خصائص فهد ، ونعني بها ، قدرته على الربط العضوي السليم بين النضال الوطني والنضال اليومي للجماهير الكادحة والغالبية العظمى من السكان في سبيل تغيير أوضاعها المعاشية وحياتها الاقتصادية والتخلص من معاناتها . وكان لهذا الربط السليم دوره في تعبئة أوساط واسعة من الناس حول شعارات الحزب السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، التي يمكن أن يجدها المرء في النقاط التي كانت مطروحة للنضال حينذاك ، إضافة إلى ربطها بين الجانب الوطني للعملية النضالية والجانب الديمقراطي:

- إلغاء معاهدة 1930 وقلع قواعد سن الذبان والشعبية؛
- توزيع الأراضي على الفلاحين؛
- يوم عمل 8 ساعات للعمال ،
- إطلاق الحريات الديمقراطية؛
- الموقف من "الأقلية القومية" في كردستان؛
- حل مجلس النواب وإجراء انتخابات حرة. 266

ويمكن القول بأن فهد استطاع نقل الحزب من مواقع الصراع الداخلي والضعف الشديد إلى مواقع متقدمة نسبياً ومؤثرة في الساحة السياسية العراقية . وكانت منطلقاً مهماً وأساساً قوياً لدوره في فترة ما بعد الحرب . رغم أن الحكم لم يكف عن مطاردة الحزب والشيوخيين واعتقالهم حيثما أمكن . وسمحت التطورات النسبية الجديدة الجارية على حياة الحزب الداخلية وعلاقاته ونشاطه ، وفق المنظور اللينيني-الستاليني حينذاك ، على توفير مستلزمات عقد الكونغرس الحزبي الأول ثم المؤتمر الوطني الأول للحزب .

## المبحث الأول : الكونفرنس الحزبي الأول والميثاق الوطني (إستراتيج وتكتيك الحزب)

اعتبرت الأحزاب الشيوعية والعمالية منذ فترة مبكرة أن أحد مصادر قوتها الرئيسية يكمن في استنادها إلى المنهج العلمي ، المادي الديالكتيكي والمادي التاريخي ، عند دراسة وتحليل ومن ثم تحديد استراتيج وتكتيك أحزابها ومجمل الحركة العمالية ونشاطاتها السياسية . إذ أن وضع الاستراتيج والتكتيك السياسي السليم والعمل للتحزب يتطلب من حيث المبدأ الاعتماد على التحليل العلمي والمعرفة الموضوعية بواقع البلاد وتطورها التاريخي وظروفها الملموسة والخبرة المتراكمة للحركة العمالية والوطنية المحلية والإقليمية والدولية ، إضافة إلى الأخذ بنظر الاعتبار حالة الجماهير ووعيتها السياسي ومزاجها النضالي . ومن هنا يتبين أن استراتيج وتكتيك الحزب السياسي هو علم من جهة وفن قيادة الجماهير في النضال من جهة أخرى ، و " أن هذا العلم ، كما كتب لينين ، يتطلب أولاً أخذ تجارب البلدان الأخرى بنظر الاعتبار ، ولا سيما إذا كانت تلك البلدان رأسمالية أيضاً ولها مشاكل مشابهة؛ وثانياً وضع تأثير كل القوى والمجموعات والأحزاب والطبقات والجماهير في البلد المعني في الحسبان ، وفي كل الأحوال ينبغي عدم بناء السياسة على أساس الأمانى والرغبات ومن منطلق استعداد مجموعة معينة أو حزب معين للحسم" 267 . ويؤكد لينين أيضاً بأنه عند رسم استراتيج وتكتيك حزب معين ، ومع أهمية أخذ هذا الحزب أو ذاك بتجارب الحركة الثورية في البلد المعني والبلدان الأخرى بنظر الاعتبار ، فإن من الخطأ الفادح استنساخ تكتيك الأحزاب الأخرى بشكل أوتوماتيكي . ودعا الشيوعيين إلى أخذ الظروف الوطنية الملموسة بنظر الاعتبار ودراستها وتفحصها من كل الجوانب 268 .

يقول فكتور أدلر ، نقلاً عن فريدريك إنجلز حول لقائه مع الاشتراكيين النمساويين قبل وفاته بقليل في العام 1895: "إن نوعية النضال في كل بلد تستوجب ممارسة أسلوبها الخاص ووسائلها الخاصة وطريقتها الخاصة في العمل في البلد المعني وفي المرحلة المعنية" 269 . ويذكر الكاتب بأن أدلر سبق أن صرح أمام إنجلز قبل ذلك بسنتين ما يلي: "إننا لو كنا نملك سلاحاً ونعرف استعماله ، لما التجأنا إلى الإضراب ، بل لاستعملناه" 270 .

إن مفهومي الاستراتيج والتكتيك مرتبطان ببعضهما بصورة عضوية ونادراً ما يؤخذان على انفراد . وأي فصل بينهما يقود إلى ضياع الهدف المركزي وإلى مغامرة سياسية غير محسوبة العواقب 271 . ورغم ذلك فإن لكل من هذين المفهومين محتواه الخاص به ووظيفته السياسية المحددة في العملية الثورية للبلد المعني . فوظيفة الاستراتيج تكمن في تشخيص المهمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية التي تستوجب طبيعة المرحلة معالجتها وإيجاد الحلول العملية لها لصالح الطبقة العاملة وحلفائها ، إضافة إلى ضرورة تشخيص أدوات وطرق وأساليب النضال التي يراد ممارستها لتحقيق الهدف المركزي المبرر مرحلياً والذي يأخذ بنظر الاعتبار الظروف الموضوعية والأوضاع التاريخية الملموسة وميزان القوى الطبقة في

267 Lenin, W. I. Werke. Bd. 31. Dietz Verlag. Berlin. 1961. S. 67.

268 Lenin, W. I. Werke. Bd. 31. Dietz Verlag. Berlin. 1961. S. 79.

269 ماكس إيرميرس ، فكتور أدلر. صعود وعظمة حزب اشتراكي ، فينا ، لايبزيك 1932 ، ص 256.

270 نفس المصدر السابق.

271 Kleines politisches Woerterbuch. Dietz Verlag. Berlin. 1985. S. 937-939.

المرحلة المعنية والبلد المعني . وهذا يعني بدوره أن مهمة الاستراتيجية تشخيص الهدف المركزي الذي يراد تحقيقه ، وتشخيص القوة الرئيسية التي يراد إنجاز هذه المهمة ، وكذلك القوى الحليفة لها في هذا النضال ، ومن ثم تشخيص العدو الرئيسي الذي يراد توجيه النضال ضده ، إضافة إلى حلفائه . أما التكتيك السياسي فيمثل مختلف أدوات وطرق أو أساليب النضال التي يمارسها الحزب المعني في البلد المعني والمرحلة المعنية لتحقيق الاستراتيجية ، إنها مجموعة كاملة من أساليب الكفاح الاقتصادي والسياسي والإيديولوجي ، كما أنها تجمع بين النضال البرلماني وغير البرلماني ، والكفاح السلمي والكفاح العنفي ، وكذلك الكفاح الهجومي أو الدفاعي أو التراجعي ، إضافة إلى فن المساومات والاتفاقات والتحالفات الضرورية والاستفادة القصوى من مشكلات وتناقضات ومصاعب العدو الذي يراد خوض النضال ضده . من هذا يتبين أن التكتيك السياسي هو الكفاح اليومي الذي يفترض أن تخوضه الجماهير الشعبية والتصعيد المستمر لهذا الكفاح ورفع أهلية واستعداد ووعي الجماهير بأهمية خوضه والمساهمة الفعالة والمشاركة فيه . كتب لينين في هذا الصدد يقول: "إن التكتيك الماركسي يقوم على الربط المحكم بين أشكال مختلفة من أساليب الكفاح وفي الانتقال الرشيق من شكل إلى آخر وبالرفع المستمر لوعي الجماهير وفي توسيع حجم الفعاليات الكفاحية المشتركة" 272 .

في ضوء هذا الفهم للاستراتيجية والتكتيك السياسيين اللذين كانا يدرسان في المدرسة الحزبية عمد فهد إلى وضع مشروع استراتيجية وتكتيك الحزب الشيوعي العراقي للفترة من بداية عام 1941 إلى حين عقد الكونغرس الحزبي الأول في عام 1944 . إن الأخذ بالميثاق الوطني الذي أقره الكونغرس الحزبي الأول وصادق عليه المؤتمر الوطني الأول للحزب ، يكون الحزب الشيوعي قد دخل الساحة السياسية العراقية كأول حزب يستند إلى برنامج سياسي علمي في نضاله من أجل الاستقلال والسيادة الوطنية في ظروف ما بعد الحرب العالمية الثانية 273 .

ومن خلال تحليل علاقات القوى المحلية والعالمية حاول فهد في مقالاته الإجابة عن المسائل المطروحة في استراتيجية وتكتيك النضال الطبقي للطبقة العاملة العراقية . وسجل فهد المهمات الرئيسية التي تستوجب الحل في الميثاق الوطني لتلك الفترة على النحو الآتي:

- 1- النضال من أجل الاستقلال الوطني .
- 2- النضال لإيجاد حكومة تعمل لمصلحة الشعب وجهاز حكومي يعمل لمصلحة الشعب ونظام ديمقراطي صحيح . .
- 3- حل مشكلة التموين .
- 4- (أ) تنمية الاقتصاد الوطني .
- (ب) رفع الإنتاج الزراعي بترقية الزراعة .
- (ج) تخليص الشعب من شركات الاحتكار الأجنبية .
- 5- إيقاف عملية نشوء الإقطاع وإنشاء جمعيات تعاونية فلاحية .
- 6- الدفاع عن مصالح العمال وتنفيذ قانون العمال رقم (72) المعدل .
- 7- النضال من أجل نظام ضرائبي يعفي ذوي الدخل الصغير .
- 8- توسيع نطاق التعليم لأبناء الشعب من كلا الجنسين وبدون تمييز في القومية والمركز الاجتماعي . . .

272 W.I. Lenin. Werke. Band 20. S. 206.

273 Rathmann. L. U. A. Dr. Geschichte der Araber. Bd. 5. Dietz Verlag. Berlin. 1981. S. 52.

- 9- النضال من أجل حقوق المرأة .
- 10- النضال من أجل إيجاد مساواة حقيقية للأقلية القومية الكردية ومراعاة حقوق الجماعات القومية والجنسية الصغيرة كالتركمان والأرمن واليزيدية .
- 11- الاعتناء بالجندي العراقي المكلف ، بصحته وتغذيته وتنقيفه وتربيته التربوية الديمقراطية ، من أجل إلغاء الأساليب غير الإنسانية المتبعة في الجيش ، كالضرب والسجن ... .
- 12- النضال من أجل الصداقة والتعاون السياسي والاقتصادي والثقافي مع الشعوب الديمقراطية وتأسيس علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفييتي .
- 13- (أ) النضال في سبيل التقارب والتعاون السياسي بين الشعوب العربية ، بين أحزابها وجماعاتها السياسية الديمقراطية ، من أجل الاستقلال والسيادة الوطنية لفلسطين والأقطار العربية المستعمرة والمحمية ، ومن أجل استكمال استقلال العراق وسوريا ولبنان ومصر ، ضد الصهيونية وضد الدول المستعمرة . . .
- (ب) النضال في سبيل إيجاد حلف شريف ، أداة لتنفيذ هذه الغاية .
- 14- النضال في سبيل التعاون الاجتماعي بين شعوب البلاد العربية . . من أجل تقوية التنظيمات الشعبية .
- 15- النضال "في سبيل التعاون الاقتصادي بين الأقطار العربية واستخدامها لرفع مستوى البلاد العربية الصناعي والزراعي ولغرض سعادة ورفاه شعوب البلاد العربية من أجل رفع الحواجز الجمركية ، وتسهيل وسائط النقل والتبادل التجاري ، ضد شركات الاحتكار الأجنبية ومصارفها وضد الهجوم الصهيوني الاقتصادي" 274 .
- ورأى فهد في الجبهة الوطنية الموحدة القوة الرئيسية القادرة فعلياً على تنفيذ هذه المطالب ، جبهة وطنية تضم إليها كافة الأحزاب والقوى الوطنية والقومية التي تناضل من أجل نفس الأهداف أو قسم منها . وبذلك كان الحزب الشيوعي العراقي أول حزب سياسي يطرح مثل هذا الشعار على الساحة السياسية العراقية وقتذاك ، وناضل من أجل تحقيقها . 275
- ولما كانت الأحزاب الوطنية الأخرى تنظر إلى الحزب الشيوعي بعين الحذر وتخشى من عواقب الاقتراب منه ، وخشية من أن تبقى دعوات الحزب للجبهة الموحدة مجرد صرخة في واد ، توجه الحزب بقيادة فهد في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، أو بالأحرى كلف فهد حسين محمد الشبيبي ، عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي ، بالعمل على تشكيل حزب علني تحت أسم "حزب التحرر الوطني" ، يعمل كواجهة للحزب . وراح الحزبان يوجهان النداءات إلى القوى الأخرى من أجل تشكيل الجبهة الوطنية التي ظلت مجرد أمنية . ولعل اضطراب الحزب إلى تشكيل حزب التحرر الوطني ، كواجهة ، والذي لم توافق الجهات الحكومية على منحه الإجازة ، دليل واضح على طبيعة السلطة الحاكمة حينذاك وخشيتها الشديدة وعدائها الصارخ للشيوعية ، إضافة إلى صعوبة هضمها لوجود الحزب الشيوعي بسبب فلسفته المادية وإيديولوجيته الطبقيّة ونظامه الداخلي ، خاصة وأنها منذ عام 1938 أصدرت مادة خاصة في قانون العقوبات البغدادي حرمت بموجبه الدعاية للشيوعية واعتمدت الحكم على من يعتنق الشيوعية ويدعو لها . وكانت الأحزاب الأخرى تعرف جيداً ماذا يريد الحزب الشيوعي بشعاراته الواضحة المطروحة في النظام الداخلي . ويبدو أن مطالبة فهد للأحزاب الوطنية الأخرى ، التي كانت تمثل التجار والملاكين الصغار والبرجوازية الصناعية المتوسطة من

274 فهد. المؤلفات. مصدر سابق. ص 136/137.

275 حميدي ، جعفر عباس. التطورات السياسية في العراق. مصدر سابق. ص 358.



أصحاب الورشات بتشكيل الجبهة الوطنية من جهة ، واعتباره الفلاحين والمتقنين والشغيلة كحلفاء رئيسيين للطبقة العاملة في النضال من أجل الاستقلال الوطني والديمقراطية ، قد أثار الأحزاب الوطنية الأخرى وعقد من قدرة تشكيل تلك الجبهة في تلك الفترة من الانفتاح الديمقراطي النسبي في العراق في أعقاب الحرب العالمية الثانية ولفترة قصيرة جداً 276 . ومع ذلك فإن فهذا لم يستثن هذه الفئات الاجتماعية من التحالفات الوطنية بل توجه إليها عملياً وبصيغ مختلفة .

إن الطريقة التي تعامل بها فهد مع الحركات الماركسية في الفترة بين 1942 حتى استشهاده ، ثم تواصلت في سياسات الحزب لاحقاً ، لم تكن تعبر عن مضمون التكتيك الذي يفترضه استراتيج الحزب حينذاك ، ونعني به تعاون كل القوى السياسية الوطنية لتحقيق الهدف المركزي ، تحقيق الاستقلال الوطني وإقامة حكومة وطنية ديمقراطية . إذ أنه لم يرفض التعاون معها فحسب ، بل شن حملة واسعة ضدها من أجل تصفية وجودها السياسي ، بسبب تبنيها للماركسية وكونها منافسة للحزب ومشوشة على سياسته ، وبسبب كونها تشكل الرتل الخامس في الحركة الشيوعية ومطايا البرجوازية في الحركة العمالية . الخ ، إذ أن الأممية الثالثة حرمت عملياً تبني أية قوة سياسية أخرى للماركسية ، فهي الحركة الفكرية والسياسية الوحيدة التي من حقها احتكار الماركسية في جميع أرجاء العالم . وبالتالي ، كان فهد يتصرف بصدد هذه النقطة من موقعه في الأممية لا من موقعه في الحركة الوطنية العراقية التي كانت تستوجب تعاون كل القوى اليسارية لمواجهة التدخل الاستعماري في شؤون العراق ورجعية سياسات الحكومات العراقية المتعاقبة . ونشأت عن ذلك خسارة كبيرة . ولكن الواقع وضع فهد والحزب قبل وثبة كانون أمام ضرورة إيجاد لغة مشتركة مع بقية القوى اليسارية الماركسية منها وغير الماركسية ، فدعا مع الآخرين إلى تشكيل جبهة تعاون اليسار ، والتي تشكلت فعلاً وقاد نشاطها كامل قزنجي . كان فهد ، وهو في سجنه ، وكذلك قيادة التنظيم خارج السجن ، يرى بأن النضال ضد الحكم لا يمكن أن ينتصر دون تحقيق مثل هذا التعاون الواسع ، وأن الحزب بمفرده لا يمكنه تحريك الجماهير الواسعة وقيادتها للتصدي لسياسات الحكومة حينذاك ، بما فيها عقد معاهدة بورتسموث لتحل محل معاهدة 1930 .

وفي ما عدا ذلك كانت الرؤية الواضحة لفهد حول الأوضاع في العراق وحول المهمات التي يفترض معالجتها في الفترة القادمة جعلته يبتعد عن طرح مهمات تعجزية أمام الحكومات المختلفة ، كما ابتعد عن إلزام الحزب بمهمات يصعب النهوض بها حتى لو جاء إلى السلطة ، بسبب طبيعة المرحلة وميزان القوى الطبقيّة والإقليمية والدولية ، فجاء الميثاق الوطني الذي أقره الكونغرس الحزبي الأول مكثفاً جداً ومختصراً الكثير من مهمات المرحلة ، مما أعطى الانطباع بأنه لا يف حق عدد من المهمات الجوهرية للمرحلة ، نشير إلى فيما يلي إلى بعض منها:

- كانت النقطة الخامسة المتعلقة بالمسألة الفلاحية ذات طبيعة إصلاحية ضعيفة وغير ثورية وغير كافية لمعالجة إشكاليات الريف والزراعة العراقية . فالميثاق لم يحدد المهمة الرئيسية في الريف والاقتصاد العراقي خلال تلك المرحلة ، إلى جانب النضال من أجل الاستقلال والسيادة الوطنية ، أي حل المسألة الزراعية من خلال إصدار قانون للإصلاح الزراعي يهدف إلى تصفية علاقات الإنتاج شبه الإقطاعية التي كانت تستنزف الدخل القومي المنتج في الريف وتمنع عن الزراعة والريف تحقيق التراكم الرأسمالي الضروري فيهما . ولم يكن في مقدور

توزيع الأراضي الأميرية على الفلاحين حل المسألة الزراعية بالاتجاهات الأساسية المعروفة للمنهج الماركسي في بلد مثل العراق ، التي تدفع باتجاه تغيير علاقات الإنتاج في الريف ونشر علاقات الإنتاج الرأسمالية والتخلص من الأساليب البالية في الإنتاج الزراعي وإدخال المكننة في الزراعة وتأمين زيادة الإنتاج وتنويعه وتحسين معدلات الغلة لصالح تأمين المواد الأولية للزراعة والسلع الضرورية للاستهلاك المحلي وتطوير التبادل التجاري الدولي . وكان الإصلاح الزراعي البرجوازي يعتبر الطريق الوحيد لتحسين مستوى حياة ومعيشة الفلاحين والاحتفاظ بهم في الريف وتقليص حجم الهجرة الفلاحية من الريف إلى المدينة ، في حين كان الميثاق بعيداً عن طرح الحل البرجوازي الديمقراطي للمسألة الزراعية .

- جاءت النقطة الرابعة من الميثاق عامة وغير واضحة المعالم تدعو إلى تنمية الاقتصاد الوطني . ولكن كيف؟ لم يطرح الميثاق الوطني إجابة ورؤية واقعية واضحة عن هذه المسألة الحيوية ، في حين كان على الميثاق أن يؤكد أهمية التوجه صوب التصنيع الوطني ودعم الدولة للقطاع الخاص لزيادة مساهمته في التنمية الصناعية وتطوير دور الدولة في منح القروض الصناعية للمستثمرين ، إضافة إلى زيادة دور الدولة في العملية التنموية لتنمية القوى المنتجة المادية والبشرية ونشر علاقات الإنتاج الرأسمالية في الصناعة ، وبشكل خاص في تصنيع النفط الخام ، لا على مستوى بغداد العاصمة فحسب ، بل على مستوى الأوبى المختلفة أيضاً . وكانت هذه المشكلة تتعلق بتطوير القوى المنتجة وخلق القاعدة المادية لتنمية الاقتصاد الوطني وتحقيق التراكم الرأسمالي . وكانت الدعوة الواضحة والملموسة لتنمية التصنيع تعني في الوقت نفسه توسيع قاعدة ونشاط البرجوازية الصناعية المتوسطة ، وهي التي تقود بدورها إلى عدة نقاط مهمة ، منها على سبيل المثال لا الحصر:

\* نشر وتكريس العلاقات الإنتاجية الرأسمالية التي تؤدي بدورها إلى نمو وتطوير الطبقة العاملة وزيادة دورهما في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

\* المساهمة في تصفية العلاقات الإنتاجية شبه الإقطاعية وتصنيع الزراعة وتنشيط التناقض بين الإقطاعيين والرأسماليين الصناعيين .

\*زيادة الموارد المالية المقطعة من الفائض الاقتصادي المتحقق في البلاد وتوجيهها نحو التثمين الإنتاجي والتراكم الرأسمالي .

\*توسيع السوق الداخلية وتنشيط السيولة النقدية في الأسواق المحلية .

\*تقليص الحاجة إلى استيراد السلع الصناعية الاستهلاكية .

\* زيادة الحاجة إلى الهياكل الارتكازية المرتبطة بالتنمية الصناعية ، وبالتالي سيساعد التصنيع الوطني على تنشيط وتطوير سلسلة من النشاطات الاقتصادية التي بمقدورها استيعاب نسبة جديدة من البطالة القائمة في البلاد .

\* ويلعب التصنيع الوطني دوراً مهماً في خلق وتنشيط منافسة ضرورية بين الشركات الأجنبية المصدرة للسلع المصنعة إلى العراق والمستوردة للمواد الأولية والبرجوازية الكومبرادورية المتحالفة معها من جهة ، والبرجوازية الصناعية المتوسطة والصغيرة بسبب رغبة الأخيرة في زيادة توظيفاتها وإنتاجها وتشغيلها وزيادة أرباحها ، بينما يعمل التحالف الأجنبي والمحلي على إعاقة هذه العملية أطول فترة ممكنة .

ولا شك في أن هذه الجوانب الإيجابية في التصنيع الوطني لم تكن خافية بالضرورة عن فهد ، إذ ورد بعضها في معالجته لموضوع البطالة في العراق ، كما عبر عن رأيه في الموقف الذي تتخذه الشركات الاحتكارية الأجنبية ضد تصنيع العراق وضد استخدام مورد النفط الخام في

التصنيع العراقي . إلا أن فهداً ، كما يبدو ، كان يريد الاختصار قدر الإمكان وعدم إغراق الميثاق بتفاصيل ، إضافة إلى رغبته في عدم التوسع في وضع ميثاق وطني لحزب شيوعي كان يعمل بالسرية .

- لم يعالج الميثاق مسائل الثقافة و المثقفين والتعليم بصورة معمقة وواضحة ومن منطلق الفكر الماركسي الذي يعير أهمية خاصة للثقافة والمثقفين والحياة الثقافية عموماً . وهذا القصور لا يعني بدوره عدم إدراك فهد لهذه النقطة ، إذ غالباً ما كان يؤكد أهمية ودور المثقف في الحياة الاجتماعية والسياسية العراقية .

- وعالج الميثاق بصورة مقتضبة وناقصة لا تتناسب مع حجم وأهمية المسألة الكردية في العراق ، وكذلك الأقليات القومية ، والدور الذي يفترض أن يلعبه العراق في إطار البلدان العربية وعلى صعيد الإقليم والعالم . كما يبرز النقص في الموقف من الشعب الكردي ، إذ اعتبر الأكراد أقلية قومية ، في حين أنها كانت القومية الرئيسية الثانية في العراق ، وكانت قيادة الحزب قبل ذلك ، ومعها فهد ، قد تحدثت عن حق الأكراد في الاستقلال ، وبالتالي كان تراجعاً غير مبرر أن لا يشار في الميثاق عن حق الأكراد في تقرير المصير بما فيه حق الانفصال وتشكيل دولتهم الوطنية المستقلة ، أو حق الأكراد في إقامة حكم ذاتي ضمن الدولة العراقية . وكان لهذا الموقف تأثيره السلبي على مواقع الحزب في كردستان وبين المثقفين الأكراد ، خاصة وأن الحزب كان يسعى في حينها إلى توحيد نشاط الماركسيين في حزب واحد هو الحزب الشيوعي العراقي ، بعد أن كانت هيوما ما تزال تعمل . وفي أعقاب ذلك فشل اللقاء الذي تم بين وفدين من الحزب الشيوعي ومن يه كيه تي تيكوشين من أجل إنها وجود الأخيرة والانضمام للحزب الشيوعي العراقي . وأدى هذا الفشل إلى تأسيس الحزب الشيوعي لكردستان العراق (شورش) من مجموعة يه كيه تي تيكوشين والكتلة اليسارية من بقايا حزب هيوما (الأمل) .

ورغم هذه الملاحظات فإن إجراء أي مقارنة بين وثائق الحزب الصادرة عن الكونفرانس الحزبي الأول ، ومن ثم عن المؤتمر الوطني الأول وكتابات فهد وحسين الشبيبي مع وثائق وبرامج وسياسات الأحزاب الأخرى آنذاك ، سيتوصل الإنسان إلى الاستنتاجات التالية:

1- تمكن الحزب الشيوعي العراقي منذ انعقاد الكونفرانس الحزبي الأول والمؤتمر الوطني الأول أن يرسم سياسة عملية ويطرح على المجتمع رؤية واضحة حول "النضال من أجل الاستقلال الوطني والديمقراطية والتقدم الاجتماعي" . وكان الحزب يناضل بمختلف الوسائل السلمية من أجل تحقيق تلك الأهداف . ولم يطرح فهد فكرة "الثورة البروليتارية" ، بل استغنى الحزب عن شعار "دكتاتورية البروليتاريا" في نظامه الداخلي ، رغم نقده الشديد الذي وجهه إلى عبد الله مسعود وجماعته لرفضهم الحديث عن ، وتثبيت فكرة ، دكتاتورية البروليتاريا .

واستطاع الحزب بوسائل نشره المحدود وسرية العمل التي فرضت نفسها عليه ، أن يستفيد من دار الحكمة وبعض المجلات العلنية لنشر أفكار وسياسات الحزب وموضوعاته البرنامجية على نطاق مناسب لتعبئة الناس حولها . وساهمت الهيئة المؤسسة لحزب التحرر الوطني برسائلها المعروفة ، وعصبة مكافحة الصهيونية بجريدتها ، العصبة ، وجمعية مكافحة النازية والفاشية ، في نشر الكثير من تلك الأفكار والكراسات والمقالات التي تعالج قضايا الفكر والسياسة من منطلقات الحزب الشيوعي العراقي .

وكان الحزب يدفع العمال إلى تقديم طلبات للحصول على إجازات لنقاباتهم من جهة ، وكان من جهة أخرى يحرض العمال على تنظيم الإضرابات لتأمين أو ضمان حقوقهم المشروعة . كما حاول فهد بمختلف الأساليب المتوفرة إقناع الفلاحين على المشاركة في العمل السياسي ،

سواء عن طريق فتح الجمعيات أم خوض النضال لانتزاع تلك الحقوق المشروعة . ومن أجل هذا الغرض كلف بعض رفاقه لتأسيس "جمعية أصدقاء الفلاح" 277 .

كان استراتيج وتكتيك الحزب في مرحلة ما بعد الحرب ، يتميزان بما يلي:

- تشديد النضال من أجل انتزاع الاستقلال وتكريس السيادة الوطنية .
- فضح الطابع الاستغلالي للرأسمالية وذكر أسباب الأزمات الاقتصادية .
- توضيح الدور التاريخي للاتحاد السوفييتي ، كجبهة ضد الاستغلال الرأسمالي والرجعية والفاشية ومن أجل السلم والحرية والاستقلال الوطني .
- إلهاب حماس الشغيلة والجماهير وتوحيد نضالهم المشترك من خلال الفعاليات السياسية .
- تأسيس النقابات والجمعيات والمنظمات الجماهيرية ، مثل اتحاد الطلبة .
- النضال من أجل تأسيس الجبهة الوطنية .
- ربط العمل العلني بالسري في مجال العمل الحزبي .
- توحيد أشكال النضال الثلاثة ، الاقتصادية والسياسية والإيديولوجية .
- النضال من أجل الديمقراطية والتقدم الاجتماعي .

وإذ كان الحزب بوضعه السري غير قادر على تحقيق هذه الأهداف المعقدة ، فإنه لجأ إلى تشكيل حزب التحرر الوطني المشار إليه سابقاً ، بيد أن الخطأ الذي يبدو لنا قد حصل في حينه يكمن في أن الهيئة المؤسسة لهذا الحزب كانت تضم أسماء شيوعية معروفة تماماً ، الأمر الذي أدى إلى رفض الطلب وخسر الحزب المناورة المنشودة من تأسيسه أصلاً .

ورغم السرية الصارمة التي فرضها الحزب على نفسه بسبب ملاحقة الدولة لنشاطه ورفاقه ، استطاع الحزب أن يدخل في نوع من العلاقات الإيجابية مع الأحزاب البرجوازية الصغيرة والمتوسطة ذات الاتجاهات الوطنية والديمقراطية . وكانت تلك الأحزاب تحذر من التعامل مع الشيوعيين خشية اتخاذ مواقف قمعية ضدها من جانب السلطة وأجهزتها الأمنية . بيد أن الحزب ، ورغم كل المشكلات حصل على ثقة بعضها .

277 حمدي ، جعفر عباس. التطورات السياسية في العراق. مصدر سابق. ص 362.

## المبحث الثاني : المؤتمر الوطني الأول للحزب وإقرار نظامه الداخلي

برز الحزب الشيوعي ، الماركسي-اللينيني ، في الحياة السياسية في العراق كظاهرة جديدة و متميزة وذات دور بارز وملمووس فيها . وأشار فهد إلى أن الحزب ليس هدفاً بحد ذاته ، بل هو الأداة الفعلية والوسيلة الضرورية لتحقيق الأهداف التي يناضل من أجلها . كما أكد بوضوح أن نهوض الحزب بمهامه وتنفيذ ميثاقه الوطني يستوجب منه لا العمل من أجل تشكيل حزب شيوعي فحسب ، بل العمل من أجل توفير عدد من المستلزمات الجوهرية في مثل هذا الحزب ليتسنى له أداء مهماته بحيوية عالية ، منها بشكل خاص:

- بناء حزب ماركسي-لينيني ، بولشفي من طراز جديد؛
  - صيانة وحدة الحزب وتعزيز لحة تنظيماته وتوسيع قاعدته؛
  - الالتزام بمبدأ المركزية الديمقراطية اللينيني في التنظيم ، أي اعتماد مبدأ خضوع الأقلية لقرارات الأكثرية . ولكن هذا المبدأ لا يعتمد خضوع الأكثرية للأقلية في قرارات القيادة المركزية للحزب فحسب ، بل ويمنع على الحزبي أن يطرح وجهة نظره الخاصة ، إذا كان ضمن الأقلية ، خارج إطار خليته أو هيئته الحزبية أو التبشير بها ، رغم التزامه وتنفيذه لقرار الأكثرية ، أي لا يسمح هذا المبدأ للأقلية بالتعبير عن رأيها أو نشره أو التصريح به ، إذ يعتبر ذلك ضمن عملية الإخلال بالمركزية الديمقراطية وبوحدة الإرادة والعمل في الحزب الشيوعي ، وأن ذلك سيدفع بالحزب إلى فوضى فكرية ويعرقل عملياً تنفيذ القرارات .
  - ويفترض تنفيذ هذا المبدأ بما لا يتعارض مع العمل السري؛
  - الطاعة الحزبية الواعية ، وينبثق عنها طاعة تنفيذ كل قرارات وتوصيات وسياسات الحزب من جانب هذا الرفيق أو ذاك وهذه الهيئة أو تلك ، بغض النظر عن القبول بها أو رفضها أو عدم القناعة بها ، إذ على العضو والمرشح الحزبي وكذا الهيئات الحزبية تنفيذ القرارات بغض النظر عن الموقف الذاتي؛
  - السرية التامة والصيانة الكاملة لأسرار الحزب والالتزام بالضبط الحديدي؛
  - ممارسة النقد والنقد الذاتي؛
  - رفض قبول الأفراد الذين يتبنون أفكاراً تحريفية وانتهازية في صفوف الحزب ، إذ أن هؤلاء الأشخاص ليسوا سوى مطايا النفوذ المعادي للطبقة العاملة وحزبها السياسي؛
  - على العضو الحزبي أن يعترف ببرنامج الحزب ويتقيد بنظامه الداخلي وأن يساعد الحزب مادياً وأن يعمل في إحدى منظماته .
- وفي ما عدا ذلك ركز النظام الداخلي على عدد من المسائل الجوهرية ، ومنها:
- أن الحزب الشيوعي العراقي هو حزب الطبقة العاملة العراقية ويناضل في سبيل مصالحها الحيوية ، ويلتزم في عمله مبدأ الأممية التي تدعو إلى الأخوة بين الشعوب ، ويناضل ضد الفاشية ، ويعتبر الأممية وحركة التحرر الوطني دعامتين أساسيتين تسندان حركة التحرر الوطني العراقية؛
  - وأنه يناضل في سبيل الاشتراكية وتحقيق العدالة الاجتماعية ويعمل من أجل إقامة دكتاتورية البروليتاريا باعتبارها الطريق للخلاص من دكتاتورية البرجوازية وبناء الاشتراكية . وأنه يستند في ذلك إلى "التعاليم الماركسية - اللينينية وأهدافها البعيدة المدى هي عين أهداف

الأحزاب الشيوعية العالمية كما بينها ماركس-إنجلز-لينين-ستالين ، وأن نظرتة إلى الكون وإلى جميع القضايا الاجتماعية مادية دياكتيكية مستقاة من تلك التعاليم الثورية...". 278

• السعي للاستفادة من الأحزاب السياسية الوطنية باتجاه دفعها لاتخاذ مواقف تنسجم مع سياسة الحزب من خلال التعبئة الجماهيرية حول شعاراته ومن خلال دعوتها للتعاون دون شروط مسبقة أو التزامات معينة ، ودعوتها للتعاون والتحالف ، إذ رفع في حينها شعار "قوا تنظيم حزبكم ، قوا تنظيم الحركة الوطنية"؛

• ممارسة تكتيكات سياسية فعالة تتجلى برفع شعارات وطنية وعملية تنسجم مع حاجات وتفكير الناس وقدراتهم النضالية ، لتأمين التفاهم ومساهماتهم في النضال؛

• التغلغل في صفوف الجماهير الواسعة وبشكل خاص بين الفئات الاجتماعية ذات المصلحة الفعلية بنشاط الحزب من جهة ، وتلك الجماعات الأخرى ذات التأثير الفكري والسياسي الواسعين على الناس ، أي العمال والفلاحين والكسبة والحرفيين أولاً ، ثم الطلاب والمتقنين والجنود ثانياً ، من جهة أخرى . وتطلب هذا الأمر إيلاء الحزب عناية خاصة بمنظمات المجتمع المدني ، أي بالمنظمات المهنية غير الحكومية والنقابات وذات الارتباط الواسع بحركة ونشاط ومصالح الناس مثل النقابات والتنظيمات الاجتماعية والحركة النسوية والطلابية والشباب التي كان في مقدورها أن تلعب دوراً مزدوجاً هما: تأمين تنشيط هذه المجالات للتأثير في الحركة الجماهيرية وزجها في النضال وربط قضاياها بقضايا المجتمع والمصالح الوطنية العامة ، وتأمين الحصول على أعضاء وكوادر للحزب من خلال العمل الفعال والمبادر في هذه المجالات؛

• الاستفادة من الصحافة العلنية دون تحفظات لنشر أفكار وشعارات الحزب بالصورة المناسبة ، خاصة وأن مجالات النشر عند الحزب كانت محدودة . وحذر فهد من محاولات بعض المناضلين اليساريين الانخراط في صفوف الأحزاب الوطنية للتأثير عليها من مواقع يسارية ، إذ أن مثل هذه الخطوة يمكن أن تفقد إلى صراعات غير مبررة في تلك الأحزاب وتسيء إلى العلاقات الوطنية بين الأحزاب؛

• الصدق والأمانة في ما ينشره الحزب في صحافته ودعايته من معلومات وأخبار ومشكلات وما ينقله إليهم من أوضاع بعيدا عن المبالغة أو الكذب أو طرح مسائل من نسج الخيال ولا تعبر إلا عن رغبات وتصورات أصحابها من أجل إدانة هذا السياسي الحاكم أو ذاك . وكسب هذا الموقف مصداقية واسعة وعميقة وثقة واحترام الجماهير وبعض الحاكمين ، سواء كانوا من الأصدقاء أم الأعداء .

واعتمد فهد على تلك المبادئ وكذلك على كراس ستالين "في سبيل تكوين بولشفي" ، الذي صدر في عام 1935 ، وكراس "أسس اللينينية" ودرسا في المدارس الحزبية في الاتحاد السوفييتي وكذلك في مدرسة كادحي الشرق الحزبية .

ومن هنا يتبين للإنسان بأن فهد حاول أن يكرس في الميثاق الوطني والنظام الداخلي مجموعة من المبادئ والأسس التي تحكم عمل الحزب لفترة غير قصيرة . 279

إن تسجيل هذه الاتجاهات الأساسية في نشاط وحياتة الحزب الداخلية ، التي دعا لها وثقف بها وأكدها فهد في عمله اليومي ، لا يعني بأي حال بأن قيادة وهيئات الحزب في ممارساتها

278 نفس المصدر السابق. 156.

279 فهد. نفس المصدر السابق. النظام الداخلي للحزب الشيوعي العراقي. ص 153-183.

اليومية وفي صحافة الحزب لم تتجاوزها هنا أو هناك أو تنحرف عنها بهذا القدر أو ذاك ، وهو ما سنتطرق إليه لاحقاً .

ولعب المؤتمر ، وكذا الكونغرس الحزبي الذي سبقه ، دوراً أساسياً في اتجاهات عدة ، نشير إلى أهمها فيما يلي:

1. كرس وجود الحزب الشيوعي ومنحه الشرعية في أنظار الشيوعيين والملتفين حولهم؛  
2. منح قيادة الحزب الجديدة المنتخبة ، وعلى رأسها فهد ، الشرعية التي كانت تفتقدها قبل ذلك وجرى التشكيك بها من جانب بعض القوى الماركسية ، ومنها تلك التي اختلفت مع فهد؛

3. أعطت الشيوعيين ثقة بأنفسهم وزخماً جديداً في العمل الحزبي لتوطيد وتوسيع قاعدة حزبهم أولاً ، وفي العمل السياسي لتوسيع نشاطهم وعلاقاتهم مع القوى الوطنية الأخرى وإعلامهم الفكري والتحريري ثانياً؛

4. ووضع بيد الشيوعيين والملتفين حولهم برنامجاً متقدماً للنضال اليومي ، إضافة إلى وضوح الرؤية بالنسبة للهدف المرهلي ، ونظاماً داخلياً تحددت بموجبه واجبات وصلاحيات القاعدة والهيئات الحزبية المختلفة بما فيها القيادة ، رغم القيود التي فرضت عملياً على الجوانب الديمقراطية في الحياة الحزبية بسبب المركزية الشديدة وظروف السرية والمطاردة التي كان يعيش في ظلها الحزب .

5. ولعب البرنامج ، على نحو خاص ، بسبب تناغمه مع طبيعة المرحلة وبساطته وسهولة فهمه من جانب فئات الشعب المختلفة ، دوراً مهماً في كسب تأييد جمهرة واسعة من المناضلين من مختلف فئات الشعب ومن قومياته المختلفة ، وعزز من قدرة الشيوعيين على الحوار والتفاعل مع الآخرين ، رغم تلك الإشكالية التي كانت تؤثر على عمل الشيوعيين في علاقاتهم مع القوى السياسية الأخرى ، ونعني بذلك قناعتهم الكاملة والشديدة بأنهم على حق في كل شيء .

وعلينا أن لا ننسى في هذا الصدد أن نشير إلى نقطة نقدية جوهرية في فترة التهيئة لعقد الكونغرس الحزبي الأول والمؤتمر الوطني الأول هي أن فهد بذل أقصى الجهود لمنع وصول أي شخص لا يتفق وإياه في الرأي حول قضايا الحزب التنظيمية أو القضايا الفكرية والسياسية والبرنامجية . أي أنه أبعد تماماً كل رأي مخالف لوجهات نظره ، وبالتالي لم يكن في الكونغرس والمؤتمر سوي رأي واحد ، هو رأي فهد الذي أعد ، وبمساعدة مكتب الأمانة الثالثة ، وثائق المؤتمر . وهو نادر الحصول حتى في الفترة الستالينية ، رغم تصفياته الشديدة للمخالفين . كان فهد يريد أن يضمن نجاح الفعاليات مائة في المائة وأن يتم إقرار الوثائق وأن تتم الانتخابات على نفس الغرار . وأرسى هذا الأمر تقاليد غير جيدة في حياة الحزب الداخلية ، إذ من غير المعقول أن لا يكون في الحزب من يختلف مع فهد في هذه المسألة أو تلك من جهة وأن يمنع أو يحرم هذا الرأي من التعبير عن نفسه في أعلى هيئات الحزب ، وهما الكونغرس الحزبي والمؤتمر الوطني . من هنا يمكننا فعلاً تأييد الرأي القائل بأن فهداً لم يكن قادراً ، في ضوء الثقافة اللينينية-الستالينية أن يتحمل الرأي الآخر ويسمح له بالتعبير عن نفسه حتى في الأطر الشرعية للحزب . وهو ما تربت عليه أجيال من الشيوعيين ، نحن منها .

## الفصل التاسع : لمحة عن الواقع السياسي والحياة الحزبية في الفترة 1945-1950

كانت استقالة وزارة نوري السعيد وتشكيل وزارة حمدي الباجي الأولى ذات وقع وتأثير إيجابيين على المناخ السياسي في العراق . إذ كانت سياسات نوري السعيد قائمة على الاستجابة الكاملة للمصالح والإرادة البريطانية لا بشأن الحرب فحسب ، بل وبشأن القضايا السياسية والاقتصادية الداخلية والقضايا العربية أيضاً ، إضافة إلى اعتماده الواسع في تسيير سياساته على الأجهزة الأمنية العراقية والخبراء البريطانيين وعلي مواجهة خصومه السياسيين بالقهر والقسوة والتسلط . إذ كان نوري السعيد ، من الناحيتين الإيديولوجية والسياسية ، مقتنعاً تمام الاقتناع بأن الحكم في العراق ينبغي له أن يستند إلى مجموعة من الأسس التي لا يجوز التخلي عنها ويفترض ممارستها بصرامة ودون تورع أو خشية من أحد ، بغض النظر عن العواقب التي تترتب عنها أو عليها ، وهي:

- الإخلاص غير المحدود للتحالف مع بريطانيا والعمل معها لتأمين مصالحها في العراق ، إذ من خلال ذلك يمكن تأمين مصالح الطرف العراقي ، باعتبارها دولة عظمى يمكنها أداء مثل هذه المهمة التي يحتاجها العراق . ويفترض أن يتجلى ذلك في مختلف جوانب العمل السياسي والاقتصادي والعسكري والعلاقات الدولية والتحالفات والمواثيق العربية والإقليمية . ولم يكن نوري السعيد وحده يؤمن بهذا الاتجاه ، بل كانت معه النخبة الحاكمة بشكل عام ، وكان القائد والموجه الفعلي لها؛
- الاستناد إلى شيوخ العشائر والإقطاعيين وكبار التجار الكومبرادور وكبار الميسورين في الحكم باعتبارهم يشكلون القاعدة الاجتماعية التي يستند إليها النظام والتي تقدم الدعم الكامل للعائلة المالكة وسياسات البلاط في العراق ، وبالتالي ، يفترض أن تلبى حاجات ومصالح هذه الفئات بالدرجة الأساسية ، ومنها تأمين وتكريس العلاقات الإنتاجية شبه الإقطاعية في الاقتصاد والمجتمع العراقي وفرض هيمنة الإقطاعيين على جمهرة الفلاحين الواسعة ، وشد العراق إلى عجلة الاقتصاد البريطاني عبر قطاع النفط الاستخراجي ، وقطاع التجارة الخارجية ، وعضوية العراق في منطقة الإسترليني ، والمساهمة في البنوك وشركات التأمين الأجنبية ... الخ؛
- وكان يرى بأن استخدام سياسة الإرهاب والقمع وعدم التراجع إزاء مطالب قوى المعارضة السياسية والضرب بيد من حديد على أيدي المتظاهرين والمضربين والمتمردين هو السبيل الوحيد لممارسة السلطة بصورة فعالة والاحتفاظ بها . كما كان لا يتورع عن زج المعارضين في السجون والمعتقلات ونصب المشانق لتحقيق أهدافه وتصفية حساباته مع خصومه السياسيين . كان نوري السعيد رجلاً قاسياً وعتياً كبقية المستبدين التقليديين الذين يستخدمون لعبة الديمقراطية بصورة مزيفة وعقيمة وظالمة .
- عدم التورع عن تزوير الانتخابات النيابية لصالح أتباعه ومن يطلق عليهم بأتباع الحكومة ، إذ ورد في محاضر مجلس النواب في الاجتماع الاعتيادي لسنة 1943 قوله: "هل بالإمكان - أناشذكم بالله - أن يخرج أحد نائباً مهما كانت منزلته في البلاد



، ومهما كانت خدماته في الدولة ما لم تأت الحكومة وترشحه؟ فأنا أراهن كل شخص يدعي مركزه ووطنيته فليستقل الآن ويخرج ونعيد الانتخاب ولا ندخله في قائمة الحكومة ونرى هل هذا النائب الرفيع المنزلة الذي وراءه ما وراءه من المؤيدين يستطيع أن يخرج نائباً؟" 280 . وبهذه الحجة الواهية سعى نوري السعيد للبرهنة على ضرورة تزوير الانتخابات بدلاً من السعي ، وهو في قمة السلطة ، إلى ممارستها بنزاهة وحرية ومسؤولية .

• وكان نوري السعيد مقتنعاً بقدراته وكفاءاته وحنكته السياسية في الحكم ومغرمًا بالسلطة إلى حد الخطيئة والموت في سبيلها ، كما اعتمد سبيل المحسوبية والمنسوبية ، رغم ما يشار إلى عفة يديه في قضايا المال ، إذ لم يكن بحاجة إلى ذلك . وكان نوري السعيد من طراز الرجال العسكريين العثمانيين المستبدن القدامى في فهمه للحكم وسبيل ممارسته الفعلية للسلطة .

وتجسدت هذه السمات بشكل خاص في الفترة التي تولى فيها الحكم للمرة الخامسة والسادسة والسابعة على التوالي أثناء الحرب العالمية الثانية ، وبالتالي ، تولدت احتجاجات شديدة من جانب قوى المعارضة ضد استمراره في السلطة ، خاصة وأن الأوضاع الاقتصادية كانت في تدهور شديد والهيمنة البريطانية في تفاقم ، كما كانت المعتقلات تحتضن عدداً غير قليل من المعارضين . ولم يكن أمام البلاط ، في سبيل تدارك ما هو أسوأ ، سوى الموافقة على قبول استقالة نوري السعيد التي قدمها للمرة الثانية ، ثم تكليف حمدي الباجي ، بتشكيل الوزارة الجديدة . كان ذلك في أوائل حزيران/يونيو من عام 1944 .

كان على الوزارة الجديدة أن تأتي بجديد لتقتنع الناس بأنها البديل الأفضل من الوزارة التي رفضها الشعب وناوأتها المعارضة . وعجز حمدي الباجي ، الذي كان قبل ذلك قد اعتزل السياسة وانشغل بإدارة أملاكه ، عن وضع برنامج لوزارته الجديدة واكتفى بما قدمه الوصي على العرش ، عبد الإله بن علي ، بعد مرور ستة شهور على تشكيل الوزارة ، في خطاب العرش والذي ألقى في العشرين من شهر كانون الأول من عام 1944 ، أي بعد العطلة الرسمية لمجلس النواب . وعالج ، كما هو معتاد ، القضايا العامة التي كانت تشغل أذهان الناس ، ومنها قضية فلسطين ، ولكنه لم يقدم الحلول العملية للمشكلات التي كان المجتمع يعاني منها .

ورغم هذا النقص الكبير في عمل الوزارة ، فإن الحياة السياسية الفعلية شهدت مناخاً وحركة جديدة . إذ أن غياب نوري السعيد عن الوزارة اعتبر بحد ذاته نصراً للمعارضة السياسية ، التي كانت قد تعرضت لضغوط غير قليلة ، وتخفيفاً من أعباء السكان . فتحررت الجماعات السياسية تحاول إعادة تنظيم نفسها والتفاعل مع الواقع السياسي القائم والحصول على إجازة لنشاطها الحزبي الرسمي . وتوفرت الأجواء المناسبة نسبياً لتحرك نقابات العمال والحركة الطلابية . وكان الحزب الشيوعي العراقي بقيادة فهد يلعب في هذه الفترة دور المحرك الفعلي لعدد من تلك النشاطات ويبعث الحيوية في صفوف المعارضة السياسية رغم وجوده في السرية . كما ساهمت بقية القوى السياسية الديمقراطية اليسارية والأحزاب العلنية ، ومنها الحزب الوطني الديمقراطي وحزب الاستقلال ، بدور واضح في هذا الصدد . ونجح الحزب الشيوعي العراقي فعلاً في تنشيط

280 الحسني ، عبد الرزاق ، تاريخ الوزارات العراقية. الجزء السابع. مصدر سابق. الهامش رقم 1. ص 21.

الأوساط العمالية والطلابية والفلاحية للمطالبة بتنظيم نفسها وتأمين حقوقها النقابية والمهنية والسياسية . وبسبب الأوضاع المعاشية الصعبة للعمال خصوصاً والجماهير الواسعة بشكل عام ، نشطت الحركة الإضرابية العمالية وحقت بعض النجاحات ، رغم عدم كفاية أجهزة الأمن العراقية عن ملاحقتها وتنظيم الحملات ضدها ، وخاصة ضد الأحزاب السرية وضد الحركة النقابية الإضرابية ، إلا أنها لم تكن قادرة على التصدي لنشاطاتها المختلفة ، خاصة وأن تلك القوى استطاعت أن تجد تأييداً لها في أوساط سياسية معارضة تعتبر في إطار النخب الحاكمة التي احتلت مواقع وزارية أكثر من مرة مع بقية النخب الحاكمة . ووجدت تأييداً لها في أوساط الشعب وغطاءً مهماً لحمايتها من أجهزة الأمن وأعدائه وعيونه المبتوثة التي ازدادت ميزانيتها السنوية ، وازداد عدد العاملين فيها ومخبريها ، واتسع نشاطها ، وتحسنت تجربتها وتطورت تدرجاتها .

اتخذت وزارة حمدي الباججي جملة من الإجراءات السياسية على الصعيد الدولي والداخلي التي وجدت قبولاً حسناً من جانب الشعب وقوى المعارضة العراقية ، ولكنها كانت بالعموم مرفوضة من النخبة الحاكمة ، وخاصة من تلك القوى التي كانت أكثر قرباً من البلاط ، أي مجموعة نوري السعيد وصالح جبر . وكانت تسعى إلى إجراء تغيير في الحكم ، ولكنها عجزت عن ذلك ولفترة غير قصيرة بسبب ذلك التأييد الشعبي وتأييد قوى المعارضة لإجراءاته السياسية ، والتي يمكن الإشارة إلى بعضها فيما يلي:

- إقامة العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفييتي في نهاية عام 1944 وجرى تبادل الممثلين في بداية عام 1945؛
- المشاركة في لجنة إعداد وثيقة تأسيس المنظمة الدولية (الأمم المتحدة) باعتباره عضواً مع الدول الموقعة على ميثاق الأطنطي المناهض لدول المحور وتصديق مجلس النواب على الوثائق الرسمية بهذا الشأن؛
- مشاركته الفعلية في إعداد الوثائق الخاصة بإقامة الجامعة العربية ومصادقة مجلس النواب على الوثائق المعدة لهذا الغرض؛
- إعادة الحياة والشرعية للنقابات العمالية ، إضافة إلى الموافقة على تشكيل نقابات عمالية ومهنية جديدة؛
- تحقيق جملة من المكاسب العمالية البسيطة ، ولكنها كانت مهمة بالنسبة للنضال النقابي والعمالي . إلا أن الحكومة لم تستطع مقاومة ضغط البلاط والنخبة الأكثر يمينية ورجعية في النخب الحاكمة ، فقابلت إضراب عمال السكك بطريقة عنيفة وغير إنسانية ، إذ وجهت الشرطة لكسر الإضراب والاعتداء على المضربين بالضرب والإهانة والاعتقال . كما قامت إدارة السكك بفصل عدد غير قليل من المضربين والطلب باعتقال البعض منهم وفصل البعض الآخر . إضافة إلى غلق نقاباتهم . وكانت المطالب العمالية تركز على النقاط التالية: 281
- رفع الأجور بنسبة 50 % للعمال الذين تقل أجورهم عن (200) فلساً في اليوم و40 % للعمال الذين يتقاضون من (200-300) فلساً في اليوم و30 % للذين تزيد أجورهم عن ال (300) فلس .
- إرجاع رئيس الخراطين أحمد سلمان إلى عمله وبأجوره السابقة" 282 .

281 حمدي ، جعفر عباس. التطورات السياسية في العراق 1941-1953. مصدر سابق. ص 153.  
282 نفس المصدر السابق. ص 153.

وبعد فشل المفاوضات واستمرار إضراب عمال السكك ، رغم حصوله على تأييد واسع من قوى المعارضة والنقابات الأخرى ، أصدرت الحكومة قرارها بإلغاء إجازة النقابة في 17 نيسان من عام 1945 ، وقامت في الوقت نفسه بممارسة "الأساليب الإرهابية لإرغام العمال على العودة إلى العمل . فاعتقل عدد كبير من العمال مما أدى إلى استنكار واسع من قبل عمال العراق فقدمت مذكرات احتجاج من قبل نقابات عمال الميكانيك ، البنائين ، النجارين ، الكهربائيين ، الأحذية ، السجاير ، المطابع والخياطة ، وشكلوا وفداً لمقابلة المسؤولين في وزارة الشؤون الاجتماعية"283 . ورغم التضامن الواسع مع عمال نقابة السكك الحديد ، عجزت الحركة النقابية وقوى المعارضة السياسية عن تحقيق تلك المطالب واضطر المضربون على العودة إلى أعمالهم . ومع أن الإضراب قد فشل في تحقيق مهمته الأساسية ، إلا أنه نشط الحياة السياسية ودفع باتجاه التشديد على مطلب أساسي في الحركة الوطنية العراقية ، أي المطالبة بالحياة الديمقراطية وحق العمل والتنظيم السياسي والنقابي والمهني . وكانت البداية الفعلية لانطلاقة الحركة الديمقراطية في أعقاب الحرب العالمية الثانية .

أطلقت انتصارات الحلفاء في الحرب العالمية الثانية وانكسار دول المحور وإعلان استسلامها في التاسع من أيار/مايس 1945 الزخم الديمقراطي من عقاله على الصعيد العالمي ، رغم أن شعوباً ودولاً كثيرة لم تستطع توظيف هذه الانتصارات لصالحها ، أو أن حركتها حوصرت بسبب السياسات القمعية التي لم تختلف كثيراً عن الأساليب الفاشية والنازية في التعامل السياسي مع الشعوب أو مع القوى والأحزاب السياسية الأخرى . وكان العراق واحداً من تلك البلدان التي عرفت الانفتاح والتصويب في آن واحد . فالقوى والأحزاب الديمقراطية كانت تريد الانفتاح وتضغط باتجاهه وتفرض نفسها على الحكم وتعطيل إجراءاته السياسية والاجتماعية غير الديمقراطية ، سواء الداخلية منها أم العربية والدولية من جهة ، في حين كانت قوى البلاط الملكي والنخب الحاكمة التقليدية التي تولت الحكم منذ بداية تشكيل الدولة العراقية ولم تتخل عنه وقاتلت في سبيل البقاء في السلطة ، تخشى الانفتاح وترى فيه تهديداً لمصالحها وسلطتها وتعتبر الديمقراطية قيلاً ثقيلاً على سياساتها وسعت إلى تفتينها من جهة ثانية . ولذلك كان الانفتاح مقيداً ومحفوفاً بمخاطر جمة . ولكن الأحزاب الوطنية ، التي كانت تعمل قبل ذلك بسرية ، بدأت تعيد النظر بأوضاعها وتطلق العنان لنشاطها وتقدم الطلبات للحصول على مجال للنشر الصحفي والعمل السياسي . وهي قوى شاركت بفعالية ضد الحرب والفاشية وناضلت ضدهما ، وفضحت الأرضية الفكرية والسياسية التي تقف عليها الفاشية والنازية ، وتبنت شعارات الحرية والديمقراطية والتحالف السياسي في سبيل تحقيق أهداف الشعب الأساسية .

وفي أعقاب الحرب راجت في الساحة السياسية العراقية وبين قوى المعارضة وفي صفوف الفئات الحاكمة ، التي لم تكن قد وضعت حتى ذلك الحين أي منهاج سياسي ملزم للتنفيذ ، فكرة تشكيل وزارة جديدة تأخذ على عاتقها وضع سياسة جديدة لما بعد الحرب العالمية الثانية تأخذ بنظر الاعتبار التحولات الديمقراطية الواسعة التي حلت بالعالم ، خاصة وأن العراق أصبح عضواً في الجامعة العربية والأمم المتحدة . وتحت ضغط الواقع الجديد كلف توفيق السويدي بتشكيل وزارته الثانية في شهر شباط من عام 1946

283 نفس المصدر السابق. ص 155.

، التي ضمت مجموعة من الوزراء الجدد ، حيث عرف بعضه باتجاهاته الديمقراطية ، ومنهم سعد صالح ، الذي تسلم حقيبة وزارة الداخلية ، وعبد الوهاب محمود الذي تسلم حقيبة وزارة المالية ، إضافة إلى بعض الوجوه السياسية القديمة ، مثل أحمد مختار بابان . وكان سعد صالح من أبرز وزراء هذه الحكومة المعروف باتجاهاته الديمقراطية الليبرالية ورغبته في إطلاق الحريات الديمقراطية وحرية التنظيم السياسي . وشكل سعد صالح فيما بعد ، ومعه توفيق السويدي وعبد الوهاب محمود وآخرون ، حزب الأحرار . وأعلنت الوزارة الجديدة منهاجها الوزاري وتضمن المهمات التالية:

- إعادة النظر في معاهدة التحالف العراقية - البريطانية لعام 1930 في ضوء التطورات الجارية في العراق والعالم؛
- تعزيز وتوطيد الجامعة العربية واعتبار القضية الفلسطينية جزءاً عضواً من القضية العراقية والعربية ورفض اقتطاع هذا العضو من جسم البلاد العربية ، إضافة إلى مقاطعة البضائع الصهيونية ومساعدة الشعب العربي في فلسطين؛
- توثيق عرى الصداقة والتعاون مع دول الجوار ، كما تحرص على إقامة علاقات متينة وطيبة مع جميع الأمم المتحدة لصالح قضية السلام في العالم والحرص على روح ميثاق سان فرانسيسكو .

في السياسة الداخلية:

- 1 . نقل حالة البلاد من الوضع الشاذ ، الذي خلفته الحرب ، إلى الوضع الطبيعي ، الذي تقتضيه ظروف السلم . ولأجل ذلك ستقوم الحكومة بتحقيق الأمور الآتية:
    - أ- إلغاء الإدارة العرفية .
    - ب- إلغاء مرسوم صيانة الأمن وسلامة الدولة (رقم 56) لسنة 1940 وبقيّة المراسيم والقوانين الاستثنائية التي لم تعد الحاجة ماسة إليها .
    - ج- سد المعتقل والإفراج عن المعتقلين ، ورفع الرقابة عن الصحافة .
    - د- فسح المجال لتأسيس الأحزاب السياسية .
  - تشريع قانون لانتخاب النواب يؤمن حرية الانتخاب ، ويحقق المبادئ الديمقراطية والتمثيل الصحيح .
  - هـ- تنظيم ماكنة الدولة بإبعاد العناصر الضعيفة كفاءة وسلوكاً ، وإحلال عناصر صالحة من الشباب المثقف في محلها .
  - ز- السعي لرفع القيود التي فرضت بحكم ظروف الحرب فيما يتعلق في التموين ، كلما كان ذلك متيسراً ، والعمل على تنمية تجارة العراق بتوسيع مجال التصدير ، وتنظيم الاستيراد وتزويد الكميات المستوردة .
2. حل مشاكل الأرض في البلاد بتحقيق الأمور الآتية:
    - أ- تزويد كفاءة لجان التسوية ، وتيسير الوسائل اللازمة لإنجاز أعمالها بسرعة .
    - ب- حسم مشكلة أراضي المنتفك بتشريع خاص .
    - ج- تنظيم علاقات الزراعة في لواء العمارة وجعلها مسيطرة للطرق المتخذة في بقية الألوية .

د- توزيع الأراضي الأميرية الخالية على الملكية الصغيرة" 284 .  
كما تضمن المنهاج أفكاراً أخرى عامة مثل تقوية الجيش والشرطة وتعزيز الأمن وما إلى ذلك ، كما وردت إشارة سريعة حول " (الصيانة الاجتماعية ، والعدل الاجتماعي ، وإعداد جيل من الخلف الصالح يتولى أعباء الحكم والمسؤوليات) " 285 .

أشرنا إلى تعهد الحكومة العراقية الجديدة ، استناداً إلى خطاب العرش الذي ألقاه الوصي عبد الإله مع نهاية الحرب العالمية الثانية ، بإطلاق الحريات الديمقراطية وإجازة الأحزاب السياسية والمنظمات والنقابات وكذلك الصحف والمجلات وما إلى ذلك من حريات يضمنها أساساً الدستور العراقي لعام 1925 . إلا أن الثقة بالحكومة كانت ضعيفة جداً ، وكذا بالنسبة للوعود التي أطلقتها حينذاك وما التزمت به من مهمات وأهداف التي بدت وكأنها كبيرة رغم تواضعها ، بسبب التجارب المريرة التي مرت بها الحركة الوطنية العراقية في ظل الحكم الملكي وحكوماته المتعاقبة . فمنذ تأسيس الدولة العراقية حتى نهاية الحرب العالمية الثانية عاش الشعب العراقي فترات كانت قصيرة جداً تمكنت فيها قوى المعارضة السياسية من تأسيس أحزابها السياسية وإصدار صحفها . وسرعان ما كانت تسحب إجازات تلك الأحزاب أو تغلق أو تسحب إجازات صحفها لأسباب غير معقولة ، أو كانت تعمد تلك الأحزاب إلى تجميد نشاطها وغلق صحفها بسبب القمع الذي كانت تتعرض له وتقديم قياديين وأعضاء أحزابها ومحربي صحفها إلى المحاكمات . وكانت الحكومات العراقية المتعاقبة ، بدعم من البلاط ومن سلطات الاحتلال البريطاني ، وفيما بعد من قبل السفارة البريطانية ، تتجاوز بشراسة على مضمون وبنود القانون الأساسي العراقي الذي وضعته بنفسها خارقة ما سمي بالمجتمع المدني بكل فظاظة . إذ ضمنت بنود الدستور حق التنظيم السياسي والمهني ، وحق التعبير عن الرأي والنشر وإصدار الصحف ... الخ لكل العراقيين . ولكن هذا التجاوز المتواصل على الدستور وعلى القوانين المنظمة للحياة المدنية عجز عملياً عن منع العراقيين من إقامة أحزابهم السرية أو تجمعاتهم شبه العلنية أو تكتلاتهم السياسية غير المعلنة ، رغم أنهم كانوا بذلك يضعون أنفسهم في تعارض مع المنع الصادر عن الحكومات المتعاقبة ، وبالتالي ، يضعون أنفسهم تحت طائلة القانون والعقاب . فكان هناك الحزب الشيوعي العراقي الذي كان يعمل بالسرية . وحرّم حزب الشعب ، الذي قدمت مجموعة من القوميين طلباً لمنحها إجازة العمل العلني في عام 1939 ، من حق العمل الشرعي ، وهو الحزب الذي قاد فيما بعد حركة نيسان/مايس 1941 . وعدا عن ذلك كانت هناك تكتلات قومية وديمقراطية وماركسية عربية وكردية عديدة غير مجازة ولم تمارس العمل الحزبي العلني في السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الثانية ، خاصة وأن الحكومة كانت قد أعلنت عن حرصها على ذلك . ورغم عدم الثقة بتصريحات الحكومات المتعاقبة ، فأنها اتخذت من برنامج الحكومة أساساً لمطالبتها بتنفيذ ما التزمت به وقام بعضها بتقديم طلبات تأسيس أحزابها السياسية في نهاية عام 1945 وبداية عام 1946 ، كما أن بعضها كان قد حل نفسه والتحق بأحزاب أخرى 286 .

284 الحسني ، عبد الرزاق. تاريخ الوزارات العراقية. الجزء السابع. مصدر سابق. ص 9/8.

285 نفس المصدر السابق. ص 9.

286 فهد. كتابات الرفيق فهد. دار الفارابي. بيروت. الطريق الجديد. بغداد. ص 158د.

وكانت مجموعة الأحزاب التي عملت في فترة الحرب العالمية الثانية بدون إجازات رسمية ، أي بصورة سرية أو شبه سرية ، في نهاية عام 1945 على النحو الآتي: 287  
(1) حزب الأحرار (2) حزب الاستقلال (3) الحزب الوطني الديمقراطي  
(4) حزب الشعب (5) حزب الاتحاد الوطني (6) حزب التحرر الوطني

(7) حزب وحدة النضال (8) الحزب الديمقراطي الكردي (9) حزب هيووا (الأمل)  
(10) حزب شورش (الثورة) (11) حزب رزكاري كورد (12) يه كيه تي  
تيكوشين ، وهو فرع لحزب وحدة النضال .

وكانت هذه الأحزاب موزعة على ثلاثة تيارات أساسية ، إضافة إلى التيار السياسي الحاكم:

أولاً- التيار القومي العربي والقومي الكردي: حزب الاستقلال ، وحزب زياني كورد ، والذي أصبح فيما بعد ، الحزب الديمقراطي الكردي؛

ثانياً- التيار الديمقراطي والبرالي: الحزب الوطني الديمقراطي ، حزب الاتحاد الوطني ، وحزب الأحرار؛

ثالثاً- التيار الشيوعي أو الماركسي: الحزب الشيوعي العراقي ، وحزب الشعب ، وحزب هيووا (أمل) ، والحزب الشيوعي لكردستان العراق (حزب شورش) وحزب رزكاري كورد .

رابعاً- التيار السياسي الحاكم .

قدمت الأحزاب الستة الأولى طلبات لإجازتها رسمياً ، فأجيزت الخمسة الأولى منها من قبل وزارة الداخلية ورفض طلب حزب التحرر الوطني ، إذ اعتبر واجهة للحزب الشيوعي العراقي . 288 ومن يطلع على برامج هذه الأحزاب ، بما فيها حزب الأحرار الذي دعا إلى تأسيسه نوري السعيد ، وتخلّى عنه فيما بعد ، سيجد أنها كانت مشبعة بأجواء ما بعد الحرب العالمية الثانية ، أجواء الحرية والديمقراطية والرغبة في تعزيز الاستقلال وتطوير الحياة الاقتصادية والاجتماعية . وكانت القوى التي حصلت على إجازة عمل رسمية تتوزع على مساحة واسعة من الفئات الاجتماعية ابتداءً من العمال والفلاحين ومروراً بفئات البرجوازية الصغيرة من مثقفين وحرفيين وكسبة وتجار صغار وموظفي دولة ومستخدمين ومعلمين وطلبة وجنود وضباط صف وصغار الضباط وانتهاءً بفئات من البرجوازية الوطنية الحديثة في مختلف المجالات وبعض صغار ومتوسطي الملاكين . وإذا كان حزب الأحرار وحزب الاستقلال يعبران بهذا القدر أو ذاك عن مصالح الفئات الأخيرة ، فإن الأحزاب الأخرى ، وجزئياً حزب الاستقلال ، كانت تعبر عن مصالح الفئات الاجتماعية الأوسع وجوداً في العراق والمنتجة للدخل القومي . وهي تتوزع بين أحزاب قومية وأخرى ديمقراطية تقدمية وماركسية . أما حزب التحرر الذي سعى فهد إلى تأسيسه من منظور ونصيحة الأممية الثالثة بأهمية وضرورة العمل في صفوف الأحزاب الديمقراطية وتأسيس أحزاب ديمقراطية علنية تستوعب قوى لا يمكن لحزب شيوعي أن يستوعبها في ظل

287 حميدي ، جعفر عباس. التطورات السياسية في العراق. مصدر سابق. ص 176-338.  
288 عبد الرزاق الحسني. تاريخ الوزارات العراقية. الجزء السابع. مصدر سابق. ص 22.

الظروف التي كانت سائدة حينذاك . وكانت أهداف حزب التحرر الوطني في الواقع العملي لا تختلف كثيراً عن المهمات التي رفعها حزب الشعب أو حزب الاتحاد الوطني ، أو الحزب الشيوعي العراقي ذاته في إطار تلك المرحلة ومهامها . وكان توفيق السويدي ، ومن ثم سعد صالح ، يقف على رأس حزب الأحرار . أما حزب الاتحاد الوطني فقد ترأسه عبد الفتاح إبراهيم . وترأس عزيز شريف حزب الشعب ، في حين وقف كامل الجادرجي على رأس الحزب الوطني الديمقراطي ، ومحمد مهدي كبة على رأس حزب الاستقلال . وكان حسين محمد الشبيبي على رأس حزب التحرر الوطني . وكان صالح الحيدري على رأس حزب شورش الكردي . في حين ترأس الملا مصطفى البارزاني الحزب الديمقراطي الكردي . وسنحاول فيما يلي المرور المكثف على التيارات الفكرية والسياسية التي أشرنا إليها في أعلاه:

• التيار السياسي المعبر عن مصالح الفئات الإقطاعية وكبار ملاكي الأراضي الزراعية والبرجوازية العقارية والبرجوازية الكومبرادورية (التجارية) والمدافع عن الملكية الكبيرة وعن التحالف الوثيق مع بريطانيا والسياسة البريطانية إزاء العراق . نشأت لهذا التيار عدة أحزاب سياسية منذ وقت مبكر ، إلا إنها استقرت فيما بعد على حزبين رئيسيين هما حزب الاتحاد الدستوري (1949) برئاسة نوري السعيد ، وحزب الأمة الاشتراكي (1951) برئاسة صالح جبر . وتدلل الكثير من الوقائع إلى أن فكرة إقامة حزبين سياسيين ينتميان إلى النخبة الحاكمة ذاتها انبثقت بعد المداورات والمشاورات غير المعلن عنها مع البلاط والسفارة البريطانية للأخذ بتجربة بريطانيا القائمة على وجود حزبين رئيسيين هما حزب العمال وحزب المحافظين يتناوبان السلطة في ضوء نتائج الانتخابات ، أو تجربة الولايات المتحدة التي تعتمد على حزبين سياسيين هما الجمهوري والديمقراطي ، إذ تحرم بقية الأحزاب من الوصول إلى السلطة بمختلف السبل . ومع أن هذين الحزبين تأسسا في عامي 1949 و1951 على التوالي ، فإنهما كانا يعملان عملياً قبل ذلك ككتلتين سياسيتين في الحياة السياسية العراقية . أي أن تأسيس هذين الحزبين الحكوميين الرئيسيين قد تم قبل ذلك وفق إرادة البلاط والسفارة البريطانية والنخبة الحاكمة ذاتها ليتناوبا الحكم أو يتعاونوا معا في حكم البلاد باسم الفئات الحاكمة وكأنهما حزبان سياسيان مختلفان . وكان الحزبان يعزفان على وترين حساسين وخطرين في آن واحد ، على وتر الطائفية والعشائرية . وإذا كان الحزب الأول يضم في صفوفه أكثرية سنية ، فإنه لم يخل من كوادر وأعضاء بارزين من الشيعة ، كما كان الحزب الثاني يضم إليه أكثرية شيعية ولكنه لم يخل من كوادر وأعضاء بارزين من السنة . وتؤكد معطيات الفترة التي أعقبت ثورة تموز 1958 أن مجموعة من قياديين هذين الحزبين كانت لها مصالح ترتبط عضواً بمصالح الأوساط الاستعمارية البريطانية وتلتقي معها أيديولوجياً وتستجيب لمصالحها وتخضع لإرادتها . كما كانت تضم إليها قوى شابة من المثقفين والمتعلمين الدارسين في البلدان الأوروبية ، وبخاصة في إنجلترا ، وفي الولايات المتحدة الأمريكية ، وكبار موظفي الدولة ممن يميلون في ولاعاتهم للولايات المتحدة الأمريكية وسياساتها في المنطقة . وكان التنقيف الدائم في هذين الحزبين موجه بشكل مركز ضد الشيوعية والأحزاب اليسارية ، إضافة إلى إن الدعاية اليومية كانت موجهة ضد قوى حركة التحرر الوطني وضد الاتحاد السوفييتي

وبقية بلدان المنظومة الاشتراكية . كما توجهت الفئات الحاكمة ضد مصر وضد قيادة عبد الناصر .

ولم تتخل القوى المناهضة لحركة التحرر الوطني في العراق عن تسريب العملاء والجواسيس إلى صفوف أحزاب المعارضة الوطنية أو شراء ذمم بعض العناصر فيها لإثارة الصراعات في ما بينها وتعطيل قدرتها الكفاحية وتوجيهها لإقامة التحالفات السياسية . واستطاعت قوى النظام الملكي في بعض الفترات وتحت واجهات مختلفة توظيف قطاعات من القوى القومية اليمينية المعادية للشيوعية والاتجاهات الاشتراكية لصالحها وزجها في معارك سياسية ومشاحنات حادة ضد القوى الوطنية والتقدمية وضد الشيوعيين . كما حصل في أكثر من مناسبة ، وخاصة في الموقف من قضية فلسطين وقرار التقسيم . ولعبت القوى السياسية الدينية دوراً متميزاً في هذا الصدد ، وبشكل خاص جماعة الإخوان المسلمين ، وفي الخمسينات نشأ حزب آخر بذات الوجهة ، هو حزب التحرير الإسلامي ، وكان مركزه الأردن .

\* التيار السياسي المعبر عن مصالح البرجوازية المتوسطة وبعض فئات من البرجوازية الصغيرة التي كانت تتصدى للهيمنة الاستعمارية وتناضل ضدها تحت شعارات ومهمات متباينة . وكان هذا التيار يضم إليه من حيث المبدأ فصيلين من فئات البرجوازية:

كان الفصيل الأول ديمقراطي الاتجاه لبرالي النزعة يمثله بشكل خاص الحزب الوطني الديمقراطي برئاسة كامل الجادرجي . وتأسس هذا الحزب في عام 1946 بعد صدور قانون الأحزاب في العراق . وكانت مواقف هذا الحزب مناهضة للسيطرة الاستعمارية البريطانية ووجودها العسكري في البلاد وضد الاستغلال غير العقلاني لموارد البلاد النفطية ومن أجل تعديل اتفاقيات استثمار النفط الخام المعقودة مع الكارتيل النفطي الدولي . وكان الحزب يناضل من أجل إشاعة الحرية والديمقراطية في الحياة السياسية ولصالح التعددية الحزبية ويدعو إلى إقامة المجتمع المدني والمؤسسات المدنية . والتزم الحزب بالدعوة إلى تحقيق الإصلاح الزراعي وتصنيع البلاد وتنمية الاقتصاد الوطني وتنشيط التجارة والقطاع الخاص وتحسين استخدام موارد قطاع الدولة . وكان يدعو إلى إقامة أوثق العلاقات مع الدول العربية الشقيقة وإلى دعم حركة التحرر الوطني العربية وإلى الانضمام في الخمسينات إلى حركة الحياض الإيجابي (حركة دول عدم الانحياز) ، وإلى إقامة علاقات طبيعية مع الاتحاد السوفييتي وبقية بلدان المنظومة الاشتراكية . ولعب هذا الحزب ، الذي شارك بعض قياديه في وزارات عديدة وتميز باستعداده للتعاون مع بعض الحكومات العراقية المعبرة عن مصالح الفئات الحاكمة ، دوراً متميزاً في النضال الوطني والديمقراطي في العراق وساهم بفعالية في نشر الوعي الوطني والديمقراطي في المجتمع عبر جريدته المركزية " الأهالي " . ولا شك في أن هذا الحزب البرجوازي الديمقراطي ضم في صفوفه بالأساس جمهرة واسعة من المثقفين والديمقراطيين العراقيين من اتجاهات سياسية معتدلة ويسارية ويمينية في آن . ففي الوقت الذي كان يضم فيه جمهرة من العمال والحرفيين وصغار التجار والكسبة والمستخدمين ، ضم أيضاً بعض كبار ملاك الأراضي وأبناء بعض الإقطاعيين والعوائل الميسورة والتجار والصناعيين من ذوي النزعة اللبرالية .

وإلى جانب هذا الحزب نشأ الحزب الديمقراطي الكردي ، الذي سنتحدث عنه في إطار الأحزاب الكردية .



أما الفصل الثاني فكان قومي الاتجاه يميني ولبرالي النزعة ، تميل جماعات فيه إلى ممارسة القوة والعنف في مواجهة خصومها السياسيين . تأسس هذا الحزب في عام 1946 بمبادرة من فائق السامرائي ، وأصبح محمد مهدي كبة رئيساً له . وكان لعدد كبير من قياديه البارزين ، فائق السامرائي ومحمد صديق شنشل وغيرهما ، دور بارز في النشاط القومي في الثلاثينات . وكان كثرة من أعضاء هذا التكتلات القومية التي التحقت بالحزب تميل إلى الفكر القومي المتعصب أو الشوفيني ، وكذلك من الذين شاركوا في حركة نيسان/مايس عام 1941 المناهضة للوجود البريطاني في العراق . وسعى بعض أقطاب تلك التكتلات القومية إلى إقامة علاقات مع الحزب النازي الهتلري في ألمانيا باتجاه فكري قومي ولغرض النكابة ببريطانيا باعتبارها دولة مستعمرة للعراق . كان حزب الاستقلال يدعو إلى الاستقلال والتخلص من الهيمنة الاستعمارية البريطانية وإلى التنمية الاقتصادية والتخلص من التخلف الاقتصادي . أتخذ الحزب موقف العداء الشديد للشيوعية والاشتراكية مما ساعد على انجرار بعض عناصره في مختلف المدن العراقية إلى الانزلاق والتعاون مع قوى الحكومة ضد بعض أطراف الحركة الوطنية ، بسبب اقترابها من العداء للشيوعية ، وكذلك الموقف المتباين حول فلسطين وقيام دولة إسرائيل على الأرض الفلسطينية .

وشارك هذان الحزبان الوطنيان البرجوازيان في جبهة الاتحاد الوطني التي كانت وراء حركة الإطاحة بالملكية في العراق في عام 1958 التي قادها العميد الركن عبد الكريم قاسم .

• \* التيار الماركسي أو الشيوعي: وجدت في إطار هذا التيار المجموعات التالية:  
الحزب الشيوعي العراقي ، وحزب هيووا وحزب وحدة النضال وحزب شورش ورزگاري كورد وحزب الشعب . كما برزت في فترة لاحقة جماعة النجمة . وفي عام 1946 تشكل حزب التحرر الوطني وعصبة مكافحة الصهيونية . وتركزت عضوية المنظمة الأخيرة على المواطنين والمواطنين اليهود من سكان العراق ، والذين هجروا بالقوة إلى إسرائيل أو إلى مناطق أخرى من العالم وحرموا من البقاء في وطنهم العراق . ولكنها ضمت مواطنين غير يهود أيضاً . وإذ كرس الكتاب للبحث في فهد والحزب الشيوعي العراقي ، فسنحاول هنا الإشارة بسرعة إلى الأحزاب الأخرى في التيار الماركسي .

لم تشهد كردستان العراق حياة حزبية علنية وديمقراطية ، كما لم يتمتع الشعب الكردي والأقليات القومية في المنطقة بالحرية والديمقراطية . وكانت أحزاب وجمعياته كلها سرية أو شبه سرية . ومع ذلك فقد تميزت بحيوية ملموسة ، سواء تلك التي تأسست في بغداد أم تلك التي تأسست في المدن الكردستانية العراقية . وبالتالي لم يكن هناك حزباً علنياً يمثل مصالح الشعب الكردي ، رغم وجود بعض الأكراد في الأحزاب العراقية الأخرى التي لم تكن قائمة على أساس قومي أو ديني أو طائفي . وشهدت فترة الحرب العالمية الثانية تشكيل العديد من الأحزاب والجمعيات السرية ذات الاتجاهات الديمقراطية والماركسية . ففي عام 1939 تشكل حزب هيووا (الأمل) ونشط على نطاق كردستان عموماً وحقق نجاحات ملموسة في العلاقة مع الجماهير الكردية ، خاصة وأنه طرح مسائل نضالية كانت تتبناها نسبة عالية من المثقفين والمتعلمين الأكراد ، ومنها موضوع الاستقلال أو الحكم الذاتي لكردستان العراق ، والحريات الديمقراطية والنضال

ضد الفاشية والنازية . وبلغ عدد أعضاء الحزب خلال عام 1942 ما يزيد على 5500 عضواً ، ضم في صفوفه شريحة واسعة من المثقفين من فئات البرجوازية الصغيرة ، مثل المعلمين والمدرسين والطلبة والأطباء والمحامين والضباط والجنود<sup>289</sup> . وكان على رأس هذا الحزب رفيق حلمي . وساهم هذا الحزب في عملية التنوير الفكري والسياسي والنزاهة النضال من أجل حقوق الشعب الكردي . وفي عام 1943 اشتد الخلاف في صفوف هذا الحزب بين جناح يميني وآخر يساري ، انتهى الأول بعد فترة وجيزة وواصل الثاني نشاطه باتجاهات عدة وتشكلت منه عدة تنظيمات . ومن هيووا نشأت جماعية زياني كورد (انبعاث الأكراد) ، وري ي راست (الطريق الصحيح) . أما الجماعية القيادية الرئيسية لهيووا فقد التحقت بحزب (يه كيه تي تيكوشين) أو وحدة النضال . وبعد أن قررت قيادة الحزب الأخير حل الحزب والاتحاق فردياً بالحزب الشيوعي العراقي ، رفض الفرع الكردي (يه كيه تي تيكوشين) حل نفسه ودخل بمفاوضات مع الحزب الشيوعي العراقي . وكان على رأس المتفاوضين فهد من جانب الحزب الشيوعي العراقي ، وصالح الحيدري من جانب (يه كيه تي تيكوشين)<sup>290</sup> . ولم يتوصل الطرفان إلى نتيجة مقبولة لهما . وعلى إثر ذلك شكلت جمعة يه كيه تي تيكوشين الحزب الشيوعي لكرديستان العراق (شورش) وأصدر جريدته المركزي بالاسم الأخير . ووضع للحزب برنامجاً ونظاماً داخلياً يستند إلى الماركسية . وقامت قيادة هذا الحزب ، وبالتعاون مع قوى كردية أخرى خارج إطار العراق ، إلى تشكيل الجبهة الكردستانية (زرکاري كورد) ، أي (خلاص الأكراد) ، ووضعت لها برنامجاً ونظاماً داخلياً شبيهاً بما كان لدى شورش . وكانت قيادة زرکاري كورد مكونة من قياديين وأعضاء شورش وآخرين مستقلين . وكان على رأس القيادة صالح الحيدري<sup>291</sup> . وفي فترة لاحقة حلت قيادة شورش الحزب والتحق بعض قياديين وأعضاء الحزب بالحزب الشيوعي العراقي والبعض الآخر بالحزب الديمقراطي الكردي في أوائل عام 1946 .<sup>292</sup>

وعلى صعيد كردستان تأسس في عام 1946 الحزب الديمقراطي الكردي برئاسة الملا مصطفى البارزاني ، مستفيداً من النواة السابقة التي سميت ب (ز . ك . - زياني كورد) . وتبنى هذا الحزب الوطني ودعا بشكل واضح إلى تحقيق الاستقلال والسيادة الوطنية وتعزيز الوحدة العراقية ، وحدة العرب والأكراد ، من خلال الاستجابة للحقوق القومية العادلة للشعب الكردي . ولم يكن هذا الحزب من الناحية الرسمية والفعلية ، في ما عدا

289 عبد الله، علي. تاريخ الحزب الديمقراطي الكردستاني - العراق حتى انعقاد مؤتمره الثالث. كردستان العراق. أيلول 1968. ص 18/17.

290 كتب علي عبد الله، السياسي الكردي وعضو قيادة الحزب الديمقراطي الكردستاني. وكان عضواً قيادياً في حزب شورش وزرکاري كورد، وقبل ذلك في حزب هيووا، يقول: "دخل ممثلو (يه كيه تي تيكوشين): المؤلفون من صالح الحيدري والمرحوم نافع يونس وعلي عبد الله في محادثات مع ممثلي الحزب الشيوعي العراقي وهم كل من المرحومين فهد وزكي بسيم ومحمد حسين الشيببي ويهودا والملا شريف حول كيفية تنظيم وقيادة فرع كردستان والحركة التحررية الكردية بالشكل المطلوب. ولكنهم لم يتوصلوا إلى حل مقبول. ولهذا فإن قيادة (يه كيه تي تيكوشين) أسسوا في خريف 1945 الحزب الشيوعي لكرديستان العراق وكان مكتبه السياسي يتألف من صالح الحيدري (سكرتيراً) ونافع يونس وعلي عبد الله وعبد الكريم توفيق ورشيد عبد القادر. وكانت جريدته (شورش) لسان حال الحزب". المصدر السابق. ص 23.

291 صالح الحيدري هو أخ جمال الحيدري ، عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي الذي استشهد في بغداد بعد اعتقاله من قبل انقلابي 8 شباط عام 1963 ، في أعقاب نجاح الانقلاب ضد الجمهورية الأولى التي جاءت بها ثورة تموز عام 1958 بقيادة عبد الكريم قاسم. كما أنه أخ عاصم الحيدري ، وكان عضواً في الحزب الشيوعي العراقي ، وقضى سنوات طويلة في السجن والمنفى ومات في العراق في أعقاب ثورة تموز ، وكان مصاباً بالربو الشديد. توفي صالح الحيدري في مدينة أربيل في صيف عام 2001.

292 حميدي ، جعفر عباس. التطورات السياسية في العراق. ص 225.

أوساط معينة فيه ، يدعو إلى الاستقلال عن الدولة العراقية أو إقامة الدولة الكردية المستقلة ، بل إلى تحقيق الحكم الذاتي ضمن الدولة العراقية . وتمتع رئيس الحزب بموقع قيادي كبير من النواحي العشائرية والدينية والسياسية في أوساط الشعب الكردي ، ولعب دوراً نضالياً ملموساً وتميزاً لتحقيق الديمقراطية في العراق و ضد الحكم الملكي الرجعي . كما شارك الحزب الديمقراطي الكردي 293 في تشكيل جبهة الاتحاد الوطني من خلال علاقته بالحزب الشيوعي العراقي ، إذ أن القوى القومية كانت ترفض في حينها مشاركته المباشرة في الجبهة لأسباب شوفينية بحتة . كانت عضوية هذا الحزب خليطاً من فلاحين وعمال ومتقنين وطلبة ومعلمين وضباط وجنود وكسبة وحرفيين وبرجوازيين متوسطين ، إضافة إلى بعض شيوخ العشائر والأغوات . ولكن الفلاحين من أبناء العشائر الكردية شكلوا القاعدة الشعبية الأساسية لهذا الحزب ، ومنهم تشكلت وحداته المسلحة أيضاً ، إضافة إلى مجموعات من المثقفين والطلبة .

\* التيارات السياسية المعبرة عن مصالح البرجوازية الصغيرة بفئاتها المختلفة: تشكلت في العراق على امتداد الفترة موضوع البحث مجموعة من الأحزاب السياسية من مواقع ومصالح البرجوازية الصغيرة ، سواء كانت باتجاهات يسارية وديمقراطية أم باتجاهات قومية يمينية . وكان بعض هذه الأحزاب علنياً وبعضها الآخر سرياً ، بسبب عدم إجازته من قبل السلطة .

أ- التيار الديمقراطي اليساري: كانت الحركة الديمقراطية العراقية في أثناء وأعقاب الحرب العالمية الثانية نشيطة وفعالة . استطاعت في فترة وجيزة تعبئة أوساط واسعة من أبناء الشعب العراقي في المدن وفي بعض الأرياف لصالح النضال في سبيل الديمقراطية و ضد الإقطاع والهيمنة الأجنبية وفي سبيل الإصلاح الزراعي والعدالة الاجتماعية . وعلى هذا الأساس برزت في العراق بعض الأحزاب الديمقراطية التقدمية واليسارية مثل حزب الشعب (1942) برئاسة الماركسي المعروف ، والذي أصبح فيما بعد عضواً في مجلس السلم العالمي ، عزيز شريف ، وحزب الاتحاد الوطني (1946) برئاسة عبد الفتاح إبراهيم ، وهو شخصية ماركسية ووطنية معروفة ، وحزب التحرر الوطني (1947/1946) برئاسة محمد حسين الشبيبي ، وهو شخصية شيوعية بارزة وكان عضواً في المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي . وكانت هذه الأحزاب تدعو إلى التحرر وإشاعة الديمقراطية في الحياة السياسية والتعددية السياسية والعدالة الاجتماعية وتحرير الثروة النفطية وتنمية الاقتصاد العراقي وإلغاء معاهدة 1930 وكل الاتفاقيات غير المتكافئة ، كما كانت تدعو إلى إقامة علاقات نضالية مع شعوب الأقطار العربية والدول المجاورة وإقامة علاقات تعاون طيبة مع الاتحاد السوفييتي وبقية بلدان المنظومة الاشتراكية . ويمكن وضع حزب هيووا الكردي في إطار هذه المجموعة من الأحزاب السياسية العراقية .

One- التيار السياسي القومي: نشأت في الفترة قبل وبعد الحرب العالمية الثانية بعض الحركات والكتل القومية السياسية ذات الاتجاهات اليمينية على نحو خاص . وكان أكثر تلك القوى ، التي لعبت فيما بعد دوراً كبيراً في حياة العراق السياسية وفي ما وصل إليه العراق في الوقت الحاضر من خراب وتخلف وبؤس ، هو حزب البعث

293 وفق قرار صدر عن مؤتمر الحزب الثالث، الذي عقد في كركوك في عام 1953، بدل اسم الحزب إلى الحزب الديمقراطي الكردستاني، وحافظ عليه سنوات طويلة، ثم أصبح اليوم يدعى بالحزب الديمقراطي الكردستاني الموحد، (ك.حبيب).

العربي الاشتراكي الذي تأسس عمليا في العراق في عام 1952 ، رغم أن النشاط البعثي في هذا البلد كان قد بدأ قبل ذلك في أوساط حزب الاستقلال وعلى حسابه ، أي منذ بداية تشكيله في سوريا في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وبتعبير أدق بحدود عام 1947 . ومارست هذه الجماعة باتجاهاتها القومية اليمينية والشوفينية ، ونشاطاتها في بغداد على نحو خاص وفي بعض المحافظات العراقية . وكانت الغالبية العظمى من أعضاء هذه الجماعة من الطلاب من أبناء الموظفين والكسبة والتجار ، إضافة إلى مجموعة من أبناء شيوخ العشائر وملوك الأراضي الزراعية ومن أبناء العاملين في القوات المسلحة والمعلمين وبعض مستخدمي الدولة . وتبنت شعار تحرير فلسطين وعودة اللاجئين إلى ديارهم ، كما كانت تعمل هذه المجموعة ضد الهيمنة الأجنبية وضد سياسات الطغمة الحاكمة في بغداد حينذاك . إلا أنها كانت ذات مواقف متطرفة ضد الشيوعية والحزب الشيوعي العراقي وتمارس العنف في علاقاتها مع القوى الأخرى . كما كانت تنكر وجود شعب كردي وتعتبر الأكراد "عرب الجبال" ، وتدعو إلى إقامة الوحدة العربية تحت شعار ثلاثي: وحدة ، حرية ، اشتراكية ، على خلاف قوى قومية أخرى رفعت ذات الشعار ولكن بتسلسل آخر: حرية ، وحدة ، اشتراكية . واعتبرت هذه المجموعة القومية نفسها جزءا من حزب البعث العربي الاشتراكي على النطاق القومي العربي . وكان بجوار هذه المجموعة السياسية مجموعات قومية كانت تعمل في إطار حزب الاستقلال ولكنها كانت ترتبط باتجاهات قومية عربية تشكلت في بيروت وفي إطار الجامعة الأمريكية كان يقودها في حينها جورج حبش ، الذي أصبح فيما بعد رئيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

التيار السياسي الديني: لعب رجال الدين في العراق دورا بارزا وتميزا في النضال في سبيل إقامة الدولة العراقية المستقلة وضد الاحتلال البريطاني للعراق . وبرز هذا الدور واضحا في ثورة العشرين وخاصة في أوساط الشيعة في الوسط والجنوب . وتراجع هذا الدور كثيراً في الفترات اللاحقة لعوامل ثلاثة جوهرية هي:

- انتزاع الحكومة العراقي في عام 1924 تعهداً خطياً من عدد مهم من مجتهدي وعلماء الدين في مدن العتبات المقدسة مثل النجف وكربلاء والكاظمية بالكف عن التدخل في الشؤون السياسية وترك الموضوع للحكم والأحزاب السياسية . وارتبط هذا التعهد بالتهديد الذي مارسه رئيس الوزراء حينذاك ، عبد المحسن السعدون ، ضد مجتهدي وعلماء الدين الشيعة بنفيهم خارج العراق باعتبارهم من التبعية الإيرانية ، وكان لهذا التهديد تأثيره السلبي على موقف علماء الدين .
- بروز أحزاب سياسية علمانية كثيرة لعبت دوراً مهماً في الحياة السياسية وشغلت المكانة التي كانت تحتلها جماعة المجتهدين وعلماء الدين في الحياة السياسية العراقية .
- التطورات السياسية والاجتماعية التي طرأت على حياة ونشاط ومشكلات المجتمع العراقي .

ومن حيث المبدأ يبدو لي بأن أي مواطن عراقي ، أياً كان انتسابه الفكري والسياسي والقومي والديني ، له الحق الكامل في المشاركة السياسية والتعبير عن وجهات نظره . وهذه العلاقة بين الإنسان والسياسة يفترض أن لا تلغى بأي حال ، ولكن ما يفترض

الإشارة إليه هو الفصل الكامل بين الدين والدولة ، أي دعوة قوى سياسية لأن يكون دين هذه الدولة أو تلك أو تشريعها مستنداً إلى الشريعة الإسلامية أو أية شريعة أخرى غير الشريعة المدنية ، أو تشكيل أحزاب سياسية على أساس ديني وطائفي والسعي للوصول إلى الحكم وفرض السياسة الدينية لهذا الحزب أو ذاك على الدولة والمجتمع .

وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية برزت في العراق حركتان متميزتان هما :

1- حركة الإخوان المسلمين التي اقتصر على القوى السنية ، إضافة إلى حزب التحرير الإسلامي ، الذي برز في الخمسينات . وكانت هذه الحركة مرتبطة بقوى سياسية دينية في مصر والأردن والسعودية على نحو خاص . ولكنها لم تلعب دوراً كبيراً في الحياة السياسية العراقية .

2- حركة الشيعة التي لم تكن تعمل في إطار حزب سياسي معين حينذاك ، وتجلت أفكارها في الكراسات التي نشرها السيد محمد حسين كاشف الغطاء المرجع الديني الشيعي المعروف في النجف في الخمسينات ، مثل "محاورة مع السفير الأمريكي" ، و "المثل العليا في الإسلام لا في بجمدون" ، إذ توجه بكتابه ضد السيطرة البريطانية والأمريكية على السياسة العراقية ودعا إلى التحرر من تأثيرات هذه القوى وإلى جمع الكلمة الإسلامية . ولكنه وقف أيضاً ضد الشيوعية . وساهمت هذه الحركة في تنشيط الأجواء في مناطق الوسط والجنوب نسبياً ولكنها لم تكن ذات تأثير كبير على حركة الشباب في العراق حينذاك وعلى المواقف السياسية للمجتمع ، إذ كان للأحزاب العلمانية ، ومنها الحزب الشيوعي والحزب الوطني الديمقراطي وحزب الاستقلال وحزب الشعب والاتحاد الوطني وحزب الأحرار الدور الأكبر في هذا النضال .

وعلى صعيد الحزب الشيوعي العراقي توجه فهد نحو عدد من المسائل الجوهرية في الحياة السياسية والمهنية العراقية لفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، التي كان بعضها يصب في مجرى المنهاج الذي أقره مؤتمر الحزب الأول ، وبعضها الآخر يدخل في باب آخر من نشاط الحزب ، ومنها وحدة الشيوعيين وتنشيط الحزب . ويمكن استخلاص مهمات الحزب في تلك الفترة ، وبعد انتهاء أعمال مؤتمره الوطني الأول بحوالي عام واحد ، من خلال صحافة الحزب وكتابات فهد ، فيما يلي:

- العمل من أجل إعادة وحدة الحزب وفق المشروع الذي طرح في سبيل وحدة القوى الشيوعية في البلاد ، وضمان العمل المشترك في حالة العجز عن التوحيد؛
- العمل من أجل إطلاق الحريات الديمقراطية وحرية العمل السياسي وتنشيط تقديم طلبات الحصول على إجازات للأحزاب السياسية؛
- العمل من أجل إقامة جبهة وطنية جادة وواسعة في العراق لا تستثنى أحداً من القوى الفاعلة؛
- العمل من أجل تنشيط الحياة النقابية والمهنية في مختلف المجالات ، بما فيها إقامة الجمعيات والنوادي الثقافية والمهنية غير الحكومية .
- العمل من أجل إلغاء معاهدة عام 1930 ، إضافة إلى بقية الأهداف التكتيكية التي وردت في الميثاق الوطني العراقي .
- النضال من أجل استقلال وسيادة فلسطين وضمها للصهيونية باعتبارها حركة شوفينية تدعمها الأوساط الاستعمارية البريطانية والأمريكية وإنهاء الحماية البريطانية عليها .

وقام فهد خلال الفترة الوجيزة بين انتهاء مؤتمر الحزب ونهاية الحرب العالمية الثانية وقبل اعتقاله بنشاط فعال وكبير لتحقيق تلك الأهداف ، سواء عبر الحزب بمفرده أم مع القوى الديمقراطية والتقدمية الأخرى . وعلى صعيد وحدة الشيوعيين العراقيين تمكن فهد من إقناع اللجنة المركزية لوحدة النضال على حل نفسها والانخراط في صفوف الحزب الشيوعي ، والذي تم فعلاً بتاريخ 1945/4/20 ، في ما عدا مجموعة كردستان التي رفضت القرار وشكلت ما أطلق عليه بجماعة "شورش" أي الثورة . وكانت مجموعة مهمة من الشيوعيين اليهود المثقفين والكادحين العاملين في وحدة النضال من بين العاندين إلى الحزب . أما المجموعة الكردية في وحدة النضال ، التي كانت تعمل بشكل خاص في أربيل والتي رفضت قرار الحل والعودة إلى صفوف الحزب ، فشكلت حزبها الجديد باسم شورش (الثورة) . وكان على رأس المجموعة صالح الحيدري . ولعبت هذه الأحزاب والقوى السياسية المختلفة دوراً متبايناً في الحياة السياسية العراقية وفي أحداث الفترة الواقعة بين 1945-1950 ، وخاصة بشأن العلاقات العراقية البريطانية ومعاهدة بورتسموث ، ومن نتج عن وثبة كانون الثاني/يناير عام 1948 ، وتطورات القضية الفلسطينية والتي سنبحث في كل ذلك لاحقاً .

## الباب الثالث : مواقف فهد حول بعض القضايا الفكرية والسياسية

### الفصل الأول : العلاقة بين الوطنية والأممية عند فهد

عبر فهد عن رأيه حول مفهوم الوطنية حين وقف أمام المحكمة في 18/5/1947 بقوله: "إنني بدأت حياتي بالنضال الوطني ، قبل أن أكون شيوعيا . وبعد أن أصبحت شيوعيا لم أجد تناقضا بين وطنيتي وبين أن أكون شيوعيا . ولكنني بعد أن أصبحت شيوعيا ، أصبحت مسنوليتي تجاه وطني أكبر" 294 .

جاء في الفقرة 51 من النظام الداخلي للحزب ، الذي أعد مسودته فهد ، والذي أقره المؤتمر الوطني الأول للحزب في عام 1945 وتحت عنوان : "وصايا الحزب لأعضائه" ، ما يلي: أيها الرفيق: أحب شعبك ووطنك وكن في مقدمة المناضلين من أجل حرياتها وعزهما وليكن لك أيمان راسخ بقدرة شعبك ووطنك على تحرير نفسه وانبعثه والسير مع طليعة الشعوب الحرة والمساهمة وإياها في تشييد حضارة إنسانية حقة" 295 .

لم يعزل فهد مفهومي الوطنية والأممية عن بعضهما البعض . وربط مشاعر الوطنية بالشعور القومي الإنساني الديمقراطي ، الذي كان ينظر إلى البلدان العربية كوطن واحد ، بيد أنه لم ينظر إلى مجمل المسألة بمعزل عن الموقف الطبقي . وفي نفس المكان الذي تطرقنا إليه قبل قليل ، يقول:

"أحب الطبقة العاملة العراقية وسر مع الطليعة الواعية المناضلة في سبيل أهدافها ، لتكن لك ثقة لا متناهية في نموها عددا وقوة ، في إمكانية تنظيم نفسها واجتذاب الشعب حولها في النضال من أجل أهدافها ، من أجل حياة أرقى وأسعد" . . أيها الرفيق أكره الفاشية . . . . كن أمميا ، دافع عن مبدأ الاخوة بين مختلف الشعوب . " 296 .

وحاول فهد أن يطبق هذه المبادئ ، ليس فقط في كتاباته ، بل وفي خضم الكفاح اليومي ، ولعل الحزب الشيوعي ، هو الحزب العراقي الوحيد الذي جمع في صفوفه كل ألوان الموزائيك العراقي من الأثوريين والأرمن والكلدان والسريان والتركماني واليهود والأكراد ، المسلمين منهم و الإيزيدية وبقية الطوائف الدينية ، والعرب ، السنة والشيعية والصابئة المندائيين ، ولم يخطر ببال العضو في الخلية الحزبية الواحدة أن يسأل رفيقه عن هويته الدينية أو الطائفية . ولما كان للوطنية طابعا اجتماعيا وطبقيا ، لذا فإن فهداً كان يعتبر الجماهير ، التي يهتمها قدر ومصير الوطن ، هي حاملة الروح الوطنية . وانطلاقاً من ذلك أكد النظام الداخلي في المادة الرابعة منه ما يلي:

"تستهدف الطبقة العاملة العراقية ، في نضالها الوطني ، تحقيق السيادة الوطنية والحريات الشعبية والديمقراطية والتقدم والرفاهية لا للعمال وحدهم بل لطبقات الشعب العراقي وأقسامه كافة ، وتستهدف الأخوة الأممية القائمة على مبدأ حق كل شعب من شعوب العالم ، المتقدمة منها والمتأخرة على السواء في استقلاله وسيادته الوطنية ، حقه في استثمار خيراته بلاده في سبيل تقدم وطنه . . . " 297 . وهكذا نرى بأن فهداً لم ينظر إلى المسألة الوطنية وقضية تحرر

294 الفكر الجديد. جريدة يصدرها الحزب الشيوعي العراقي. بغداد. العدد 178. في 14/2/1976. ص 4.

295 فهد. المؤلفات. النظام الداخلي للحزب الشيوعي العراقي. مصدر سابق. ص 181.

296 نفس المصدر السابق. ص 182.

297 نفس المصدر السابق. ص 155.

الوطن بصورة مجردة ، بل كان يعتبرها جزءاً مكملاً للنضال الطبقي ، أي أنه طالما ثمة استغلال طبقي ، فإن مسألة الاستقلال الوطني تبقى ناقصة . إنها بالطبع مسألة غير سهلة لتحقيق التوافق بين الوطنية والأممية بالشكل المطلوب . ومن حيث شئنا أم أبينا ، تبقى مسألة الاستقلال الوطني نسبية بالارتباط مع التطور الذي كان العالم يشهده منذ ذلك الحين في العلاقات الاقتصادية الدولية أو التدويل الاقتصادي للإنتاج والتبادل . إن المهم في مضمون الاستقلال الاقتصادي والسيادة الوطنية يكمن في مدى قدرة البلد المعني على اتخاذ قراراته ورسم سياساته بصورة مستقلة ، مع الأخذ بنظر الاعتبار العلاقات الاقتصادية الدولية المتطورة . ويمكن أن يورد الإنسان العلاقات التي نشأت بين الاتحاد السوفييتي وبقية بلدان المنظومة الاشتراكية الأوروبية على نحو خاص والتي تميزت بذوبان نسبي للاستقلال والسيادة الوطنية لصالح العمل والتعاون الاقتصادي المشترك ، والتي جاءت في أحيان غير قليلة على حساب تلك المجموعة ولصالح الاتحاد السوفييتي ، وأحياناً كان العكس وارداً وإن كان محدوداً ، إذ أن السياسة السوفييتية هي التي كانت تقرر بالمحصلة النهائية سياسات البلدان الأخرى في المنظومة . وهي إحدى الإشكاليات التي نشأت في العلاقة بين الجانب الوطني والأممي والذي لم توفق تلك البلدان في معالجته لصالح تطورها وتعاونها المشترك . وكان للسياسة العسكرية الرأسمالية ، والأمريكية منها على نحو خاص ، من جهة ، والسياسة العسكرية السوفييتية من جهة أخرى تأثيرها البارز على تلك المسيرة .

وينطبق هذا الأمر بشكل أكثر ملموسية على الدول الكبرى في الوقت الحاضر . ومع ذلك فإن الاستقلال النسبي المطلوب يعني قدرة هذا البلد أو ذاك على اتخاذ قراراته الاقتصادية والسياسية بإرادته ووفق مصالحه ، والذي لا يعني بأي حال إهمال العلاقات الاقتصادية والسياسية الدولية المؤثرة والمتأثرة بسياسات البلدان الأخرى . ويبدو أن التشابك بين الاقتصادات الوطنية في عالم العولمة وفي بداية القرن الحادي والعشرين أكثر وضوحاً ، ولكن يفترض هنا عدم الخلط بين العولمة الموضوعية الجارية في العالم ذات الطبيعة الرأسمالية الاستغلالية ، باعتبارها عملية موضوعية مرتبطة بالتطور الهائل الجاري في القوى المنتجة على الصعيد العالمي ، وبين سياسات العولمة التي تمارسها الدول الرأسمالية المتقدمة ، سياسات الليبرالية الجديدة ذات المضمون الاستغلالي الأكثر قسوة ، والتي تريد فرضها بكل السبل على جميع بلدان العالم ، والتي تلحق أضراراً كبيرة باقتصاديات الدول النامية على نحو خاص . وهنا يفترض أن تكون فسحة واضحة بين الاستقلال الاقتصادي والتشابك الاقتصادي بمفهوم استقلال القرار وتعبيره عن المصالح الوطنية للدولة المعنية والشعوب التي تقطنها .

حاول أعداء الفكر الاشتراكي على امتداد العقود المنصرمة اتهام الماركسيين بالكوسموبولوتية ونسيان مصالح أوطانهم ، والركض وراء وهم الأممية ووطن الاشتراكية . إن الحرب الباردة التي انتهت ظاهرياً بسقوط الاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية في أوروبا ، كانت في الحقيقة حرباً طبقية بين الرأسمالية واللا رأسمالية ، هدفها الأساس هو صيانة الرأسمالية العالمية وتثبيت أركانها في كل بقعة من العالم وهكذا تحقق لها ما أرادت . وهنا لا بد من الوقوف عند السؤال التالي: هل انتهت الحرب الباردة فعلاً ، أم أنها ما تزال مستمرة بطرق أخرى؟ وما إذا كانت الولايات المتحدة ستتحمل استمرار وجود الصين الشعبية وبعض الدول الأخرى المحسوبة على الاشتراكية؟ إنها مسألة زمن ومسألة تطور العلم والتكنولوجيا والثورة الصناعية الثالثة ، أي تطور القوى المنتجة ورفع الإنتاجية ، ومسألة كسب الجماهير إلى جانب القضية وتناسب القوى في العالم . إن التهمة التي وجهت للماركسيين والاشتراكيين



والشيوعيين على أنهم كوسموبوليتيين غير صحيحة ، إذ أن الواقع يبرهن يومياً على أن كبار الاحتكارات الرأسمالية الدولية ، أي الشركات المتعددة الجنسية ، وكبار الرأسماليين في العالم هم أكثر الدعاة حماسة للكوسموبوليتية عندما يتعلق الأمر بالتوظيفات وتصدير رؤوس الأموال وتحقيق أقصى الأرباح من الدول الأخرى ، ولكنهم في الوقت نفسه أكثر الناس شوفينية عندما يتعلق الأمر بالهيمنة على الموارد الأولية لصالح بلدانهم واحتكاراتهم الخاصة ، إنها الازدواجية في المعايير التي يطرحونها والسياسات التي يمارسونها والإيديولوجية التي يدافعون عنها تحت واجهة نفي الإيديولوجيات .

يقول إنجلز: "ثمة في حركة الطبقة العاملة أفكار قومية ، ولكن في نفس الوقت هناك أفكار أممية حقيقية" 298 . ومن أجل توضيح هذه المسألة ، ينبغي استنباط النقطتين التاليتين:

1- التنسيق بين الوطنية والأممية في نشاط الشيوعيين وتأثير ذلك على موقفهم الأممي .

2- ربط نشاط الحزب في الإطار الوطني بموقفه تجاه الحدث الأممي .

وهنا يتعلق الأمر بالدرجة الأولى بالربط بين العام والخاص في مجال النشاط الوطني للحزب الشيوعي ، أو بمعنى آخر مدى أخذ الأحزاب الشيوعية للخصائص القومية والحقائق الملموسة بنظر الاعتبار عند تطبيق المبادئ العامة للماركسية في البلد المعني 299 .

إن متابعة مجمل نشاط فهد في هذا المجال ، وربط موقفه بقرارات مكتب سكرتارية الأممية الشيوعية في إطار التقيد والالتزام بشروط العضوية في الكومنترن ، سيجد القارئ أن كفة الأممية في ميزان معادلة الوطنية والأممية كانت لصالح الأممية . وكانت هذه النقطة بالنسبة إلى فهد أهم بكثير من أي نقطة أخرى . وبرزت هذه الحقيقة في الموقف من الحرب العالمية الثانية في الفترة التي لم يكن هتلر قد توجه ضد الاتحاد السوفييتي ، والذي تجلى في الوقت نفسه في موقف الحزب من حركة رشيد عالي ، ثم تغير هذا الموقف بعد تغير موقف الاتحاد السوفييتي من الحرب وهجوم القوات الألمانية على الاتحاد السوفييتي . ولما كانت الأممية قد أصبحت منذ العام 1928 أداة بيد ستالين بعد إزاحة قادتها الفعليين من أمثال زينوفيف وبوخارين ، نرى أن كلمة الأممية قد فقدت محتواها الحقيقي وتحولت إلى دبلوماسية المصالح السوفييتية ، فتحولت الأحزاب الشيوعية وقادتها ، بهذا القدر أو ذاك وفي هذا البلد أو ذاك ، إلى قوى سياسية تعمل لصالح السياسة السوفييتية ، باعتبارها "حصن الاشتراكية وحصن السلام المنيع" . وشكل حل الكومنترن بقرار من ستالين جزءاً من هذه السياسة . \* وأدى هذا إلى خروج العديد من الأحزاب الشيوعية من دائرة العمل السوفييتي . ولكن هذه المسألة لم تكن واضحة حينذاك بالشكل الذي نتحدث عنه اليوم ، ولذلك فإن فهداً كان مقتنعاً تمام الاقتناع بأن تلك المواقف كانت لا تخدم القضية الأممية فحسب ، بل والقضية الوطنية ، وأن المسألة

298 Engels, F. Engels an Genanaro Bovio. 10.04.1872. In: Marx Engels Werke. B. 33. Dietz Verlag. Berlin. 1960. S. 444.

299 Sagladin. Die Internationale Kommunistische Bewegung. Berlin. 1984. S. 550.

\* حول حل الأممية الشيوعية من قبل جوزيف ستالين ، يقول ديمتروف في مذكراته ما يلي:  
1943/5/21 "

اجتماع المكتب السياسي في غرفة ستالين. بالإضافة إلى أعضاء ومرشحي المكتب كان ماتوليسكي وأنا موجودين. مولوتوف قرأ قرار المكتب التنفيذي للأممية الشيوعية بخصوص حل الأممية.

قال كالينين إن الأعداء سوف يستغلون هذا الإجراء. يمكن نقل الأممية إلى مكان آخر ، لندن مثلاً. (ضحك) وأوضح ستالين قائلًا: إن فترة ماركس ولينين وحتى وقتنا هذا قد أثبت بأنه لمسألة مستحيلة قيادة الحركة العمالية في جميع البلدان من مركز أممي واحد. ولاسيما في ظرفنا هذا ، حيث أجواء الحرب المهيمنة . . . إننا عندما أسسنا الأممية أخطأنا في تقدير قوانا ، وكان منطلقنا هو أننا نستطيع قيادة الحركة في جميع الدول. كان هذا خطأنا. إن بقاء الأممية الشيوعية سيؤدي إلى الحط من قيمة فكرة الأممية ، وهذا ما لا نريده. ... " راجع في هذا الصدد:

Dimitroff, G. Tagebuecher 1933-1943. Berlin. 2000. S. 694-695.

المركزية كانت تتمحور حول الدفاع عن وطن الاشتراكية الأول ، الاتحاد السوفييتي ووطن جميع الشيوعيين في العالم .

ورغم حل الكومنترن ، فإن شروطها بقيت نافذة المفعول حتى إلى يوم سقوط الاتحاد السوفييتي بالنسبة للعلاقات بين الغالبية العظمى من الأحزاب الشيوعية والحزب الشيوعي السوفييتي . وأصبح المحك لجدارة أي حزب شيوعي ، هو مدى إخلاصه اللامتناهي للحزب الشيوعي السوفييتي والاعتراف به كطليعة قادة للحركة الشيوعية العالمية . وأي حزب يخالف ذلك كان يعتبر حزباً انتهازياً ، تحريفياً ومارقاً وخارجاً عن جادة الماركسية-اللينينية .

ولا بد في نهاية هذه الفقرة أن نشير إلى بداية النص المقتطف من محاكمة فهد حول الوطني والشيوعي . يشوب الإنسان شعوراً بأنه إذا ما قرأ هذا النص أي وطني عراقي غير شيوعي سيشعر وكأن الشيوعي يريد أن يقول له: أنا أكثر منك شعوراً بالمسؤولية إزاء الوطن وقضايا الشعب من جهة ، كما أن الشيوعي ، عندما يقرأ هذا النص سيشعر وكأنه أكثر وطنية من الإنسان الوطني الآخر غير الشيوعي من جهة أخرى . وهذه المقارنة كانت وما تزال تثير الناس من غير الشيوعيين ، إذ أنها لم تبقى في هذا الإطار فحسب ، بل أصبح الشيوعي يشعر وكأنه أكثر عمقاً ووعياً وأكثر صواباً في أفكاره وسياساته من الآخرين ، وأنه يمتلك الحقيقة كلها بفعل نظريته العلمية . وكان الشيوعيون متأثرين وفخورين بالمقولة الخاطئة التي روجها ستالين في صفوف الحركة الشيوعية العالمية والقائلة بأن "الشيوعيين جبلوا من طينة خاصة" . وهذا التقدير ليس فقط خاطئاً فحسب ، بل وخطراً أيضاً ومتقاطعاً مع النظرية العلمية ، أو المادية الديالكتيكية والتاريخية التي يفترض أن يحملها الشيوعي وأن يستخدمها في تحليل الظواهر الجارية في حياة المجتمع . وكان زكي خيري صادقاً ومصيباً في ذلك عندما كتب يقول: "إن مقولة ستالين بأن "الشيوعيين جبلوا من طينة خاصة" لا أساس لها في الواقع . فكل نقاط ضعف النفس البشرية موجودة عند الشيوعي" 300 ، ولكن زكي خيري أخطأ أيضاً عندما ميز الشيوعي بقوله: ، وليس لديه (أي لدى الشيوعي) إلا مزية واحدة تميزه وهي الاستعداد الأكثر للتضحية" 301 . إن الاستعداد الأكثر للتضحية لا نجده عند الشيوعي فحسب ، بل وعند كل المؤمنين بالأديان وأصحاب الفكر والرأي السياسي الآخرين . وتاريخ العراق وحده حافل بهذه الحقيقة ، إضافة إلى وقائع نضال الشعوب الأخرى . إن الصمود والتصدي والتضحية سمات فردية يمكن أن يتصف بها كل إنسان ، إلا أنها تخضع لظروف وعوامل ومستلزمات كثيرة ، وهي تمس المؤمن وغير المؤمن ، أي الإنسان العالم المالك للمعرفة العلمية الذي يدافع عن حقه في امتلاك العلم والمعرفة والعمل وفقهما ، وكذلك الإنسان المؤمن المالك لحقه في الاعتقاد وممارسة العبادة أو الدفاع عن مثله وقيمه . إن مقولة فهد الأنفة الذكر يفترض أن تؤخذ في إطار المرحلة التي طرحها والمحاكمة التي كانت تجري له ، إذ أنه كان متهماً بالابتعاد عن الوطنية وخدمة الشيوعية التي كانت تعني بالنسبة للمدعي العام والحاكم والحكام خدمة الاتحاد السوفييتي وجملة من المحرمات غير الصحيحة . لهذا كان رد فعل فهد قوياً وصارماً وقاطعاً كعادته في مثل تلك المواقف . ولا يحق للشيوعي أن يستخدم هذا المقتطف في كل زمان ومكان وكأن الشيوعي أفضل من غيره في النضال الوطني لأنه ينتمي إلى الفكر الماركسي والحزب الشيوعي . إن في هذا تمييز غير مقبول . وإذا قبلنا به فعلياً أن نقبل بالتمييز الذي يحس به المسلم إزاء المسيحي أو العكس أيضاً أو اليهودي إزاء المسلم

300 خيري ، زكي. صدى السنين.. مصدر سابق. ص 136.

301 نفس المصدر السابق. ص 136.

والمسيحي والعكس أيضاً ، أو الإنسان الأبيض إزاء الإنسان الأسود والعكس أيضاً ، أو العربي إزاء الأعجمي غير العربي أو العكس أيضاً . وهي تدخل ضمن المحرمات الإنسانية السليمة للأمم المتحدة و ضد مفهوم حقوق الإنسان ، أيا كان شكل التمييز . وما زال عالمنا المعاصر يواجه شتى أنواع التمييز الموروثة والجديدة . وليس هناك أدل على التمييز بصورة القديمة ما جاء في التوراة عن اليهود في كونهم "شعب الله المختار" أو ما جاء في القرآن في قوله عن العرب "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر" . ونحن نواجه اليوم استمرار التمييز في الولايات المتحدة الأمريكية وفي أوروبا أو في غيرها بين الأسود والأبيض وبين الأوروبي والآسيوي أو الأفريقي ، أو التمييز في العالم العربي والإسلامي بين المرأة والرجل لصالح الرجل أو التمييز إزاء المعوقين من الناس . وإذا كان اليهود قد واجهوا التمييز في الكثير من بقاع العالم ، فإن العرب ، وكذا المسلمين ، يواجهون تمييزاً من نوع جديد في الولايات المتحدة الأمريكية وفي أوروبا ، بسبب التهم التي وجهت لمجموعة من العرب المسلمين الأصوليين المتطرفين والمتعصبين دينياً الذين فقدوا الثقة بشعوبهم وبنضالها العادل وتحولوا إلى عصابات إرهابية تريد قتل المسيحيين واليهود أينما كانوا ، في حين أنهم يتسببون في قتل العرب والمسلمين ، كما حصل في أفغانستان أو كما فعلوا ويفعلون في الجزائر ، في الكوارث التي وقعت في نيويورك وواشنطن في الحادي عشر من سبتمبر/أيلول عام 2001 .

إن الاحترام الذي يحظى به هذا الإنسان المناضل أو ذاك ، أو هذا الحزب أو ذاك ، يفترض أن لا يرتبط بفكر الإنسان ، بل بممارساته وفق ذلك الفكر ، بمدى استعداده للعمل في سبيل القضايا التي تهم مصالح الشعب اليومية والمستقبلية ، وبالتالي بقدر استعداد الجماهير لمنح ثقتهم به أو بغيره و بانتخابه في انتخابات عامة حرة ونزيهة وعادلة . وليست هناك من مزية لهذا الإنسان أو ذاك سوى ثقة الناس به واحترامهم له .

## الفصل الثاني : المسألة الكردية في العراق

شكلت المسألة الكردية إحدى القضايا الساخنة في السياسة العراقية على امتداد الفترة الواقعة بعد سقوط الولايات الثلاث ، بغداد والبصرة والموصل 302 ، تحت السيطرة البريطانية حتى الوقت الحاضر . وعلى امتداد الفترة موضوع البحث خاض الشعب الكردي في كردستان العراق نضالات شاقة وقدم تضحيات غالية وكبيرة من أجل تحقيق الديمقراطية في العراق والحقوق القومية العادلة لكردستان العراق . كما تمتع الشعب الكردي بشكل عام بتأييد واسع من جانب الفصائل الديمقراطية والقوى اليسارية على وجه الخصوص في الحركة الوطنية العراقية . وارتبط نضال الشعبين الكردي والعربي والأقليات القومية والدينية الأخرى من أجل الاستقلال والسيادة للعراق والديمقراطية والمساواة لمواطنيه بغض النظر عن القومية والجنس واللغة والدين والطائفة التي ينتمي إليها الإنسان العراقي . ولكن هذه المساواة المدنية العامة في الحقوق التي تتضمنها كل الدساتير الديمقراطية الحديثة منذ الثورة الفرنسية التي نادى بشعاراتها الثلاثة الشهيرة " الحرية والإخاء والمساواة " ما كان لها أن تعوض الشعب الكردي عن حقوقه القومية العادلة في كردستان العراق .

كان للحزب الشيوعي العراقي منذ أوائل تأسيسه موقفاً واضحاً من المسألة الكردية طرحته قيادة الحزب في جريدة الحزب المركزية "كفاح الشعب" في النصف الأول من عام 1935 ، حيث ورد في المطلب الأول ضمن مجموعة من المطالب الأساسية لتلك المرحلة ما يلي:

" (1) طرد المستعمرين ، وضمان حرية الشعب والاستقلال الكامل للأكراد وضمان الحقوق الثقافية ... لكل الأقليات العراقية " 303 .

ومع أن الحزب لم يبلغ هذا الشعار في أي من وثائقه اللاحقة ، فإنه لم يتكرر ولم يطرح مرة أخرى وبهذا الوضوح والصراحة إلا في عام 1945 ، حيث أشير إليه بصيغة جديدة أخرى في جريدة القاعدة في عام 1945 .

وعند إجراء مقارنة بين برنامج الحزب الشيوعي العراقي وبرامج الأحزاب الشيوعية الأخرى في الدول التي توزعت كردستان عليها وفق معاهدة سايكس - بيكو (1916) البريطانية - الفرنسية والتي هي - حسب تسلسل سعة مساحة أجزاء كردستان وكثافة السكان الأكراد تكون تركيا ، إيران ، العراق وسورية وبعض المناطق السوفيتية سابقاً على التوالي ، يجد الإنسان بأن الحزب الشيوعي العراقي كان وما يزال الحزب الأول والوحيد الذي أبدى اهتماماً استثنائياً ومبكراً بهذه المسألة التي شهدت تعقيدات أكثر في مجرى القرن العشرين المنصرم . ففي المادة العاشرة من الميثاق الوطني الذي أقره الكونغرس الحزبي الأول في العام 1944 يجد القارئ ما يلي:

"نناضل في سبيل إيجاد مساواة حقيقية في الحقوق للأقلية القومية الكردية مع مراعاة حقوق الجماعات القومية والجنسية الصغيرة كالتركمان والأرمن واليزيدية" 304 .

وجرى تطوير هذه الالتفاتة الثانية ، التي لم تتناول خصوصية المسألة الكردية ، مع تصاعد وتنامي الحركة الكردية بمرور الزمن . ففي التقرير الذي ألقاه فهد في المؤتمر الوطني الأول

302 كانت ولاية الموصل تضم في إطارها في فترة الحكم العثماني قبل سقوطها تحت الاحتلال البريطاني مدن الموصل والسليمانية وأربيل وكركوك، أي الموصل زانداً كردستان الجنوبية. وقد ضمت إلى الدولة العراقية الحديثة التي تأسست في عام 1021، في عام 1925 بعد أن حسمت قضية ولاية الموصل في عصبة الأمم لصالح العراق ضد طلب تركيا بضمها إليها.

303 كفاح الشعب، العدد الثاني، 1935. في: بطاطو ، حنا د. العراق. الكتاب الثاني. الحزب الشيوعي. مصدر سابق. ص 90.

304 يوسف سلمان يوسف (فهد). كتابات فهد. النظام الداخلي. مصدر سابق. ص 135.

عام 1945 ، وفي مجرى تحليله للمنافسات المصلحية بين بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية ، حذر الحركة الكردية من الإرتجار وراء الوعود الاستعمارية ، إذ كتب يقول:

"وأمر آخر خطير أود تنبيه حزبنا إليه هو التنافس الاستعماري في بلادنا بين الإنكليز والأمريكان . إن التنافس الاستعماري الأمريكي الذي ظهر منذ أكثر من سنة بشكل اقتصادي - الاستحواذ على مصادر نفطية في بلاد العرب - ثم الدفاع عن القضية الصهيونية يظهر الآن بشكل جديد . فالأمريكان يريدون الآن أن يوجدوا لهم قاعدة اجتماعية في العراق . يريدون أن يستغلوا وضع الأكراد ويجعلوا منهم قاعدة اجتماعية لهم . لقد جاء العراق مؤخرًا المستر هارولد الصحافي الأمريكي وأخذ هذا يتصل بالشخصيات الكردية وبدأت المساومات بينهم وبينه وبدأ يعطي الوعود الاستعمارية للأكراد بتوحيد المناطق الكردية وما أشبهه .

إننا ننبه إخواننا الأكراد إلى أن قضيتهم الوطنية مرتبطة بقضية العراق التحررية وأن حرية الأكراد في العراق لا تأتيهم عن طريق الوعود الاستعمارية من هذا المستر أو ذاك بل بالنضال المشترك مع العرب من أجل استكمال استقلال العراق .

إن حزبنا يدعو إلى الصداقة العربية الكردية ، إلى النضال المشترك من أجل قضية العرب والأكراد على السواء"305 . (الحروف الداكنة من وضع فهد)

نلاحظ أن الالتفاتة هذه المرة تختلف اختلافًا كلياً عما سبق ذكره قبل عام ، حيث يعالج فهد المسألة الكردية هذه المرة كقضية وطنية كردية خاصة لها أبعادها وامتداداتها الخارجية وخطر استغلالها من قبل الاستعماريين على وحدة العراق ونضال الشعبين المشترك . وكان فهد في خشيته تلك يشير إلى الحركة الكردية البارزانية التي امتدت حتى عام 1946 التي لم تكن بأي حال بوحى من الخارج ، بل كانت تطالب بحقوق قومية عادلة

ويضع فهد خطة ، ليس من أجل التحرك الدعائي ، بل التنظيمي أيضاً في صفوف الأكراد ، وهكذا نرى بأن النظام الداخلي الصادر عن نفس المؤتمر ، يتطرق إلى هذا الموضوع كما يلي:

"المادة-6- إن الحزب الشيوعي العراقي متكون من المنظمات الشيوعية التالية:

فرع الحزب الشيوعي العراقي الكردي (في دور التكوين) .

فرع الحزب الشيوعي العراقي الأرمني .

لجنة بغداد المحلية وملحقاتها .

لجنة المنطقة الجنوبية المؤلفة من ثلاث لجان محلية في ثلاثة ألوية .

اللجان التابعة مباشرة للجنة المركزية .

اللجان المحلية ومنظمات المدن الممثلة في مؤتمر الحزب الوطني الأول .

الأعضاء الحزبيين في الأماكن التي لا توجد فيها منظمات حزبية"306 .

ونرى أنه رغم كون التنظيم الكردي كان في دور التكوين ، إلا أنه أعطاه الأولوية في الترتيب . والسبب نجده في الباب الثالث ، المادة-27- من نفس النظام الداخلي:

"فرع الحزب الشيوعي العراقي": بالنظر لما يلايس ظروف الأكراد والأرمن من اختلاف لغاتهم مع لغة الأكثرية العراقية واختلاف البيئة والوضع الجغرافي عند الأكراد ولغرض توسيع الحركة الثورية بين الجماهير الكردية والأرمنية وجرها للنزول إلى ميدان التحرر الوطني جنباً إلى جنب مع العرب الذين يؤلفون الأكثرية في القطر ، يولف كل من الأكراد والأرمن (في المستقبل التركمان والآثوريين) فرعا للحزب الشيوعي العراقي ، ولكل من هذه

305 نفس المصدر السابق. تقرير الرفيق فهد حول الوضع العالمي والداخلي. ص 144.

306 يوسف سلمان يوسف (فهد). كتابات فهد. النظام الداخلي لحزب الشيوعي العراقي. مصدر سابق. ص 158.

الفروع خطته السياسية والتعبوية التي لا تتعارض وخطط الحزب العامة ونظامه الداخلي الخاص الذي يستمد أصوله من هذا النظام مطبقة على ظروف ذلك الفرع ، ولكل من هذه الفروع جريدته التي هي لسان حاله"307 .

ولم يرد في التقرير السياسي الذي قدمه فهد إلى المؤتمر الأول (الكونفرنس) في عام 1944 أي ذكر للقضية الكردية والمشكلات التي كانت تواجه الشعب الكردي ، وكانت المعالجات عامة تمس الشعب العراقي بكل قومياته وأديانه وطوائفه ، علماً بأن الوضع في كردستان في فترة الحرب العالمية الثانية لم يكن هادئاً ، إذ كانت منطقة بارزان في نضال وتحرك مستمرين . وفي المؤتمر الوطني الأول الذي عقد في عام 1945 تطرق فهد في تقريره السياسي إلى القضية من منطلق التحذير للقوى الكردية من الاعتماد على القوى الإمبريالية في نضالها من أجل حقوقها ، وهو ما أشرنا إليه سابقاً . ولكن الكونفرنس والمؤتمر صاغاً مسألتين في ما يخص الشعب الكردي دون أن يحصل حولهما نقاش ، إحداهما تضمنها الميثاق الوطني ، والثانية تضمنها النظام الداخلي للحزب . ولم ينشر فهد مقالات كثيرة أو يتعرض كثيراً للمسألة الكردية . إلا أن المقالات التي تطرق فيها للمسألة الكردية ، وهي قليلة ، كانت تشهد عملية تطور تدريجي وتحسن الصيغ بشأنها تدريجاً ، رغم أنها لم تصل إلى حد طرح الموقف الماركسي بشأن القوميات والأقليات القومية ، أي الحق في تقرير المصير .

جاء في المذكرة التي وجهها فهد باسمه ، باعتباره السكرتير العام للحزب الشيوعي العراقي بتاريخ 1945-11-21 ، ما يلي: إلى رئيس الدولة العراقية ومجلس الأمة ، رؤساء الدول الكبرى ، بريطانيا العظمى ، الولايات المتحدة ، اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ، بواسطة سفرائها ووزرائها المفوضين في بغداد ، رؤساء الدول العربية ، مصر ، سوريا ، ولبنان . بواسطة ممثلها في بغداد ، احتجاج الحزب ضد الحكومة العراقية وضد حليفها بريطانيا العظمى لسلوكهما المخالف والبعيد كل البعد عن القواعد والمبادئ الديمقراطية ، حيث منح فهد القضية الكردية اهتماماً خاصاً ، إذ كتب يقول:

"موقفنا من الشعب الكردي: إن الحكومة العراقية تصم آذانها من شكاوي الشعب الكردي وطلباته في الإصلاح . إنها تدع الجوع يجتاح قراهم ، تحبس عنهم حقوقهم الدستورية (كما تحبسها طبعا عن الشعب العربي) لا تهتم بأمر تثقيفهم كما يريدون ولا بأمر رفع مستواهم الاقتصادي وغيره ، تغمض عينها وتصم آذانها عن نشاط عملاء الاستعمار ودعايتهم بين الأكراد وتقوم هي بنفسها بمثل ذلك النشاط والدعاية وتشجع الروح الشوفينية عند العرب وخصوصاً بين أفراد الجيش ثم تسوق الجيش والشرطة في (حملات تاديبية) كما تسميها ضد القبائل الكردية ثم تحولها إلى حملات تاديبية ضد الشعب الكردي بأسره وبصورة خاصة ضد طالبي الإصلاح الديمقراطي فتنتشر الإرهاب وتعلن الأحكام العرفية وتملأ السجون بالمواطنين الأكراد كما هو جار الآن في المناطق الكردية . (الحروف الداكنة من وضع فهد-المؤلفان) إن سلوك الحكومة العراقية وحليفها الحكومة البريطانية تجاه الشعب الكردي لا تتفق وأبسط مبادئ الحق والعدالة ومنافية لحقوق الأكراد الذين يؤلفون ربع سكان العراق ولهم الحق في التمتع بالحريات الدستورية والديمقراطية وبحرياتهم الشخصية وبحرمة قراهم وبيوتهم ولهم كذلك أن يطالبوا ويسعوا لرفع مستواهم الاقتصادي والثقافي والصحي والاجتماعي ، فمحاوله الحكومة العراقية حكم الشعب الكردي بالعنف والإكراه ، ومنعه عن المطالبة بحقوقه أمر لا يتفق ومصالحة الوحدة الوطنية التي ينشدها الشعب العراقي-عرباً وأكراداً- ومخالفة تماماً

لتصريحات قادة الأمم المتحدة المحبة للحرية وللمبادئ التي حاربت وضحت من أجلها الشعوب" 308 . ويختتم المذكرة بالمطالب التالية:

"(1) إلغاء القوانين الاستثنائية والرجعية ، والمحاكم العرفية والإدارية ، التي تقيد حريات المواطنين .

(2) إطلاق سراح المعتقلين السياسيين ، عسكريين ومدنيين ، أولئك الذين اتهموا بالشيوعية أو الوطنية بمفهومها الصحيح والذين اعتقلوا بحوادث حركة بارزان وغيرها .

(3) نظام حكم ديمقراطي" 309 .

يلاحظ المتتبع بأن موقف فهد من المسألة الكردية ، بغض النظر عن نوعية المطالب والحلول ، قد اتخذ في كل مرة نوعية جديدة متطورة . إذ حلت عبارة الشعب الكردي محل الأقلية الكردية ، وعبارتي الوحدة الوطنية والأخوة العربية-الكردية وضعنا إلى جانب الاستقلال الوطني ، كما دخل مطلب إطلاق سراح المشاركين في حركة بارزان ، ضمن المطالب الرئيسية . ورغم كل ذلك بقيت المطالب لا تخرج عن إطار المساواة المدنية مع باقي المواطنين العراقيين ، دون الالتفات إلى مسألة حق الأكراد في الحكم اللامركزي أو الذاتي ، رغم إقرار المذكرة بأن الأكراد يشكلون ربع سكان العراق ، ورغم إقرار النظام الداخلي بوجود خصوصية بينية وجغرافية ولغوية للأكراد ، والتي تعني في الواقع خصوصية قومية .

وتجدر هنا الإشارة إلى أن طبيعة الحكم في العهد البائد ، كانت مزيجاً من الرؤية الكوسموبوليتية المضببة والقومية ، لكنها كانت أقل شوفينية وتعصباً قومياً ودينياً وطائفياً من الحكومات التي وصلت إلى دست الحكم منذ انقلاب 8 شباط/فبراير من عام 1963 . وكان التمييز موجوداً بين العرب والكرد وبين المسلمين والمسيحيين أو غيرهم ، أو بين الطوائف الدينية في الإسلام ، إلا أن النظام كان يحاول تحقيق بعض الموازنة لتفادي السقوط في هوة العنصرية والتعصب الديني المقيت . وكان الولاء المطلق للتاج وسياسة الحكم كفيل بإيصال البعض من مختلف القوميات والأديان والطوائف إلى المراتب العليا في أجهزة الدولة المختلفة . ولكن يفترض أن لا ينسى الإنسان ، وبعد مرور سنوات طويلة على تلك السياسة ، بأن الحكم كان وراء تضييق قبول الطلبة الأكراد وغيرهم في الكلية العسكرية وكلية الشرطة أو في أجهزة الأمن أو في السلك الدبلوماسي ، أو حتى في الوظائف العليا في الدولة . وكانت نسبتهم محدودة جداً بالقياس إلى نسبتهم إلى إجمالي السكان في العراق . وشمل هذا الواقع التمييزي الجوانب الدينية والطائفية أيضاً . وكانت خلافاً كبيراً في السياسة العراقية ، ولكنها ، مع ذلك ، كانت أقل قسوة من تلك السياسات التي مارستها الحكومات البعثية والقومية المتعاقبة . ولكن علينا أن لا ننسى بأن الحكم الملكي هو الذي قدم النموذج السيئ في التعامل مع القوميات الأخرى غير العربية ومع أتباع الديانات الأخرى ومع الطوائف الأخرى غير السنية ، وبالتالي هو الذي بدأ السير في درب التمييز بين الناس . إن مجرد المطالبة بمساواة الأكراد والأقليات القومية والدينية بالعرب أمام الدستور وبالواقع العملي لم يكن حلاً ملموساً للحركة الكردية التي كانت قبل عقدين من ذلك التاريخ تطمح في تشكيل دولتها الكردية والتي سبق أن تطرقنا إليها في مكان آخر من هذا الكتاب . ويبدو أن هذه الحقيقة كانت واضحة أيضاً لفهد ، إذ أنه لم يقل اعتباراً: (تحبس عنهم - أي عن الأكراد- حقوقهم الدستورية ) كما تحبسها طبعاً عن الشعب العربي" . ولعل هذا الموقف كان من بين الأسباب التي جعلت جمهرة من الأكراد تنظر إلى

308 نفس المصدر السابق. مذكرة الحزب الشيوعي العراقي إلى رئيس الدولة العراقية ومجلس الأمة. بتاريخ 1945/11/12. ص315/314.

309 نفس المصدر السابق. ص 323/322.

الحزب بحذر ولا تجد موقعا لها في داخل الحزب حتى ذلك التاريخ . كما لعب موقف الحزب من احتكار التسمية بالحزب الماركسي أو الحزب اللينيني أو الشيوعية ، تمسكاً بالخط الأمامي الرفض لكل تبني من قوى أخرى للماركسية والشيوعية معتبراً إياهما حكراً له ، دوراً بارزاً في خوض صراعات غير قليلة وحادة مع قوى سياسية كردية شكلت تنظيمات لها باسم الماركسية أو الشيوعية ، أدت إلى نتائج سلبية ، بما فيها حل تلك التنظيمات واندماجها بأحزاب سياسية أخرى ، منها الحزب الديمقراطي الكردي أو الحزب الشيوعي العراقي ذاته . ولم تكن هذه الظاهرة مقتصرة على الجماعات الكردية ، بل شملت الجماعات العربية أو المختلطة التي تبنت الماركسية أو الشيوعية كقاعدة فكرية وسياسية لنشاطها في الساحة السياسية العراقية ، والتي أشرنا إليها في مكان آخر من هذا الكتاب . وكان فهد بطبيعة الحال يقود هذا الصراع ويوجهه ، باعتبار أن هؤلاء يتجاوزون على الماركسية والشيوعية وعلى الحزب الشيوعي الممثل الشرعي والوحيد للماركسية واللينينية والشيوعية في العراق . ويمكن أن نجد صورة ذلك جلية في "كراس حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية" وفي عدد من المقالات الأخرى التي نشرت في صحافة الحزب حينذاك .

وانطلاقاً من فهمه لأبعاد القضية القومية الكردية وامتداداتها في أجزاء كردستان الأخرى والتجارب التاريخية السيئة التي حولت في فترات كثيرة هذه القضية الحساسة إلى لعبة بأيدي الدول العظمى لتحقيق مصالحها الخاصة في المنطقة ، واقتراً بما يحمله ذلك من مخاطر جمة على وحدة الدولة العراقية الناشئة ، دعت فهد النظر إلى هذه المسألة باهتمام أكبر ورؤيتها وفق خلفية نظرية وتاريخية وضمن عملية بنسفة الحزب في إطار الحل اللينيني للمسألة القومية . عالج فهد هذه المسألة المعقدة في مقالتين مفصلتين ، الأولى بعنوان: "كيف حل السوفييت المشكلة الوطنية؟" ، والثانية بعنوان: "الحل الاشتراكي للمسألة الوطنية" . وكانت المساهمتان ضمن مقالة أوسع كتبت تحت عنوان: "الذكرى السادسة والعشرون لثورة أكتوبر الاشتراكية المجيدة . تحية الحزب الشيوعي العراقي إلى شعوب الاتحاد السوفييتي" 310 .

بدءاً لا بد لنا من الإشارة إلى أن المقصود بالمسألة الوطنية عند فهد هي المشكلة القومية ، ذلك أنه يكتفي بذكر مفهوم (الوطنية) في العناوين فقط . ويقول: "استمرت المشكلة القومية مشكلة معقدة لا تقبل الحل بالرغم من كثرة الوصفات التي قدمها أطباء الاجتماع فمنهم من قال بوجود إدماج القوميات الصغيرة والقوميات التابعة عموماً بالمتروبول . وعلى هذه السياسة تمشت روسيا القيصرية محرمة على الأقوام المتعددة استعمال لغاتها في المدارس والمؤسسات كافة ، وعمدت إلى تنصير بعض أطفال اليهود وغيرهم محاولة بذلك تنسية تلك الشعوب قوميتها وطمس معالم تاريخها وثقافتها القومية ، وعلى هذه الطريقة تمشت الدولة العثمانية بعد إعلان الدستور محاولة تترك العرب والأكراد بفتح بضعة مدارس لهم لتدريسهم اللغة التركية الحالية . وحكومة إيران تتمشى على تلك السياسة تجاه الأكراد وتجاه الأقليات القومية التي تبقت تحت ظل حكمها ، وأتبع فرنسا هذه السياسة في شمال أفريقيا كما أتبعها إيطاليا في طرابلس وبرقة مضيئة إليها سياسة إفناء سكان البلاد الأصليين وإحلال إيطاليين محلهم ، وبالرغم من وسائل الإرهاب الوحشية التي استعملت لتنفيذ هذه السياسة فإنها لم تستطع تحويل العرب أتراكاً ولا فرنسيين ولا طلياناً . ولم تحول التتر روسيا ولا الأكراد أتراكاً وسوف لا تستطيع تحويلهم عرباً" 311 .

310 نفس المصدر السابق. الذكرى السادسة والعشرون لثورة أكتوبر الاشتراكية المجيدة. ص 337-393.

311 نفس المصدر السابق. الذكرى السادسة والعشرون لثورة أكتوبر الاشتراكية المجيدة. ص 385/386.



وبعد أن يتطرق فهد إلى سياسة "القوميين" العراقيين الذين يسميهم بخدام هتلر ، وكيف أنهم يريدون تطبيق نفس السياسة في العراق وذلك بتصفية العناصر غير العربية والتخلص منها ، يعرج إلى الحل "الاشتراكي" فيكتب قائلاً: "أما "الحل الاشتراكي" الذي جاء به أبطال الأممية الثانية لحل المسألة القومية فينحصر في إعطاء القوميات الأوروبية المحكومة حقها في الاستقلال الثقافي واستعمال لغاتها ، أما شعوب المستعمرات فيجب أن تبقى مستعمرات ، حتى في ظل "نظامهم الاشتراكي العتيد" ، وحجتهم في ذلك أن الاشتراكية تقوم على الصناعة والصناعة تحتاج إلى الخامات وهذه الخامات موجودة في المستعمرات إذن فلا مفر من بقاء المستعمرات في حوزة الدول الإمبريالية التي ستتحول فيما بعد إلى الاشتراكية" 312 . ولم يكن فهد بحاجة إلى كبير عناء ليبرهن على صحة ما يقوله في هذا الصدد ، إذ أن سياسات حكومة العمال في بريطانيا إزاء مستعمراتها ، سواء في الهند أم أفريقيا ، التي لم تختلف عن سياسة حزب المحافظين ، وكذلك سياسات فرنسا التي مارسها الحزب الاشتراكي الفرنسي إزاء الدول المغاربية ، في الجزائر على نحو خاص ، وبشكل أخف في كل من تونس والمغرب ، على سبيل المثال لا الحصر تؤكد ذلك . إلا أن أحزاب الاشتراكية الديمقراطية ، الأممية الثانية ، لم تكن دون صراعات في داخلها وكان الجناح اليساري منها قد رفض تلك الاتجاهات اليمينية ذات الطبيعة الاستعمارية . ولعب الانقسام المتواصل والاستقطاب بين الحركة الشيوعية والحركة الاشتراكية دوره البارز في تعميق وتكريس الاتجاهات اليمينية في الحركة الاشتراكية والاتجاهات اليسارية في الحركة الشيوعية ، بحيث أصبح اللقاء بينهما مستحيلاً . وبرز ذلك بشكل صارخ ومضر جداً في الموقف من صعود النازية الفاشية إلى دست الحكم في ألمانيا في عام 1933 ، حيث تعذر تحقيق أي تعاون بين الحزب الشيوعي الألماني والحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني ، رغم أنهما كانا يمتلكان الأكثرية في الدورة البرلمانية التي سبقت وصول الحزب النازي إلى السلطة في آذار من عام 1933 .

أصبح الحوار بين الأمميتين شبيهاً بحوار الطرشان ، بعد أن طرح ستالين موضوعه الشهيرة القائلة بأن الفاشية والاشتراكية الديمقراطية توأمان ، وهي مقولة ليست خاطئة وخطرة فحسب ، رغم معرفتنا بوجود جناح يميني شوفيني في الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية حينذاك ، بل وأدت إلى تعميق الفجوة بين أحزاب الحركة العمالية العالمية مما ساعد على استفادة القوى الأخرى منها . إن نقد هذه الحالة يهدف إلى تجنب تكراره والتعلم من هذا الدرس الثمين الذي كلف العالم الكثير من الضحايا البشرية والخسائر المادية والحضارية الكبيرة . أي يتطلب هذا الأمر منا جميعاً إعادة النظر بالماضي باعتباره تجربة غنية وقاسية بالنسبة للحركة العمالية العالمية التي لا بد أن تستفيد منها في مستقبل الأيام .

ويبدو مفيداً في هذا الصدد أن نشير إلى مثل واحد مهم يجسد أهمية الحوار الهادئ بين قوى الحركة العمالية وقادتها في الوصول إلى رؤية مشتركة أو متقاربة حول القضايا المطروحة للحوار دون الغوص بالمهارات غير المفيدة وغير الضرورية التي تجلب الضرر للجميع . في فترة وجود فريدريك إنجلز على قيد الحياة وبعد وفاة كارل ماركس دار حوار هادئ وورصين داخل الأممية الاشتراكية حول المسائل الأساسية لنظرية الثورة . ففي أعقاب صدور كتاب "الثورة الاجتماعية" لكاوتسكي الذي أكد فيه ضرورة التحضير لاستيلاء الطبقة العاملة على السلطة ، اعتبره فيكتور أدلر (خياليا) . وأما إنجلز فكتب على أثر وفاة ماركس رسالة إلى

كاوتسكي يواسيه فيها بمناسبة الوفاة ، جاء فيها: "أنتم الشبيبة ، يجب أن تتعلموا ، كيف تصبرون وتنتظرون . نحن الشيوخ تعلمنا ذلك أيضاً رغم مرارته لنا . كونوا مثلنا" 313 . كان فهد في مقاله السالفة الذكر يتساءل: "كيف نفسر موقف زعماء الدولية الثانية الانتهازي هذا حيال القضية الوطنية؟" 314 . ويجب على السؤال بما يلي: "إن موقفهم هذا كان موقفاً لا ماركسيا ومعاكساً للاشتراكية إذ أنهم لم يروا أية صلة للقضية الوطنية بالثورة البروليتارية وبالديكتاتورية البروليتارية ، لم يدركوا عظم الفائدة من ربط كفاح الشعوب الكادحة في المستعمرات والأقطار التابعة بكفاح الطبقة البروليتارية في الأقطار الصناعية الكبرى ضد العدو المشترك ، ذلك لأن الديكتاتورية البروليتارية لم تكن مدونة في قوانينهم" 315 .

وإذا كان فهد محقاً في أن كثرة من أحزاب الاشتراكية الديمقراطية في الدول الرأسمالية المتقدمة أو الدول الاستعمارية قد عجزت عن رؤية العلاقة الجدلية بين نضال الشعوب المستعمرة والتابعة ضد الاستعمار وبين نضال الطبقة العاملة في بلدانها ضد الاستغلال الرأسمالي ، فإنه لم يكن مصيباً في موضوع ربط ذلك بديكتاتورية البروليتاريا التي تحولت في الاتحاد السوفييتي إلى ديكتاتورية الحزب أو النخبة الحزبية الحاكمة أو ديكتاتورية القيادة الحزبية والفرد الواحد ضد الشعب بأسره ، ضد من قامت الثورة من أجله وجرى الحديث عن ديكتاتورية البروليتاريا لصالحه . إن هذا الجزم القاطع لدى فهد واعتبار عدم ربط القضية الوطنية (القومية) بالثورة البروليتارية وبالتالي بديكتاتورية البروليتارية سياسة غير ماركسية وموقف انتهازي صرف يعبر عن تبسيط للقضية وفهم مبتسر وضيق للماركسية ، إنها موضوعة غير ماركسية بحد ذاتها ، ذلك أن ماركس وإنجلز لم يصرحا بمثل هذا الشيء ولم يضعوا أي وصفة جاهزة لنظريتهما . ومن المعروف أنهما كانا يغيران استنتاجاتهما حول مسألة معينة في ضوء الظروف المستجدة ، دون أن تكبلهما قيود الجمود العقائدي ، إذ كانا يحاربان به بشدة . ورغم الاستنتاج الذي توصلوا إليه والذي يقول إنجلز بشأنه في رسالة إلى جيرسون تريو في كوبنهاغن: "إننا ، ماركس وأنا ، مقتنعان بأن البروليتاريا لا تستطيع أن تفرض سلطتها السياسية ، الباب الوحيد إلى المجتمع الجديد ، بدون ثورة جبارة" 316 . نقول أنهما رغم هذا الاستنتاج الذي استنبطاه من أحداث التاريخ الدامية ، ورغم القمع الوحشي لانتفاضات العمال من قبل البرجوازية ، فإنهما لم يعمما استنتاجهما هذا بشكل مطلق على كل زمان ومكان ، كما يحاول تأكيد ذلك مفكرو البرجوازية خطأ عند تهجمهم على الفكر الماركسي . ففي عمله الذي أنجزه إنجلز عام 1847 "مبادئ الشيوعية" يطرح السؤال التالي: ما إذا كان بالإمكان إزالة الملكية الفردية بالطريقة السلمية؟ ويجب عنه كما يلي: "إنها لأمنية لو تحققت هذه العملية . والشيوعيون هم آخر من يتمرد على ذلك" 317 .

إن الثورة في العصر الذي توصل فيه ماركس وإنجلز إلى موضوعة "الرسالة التاريخية" للطبقة العاملة والمعلمة في "البيان الشيوعي" لم تكن بعد بروليتارية ، كانت الثورات البرجوازية في أوروبا كانت هي المسألة الآتية . ففي ألمانيا كان الأمراء الإقطاعيون هم الذين يقودون السلطة . ورغم وجود بعض الإصلاحات المحدودة ، فإن علاقات الإنتاج الإقطاعية والإقطاع اللامركزي المشتت كانا ما زالوا سائدين . وكانت الطبقة البرجوازية تطمح إلى إجراء

313 Ermers, Max & Victor Adler. Wien - Leipzig. 1932. S. 255.

314 يوسف سلمان يوسف (فهد). كتابات فهد. مصدر سابق. ص 388.

315 نفس المصدر السابق. ص 388.

316 Marx-Engels-Werke. Bd. 27. S. 326.

317 Ebenda. Bd. 4. S.372.

التغييرات الرأسمالية عن طريق الإصلاحات . وكانت البرجوازية الصغيرة المرتبطة بالأخيرة أكثر ثورية نتيجة لتطور الرأسمال الصناعي . وأما الفلاحون فكانت مصالحهم تكمن في إزالة العلاقات الإقطاعية ، الأمر الذي جعلهم يشكلون موضوعيا إحدى القوى المحركة للثورة . بيد أن القوى الديمقراطية الحاسمة إنما كانت البروليتاريا الفتية التي لم تنزل في طريق البلورة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . وهي بوضعها الفتية هذا لم تكن قادرة على قيادة الجماهير الشعبية . وكان الحديث عن الديمقراطية وحق الانتخاب والكفاح البرلماني في تلك الفترة يبدو سفسطانياً ، ذلك أن النضال الرئيسي كان موجهاً ضد العلاقات الإقطاعية .

وبتأثير من ثورة شباط/فبراير 1848 في فرنسا ، اندلعت في العديد من الدويلات الألمانية في مارس من نفس السنة انتفاضات شعبية . ففي برلين ألحق العمال والحرفيون والطلاب بقوات النخبة البروسية في 18 مارس 1848 هزيمة ساحقة ، وذلك بعد معارك مريرة من حرب الشوارع . وهجم الثوار على مقرات حكومات الأمراء الإقطاعيين التي تحولت فيما بعد إلى أولى البرلمانات البرجوازية الألمانية . أما حصون وقلاع الإقطاعيين والأمراء فلم تنج من هجوم الفلاحين الثائرين . بيد أن البرجوازية الألمانية أسرعت - قبل أن تتطور الأمور إلى المجرى الذي لا تشتهي - إلى المساومة مع الأمراء مكتفية بمشاركتها في الحكم .

وفي مثل هذه الظروف الجديدة التي كانت البروليتاريا تحتاج فيها إلى تصور واضح ومتكامل حول دورها في الثورة الديمقراطية - البرجوازية ، رسم ماركس وإنجلز إستراتيج وتكتيك جديدين ، بلوراهما في الوثيقة التاريخية "مطالب الحزب الشيوعي في ألمانيا" ، طورا فيها برنامجا ديمقراطيا ثابتا لتحقيق النصر التام للثورة . وتوجهت الوثيقة إلى القوى الديمقراطية مطالبة إياها بإزالة كل أثر للاستبداد الإقطاعي وتحقيق تحول ديمقراطي-برجوازي ضمن جمهورية ألمانية موحدة .

إن التطورات التي حصلت في تاريخ واقتصاد أوروبا ، دعت ماركس وإنجلز إلى إعادة النظر في الكثير من الاستنتاجات التي وردت في البيان الشيوعي ، إذ أنه في الفترة بين تاريخ صدور البيان الشيوعي وصدور "الرأسمال" ، وبين الرأسمال والمقدمة التي كتبها إنجلز عام 1895 لكتاب "الحرب الأهلية في فرنسا" ، حصلت تغييرات كثيرة ، فتكهناتهما بالسقوط الحتمي القريب للرأسمالية لم تتحقق . ونادرا ما كانا يتكلمان عن "المسخ البرلماني" ، ولكنهما كانا يكثران من الحديث عن الجمعيات الإنتاجية للعمال . كان الاقتصاد السياسي الرأسمالي بفائض قيمته اللامتناهي والاقتصاد السياسي العمالي بشعاره سد حاجة الجميع من قبل الجميع ، يقفان بالضد من بعضهما أمام كارثة عالمية كان من المفروض أن تحيق بالأول . رغم كل ذلك يقول ماركس تعليقا على صدور قانون تحديد العمل الإنكليزي بعشر ساعات فقط ، ما يلي: "لأول مرة ، وفي وضوح النهار ينتصر الاقتصاد السياسي العمالي على الاقتصاد السياسي البرجوازي 318 . إن هذا المكسب الذي هو بمثابة قطرة في بحر ، كان له أهميته الكبيرة بالنسبة لماركس . وكان ذلك بداية للتفكير الجاد بالنضال البرلماني ضمن جمهورية ديمقراطية . وعندما تأسست الأمة الثانية في العام 1889 وتبنت الماركسية ، كان أحد أهم مطالبها في الكونغرس التأسيسي هو جعل عدد ساعات العمل ثمان ساعات وجعل يوم 1 أيار يوم نضال العمل . انطلاقا من كل ذلك ، وكما أثبت التاريخ فإن القضية الوطنية أو القومية ليس من الضرورة أن ترتبط بكليشة دكتاتورية البروليتاريا أو بالثورة البروليتارية ، كي تكون ماركسية

. وبالإضافة إلى ذلك فإن الماركسية ليست مجرد نظرية ، بل منهج متكامل يمكن أن يهتدي به حتى اعتي مفكري البرجوازية ، طبعاً دون الأخذ بالمحتوى السياسي .  
ثم ينتقل فهد إلى مناقشة الحل الاشتراكي للمسألة الوطنية في معرض معالجته للقضية الكردية ، مؤكداً مسألة حق الشعوب في تقرير مصيرها . ثم يتعرض إلى الدستور السوفييتي لينتقي منه ست مواد تتعلق بالحل الاشتراكي للمسألة الوطنية . ونحن بدورنا ننتقي المادة -17- من تلك المواد الست ، التي نصت على أن:

"لكل من الجمهوريات الاتحادية مطلق الحرية في الانفصال عن اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية" . ترى ، هل كان فهد مقتنعاً حقاً بمحتوى هذه المادة؟ أم كان مجرد عاطفة انتشت بها قلوبنا جميعاً؟ ألم يكن شعار حق الشعوب في تقرير مصيرها مجرد وهم؟ إن الحكومة السوفييتية التي جاءت بعد ثورة أكتوبر استلمت روسيا القيصرية الكولونيالية بكل حدودها وحولتها إلى جمهوريات سوفييتية بقرارات فوقية ، دون إجراء أي استفتاء أو انتخاب . وإذا نظرنا من الناحية القانونية والموضوعية إلى هذه المسألة أو أي مسألة أخرى مصيرية ، نجد أن دكتاتورية البروليتاريا سواء في هذا المضمار أم بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، عند تشكيل دول الديمقراطيات الشعبية ، قد وقفت على النقيض من شعار "حق الأمم في تقرير مصيرها" . إننا إذا وافقنا على مبدأ دكتاتورية البروليتاريا بهذا الشكل ، نكون قد وافقنا أيضاً - شئنا ذلك أم أبينا- على دكتاتورية الدين أو دكتاتورية القومية الشوفينية المتسلطة (الفاشية) ، وإلا لماذا نسمح لأنفسنا أن نطبق دكتاتورية البروليتاريا على المجتمع ونرفض دكتاتورية الطالبان في أفغانستان ، التي سقطت بفعل الحرب وحيدة الجانب التي خاضتها الولايات المتحدة الأمريكية ضد نظام طالبان لا بفعل ضربات الشعب الأفغاني . وإذا كنا نعتقد بأن دكتاتورية البروليتاريا تقتضيها الرسالة التاريخية للطبقة العاملة كشرط لتحقيق الانتقال الحتمي إلى الاشتراكية ، فإننا يجب أن نفهم أيضاً لماذا يؤكد الملا عمر ، قائد الطالبان في أفغانستان ، بأن الرسالة التاريخية للإسلام كانت تقتضي ما قام به من أعمال إجرامية بحق الشعب الأفغاني وبحق الحضارة الإنسانية وعمق الخلافات بين أتباع الأديان المختلفة وأهان أتباع الديانة البوذية بنسف تماثيل بوذا التاريخية التي صمدت لعوائد الزمن طوال مئات السنين .

وبعد أن يذكر المواد المتعلقة بالحل الاشتراكي للمسألة الوطنية ، يقول: "لقد سجل الدستور السوفييتي من الوجهة القانونية السيادة الوطنية لكل من الجمهوريات الاتحادية ، وحقوقاً متساوية فيما بينها وحقوقاً متساوية لمواطني جميع الجمهوريات ، ولكن هل يا ترى يستطيع دستور من الدساتير أن يساوي بين القطر الصناعي والقطر الزراعي؟ هل يستطيع أن يساوي بين حضر لينينغراد ورعاة القرغيز؟ وهل يساوي العالم بالجاهل ، والطيّار بالحمّار(بتشديد الميم- المؤلفان)؟ إذن كيف ساوى الدستور السوفييتي بين أقوام تختلف في درجة تطورها ويفصل فيما بينها ألف سنة ، بينما دساتير أمم عريقة في ديمقراطيتها لم تستطع أن تساوي حتى بين سكان المدينة الواحدة أو الشارع الواحد ولا بين الزوج والزوجة . كيف إذن يريد واضعو الدستور السوفييتي المساواة بين مختلف القوميات؟ قال ستالين ، عندما قدم إلى مؤتمر سوفييات جميع الاتحاد لاتحة الدستور ، بأن الدستور جاء مسجلاً لأمر قد سبق أن تحققت ، دعونا نرى الآن كيف تحققت تلك المساواة المبحوث عنها .

يذكر المؤمنون أن الله عندما غضب على سيدنا آدم وزوجه لبطرهما وطمعهما وانغماسهما في أكل اللحوم طردهما من الجنة ، وعندما صاراً خارجاً قال سبحانه تعالى لآدم "بعرق جبينك تأكل خبزك" وهكذا فعلت البروليتاريا الروسية عندما رأت ملاكي الأراضي والرأسماليين

الروس قد أعماهم البطر والطمع وانغمسوا في الدماء المحرمة ، دماء الفلاحين والعمال ، طردتهم من الجنة وأمرتهم بأن "يأكلوا خبزهم بعرق جبينهم" وهكذا تحقق ما جاء بالبيان الشيعوي "بزوال استثمار إنسان لآخر يزول استثمار أمة لأخرى ، يزول استثمار الغرب للشرق" 319 . وبعد أن يتطرق إلى كيفية كهربية البلاد وبدء التصنيع حتى في أكثر المناطق تخلفاً ، يعيد إلى الأذهان ما قاله لينين بهذا الخصوص: "حلت المعضلة الوطنية في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ، حلاً نهائياً وبرزت للوجود من تلك الأمم والأقوام المداسة المحرومة ، جمهوريات وطنية زاهرة ، وطنية بشكلها واشتراكية بمضمونها . . . " 320 .

هنا يخطر بالبال تعليق أوتو باور ، الاشتراكي- الديمقراطي النمساوي على كلام لينين القائل بأن الاشتراكية قد حلت مسألة القوميات إلى الأبد وبصورة جذرية ، إذ أكد الأول بأن الاشتراكية لا تحل المسألة القومية ، بل تمهد السبل لتطويرها وخلق وعيها .

إننا في معرض دراستنا هذه لا نريد أن نتطرق بالتفصيل إلى ما يكمن وراء هذا الوصف الرومانسي الحالم من الكوارث والمآسي والخسائر البشرية والمادية التي سببها ستالين خلال رسمه لخريطة القوميات التي لم تشمل الأراضي السوفياتية حسب ، بل وامتدت إلى وسط أوروبا حيث التقسيم الألماني . كما ولا نريد أن ندخل في مسائل بناء الاشتراكية والقفز فوق المراحل في بلد يمتد فارق التخلف فيه إلى أكثر من ألف عام ، إذ أن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في مناطق قرغيزيا والشيشان ومنغوليا معروفة للجميع . ولكننا طالما كنا وما زلنا في معرض الموقف من القضية الكردية من وجهة نظر قيادة فهد ، فلا بد أن نرجع إلى جذور المسألة التي تعيدنا إلى الكومنترن ، الذي بلا شك هو الذي ساهم بفعالية في رسم الخطوط الأولية للموقف الماركسي-اللينيني من القضية القومية الكردية .

والمعلومات المتوفرة تشير إلى أن هيئات الكومنترن قد اعتمدت على تقارير وتعليقات مراسلي "إنبريكور" و "نومشاو" في معالجة الوضع في العراق والقضية القومية الكردية ، رغم أن تلك التقارير لم تعتبر من الوثائق الرسمية للكومنترن . وتجلي ذلك في رسم سياساتها ومقررات مؤتمراتها . وإذا ما نظر الإنسان بدقة وموضوعية لتلك التقارير سيجد أنها قد أخطأت التقدير بالنسبة إلى المواضيع التالية التي اعتبرت في حينها حقائق ثابتة:

1- التحضيرات العسكرية للإمبريالية الإنكليزية تهدف إلى تحويل أرض العراق إلى قاعدة عسكرية بغية الهجوم على الاتحاد السوفياتي .

2- قضية حركة التحرر الوطني الكردية .

3- مسائل التركيب الاجتماعي وعلاقات القوى وواجبات الشيوعيين في العراق .

فبالنسبة إلى النقطة الأولى ، لم تكن التقديرات خاطئة فحسب ، بل ثمة جهل واضح للأوضاع الواقعية في العراق آنذاك . فالسكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني (حيدر) ، قال في معرض حديثه حول الوضع في الشرق الأوسط أمام المؤتمر السادس للأمم المتحدة 321 بأن الإمبريالية الإنكليزية في العراق وبعض المناطق الأخرى ، إنما تتواجد هناك لغرض الهجوم على الاتحاد السوفياتي ، وإلا فإن هذه المناطق فقيرة من حيث الثروات الباطنية ، في حين كان القناصل الإنكليز يعرفون تماماً وفي وقت مبكر ما في باطن الأرض العراقية من ثروات أولية ، أو ذهب أسود .

319 يوسف سلمان يوسف (فهد). كتابات فهد. مصدر سابق. ص 391/390.

320 نفس المصدر السابق.

وأما بعض مراسلي الأمم المتحدة الآخرين فكانوا يعتبرون معاهدة 30 حزيران / يونيو 1930 وسيلة للتحضيرات الحربية ضد الاتحاد السوفييتي . وهنا لا حاجة بنا أن نعيد إلى الأذهان ما سبق أن قلناه في مكان آخر من هذا الكتاب ، عن معرفة الإنكليز بوجود كميات هائلة من احتياطي النفط في العراق منذ نهاية القرن التاسع عشر .322 والحقيقة كان هدف الإنكليز من المعاهدة المذكورة ما يلي:

1- إعطاء الشرعية القانونية للمصالح الإمبريالية البريطانية في العراق لمدة ربع قرن وذلك مقابل إدخال العراق في عصبة الأمم (المعاهدة نفذت في 1932/10/03) ، أي مع دخول العراق فعلاً عضواً في العصبة .

2- تأمين طريق المواصلات بين الهند وأوروبا .

3- إبقاء علاقات القوى على حالها وإسناد الطبقتين: الإقطاعية والأرستقراطية الكومبرادورية ، ركنا الإدارة العراقية المرتبطة بوزارة الخارجية البريطانية .  
وأما الجوهر الحقيقي غير المكتوب على الورق فهو الحفاظ على المناطق الغنية بالنفط ، والحيلولة دون وصول الاتحاد السوفييتي إلى مناطق المياه الدافئة .

ولم تقتصر أخطاء تقديرات صحافة الأمم المتحدة تجاه التواجد الاستعماري في الشرق الأوسط حسب ، بل تجاوزت ذلك إلى التحليلات الخاطئة واللامبدئية تجاه حركة التحرر الوطني الكردية ، الأمر الذي يؤكد بأن المصالح الدبلوماسية السوفيتية كانت هي الأخرى فوق المبادئ والمقاييس الإيديولوجية . فالحركات والانتفاضات الكردية في تركيا والعراق وإيران اعتبرت كما لو أنها حركات رجعية أو أعمال من صنع الإنكليز ، وذلك بهدف تشكيل دولة كردية صنيعة بين كل من تركيا وإيران والعراق . "دولة تكون تحت السيطرة البريطانية المباشرة وتكون قاعدة عسكرية ضد الاتحاد السوفييتي" 323 .

إن أي مراسل من مراسلي الأمم المتحدة لم ينطلق من وجهة النظر الماركسية ، حق الأمم في تقرير مصيرها ، في معالجته للقضية الكردية آنذاك . وكانت الأمم المتحدة تعرف جيداً بأن حدود الدول العربية قد رسمت بالقلم والمسطرة من قبل سايكس ، وزير الخارجية البريطانية وبيكو ، وزير الخارجية الفرنسية ، وذلك ضمن المعاهدة البريطانية- الفرنسية السرية التي أبرمت في 16 أيار 1916 وسميت بـ "معاهدة سايكس-بيكو" ، حيث تم تقسيم كردستان بين أربع دول . ولذلك فإن الحديث عن دولة كردية صنيعة في تلك الفترة كان مجرد هراء ، ناهيك عن أن صحافة الأمم المتحدة بتقاريرها غير الواقعية كانت تعطي الانطباع كما لو أن الدول المجاورة تحظى باستقلالها التام والناجز . ويبدو لنا بأن مراسلي الأمم المتحدة تأثروا في حينها بالدعاية التركية المبالغ فيها تجاه قضيتين:

1- صداقة كمال أتاتورك المزعومة للاتحاد السوفييتي وتأييده الشكلي للبلاشفة .

2- تصوير الأتراك للحركات الكردية ، كما لو أنها رجعية-إقطاعية ودينية-سلفية .

ومن الجدير بالذكر أن المؤرخ الهولندي مارتين فان بروينيسن قد سلط الأضواء على هذه المسألة بصورة تفصيلية مدعومة بوثائق تركية .324

322 Stephen Hemsley, Longrigg. Oil in the Middle East. London 1968. P. 12-15 & 41-47.

323 M. L. Zu den Ereignissen in Kurdistan. in: Inprekorr. 5/8/1930. S. 1595 f.& "Der Irak als britische Kriegsbasis gegen die Sowjetunion". Ebenda. 22/ 7/ 1930. S.1438.

324 Bruinessen, M. M. van Agha. Scheich & Staat. Berlin. 1989.

ولكن فهد لم يتأثر بذلك ، إذ حاول أن يعالج القضية الكردية من وجهة النظر الماركسية-اللينينية ، حين طور موقف الشيوعيين من هذه المسألة وعاد من جديد إلى طرح الشعار الذي رفعه الحزب في عام 1935 على صفحات جريدة الحزب ، ولكن بصيغة متقدمة وواضحة وبعيدة عن أي لبس أو إبهام حول موقف الشيوعيين من المسألة الكردية . ورد في الوثيقة التي أصدرها الحزب والتي كتبها جمال الحيدري حول المسألة الكردية وموقف الشيوعيين منها ، مستنداً في ذلك إلى ما ورد في العدد الأول/1945 من الجريدة المركزية التي كان الحزب يصدرها حينذاك "القاعدة" ، ما يلي:

"منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية أعار الحزب اهتماماً خاصاً بالقضية الكردية موضعاً للشعب الكردي في العراق طريق النضال المشترك في سبيل التحرر من الاستعمار ، وإقامة حكم ديمقراطي وطني<sup>325</sup> . "حيث بهذا يضمن "للشعب الكردي ولجماهيره الكادحة المنظمات (المؤسسات-المكاتب) الديمقراطية الضرورية التي تمكنها من بيان رأيها في البقاء الاختياري أو الانفصال متى ما تم للعراق تحرره من ربة الاستعمار أو عند ظروف تلائم الشعب الكردي وفي مصلحة جماهيره الكادحة"<sup>326</sup> .

وكان المشرف على إصدار جريدة الحزب في أوائل تأسيسه عاصم فليح ، أول سكرتير منتخب في الحزب الشيوعي العراقي ، كما أن فهداً كان ضمن القيادة التي تشكلت عند تأسيس الحزب . وبالتالي ، يفترض أن فهداً كان منذ البداية مع شعار "الاستقلال الكامل للأكراد" ، إذ أنه كان المشرف المباشر على الجريدة في عام 1945 عندما صدر العدد الأول من السنة الرابعة التي حملت النص الذي يقر للشعب الكردي حقه في البقاء أو الانفصال عن العراق بعد حصول العراق على الاستقلال من ربة الاستعمار . ويبدو أن عدم ذكر هذا الشعار في برنامج الحزب قد ارتبط بالمهمات المباشرة التي تبلورت في فترة الحرب العالمية الثانية وليس تنكراً من جانب فهد للشعار ذاته . إذ كان فهد ، ومعه بقية قيادة الحزب حينذاك ، يدرك الطريقة والأهداف التي تم بموجبها رسم الحدود في المنطقة ، بما فيها حدود العراق وحدود الدول العربية والدولة التركية . الخ . كتب جمال الحيدري حول موقف الحزب الشيوعي من المسألة الكردية يقول:

"ويمكن تلخيص موقف الحزب بما يلي:

1. أن العراق بحدوده الجغرافية الحالية التي رسمها الاستعمار ، يضم جزءاً من كردستان ، وتبعاً لذلك فإن العراق يضم قوميتين رئيسيتين هما القومية العربية والكردية .
2. أن الشعب الكردي في العراق ، هو جزء لا يتجزأ من الأمة الكردية في جميع أجزاء كردستان الممزقة الآن بين دول تركيا وإيران والعراق .
3. أن الاستعمار هو الذي مزق كردستان ، وهو الذي حال -فيما بعد الحرب العالمية الأولى- دون نشوء دولة قومية في كردستان .
4. ينبغي فصح ومحاربة سياسة الاضطهاد والتمييز تجاه الكرد بجرأة وحزم ، سواء فيما يخص العراق أو في تركيا وإيران .
5. على عاتق القوى الوطنية والقومية في كردستان ، تقع مسؤولية كبرى إزاء قوميتها ووطنها ، هي مسؤولية العمل الدائب والصحيح لخدمة حقوق ومستقبل الجماهير الكردية وبعث تاريخها وأمجادها وتراثها القومي .

325 الحيدري ، جمال. الشيوعيون طليعة النضال لحل قضية كردستان ونوال الشعب الكردي حقه في تقرير المصير والحرية والوحدة القومية" ، "المسألة الكردية" . من وثائق الحزب الشيوعي العراقي 13. بغداد. 1961. ص 5.  
326 جريدة "القاعدة" . العدد الأول. السنة الرابعة. تشرين الثاني/نوفمبر. 1945.

6. ينبغي تثقيف الجماهير العربية في العراق وخارجه بروح الأومية ، بروح الأخوة مع الشعب الكردي والدفاع عن حقوقه المشروعة ، وحمل البرجوازية الوطنية العربية في العراق على العمل الذي يتجاوب مع مطامح الشعب الكردي وحقوقه .
7. ليس ثمة طريق في الظرف الراهن سوى طريق الكفاح المشترك مع الجماهير العربية في العراق ، ضد الاستعمار وأحلافه في سبيل التحرر الوطني الناجز لجماهير الشعب العراقي ، وهذا يستدعي تثقيف الجماهير الكردية بروح الأخوة الأومية إزاء الشعب العربي في العراق وسائر البلدان العربية .
8. العمل من أجل ضمان الاستقلال الذاتي لكردستان العراق وفق اتحاد اختياري (مبني على الكفاح المشترك والأخوة)! كفاح أخوي يفتح أمام الشعب الكردي طريق التحرر الشامل والوحدة القومية للأمة الكردية بأسرها .
9. إن الاعتراف المتبادل بحق تقرير المصير ، وبمشروعية طموح الشعبين العربي والكردي إلى التحرر والوحدة القومية ، وإدراك حقيقة أن الاستعمار هو العائق أمام بلوغ العرب والكرد لأمانيهما القومية ، هو الأساس الصخري الذي تقوم عليه وتتطور الأخوة العربية الكردية ، في الكفاح المشترك ضد الاستعمار .
- إن الاستقلال الذاتي وفق اتحاد اختياري كفاحي أخوي هو تدبير موقوت بظروفه . . وهو بهذا المعنى ليس حلاً نهائياً للمسألة القومية الكردية ، ولا يمكن أن يكون بديلاً عن حق تقرير المصير للأمة الكردية . وإنما سيكون عاملاً هاماً في تحرير الأمة الكردية وتحقيق وحدتها القومية ، وفي تهينة الظروف الملائمة لممارسة الأمة الكردية حقها في تقرير المصير بما في ذلك تكوين دولة مستقلة لكردستان كلها"327 .

---

327 كتبت هذه الدراسة من قبل جمال الحيدري في عام 1961 وتحت عنوان "الشبيوعيون طلبعة النضال لحل قضية كردستان ونوال الشعب الكردي حقه في تقرير المصير والحرية والوحدة القومية" ، أي أثناء إرسال الحكومة العراقية بقيادة الزعيم عبد الكريم قاسم قواتها إلى كردستان حيث رفع الحزب الشيعي العراقي شعار السلم لكردستان ضد الحرب. واستند في كتابته إلى موقف الحزب الشيعي من المسألة الكردية الذي تحدد في وثائقه الرسمية. ومنها جريدة الحزب المشار إليها سابقاً وفي ضوء قرارات الكونغرس الثاني للحزب الشيعي العراقي في أيلول/سبتمبر عام 1956.



## الفصل الثالث : الجبهة الوطنية وسياسة التحالفات

شخص المؤتمر العالمي السابع للكومنترن طبيعة حركة التحرر الوطنية على أنها حركة وطنية تتسم بمعاداة الإمبريالية والكولونيالية والإقطاع . واعتمد المؤتمر في ذلك على تشخيصات لينين وعلى التحليلات والاستنتاجات التي توصل إليها المندوبون إلى المؤتمرين الثاني والرابع للأمم المتحدة بخصوص إقامة الجبهة الموحدة في النضال ضد الإمبريالية . وركز المؤتمر السابع للكومنترن في نقاشاته وتوصياته على ضرورة أخذ الظروف الملموسة لبلدان آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية بنظر الاعتبار عند العمل لإقامة جبهة شعبية عالمية تضم القوى التي لها مصلحة مباشرة في مقارعة الثلاث المذكور . وبهذا اعتبرت سياسة تحشيد الجماهير الشعبية في البلدان المستعمرة والتابعة للتضامن والنضال المشترك ضد الاستغلال الكولونيالي والفاشية المهمة الرئيسية للأحزاب الشيوعية .

واستناداً إلى هذا الموقف ، أبدى فهد اهتماماً خاصاً بهذه المسألة الحيوية في جميع كتاباته ونشاطه ونضاله اليومي . وكان على فهد أن يجد الصيغة والشعارات المناسبة التي يرفعها الحزب وتساهم في تحقيق الربط العضوي بين السياسة الوطنية التي يستوجبها الواقع العراقي ، باعتباره جزءاً عضواً من الحركة الوطنية العراقية من جهة ، وبين مهمات بناء حزب شيوعي أممي ، باعتباره جزءاً عضواً من الحركة الشيوعية العالمية ، والتزامه بالشروط التي حددها الانتماء إلى الكومنترن من جهة أخرى . وتجلّى ذلك بالشعارات المعروفة التي رفعها المؤتمر الوطني الأول للحزب الذي عقد في العام 1945: "يا عمال العالم اتحدوا و"وطن حر وشعب سعيد" و"ثم شعار: "قووا تنظيم حزبكم ، قووا تنظيم الحركة الوطنية" .

اكتسب الحزب سمعة شعبية واسعة من خلال طرحه شعار إقامة الجبهة الوطنية ونشاطه العملي لتشكيلها باعتبارها الأداة الرئيسية في النضال من أجل تحقيق الاستقلال الوطني والديمقراطية والدفاع عن مطالب الشعب بمختلف فئاته الاجتماعية المسحوقة ، ولا سيما في أعقاب انعقاد المؤتمر الأول . ومما زاد في شعبية الحزب فضحه المنظم للفاشية ، التي سبق وأن انخدعت بها بعض الأوساط القومية وجمهرة غير قليلة من الناس . وفي ضوء المهمات الجديدة المطروحة بعد الحرب العالمية الثانية قام فهد بتوزيع مسؤوليات العمل الحزبي على أعضاء المكتب السياسي الصغير ، إذ أصبح زكي بسيم مسؤولاً عن المسائل التنظيمية ، وحسين محمد الشبيبي مسؤولاً عن قضايا التحالفات والجبهة الوطنية . وتجدر الإشارة إلى أن الشبيبي ، الذي تتلمذ على يد فهد وكان عضواً في المكتب السياسي ، ساهم مساهمة ملموسة في رسم استراتيجيات وتكتيك الحزب وفي شرح طبيعة وأهمية الجبهة الوطنية في نضال الشعب العراقي .

لم يكتف الشبيبي بالمعالجات النظرية لمسائل الجبهة الوطنية فحسب ، بل خاض شخصياً غمار العمل الجبهوي اليومي بجانبه العلني ، حيث قام بتكليف من فهد بتأسيس "حزب التحرر الوطني" . ورغم رفض إجازة هذا الحزب من قبل وزارة الداخلية ، باعتباره واجهة علنية للحزب الشيوعي السري ، تمكن العمل بصورة علنية وفعالة لمدة عام تقريباً في الفترة الواقعة بين تقديم الإجازة ورفض منحها ، الأمر الذي أدى إلى حشد جماهير غفيرة للنضال من أجل الشعارات المطروحة من قبل الحزب . بيد أن الفجوة بين الحزب الشيوعي والأحزاب الوطنية

الأخرى من جهة ، وبين حزب التحرر الوطني والأحزاب المعارضة العلنية الأخرى من جهة ثانية ، بقيت قائمة ولم يتمكن الحزب التغلب عليها ، سواء بوجهه السري أو العلني . كتب الشبيبي دراسة وافية بعنوان: "الجبهة الوطنية الموحدة: طريقنا وواجبنا التاريخي" ، تعتبر هذه المساهمة الجبهوية أول موضوعة تطرح في تاريخ العراق الحديث في هذا المجال وبهذه الدقة والتفصيل . تبدأ الدراسة بمقدمة جاء فيها : "عندما كتب هذا المؤلف كانت الواجبات الأولى والمستعجلة لقيام الجبهة الوطنية الديمقراطية وتوحيد جميع جهودها لدخول معركة الأحزاب ، أي لكسب حق التنظيم السياسي وغيره وإلغاء القوانين الاستثنائية وما يتبعها من تشكيلات (إدارية) ومجالس ، ومحاكم ، ورقابة . . الخ . أما الآن وقد ذهبت وزارة كانت تمثل مرحلة شاذة غير ديمقراطية كباقي الحكومات التي سبقتها في تاريخ قطرنا ، كابد خلالها شعبنا الحرمان السياسي والاقتصادي وأوشك أن يفقد جميع مكاسب نضاله الوطني منذ الثورة العراقية حتى يومنا هذا وقد حلت محلها وزارة جديدة حققت أو على وشك أن تحقق الواجبات الأولى المستعجلة التي كان على الجبهة الوطنية إنجازها ، كخطوة لا بد منها ، للسير نحو تحقيق أهداف الجبهة الوطنية الرئيسية ، وأعني بها استكمال استقلال العراق السياسي ، وإلغاء المركز الممتاز الذي ضمنته المعاهدة العراقية- الإنكليزية لبريطانيا في العراق ، وتحرير اقتصاد القطر من السيطرة الاحتكارية الأجنبية ، ومن التقييدات التي أوجدتها الأوضاع غير الطبيعية التي فرضتها علينا المعاهدة وتوابعها وثبتتها ظروف الحرب واستغلال تلك الظروف للهيمنة المطلقة على اقتصادياتنا وربطنا بسلاسل المنطقة الإسترلينية ، وتحقيق الإصلاحات العمرانية والاجتماعية . فالحكومة الحالية قد ألغت القوانين من حالة الحرب (أي من عهد تعطيل الدستور) إلى حالة السلم وهي على وشك أن تجيز تأليف الأحزاب وربما تم ذلك قبل إنجاز طبع هذا المؤلف" 328 . وتستهدف الجبهة المنتظرة من وجهة نظر الكاتب ما يلي:

"1- تحقيق استكمال الاستقلال الوطني وتعزيز السيادة الوطنية وإبعاد التدخل الأجنبي في شؤون الدولة وإلغاء المركز الممتاز والامتيازات العسكرية وغيرها التي احتوتها بنود المعاهدة العراقية- الإنكليزية .

2- التعاون الوثيق مع الحكومات والشعوب العربية المبتلاة بالاستعمار والوصاية أو الحماية أو الانتداب لنيل حرياتها وتمكينها من استعمال حقها في تقرير مصيرها في تأليف حكوماتها الوطنية .

3- تعزيز النظام الديمقراطي في العراق بإلغاء جميع القوانين والأساليب التي تعوق أو تحد من حق المواطن في ممارسة الحريات الديمقراطية الصحيحة ، وتشريع قوانين جديدة لضمان هذه الحريات ، تحقيق تشريع قانون الانتخاب المنتظر تشريعه ، ليكون قانونا ديمقراطيا خاليا من كل تحديد طبقي ، مالي ، ثقافي أو عنصري ، وعلى درجة واحدة وتهيئة الشعب لدخول الانتخابات الحرة دون أن تقف أمامها أية قوة معرقلة .

4- تنظيف الجهاز الحكومي من العناصر الفاسدة وجعله جهازاً كفواً يخدم مصلحة الشعب .

5- تحقيق إصلاح شامل في جميع نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، منها حل المشكلة الزراعية ، وتصنيع القطر ، وتوفير وسائل التثقيف والصحة . . الخ" 329 .

وبعد تحليل المجتمع العراقي بأسلوب مادي تاريخي من خلال التطرق إلى دور القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج بصورة مفصلة ، تحدث عن ضرورة لم جميع القوى الوطنية في جبهة شعبية

328 كتابات الرفيق حسين محمد الشبيبي: بغداد 1974 ، ص 5.

329 نفس المصدر: ص 5.

واسعة في باب: "تمهيد" ، ثم عرج بعدها إلى مناقشة شعار (الحزب الواحد) العلني والديمقراطي ، الذي طرحته مجموعات من القوى الماركسية والديمقراطية ، مثل عبد الفتاح إبراهيم وعزيز شريف حيث كتب يقول:

"إن شعار حزب واحد كشعار دولة عربية واحدة أو دولة عالمية ، شعار غير عملي ، جاء في غير وقته ، وهو غير نافع بل مضر" 330 . ويعطي الأسباب التالية لبطلان هذا الشعار:

إن شعار حزب واحد للديمقراطيين كان يمكن أن يلقي رواجاً وأن يخدم المصلحة الوطنية بعد الثورة العراقية الأولى وقبل المعاهدة العراقية- الإنكليزية وقد كان بالإمكان دمج الأحزاب الوطنية القديمة في حزب واحد . أما الآن وقد دخل العراق في مرحلة تبلورت فيها المصالح الطبقية وخبرت الجماهير الشعبية خلال نضالها مواقف الطبقات المتملكة ، فالأمر يختلف فهذه الطبقات (المتملكة) ومنها البرجوازية الحرة تناضل "متى ما وجدت الظروف ملائمة للنضال" أي متى ما اقتضت ذلك مصالحها وتترك النضال وتصفي منظماتها متى ما تهددت مصالحها وهي لا تكتفي بترك النضال وحدها بل تصر على العناصر الواعية وعلى الجماهير الشعبية بوجود ترك النضال إلى حين تنهض البرجوازية مرة أخرى ، أي إلى حين ترى الطبقات المتملكة أن النضال في مصلحتها وقد دلتنا على هذه الحقيقة مواقف هذه الطبقات في النضال الوطني عندما . إنها بعد أن حصلت على المعاهدة العراقية - الإنكليزية عزلت أحزابها وحرمت على الغير تأليف الأحزاب والنقابات بحجة أن الوقت لم يحن بعد لتأليف الأحزاب ، فحزب واحد لجميع الديمقراطيين (بزعامة البرجوازية الحرة والمثقفين المرتبطين بها) من السهل أن يقضى عليه متى وجدت قيادته أن المصلحة -مصلحتها- تقضي بحله كما حلت من قبل الأحزاب الوطنية ومن ضمنها جمعية الإصلاح الشعبي" 331 .

وبعد أن يشرح بالتفصيل طابع القوى والطبقات المنظمة إلى مجموعة الديمقراطيين ويقسمها إلى معسكرين رئيسيين: معسكر العمال والفلاحين ومن ينتمي إليهم من المثقفين الشعبيين والحرفيين والكسبة والأقليات القومية والعنصرية المضطهدة . ومعسكر البرجوازية الحرة ومن ينتمي إليها من مثقفي البرجوازية الحرة والمزارعين وأحرار الإقطاعيين والملاكين وأمثالهم . ويتطرق إلى أهداف واستراتيج وتكتيك كل معسكر من هذين المعسكرين بتفصيل ، يؤكد بأن نقطة الالتقاء بين المصالح المشتركة لجميع الديمقراطيين هي الجبهة الوطنية الموحدة ، الجبهة التي لا تشل نشاط ونمو أي جماعة من الجماعات (الأحزاب) الديمقراطية ولا تحتم على جماعة فرض آرائها الاجتماعية والفلسفية والاقتصادية على الجماعات الأخرى ، بينما شعار توحيد الأحزاب ودمجها في حزب واحد وتحت قيادة البرجوازية الحرة -كما هو مفهوم من نظرة أصحاب الدعوة إلى العمال والفلاحين- معناه حبس آراء الجماعات والحد من نشاطها الثوري الذي لا يتفق وأسلوب العمل الإصلاحي الذي سارت وتسير عليه البرجوازية الحرة ومن يشايعها . أما الشكوك والمزاعم التي أثارها ويشيرها دعاة "الحزب الواحد" ضد الجبهة الموحدة فهي بالطبع واهية ولا تستند إلى المنطق والواقع . 332 ومن ضمن المسائل الملحة التي يتطرق إليها في دراسته المستفيضة بالتفصيل ، ما يلي:

- 1- تحليل للوضع العالمي وعلاقات القوى الجديدة التي تبلورت بعد الحرب العالمية الثانية .
- 2- تحليل حركة التحرر الوطني العربية ومكانها داخل حركة التحرر العالمية .

330 نفس المصدر: ص ، 125 .

331 نفس المصدر السابق.

332 كتابات الرفيق حسين محمد الشبيبي: بغداد 1974 ، ص 16 .

- 3- النفوذ الإمبريالي في العالم العربي .
- 4- التأثير المتبادل بين الوضعين العالمي والمحلي .
- 5- الدور الحاسم للاتحاد السوفييتي .
- 6- الطبقات الاجتماعية في العراق .
- 7- الحريات الديمقراطية .
- 8- المجالات الاقتصادية .
- 9- الطابع الجماهيري للحركة الوطنية .
- 10- ماذا تعني الجبهة الوطنية الموحدة؟

وتناولت دراسة حسين الشبيبي المهمة الثانية موضوع: "الاستقلال والسيادة الوطنية" ، إذ أنها تعتبر إلى جانب المقالة الموسعة الخاصة بالجبهة الوطنية المذكور في أعلاه ، مساهمة مهمة في النضال ضد الإمبريالية ومن أجل التحرر والديمقراطية ضمن إطار قيادة فهد بعد الحرب . ويمكن للإنسان المتتبع أن يستنتج بأن المقدمة التي تحمل أسم الناشر إنما هي من كتابة فهد . يستهل الشبيبي الدراسة بمقدمة يقول فيها: "أصبح للاستقلال والسيادة الوطنية - عدا مفهومها السياسي - مفهوم عام شديد الارتباط بالنظم الديمقراطية وبالأساليب الصحيحة في تطبيقها ، شديد الارتباط بالديمقراطية الاقتصادية والاجتماعية ، التي تضمن لجماهير الشعب العدل الاجتماعي والصيانة الاجتماعية وبعبارة أوضح أن مدلول الاستقلال والسيادة الوطنية أصبح اليوم - بعد أن كان ضيقاً لتقييده بمفهومه السياسي ، كما أرادته له الطبقة العليا التي كانت تقود الحركة الوطنية - أصبح اليوم يعني تحرير القطر ، بما فيه من ثروات مدفونة وظاهرة ، واستغلالها لصالح المصلحة العامة ، لصالح تقدم القطر صناعياً وزراعياً ، ولمكافحة آفات الفقر والمرض والجهل . وتمكين الشعب بكافة طبقاته دون تمييز ، ودون تحديد من ممارسة حقوقه في حكم نفسه ، أي في اختيار شكل الحكم وأجهزة الحكومة ، اختياراً حراً ، وفق الأساليب الديمقراطية الصحيحة . هذا هو المدلول العصري للاستقلال والسيادة الوطنية ، كما صرح به رؤساء الدول الكبرى ، أثناء حربها مع قوى الشر المحورية ولهذا حاربت الشعوب وضحت عن طيب خاطر ، أثناء حربها ضد الفاشية ، ولهذا تناضل وتحارب اليوم الأمم المحرومة من استقلالها وسيادتها الوطنية - الحقيقية والشكلية- في الغرب والشرق . هذا هو مدلول الاستقلال والسيادة الوطنية" 333 .

ويجري الشبيبي ، وبتوجيه مباشر من فهد ، معالجة مسألة التحرر والاستقلال في هذا المجال ضمن وحدة متكاملة لا تتجزأ . وهنا يقول: "إن الاستقلال والسيادة الوطنية بنواحيها الثلاث ، السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وحدة يكمل بعضها البعض لكن هذا لا يعني أبداً ، أننا نستطيع أن نعمل للاستقلال بنواحيه الثلاث بمقياس واحد ، دون أن نعرض الكل إلى الخطر . إذ لا يكون عملنا نافعاً وثابتاً في الحقل الاقتصادي أو الاجتماعي وغيرهما ، ما لم نقبض بأيدينا من حديد على زمام السلطة السياسية ، ما لم نحقق قبل كل شيء الاستقلال السياسي 334 .

وتعتبر الدراسة التي كتبت في ضوء مقررات المؤتمر السابع للكومنترن بخصوص مسائل الجبهة الشعبية الموحدة ، مساهمة جدية لبلشفة الحزب الشيوعي العراقي وتجسيدها في سياساته اليومية ، علماً بأن الدراسة احتوت على معالجات علمية كثيرة للمشكلات المحتملة

333 نفس المصدر السابق.  
334 نفس المصدر السابق.

في مجرى النضال من أجل الديمقراطية السياسية . وتضمنت أهدافاً مشتركة أجمعت عليها جميع القوى السياسية الوطنية حينذاك ، وهي:

- إنهاء التدخل الأجنبي وإجلاء قواته العسكرية .
- تطوير الاقتصاد الوطني لصالح الشعب .
- الإتيان بنظام ديمقراطي صحيح .
- فضح بنود المعاهدة العراقية- الإنكليزية .
- استكمال الاستقلال السياسي .

ويحاور الشيببي نفسه والقراء أيضاً حين يطرح على نفسه السؤال التالي: هل بإمكاننا تحقيق هذه المطالب؟ ثم يعود ليجيب عن هذا السؤال بقوله:

"نعم بإمكاننا تحقيقها ، أما وسائل تحقيقها فهي بأيدينا وهي . قوى شعبنا التي تريد التحرر والانطلاق أولاً ، ونظرية صحيحة في العمل وتعيين الهدف ثانياً ، وتنسيق القوى ، طبقات الشعب وأقسامه ، التي تشترك في العمل من أجل هذه المطالب ثالثاً" 335 . وفي معرض إجابته المفصلة لا يخفي مخاوفه تجاه عدم تحقق الهدف المطلوب ويقول:

"إن اعتبار هذه المطالب ، في سبيل أهدافنا الوطنية ، مطالب الشعب بأجمعه ، واعتباره القوة الوحيدة القادرة على تحقيقها ، وعدم الخوف منه ، شرط أساسي لتحقيق مطالبنا . أما أن نعرف هذا ولكن نخشى التصريح الفعلي به ، خوفاً من استفزاز أعداء الشعب وخصومه ، الذين هم ، في نفس الوقت ، أعداء استقلالنا وسيادتنا الوطنية ، أولئك الخصوم الرجعيون ، الذين لم يثبتوا يوماً حسن نواياهم تجاه مصالح شعوب بلادهم ، والذين لا يتورعون عن بيع أوطانهم بأبخس الأثمان" 336 .

وفي معرض الإشارة إلى النداء الذي نشرته الهيئة المؤسسة لحزب التحرر الوطني في 25 أيلول/ سبتمبر 1945 ، يؤكد الحزب على ضرورة النضال من أجل المطالب التالية ضمن الجبهة الوطنية المقترحة:

"1- توحيد النضال من أجل حق التنظيم السياسي .

2- إلغاء القوانين الاستثنائية .

3- الدفاع عن استقلال البلاد وتعزيز سيادة الوطنية" 337 .

إننا نفهم من عبارة (الخصوم الرجعيون) تلك القوى التي كانت تأخذ بيدها زمام الحكم ، والتي كان يستحيل عليها الاستمرار في دفة الحكم دون مساندة بريطانيا آنذاك . وبغض النظر عن لون أو اتجاه الحكومة ولبرايتها إذ ذاك ، إنما كان واجبها الأساسي هو حماية (المعاهدة العراقية- البريطانية) التي كانت بمثابة الشريان للمصالح البريطانية في العراق والشرق الأوسط . وكانت بريطانيا تعرف جيداً وأحسن من أي جهة عراقية ، مدى حجم الثروة النفطية التي يملكها هذا البلد . وحتى عندما قررت إلحاق ولاية الموصل بالعراق ، فإنها لم تفعل ذلك حبا بسواد عيون الشعب العراقي ، بل رغبة في الهيمنة على منابع النفط ، إذ أنها كانت منذ نهاية القرن التاسع عشر تعرف أين توجد منابع النفط في هذا البلد الغني . كانت كل هذه الأمور قد حسمت قبل انتهاء الحرب العالمية الأولى ، وبالذات في معاهدة سايكس- بيكو التي وقعتها بريطانيا وفرنسا في العام 1916 ، إضافة إلى اتفاقية سيفر فيما بعد .

335 نفس المصدر السابق.

336 نفس المصدر السابق.

337 نفس المصدر السابق.

إن الفترة الليبرالية التي مرت على العراق بعد الحرب العالمية الثانية كانت بمثابة سحابة صيف ، إذ توافقت مع الوضع العالمي المنفتح ، ولم تكن بالنسبة إلى بريطانيا سوى فترة جس نبض لمعرفة إمكانيات وقدرات هذا الشعب الذي دوخها وهدد مصالحها منذ الحرب العالمية الأولى وبالذات بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية ، على مواجهة المصالح البريطانية ونفوذها في العراق . وكانت وزارة الخارجية البريطانية تصر على أن مصالح التاج البريطاني تتعرض لخطر شيوعي متزايد في العراق ، وخطر تصاعد دور الحركة الديمقراطية في الشرق الأوسط ، وخطر وصول الاتحاد السوفييتي إلى المياه الدافئة . وأثبتت أحداث سحق وثبة 1948 ومن ثم إعدام فهد ورفيقيه حازم وصارم ، وفيما بعد إعدام يهودا صديق وساسون دلال ، وكلاهما كان في قيادة الحزب في عام 1949 ، مدى بشاعة اليد الحديدية البريطانية التي لم يتمكن أي رادع من إيقافها عند تعلقها بمصالحها .

ولا شك في أن قيادة فهد كانت تعرف هذه الحقائق ، ولذلك حين تناولت ضمن مطالبها مسألة (المعاهدة العراقية- البريطانية) لم تؤكد في البدء على إلغائها- وهذه نقطة فيها ذكاء تكتيكي- ، بل صاغت المطلب بالشكل التالي : "إبعاد التدخل الأجنبي في شؤون دولتنا وإلغاء المركز الممتاز والامتيازات العسكرية وغيرها التي احتوتها بنود المعاهدة العراقية- الإنكليزية 338 . ومن الجدير بالذكر أن المذكرات الثلاث (المذكرة الأولى تحمل تاريخ 1945/12/24) التي قدمتها الهيئة المؤسسة لحزب التحرر الوطني إلى الأحزاب الأخرى بصورة دورية ، لا تتطرق هي الأخرى إلى مسألة إلغاء المعاهدة .

ورغم الاعتراف الضمني بمعاهدة 1930 ، رفض طلب منح الإجازة لعمل حزب التحرر الوطني ، ذلك أن السلطات العراقية إذ ذاك لم تتمكن أن تخطو خطوة واحدة ، ولاسيما في مجال حساس كإجازة الأحزاب ، دون استشارة المندوب السامي البريطاني . ولم تكن الجهات البريطانية من السذاجة بحيث يفوتها معرفة أن حزب التحرر الوطني إنما هو النسخة العلنية للحزب الشيوعي العراقي . إذ أن لغة الميثاق المطروح ، هي لغة أخرى تختلف اختلافا جذريا عن لغة الهيئات التحضيرية للأحزاب الأخرى التي نالت إجازاتها .

وتضمنت مذكرة الهيئة التأسيسية لحزب التحرر الوطني بشأن الجبهة الوطنية ، المقدمة إلى الحزب الوطني الديمقراطي وحزب الاتحاد الوطني وحزب الشعب وعصبة مكافحة الصهيونية المؤرخة في 1946/10/21 ، ميثاق الجبهة الوطنية . وجاء فيه بخصوص معاهدة 1930 ما يلي: "اعتبار المعاهدة الإنكليزية- العراقية ملغاة تاريخيا بحكم التطورات العالمية التي جاءت بها الحرب العالمية الأخيرة ، وبحكم ميثاق هيئة الأمم المتحدة التي تعتبر العراق عضوا فيها باعتباره دولة مستقلة ، إذ أن تلك المعاهدة فرضت على العراق في ظروف عالمية وداخلية ملائمة لبريطانيا .." .

عند تقديم هذه المذكرة ، التي تختلف لغتها اختلافا كليا عن المذكرات الأخرى ، كان الوضع الليبرالي قد انتهى ، وتركم مكانه لسياسات إرهابية قمعية جديدة . إذ تشكلت حكومة أرشد العمري وعمدت إلى تنفيذ بنود قانون مكافحة الشيوعية لكي تكافح من خلاله كل ما يمس (قدسية) المعاهدة العراقية - البريطانية ، ولكي تخلق الوضع الملائم الذي يهيئ الأجواء المناسبة لتنفيذ بنود هذه المعاهدة بدون صعوبات . وفي وقت لاحق إلى يوم إعدام فهد ورفيقيه ، لم تتمكن القوى الوطنية العراقية من تحقيق شعار الجبهة الوطنية ، سواء لأسباب ذاتية أم موضوعية . ويبدو لنا اليوم أن قيادة الحزب الشيوعي وقوى اليسار كانت متفائلة أكثر مما

ينبغي خلال تلك الفترة والعقود التالية أيضاً ، بالنسبة إلى دور الاتحاد السوفييتي وحركة التحرر العالمية والديمقراطية والشعارات التي كانت تطلق هنا وهناك ولا سيما في الولايات المتحدة الأمريكية حول حق الأمم في تقرير مصيرها ، وإذا كانت الولايات المتحدة تطمح من وراء محاولاتها إيجاد مواقع قدم لها في مناطق النفوذ البريطانية والفرنسية ، فإن القوتين الأخيرتين سبق أن اتفقتا مع الاتحاد السوفييتي على رسم خارطة جديدة للعالم . ولذلك فإن الشأن العراقي بالنسبة لبريطانيا ضمن دائرة الحلفاء ، كان أشبه بشأن ألمانيا الديمقراطية أو بولونيا بالنسبة للاتحاد السوفييتي . وهكذا ظلت صرخة الشيوعيين العراقيين والمعارضة العراقية وصرخة الحركة الكردية ، مجرد صرخة في واد . وعندما صرح رئيس وزراء بريطانيا ونستون تشرشل قانلاً ، بأنه تم القضاء على الشعبان الفاشي ، ولكنهم الآن أمام شعبان آخر ، هو البلشفية ، بدأ حينذاك وضع اللبنة الأولى للحرب الباردة بين المعسكرين . وأثبتت قوى المعسكر الرأسمالي أنها أكثر وعياً لمصالحها الطبقية من أي جهة أخرى .

لم تكن الأوضاع الدولية وجهود بريطانيا والحكم القائم وحدها السبب وراء إعاقة قيام الجبهة الوطنية العراقية ، بل كانت سياسات ومواقف جميع القوى والأحزاب الوطنية دون استثناء ، وبمقايير متفاوتة ، أيضاً وراء فشل جهود إقامة الجبهة الموحدة . وترتبط هذه النتيجة بمستوى وعي قيادات وقواعد الأحزاب السياسية وعجزها عن تجاوز نظرتها الضيقة للتحالفات ومصالحها الحزبية والطبقية الضاغطة . ورغم الجهود التي بذلها الحزب الشيوعي العراقي بقيادة فهد لإقامة الجبهة ، فإن أخطاء الحزب الشيوعي في التعامل مع القوى السياسية الأخرى ، وأخطاء القوى الأخرى في التعامل مع الحزب الشيوعي كانت هي الأخرى من بين أسباب ذلك الفشل . وكانت الخسارة فادحة لكل القوى السياسية الوطنية العراقية .

كانت لفهد سياسة إيجابية عموماً إزاء القوى الديمقراطية الأخرى ، إذ كان يرى بصواب ضرورة التعاون معها لتحقيق الأهداف الوطنية والديمقراطية للعراق . ولذلك ركز على ضرورة إقامة الجبهة الوطنية والتحالفات السياسية الممكنة لمواجهة الحكم في العراق . إلا أن ثلاث مسائل عقدت العلاقة بين الحزب والقوى الأخرى التي كان الحزب يقوم بها بغض النظر عن موقف القوى الأخرى ، التي نحن لسنا الآن بصدد البحث فيها ، رغم أنها كانت هي الأخرى مسؤولة عن رفض إقامة تحالفات سياسية مع الحزب الشيوعي العراقي ، وهي:

• محاولة تسريب أشخاص أو تشكيل كتل يسارية صغيرة في الأحزاب الأخرى بهدف التأثير على سياساتها من خلال رفاق أو أصدقاء كانوا يرسلون للعمل في تلك الأحزاب الديمقراطية . ويجب أن لا نغفل الإشارة إلى أن هذه الظاهرة لم تكن عراقية ، بقدر ما كانت عالمية واستخدمت من قبل جميع الأحزاب الشيوعية . واعتبرت الأحزاب والقوى الأخرى أن هذه الممارسة غير ديمقراطية وتستهدف زرع ألغام موقوتة فيها يمكن تفجيرها متى شاء أصحابها وتلحق أضراراً بالحركة السياسية والمعارضة العراقية . وجدير بالإشارة إلى أن هذا التسريب إلى الأحزاب الأخرى لم يكن بسبب رغبة ذاتية من هذا الشيوعي أو ذاك ، بل كانت ترتبط بقرارات حزبية تصدر من الهيئات الحزبية العليا دون أدنى ريب ، إذ أن النظام الداخلي وقواعد العمل في الحزب الشيوعي العراقي ، كانت تحرم ذلك إلا بقرار من الهيئة القيادية في الحزب ، أي اللجنة المركزية أو مكتبها السياسي أو السكرتير العام . ورغم أن زكي خيري يقول: "وكان فهد غير راضٍ عن اليساريين الماركسيين الذين دخلوا الحزب الوطني الديمقراطي للضغط على الجادرجي من داخل حزبه إذ كان يتوقع أن مثل هذا التكتيك سيؤدي إلى نتائج معكوسة . وكان مصيباً في تقديره هذا . فقد كان الجادرجي يعرفهم ومع

ذلك قبلهم أعضاء في حزبه وعندما أخذوا يعارضونه جهاراً شن حملة على "الشيوعيين" لأنهم جاءوا ليخربوا حزبه حسب زعمه" ، فإن هذه الممارسة كانت موجودة وأغاضت الآخرين؛

- مشاركة مجموعات من الشيوعيين في الاجتماعات الجماهيرية العامة التي كانت تعقدتها الأحزاب الوطنية الأخرى . ولم تكن هذه المشاركة الواسعة مخلة بنشاط الأحزاب الأخرى لولا ارتباطها بقيام أعضاء الحزب الشيوعي بطرح مهمات وشعارات الحزب في تلك الاجتماعات لإثارة الحوار حولها وتحريك الناس باتجاهها بالرغم من إرادة ورغبة الحزب صاحب الفعالية ، وكانت تخلق مثل هذه الأفعال إشكاليات غير قليلة ومصاعب في طريق التفاهم والعمل المشترك . وغالباً ما كانت تقود إلى صراعات ونشوء فوضى وإنهاء الاجتماعات بشكل غير مناسب؛
- النقد الشديد الذي كان يوجهه فهد للأحزاب الديمقراطية الأخرى على سياساتها ومواقفها من مواقع تبدو وكأن الحزب يمتلك الحل الأصوب والحقيقي . وكان هذا الموقف يثير تلك الأحزاب ويعطيها الانطباع وكأن فهداً مغال في الثقة بنفسه ومعتد برأيه ومتعال على الآخرين . هناك بعض المذكرات بهذا الصدد ، ومنها تلك المذكرة النقدية التي وجهها فهد إلى كامل الجادرجي بعد استيزار عضو من قيادة حزب الوطني الديمقراطي في الوزارة السعيدية التاسعة في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من عام 1946 ، إذ اعتبر هذه المشاركة بمثابة تزكية لوزارة لا تستحق ذلك وإنقاذاً لها من أزمة كان يمكن أن تعصف بالوزارة ، والتي أثارت الجادرجي كثيراً ، إذ كانت حادة في صياغتها ، رغم أن النقد كان وارداً ومفيداً . وانتهى الأمر باستقالة محمد حديد وآخرين من وزارة نوري السعيد بعد عدة أسابيع من عملهم المشترك 339 .

ومن هنا جاءت ملاحظات كامل الجادرجي ، رغم أنها قاسية من جهة ، وأنها وحيدة الجانب من جهة أخرى ، لكنها كانت تعبر عن مزاج قيادات الأحزاب الديمقراطية العلنية إزاء فهد والحزب الشيوعي العراقي حينذاك . وذكر حنا بطاطو ، نقلاً عن كامل الجادرجي "أن فهداً أظهر ثقة بالنفس وصلت إلى حد الوقاحة" 340 . أما رفعة الجادرجي 341 فقد كتب يقول ، نقلاً عن والده كامل الجادرجي حول فهد ، ما يلي: "وكان الوالد يعزو مواقف الحزب الشيوعي العراقي إلى عوامل شخصية ، ولم يكن يرى في شخص يوسف سلمان (فهد) أكثر من متهور ، غير مثقف

339 - بطاطو ، حنا د. العراق. الكتاب الثاني. الحزب الشيوعي. مصدر سابق. ص 190/191.

- الحسني ، عبد الرزاق. تاريخ الوزارات العراقية. المجلد السابع. مصدر سابق. ص 129-135.

340 بطاطو ، حنا د. العراق. الكتاب الثاني. الحزب الشيوعي. مصدر سابق. ص 142.

341 نقل رفعة الجادرجي على الصفحة 143 من كتابه الموسوم "صورة أب" عن مقابلة بين الوصي عبد الإله وكامل الجادرجي في البلاط الملكي عاد بعدها ممتعضاً جداً ، وحدثنا أن الوصي "ما عنده أخلاق" ، إذ بعد أن جلس الوالد أمام الوصي باشر هذا بتناول سيجارة وأخذ يدخن دون أن يقدم سيجارة للزائر. ثم روى كيف أنه اعتبر هذا التصرف قلة أخلاق ، ورغم أنه لم يكن متشوقاً للتدخين فقد أخرج في الحال سيجارة من جيبه وولعها لنفسه". وقد ذكرتني هذه الحادثة التي رواها رفعة الجادرجي بحادثة أخرى مماثلة تقريباً حدثت مع كامل الجادرجي. ففي عام 1954 ذهب وفد من مدينتي كربلاء والنجف إلى بغداد لزيارة كامل الجادرجي في مقره بجريدة الأهالي وتقديم مذكرة بشأن قضايا السلام في العالم. وكنت عضواً في هذا الوفد. وبعد أن حضر الجادرجي وجلس إلى منضدته الصغيرة في ركن الغرفة المقابل لبابها ، دخل أعضاء الوفد إلى الغرفة وسلموا عليه واحتلوا المقاعد في الغرفة المستطيلة. وكان الجادرجي يحظى باحترام وتقدير أعضاء الوفد. وكان أعضاء الوفد خليطاً من شيوعيين وديمقراطيين وأنصار سلام لا ينتمون إلى حزب معين. وقبل أن يبدأ الحديث بالموضوع أخرج الجادرجي سيجارة واحدة من علبة السجاير التي تستوعب خمسين سيجارة كرفن أي Graven A وولعها لنفسه ، ثم مَدَّ يده إلى مجر المنضدة وأخرج علبة سجاير تركي ، وأعطاهما لأحد الجالسين راجياً منه تقديمها للحضور. رفض الجميع أخذ سيجارة من علبة الجادرجي المخصصة كما يبدو للضيوف (تركي) احتجاجاً على هذه المعاملة غير الطبيعية. وعندما غادرنا المكان وأصبحنا في ساحة الدار ، قال المرحوم السيد صالح نصر الله (ويلقب بـ "مالوظه") ، وهو أحد ظرفاء مدينة كربلاء ، وكان في حينها عضواً نشيطاً في الحزب الوطني الديمقراطي ، يا جماعة الخير ، الآن أنا عرفت حقيقة جديدة ، والله إذا وصل الجادرجي للحكم راح يدخن سجاير "كرفن أي" أيضاً ويعطينا سجاير تركي". وضح أعضاء الوفد بالضحك والتعليق ، بسبب مضمونها الواضح للجميع. (ك. حبيب)



، وعديم الأخلاق . كان يردد دائماً أن يوسف سلمان قد صنف جميع الناس إلى فئات من الجواسيس كل حسب ما يتقاضاه ، فمنهم فئة أبو الخمسين فلس ومنهم فئة أبو العشرين فلس ، والشخص الوحيد المخلص والتقدمي هو فهد . وكان يقول: كيف يمكن التفاهم مع حزب يرأسه أمثال هذا؟"342 . ويبدو من هذا المقتطف أن الجادرجي كان متحاملاً على فهد ولا يكن له الاحترام دع عنك الود ، بسبب مواقف فهد وتقديراته لسياسات كامل الجادرجي ونقده لها . ولم يكن بعض هذا الإحساس ، وليس بهذا التطرف ، عند الديمقراطيين والماركسيين دون أساس . فزكي خيري ، الذي عاش مع فهد في السجن ، وكان من الرعيل الأول من المناضلين الماركسيين ، يشير في كتابه "صدى السنين" إلى خصومة فهد ومواقفه الحادة إزاء هذه الشخصيات الديمقراطية فيقول: "وكان لشدته في الخصومة السياسية مع الوطنيين الآخرين تأثير سلبي فعندما اشتدت الخصومة بينه وبين عزيز شريف بسبب دعوة الأخير لحل الحزب الشيوعي السري شبهه فهد بالديوان التي لا تريد أن تفارق الطين"343 .

ولكن رغم ذلك كان فهد واقعياً ولم يجد في الحزب القوة الوحيدة القادرة على تحقيق النصر أو تحريك الجماهير الشعبية وزجها في النضال ضد سياسات الحكومات المتعاقبة . ويتجلى ذلك في ذلك المقطع من دفاعه أمام محكمة الجراء الكبرى ببغداد عام 1947 ، حين قال: "نسب الادعاء العام إلى حزبنا جميع الأعمال والنشاط السياسي الوطني والعمالي ، التي حدثت في العراق في السنوات القليلة الماضية كإضرابات عمال السكك ، وإضرابات الطلاب والمظاهرات التي حدثت في بغداد والكاظمية ، وإضرابات عمال النفط في كركوك ، وتلقين جماهير الشعب الشعارات الوطنية كالجلاء وإلغاء المعاهدة . أننا فخورون أن تنسب إلينا مثل هذه الأعمال الوطنية . فهذه الإضرابات والمظاهرات ما هي إلا من صنع الجماهير لأنها تريد التحرر والانتعاق من ربة الاستعمار ، وممارسة حقوقها الديمقراطية تثبتاً لنظام الحكم الديمقراطي ، لا كما يريد أن يصورها الادعاء العام "إظهار العراق بمظهر البلد الثائر على ... الحياة الاجتماعية وتقاليدها" . أما القول بتحريض حزبنا الشيوعي عمال النفط والسكك على الإضراب ، وإصدار منشور يؤيد فيها إضرابهم ، فنقول: إن التناقض موجود وعميق بين مصالح العمال العراقيين وبين المصالح الأجنبية ، والمؤسسات التي يسيطر عليها الأجانب . إذ أن العامل في النفط والسكك والميناء لم يطلب من هذه الإدارات سوى تطبيق ضمان أجر يقوم بالحد الأدنى لمستوى معيشته ، بينما يريد هؤلاء الأجانب التملص من تنفيذ القوانين العراقية بحق هؤلاء الأجانب من تنفيذ القوانين العراقية بحق العامل ، وإبقاء الأجور متدنية . فماذا يطلب أن يكون موقف الحزب الشيوعي؟ هل يطلب منه أن يقف إلى جانب العمال العراقيين أم يقف إلى جانب الأجانب الذين يستنزفون دماء عمالنا ، بالإضافة إلى استنزاف ثروة وطننا بأسره؟" .

"إننا نقف أمام محكمتم الموقرة ، ونحن لا نطلب الرحمة ، إذ أن الرحمة للمذنب ، ولأننا لا نريد حماية أنفسنا ومصالحة أشخاصنا ، وإنما نريد العدل لأننا نريد حماية سمعة القضاء العراقي الذي نحرص على سمعته ومصالح الوطن العراقي . إذ أن الديمقراطية التي لا تتسع لنشاط أشد المناضلين صلابة وأكثرهم عناداً ، وأدراهم بأساليب الاستعمار ونواياه لا يمكن أن

342 الجادرجي ، رفعة. صورة أب. الحياة اليومية في دار السياسي كامل الجادرجي. مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت. ط1. 1985. ص 143.

343 خيري ، زكي. صدى السنين. مصدر سابق. ص 130.

تكون ديمقراطية يقرها الرأي العام العالمي الحر ... إننا نختم دفاعنا هاتفين بحياة شعبنا وحياة  
العدالة"344.

---

344 شيوخيون أمام المحاكم. دار الفارابي. بيروت. بدون تاريخ. ص 163/164.

## الفصل الرابع : الحركة النقابية

أشرنا سابقاً إلى أن نمو الطبقة العاملة في العراق كان بطيئاً جداً ومحدوداً في مجالات وجود وعمل العمال خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . وكان النمو الملموس للعمال المنحدرين من أصل فلاحى عموماً قد حصل في فترة الحرب العالمية الأولى وما بعدها في مجالات أساسية ، وهي:

1. قطاع النقل الذي ارتبط بالنشاط التجاري المتسع للشركات الأجنبية في كل من بغداد والبصرة والموصل على نحو خاص ، سواء كان استيراداً أم تصديراً ، علماً بأن حجم الاستيراد والتصدير في أسواق العراق المحلية أو إعادة التصدير كان أوسع من صادرات العراقية نحو الخارج قبل البدء باستخراج وتصدير النفط الخام . ونما قطاع النقل في الموانئ والسكك الحديدية ، إضافة إلى النقل البري والنهري وزيادة عدد العمال المشتغلين في هذه المجالات ، رغم أن القسم الأكبر من المشتغلين في هذه القطاعات كانوا في فترة الحرب العالمية الأولى من الأجانب . فعلى سبيل المثال لا الحصر تشير المعلومات المتوفرة التي ينقلها إلينا الباحث السوفييتي الدكتور كاتلوف والباحث العراقي الدكتور كمال أحمد مظهر وغيره إلى أن عدد المشتغلين في مشاريع السكك في عام 1918 بلغ 2500 شخصاً وزعوا على النحو الآتي وفق جنسيتهم 345 :

جنسية المشتغلين	عدد المشتغلين	نسبتهم إلى المجموع
الهنود	2000	80 %
الأوروبيون	250	10 %
العراقيون	250	10 %
المجموع	2500	100 %

المصدر: - كاتلوف ، ل . ن . انتفاضة 1920 الوطنية التحررية في العراق . موسكو . 1985 .

- أحمد ، كمال مظهر د . ثورة العشرين في الاستشراق السوفييتي . كلية الآداب . جامعة بغداد .

بغداد . 1977 .

2. قطاع البناء والطرق والجسور .

3. قطاع الصناعات الحرفية والمانيفاكاتورة التي تطورت تدريجاً في العقدين الثالث والرابع إلى نشوء صناعات ميكانيكية حديثة نسبياً .

ولعبت التجارة الخارجية -الاستيراد- دوراً سلبياً ملموساً من ناحية وإيجابياً من ناحية أخرى ، إذ أنها زاحمت بشكل شديد الصناعات الحرفية وأدت بالعديد من الحرفيين إلى غلق ورشاتهم والتحول إلى عمال نتيجة للمنافسة الحادة غير المتكافئة من جهة ، كما دفعت بالبعض من أصحاب المشاريع الحرفية إلى التفكير بتوسيع ورشاتهم واستيراد منشآت أكثر حداثة لتحسين مستوى إنتاجها وتمكينها من مقاومة المنافسة الأجنبية نسبياً ، خاصة وأن قانون تشكيل جمعية أصحاب الصنائع وقانون حماية الصناعة الوطنية ، اللذين صدر في عام 1929م ، لعبا دوراً

345 - كاتلوف ، ل . ن . انتفاضة 1920 الوطنية التحررية في العراق . موسكو . 1985 .

- أحمد ، كمال مظهر د . ثورة العشرين في الاستشراق السوفييتي . كلية الآداب . جامعة بغداد . بغداد . 1977 .

مهماً في تشجيع الصناعة وتحفيز أصحاب رؤوس الأموال على التوظيف في المشاريع الصناعية .

4 . قطاع التنقيب عن النفط واستخراجه وتصديره الذي بدأ في العشرينات ثم نما وتطور في الثلاثينات من القرن العشرين .

وفي هذه المجالات الأربعة برز النشاط النقابي العمالي بالنتائج تقريباً ، علماً بأن جمعيات النشاط الحرفي كانت أقدم من غيرها ، ولكنها كانت تقوم على أساس الجمع بين أصحاب الورشات والعمالين فيها في آن واحد . وعلى هذا الأساس نشأت أيضاً وأجيزت جمعية أصحاب الصناعات التي تم تقديم الطلب بتأسيسها في عام 1924 وأجيزت في عام 1927 .

تميزت الفترة الأولى من الهيمنة البريطانية ببروز بعض النشاطات العمالية التي لم يرتبط بنشاط نقابي منظم أو موجه ، بل كان نتيجة الواقع المزري الذي عاشه العمال سواء في البصرة أم في بغداد أم في المناطق الأخرى . وتعرض العمال العراقيون المستخدمون في مشاريع القوات المسلحة البريطانية وفي ميناء البصرة أو المناطق الأخرى التي كانت خاضعة لسيطرتها أثناء الحرب العالمية الأولى وما بعدها إلى الكثير من الجور والاضطهاد والتمييز في المعاملة والاستغلال الشديد . وتجلّى ذلك في الوقائع التالية:

• رفض تشغيل كثرة من العمال العراقيين من طالبي التوظيف وتفضيل الأجانب ، وخاصة الهنود ، عليهم . وأدى ذلك إلى زيادة كبيرة في عدد العاملين الأجانب بالقياس إلى عدد العمال المحليين ، كما بينا ذلك في أعلاه؛

• تمييز شديد في المعاملة بين العمال الأجانب والعمال العراقيين لصالح العمال الأجانب في مختلف مجالات وشؤون العمل والأجور؛

• قلة الأجور المدفوعة للعامل العراقي وصعوبة استجابتها لحاجات عملية إعادة إنتاج قوة العمل ، سواء للعامل ذاته أم لأفراد عائلته . وعمد البريطانيون إلى تشغيل الأطفال والنساء بساعات أطول وأجور أقل واستغلال أكثر بشاعة . وفي أحد المشاريع في بغداد مثلاً بلغ عدد العمال فيه 2900 شخصاً كانت نسبة النساء فيه 40 % أو ما يعادل 1100 امرأة 346 .

• كما عمدوا إلى تشغيل السجناء عبر المقاولين العراقيين وبأجور أقرب إلى السخرة منها إلى العمل الحر المأجور . وتشير المعلومات المتوفرة إلى أن عدد السجناء الذين تم تشغيلهم بلغ 12000 شخصاً 347 . ووفق المعلومات التي تشير إليها المصادر الأجنبية ونقلًا عن تقرير كتب عن العمال خلال الفترة بين 1916-1919 ، بلغ عدد الوفيات في وحدة عمل سجناء مؤلفة من 1215 شخصاً ، 90 شخصاً خلال 25 شهراً ، أي بمعدل شهري قدره 4 أشخاص تقريباً ، أو بنسبة قدرها 7 ، 42 % من إجمالي عدد السجناء المسخرين للعمل في تلك المشاريع 348؛

• رداءة ظروف العمل والعيش والسكن بالنسبة للعمال العراقيين؛

• تفاقم عدد الإصابات بأمراض العمل وحوادث الوفاة والتعويق والتشويه أو المرض دون أن تدفع لهم أو لأفراد عوائلهم تعويضات ، إذ كانت تفرض على كل عامل التوقيع على تعهد ظالم أشرنا إليه في مكان آخر من هذا الكتاب؛

• إعطاء العراقيين وظائف أدنى بكثير من الوظائف التي تمنح للأجانب ، بالنسبة إلى المستويات المتماثلة أو المتقاربة؛

346 أحمد ، كمال مظهر د. الطبقة العاملة العراقية. مصدر سابق. ص 121. نفس المصدر السابق. ص 43.

347 نفس المصدر السابق. ص 43.

348 نفس المصدر السابق. ص 49.

- ساعات العمل الطويلة التي كانوا يجبرون على مواصلة العمل فيها والتي تزيد أحياناً كثيرة عن 12 ساعة في اليوم؛
  - الطرد الكيفي من العمل ، وعدم وجود أية ضمانات لهم تحميهم من تعسف أصحاب العمل ، وكذلك النقل من موقع إلى آخر ومن مدينة إلى أخرى تلحق أضراراً فادحة بالعمال وعائلته؛
  - إنزال أقسى العقوبات بالعمال لأتفه الأسباب ، سواء عقوبات جسدية أم مالية .
- وكان هذا الواقع المزري يثير عند العمال الغضب والتذمر ، حتى أجبر العمال تحت ضغط هذا الواقع إعلان الإضراب عن العمل في أكثر من موقع خلال فترة الحرب ، أي في عام 1918 ، كما حصل في النجف وفي البصرة 349 . ولم تكن تلك الإضرابات ناتجة عن وعي طبقي واضح للعمال إزاء الرأسمالي أو صاحب العمل المستغل لهم ، بل جاءت نتيجة تفاقم الظلم والظلم والحرمان والإساءات وإهانة الكرامات التي كانوا يتعرضون لها ، بحيث نفذ الصبر وامتأ الكأس ففاض . فتبلورت في مجرى العمل والاحتجاج مجموعة من المطالب العمالية التي عبرت عن واقع الحال حينذاك . ويمكن تلخيص أبرزها فيما يلي:
- تحسين ظروف العمل وزيادة الأجور المدفوعة؛
  - معاملتهم أسوة ببقية العمال الأجانب؛
  - زيادة عدد العمال العراقيين العاملين في المشاريع المختلفة . وتجلي هذا المطلب في قانون حماية وتشجيع الصناعة الوطنية حيث ورد في القانون ما يؤكد عدم تشغيل العمال الأجانب بنسبة تزيد عن 10 % من مجموع عدد المشتغلين في المعامل التي تقام على أساس التمتع بالحماية الصناعية .
- ومن الجدير بالإشارة إلى أن بعض المدن العراقية ، ومنها مدينة الناصرية مثلاً ، عرفت حركة نقابية حرفية مهمة ارتبطت بالمهنة أو بالحرف القائمة فعلاً ، وكان لكل جماعة من هذه الجماعات الحرفية علمها الذي يتميز بلون معين يختلف عن أعلام بقية الحرف . وأمكن العمل مع هذه الجماعات الحرفية بشكل جيد . ولهذه الظاهرة تقاليد قديمة في العراق يرجع تاريخها إلى العهد العباسي .
- كان العمال العراقيون ، ورغم وعيهم الطبقي الضعيف نسبياً حينذاك ، يشاركون بقية فئات المجتمع العراقي في موقفها من الاحتلال البريطاني للعراق ويمارسون السياسة من مواقع وطنية مناهضة للاحتلال . إذ أنهم شاركوا في حينها في ثورة العشرين وتعرضوا للكثير من الصعوبات ، كما سقط أول شهيد من أوساطهم في عشية ثورة العشرين (24 أيار/مايس 1920) ، وهو نجار أخرس من بغداد "شيعته الجماهير في اليوم التالي ومنحته لقب شهيد الوطن" 350 .
- وكانت مجموعات من الحرفيين والعمال العراقيين ، رغم أن نسبة عالية منهم كانت تعاني من أمية القراءة والكتابة ، تشارك قبل ثورة العشرين وما بعدها بمتابعة الأخبار وما كانت تنشره الصحافة العراقية والعربية أو ما كان ينقله المسافرون والقادمون من الخارج من أخبار حول الأوضاع العربية والدولية وعن انتصارات العمال على القيصرية وقيام دولة اشتراكية يقودها العمال والفلاحون 351 . وكان لهذه المعلومات رغم شحها تأثيرها الملموس على المتعلمين من الحرفيين ومن أبناء العوائل ذات الأوضاع المعاشية المتوسطة . ومن بين هؤلاء برزت فكرة تشكيل وقيادة الجمعيات العمالية التي في مقدورها تنظيم عمل العمال وأجورهم وساعات عملهم

349 نفس المصدر السابق. ص 48.

350 نفس المصدر السابق. ص 122.

351 نفس المصدر السابق. ص 120.

وظروف عملهم والتخفيف من معاناتهم اليومية . وبدأت هذه التحركات في أكثر من موقع في العراق في آن واحد تقريباً نتيجة لتشابه الظروف ، وخاصة في كل من بغداد والبصرة وفي المجالات التي كان فيها تجمع للعاملين في تلك المشاريع ، ومنها السكك الحديدية والميناء أو الحرف التي كانت تواجه مصاعب غير قليلة . وكان لهؤلاء علاقة واضحة بجماعة الرحال باعتبارهم رواد الفكر الاشتراكي والتقدمي في العراق ، إذ انعكس ذلك في ما نشرته هذه الجماعة من مقالات حول مشكلات العمال والفلاحين وقضايا المرأة والعلاقة بين هذه المشكلات المباشرة والهيمنة الاستعمارية على البلاد .

يشير الدكتور كمال مظهر أحمد إلى أن التحركات الأولى للعمال التي تعبر عن وجود تلمل عمالي من أوضاعهم السيئة برزت في أوائل العقد الثالث من القرن العشرين ، كما "لم يكن مجرد صدفة أن قامت مديرية البلدية الأولى ببغداد في تموز 1922 بانتخاب رؤساء لكل صنف من أصناف العمال وأصحاب الصنائع قيمته الصحافة كخطوة أولى "في أمر تأسيس نقابات منتظمة للعمال مما يعود بالفوائد الجمة على حالة البلاد الاقتصادية" 352 . وكان لاحتكاك العمال العراقيين وأصحاب الصنائع أو الحرفيين بالمستخدمين البريطانيين والهنود ، سواء كان ذلك في القوات المسلحة البريطانية والمشاريع التي كانت تديرها ، أم في المشاريع الاقتصادية التي كانت تهيمن عليها ، مثل السكك الحديدية والميناء ، تأثيره في تعرف العراقيين المباشر على بعض جوانب المجتمع المدني الذي تمثل في النوادي الثقافية والاجتماعية التي كان المستخدمون الأجانب يقيمونها في مواقع عملهم وسكنهم وفي مدن مثل بغداد والبصرة والموصل ، وتعرفهم على النقابات العمالية وحقوق العمال ، إضافة إلى دور الصحافة العراقية في هذا الصدد . وبدأت أولى محاولات العراقيين لتأسيس نادي ثقافي واجتماعي وإقامة جمعيات تخص مهناً معينة في عام 1924 لتتسع في السنوات اللاحقة وتصبح ، مع نهاية العقد الثالث وقيام جمعية أصحاب الصنائع ، ظاهرة مهمة في العراق . وكانت المبادرة الأولى في هذا الصدد ، ووفق ما جاء إلينا ، في عام 1924 حين قامت مجموعة من العمال والمستخدمين ، وهم محمد صالح القزاز ومحي الدين محمد وقاسم عباس ، بتقديم طلب إلى وزارة الداخلية لتأسيس نادٍ للعمال في بغداد . ولم تكتف الجهات المسؤولة برفض الطلب ، بل اعتبرته استفزازاً وتحريضاً للعمال ، وبالتالي قامت الجهات المسؤولة في مؤسسة السكك بنقل قاسم عباس ، العامل في السكك ، "من محل عمله إلى مكان آخر" وأوقفت في تلك السنة ما يستحقه وزميله محمد صالح القزاز "من زيادة مقررة في أجورهما" ، رغم وجود نادٍ مماثل للمستخدمين الأجانب في بغداد حينذاك 353 . وفي البصرة تحرك المثقفون والعمال لتشكيل نادٍ لهم لعب دوراً مهماً في الحياة الفكرية والسياسية حينذاك .

وخلال تلك الفترة لعبت بعض الوجوه العمالية والحرفية المعروفة والتميزة بالوعي والدأب والجرأة على تبني مطلب إقامة الجمعيات والنقابات العمالية والحرفية . فظهرت في بغداد في عام 1929 مجموعة من الجمعيات الحرفية والعمالية التي لعبت دوراً كبيراً في الجانب المهني أو النقابي العمالي وساهمت برفع وعي وثقافة العمال العامة ، وخاصة إزاء حقوقهم المهذورة . وكان أبرز هؤلاء القادة النقابيين وأكثرهم حيوية ووضوحاً في نشاطه ودوره ، كما تشير إلى ذلك أغلب الدراسات التي بحثت في قضايا العمال والنشاط النقابي حينذاك ، هو محمد صالح عبد الجبار القزاز ، الذي انتخب رئيساً لجمعية أصحاب الصنائع بعد إجازتها رسمياً من قبل وزارة

352 نفس المصدر السابق. ص 22. واستناد في ذلك إلى جريدة العراق. بغداد. 18 تموز 1922.

353 نفس المصدر السابق. ص 125/124.

الداخلية في العاشر من شباط/فبراير عام 1929 . وكانت رغبة المؤسسين أن يكون اسمها جمعية عمالية ، إلا أن الوزارة رفضت ذلك الاسم وتقرر استبداله بالاسم الجديد ، الذي أعطى الانطباع وكأنه يضم بالأساس أصحاب الحرف المختلفة ، ولكنه كان يضم العمال وأصحاب الحرف في آن واحد ، وشكل العمال أغلبية أعضاء الجمعية . وساهمت عدة عوامل في تنشيط الحركة العمالية النقابية في العراق ، وهي:

**\*\* شدة الاستغلال وقلة الأجور والحرمان من الحقوق والضمانات الاجتماعية والصحية التي كان يعاني منها العاملون في هذه الفترة ، سواء كان ذلك في المشاريع الأجنبية أو المشاريع الحكومية العراقية . وعبرت عن ذلك السيدة كاتلين لانكلي في كتابها الموسوم "تصنيع العراق" حين كتبت عن هذه الفترة تقول: "أما مديرية الأشغال العامة ، التي كانت مسؤولة عن الطرق ، فقد حاولت ، تحسين ظروف العمل . ففي عام 1929 كتب أحد الموظفين أنه من الصعب ضمان حصول العمال على أجور يومية تكفي لسد نفقات الطعام والسجاير ، لأن الحكومة تتوقع أن تستمر الظروف التي سادت في العهد العثماني ، مع أن تلك الظروف لم تكن أحسن بكثير من العبودية . ولم توافق الحكومة حتى في عام 1929 على تعويض العمال المصابين بجروح ، كما لم توافق على معالجة المرضى ، وإعطاء تعويضات لزوجات وأولاد الذين كانوا يتوفون أثناء الواجب . وفي عهد الانتداب ، بعد ثلاث سنوات ، فقط أصبح التعويض عن الجروح والموت أمراً اعتيادياً ، على الرغم من أن أحد الموظفين قال "يظهر كما لو أن قانوناً خاصاً يجب أن يصادق عليه البرلمان حول كل حادث ، وهذا يتطلب وقتاً طويلاً" . وأن المبلغ المدفوع للتعويض كان لا يزيد في الغالب على 8 دنائير"354 . وأمكن انتزاع حق التعويض في شركة النفط العراقية وفي السكك بنضال العمال ، رغم كونه كان قليلاً ، في حالة الإصابة أو الموت أثناء أداء الواجب .355 كان الطرد الكيفي من العمل المفاجئ دون ذكر الأسباب أحد الظواهر العامة والسائدة في البلاد ، إضافة إلى إملاء تعهدات يفرض على العامل التوقيع عليها التي تلزمه بعدم المطالبة بحقوقه المشروعة وخضوعه الكامل للإدارة . وبرزت هذه الظاهرة بوضوح في شركات النفط الاحتكارية التي كانت تستبدل العمال بعد فترات وجيزة لا تتجاوز عدة سنوات من أجل التملص من الحقوق التي تفرضها طيلة الفترة وإعطاء الانطباع وكان الشركة تشغل عمالاً جدد ، إضافة إلى التخلص من أولئك الذين تعتبرهم خطراً على المؤسسة نتيجة نشاطهم النقابي أو السياسي وقيادتهم العمال للمطالبة بحقوقهم المشروعة .**

**\*\* تفاقم حجم البطالة في البلاد بالارتباط مع تفاقم الأزمة التي عمّت العالم الرأسمالي كله ، وبالتالي فإن الحركة المطالبة بإيجاد فرص عمل للعاطلين كانت في تنامي جسدها الحركة النقابية ، خاصة وأن أصحاب الأعمال كانوا يفرضون على العمال زيادة ساعات العمل وتقليل الأجور بسبب وجود عدد كبير من العمال العاطلين المستعدين للعمل بأجور أوطأ مما كانت تدفع للعاملين .**

**\*\* ولعبت الأزمة الخانقة التي عرفتھا الفترة الواقعة بين 1929-1933 دوراً سيئاً جداً على حياة وعمل كادحي العراق ومن جوانب عديدة . وحركت تلك الأوضاع العمال والعاطلين عن العمل والسكان للقيام بإضرابات غير قليلة شملت مطالب مختلفة منها زيادة الأجور وزيادة فرص العمل وتقليل الضرائب التي كانت في ارتفاع مستمر وتخفيض الأسعار التي كان التجار يتلاعبون بها كما يشاعون ... . وكان أكبر وأكثر تلك الإضرابات ذلك الذي وقع في عام 1931**

354 لانكلي ، كاتلين م. تصنيع العراق. مصدر سابق. ص 189.

355 أحمد ، كمال مظهر د. الطبقة العاملة العراقية. مصدر سابق. ص 85.

والذي تحدثنا عنه في مكان آخر وقاد في النهاية إلى سقوط وزارة الباجي وتشكيل وزارة نوري السعيد التي عدت إلى العنف الدموي لفرض إرادتها على المضربين وسحبت إجازة جمعية أصحاب الصنائع ودفعت بمسؤوليها إلى الإبعاد أو السجن أو الطرد من العمل . وكانت حصة قائد الحركة النقابية ، محمد صالح القزاز ، غير قليلة من نقمة الحكام حينذاك .

\*\* ولم تكن أساليب الإهانة والملاحقة وفض الإضرابات بالعنف الحكومي والتعسف ، إضافة إلى التعذيب ، بما فيه الجلد من جانب القوات البريطانية ، ومن ثم السجن والإبعاد أقل إثارة للعمال العراقيين من العوامل الأخرى التي دفعتهم صوب العمل النقابي دفاعاً عن كرامتهم ومصالحهم وحقوقهم الأساسية .

وكان للقائد النقابي محمد صالح عبد الجبار القزاز الدور المتميز في تعبئة الحرفيين والعمال صوب مطلب إقامة نقابات وجمعيات ونوادي المجتمع المدني ، إذ حقق بذلك نجاحات غير قليلة . وتميز هذا النقابي البارز ، وهو ابن حرفي يشتغل بالقز ، بخصائص مهمة بالنسبة للعمل النقابي والحركة العمالية والعلاقات المباشرة مع العمال والحرفيين . وكان في الوقت نفسه مثقفاً ديمقراطياً وتقدماً واعياً ، كما كان يشعر بالانتماء الكامل للطبقة العاملة ويحس بمشكلاتها ومتاعبها والحياة الصعبة التي تعيش فيها ، كما كان يشعر بمسؤوليته المباشرة للمشاركة في النضال في سبيل تنمية وتطوير حركتها وإعلاء شأنها وتحقيق خلاصها من تلك الأوضاع المزرية . وكان في سلوكه اليومي متواضعاً قريباً من قلوب العمال ومن فهم مشاكلهم وسبل معالجة نزاعاتهم . كما امتلك القدرة على التعامل السياسي المرن مع الأحداث دون مساومة مضرة . ورغم علاقاته الواسعة بالسياسيين والأحزاب الديمقراطية فإن سعى إلى تجنب النقابات من العمل السياسي المباشر ، ولكنه لم يبعدها عن ربط قضاياها بالقضايا الوطنية الأساسية بما فيها ، وعلى نحو خاص ، مسألة التخلص من الهيمنة الأجنبية ورفض معاهدة 1930 .. الخ . كما تميز القزاز بقدرته على التعامل مع العمال الحرفيين وأصحاب الحرف ، بسبب قربه من تلك المجالات وإيجاد لغة مشتركة في هذا الصدد دون التفريط بمصالح العمال .

ولمحمد صالح القزاز دور كبير في النشاط النقابي العراقي في العقد الثالث والنصف الأول من العقد الرابع على نحو خاص ، حيث كانت هذه الحركة ما تزال في مهدها ، سهم في بنائها وفي إعطاء سماتها الأساسية والتأثير في اتجاه نضالها . وكان للقزاز دوره في نشر الحركة النقابية لا على صعيد بغداد فحسب ، بل انصب جهده وسعيه الحثيث لتوسيعها وإيصالها إلى بقية المدن العراقية ، إضافة إلى محاولته تعزيز علاقة الحركة النقابية العراقية بالحركة النقابية العربية والعالمية . ومن هنا نشأت تلك العلاقة الجديدة مع الاتحاد العالمي لنقابات العمال ومع مكتب العمل الدولي في جنيف . ولعب القزاز دوراً بارزاً في صياغة مطالب العمال الأساسية في برنامج "جمعية أصحاب الصنائع" ، رغم عدم ذكر أسم العمال في النظام الداخلي للجمعية ، مع أن العمال شكلوا القاعدة الأساسية لتلك الجمعية وقوامها الرئيسي 356 . وساهم القزاز بدور مباشر ، وبالتعاون مع بقية النقابيين البارزين من أمثال محمد مكي الأشتري رئيس "جمعية تعاون الحلاقين" ، في صياغة المواد الأساسية لقانون العمل والعمال الذي قدم مسودته كمقترح إلى المسؤولين العراقيين والبرلمان العراقي . وكان لهذه المبادرة تأثيرها الملموس على الجوانب الإيجابية التي برزت فيما بعد في بنود القانون الذي أقر في عام 1936 . وكما يشير الدكتور كمال مظهر أحمد "فقد قدم رئيس "جمعية أصحاب الصنائع" محمد صالح القزاز



مذكرة تفصيلية إلى الجهات المسؤولة في 1931/3/31 تضمنت اقتراح 19 بندا عالجت أهم المشاكل التي كان يعاني منها العامل العراقي كتحديد يوم العمل بثمان ساعات نهاراً وست ساعات ليلاً (البند الأول) ، ومنح العمال أجورهم خلال العطل الرسمية والإجازات المرضية (البند الثاني والثالث) ، وضمان التعويض والتقاعد للعامل في حالة إصابته أو شيخوخته (البندان الرابع والخامس) ، ومنع تشغيل الأطفال والأجانب (البندان السادس والسابع) ، وتدريب العمال (البند الثامن) ، و "محافظة حقوق العمال من اضطهاد أصحاب رؤوس الأموال" ورؤساء المعامل والشركات إما بتأسيس مكتب للعمال أو بتشكيل لجان كلجان الانضباط تكون مهمتها النظر في دعاوى العمال وشكاواهم" (البند التاسع) ، أما بقية المواد فكانت تخص مسائل مكافحة الأمية بين العمال والعناية بالصحة بهم وتحديد الأجور وما شابه من أمور... "357.

وفي الوقت الذي كان محمد صالح الفزاز يعمل على تطوير الحركة النقابية في بغداد وتوسيعها صوب المدن الأخرى ، كانت مجموعات أخرى من النقابيين تعمل بدورها أيضاً في بغداد والبصرة والناصرية والموصل وفي غيرها من المدن حيثما وجد عمال وفي مختلف المجالات . وبرزت في هذا المجال مجموعة البصرة والناصرية ، حيث كان للحلقات الماركسية دورها المتميز في التعبئة النقابية والتي تجلت بشكل خاص في إضرابات عام 1931 . وكان على رأس هذه الحركة في كل من تلك المدينتين فهد وحسن العياش وغيرهما . وما تزال ذكرى القائد العمالي والنقابي حسن العياش الذي اغتيل بدس السم له بعد مقابلة طويلة أجراها معه نوري السعيد ، رئيس الوزراء حينذاك ، بتاريخ 1931/7/19 في مدينة البصرة . ولكن المعلومات المتوفرة تشير إلى أن المغريات التي قدمت لحسن العياش من جانب نوري السعيد رفضت بحزم وإصرار من جانب العامل النقابي والثوري المتمرس حسن العياش ، إذ رفض المساومة على حساب العمال ومصالحهم الأساسية ، مما أغاض نوري السعيد وقرر التخلص منه نهائياً . فكان أن دس رجال الأمن له السم في طعامه فمات شهيداً في 1931/7/25 ، أي بعد أسبوع واحد من المقابلة التي نظمت له مع نوري السعيد . وكان نوري السعيد قد اتخذ جملة من الإجراءات ضد الحركة النقابية وضد حرية الإضراب والنشاط السياسي ، بما فيها إنزال عقوبات قاسية بالمخالفين لنصوص المرسوم الجديد رقم 90 الصادر في 1931/7/16 358 .

وفي مجال الحركة النقابية العراقية أبدى فهد منذ وقت مبكر اهتماماً خاصاً بها ، سواء عندما كان في البصرة أم بعد انتقاله إلى الناصرية أم عند ترده على بغداد ثم انتقاله إليها نهائياً بعد عودته من الدراسة في موسكو . وكانت سفرتة إلى سوريا ولبنان وفلسطين قد أتاحت له فرصة الاطلاع على الحركة النقابية في هذه البلدان الثلاث ، إذ كانت الحركة قد قطعت شوطاً مهماً ، كما أصدر النقابيون في لبنان كراسات عن الحركة النقابية عموماً وصلت إلى العراق ووصلت إلى أيدي بعض العمال النقابيين وساعدتهم في فهم مدلولات الحركة النقابية وفي تحسين مستوى نشاطهم النقابي . كما كانت سفرتة إلى موسكو ودراسته فيها ، ثم مشاركته في مؤتمر النقابات العمالية في موسكو في عام 1935 ، إضافة إلى دراسته الخاصة حول الحركة العمالية على الصعيد الدولي التي منحتها إكاديمية التشخيص الجيد لأهمية ودور النقابات في حياة الطبقة العاملة العراقية وفي النضال المهني الذي تخوضه . ولهذا ، سعى فهد خلال سنوات الحرب العالمية الثانية إلى تنشيط العمل من أجل إعادة تكوين نقابات العمال والجمعيات الفلاحية

357 نفس المصدر السابق. ص 106.

358 بعض المقدمات السياسية والنضالية الوطنية والطبقية لنشوء الحزب الشيوعي العراقي. مجلة "الثقافة الجديدة" العراقية. العدد 152. آذار 1984. ص 47-77.

والمنظمات المهنية الأخرى وتحريك العمال لتعزيز مطالبهم بإجازة نقاباتهم وجمعياتهم . وفي جريدة الحزب السرية ، "القاعدة" ، نشر فهد في عدد أيلول/سبتمبر من عام 1944 مقالة تحت عنوان "النقابة شعار العمال اليوم" طرح فيها تصورات حول طبيعة الحركة النقابية وسمات النقابات ومهامها وأسسها التنظيمية ، وتضمنت ما يلي:

"إن الشروط الأساسية للتنظيم النقابي هي:

1. أن يضم التنظيم النقابي جميع المشاريع ، آلية وغير آلية وأن يضم الأكثرية الساحقة من العمال الماهرين وغير الماهرين .

2. تثبيت النقابات وتقويتها والدفاع عنها والحيلولة دون التفريق بين العمال .

3. منع تسرب نفوذ أرباب الأعمال والنفوذ المعادي بصورة عامة إلى قيادة الحركة النقابية ومنع تسييرها في اتجاهات ممقوتة لا تخدم مصالح الطبقة العاملة في مرحلتها الراهنة"359 .

وبرز في مقالته أهمية إسناد الحركة الوطنية العراقية للحركة النقابية ونضال العمال في سبيل حقوقهم المهنية ، نظراً لدورها في النضال حينذاك ، إذ كتب معللاً ذلك بقوله: "أولاً - الجبهة الأولى الوحيدة آنذاك ، في النضال الوطني ، تفتح الباب للتنظيم النقابي الذي لا بد أن يتبعه أشكال أخرى من التنظيم السياسي الديمقراطي ، وثانياً - لأنها تهدف رفع مستوى الطبقة العاملة العراقية التي هي أكبر طبقة مدنية يقع على عاتقها تحرير المجتمع في المستقبل"360 . ومنه يستدل على أن نظرة فهد إزاء النقابات كانت تقوم على فهم لينيني بولشفي صارم لطبيعتها ومهامها وموقعها النضالي ، إذ سادت في الاتحاد السوفييتي حينذاك النقابات الحمراء التي كان يراد تمييزها عن بقية النقابات في البلدان الأخرى ، وكان هناك عدم اعتراف ببقية النقابات التي لم تكن لها صلة بالحركة الشيوعية العالمية أو كانت لها صلة بالأحزاب الاشتراكية الديمقراطية أو الأممية الثانية . إذ كان المطلوب أن تكون هناك نقابات ذات صلة مباشرة بالحزب الشيوعي وتقاد من قبل الشيوعيين باعتبارهم مناضلين لا تلين لهم قناة وغير مستعدين للمساومة مع أرباب العمل على حساب مصالح الطبقة العاملة . وهو ما نجده في كتابات فهد بصراحة أحياناً وما بين السطور أحياناً أخرى ، في حين يستوجب العمل النقابي ترك فسحة مناسبة للحركة والمساومة مع أرباب العمل وفق الظروف الملموسة التي تمر بها الحركة ويعيشها الاقتصاد الوطني وموازن القوى في الساحة السياسية .

وعند التعرف على آراء ومواقف النقابي محمد صالح القزاز والسياسي فهد سنجد فارقاً ملموساً في هذا الشأن ، يتلخص في سعي الأول إلى أن تكون النقابات ذات مهام مهنية نضالية وخلفية سياسية ، في حين كان فهد يمزج بين المهني والسياسي ، ويرى العلاقة الجدلية القائمة بينهما . وإذا كان محمد صالح يسعى إلى جعلها مستقلة ، فإن فهد كان يريد أن تكون تحت قيادة غير مباشرة للحزب الشيوعي العراقي ، مع دعوته الأحزاب الأخرى إلى تقديم تأييدها ودعمها للنقابات ، بسبب أهميتها ودورها المهني والوطني . ويمكن ملاحظة ذلك في العديد من كتاباته في هذا الصدد . ففي كراسه الموسوم "مستلزمات كفاحنا الوطني" أشار في فقرة الكفاح الاقتصادي إلى التلازم بين الكفاح السياسي والكفاح الاقتصادي ، إذ كتب يقول: "علينا - وهذا مهم - أن نهتم بتقوية التنظيم النقابي لعمال المشاريع الأجنبية والتي يهيمنون عليها وأن نساعد النقابات باعتبارها في مثل هذه المشاريع أداة وطنية للكفاح الاقتصادي . إن

359 خيري ، سعاد د. فهد والنهج الماركسي اللينيني في قضايا الثورة. دار الفارابي. بيروت. مكتبة النهضة. بغداد. طبعة ثانية. 1974. ص 133/132.

360 نفس المصدر السابق. ص 133.

نضال العمال النقابي ضد الاحتكارات الأجنبية الاستعمارية يكسب الحركة الوطنية قوة عظيمة لا يستهان بها ، قوة تنمو وتتعاظم على مر الأيام ، تستطيع أن تجابه هذه الاحتكارات الجبارة أو ترغمها على التنازل لها عن مطالبها . وقد أدركت هذه الاحتكارات خطر تعاضم النضال النقابي فعمدت منذ أول تأسيس النقابات إلى محاربتها بشتى الوسائل لغرض تحطيمها أو السيطرة عليها وشلها . وقد كان على الجماعات الوطنية أن تدرك هذه الأهمية الوطنية لنضال العمال النقابي ضد الشركات والمشاريع الاستعمارية وأن تسرع إلى معاونة العمال في اشتباكاتهم مع أصحاب تلك المشاريع لا أن تقف بعضها موقف اللامبالاة أو المعادي من نضال العمال فيعطي الفرصة للمستعمرين لضرب النقابات وهي لا تزال في بدء عهدها" 361 .

كما يمكن أن يلاحظ هذا الترابط بين المهني والسياسي في دور ونشاط النقابات عند فهد في الكراس الذي كتبه في عام 1946 تحت عنوان "البطالة أسبابها وعلاجها" ، إذ حاول فيه أن يعالج الأساس المادي الذي تنشأ عنه ظاهرة البطالة في المجتمع والتي لخصها بمسألتين مركزيتين تنبثق عنهما بقية الظواهر السلبية ، وهما:

1. طبيعة النظام الرأسمالي العالمي وكون العراق جزءاً من هذا النظام خاضع وتابع له ، وأهمية البطالة لتكوين جيش للعاطلين تستفيد منه الرأسمالية للمساومة مع العمال على الأجور وظروف العمل والضمانات المختلفة ، إضافة إلى ساعات العمل .. الخ . فكتب في هذا الصدد يقول: "إن البطالة نشأت بقيام هذا النظام ولازمته وتلازمه في جميع مراحلها ، ترتفع وتهبط نسبتها وفق دورته الاقتصادية التي تمر بأربع حالات أو مراحل تعرف بالأزمة ، الكساد ، الانتعاش والرواج (إن الحالة الأخيرة سقطت من الدورة الاقتصادية الرأسمالية منذ عقدين من السنين ، بسبب ابتلاء النظام الرأسمالي بأزمة عامة) . فالبطالة إذن لا يمكن البحث عن أسبابها وعلاجها دون البحث عن: العوامل المحركة لاقتصاد قطرنا كجزء من الاقتصاد الاحتكاري العالمي وقوانينه وتناقضاته المهلكة المدمرة للقوى المنتجة بصورة عامة وللأيدي العاملة بصورة خاصة" 362 . وفي موقع آخر يقول: "فالبطالة كظاهرة اجتماعية غير منفصلة عن النظام الاقتصادي (والسياسي طبعاً) القائم لا يمكن أن تعالج بدون معالجة العوامل المحركة لاقتصادنا ومؤثراتها" 363 .

2. وجود السيطرة الاستعمارية المباشرة على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للبلاد والسياسات التي تمارسها القوى الاستعمارية ضد مصالح البلاد والتي تساهم في تشديد واقع البطالة وتفاقمها .

ومن هنا كان ينتقد أولئك الذين يتحرون عن أسباب البطالة في كل مكان إلا في هذين العاملين ، وبالتالي يرى بأنهم غير قادرين على معالجة هذه المعضلة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . وفي كراسه عن البطالة طرح فهد المهمات التي كان يرى في مقدور النقابات القيام بها في سبيل مساعدة العمال العاطلين عن العمل من جهة وعلى طبيعة القوى التي يفترض أن تعتمد عليها في إنجاز مثل هذه المهمة ومهامها النقابية الأخرى ، إذ كتب يقول:

"على النقابات أن تعتمد على قوى الطبقة العاملة ، عليها أن تجند العمال وترجمهم في المعركة ضد البطالة من أجل دفع ويلاتها عنهم ، أما الاعتماد على القوى الخارجية ، على الإدارات

361 فهد مستلزمات كفاحنا الوطني. سلسلة مؤلفات الرفيق فهد. 4. من وثائق الحزب الشيوعي العراقي. منشورات الثقافة الجديدة. مطبعة الشعب. بغداد. ط 2. 1973. ص 15/14.

362 فهد. البطالة أسبابها وعلاجها. سلسلة مؤلفات الرفيق فهد. 3. من وثائق الحزب الشيوعي العراقي. منشورات الثقافة الجديدة. مطبعة الشعب. بغداد. طبعة 2. 1973. ص 5.

الحكومية والمنظمات الوطنية التي تحاول الظهور بمظهر المهتم بشؤون العمال ، فهذا الاعتماد لا قيمة له إذا لم تكن القوى الرئيسية المكافحة هي قوى الطبقة العاملة ، إذا لم تكن العلاجات لمكافحة البطالة علاجات عمالية مستمدة من صميم واقع وظروف الطبقة العاملة... "364 .

وأخيراً يطرح فهد الدور والتأثير اللذين يفترض أن تمارسهما النظرية العلمية ، أي النظرية الماركسية اللينينية ، والقيادة التي يفترض أن تؤمن بهذه النظرية ، على قيادة النقابات وعلى نشاطها واتجاه عملها في المجتمع ، إذ كتب يقول:

"ولكي تستطيع نقابات العمال من القيام بالواجبات المترتبة عليها ، عليها أن تكون منظمات عمال مجاهدة ، بنظرياتها وقيادتها وتنظيمها ، عليها أن تستنير بأحدث النظريات العلمية المستمدة من مصالح الطبقة العاملة والمجربة في بوتقة نضال الطبقة العاملة ، النظريات التي تكشف عن العوامل ، الظاهرة والمستورة ، التي تسيير المجتمع ، النظريات التي تنير طريق العمال وتوجههم نحو حل مشاكلهم ، عليها أن تسند قيادتها إلى أيدي عمال واعين طبقياً ، محنكين ، مجريين ، متسلحين بنظريتها وبروح النضال التي لا تعرف الاندحارية والفتور ، بأيدي عمال بعيدين عن تأثير السلطات الحاكمة وأرباب العمل ، لا تؤثر فيهم أساليب الإغراء والإفساد ، عمال يضعون مصلحة الطبقة العاملة فوق مصالحهم الخاصة وفوق أي اعتبار آخر . على النقابات أن تحكم تنظيماتها وتجعلها شاملة ، ديمقراطية ، في حالة حركة دائمة ومستعدة لمجابهة الطوارئ فوراً دون تردد وإضاعة الوقت"365 .

إن هذه النداءات التي وجهها فهد باسم قيادة الحزب إلى العمال العراقيين وجدت صدى متبايناً في أوساط القوى العاملة في الحياة السياسية والنقابية العراقية . فبعضها وجد أن فهداً يريد فرض سيطرة الحزب الكاملة على النقابات من خلال تولي الشيوعيين لقياداتها وإبعاد كل القوى الأخرى عنها ، كما كان يريد أن تكون النقابات ملتزمة للنظرية العلمية أي الماركسية-اللينينية ، وفق معايير تلك الفترة ، وإبعاد كل أثر لفكر البرجوازية أو أفكار اليسار العراقي الآخر عن هذه النقابات . وكان في هذا النهج يمثل الموقف السوفييتي ، كما كان يمثل موقف الأممية الثالثة بشكل عام . ولكن وجد فهد في هذا الاتجاه أيضاً تأييداً غير قليل من جمهرة واسعة من العمال في مختلف المنشآت الصناعية والمؤسسات التابعة للدولة ، سواء كان ذلك في قطاع النفط الخام أم السكك أم الموانئ أم في غيرها . وهي ناتجة عن عاملين مهمين ، وهما:

1. إن الشيوعيين ابدوا استعداداً عالياً في الدفاع عن قضايا العمال وتبني مصالحهم النقابية وخاضوا المعارك معهم جنباً إلى جنب ، وسقط منهم الشهداء أيضاً؛
  2. إن القوى السياسية الأخرى ، وخاصة البرجوازية الوطنية ، لم تلتزم بشكل فعال ومستمر الدفاع عن مصالح العمال والدعوة إلى حل مشكلاتهم . ولكن بعض القوى الماركسية الأخرى وقفت إلى جانب قضايا العمال ودافعت عنها وروجت لها ، كما حصل بالنسبة لجماعة الأهالي في الثلاثينات ، أو بالنسبة للأحزاب الماركسية أو اليسارية في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية مباشرة مثل حزب الاتحاد الوطني وحزب الشعب ، أو الحزب الوطني الديمقراطي باعتباره أحد أحزاب البرجوازية الوطنية العراقية .
- ومع ذلك يمكننا الادعاء الآن بأن التجربة تعلمنا بأن النضال في سبيل المطالب النقابية للعمال من جانب الشيوعيين ودعم نضال النقابات المهني والسياسي والاقتصادي لا يعني بأي حال من

364 نفس المصدر السابق. ص 35.

365 نفس المصدر السابق. ص 34.

الأحوال ضرورة السيطرة التامة عليها أو منع الآخرين من العمل فيها ، إذ يفترض أن تكون هذه النقابات حرة في اختيار مندوبيها وممثليها من جهة ، وأن تكون لها سياسة مستقلة عن سياسة ومواقف الأحزاب السياسية من جهة أخرى ، إذ أن هذا يمنح النقابات القوة والدعم الواسع بغض النظر عن اتجاهاتهم الفكرية والسياسية الديمقراطية . كما يحق للنقابات أن تتعلم المساومة وتمارسها مع البرجوازية الوطنية بما يخدم مصالحها ومصالح الاقتصاد الوطني ، وكذلك المساومة ، وبهذا القدر أو ذاك ، مع البرجوازية الأجنبية في مشاريعها في البلاد ، والتي تخضع إلى جملة من المعطيات ، بما فيها قدراتها النضالية وواقع الاقتصاد الوطني وموازن القوى ... الخ .

## الفصل الخامس : الحركة الطلابية

لم يشذ العراق عن باقي البلدان العربية في مجال الحركة الطلابية ودورها المحرك في إطار الحركة الوطنية العراقية والحياة العامة للمجتمع ، إضافة إلى اهتماماتها بعملية التوعية السياسية والاجتماعية والحياة الديمقراطية ، بسبب تنوع مواقعها في المجتمع وتوزعها على مختلف الفئات والطبقات الاجتماعية واحتكاكها المباشر والدائم ببعضها وبالأحداث العامة الجارية في البلاد . فعلى امتداد الفترة التي أعقبت قيام الدولة العراقية ، ورغم محدودية التعليم الابتدائي والثانوي والمهني والعالي ، برز دور الطلاب ، باعتبارهم الجزء المتعلم من الشعب والأكثر ارتباطاً بالثقافة والمثقفين من معلمين ومربين وأدباء وفنانين ، في حياة البلاد السياسية والاجتماعية باتجاهات ثلاثة أساسية:

1. مشاركتهم الواسعة والتميزة والمبكرة في النضال المناهض للهيمنة الأجنبية البريطانية على العراق و ضد المعاهدات ذات الطبيعة الاستعمارية التي كانت سلطات الاحتلال البريطانية تسعى إلى فرضها على الشعب العراقي . كما كان الطلاب سباقين للالتصاق بحركة النضال التحرري العربية وبالقضية الفلسطينية منذ أن بدأت المؤامرات ضد وحدة التراب الفلسطيني والتي تجلت في مظاهرة الطلاب المناهضة لزيارة الصهيوني البريطاني الفريد موند إلى العراق في عام 1928 ، والتضامن مع طلبة وشعب فلسطين؛

2. النضال الواعي في سبيل مصالحهم الطلابية ومطالبهم المهنية ، سواء منها ما كان يمس الدراسة والدفاع عن حرية التعليم والمعلم ، أم منها ما كان يمس حياتهم اليومية في الأقسام الداخلية والتغذية ومشكلات أبناء العوائل الفقيرة ، إضافة إلى دعوتهم المستمرة لزيادة عدد المدارس وعدد الطلاب ونشر ذلك على نطاق العراق كله؛

3. نشر الوعي السياسي والاجتماعي في صفوف الفئات الاجتماعية المختلفة ورفع استعداد الجماهير للمشاركة في النضالات التحررية ودعم نضالات الطلاب المهنية .

ومما يزيد من أهمية ودور الطلاب هو انحدرهم من فئات اجتماعية مختلفة وجلوسهم المشترك على مقاعد الدراسة والمشاركة في الفعاليات المدرسية بصورة مشتركة التي كانت تزيد من تقاربهم وتفاعلهم المتبادل ، إذ كان الطلاب العرب والأكراد والكلدان والآشوريون والصابئة وغيرهم يلتقون على مقاعد الدراسة في المعاهد والكليات . ويعود هذا الواقع ليؤثر من جديد على الفئات الاجتماعية التي انحدروا منها هؤلاء الطلاب باتجاهات إيجابية ، خاصة وأنهم يمتلكون قدرة التأثير الفكري والسياسي والاجتماعي على تلك الأوساط التي ينتمون إليها ، بغض النظر عن القومية التي ينتسبون إليها أو الدين أو الطائفة التي يتبعونها أو ولدوا عليها . إذ برهن الطلاب في العراق ، وفي بقية البلدان العربية وفي غيرها من بلدان العالم ، على أنهم القسم الأكثر قدرة في المجتمع على تجاوز التمايزات الطبقية والقومية والدينية والطائفية ، والأكثر تفتحاً على الفكر الحديث والسياسات الجديدة والعلاقات الاجتماعية المتغيرة ، والأكثر استعداداً وحماساً للتوجه والعمل صوب القضايا المشتركة في المجتمع . كما أن تجمعهم الكبير نسبياً في مدرسة أو معهد أو كلية واحدة يلعب دوراً مهماً في إحساسهم بالتضامن والقوة والقدرة على التحدي ومواجهة الحكم أو الشرطة وتنظيم المظاهرات والإضرابات المشتركة ، دع عنك ما يمتلكه الشباب من حيوية وحركية وسرعة استيعاب وتجديد واستعداد للمجازفة .

وخلال الفترة موضوع البحث تبنت الحركة الوطنية العراقية قضايا الطلاب وسعت إلى تبني مشكلاتهم والعمل في صفوفهم من أجل الاستفادة من قدراتهم لصالح قضايا الشعب المشتركة .

واضطرت الحكومات العراقية المتعاقبة ، رغم كل بطنها وترددها ، على زيادة عدد المدارس وتنويعها وزيادة عدد الدارسات والدارسين فيها ، تحت تأثير أربعة عوامل ، وهي:

(أ) الحاجة المتزايدة للموظفين والمستخدمين في دوائر الدولة وأجهزتها المدنية والعسكرية؛

(ب) تنامي نسبي في الاقتصاد الوطني ، ومنها المشاريع الصناعية والخدمات الاجتماعية والتبادل التجاري الذي استوجب المزيد من المتعلمين والمتدربين؛

(ج) ضغط الحركة الوطنية العراقية ومطالبتها المستمرة بذلك وتجليه في مختلف برامج الأحزاب السياسية السرية منها والعلنية 366؛

(د) وأخيراً نضالات الطلاب أنفسهم التي تجلت في الإضرابات والمظاهرات الخاصة بالجانب المهني والمعيشي للطلاب .

ونتيجة لكل ذلك توسعت قاعدة الطالبات والطلاب في العراق ، إذ لم يقتصر التعليم على المدن الكبرى فحسب ، بل اتسع نسبياً ليشمل المدن العراقية المختلفة ، كما أمكن إقامة مدارس في أطراف المدن أيضاً . ويمكن للأرقام التالية توضيح هذا التطور النسبي المهم .

#### عدد طلبة الكليات والمدارس الثانوية والمهنية في سنوات 1921 ، 1927 و 1948

مجالات التعليم	1921 عام قيام النظام الملكي	1927 العام الذي شهد أول تظاهرة طلابية	1948 عام الوثية
الكليات	99	77	4212
البعثات التعليمية	9	24	180
المدارس الثانوية:			
أ - مدارس حكومية	229	1086	14745
ب - مدارس أهلية	-	-	8302
المدارس الصناعية	167	184	296
المدارس الزراعية	-	-	150
معاهد إعداد دورات تعليمية لمعلمي الابتدائية في الأرياف	92	387	1798
مدارس الموظفين الصحيين والتمريض	-	-	50
مدارس الفنون المنزلية	-	-	113
معهد الفنون الجميلة	-	-	253
المجموع	596	1722	28099
النسبة التقريبية لعدد الطلاب في بغداد		64 %	54 %

المصدر: بطاطو ، حنا د . العراق . الحزب الشيوعي العراقي . الكتاب الثاني . مصدر سابق . ص 132 .

وعند المقارنة بين عدد الطلاب (عدا تلاميذ المدارس الابتدائية) في عام 1921 و عددهم في عامي 1927 و 1948 لوجدنا بأن الرقم القياسي بلغ في عام 1927 حوالي 289 % و عام 1948 حوالي 4715 % بالقياس إلى 100% في عام 1921 . وكان لهذه الزيادة أهمية بالغة في زيادة وزن الطلاب في نشاط الحركة الوطنية العراقية وفي زيادة تأثيرها على المجتمع .

366 السعيد ، مهدي / الصفار ، عصام . من تاريخ اتحاد الطلاب العام في الجمهورية العراقية . من مطبوعات اتحاد الطلاب العام في الجمهورية العراقية . براغ . 1989 . ص 13 .

وكانت الحركة الوطنية العراقية قد أدركت بوقت مبكر أهمية دور الطلاب في الحياة العامة ، ومنها الحياة السياسية ، فزادت من اهتمامها بهم ووجهت كوادرها ليعملوا في صفوفهم . وكانت الحلقات الماركسية في كل من بغداد والبصرة سبباً إلى ذلك ، خاصة وأنها ارتبطت أساساً بالطلاب ونشاطهم ودورهم ، إذ أن نسبة عالية منهم كانت من الطلاب أو ممن تخرج لتوه . وتتوجت تلك النشاطات بالمظاهرة المنوه عنها سابقاً ضد الصهيوني ألفريد موند .

وانتقل هذا الاهتمام إلى الحزب الشيوعي العراقي وتنامي سنة بعد أخرى واتخذ نهجاً حيويًا ثابتاً ومتطوراً في فترة قيادة فهد للحزب . لم تكن دراسة فهد في موسكو نظرية بحتة ، بل كانت ذات طبيعة تطبيقية أيضاً ، إضافة إلى التعرف على تجارب الحزب الشيوعي السوفييتي والأحزاب الشيوعية الأخرى . وكانت الحركات الجماهيرية والمنظمات المهنية ، ومنها الطلابية ودورها في الحياة العامة ، والسياسية جزءاً من تلك الدراسة . ومع أن فهد كان منذ وقت مبكر وقبل سفره إلى موسكو قد أبدى اهتماماً خاصاً بمجالات الشباب والطلاب ، أو الفلاحين في الريف أو العمال والحرفيين ، فإن هذا الاهتمام قد ازداد بعد إطلاعه على تلك التجارب ، كما اتخذ طابعاً منظماً وموجهاً بصورة عقلانية . وعندما يجري الحديث هنا عن الحزب الشيوعي ، فهو يعني الحديث عن فهد بفعل قيادته الفعلية والشاملة للحزب ، كما أن الحديث عن فهد يعني الحديث عن سياسة الحزب أيضاً . ومثل هذه الظاهرة تحمل معها جانبيها السلبي والإيجابي التي لم تظهر بشكل صارخ في حياة فهد ، بسبب عدم وجود الحزب في السلطة من جهة ، وبسبب قصر عمر فهد من جهة ثانية ، ولكن كانت لها أثرها السلبية اللاحقة على من تسلموا المهمة من بعده ، حيث كان التدخل في شؤون المنظمات المهنية ، ومنها المنظمة الطلابية ، كبيراً وشديداً الوطأة .

أدرك فهد أهمية هذه الفئة الاجتماعية التي تدخل في إطار البرجوازية الصغيرة عموماً ، ولاحظ توسعها الملموس ودورها التثقيفي والتعبوي . ومن هنا جاء اهتمامه بها ، إذ تبني الحزب الشيوعي العراقي قضايا الطلاب في وقت مبكر ، وانعكس ذلك في كتابات الشيوعيين في جريدة الحزب المركزية "الشرارة" في عدد شباط من عام 1942 ، حين نشرت الجريدة برنامج "حزب الوحدة الوطنية" ، الذي عبر عن جهد جديد للشيوعيين العراقيين باتجاه الخروج إلى العلنية بحزب يحصل على إجازة رسمية من وزارة الداخلية ، ولكن الطلب الذي قدمه الشيوعيون رفض ، كما غيبت المبادرة حينذاك ، ورد فيه بشأن المطالب الطلابية ما يلي: " تعميم التعليم الابتدائي المجاني وتوسيع التعليم الثانوي والعالي والمهني ، وإلغاء الأنظمة التي تحد من هذا التعليم وجعل الباب مفتوحاً بلا تحديد لفقراء الطلاب والطالبات وإعفاءهم من الأجور إطلاقاً ، واتخاذ التدابير الناجحة في مساعدتهم على الدخول إلى المدارس الثانوية والعالية وإنشاء الأقسام الداخلية التي تؤمن سكنهم ومعيشتهم" 367 . ويمكن تلمس هذا الاهتمام من الوقائع التالية:

• تضمين الميثاق الوطني للحزب فقرة خاصة بالطالبات والطلاب والشباب بشكل عام جاء فيها ما يلي: "توسيع نطاق التعليم لأبناء الشعب من كلا الجنسين وبدون تمييز في القومية والمركز الاجتماعي ونباضل من أجل ترقية الحياة الاجتماعية والرياضية عند الشعب عن طريق النوادي والجمعيات العلمية والرياضية الخ... " 368 .

367 سعيد ، مهدي. دور الشيوعيين في انبثاق أو اتحاد للطلبة في العراق. مجلة "الثقافة الجديدة" العراقية. العدد 196. نيسان 1988. ص 25/24.  
368 فهد. كتابات الرفيق فهد. مصدر سابق. ص 135.



• توجيه مجموعة كبيرة من كوادر وأعضاء الحزب الشيوعي للعمل في الحقل الطلابي واختيار الأشخاص الذين يتميزون بالاستقلالية والمبادرة والحركية في التفكير والتعامل مع مجاميع مختلفة من الناس ، إذ كان بعض العاملين في المجال الطلابي أعضاء في اللجنة المركزية أو في لجان حزبية متقدمة ، كما هو الحال مع عبد العزيز عبد الهادي ، وحسقل صديق وحمزة سلمان وجورج تلو وعبد الرزاق مطر الفهد وزيد الخفاجي وقتيبة الشيخ نوري وغيرهم . وشكل لهذا الغرض فراكسيون حزبي لمساعدة الشيوعيين في عملهم في الحركة والتنظيمات الطلابية التي بدأت تبرز وتفرض نفسها في بغداد على نحو خاص وفي العديد من المدن العراقية؛

• تكثيف العمل في صفوف الطلاب من أجل زيادة عدد الطلاب في الحزب كأعضاء ومرشحين ومؤيدين لنشاطه . ووفق المعلومات المتوفرة عن الفترة الواقعة بين 1947-1948 بلغ عدد أعضاء الحزب الشيوعي 1832 عضواً من النساء والرجال ومن مختلف الأعمار والقوميات والأديان والطوائف والمهن ، كان بينهم 505 طالباً في مختلف المراحل الدراسية ابتداء من المتوسطة والثانوية ومروراً بالمهنية وانتهاءً بالدراسات العالية في الكليات . أي أن نسبة الطلاب بلغت 27 ، 6% من مجموع الأعضاء ، وهي نسبة عالية حقاً ولكنها فاعلة في الوقت نفسه ومؤثرة على الحياة العامة . وإذا ما أضيف إلى هذا العدد 178 عضواً في الحزب ينتسبون إلى سلك التعليم الابتدائي والثانوي والمهني والعالي ، أي ما نسبته 9 ، 7% ، فإن مجموع المرتبطين في مجال التعليم والطلاب يصل إلى 683 عضواً ، أو ما نسبته 37 ، 3% من مجموع أعضاء الحزب . وكان لا بد لهذا العدد الجيد بالمقارنة مع المجالات الأخرى أن يكون له دوره وتأثيره البارز في حياة الحزب الداخلية ونشاطه بين الجماهير في آن واحد؛

• الاهتمام الواسع بربط القضايا المهنية للطلاب بالقضايا الوطنية ، والتي كانت تتجلى بالشعارات التي كانت ترفعها الحركة الطلابية حينذاك . ففي الوقت الذي رفع الطلاب قضايا تمس الحريات الديمقراطية في العراق والدفاع عن قضية فلسطين والتضامن العربي ، أكدوا من جانب آخر على أهمية المشكلات التي يواجهها الطلاب ومنها على سبيل المثال لا الحصر: تأسيس جامعة عراقية ، معالجة مشكلات القبول والأجور ، النقص في ملاكات المعلمين والمدرسين والأساتذة والمختبرات ، مشكلة الطلاب المعوزين والأقسام الداخلية وقضايا العناية بصحة الطلاب ، إضافة إلى مشكلة البعثات وحق الطلاب في إقامة تنظيمات شرعية وإجراء انتخابات حرة لاختيار ممثليهم ... الخ .

• بذل أقصى الجهود لانتزاع شرعية العمل والتنظيم الطلابيين في مختلف الثانويات والمعاهد العلمية والكليات؛

• زج الطلاب في النضالات الوطنية والمهنية بما يدعم أحدهما الآخر ويعكس تأثيره عليه مباشرة . وكان الحزب يرد على أولئك الذين يدعون الطلاب للابتعاد عن العمل في السياسة والاهتمام بدروسهم فقط مفنداً حججهم الواهية ومتهماً إياهم بسلب حق مشروع من حقوق المواطنة العراقية ، إذ كانت تلك الأصوات النشاز قد ارتفعت بعد الدعوة التي وجهها الطلاب لعقد مؤتمر عام يدينون فيه الفاشية والحرب ويساندون الجبهة الديمقراطية العالمية المناضلة ضد الفاشية والحرب . ففي هذه المقالة ، وتحت عنوان "أجل: للجماهير المناضلة أيضاً نشاطها السياسي" نشرت جريدة الشرارة في عددها الثاني عشر من عام 1942 ما يلي: "... ماذا كان مصير تلك الدعوة؟ هل تقاعس الطلاب عن أداء واجبهم؟ كلا ، ولكن

ظهرت في الأفق فجأة نظرية وجوب عدم تدخل الطلاب في السياسة ، وكان مبعث هذه النظرية بطبيعة الحال العداء الصريح الغادر لأبسط حق ديمقراطي في العراق ولأبسط خدمة تقدمها جماهير العراق للديمقراطية العالمية"369؛

• ونظم فهد صلة مباشرة بمسؤولي اللجنة الطلابية بحيث يستطيع المساهمة المباشرة في توجيه نشاط الشيوعيين في الحركة الطلابية والتأثير عليها بشكل غير مباشر من خلال الشيوعيين في قيادتها .

وخلال تلك الفترة ساهم الشيوعيون بدور قيادي بارز وواع وحركي في الحياة الطلابية وفي نضال الطلاب ليس من منطلق فرض أنفسهم عليهم بقدر ما كانت ناتجة عن حيوية ونشاط الشيوعيين المتميز واستعدادهم للتضحية ودورهم في بلورة الشعارات وقيادة الإضرابات والمظاهرات الطلابية والشعبية ضد سياسات الحكومات العراقية المتعاقبة . ولا شك في أن العيب في هذا الصدد لم يكن في الشيوعيين الذين ولجوا هذا الميدان بشكل واسع وأثروا فيه ، بل كان العيب يكمن في القوى الأخرى التي بقيت بعيدة إلى حد كبير عن الطلاب ولم تمنحهم الرعاية الكافية والضرورية ولم تشعرهم باحتضانها لهم ودفاعها المطلوب عن مصالحهم . ويشير مؤلفا كتاب "من تاريخ اتحاد الطلاب العام في الجمهورية العراقية" بصواب إلى أن الحركة الطلابية في تلك الفترة قد تميزت بالسمات التالية:

"1- ارتباطها بالحركة الوطنية العامة .

2- دفاعها عن الحركة التحررية للشعوب العربية .

3- الحفاظ على كونها تمثل أوسع الجماهير الطلابية ومن مختلف القوى والأحزاب الوطنية .

4- انفتاحها لاستيعاب كافة الطلاب على مختلف انتماءاتهم القومية والدينية .

5- ربطها للنضال في سبيل المصالح الطلابية بالقضايا الوطنية العامة .

6- سعت لإيجاد أشكال مناسبة من التنظيم الطلابي التي تقود وبشكل واع جماهير الطلاب نحو تحقيق أهدافهم المشتركة"370 .

وخلال فترة وجيزة أمكن زج الطلاب بسلسلة من الفعاليات الحيوية في المجالات الطلابية كالإضرابات والاعتصامات والمظاهرات ، وبشكل خاص من أجل تكوين منظمات طلابية علنية في المدارس والمعاهد والكليات المختلفة؛ الاحتجاج على ظروف العيش في الأقسام الداخلية؛ الاحتجاج ضد السياسات اللاديمقراطية للحكومة ، الاحتجاج ضد سياسات الاستعمار البريطاني في فلسطين والمطالبة بإقامة دولة عربية ديمقراطية مستقلة فيها؛ رفض قرار تقسيم فلسطين . ففي مقال كتبه فهد في عام 1944 تحت عنوان "ماذا ننتظر بعد من الحكومة؟" بشأن أهمية ضرورة تشكيل التنظيمات الطلابية في العراق جاء فيه: "على الطلاب أن يتكثروا وينظموا جميع شبان وشابات المدارس ويوجهوهم التوجيه الصحيح في النضال من أجل حل مشاكل الطلاب ، فهذه الطريقة ، وبها فقط يستطيع الطلاب أن يتخلصوا من الأساليب الاستبدادية السائدة في المدارس ومن الميزات والامتيازات الطبقية التي تقف عقبة كأداء أمام أكثرية الطلاب وتمنعهم من إكمال دراستهم ، ومن المناهج الاستعمارية العقيمة التي صنعت لحشو أدمغة الطلاب بمواد بعيدة عن حياتهم العملية وللتخلص من التكاليف المدرسية الباهظة ومن

369 سعيد ، مهدي. دور الشيوعيين في انبثاق أول اتحاد للطلبة في العراق. مصدر سابق. ص 25.

370 السعيد ، مهدي. والصفار ، عصام. من تاريخ اتحاد الطلاب العام في الجمهورية العراقية. من مطبوعات اتحاد الطلاب العام في الجمهورية العراقية. براغ. 1989. ص 35.

الأساليب الامتحانية "الحظ يانصيبية". ولضمان العمل والخبز والمنزلة الاجتماعية اللائقة بعد تخرجهم من مدارسهم... "371".

ورغم اعتقال فهد ودخوله السجن في كانون الثاني/يناير من عام 1947 ، فإنه بقي على اتصال وثيق ومستمر مع قيادة الحزب خارج السجن التي كانت تقود العمل ، في ما يخص نشاط الحزب في مختلف المجالات ، ومنها المجال الطلابي . ولعب الطلاب دوراً استثنائياً متميزاً في الصراع ضد معاهدة بورتسموث ، وقدموا العديد من الشهداء ومن الجرحى والمعتقلين ، أو الذين حكم عليهم بالحبس لمدد مختلفة أثناء وثبة كانون الثاني عام 1948 .

وكان التحضير لمؤتمر السباع من بين أكثر النشاطات الطلابية حيوية وتنظيماً وشجاعة في تلك الفترة ، والتي عبرت عن مستوى الوعي السياسي والاجتماعي وزخم الاندفاع الذاتي للحركة الطلابية . ولعب الشيوعيون في هذا المؤتمر أيضاً دوراً بارزاً ومتميزاً ، وكانوا اللولب المحرك والموجه في مجمل العملية . ورغم انشغال الحزب بالوثبة ونتائجها ، شكل لجنة حزبية للتحضير للمؤتمر العام للطلاب ، وكان عزيز الحاج يتولى في هذه الفترة قيادة النشاط الطلابي للحزب الشيوعي<sup>372</sup> . ثم تم انتخاب لجنة تحضيرية ضمت إلى جانب الشيوعيين ممثلين عن الأحزاب الديمقراطية العراقية وهي: حزب الشعب وحزب الأحرار وحزب الاتحاد الوطني والحزب الوطني الديمقراطي . وكانت ثقة المؤتمرين عالية بالشيوعيين العراقيين والتي تجلت في نتائج انتخاب قيادة الاتحاد حيث حاز المرشحون الشيوعيون على أعلى الأصوات .

ولا يمكن للباحثين أن ينفيوا عن هذا المجال بعض الأخطاء التي ارتكبتها التنظيم الحزبي المشرف على نشاط الشيوعيين في الحركة الطلابية ، نتيجة المنافسة في ما بين الأحزاب في قيادة هذا المجال أو من أجل زيادة التأثير فيه ، والذي مس بعض الجماعات الماركسية أيضاً ومنها جماعة حزب الشعب . أما الجماعات القومية فقد اعتبرت هذا التنظيم الطلابي بمثابة جيب من جيوب الحزب الشيوعي العراقي . وما كانوا في ذلك على حق ، رغم ما أشرنا إليه من ارتكاب أخطاء في هذه العلاقة . وخاصة الرغبة في أن تبقى القيادة الطلابية بيد رفاق الحزب ، والاحتفاظ بأكثر مقاعدها ، علماً بأن الانتخابات كانت نزيهة ، ولكن الطلاب كانوا يمنحون تأييدهم للشيوعيين وكانت ثقتهم بهم عالية ، والتي استمرت لسنوات كثيرة لاحقة .

371 نفس المصدر السابق. ص 26/25.

372 الحاج، عزيز د. حنا بطاطو والحركة الشيوعية في العراق. [الكتاب وترجمته العربية]. طبعة خاصة بالمؤلف. باريس. 1988. ص 13.

## الفصل السادس : فهد والموقف من المثقفين

لم تكن جمهرة المتعلمين في العراق خلال العقدين الثالث والرابع في العراق واسعة ، وكانت أصغر منها تلك الجماعات التي تعلمت القراءة والكتابة في المدارس الحديثة ، إذ أن الغالبية العظمى من المتعلمين في العراق كانوا ممن تعلمها في الكتاتيب وفي الجوامع أو في الحوزات الدينية . وكانت جمهرة المثقفين العراقيين خلال تلك الفترة أصغر من ذلك بكثير . وإذا كان أغلب المتعلمين في فترة الحكم العثماني حتى سنوات العقد الثالث من أبناء الفئات الاجتماعية الميسورة وموظفي الدولة ، فإن مجموعة المثقفين الصغيرة كانت عملياً من بين تلك الأوساط المتعلمة . وكانت لهذا الواقع العام استثناءات . وفي النصف الثاني من العقد الثالث وسنوات العقد الرابع وما بعده اتسعت ظاهرة الدخول إلى المدارس التي بدأت بفتحها مختلف الهيئات التبشيرية أو الخاصة إضافة إلى المدارس الحكومية التي استطاعت أن تجلب نحوها أبناء تلك الأوساط المشار إليها سابقاً ، جماعات من أبناء الفئات البرجوازية الصغيرة الحرفية وصغار موظفي الدولة والمستخدمين وكذلك من أبناء بعض العمال والكسبة في المدن . وتوسعت شبكة المتعلمين وازداد تدريجاً عدد الراغبين في تعلم القراءة والكتابة من الأميين وعدد مراكز محو الأمية . وكانت هذه المراكز تفتح من قبل المنظمات الديمقراطية غير الحكومية التي كانت تغلق بين فترة وأخرى وفق الوضع السياسي السائد في البلاد ووفق الموقف الحكومي القومي من تلك المنظمات . وإذا كانت عمليات محو الأمية بين الرجال ممكنة ومتسعة من سنة إلى أخرى فأنها كانت صعبة جداً ونادرة بين النساء "بسبب التقاليد الاجتماعية التي سادت آنذاك 373 .

إن إشكالية التربية والتعليم والثقافة في العراق ، أو في أي بلد من بلدان العالم ، لا تنفصل بأي حال عن طبيعة علاقات الإنتاج السائدة ومستوى تطور القوى المنتجة المادية والبشرية . فالعلاقات الإنتاجية التي سادت العراق خلال تلك الفترة كانت مزيجاً من العلاقات البطريركية أو الأبوية العشائرية والعلاقات شبه الإقطاعية من جهة ، والولوج البطيء والانتقائي للعلاقات الإنتاجية الرأسمالية . وترك هذا الواقع أثره على عدد ومستوى المتعلمين ، وبدوره على عدد ومستوى المثقفين والحياة الثقافية بشكل عام .

ومع أن الغالبية العظمى من المتعلمين والمثقفين كانت تنحدر من الفئات الميسورة والغنية وموظفي الدولة ، أي من الفئات الاجتماعية المالكة لوسائل الإنتاج والعاملة في التجارة أو من علماء الدين وأئمة المساجد وغيرهم ، فإن نسبة عالية من المثقفين قد ارتبطت ، وبسبب ثقافتها ووعيتها ، بواقع الحياة العراقية وبالمشكلات التي تعاني منها الأوساط الواسعة من السكان والتخلف العام الذي يعم البلاد ، إضافة إلى فهمها لأسباب الكامنة وراء كل ذلك . ومن هنا جاء ارتباطها بالنضال السياسي الذي نادى في فترة الحكم العثماني باللامركزية والتعلم باللغة العربية في ولاية بغداد والبصرة والموصل ، وبالكردية في المنطقة الكردية التي كانت تشكل جزءاً من ولاية الموصل ، ومن ثم بالاستقلال الوطني والسيادة في ظل الدولة العراقية الملكية الحديثة التي كانت حتى ذلك الحين تحت الانتداب البريطاني أو تحت تأثير المعاهدة العراقية-البريطانية لعام 1930 .

وإذا كان المثقفون العراقيون قد مارسوا السياسة منذ أوائل هذا القرن ووقفوا إلى جانب الأحزاب والحركات السياسية والإضرابات والانتفاضات والثورات التي قامت في حينها في

373 دراسة عن مكافحة الأمية بين النساء. لجنة دراسات خاصة. الثقافة الجديدة. العدد 1- "78" شباط/فبراير 1976. بغداد. ص 83.

العراق ، فإن جمهرة واسعة منهم بدأت ، مع ولوج الفكر التقدمي للعراق ، بتبني الفكر التقدمي والاشتراكي الممتزج بروح قومية ووطنية واضحة . ومع مرور الزمن وتنامي عدد المثقفين وتنوع احتكاكهم بالثقافات العربية والإقليمية والعالمية واتساع معارفهم ، تنوعت اتجاهاتهم الفكرية والسياسية ، سواء كان ذلك بتبني الفكر الاشتراكي الإصلاحية أو الثوري ، أو الفكر القومي الإصلاحي أو الفكر القومي المتطرف أو ما أطلق عليه فيما بعد بالفكر الفاشي الممتزج بشيء ملموس من العنصرية التمييزية إزاء الشعوب الأخرى .

وتوجه نضال المثقفين الديمقراطيين والتقدميين صوب إيجاد مراكز لنشاطهم سواء في نوادي أو في تنظيمات ديمقراطية غير حكومية أو أحزاب سياسية وطنية ذات صبغة اجتماعية وسياسية معادية للاستعمار والتخلف والعلاقات الرجعية البالية وفي سبيل الديمقراطية والتقدم والعدالة الاجتماعية . وتوزع المثقفون على عدد من الأحزاب السياسية العراقية المجازة رسمياً في الثلاثينات من القرن العشرين أو في الحلقات الماركسية غير المسجلة رسمياً أو في جماعة الأهالي ومن ثم في حزب الإصلاح الشعبي ، أو في لجنة مكافحة الاستعمار ، ومن ثم في الحزب الشيوعي العراقي . كما شاركوا في أحزاب يسارية وماركسية أخرى في سنوات الحرب العالمية الثانية وما بعدها ، أي في سنوات العقد الخامس من القرن المنصرم .

وكان جل المشاركين في قيادة الحلقات الماركسية والأحزاب السياسية من جمهرة المثقفين العراقيين رواد الحركة اليسارية والماركسية والاشتراكية الفابية الإصلاحية . فهم الذين حملوا راية الحرية والديمقراطية والتقدم والاستقلال والعدالة الاجتماعية للعراق ، وهم الذين ساهموا في إيصال الفكر التقدمي للطبقة العاملة العراقية النامية حديثاً وإلى صفوف الفلاحين والكسبة والحرفيين وأوساط البرجوازية الصغيرة في المدن ، وكذلك إلى البرجوازية الوطنية العراقية الحديثة التكوين . ووجد بين هؤلاء المثقفين مجموعة صغيرة من العمال والحرفيين العراقيين التي لعبت دوراً ذاتياً في تثقيف نفسها وفي ولوج حياة السياسة العراقية والمشاركة الحيوية والفعالة في حياة المجتمع . وكان من بين هذه المجموعة الصغيرة حينذاك المستخدم بوظيفة كتابية في البصرة ، وعامل الثلج وبناع الكتب العراقي في الناصرية والصحفي غير المحترف وعضو الحزب الوطني ، والمنظم للحلقات الماركسية في الناصرية والبصرة ، ومن ثم المشارك والمؤسس للحزب الشيوعي العراقي فهد .

ملأت السياسة حياة فهد واستغرقتة بالكامل ، ولم تمنحه فرصة الاهتمام أو الالتفات الواسع إلى مجالات الحياة الأخرى ، بما في ذلك الحياة العائلية أو القضايا الشخصية المباشرة . وفرض عليه نشاطه السياسي الاهتمام بتلك المسائل التي ترتبط بالحياة السياسية بشكل مباشر ، ومنها القضايا الاقتصادية ومشكلات الجماهير الاجتماعية . وهي التي جعلته واسع الاطلاع ودقيق الملاحظة بالنسبة إلى تلك القضايا التي كانت تمس المجتمع مباشرة وتحرك الجماهير وتكسب ثقتهم .

لم ينفه فهد دراسته المتوسط ، إذ توقف عندها . ولكن سني الدراسة القصيرة منحته القراءة والكتابة وتعلم اللغة الإنكليزية ، إلى جانب العربية والسريانية ، وفتحت أمامه أبواب المعرفة والعمل ، كما وضعت في موقع أفضل في الحياة العامة . كان فهد محباً بنهم للقراءة شغوفاً بتوسيع معارفه ومعلوماته عن العراق والعالم العربي ، وهي التي فتحت له بدورها طريق التعلم والتعرف على عالم أوسع وعلى فكر أكثر حداثة وتقدمية . لم يكن فهد مثقفاً محترفاً أو متخصصاً في أحد فروعها أو موسوعي الثقافة ، ولكنه كان الأبرز في المجموعة الصغيرة من العمال المثقفين . وساعده ذلك على إقامة وتطوير علاقاته مع المثقفين ومع الصحف المحلية ،

واستفاد من ذلك في النقاشات التي كان يخوضها أو عمليات التثقيف المحلية التي كان يقوم بها في الناصرية أو المقالات والريبورتاجات التي كان يكتبها وينشرها في الصحف العراقية المحلية .

نشأ فهد سياسياً عمالياً أولاً ، ومن ثم أصبح مثقفاً ملتزماً ، يسعى إلى توظيف ثقافته لنشاطه السياسي والأهداف التي يسعى إليها . وكان لهذه الحقيقة تأثيرها الملموس لاحقاً على الموقف من الثقافة والمثقفين في العراق . إن المطالعات والدراسات الفكرية والسياسية التي تسنى لفهد الحصول عليها لم تسمح له في أن يكون من بين الشيوعيين القياديين المنظرين ، كما لم يتعب نفسه في هذا الشأن ، بل كان وعاش باعتباره رجلاً عملياً يستثمر النظرية الماركسية في تحليلاته وكتاباته ونشاطاته ، وكذلك في نقاشاته السياسية على صفحات الصحف . إن هذه الخلفية الثقافية أعطت فهد إمكانية التفسير وصياغة المهمات في واقع العراق الملموس على أساس النظرية الماركسية-اللينينية ، ولكنها لم تكن كافية للتعامل مع النظرية على أساس نقدي أو مطور لها في ظروف العراق الملموسة ، كان ، كما هي حال غالبية القادة الشيوعيين في إطار الحركة الماركسية-اللينينية من أمثال محمود الأطرش ، خالد بكداش ، انطوان ثابت ، فرج الله الحلو ، مستهلكاً ومستخدماً للنظرية مبدعاً في إطار تطبيقها في الظروف الملموسة التي كان يعيش فيها ومتأثراً بشكل مباشر بالتجربة السوفييتية في عملية التطبيق . وكانت قلة قليلة من تلك الجماعة التي كان في مقدورها ، بحكم تراثها الفكري والثقافي ، أن تلعب دوراً في التعامل الواعي والناقد للنظرية الماركسية أو اللينينية ، كما في حالة غرامشي في إيطاليا ، على سبيل المثال لا الحصر . وكانت قراءته للماركسية - اللينينية متأثرة ، وإلى حدود بعيدة ، بالرؤية والقراءة الستالينية .

كان لفهد موقف إيجابي عام وواضح إزاء أهمية الثقافة ودورها التنويري في المجتمع وعلاقتها الجدلية بواقع المجتمع ومستوى تطوره وتطور الوعي فيه . وبالتالي كان يتعامل مع المثقفين ، ومنهم جمهرة غير قليلة من الفنانين في مختلف مجالات الإبداع ، على أساس ذلك . إذ تبنى في وقت مبكر الثقافة التقدمية وتفاعل مع المثقفين العراقيين وشارك في نشاطاتهم رغم محدوديتها حينذاك . ولكن المتعلمين ، وهم الغالبية ، وعدد محدود من المثقفين ، في حدود مفهوم المثقف حينذاك ، شكلوا عملياً القسم الأكبر من الحلقات الماركسية التي كان يقودها والتي لعبت دورها في توسيع تلك الحلقات لتضم إليها عدداً آخر من الناس الكادحين من عمال وفلاحين وغيرهم . وكان فهد يتعامل باحترام كبير مع المثقفين في هذه الفترة من حياته العملية ، سواء في البصرة أم الناصرية أم في بغداد حين تشكل التنظيم الشيوعي الحديدي الضبط من مثقفين ، بمن فيهم العامل المثقف فهد .

غادر فهد إلى الاتحاد السوفييتي للدراسة الحزبية واحتك هناك بعدد كبير من المثقفين ، سواء كانوا من أصل عمالي أو غير عمالي ، وسواء كان ذلك في المدرسة الحزبية أم في مجال اللجنة التنفيذية ومكتب الأمانة الشيوعية . ولكنه في الوقت نفسه تعرف على تجربة الحزب الشيوعي السوفييتي في العلاقة مع المثقفين ودور المثقفين في حياة الحزب ، ثم تعرف على دور ستالين وعلاقته بالمثقفين الشيوعيين وغير الشيوعيين . ولم تكن هذه التجربة مسرّة ، إذ كان ستالين قد بدأ معركة واسعة منذ تسلمه للقيادة الحزبية وسلطة الدولة عملياً ضد المثقفين في الحزب متهماً إياهم بشتى التهم ، سواء منها الانتهازية والتحريفية أو حتى فيما بعد بالخيانة للحزب والوطن . وكانت حملة الاعتقالات والترحيل إلى منافي سيبيريا والسجون قائمة على قدم وساق ، كما لم يكن القتل أو التغيب قليلاً حينذاك . وإذا كان من الصعب على الضيوف

الدارسين أن يتعرفوا على هذه الوقائع الملموسة ، بسبب السرية التي كانت تتم فيها الكثير من تلك الحالات ، إلا أن التثقيف ضد مواقف وسلوك وانتهازية وخيانة المثقفين كانت تصم الأذان وتفقأ العيون . وكانت المدرسة الحزبية ، حيث يجري التدريس والتثقيف فيها يتم على أسس اللينينية والستالينية من الناحيتين النظرية والعملية ، تعرف تماماً ما كان يجري على الساحة الفكرية والسياسية ، إذ كان الهدف لا يشمل الحزب الشيوعي السوفييتي وحده ، بل كان يشمل أيضاً كل فصائل الحركة الشيوعية في العالم . وكان الحزب الشيوعي العراقي واحداً منها يفترض فيه أن يستفيد من النموذج السوفييتي ، إذ منه يفترض أن يتعلم الشيوعيون سبل الانتصار .

وفي ضوء ذلك يمكن القول بأن فهداً غادر العراق بموقف معين من المثقفين عموماً وعاد إليه بفكر وتجربة وموقف سوفييتي جديد لم يعرفه من قبل ولم يتعرف عليه في العراق شخصياً . وكان على فهد أن يخوض تجربته الخاصة الجديدة مع المثقفين العراقيين . وقد أشرنا قبل ذلك إلى أن كانت لفهد في البداية رؤية إيجابية عامة إزاء كل المثقفين في العراق . ولكن تغيرت هذه الرؤية نسبياً في مجرى النضال اليومي في العراق . فما هي العوامل التي قادت إلى تغيير موقف فهد من المثقفين؟ يبدو لنا اليوم بأن كانت هناك مجموعة من العوامل التي تحكمت بموقف فهد من المثقفين العراقيين على صعيد العمل الحزبي ، المتميز نسبياً عن موقفه إزاء المثقفين العراقيين بشكل عام ، رغم أن النظرة إليهم كانت واحدة أو ذات أساس واحد . فوفق المعلومات والمعطيات المتوفرة لدينا حتى الآن يمكننا الإشارة إلى العوامل والملاحظات التالية:

1. كان لدى فهد فهم واقعي وملموس عن دور وأهمية المثقفين بشكل عام في المجتمع . فجمهرة المثقفين قادرة على القيام بدور تنويري مهم وكبير ، كما يمكنها أن تثير الحيوية في المجتمع وتحفز ، بكتاباتها الأدبية والفكرية والفلسفية وفنّها المتعدد الجوانب ، على التفكير والتفتح الفكري إزاء ما هو جديد ، إضافة إلى كونها تطرح فكرياً تحريضا عاما ، كما في الموقف من المرأة أو من العدالة الاجتماعية أو من الحرية والحق في التعبير . إذ لا يمكن في هذا الصدد نسيان دور الأدب ، الشعر ، القصة والرواية ، أو الرسم أو الغناء الشعبي ، أو المسرح ، أو غيرها من الفنون ، أو النشر العام حول قضايا المجتمع والفلسفة وغيرها في المجتمع وتأثيره المباشر وغير المباشر على الفئات الاجتماعية المختلفة؛

2. ومن هذا الفهم تكونت عند فهد قناعة فعلية تؤكد بعدم إمكانية تجاوز دور المثقفين في نشاط الحزب الفكري والسياسي على صعيد الحزب والمجتمع في آن واحد حتى بعد عودته من موسكو ، سواء بجانبه التنويري أو التحريضي والتعبوي؛

3. وكان فهد يدرك أيضاً بأن المثقفين بشكل عام لا يميلون إلى ربط أنفسهم بقواعد تنظيمية تتسم بالانضباط الحديدي والطاعة التامة والاجتماعات الملزمة والخضوع لإرادة الأكثرية دون حق التعبير عن رأيها بكل صراحة ، كأقلية في الحزب مثلاً ، خارج حدود الهيئات ، أي أنها كانت تطمح إلى امتلاك حقها في التعبير عن رأيها ونشر هذا الرأي بكل حرية ، وحقها في خوض الصراع الفكري المفتوح أو العلني دون التزامات ثقيلة مخلة بفكر الإنسان واستقلاله أو تلك التي تخلق عنده ازدواجية مخلة؛

4. وكان يعتقد بأن المثقفين يسعون إلى خوض حوارات وتداول وجهات النظر ، بغض النظر عن مدى إمكانية توصلهم إلى نتائج وقرارات موحدة أو محددة . وكان يرى بأن هذا الاتجاه يحول الحزب ، شاء الإنسان أم أبى ، إلى مجتمّع حوارى للمثقفين ، أو إلى ناد للحوار لا غير

، يقود إلى خلق وجهات نظر عديدة وربما تشكيل جماعات وتكتلات عديدة وخوض صراعات لا طائل منها ، وبالتالي ينهي دوره كحزب يعتمد إلى وحدة الرأي والعمل؛  
5. وكان فهد قد حمل معه أفكار وهواجس قادة الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي ، وخاصة ستالين ، إزاء المثقفين ، التي تميزت بروحية محاربة المثقفين تحت واجهات عديدة ، إضافة إلى تكون قناعة لديه بأن الحزب الشيوعي السوري ، وكذلك المصري كانا يعانيان من سيطرة المثقفين على الحزب ، وبالتالي ، يمكن ملاحظة الاتجاهات غير البولشفية السائدة في نشاط هذين الحزبين ، إضافة إلى التكتلات التي كانت تنشأ في صفوفهما؛

6. ولعبت المدرسة الحزبية بمناهجها الدراسية وأساتذتها وطرق تدريسها وحواراتها مع المسؤولين والكوادر الحزبية دورها البارز في الإشارة الواضحة إلى سلبيات وجود المثقفين في الهيئات القيادية للحزب ومخاطر بروز نزعات تحريفية وانتهازية مضرّة بالحزب وبنضاله ، وأهمية الاستفادة منهم مع فرض الرقابة على نشاطهم الفكري والسياسي؛

7. وكان فهد يريد بالقطع بناء حزب سياسي ماركسي-لينيني ، بولشفي ، قائم على الانضباط والضبط الحديديين والطاعة التامة والخضوع التام للقرارات الصادرة عن قيادة الحزب أو الأكثرية ، كان يريد أن يبني حزباً سياسياً يلتزم بفكر واحد وسياسة واحدة وممارسة واحدة أو عمل واحد (وحدة الفكر والعمل) ، وبالتالي كان يرفض أن يصبح الحزب ناد للحوار الفكري والصراعات السياسية بين المثقفين .

ليس هناك ما يوحي إلى أن فهد قد تملكته عقدة إزاء المثقفين ، إذ أنه كان سعيداً جداً أن يوصف بكونه من أبناء الطبقة العاملة ، ولكنه كان أبين مدرسة فكرية وسياسية تكونت لها ، منذ فترة مبكرة ، أي مع نمو الصراع بين المنشفيك (الأكثرية) والبولشفيك (الأقلية) في الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي ، ثم الانقسام إلى حزبين مختلفين ، أحدهما اشتراكي ديمقراطي والآخر شيوعي ، كان لها ، وبشكل خاص منذ هيمنة ستالين على قيادة الحزب والدولة ، مواقف غير ودية إزاء المثقفين الشيوعيين والمثقفين بصورة عامة .

وعلى أرض الواقع واجه فهد ومنذ عودته من موسكو إلى حين كتابته كراسه المعروف "حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية" وعقد المؤتمر الوطني الأول للحزب ، بعض التجارب التي أثرت على موقفه من المثقفين وعززت لديه الانطباعات التي جلبها معه من موسكو . ويمكن الإشارة إلى البعض من تلك التجارب:

- الانهيار الذي أصاب العديد من كوادر الحزب المثقفة التي ساهمت في بناء الحلقات الماركسية والحزب ، سواء بتخليها عن العمل السياسي أم بتحولها إلى مواقع العداء للحزب وإفشاء أسراره إلى أجهزة التحقيقات الجنائية .
- التكتلات الحزبية والانشقاقات التي قادها بعض المثقفين في الحزب التي بدأت بمحاولات يعقوب كوهين وذو النون أيوب في كتلة "إلى الأمام" ، ثم في انشقاق عبد الله مسعود القريني وجماعته "الشرارة الجديدة" ، وبعد ذلك انشقاق داود الصائغ وتشكيل كتلة الرابطة وإصدار جريدة "العمل" ، كما نشأ من بقايا إلى الأمام والشرارة تنظيم جديد هو وحدة النضال التي قادها هارون زلخا . كما كانت هناك مجموعة صغيرة يقودها زكي خيرى باسم "اللجنة الوطنية الثورية" ، الذي عاد إلى الحزب مع مجموعته بعد خروجه من سجن الكوت عام 1948 .



• الإحساس بأن هؤلاء المثقفين لا يحدوهم النضال الفعلي لتحقيق الأهداف بقدر ما يحدوهم حب الظهور واحتلال المواقع القيادية والأغراض الشخصية ، وهي بالضد من الكادحين الذين يسعون إلى الحزب للنضال من أجل مصالح الطبقة العاملة وليس لأغراض آتية وشخصية أو حب الظهور واحتلال المواقع القيادية في الحزب .

وتجلت كل هذه التجربة الذاتية مقرونة بتجربة السوفييت المنقولة له وتلك الهواجس إزاء المثقفين في العراق في كراسه "حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية" حيث كتب يقول:

"إن الانتهازيين هنا قلدوا إخوانهم المنشفيك -الباندين- في روسيا ولم يأتوا بشيء جديد مبتكر ، إنهم قلدوهم لا لمجرد التقليد أو حياءً به ، ولم يكن هذا التقليد قضية شخصية بل ظاهرة اجتماعية ، إذ أن الظروف التي بعثت الانتهازية عند المنشفيك في روسيا وعند انتهازيي الدولية الثانية هي عين الظروف التي بعثتها هنا وأن كانت لا تزال في دورها الابتدائي ( . . ) . فالانتهازيون عندنا -الذين من فصيلة المنشفيك- حاولوا أن يقتنوا الحزب "بأن الاشتراكية في العراق سوف لا تكون نتيجة نضال الطبقة البروليتارية" (وأن الطبقة) الثورية في العراق والتي بفضل قيادتها سنتوصل إلى الاشتراكية هي (طبقة) الأفندية" "لذلك يجب أن نفتح أبواب الحزب للأفندية و" أن لا خوف من تذبذبهم طالما الحركة في مد وأنها ستستمر كذلك . . الخ" أنهم حاولوا تفويض النظام والضبط الحزبيين ، وإضعاف الثقة بالقيادة وبالرفاق النشطين ، وأوجدوا التكتلات داخل الحزب لغرض التآمر والاستيلاء على قيادة الحزب . . "374 .

ثم كتب في مكان آخر من نفس الكراس واصفاً أسباب توجه المثقفين للعمل في صفوف الحزب بقوله: " أما طلاب العضوية في الأحزاب الشيوعية في المستعمرات والأقطار التابعة للإمبريالزم حيث يكون النضال التحرري في مقدمة الأهداف وحيث يكون القطر متأخراً صناعياً -مثل قطرنا- فالملاحظ هو أن أكثرية المنجذبين إلى الحزب هم من البتي برجوا وخصوصاً المثقفين ، وسبب هذا أن البلاد خالية من أحزاب ديمقراطية علنية يستطيع هؤلاء أن يبدوا نشاطهم فيها ولحرمان الموظفين والمستخدمين من الاشتغال بالسياسة ، وأحياناً لأسباب شخصية وللتجسس على أعضاء الحزب وأعماله ، ولولا هذه الأسباب لما جاء جميع هؤلاء إلى الحزب الشيوعي ، ولوجدوا ضالتهم خارجه . ولو قبل جميع هؤلاء في الحزب لفقد الحزب صفته الطبقيّة كحزب للطبقة العاملة وأصبح حزباً لا شكل له . لقد كان هؤلاء مصدر الانقسامات والأفكار الغريبة داخل الحزب"375 . (الخطوط الداكنة في أصل الكراس) . من يقرأ كراس "في سبيل تكوين بولشفي" لستالين ، أو من يقرأ كراس "في سبيل تكوين شيوعي جيد" ليو شاو شي ، سيجد نفس التوصيف تماماً لأولئك الذين يلجون الحزب الشيوعي لأسباب وأغراض شتى ، وبالتالي على الحزب أن يعمل باتجاهين أما أن يتخلص من هؤلاء أو يدخلهم في بوتقة الحزب الإيديولوجية ويحولهم إلى بلاشفة أو إلى شيوعيين جيدين . وهو تعبير مشترك يجسد السمات التي يفترض أن يتسم بها الشيوعي والتي وردت في جميع النظم الداخلية للأحزاب الشيوعية الأعضاء في الأمم المتحدة .

إن الصورة التي عرضها فهد لطالبي العضوية في الحزب وتركيزه على العناصر البتي برجوا ، وخاصة المثقفين منهم ، كان لا بد لها أن تنتهي إلى طريقة أخرى في التعامل مع المثقفين تختلف عن طريقة تعامله مع العمال أو الفلاحين من "أجل أن يحافظ الحزب على هويته الطبقيّة" والتي لخصها بما يلي: "ولكي تتجنب الأحزاب الشيوعية إغراق صفوفها بأمثال تلك

374 فهد. كتابات فهد. حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية. مصدر سابق. ص 75.

375 نفس المصدر السابق. ص 60.

العناصر فأنها لا تقبلهم بالسهولة التي تقبل بها العمال وتعمل دائما على تثقيف العمال وإيجاد كادر منهم ، فالمرفوضون من أولئك المثقفين يعتبرون عدم قبولهم في الحزب إهانة لهم فهم يرفضون بدورهم الاعتراف بالحزب ويعملون على التخريب من بعيد فتراهم يتهافنون على كل حركة تعادي الحزب مبررين هذا بكونه "حركة وعملاء" وأن الجمود حسب تفسيرهم خيانة: إنهم يقفون إلى جانب العدو ويعملون ضد الحزب الشيوعي الذي رفض قبولهم ، أي أنهم يقومون بخيانة عملية كيما يرضوا رغبات في نفوسهم قد يسمونها "حب العمل" في سبيل الحركة ، وهي في الحقيقة حب الظهور والتزعم ودوافع طبقية غريبة عن مصلحة الطبقة البروليتارية ، . "376. ثم كتب فهذا محذرا أعضاء الحزب بقوله: "وشيء آخر أريد أن الفت نظر رفاقي إليه هو (أن النظرية الثورية التي تقود الحركة الثورية) ليست "وصفة جاهزة تعطى لكل الحالات" وأني أطلب إليهم أن لا يكون مثلهم كمثل "الماركسيين" و "الشيوعيين" الكثيرين من أبناء الذوات والأفندية الذين ابتلى بهم العراق وابتلت بهم الشيوعية والماركسية ، أولئك الذين لا ينفكون ليل نهار من نقل عبارات ماركس - إنجلز - لينين - ستالين ، ويضعونها في غير محلها إما لغباوتهم وانفصالهم عن حياة الجماهير ، أو لغرض في نفوسهم... "377. (الخطوط الداكنة من وضع فهد) . ثم يبدأ بوصف هؤلاء من أبناء الذوات والأفندية الذين يقرأون الماركسية بطريقة أخرى فيقول: "أما تعشقهم ل "الديمقراطية" وحرية العمل والتفكير والتصرف ، فإنه يشبه تعشق تلك الفراشة العاهرة ، فالنظام والضبط الحديدي والتقييد بمقررات لا تتفق وآرائهم الخاصة المنبثقة عن رغباتهم الخاصة ، فهذه أمور لا تتفق و "ديمقراطيتهم" التي تضطرمهم على الدوام أن ينتقلوا كتلك الفراشة من مستنقع إلى آخر "378. ثم لا يكف ولا يتعب فهد من شتم هؤلاء الذين يختلفون معه في الرأي والاجتهاد والمعارضة في الحزب "وعشاق اللبرالزم (مبدأ البرجوازية الحرة) من المقررات الحزبية "وديمقراطيتها وعدم ديمقراطيتها" ومن ثم آرائهم ضد سياسة الحزب وخطه "379 ، حيث كتب يقول: "أما المعارض الثرثار الذي يبني معارضته بحجة التفهم وحب الاطلاع ، أو الذي يظهر معارضته بشكل حب المعركة ، فإنه يبقى حياته الحزبية كلها لا يسأل ولا يفهم ولا يريد أن يفهم ، ويفضح كل ما سيتوصل إلى معرفته بحجة أنه لا يفهم ، وكيف يفهم والقيادة لم تطلعه على نواياها وعلى قراراتها ، وأحيانا على قرارات يتوهم وجودها"380. .

وفي ضوء ذلك توجه عمل فهد ، وتحت تأثير التجربة السوفييتية ، لبناء العضو الحزبي الشيوعي المثقف ، وليس إلى إغراق الحزب بالمتقنين الشيوعيين ، وكان هذا يعني:

- العمل على اختيار عمال وفلاحين كادحين يؤمنون بالشيوعية وبالحزب وأهدافه بغض النظر عن المستوى الفكري والثقافي أو ممن لا يعرف القراءة والكتابة ، وتحويلهم تدريجاً إلى مثقفين في الحزب وللحزب؛
- العمل من أجل جعل المثقفين خاضعين لقرارات الحزب المركزية وملتزمين بها ومنفذين لها دون قيد أو شرط؛

376 نفس المصدر السابق. ص 61/60.

377 نفس المصدر السابق. ص 64.

378 نفس المصدر السابق. ص 66. ملاحظة للطرافة فقط هي أن الفراشة تنتقل من زهرة إلى أخرى ومن حقل زهور إلى حقل زهور آخر وليس من مستنقع إلى آخر. وهي مفارقة ، إذ من غير المعروف عن الفراشة حتى لو كانت "عاهرة" أن تنتقل من مستنقع إلى آخر حتى لو كان ذلك مجازاً. علماً بأنه هنا يقصد عملية الانتقال لا غير. (المؤلفان).

379 نفس المصدر السابق. ص 68.

380 نفس المصدر السابق. ص 69.

■ عندها يمكن الاستغناء عن المثقفين القادمين إلى الحزب من أوساط غير عمالية وفلاحية ويحملون معهم أفكاراً غريبة ومضرة بالحزب .  
 لم تكن هذه الوجهة سهلة ، وبشكل خاص بالنسبة إلى المثقفين الشيوعيين ، إذ أدت إلى بروز نقاط احتكاك وتصادم في حياة الحزب الداخلية عملياً ، وإلى تعقيد العلاقة مع المثقفين الماركسيين خارج الحزب . ويشعر الإنسان بوضوح إلى أن فهداً في حديثه عن المثقفين ومواقفه منهم ينقل إلى الحزب الشيوعي والمجتمع العراقي تجربة الحزب الشيوعي السوفييتي والمجتمع السوفييتي ، رغم التباين الشديد بينهما .  
 إن القراءة النقدية للوجهة التي عمل بها فهد ومواقفه إزاء المثقفين في الحزب تشير إلى جانبين هما:

- الصواب النسبي لما أشار إليه من أن غياب الديمقراطية والأحزاب السياسية المختلفة يدفع حقاً عناصر كثيرة صوب الحزب بهدف العمل السياسي في صفوفه؛
- ولكن هذه الحقيقة ذات جانب واحد ، إذ كان هناك لها جانب آخر . فكثرة من المثقفين جاءوا إلى الحزب حينذاك ليس بهذا الدافع الأتاني والشخصي ، كما التزموا الماركسية أيضاً قبل ذلك ليس بدافع الربح والخسارة ، بل بسبب نشوء فئات لديهم مفادها صواب المنهج الذي اختاروه . فإلى جانب الحزب وجدت هناك جماعات ديمقراطية ويسارية أخرى سرية ، كان في مقدورهم الدخول إليها والمشاركة معها في النضال . كما أن تقديم طلبات لعضوية الحزب لا تلزم الحزب على قبولهم جميعاً ، كما أنها لا تستوجب التشكيك بهم بهذه الصورة القاسية وغير المبررة . فالصراع في داخل الحزب ووفق حالات معينة مرّ بها الحزب يفترض أن لا تسمح بمثل هذا التعميم ولا بالطريقة التي تعامل بها فهد مع المثقفين في الحزب أو خارج الحزب ، حيث وضع حواجز عالية وعريضة بين المثقفين والحزب ، كما نشأت في ضوء ذلك تقاليد إزاء المثقفين لم تكن مبررة ، إضافة إلى أنها خلقت وضعاً تمييزياً غير مناسب وغير مقبول بين العاملين في الحزب ، وهي ذات المسألة ونفس الموقف اللذين جعلوا فهد يلتزم بتحديد فترة زمنية أطول لاختبار المرشح للحزب قبل قبوله عضواً في الحزب ، حيث مددت الفترة لغير العمال إلى الضعف ، أي ثلاثة شهور للعمال وستة شهور لغير العمال . ونشأ في الحزب الشيوعي جو عام مناهض للمثقفين الشيوعيين داخل الحزب ، وأحياناً حتى عند بعض مثقفي الحزب ، وهي إحدى الظواهر السلبية التي انتقلت من الحزب الشيوعي السوفييتي إلى الحزب الشيوعي العراقي . وكان تشبيه فهد للمثقفين على أنهم ورود في صدور العمال لا يعبر عن فائدة فعلية معينة تأتي من جانب المثقفين للطبقة العاملة ، سوى منظرها الجميل ورائحتها الطيبة ، إذ سرعان ما تنتهيان إلى الذبول ونفاذ الرائحة . والجدير بالإشارة إلى أن الغالبية العظمى من قيادات الحزب الشيوعي كانت وما تزال من أصول غير عمالية ، بل برجوازية صغيرة وفلاحية وبعضها برجوازية متوسطة أو من أصحاب الأراضي الزراعية .

كتب زكي خيرى مشيراً إلى الأثر السلبي الذي تركته طريقة فهد الجافة في التعامل مع المثقفين وعدم تحمله النقد القادم منهم بقوله: "وربما كان قد فرط ببعض المثقفين الذين كانوا يطالبونه بحرية المناقشة أو بصياغة برنامج ونظام داخلي للحزب مبكراً ، . . . 381 .  
 ولكن ما هو السبب وراء التفاف المثقفين الديمقراطيين والتقدميين الواسع نسبياً حول سياسة الحزب في فترة الأربعينات التي نحن بصدددها والتي كان فهد يقف على رأس الحزب؟

يبدو لنا بأن الإجابة عن هذا السؤال يفترض أن تأخذ بأبعاد المسألة العديدة ، سواء تلك العوامل المرتبطة بالتراث والتقاليد العراقية المتراكمة منذ حركة الزنج والقرامطة في العراق وأصحاب العقل إزاء أصحاب النقل ، من جهة ، أم تلك العوامل المرتبطة بتكوين الشعب العراقي المتعدد القوميات والأديان والطوائف واللغات والمشعب بإرث حضارات وثقافات عدة ، إضافة إلى الاصطفاف الذي فرض نفسه في العراق في فترة الثلاثينات والأربعينات بين الفكر الديمقراطي التقدمي وبين الفكر القومي اليميني ، وفكر النخبة الحاكمة غير الديمقراطي والرجعي في العديد من جوانبه ، إضافة إلى الجهادية العالية التي تميز بها نضال الشيوعيين وعلاقتهم الطيبة والواسعة والمباشرة بجماهير الشعب وطرحهم لشعارات صائبة وجدت تأييداً واسعاً لها في صفوف الفئات المختلفة ومنهم جمهرة المثقفين التي أصبحت تشكل مجموعة خاصة بذاتها تتخذ مواقف إلى حد غير قليل غير مرتبط بالفئات التي انحدرت منها أصلاً ، أي رغم انحدارها في الواقع العملي من فئات اجتماعية مختلفة ، ولكنها في الغالب الأعم كانت ميسورة الحال .

إن الإشكالية الكبيرة لهذا الموقف تجلت في واقع ومستوى الحزب الثقافي على امتداد الفترة التي سبقت استشهاد فهد وما بعد ذلك لسنوات غير قليلة . فعلى سبيل المثال لا الحصر يذكر زكي خيري بصورة غير مباشرة عن مستوى التثقيف في السجن ، في وقت ضم السجن كوكبة من الشيوعيين الواعين والمثقفين الذين احتل بعضهم مراكز متقدمة في الحزب . كتب زكي خيري يقول: "وبعد أن حكم المجلس العرفي العسكري علينا بالحبس نقلونا إلى محطة توزيع السجناء السياسيين في سجن التوقيف في باب المعظم وهناك تعرفت على حسين الرضي (سلام عادل) وبهنام بطرس وعبد الرزاق مطر الذي كان عضواً في السابق في اللجنة المركزية بقيادة فهد التي انتخبها المؤتمر الحزبي الأول ثم ترك الحزب . وكان حسين الرضي انشط الموجودين في ذلك السجن . وكان يوقظني قبل نهوض السجناء من نوم الصباح ، ذاك النوم الأسر ويجمع بيني وبين رفيقين آخرين: بهنام بطرس وعبد الرزاق مطر وهو أيضاً لكي ألقى عليهم "محاضرة" عن "الأسس اللينينية" لستالين . أجل محاضرة مرتجلة عن أعقد القضايا اللينينية بدون وجود أية مراجع أو أسانيد أو مطبوع وفي الصباح الباكر! كان الجيل الجديد من الشيوعيين يعتقد أنني من حفظة القرآن "بلا تشبيه" وأني أستطيع في أية لحظة أن أتلوا عليهم آيات من كنز الماركسية اللينينية عن ظهر قلب أو أن أشرحها ارتجالاً . كانوا شباباً متعطشين إلى النظرية الثورية ولم يكن في متناول أيديهم أي ورقة يقرأونها ليرووا غليلهم فلم يجدوا في تلك العزلة المضروبة وسيلة يبلون فيها شيئاً من غليلهم سوى أن يعصروا رأسي لعلمهم يستدروا منه قطرات من المعرفة . وقد تحدثت إليهم بكلام يدور حول حواشي الموضوع وكنت موقناً أن ما أقوله لا يروي غليلاً" 382 . كان هذا في عام 1950/1949 ، وبعد عدة سنوات ، أي في عام 1955 أزيح حميد عثمان وانتخب بدلاً عنه سلام عادل سكرتيراً للجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي 383 .

382 نفس المصدر السابق. ص 151/152.

383 يوسف ، ثمينة ناجي ، وخالد ، نزار. سلام عادل سيرة مناضل/ بجزنين. الجزء الأول. دار المدى للثقافة والنشر. دمشق. 2001. ص 99-102.

## الفصل السابع : فهد وحركة تحرر المرأة

تبنت الحلقات الماركسية في بداية نشوئها في بغداد موقفاً ديمقراطياً تقدمياً و علمانياً من المرأة ومن حقوقها المشروعة في المجتمع ، فنادت لها بالحرية وحققها الكامل بالمساواة التامة مع الرجل ، ودعت إلى النضال المشترك لتخليصها من ثقل الحجاب الذي يعيق مشاركتها الفعلية في النشاط الاقتصادي والحياة العامة . وأثارت جريدة "الصحيفة" نقاشات حيوية حول موضوع المرأة ساهم فيها العديد من الكتاب الشباب الذين وقفوا إلى جانب حقوق المرأة في حين تصدى لتلك الحقوق العديد من الشخصيات الدينية والاجتماعية البارزة حينذاك محاولين التستر بالإسلام لحرمان المرأة من كامل حقوقها وجعلها جزءاً لا يتجزأ من المطبخ والبيت وموضوعاً للجنس عند الرجل ومن أجل التكاثر أو إعادة إنتاج البشر لا غير . ورغم مرور عشرات السنين على تلك النقاشات التي تميزت بالحيوية والحماسة ابتداءً من منتصف العشرينات ، ما تزال هذه الموضوعات تحتل أهمية بالغة بالنسبة للمجتمع العراقي ولم تفقد أهميتها في حياة المسلمين ، بسبب بعد المرأة الفعلي عن ممارسة حقوقها التي وردت في الكثير من الوثائق الدولية ، سواء الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والوثائق والبروتوكولات اللاحقة التي تعترف بحقوق المرأة كاملة غير منقوصة والصادرة عن الجمعية العامة للأمم المتحدة . وكانت النقاشات التي بدأتها "الصحيفة" ، والتي عبرت عن أفكار وأراء جماعة حسين الرحال في بغداد ، أو تلك المقالات التي نشرت في الصحف العراقية الأخرى بأقلام بعض العناصر الديمقراطية ، تؤكد على الدور الحيوي الذي يفترض أن تحتله المرأة في المجتمع ، واعتبرت تلك النقاشات جزءاً من عملية التنوير الضرورية للمجتمع العراقي كله التي تتطلب مشاركة نضالية من المرأة والرجل في آن واحد . ولم تكن مقاومة القوى المناهضة لحقوق المرأة عادية أو ضعيفة الأثر على المجتمع في تلك السنوات الأولى من تشكيل الدولة العراقية الحديثة ، بل كانت كبيرة وهجومية استفادت من مستوى الوعي في المجتمع لتبث إشاعات وتروج دعايات خاطئة ضد المنادين بحرية المرأة ورمي الحجاب أو التي سميت ب "حركة السفور" حينذاك ، إذ وجدت التأييد والدعم الواسع من أوساط دينية وفي أوساط السلطة والمجتمع ، حيث كانت العلاقات العشائرية والعلاقات الإنتاجية شبه الإقطاعية في طريقها إلى التكريس والمساهمة الفعالة في قيادة السلطة عبر ممثليها في مجلس النواب والأعيان والحكومة . وحصل استقطاب ملموس غير متكافئ في تلك الفترة وفي وقت مبكر بين المنادين بحرية المرأة والمناهضين لها ، ومع ذلك فقد تمكن أصحاب حق المرأة من تحريك الأجواء ودفع الفكرة إلى أوساط الشباب لتشارك لاحقاً في هذه العملية المعقدة ذات التراكم المتعدد في المجتمع العراقي .

ويمكن اعتبار الحزب الشيوعي العراقي أول حركة سياسية منظمة في البلاد رفعت شعارات ووضعت مهمات على عاتقها وعاتق أعضاء وأصدقاء الحزب والحركة الوطنية للنضال من أجلها ، أي النضال من أجل تحرر المرأة العراقية ثقافياً واقتصادياً واجتماعياً وسياسياً ، باعتباره الطريق الوحيد لمشاركة المرأة بوعي ومسؤولية في المجتمع ومساواتها التامة بالرجل . ولم يكن الحزب الشيوعي وحده يخوض هذا النضال الاجتماعي المعقد بأبعاده السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بل وقفت إلى جانبه شخصيات سياسية واجتماعية وأدبية غير قليلة ، إضافة إلى تظافر جهود الأحزاب السياسية في عقد الثلاثينات والأربعينات ، وبشكل خاص الحزب الوطني وجماعة الأهالي وفيما بعد أحزاب اليسار ، مثل حزب الشعب وحزب

الاتحاد الوطني وحزب التحرر الوطني ، إضافة إلى أحزاب وطنية برجوازية أخرى مثل الحزب الوطني الديمقراطي وحزب الاستقلال ، التي لعبت كلها أدواراً مهمة ومتباينة في هذه العملية الوطنية .

وعندما تولى فهد قيادة الحزب سعى إلى تحليل وطرح القضية وفق المنهج المادي الديالكتيكي والمادي التاريخي ، أي حاول ربط مسألة تحرر المرأة بمجموع العلاقات الاجتماعية القائمة في البلاد وبالوعي الاجتماعي السائد . ثم أكد بأن تحرير المرأة لا يمكن أن يتم دون مشاركة المرأة نفسها في هذا النضال ، إذ لم يكن من مصلحة الرجل الضيقة وفي إطار وعيه الذكوري في مجتمع ذكوري لا غير حينذاك ، أن يطالب وحدة بحقوق المرأة ، في حين يجدها لا تمارس معه هذا النضال . لذلك سعى إلى تحفيز المرأة لا للمشاركة في انتزاع حقوقها فحسب ، بل وأن تتصدى للمهام الاجتماعية اليومية في المجتمع لتبرهن عن أهليتها لهذا النضال وقدرتها على ممارسة حقوقها في المجتمع . وبمعنى آخر ربط فهد قضية تحرير المرأة بعملية تحرير المجتمع من ربة الاستعمار ومن سيطرة العلاقات العشائرية والعلاقات الإنتاجية شبه الإقطاعية . ولم تكن هذه المهمة سهلة بسبب طبيعة توزيع السكان حينذاك ، إذ كانت الغالبية العظمى من السكان تعيش في الريف حيث تسود العلاقات العشائرية وعلاقات الإنتاج شبه الإقطاعية ، وحيث لا يجد شيوخ العشائر أية ضرورة للحديث عن حق المرأة ، سوى أداء مهمتها في إنجاب الأطفال والعمل البيتي ومساعدة الرجل في الحقل ، إضافة إلى إشباع رغبات الرجل الجنسية لا رغباتها الفعلية . شريطة أن لا ننسى في هذا الصدد أن المرأة ، وبالرغم من التقاليد الاجتماعية لعبت دوراً فاعلاً ومؤثراً ولكنه ثانوياً في ثورة العشرين حيث أخذت على عاتقها مهمة إثارة غيرة وحماسة الرجل للدفاع عن عرضه وأرضه وكرامته . ولم يحدث هذا في ثورة العشرين وحدها ، بل شاركت المرأة عموماً في أكثر المعارك القبلية والغزوات المتبادلة في هذا الدور التبعي للرجل ، على أهميته النسبية . وكانت المرأة في كل ذلك تواجه المعاناة سواء بفقد الرجل أو الابن والأب والأخ ، أم بالأسر وما يرتبط بذلك من إذلال للمرأة وفرض الهيمنة الكاملة عليها وكأنها سلعة من السلع لا غير ، سوى كونها سلعة مثيرة للشهوات والجنس عند الرجل .

ومن دراسة وثائق الحزب في الأربعينيات يجد الإنسان البدايات الأولى لنشر أخبار عن فعاليات المرأة ذات الطبيعة الاجتماعية والاقتصادية والخلفية السياسية ، إذ نشرت جريدة الحزب خبراً عن مساهمة المرأة العراقية المباشرة في النضال الجماهيري اليومي ، حيث ورد في العدد الخامس من جريدة "الشرارة" الصادر في شباط/فبراير 1942 وتعليقاً تحت عنوان (عرائض النساء حول حل مشكلة الخبز) تضمن ما يلي:

"على أثر البيان الذي نشره حزبنا الشيوعي بخصوص المجاعة المهددة للبلد والذي بسط فيه مطالبه لحل مشكلة الخبز والقضاء على دسائس المحتكرين لبي فريق من نساء بعض محلات بغداد نداعنا هذا فعزمن على إقامة المظاهرات السلمية وتنظيم العرائض ليتقدمن بها إلى سمو الوصي وفخامة رئيس الوزراء ومعالي رئيس مجلس النواب ، ولكن الشرطة قد حالت بين هؤلاء النسوة المتظاهرات الحاملات للعرائض وبين الوصول إلى المراجع المختصة . ونحن بدورنا نثبت على صفحات (الشرارة) صورة من إحدى تلك العرائض واليك نصها:

صاحب الفخامة نوري باشا السعيد .

إننا الموقعات أدناه من نساء محلة . . . . نتقدم إليكم بعريضتنا هذه رافعين شكائتنا من الجوع المحقق بنا وبأطفالنا . إننا لقد أصبحنا في وضع يصعب علينا الحصول على كسرة الخبز لنسد

رمى أطفالنا الأبرياء المستغيثين والصارخين لأجل إنقاذهم من ألم الجوع وخطر الهلاك . إنك يا صاحب الفخامة كآب لا بد وأن تقدر فداحة مصاب الأمهات والآباء حينما يعجزون عن تقديم كسرة الخبز لأطفالهم الأبرياء الذين يتضورون جوعاً . نحن نرى أن خطر المجاعة يتعاظم يوماً بعد يوم إن لم تتداركوا الأمر بالمعالجة الصحيحة ونحن نرى أنه في سبيل الوصول إلى هذه المعالجة لا بد من تحقيق مطالبنا هذه:

1- إقامة لجنة التمويين المركزية والتحقيق مع أعضائها عن التلاعب الذي حصل في أثناء وجودها والذي نتج عنه فقدان الخبز والأطعمة .

2- تشكيل لجنة تمويين من غير التجار المحتكرين أو صنائعهم على أن تسترشد في أعمالها بلجان شعبية تنتخب من كل محلة .

3- مصادرة أموال كل محتكر يتحدى أوامر الحكومة .

4- استيفاء الحكومة رسوم الاستهلاك عينا لا نقداً من المواد الغذائية كالحنطة والتمن\* والشعير والدهن وغير ذلك من المواد الغذائية التي تتوقف عليها مباشرة حياة الناس والتي هي مكدسة في البيادر والعلوي وبيعها على الناس بالمفرد مباشرة .

5- إنشاء مؤسسة قوامها متطوعون من أبناء الشعب لينبث في الأسواق وليرغموا الباعة والمحتكرين على بيع بضائعهم بموجب الأسعار التي حددتها الحكومة ، على أن يزود هؤلاء المتطوعون بصلاحيات قانونية تخولهم اتخاذ الإجراءات العاجلة لضبط المخالفين وسوقهم إلى المحاكم .

6- إنشاء علاقات تجارية حالاً مع الدولة الاشتراكية روسيا وهو التدبير الوحيد الذي يضمن لنا درء هذه . . الضائقة المالية" 384 .

وتحت عنوان (ملاحظة الشرارة) ، تعلق الجريدة حول لجنة التمويين المركزية مايلي: "عزلت لجنة التمويين المركزية السابقة وتشكلت (لجنة جديدة) ألحقت بوزارة المالية . والذي نستنتجه من هذا الأمر هو أن الحكومة بعملها هذا قد أقرت بأن لجنة التمويين السابقة قد أساءت التصرف وقد استغلّت مصلحة اللجنة في سبيل أغراضها ولم تقدم للشعب ما كان يتوخاه منها من حل مشكلة الخبز" 385 . وتنصح الجريدة اللجنة الجديدة أن تأخذ بنظر الاعتبار المطالب التي ضمنها الحزب ببيانه الذي وزع على الشعب والمنشور في نفس العدد .

ولاشك أن تنظيم المظاهرة النسائية لم يأت من باب العفوية ، فلا بد أن التنظيم الحزبي كان يقف وراء ذلك ، لاسيما وأن الحزب كان قد أصدر بياناً بخصوص المطالب المتعلقة بخبز الشعب . وإذا علمنا بأن أمينة الرحال كانت في الفترة من 41 إلى 43 تتمتع بعضوية اللجنة المركزية ، فيمكن الاستنتاج بأن التنظيمات النسائية في الحزب الشيوعي على ضعفها كانت قادرة ، وبالمقارنة مع الأحزاب الوطنية الأخرى التي كانت رجالية صرفة ، أن تحرك النساء صوب هذه المطالب وأن تبث الوعي في صفوف البعض منهن ، وأن تدفع باتجاه خلق حركة نسائية جديدة في العراق ، وهو ما أمكن تحقيقه بعد سنوات من كتابة تلك العريضة .

\* التمن = الرز

384 جريدة "الشرارة". العدد الخامس ، شباط/فبراير 1942. علينا أن نشير هنا إلى ملاحظة مهمة ، وهي أنه لم يكن في مقدور الدولة الاشتراكية السوفيتية حينذاك إشباع حاجة القوات المسلحة السوفيتية بما هو ضروري من الحبوب والمواد الغذائية الضرورية الأخرى وكذلك حاجات الشعب السوفيتي الغذائية ، وبالتالي لم تكن هذه الملاحظة سوى لجلب الانتباه إلى ضرورة إقامة علاقات مع السوفييت ومن أجل تمييز تلك العلاقات عن علاقات الاستغلال مع البلدان الرأسمالية المتقدمة ، إضافة إلى أنها لم تكن سوى دعاية للسوفييت غير ذات مضمون ، خاصة وأن الكاتب للعريضة ، وهو الحزب ، يقول فيها بأن هذا هو الحل الوحيد ، في حين أنه لم يكن حلاً أصلاً وبأي حال من الأحوال ، وأنه كان يدرك هذه الحقيقة أيضاً .

385 نفس المصدر السابق.

ويسمى المجتمع العراقي عبارة جديدة أخرى لم يعهدها من قبل إلا وهي: "يوم المرأة العالمي". تلك المناسبة التي تصادف يوم 8 آذار/مارس من كل عام ، حيث صدر عدد من جريدة "الشرارة" يحمل ما يلي: "عدد خاص بمناسبة 8 آذار يوم النساء العالمي". ويحيط بعنوان الجريدة من الجانبين ما يلي: "إني أريد أن أعلم حتى الطباخة كيف تدير شؤون الدولة" (لينين) ، و "يا نساء العالم أتحدوا وناضلوا في سبيل خبزكم وحریتکم". كان العدد بلا رقم ويحمل تاريخ آذار/مارس 1942 ، ويحتوي على المقالات التالية المكرسة لحركة تحرر المرأة:

- 8 آذار يوم النساء العالمي - مقال افتتاحي
- المرأة السوفييتية تعطي درسا في البطولة- بقلم سوسن
- نصيب المرأة من التعليم في العراق- بقلم ليلي
- نضال المرأة العربية في الحرب الخاسرة- بقلم رباب
- لماذا أنا شيوعية؟ - بقلم عطية اليتيمة

يبدأ المقال الافتتاحي بما يلي: "تحتفل نساء العالم بيوم 8 آذار وتعتبره يوم توحيد نضال النساء في جميع العالم . يوم تستعرض فيه المرأة قواها لخوض المعركة ، معركة تحررها وتحرر الإنسانية من القيود والأغلال". ثم يتطرق المقال إلى ويلات الحرب الفاشية التي تعاني منها البشرية ولا سيما المرأة . وبعد أن يدعو المقال المرأة للنضال ضد الحرب عن طريق النضال ضد الفاشية ، يأتي إلى ذكر المرأة السوفييتية التي خاضت الحرب الأهلية وحروب الاعتداء التي وقعت على بلادها عقيب الثورة الاشتراكية ، وبأنها الآن تجابه مهمة وضعها التاريخ على كاهلها ، مهمة أشق وأعظم من مهمتها في الحرب الأهلية ، مهمة القيام بدور الطليعة لنضال المرأة العالمي ضد قطعان النازية . ويواصل المقال: ونحن لا نشك قط في جدارة نساء السوفييت المتحركات على القيام بهذه المهمة الشاقة المشرفة . وإننا موقنون بأن المرأة السوفييتية سوف ترفع رؤوس النساء في جميع العالم بما ستحرزه من انتصارات وبما ستقوم به من أعمال البطولة . . . إنها تشترك في الإنتاج ولها القسط الأوفر في تدبيره وتشترك في حرب العصابات وتقوم بالأعمال الزراعية وتحل محل الرجال في شتى ميادين العمل . هذه هي المرأة السوفييتية . . . فعلى المرأة العربية والعراقية أن تساهم مع نساء العالم وشعبه في النضال على دحر جيوش هتلر وجواسيسه للتعجيل بانهاء هذه الحرب التي تكلف أممنا آلاما ومتاعب وأن تتخذ من نضال المرأة السوفييتية وبطولتها وصبرها نبراسا تسترشد بنوره

386.

وفي مقال(المرأة السوفييتية تعطي درسا في البطولة) الذي يبدو أنه من كتابة فهد ، نرى عرضا شاملا لأوضاع المرأة الروسية في فترة ما قبل النظام السوفييتي ومقارنتها بحياة المرأة السوفييتية ، حيث جاء فيه: "لم يكن للنساء قيمة في ذلك المجتمع المندثر إذ كان الأب يزوج أبنته بمن يشاء فتصبح خادمة للسيد الجديد تكذب وتتعب ليل نهار داخل البيت وخارجه لتقدم لزوجها ما تحصل عليه من كدها وهذا أمر طبيعي إذ أن الزوج قد اشتراها بالدرهم أو بعدد من النعاج أو بمقدار من الغلة فأصبحت لذلك ملكا له لقاء البذل الذي دفعه يفعل بها ما يشاء ويتحكم بها ويفرض إرادته عليها ويسيرها كما توحى إليه خيالاته وميوله . فهو يرفق ببقرته وماشيته أكثر من رفقه بزوجه سيما إذا كانت الزوجة لا تستطيع أن تجد عملا رابحا خارج المنزل . أما ما كانت تعانيه المرأة العاملة في المصانع والفلاحة في الحقل كان نصيبها من جور الرأسماليين والإقطاعيين أضعاف نصيب الرجل فكانت المرأة تكذب في المصنع بدون



ساعات عمل محددة وبأجور لا تزيد عن نصف أجور الرجل كما هي الحال في بلادنا . وكانت حالتها الصحية سيئة لحرمانها من الاعتناء الصحي بها وبأطفالها . ولم تكن لتعرف في حياتها سوى العمل الدائم إذ لم يكن لها عطل وإجازات إلا عندما تكون عاطلة عن العمل . أما نصيبها من الثقافة فقد كانت محرومة منها ، فالبلاد كلها كانت جاهلة والمرأة هناك كانت رمزا للجهل والأمية . هكذا كانت تعيش المرأة في روسيا القيصرية البائدة وخصوصا في جهات أذربيجان وتركستان والأوزبيك والقرغيز . . . ولم تكن حالة المرأة الروسية أحسن بكثير من حالة أختها الشرقية . فجاءت ثورة أكتوبر الاشتراكية عام 1917 لتحطم قيود الذل والاستعباد وتحرر جميع المتعبين المضطهدين رجالا ونساء على السواء ، إذ أن قضية تحرر المرأة لم تكن قضية منفصلة بذاتها إنما هي جزء من المشكلة الاجتماعية التي كانت تجابه شعوب القيصرية البائدة . أي مشكلة القضاء على جميع أنواع وأشكال الاستثمار أي مشكلة القضاء على استثمار الإنسان لأخيه الإنسان . وهكذا تم تحرير المرأة في الاتحاد السوفييتي تحريرا تاما نهائيا-تحرر اقتصادي واجتماعي وسياسي- فهي الآن تتمتع بنفس الحقوق التي يتمتع بها أي مواطن سوفييتي" .

وينتقل المقال إلى مكانة المرأة في المجتمعات الإقطاعية والرأسمالية ويؤكد بأنها هناك لا تتمتع بحريات أو بحقوق إلا بقدر ما يحتاجه ذلك النظام الشانخ الذي يسعى أصحابه الإقطاعيون والرأسماليون سعيا مستميتا في سبيل وقف التقدم الإنساني لإبقاء النظام الرأسمالي إلى أمد أطول . ويضرب المقال مثلا من ألمانيا الهتلرية ويرى بأنها قد اتخذت من المرأة العوبة ترفع بها إلى الحياة العامة تارة وتحشرها في المطبخ تارة أخرى لتؤدي وظيفتها هناك وتريد بتنحية المرأة عن حياة العمل الإنتاجي التخفيف من وطأة البطالة ، ولكنها لم تظن بأنها زادت الأفواه الجائعة التي أصبحت عالية على معيها الرجل . فالمرأة الألمانية اليوم قد رجعت خطوات عديدة بعد أن كانت قد اجتازت مراحل من التقدم لا بأس بها . فالنازيون لم يكفهم أنهم يريدون أن يوقفوا سير التطور التاريخي . وإنما هم يريدون أن يرجعوا التاريخ إلى الوراء ، فالمرأة الألمانية الآن مملوكة للنظام القائم فهي في نظر النازية لم تخلق إلا لتكون أداة تفريخ جنود لهتلر وعصابته يدفع بهم إلى فتح بلاد الأمم الأخرى واستعباد شعوبها في سبيل تطمين جشع الرأسماليين .

وبعد أن يتطرق المقال إلى ويلات الحرب الفاشية وما تعانیه الشعوب منها ، يؤكد بأن جريمة هتلر وعصابته أصابت المرأة والشعب الألماني ، كما أصابت نساء وشعوب العالم الأخرى . ويعرج المقال إلى وضع المرأة العراقية والعربية وكيف أنها محرومة من أبسط حقوقها في الحياة ، وكيف أن المرأة العراقية والعربية لا تزال تسيرها وتتحكم بها قوانين مجتمعات اندثرت وزالت من الوجود في أكثر أقطار المعمورة . ويرى أن الرجعيين المستغلين الذين من مصلحتهم إبقاء تلك التقاليد التي يقوم عليها سلطانهم ، يحاولون مستميتين إقصاء المرأة عن ميدان العمل المنتج النافع لها ولبلادها وإبقاءها جاهلة محرومة من أبسط الحريات . وهم غير عالمين أنهم بعملهم هذا لا يضررون المرأة فحسب ، بل يصيبون البلاد والقضية العربية في الصميم . ثم يطالب المقال النساء العراقيات والعربيات عامة توحيد صفوفهن للنضال من أجل حقوق المرأة الخاصة . أي إفساح المجال لها ولوج ميدان العمل والتعليم والمطالبة بحرياتهن السياسية والاجتماعية وكذلك للنضال في سبيل كل ما يرفع مستواها الثقافي والاجتماعي والصحي . فنضال المرأة في سبيل قضيتها الخاصة وفي سبيل تحررها لا يتعارض وقضية البلاد العامة . بل هو جزء من نضال الأمة العربية من أجل تحررها . كما أن أهداف المرأة

النهائية لا تتحقق ولن تتحقق إلا بتحقيق أهداف الأمة بأسرها . فيجب والحالة هذه أن تناضل المرأة بالاشتراك مع الرجل في سبيل تحرير الشعب بأجمعه . ويعود المقال إلى وضع المرأة السوفياتية ، وكيف أنها تضرب أمثلة رائعة في البطولة التي قد لا يصدقها الإنسان . ويقول: "إنها ككل مواطن من مواطني تلك البلاد تحارب ضمن العصابات وتسهر الليل في الحقل مترقبة نزول رجال المظلات وتدير الإنتاج في المعامل والحقول . إنها تشترك فعلا في تدبير دفة البلاد . إن المرأة السوفياتية إذا ما ناضلت وضحت بنفسها فهي تناضل من أجل حريات اكتسبتها من أجل حياة جديدة تدوقتها وعرفت معناها . والمرأة السوفياتية إذا ما حاربت الفاشية فهي إنما تحارب وهي تعرف أية قوة جهنمية رجعية تحارب . . . إنها بعملها ذلك لم تنقذ بلادها فحسب ولم تمنع النازيين من الاستيلاء على نفط باكوف فقط ، بل أنها في روستوف كانت تمنع الوحوش من الوصول إلى العراق . أي أنها بتضحيتها كانت تمنع الشر عن نساء العراق وأطفالهن .

ويحتوي مقال: (نصيب المرأة من التعليم في العراق) عرضا انتقاديا لوزارة المعارف لعدم مساواة العنصر النسائي بالذكور في مجال التعليم ، سواء في المرحلة الابتدائية أو المتوسطة أو الثانوية أو التعليم العالي . ويفند المقال ببعض الأمثلة الملموسة مزاعم الوزارة المذكورة بعدم وجود الفوارق في القبول إلى المدارس من قبل الجنسين . كما ويستنكر المقال إجراءات الوزارة بغلق بعض رياض الأطفال ووضع الشروط التعجيزية لقبول البنات في المدارس ، مثل أن تكون الطالبة منتسبة إلى إحدى العائلات العالية وأن تأتي إلى المديرية ببطاقة من أحد الذوات . وتختتم كاتبة المقال حديثها كما يلي:

"إني أهيب برفيقاتي النساء أن يوحدن صفوفهن ويناضلن من أجل تثقيف المرأة والاعتناء بصحتها وصحة الطفل وأقترح أن نبتدئ ب:

- مكافحة الأمية بين النساء .
- المطالبة بتعميم الدراسة الابتدائية للبنات .
- مساواة البنات فيما يخص قبولهن في الثانويات والمدارس العالية والبعثات .
- إعفاء الفقيرات من الأجور المدرسية .
- فتح مدارس ليلية ابتدائية وثانوية خاصة بالنساء .

وفي مقال: (نضال المرأة العربية في الحرب الخاسرة) بقلم: رباب ، نلمس مرة أخرى أسلوب فهد ، حيث جرى ربط كفاح المرأة العربية في سبيل تحريرها بمسألة الكفاح ضد الحرب بشكل عاطفي مثير ثم يعرج إلى وضع المرأة السوفياتية ويذكر بعض الأمثلة الملموسة للمكاسب التي حصلت عليها المرأة السوفياتية بفضل ثورة أكتوبر . يبدأ المقال كما يلي: " مهما يكن الإنسان بعيدا عن ساحات هذه الحرب فلا يمكن أن يظل بمعزل عنها ويحسب نفسه غريبا عن شؤونها أو يستطيع أن يتناساها لأنها جاءت حافلة بالمحن والرزايا على البشرية كافة فكم من شعب أصبح رازحا تحت نير العبودية الفاشستية ينن من الفاقة ويتضور من الجوع وكم من أرملة تتسكع في الطرقات تحمل طفلها على صدرها تستجدي عطف المارة عل أحدا منهم يوجد عليها وعلى طفلها بما يسدان رمقهما به" . ويواصل المقال بعد وصف الصورة البائسة والهمجية للحرب: "هذه الحرب ، حرب الشعوب التي تكافح من أجل استقلالها وحريتها ، في هذه الحرب التحريرية التي تكافح فيها الدول الديمقراطية الكبرى وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي الجبار بقيادة زعيمه الأكبر (ستالين العظيم) الذي يسهر ليله ونهاره لدرء الخطر عن بلاده الجميلة ، بلد الاشتراكية ، وعن شعوب العالم المهتدة بالحكم الفاشستي الإرهابي . وبعد أن يطالب المقال

المرأة العربية أن تقدي بأختها السوفييتية وتناضل نضال الأبطال ، يتطرق إلى الدستور السوفييتي فيقول: "نص الدستور السوفييتي- أن المرأة في الاتحاد السوفييتي لها نفس حقوق الرجل في ميادين الحياة كافة من سياسية واجتماعية واقتصادية - وحالتنا الحاضرة اليوم شبيهة من عدة وجوه بحال النساء الروسيات على عهد القيصرية البائدة أيام كانت الابنة تشتغل من أجل أبيها والمرأة لزوجها- عبودية واستثمار- فإذا ما بدرت من إحداها بادرة تدمر أو شكوى كان جوابها على ذلك (إني أربيك) .

فلما ناضلت المرأة وحصلت بفضل هذا النضال على حقوقها المغصوبة وأخذت نصيبها في المجتمع برز من بينهم في مختلف الفنون والأعمال أمثال الطبيبة الشهيرة (بروكوييفا) التي عملت تجربة في نفسها واكتشفت مصل التطعيم ضد الطاعون . وصوفيا غرينشتاين أول مهندسة في بناء البواخر . وباكوفليفا وهي أول امرأة هبطت بالمظلة وكثيرات غيرهن لا يحصى عددهن . وهؤلاء يذكرننا بالنساء العربيات الشهيرات كخولة بنت الأزور التي اشتهرت في معركة اليرموك والخنساء التي أرسلت أولادها الأربعة الواحد بعد الآخر للحرب في معركة القادسية . . . . ويختتم المقال بما يلي: "كوني أيتها الرفيقة في طليعة المكافحين ولا يخيفك عربة الرجعية أو يثنيك عن عزمك جور المترددين الجبناء واقندي أخيرا بالمرأة السوفييتية والصينية والإنكليزية الخ . . . وافعلي مثل ما يفعلن في ساحة الحرب وفي المعمل والحقل لتتالي الحياة بوفورة سعيدة" .

والمادة الأخيرة بعنوان: (لماذا أنا شيوعية؟) بقلم: عطية اليتيمة . وقد كتبت على شكل قصة واقعية نقدية تصور معاناة صبية من عائلة فقيرة يموت أبوها الذي كان يكدح من الفجر إلى غروب الشمس ، ليحصل على مائة فلس ، مصدر رزق العائلة . ويشاء القدر أن يموت الأب فيموت معه المبلغ أيضاً . ويرغم الفقر الأم على الزواج ، بيد أن سوء الحظ يشاء أن يتحول الزوج ، ليس إلى أب رؤوم ، بل إلى فرعون يذيقها مر العذاب . . . وتعيش الفتاة الصغيرة شاردة الذهن ، تدهمها أحلام اليقظة للتخلص من هذا الوضع المزري الذي تعيش فيه ، إلى أن يحين وقت الزواج ، فإذا بالزوج شيوعي يدلها على طريق النضال . وتقول: "ذلك الحلم السعيد كله قد تحقق؟ . تلك القوة السحرية العجيبة التي تفل الحديد وتلك الحصون وتطهر الدنيا من ظلم الظالمين وجور المستبدين قد اكتشفها لينين وتسلمها ستالين وطهرا بها سدس الدنيا من ظلم الظالمين وجور المستبدين . قال لي زوجي هذه هي الشيوعية يا بنية وصدفتها لك ولم أدعها باسم . فماذا تقولين؟ . . . . وقبلت زوجي . وهكذا أصبحت شيوعية أنا عطية اليتيمة التي ذقت مرارة العيش .

إن قراءة النصوص الواردة في صحافة الحزب حول المرأة حينذاك تؤكد بأن الحزب بقيادة فهد كان يسعى إلى ما يلي:

- تقديم نموذج للمرأة العصرية المناضلة والمقاتلة والحاصلة عل كامل حقوقها يتمثل بالمرأة السوفييتية؛
- وأن المرأة في الدول الرأسمالية لم تحصل على حقوقها ، ونموذجها في ذلك ألمانيا الهتلرية؛
- وأن المرأة العراقية ، وكذا العربية ، تعاني من المجتمع الذكوري وعليها أن تناضل لتصل إلى ما وصلت إليه المرأة السوفييتية؛
- وأن المرأة لا تستطيع تحقيق ما تصبو إليه دون نضال دؤوب ومتواصل جنباً إلى جنب الرجل؛

- وأن الشيوعيين يمنحون المرأة حقوقها المشروعة ولا يتجاوزون عليها؛
- واستخدم الحزب لغة بسيطة وأمثلة من حياة الناس البسطاء للتدليل على ما تعانيه المرأة في العراق وتقريب ذلك من أذهان النساء الشعبيات .

أثرت أساليب الحزب الدعائية المأخوذة من واقع الحياة في النساء وحركت مجموعات منهن للمشاركة في النضال وكانت بمثابة عملية تنوير لهن للخروج من بؤس المرأة العراقية ومن المحنة التي كانت تواجهها في البيت والمجتمع ومن سلطة الدولة ذاتها ومن القوانين السارية . ولكن عملية التثقيف هذه لم تكن كلها مستندة إلى الوقائع الفعلية ، كما أن المرأة السوفييتية وبالرغم من مشاركتها في النضال وحصولها على الحقوق تشريعاً ، لكنها كانت تعاني من مجتمع كان ما يزال ذكورياً حتى اللحظة الأخيرة ، وكان الصراع شديداً بين المرأة والرجل في المجتمع السوفييتي لا في الجمهوريات الآسيوية التي كانت حتى زوال الاتحاد السوفييتي ما تزال متخلفة كثيراً عن أختها الموسكوية ، بل وكذلك المرأة الروسية أيضاً . كما أن المرأة في المجتمعات الرأسمالية ، وبالرغم من كونها مجتمعات استغلالية ، كانت المرأة قد انتزعت بنضالها العنيد والطويل جملة من الحقوق المهمة . كما أن المرأة في المجتمع الألماني لم تكن نموذجاً حياً وسانداً في المجتمعات الرأسمالية الأخرى . ولا شك في أن هناك فوارق غير قليلة بين المبادئ الشيوعية التي تعترف بحقوق المرأة كاملة غير منقوصة تشريعاً وبين الواقع العملي لممارسات الشيوعيين إزاء المرأة في المجتمع العراقي وفي غيره من المجتمعات المقاربة ، رغم أن هذه القضية تبقى نسبية ولا يمكن القول بأن الشيوعي يختلف بالضرورة في تصرفه إزاء المرأة عن تصرف المواطنين الآخرين في المجتمع ، إذ أن تركة آلاف السنين لا يمكن أن تنتهي بمجرد تبني مبادئ معينة ما زال المجتمع بعيداً عنها بعد الأرض عن السماء . وكانت عملية التثقيف الصحفية والحزبية ما تزال ساذجة وبدائية حينذاك ، بشكل خاص إزاء المرأة بسبب واقع الوعي الحزبي من جهة وأوضاع المرأة الفعلية من جهة أخرى . كما أن بعض الأمثلة من تاريخ العرب حول دور المرأة لم تكن بالضرورة أمثلة إيجابية ، ومنها أمثلة الحروب الإسلامية التي توجهت صوب التوسع والفتوح واستعمار المناطق الأخرى من العالم . فمشاركة المرأة بالحروب ليست النماذج المطلوبة للمساواة بين المرأة والرجل ، رغم أن مشاركة المرأة في الدفاع عن الوطن مسألة مهمة وحيوية في آن وتختلف عن حروب الغزو والعدوان والهيمنة . وعلى العموم فإن الخطاب السياسي للحزب وفهد بشأن المرأة كان موجهاً:

1. إلى المرأة الحزبية أو المرتبطة بصيغة ما بالحزب لتتشد من نضالها وترفع من مستوى عملها في صفوف النساء من أجل كسبهن لصالح حركة النساء العامة . ويورد لهذا الغرض العديد من الأمثلة عن المرأة السوفييتية المناضلة في مختلف المجالات والملتزمة بالحزب اللينيني البولشفي والمحبة للقائد المحبوب ستالين؛

2. إلى المرأة العراقية بشكل عام التي يراد تنويرها والسعي إلى تحقيق مشاركتها في النضال من أجل قضيتها الأساسية ، قضية تحريرها المتعددة الجوانب ونضالها في سبيل المساواة مع الرجل . وهو مسعى يتضمن تخليصها من عبودية البيت والمطبخ والرجل وتربية الأطفال ، ومن أجل زجها في العمل وضمان حريتها الاقتصادية ، وبالتالي ، تأمين الأساس المادي لحريتها السياسية والاجتماعية . وفي الوقت الذي عبر عن موقفه من أوضاع المرأة الريفية ، أشار أيضاً إلى أوضاع المرأة في المدينة وما عليها من واجبات لانتزاع حقوقها المشروعة . وحول المرأة الريفية وأوضاعها كتب فهد يقول: "عليك أن تردين فتنزلن

لميدان العمل ، لتحقيق ما يجب أن يكون . إن المرأة العراقية تنوء تحت عبوديات خلفتها لنا جميع المجتمعات البائدة وأنها محرومة من أبسط الحقوق . فهي في الريف ، تكد وتكدح في بيت أبيها وفي حقله ثم تنتقل - بعد صفقة الزواج - إلى بيت زوجها ، لتستأنف كدها وكدها ، وتزداد تعاسنها بإضافة تعاسة زوجها الفلاح المنهوب ، وأولادها الجياع العراة ، وهي في الريف خاضعة لأنظمة بالية تسمى أحياناً "بقانون العشائر" وأحياناً "بعادات العشائر" فتقتل - بمساعدة هذا القانون - بسبب وبغير سبب ، ويفتدى بها بالمفرد والجملة دية عن مقتول... أما ظروف حياتها العامة فظلمة في جميع النواحي . هذه هي المرأة الريفية التي تؤلف الأكثرية بين نساننا وهذه حالتها "387 .

ثم ينتقل إلى متابعة وضع المرأة في المدينة وتحريضها على النضال حين كتب يقول: "أما المرأة المدنية ، فهي على صنفين (باستثناء نساء البيوت الغنية) نساء الطبقات الكادحة والفقيرة على العموم ، ونساء الطبقات المتوسطة ، فالمرأة من الصنف الأول فهي مدنية في كونها تعيش في المدينة ، وما عدا ذلك فهي كأختها الريفية لمقاساة ما تقاسيه الأخرى بشيء من التخفيف لا يبدل من الجوهر... والصنف الآخر ، نساء الطبقات المتوسطة والمراتب المتوسطة ، فقد أتيح لقسم منهن الدراسة الابتدائية والثانوية ، ونسبة ضئيلة جداً من الدراسة العالية ، وما عدا ذلك فهن محرومات كجميع نساء العراق من جميع الحقوق ، وظروفهن الاجتماعية و (إلى حد ما) الاقتصادية هي بجوهرها كظروف الأخريات" 388 .

3. إلى الرجل ، إذ لا يمكن أن يكون المجتمع متحرراً ونصفه غير متحرر ويقع في البيت ودون مشاركة فعلية في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . فحرية المرأة هي من حرية الرجل ومن مساواتها به . ولا يمكن تحقيق حرية المرأة أو الرجل دون النضال المشترك لصالح حرية المجتمع بأسره؛

4. إلى المجتمع باعتبار حرية المجتمع مرتبطة عضوياً بتحرر المرأة ومشاركتها في النضال ضد الاستعمار والرجعية والإقطاع ، هذه القوى التي تريد إبقاء المرأة خارج دائرة التحرر ، والتي تريد عزل نصف المجتمع عن النضال ضدها .

5. وأخيراً شخص فهد مهمات الحركة النسوية في العراق بما يلي: "إن أهم الواجبات المترتبة على الحركة النسائية في العراق اليوم هي المساهمة في حركة التحرر الوطني ، النضال من أجل الحقوق الديمقراطية ، حق التنظيم -تنظيم حركتها- ، حرية الرأي ، حقها في إصدار صحف تعبر عن رأيها -نشر الثقافة- زيادة حصتها في التعليم..." 389 .

6. وكان فهد يرى في المرأة السوفييتية نموذجاً يحتذى به لنضال المرأة العراقية متأثراً بما تعرف عليه في موسكو وما سمعه عن دورها في الحرب العالمية الثانية ، سواء كان ذلك في جبهات القتال الفعلية ، أم في حركة الأنصار في الخطوط الخلفية للعدو الفاشي ، أم في المنشآت الاقتصادية لتموين الجبهة القتالية . وليس من شك في أن فهداً لم يتسن له الاطلاع على أوضاع الفلاحات الكادحات في جمهوريات الاتحاد السوفييتي الأخرى التي ، رغم القوانين التي كانت تسمح بحريتها ودورها ، إلا أنها كانت تعاني من التخلف والحرمان وعنف الرجال بمستويات غير قليلة حينذاك . لقد كان حب الاتحاد السوفييتي والحزب الشيوعي السوفييتي عند فهد وعند بقية الشيوعيين العراقيين حينذاك ، وفيما بعد ولعقود

387 خيرى ، سعاد د. فهد والنهج الماركسي اللينيني في قضايا الثورة. دار الفارابي-بيروت. مكتبة النهضة-بغداد. طبعة ثانية. 1974. ص 158.

388 نفس المصدر السابق. ص 158.

389 نفس المصدر السابق. ص 160/159.

لاحقة ، قد حجب عنهم رؤية النواقص الجديدة في هذا المجال وفي مجالات أخرى من حياة المجتمع السوفييتي ، كما حجب عنهم رؤية الصراع الفعلي الذي كان يدور بين المرأة والرجل في المجتمع الروسي ذاته ، أي في جمهورية روسيا الاتحادية في حينها أو في الجمهوريات الأخرى الأكثر تخلفاً ، إضافة إلى الصراع الطبقي الذي كانت تنفيه الدولة السوفييتية والحزب السوفييتي بكل قوة رغم وجوده ونموه المستمر وتنوع أشكال ظهوره ، ومنعهم عن ممارسة النقد حتى عند تشخيصه .

## الفصل الثامن : فهد والقضايا العربية

### المبحث الأول : فهد والقضية الفلسطينية

تبنى الحزب الشيوعي العراقي وبتوجيه مباشر من فهد موقفاً سياسياً صائباً من القضية الفلسطينية حتى بعد مرور أكثر من عام واحد على صدور قرار التقسيم عن مجلس الأمن الدولي في 29 تشرين الثاني/نوفمبر من عام 1947 . وكان ذلك الموقف السياسي منسجماً في حينها مع قرارات وسياسات الأمم المتحدة في القضية الفلسطينية ومن الصهيونية العالمية وعلاقتها بالاستعمار ، وكذلك مع مواقف الحزب وتقاليد النضالية في التضامن مع حركة التحرر العربية ومقاومة الاستعمار والصهيونية . وغالباً ما وجهت الاتهامات للحزب الشيوعي العراقي بشأن الموقف من القضايا القومية ، ومنها قضية فلسطين . ويمكن تصنيف أولئك العرب الذين يوجهون تلك الاتهامات للحزب إلى مجموعتين ، إحداهما ، وتشكل الأغلبية ، على غير إطلاع فعلي ، ومن مصادر الحزب الشيوعي العراقي ، على سياسات ومواقف وشعارات الحزب الشيوعي العراقي بهذا الصدد . وثانيتهما تعرف حقاً سياسات ومواقف الحزب إزاء القضايا العربية ، ومنها قضية فلسطين ، ولكنها مع ذلك تشن حملة ظالمة ضده بسبب مواقفها المعادية للشيوعية والشيوعيين ، وبالتالي ، يصعب إقناع الجماعة الأخيرة برأي آخر ، إذ أنها ملتزمة بمواقفها ولا تريد تبديلها مهما وضعتها أمام حقائق سياسات ومواقف الحزب الشيوعي من القضايا العربية ، وبشكل خاص قضية فلسطين .

في بداية العقد الثالث من القرن العشرين حين بدأت أفكار الديمقراطية والاشتراكية تدخل العراق كانت هناك مجموعة صغيرة من الشباب التي حملت راية هذه الأفكار ، إنها جماعة حسين الرحال . ولم تكن المسائل واضحة في فكر ونشاط هذه المجموعة ، سواء كان ذلك بالنسبة للقضايا العربية والدولية أم بالنسبة للقضايا الداخلية . فالوعي السياسي والاجتماعي كان حينذاك ما يزال ضعيفاً ، وكان العراق ينهض لتوه من سبات الدولة العثمانية العميق والطويل الذي فرضه الحكام الأتراك على تركيا عموماً وعلى بقية أجزاء الإمبراطورية الخاضعة لها خصوصاً . وكان الاهتمام ببعض القضايا الداخلية أكثر بكثير من القضايا العربية والدولية ، وهو أمر مفهوم أيضاً . ولكن هذا الموقف لم يستمر طويلاً . وإذا كان الاهتمام بقضية الوحدة العربية والقضية القومية محدوداً ، فإن هذا القول لا ينطبق بأي حال على القضية الفلسطينية ، والذي أشرنا إليه في مكان آخر ، والذي تجلّى في الموقف من زيارة ألفريد موند إلى بغداد في شباط عام 1928 . وإذا كان هذا موقف جماعة الرحال في بغداد ، فإن الحلقات الماركسية الأخرى ، سواء في بغداد أم في الناصرية والبصرة اتخذت مواقف واضحة تماماً إزاء هذه القضايا ، ولا يخل بهذه المواقف السلمية بروز اختلاف في صيغة الحل التي يطرحها الشيوعيون إزاء قضية العمل العربي المشترك مع بعض الأحزاب والقوى الأخرى . ففي الوقت الذي طرحت القوى القومية شعار الوحدة ، وكان أمر الوحدة العربية وما يزال حتى يومنا هذا بعيداً كل البعد عن الواقع الممكن ، كما كان بعيداً كل البعد عن الممارسات السياسية الفعلية لرافعي هذا الشعار أنفسهم ، فإن الحزب الشيوعي العراقي قد طرح في وقت مبكر موضوع العمل التضامني المشترك بين الشعوب العربية ، إضافة إلى رفعه شعار الاتحاد بين الدول العربية باعتباره الخطوة الأولى والضرورية التي في مقدورها أن تدفع وتنضج تدريجاً

قضية الوحدة العربية المنشودة . وعمد الحزب ، ابتداءً من العدد الثاني من جريدته "كفاح الشعب" في عام 1935 ، بنشر سلسلة مقالات عن القضايا العربية وقضية فلسطين على نحو خاص والنضال ضد الصهيونية والاستعمار ومن أجل الاستقلال والسيادة الوطنية . ونظم الحزب ، بالرغم من الهجوم الذي كانت تشنه الحكومة العراقية على الشيوعيين والديمقراطيين في أعقاب فشل انقلاب بكر صدقي ، مظاهرة حاشدة بتاريخ 16 تموز/يوليو 1937 ضد مقررات اللجنة الملكية البريطانية التي شكلتها الحكومة البريطانية للتحقيق في الإضرابات التي عمت فلسطين في عام 1936. وجاءت اللجنة إلى بغداد لشرح وجهة نظرها واستطلاع الرأي العام ، إضافة إلى الترويج للفكرة الصهيونية بتأسيس دولة يهودية في فلسطين . وانعكست مواقف الحزب الصائبة في سياساته وبرامجه إزاء القضايا العربية التي أقرها المؤتمر الوطني الأول للحزب . ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية نشط فهد بشكل أوسع لصالح القضية الفلسطينية ضد الصهيونية . وعندما طرح بعض الشيوعيين من يهود ومسلمين أعضاء في إحدى خلايا الحزب في بغداد مقترحاً بتكوين منظمة تعمل على فضح أهداف الصهيونية<sup>391</sup> ، على غرار ما حصل في كل من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية ، تبنى فهد هذه الفكرة وشجع الشيوعيين والديمقراطيين اليهود وغير اليهود على السعي لتشكيل عصابة مكافحة الصهيونية في العراق ، حيث بدأ العمل من أجل ذلك وشكلت هيئة مؤسسة قامت بوضع نظام داخلي وبرنامج عمل لهذه المنظمة السياسية غير الحكومية وغير الحزبية . وساهم فهد في الإشراف على وثنائق العصابة من خلال الفراكسيون الحزبي الذي كان يقود نشاط الشيوعيين في العصابة . وقدم الطلب إلى وزارة الداخلية بتاريخ 12/9/1945 . وفي "1945/11/21" قدم فهد مذكرة إلى رئيس الدولة العراقية وإلى البرلمان العراقي وإلى رؤساء الدول الكبرى والعربية أوضح فيها "أن الحكومة تدعي مناصرة عرب فلسطين ضد الصهيونية لكن هذه المناصرة غير ملموسة لدى الشعب العراقي بل ما هو ملموس عكس ذلك تماماً"<sup>392</sup> . وقد حاول فهد في هذه المذكرة وفي سلسلة المقالات التي كتبها عن القضية الفلسطينية فضح طبيعة الصهيونية باعتبارها حركة سياسية عنصرية تهدف إلى تجريد الفلسطينيين من وطنهم ، وأنها حركة متشابكة في أهدافها مع الأهداف الاستعمارية ومناهضة لحركات التحرر الوطني وحركة الشعب الفلسطيني . وإزاء نشاط العصابة وحصول تأييد سياسي واسع لها وبروز أشكال مماثلة لها في بلدان أخرى وجدت وزارة الداخلية نفسها مضطرة للموافقة على طلب العصابة في الحصول على إجازة عمل رسمية بتاريخ 16 آذار/مارس 1946 ، كما أجبرت بعد ذلك بوقت قصير على الموافقة على إصدار عصابة مكافحة الصهيونية جريدة سياسية يومية باسم "العصابة" ، إذ صدر عددها الأول بتاريخ 7 نيسان/أبريل 1946 . أي بعد ستة شهور من تقديم طلب الحصول على إجازة العمل الرسمي ، وأصبح مديرها المسؤول محمد حسين أبو العيس ، كما أصبح رئيس عصابة مكافحة الصهيونية يوسف هارون زلخا ، كما انتخب يعقوب مصري (عادل مصري) سكرتيراً للعصابة . والأشخاص الثلاثة كانوا من كوادر الحزب الشيوعي العراقي . وخلال هذه الفترة توسع نشاط الشيوعيين والديمقراطيين اليهود وغير اليهود الأعضاء في العصابة في فضح الصهيونية وتعميق الإحساس بخطرها على فلسطين .

390 الراوي ، عبد اللطيف د. عصابة مكافحة الصهيونية في العراق 1945-1946. مصدر سابق. ص 14.

391 نفس المصدر السابق. راجع في هذا الكتاب الإجابات التي قدمها عادل (يعقوب) المصري عن أسئلة الدكتور عبد اللطيف الراوي حول العصابة. وكان عادل مصري قد انتخب سكرتيراً للعصابة. ص 227-236.

392 نفس المصدر السابق. ص 15.

393 نفس المصدر السابق. ص 24.



وكان موقف الحزب ينسجم تماماً مع موقف الأُممية الثالثة وأحزابها الشيوعية والعمالية إزاء تحديد طبيعة الصهيونية وأغراضها . وكان للشيوعيين العراقيين والعرب دورهم الإيجابي في تحديد هذه الطبيعة خلال فترة وجود الكومنترن . فما هي الأهداف الفعلية التي سعت عصابة مكافحة الشيوعية إلى نشرها والدفاع عنها في العراق وبين اليهود العراقيين؟

جاء في المادة الثانية من منهاج العصابة ما يلي:

"المادة الثانية : أهداف العصابة مكافحة الصهيونية وفضح أعمالها ونواياها بين جماهير الشعب العراقي ، لا سيما بين اليهود . وتلك قضية حيوية لها خطورتها في حياتنا الوطنية . ولذلك تستهدف العصابة القضاء على نفوذ الصهيونية ودعايتها بالوسائل التالية:

أولاً - الطريق المباشر:

أ - إصدار صحيفة تكون لسان حال العصابة ، وإصدار النشرات والكراريس والكتب العلمية لغرض تحقيق أهدافها .

ب - إقامة الاجتماعات والحفلات الخطابية وإلقاء المحاضرات وعرض الرقوق السينمائية .

ج - التعاون مع المؤسسات التي تتفق وأهدافها في العراق والبلدان العربية الشقيقة .

د - الاشتراك في المؤتمرات العالمية المعادية للصهيونية وإصدار النشرات باللغات الأجنبية لفضح الصهيونية وشرح قضية فلسطين العادلة .

هـ - فضح عملاء الصهيونية أمام جماهير اليهود .

و - محاربة النفوذ الاقتصادي الصهيوني الذي يحاول السيطرة على البلاد العربية اقتصادياً والقضاء على الصناعات الوطنية الناشئة فيها .

ثانياً - الطرق غير المباشرة :

لما كانت الصهيونية تستغل شعور المظلوم لدى جماهير اليهود فلا بد لمكافحة الصهيونية من مكافحة الأسباب التي تؤدي إلى قيام هذا الشعور ، ولذلك تسعى العصابة بالتعاون مع الوطنيين الآخرين

(أ) للقضاء على النعرات الطائفية التي تمزق وحدة الشعب العراقي .

(ب) خلق جو من الود والتفاهم بين مواطني الشعب العراقي كافة وذلك ببث الروح الديمقراطية بين سائر أفراد الشعب العراقي .

(ج) معالجة مشاكل اليهود الاجتماعية التي تخلق التذمر والاستياء وتفسرها تفسيراً علمياً صحيحاً ، وفضح أولئك الذين يريدون استغلالها لبث الدعاية الهيونية ، كمشكلة البطالة بين الشباب ومشكلة الورطة في الزواج وغيرها<sup>394</sup> .

ماذا يمكن استخلاصه من هذا المنهاج المكثف؟ إن القراءة المسؤولة لهذا البرنامج تشير إلى:

• اعتبر اليهود أنفسهم جزءاً عضواً من الشعب العراقي؛

• كما اعتبروا أنفسهم عرباً ، وليس هناك ما يميزهم عن العرب الآخرين سواء الدين الذي يعتقدونه؛

• ولهذا كانوا يناضلون في إطار المجتمع العراقي ضد كل أشكال التمييز الديني أو الطائفي ، إذ لم يكن التمييز ضد اليهود فقط ، بل كان ضد الأديان والطوائف الدينية الأخرى؛

• وكانت العصابة لا ترى في الصهيونية خطراً واقعياً على العرب فحسب ، بل وعلى اليهود العراقيين وكذلك على اليهود في فلسطين وفي بقية الأقطار العربية؛

394 الراوي، عبد اللطيف د. عصابة مكافحة الصهيونية في العراق 1945-1946. وثائق ودراسات. دار وهران. نيقوسيا. دار الجليل للطباعة والنشر. دمشق. 1986. ص 108/107.  
راجع أيضاً: الصافي، عبد الرزاق. عصابة مكافحة الصهيونية. مصدر سابق. ص 56/55.

- ولهذا كانت تسعى إلى مكافحة الصهيونية لا في العراق فحسب ، بل وفي بقية الأقطار العربية ، كما كانت ترى ضرورة التعاون بين مختلف الجهات ذات الأهداف المماثلة لمجابهة مثل هذا الخطر؛
- وكانت العصبية مقتنعة أيضاً بأن أوضاع اليهود الاجتماعية والتمييز الذي يتعرض له اليهود يسمح بمرور الدعايات الصهيونية عند اليهود ، وبالتالي لا بد من معالجة تلك الأوضاع في إطار المعالجات الاجتماعية للقضايا العراقية .
- لا شك في أن الحزب الشيوعي العراقي كان وراء قيام هذه المنظمة الديمقراطية والتقدمية وشارك في بلورة مناهجها واتجاهات عملها ومدتها بالدعم والكوادر النشيطة . وهو الأمر الذي يفترض أن يعترض به . وحصد الحزب الشيوعي نتائج متباينة لهذا التبنى والدعم باتجاهين مختلفين ، خاصة بعد أن مارست الشرطة القسوة الشديدة والعنف والأسلحة النارية لقمع مظاهرة 28/حزيران يونيو 1946 بقرار من رئيس الوزراء حينذاك ، مما تسبب في استشهاد عضو الحزب الشيوعي العراقي وعضو عصابة مكافحة الصهيونية ، شاول طويق فيها ، وهو مواطن عراقي يهودي ، وجرح عدد كبير من المشاركين في تلك المظاهرة ، كما سحبت إجازة عمل عصابة مكافحة الصهيونية وأوقفت صحيفتها "العصابة" عن الصدور . ويمكن بلورة تلك النتائج ، سواء الإيجابية منها أم السلبية ، على النحو الآتي:
- إبراز الموقف السليم للحزب الشيوعي العراقي من القضية الفلسطينية ومن الصهيونية ، وبالتالي ، استطاع الحزب كسب احترام وتأييد جمهرة واسعة من الناس المهتمين بالسياسة وبالقضايا العربية ، كما وضعت الحزب في مواقع متقدمة في نضاله من أجل القضايا العربية الأساسية والتضامن العربي؛
- كشفت عن الوجه الكالح والعدواني العنصري للصهيونية العالمية ، باعتبارها تجسد أيديولوجية قومية شوفينية ودينية متعصبة وذات مضمون عنصري عدواني معاد للعرب ، وعن الأهداف التي تتوخاها منذ تأسيسها في عام 1897 من قبل اليهودي الصهيوني صامويل هرتسل؛
- فضحت طبيعة وسياسات الحكومات العراقية المتعاقبة إزاء القضايا العربية ، وخاصة قضية فلسطين وإهمالها التام مساندة الشعب الفلسطيني في نضاله العادل من خلال مواقفها المناهضة لنشاط العصابة ومنع عقد مهرجاناتها أو تظاهراتها أو غلق صحيفتها الرسمية وإيقاف إصدار كراسياتها التثقيفية المناهضة للصهيونية؛
- وبلورت في الوقت نفسه الفارق الذي لا يجوز نسيانه بين اليهودية كدين واليهود كبشر ، باعتبارهم أتباعاً لتلك الديانة المعترف بها من جانب الإسلام والمسلمين من جهة ، وبين الصهيونية كحركة فكرية-سياسية شوفينية وعنصرية معادية للشعب الفلسطيني وبقية الشعوب العربية ومتحالفة مع الاستعمار العالمي في مناهضتها لحركة التحرر العربي؛
- وفي الوقت الذي تمكن الحزب الشيوعي من كسب عدد كبير من اليهود والعرب وغير العرب من المواطنين العراقيين إلى جانب هذه الحركة وزجهم في النضال الديمقراطي ، إضافة إلى كسب مجموعات جيدة منهم إلى جانب الحزب الشيوعي العراقي وفي صفوفه ، جنى في الوقت نفسه كره ونقمة الحركة الصهيونية العالمية التي كانت تتابع الحركات المعادية لها ، وخاصة تلك النشاطات التي كان يساهم بها اليهود انتصاراً لقضية العرب العادلة في فلسطين ، وانتصاراً لهم كمواطنين عراقيين يعيشون في العراق ، إضافة إلى كره الاستعمار البريطاني وممثليه في العراق ، وكره الحكومة العراقية التي كانت تدعي دفاعها

عن فلسطين ، في وقت كانت الدلائل تشير إلى وجود توافق ضد الشعب الفلسطيني في وطنه . ولا شك في أن التاريخ سيميط اللثام عن الكثير من المعلومات والوثائق التي تؤكد أكثر فأكثر مثل هذا الاتهام لا بالنسبة لحكام العراق فحسب ، بل وبالنسبة للكثير من حكام الدول العربية حينذاك .

ففي الوقت الذي شغلت القضية الفلسطينية القوى السياسية العراقية والمتقنين العراقيين في الفترة التي أعقبت الاحتلال البريطاني للعراق وإعطاء وعد بلفور للمؤتمر اليهودي الدولي بإقامة وطن لليهود في فلسطين وبدء نشاطات القوى الصهيونية في العراق تحت مظلة سلطات الاحتلال البريطانية حتى في الفترة التي أعقبت إنهاء الانتداب على العراق ودخوله عصبة الأمم المتحدة وتسلم السلطات العراقية مسؤولية ممارسة القيادة مباشرة في البلاد حتى صدور قرارا التقسيم وما بعده ، في هذه الفترة بالذات كانت للحكومات العراقية المتعاقبة مواقف غير مشرفة إزاء القضية الفلسطينية وإزاء المناضلين في سبيل القضية الفلسطينية . إذ أن هؤلاء جميعاً قد عانوا بأشكال مختلفة من اضطهاد الحكومة لهم ، في وقت تمتعت القوى الصهيونية بالاحتضان والتأييد أو السكوت على نشاطها أو دعم ما كانت تسعى إليه . فإلى ماذا كانت تسعى تلك القوى الصهيونية الدولية في العراق؟ إن المعلومات المتوفرة تشير إلى أنها كانت تهدف إلى تحقيق ما يلي من الأهداف:

• الترويج للفكرة الصهيونية وتهيئة أذهان اليهود لتبنيها والعمل من أجلها من خلال إرسال الجماعات التبشيرية على شكل معلمين ومحاضرين وسياح وسياسيين ، وفيما بعد كسياح وأطباء وموظفين عاملين في السلك الدبلوماسي أو في إطار مهمات الوجود البريطاني في العراق؛

• تشكيل النوادي الثقافية لنشر هذه الأفكار وتهيئة الأذهان حول قيام دولة إسرائيل في المستقبل ، والدفع باتجاه الهجرة إلى فلسطين . ويمكن التلذليل المكثف على هذا الواقع بالكلمة التي ألقاها عضو مجلس الأعيان العراقي عزرا منحيم دانيال حول تغلغل الوكالات الصهيونية للعراق ودور الحكومة في ذلك يقول: " ... في أواسط سنة 1925 ميلادية أي بعد تشكيل الحكومة بقليل حضر إلى العراق مندوب من قبل الجمعية الصهيونية في فلسطين لغرض تأسيس وكالة صهيونية ونادي ومدرسة في هذا البلد لترويج مبادئ الصهيونية لدى الجيل الناشئ وبث الدعاية للهجرة إلى فلسطين هال هذا الأمر الطائفة الإسرائيلية فاجتمع وجوهها وتباحثوا فيما يوول إليه الأمر من إنشاء هذه الفكرة من النتائج الوخيمة وقرروا واعتمدوا وفداً لدى المراجع ذات الشأن لأجل منع هذه وراجع الوفد دائرة السامي البريطاني بالنظر لما كان معروفاً أن إشارة خفيفة من هذا الجانب من العطف على هذه الدولة الفتية التي لم تلبث أن شكلها وأن سكانها العرب واليهود عاشوا متحابين مطمئنين الواحد من الثاني في عصور عديدة تتجاوز الألفين سنة ولكن فضلاً عن أنه لم تثمر هذه الجهود بأي نتيجة رأينا مندهشين أن الحكومة العراقية ذاتها تبنت هذا المشروع مشروع غرس نواة الصهيونية في العراق بجوزها تأسيس وكالة صهيونية ونادي ومدرسة بإجازة من المعارف ذاتها بدأت هذه المؤسسات تبث الدعاية لترويج وتحبب الصهيونية في العراق وتشجيع الهجرة إلى فلسطين تحت رعاية الحكومة وحمايتها . إن المعتمد الذي عينته الوكالة الصهيونية في فلسطين للعراق كان معترفاً به رسمياً وكانت دائرة السفر والجنسية لا تعطي جواز سفر إلى فلسطين إلا أن يصادق على هذا الجواز المعتمد المذكور بالوقت ذاته اتخذت الحكومة العراقية تدابير معاكسة في نشر الدعاية ضد الصهيونية في المدارس الرسمية

وفي وحدات الجيش وفي المطبوعات وعندما قامت المظاهرات (ضد السر ألفريد موند) عند قدومه للعراق في 1928 باعتباره أحد أقطاب الصهيونية لم تفكر بإلغاء إجازة المدرسة الصهيونية الممنوحة من قبلها بل استثمرت هذه المدرسة والمؤسسات الأخرى في أعمالها ولم تقدم الحكومة على إلغائها إلا بعد أن قامت الطائفة الإسرائيلية باحتجاج شديد لدى أولياء الأمر على هذه الأعمال ذات الوجهين وكان ذلك في عام 1934 أي بعد اثني عشر سنة من تأسيس هذه التشكيلات ويشهد على ذلك من كان في مسؤولية الحكم في ذلك التاريخ" 395. ونسى العين أن يقول بأن التكريم الذي حظى به السر ألفريد موند هو قيام الشرطة بضرب المظاهرة التي تفجرت ضده واعتقال وسجن وفصل الطلبة ومعاقبة بعضهم بالجلد ، كما طالب به الممثل البريطاني في وزارة المعارف العراقية حينذاك 396؛

• العمل من أجل خلق مبررات هجرة اختيارية أو حتى قسرية تفرضها الحكومة العراقية على اليهود ، سواء عبر تنظيم الاعتداءات عليهم أو إنزال المظالم بهم والتمييز ضدهم أياً كان ثمن ذلك؛

• توفير جماعات من الشباب المستعد للقيام بأعمال إرهابية ضد اليهود باسم العرب للتدليل على عنصرية العرب وعدوانيتهم إزاء اليهود ، وبالتالي يصعب التعايش مع العرب؛

• إن هجرة اليهود إلى فلسطين ستؤدي بالضرورة إلى منافسة اليهود للعرب على الأرض والسوق والأعمال التجارية وغيرها ، خاصة وأن المنظمات اليهودية الدولية كانت توفر لليهود ظروف استمرارهم في أداء مثل هذا العمل ، مما ساهم عملياً في تشديد التوتر بين العرب واليهود لصالح أهداف الصهيونية العالمية .

وإذا ما بدأنا بمتابعة موقف الحكام في العراق من الصهيونية العالمية ومن الهجرة اليهودية إلى فلسطين منذ نهاية الحرب العالمية الأولى حتى نهاية العقد الخامس وبداية العقد السادس بعيداً عن الدعاية والتبريح الإعلامي الحكومي لوصولنا إلى جملة من الوقائع المهمة:

\*\* كتب فيصل بن الحسين في عام 1919 ، أي قبل أن يصبح ملكاً على العراق ، إلى أحد قادة الحركة الصهيونية يقول فيها: "نحن العرب ، وعلى الأخص المثقفين منا ، ننظر إلى الحركة الصهيونية بعطف عميق ... ولسوف نرحب بقدوم اليهود إلى فلسطين ونقول لهم أهلاً وسهلاً" 397. في حين كان فيصل بن الحسين حينذاك مطلعاً على التصريح الذي أدلى به مؤسس الحركة الصهيونية العالمية تيودور هيرتسل والذي قال فيه ، معبراً عن قرارات المؤتمر اليهودي الدولي ، بأن هدف الصهيونية هو "تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين" 398. وعلينا هنا أن نقارن بين هذا الموقف وموقف السلطان عبد الحميد الثاني ، الذي رفض منح هيرتسل وعدا بمساعدة اليهود في إقامة وطن لهم في فلسطين 399 ، رغم أن السياسات التي مارسها عبد الحميد عملياً من خلال مصادرتة الحريات الديمقراطية وممارسة

395 كورية ، يعقوب يوسف. يهود العراق تاريخهم ، أحوالهم ، هجرتهم. الأهلية. عمان-الأردن. 1998. ص 125/124. المقتطف مأخوذاً بدوره من كتاب الدكتور عدنان الباجي الموسوم "مزاحم الباجي سيرة وذكريات. ص 124.

396 طرد طرداً مؤبداً من كلية الحقوق: حسين جميل وعبد القادر إسماعيل. ومن دار المعلمين مزاحم ماهر ، سعيد عباس ، صالح عبد الوهاب ، هيد الوهاب الخطيب ، عبد الحميد الخالدي ، عبد الرزاق قاسم ، محمود الحمود ، حسن مرهون ، عزيز علي ، إسماعيل علي ، عبد الحافظ إبراهيم. ومن الثانوية المركزية: سعيد عبد الإله ، أحمد قاسم راجي ، أدهم مشتاق ، عزيز شريف ، عبد اللطيف محي الدين.

وكان بين من ألقى القبض عليهم: أكرم زينل ، أدهم مشتاق ، عبد القادر إسماعيل وحسين الرحال. راجع في هذا الصدد: الفكر الجديد. العدد 178 في شباط/فبراير 1978. بغداد. ص 6. ورفع الطلبة المفصولون مذكرة احتجاجية إلى رئيس مجلس الوزراء العراقي طالبين فيها إعادة النظر بقرار فصلهم. وقد وقعها كل من حسين جميل وعبد القادر إسماعيل. نفس المصدر. ص 7.

397 الصافي ، عبد الرزاق. كفاحننا ضد الصهيونية. منشورات طريق الشعب 12. مطبعة الرواد. بغداد. 1977. ص 5.

398 الراوي ، عبد اللطيف د. عصبة مكافحة الصهيونية في العراق. مصدر سابق. ص 49.

399 نفس المصدر السابق. ص 50.

القمع ضد المواطنين إلى أن تجد الحركة الصهيونية مجالاً رحباً لحركتها في فلسطين ، وأن تحصل على وعد بهذا الصدد من بريطانيا في عام 1917 .

\*\* وفي تلك الفترة أيضاً صرح نوري السعيد بأن الصهيونية "حركة روحانية ليس لها أي مساس أو نصيب من السياسة" 400 . وفيما بعد اتخذ نوري السعيد موقفاً آخر من الناحية الشكلية ، حينما أعلن بتصريح له لعصبة مكافحة الصهيونية بقوله: إنني أرى من واجبكم أن تتصلوا بالجمعيات المماثلة لأهدافكم في أمريكا وبريطانيا وبباقي اليهود في العالم لتوحيد الجهود ولكشف النقاب عن أضرار الصهيونية التي تزعم أنها تمثل اليهود في العالم ، إن الحركة الصهيونية حركة سياسية وأن كانت تستغل الدين ولذلك فإن مقاومة الصهيونية لا يعني بأي حال من الأحوال أنه عداً للدين ، لأن السياسة شيء والدين شيء آخر... "401 ، رغم أنه في الواقع العملي تصرف على وجه آخر وحارب عصبة مكافحة الصهيونية محاربة شرسة وأجهز عليها من خلال تشجيعه على سحب إجازتها وإسكات صوتها ثم مارس السجن والتعذيب والقتل ضد قادتها وأنصارها ومؤيديها .

\*\* استقبال الحكومة العراقية للمواطن البريطاني ، الفريد موند ، وهو من الشخصيات الصهيونية العالمية والداعية الكبير للحركة الصهيونية ، في بغداد وقيام الشرطة بضرب المظاهرة الجماهيرية الكبرى التي بدأت ب 700 مشارك وانتهت بحوالي 50 ألف متظاهر ، حيث وقع العديد من الجرحى واعتقال طلبة آخرين ثم فصل الكثير من طلبة المدارس والمعاهد العالية حينذاك .

\*\* الموافقة على تشكيل العديد من المنظمات والنوادي الصهيونية في بغداد وتحولها إلى مراكز للدعاية الصهيونية بين المواطنين اليهود ، رغم الموقف السليم الذي اتخذته العناصر الوطنية الواعية من اليهود بعزل هذه الجماعات عن الغالبية العظمى من المواطنين اليهود .

\*\* إصدار قانون بإسقاط الجنسية عن كل مواطن يهودي عراقي في ثلاث حالات: 402

- من يرغب بترك العراق وفق اختياره وإملاء استمارة بذلك؛

- من يغادر العراق أو يحاول مغادرته بصورة غير شرعية؛

- من سبق وغادر العراق بصورة غير شرعية ، يعتبر وكأنه ترك العراق نهائياً؛

ورغم الاعتراضات التي وجهت على هذا القانون ، الذي قدمته وزارة توفيق السويدي ، من جانب الكثير من النواب ، ومنهم مزاحم الباججي ، فإن وزارة الداخلية التي كان على رأسها صالح جبر أصرت على إصدار هذا القانون ، وصدر فعلاً . وكان التنسيق بين نوري السعيد وصالح جبر غير منقطع في ضوء الاتجاهات والسياسات التي كانت تقرها بريطانيا حينذاك . وفي جلسة مجلس النواب العراقي أظهر مزاحم الباججي بصورة صحيحة الجوانب السلبية والخطيرة لهذا القانون ولخصها بنقاط جوهرية ثلاث ، وهي: (1) أن القانون ، وبدلاً من مكافحة الهجرة غير المشروعة وهروب اليهود من العراق ، يمنحها الشرعية ويدعمها بقانون إسقاط الجنسية؛ (ب) مدّ جيش العدو بالشباب القادر على حمل السلاح لمواجهة الشعب العربي في فلسطين ، خاصة وأن الأكثرية من المهاجرين هم من الشباب؛ (ج) تشجيع عمليات التجاوز على

400 الصافي ، عبد الرزاق. كفاحننا ضد الصهيونية. مصدر سابق. ص 5.

401 الراوي ، عبد اللطيف د. عصبة مكافحة الصهيونية. مصدر سابق. وثائق. ص 112.

402 كورية ، يعقوب يوسف. يهود العراق تاريخهم ، أحوالهم ، هجرتهم. الأهلية للنشر والتوزيع. الأردن. 1988. ص 176/175. نص القانون رقم (1) لسنة 1950. قانون ذيل مرسوم إسقاط الجنسية رقم (62) لسنة 1933.

قوانين العراق من قبل عصابات التهريب وغيرهم ، وهو تعبير عن ضعف الحكومة وعجزها عن اتخاذ إجراءات رادعة بحق المخالفين. 403

\*\* مارست الحكومات العراقية المتعاقبة ابتداءً من عام 1947 سياسات ضاغطة بأساليب مختلفة على المواطنين اليهود ، وكأنها تريد دفعهم إلى الهروب من العراق . ويمكن ملاحظة هذه الحقيقة من الكلمة التي ألقاها ممثل الأقلية اليهودية في مجلس الأعيان العراقي ، العين عزرا مناحيم دانيال ، مبرراً هروب اليهود بما يلي: "1- فرض قيود إدارية على أبناء الطائفة اليهودية طيلة سنتين قبل الهجرة . 2- عدم وجود أعمال يعمل بها اليهودي العراقي فالمدارس العالية لا يقبل بها الطالب اليهودي وإذا أراد أن يدرس على حسابه فيمنعوه وأن الوظائف لا تعطى له وأن التجارة كاسدة وغير مسموح له أن يدخل سلك الشرطة والجيش" 404 .

\*\* ونتيجة لتلك السياسات ، إضافة إلى الدعايات الصهيونية وعصابات التهريب التي شاركت بها قوى عراقية بمن فيهم بعض المسؤولين في مختلف الأجهزة ، ترك العراق عدد كبير من المواطنين اليهود قاصدين إسرائيل أو بلدان أخرى . فوفق أرقام الإحصاء العام لسكان العراق في عام 1947 بلغ عدد اليهود 114 ألف نسمة ، أو ما يعادل 2،5 % من إجمالي سكان العراق البالغ 4.565 ألف نسمة . وكان هؤلاء السكان موزعين على النحو التالي:

#### التوزيع الجغرافي للسكان اليهود في العراق

الجنس	المنطقة الكردية (الموصل وكركوك)		بقية المناطق		المجموع/نسمة
	الريف/نسمة	المدينة/نسمة	الريف/نسمة	المدينة/نسمة	
الذكور	1312	52568	862	59964	59964
الإناث	1393	50657	459	58036	58036
المجموع	2705	103225	1321	118000	118000
التوزيع النسبي	11، 9	29، 2	12، 1	48، 87	00، 100

قارن:

Shiblak ، Abbas . The Lure of Zion . The Case of the Iraqi Jews . Al Saqi Books . London . p .22

وخلال الفترة الواقعة بين 1919 - 1948 غادر العراق عدداً من اليهود بلغ 7995 شخصاً ، وهو أقل بكثير من العراقيين المنتسبين إلى أديان أخرى الذين غادروا العراق خلال نفس الفترة ، في حين ارتفع عدد اليهود العراقيين الذين غادروا العراق في الفترة الواقعة بين 1948 - 1953 فبلغ 124، 638 نسمة . ويمكن للجدول التالي توضيح واقع هذه الهجرة .

جدول يوضح عدد اليهود المهاجرين بمختلف السبل من العراق إلى فلسطين وإلى إسرائيل خلال الفترة الواقعة بين 1919-1953

403 نفس المصدر السابق. ص 152/151.  
404 نفس المصدر السابق. ص 153.

السنة	عدد المهاجرين/ نسمة	توزيعهم النسبي إلى الإجمالي %
1923-1919	171	12، 0
1931-1924	3290	45، 2
1938-1932	2927	21، 2
1945-1939	1532	15، 1
1948-1946	65	05، 0
المجموع	7995	03، 6
1948	15	02، 0
1949	1708	29، 1
1950	32453	47، 24
1951	89088	72، 67
1952	961	72، 0
1953	413	31، 0
المجموع *	124638	97، 93
الإجمالي	132633	00، 100

قارن: الجدول رقم 8 والجدول رقم 13 .

Shiblak، Abbas . The Lure of Zion . The Case of the Iraqi Jews . Al Saqi Books . London . p . 44، p .

111 .

\* تشير الإحصائيات العراقية إلى أن عدد المهاجرين اليهود بلغ خلال الفترة الواقعة بين 1948-1958 (122979 نسمة) . أما الأرقام الواردة في الجدول في أعلاه بالنسبة إلى الفترة الواقعة بين 1948-1953 فهي مأخوذة من الإحصائيات الرسمية الإسرائيلية الواردة عند الباحث عباس شبلق .

ويستدل من هذا الجدول على أن الهجرة الفعلية لليهود بدأت منذ عام 1949 وتصاعدت بعد صدور قانون إسقاط الجنسية عن المواطنين اليهود ابتداءً من عام 1950 حتى عام 1952 حيث بلغ عدد المهاجرين خلال هذين العامين فقط 121541 نسمة أو ما يزيد على 91، 6 % من إجمالي عدد المهاجرين اليهود من العراق إلى فلسطين ومن ثم إسرائيل خلال الفترة الواقعة بين 1953-1919 . ويفترض الإشارة إلى أن عدداً كبيراً من اليهود رفض الهجرة واعتصم في المطار ، ولكنهم أُجبروا على ترك العراق عنوة . وكان من بين هؤلاء عدد من السجناء السياسيين الشيوعيين الذين حاولوا البقاء دون طائل . وجدير بالإشارة إلى أن نسبة اليهود العراقيين المهاجرين إلى إسرائيل خلال الفترة الواقعة بين 1948-1958 بلغت 44، 9 % من إجمالي اليهود المهاجرين من الدول العربية في آسيا وأفريقيا 405 . كما يفترض أن تشير إلى أن السكان اليهود في فلسطين في عام 1948 بلغ 452158 نسمة فقط ، في حين كان تعداد سكان العرب فيها يبلغ ثلاثة أضعاف هذا العدد أولاً ، وأن عدد اليهود العراقيين الذين هاجروا أو هجروا قسراً إلى إسرائيل خلال الفترة 1948-1953 يعادل 27، 56 % من إجمالي سكان إسرائيل اليهود في عام 1948 ، دع عنك بقية يهود بلدان العالم العربي وبقية بلدان العالم

405 Shiblak, Abbas. The Lure of Zion. The Case of the Iraqi Jews. Al Saqi Books.London. p. 99.

الإسلامي ، وخاصة تركيا ، حيث بلغ عدد اليهود الذين هاجروا منها إلى إسرائيل في الفترة الواقعة بين 1948-1958 حوالي 251190 نسمة . ومنه يتبين الدور الذي لعبته الحكومات العربية والحكومات الإسلامية في تعظيم حجم السكان اليهود في إسرائيل وفي الضغط على السكان العرب لإزاحتهم وأخذ مواقعهم وشراء الأراضي ودور السكن منهم بمختلف السبل .

من هنا يتبين بأن المتوفر من المعلومات والوثائق الرسمية كافية بحد ذاتها للطعن بتلك المواقف المتخاذلة والمساومة التي اتخذتها الحكومة العراقية ، ومعها غالبية حكومات الدول العربية والتي جاءت على حساب حق الشعب العربي في فلسطين .

دأب فهد على فضح سياسات الحكومة العراقية المتعارضة مع مصالح الشعب الفلسطيني من جهة ، والودية إزاء الصهيونية الدولية من جهة أخرى ، مستخدماً صحافة الحزب وصحافة وأدبيات عصابة مكافحة الصهيونية وإينما تسنى له نشر مقالاته في هذا الصدد أو عبر المذكرات التي كان يوجهها إلى رئيس الحكومة العراقية ويعممها لإحراج مواقف الحكومة العراقية عربياً ودولياً . ففي المذكرة التي وجهها فهد ، باعتباره سكرتيراً عاماً للحزب الشيوعي العراقي ، في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، والتي أشرنا إليها سابقاً ، كتب يقول:

" موقف الحكومة تجاه الصهيونية: تدعي الحكومة القائمة أنها تناصر عرب فلسطين ضد الصهيونية لكن الشعب العراقي لا يلمس هذه المناصرة واختبارات اليوم تبرهن على أن الحكومة العراقية تمنع الشعب العراقي من مناصرة عرب فلسطين ، تمنعه من مكافحة الصهيونية . وبهذا تسهل على الصهاينة وعلى القوى الرجعية -الاستعمار وغيره - السير بخطتهم . . أن الحكومة منعت وتمنع الشعب العراقي من إقامة اجتماع في سبيل فلسطين ، إنها منعت عصابة مكافحة الصهيونية من إقامة اجتماع في يوم وعد بلفور الأسود ، إنها احتلت نقابات العمال في ذلك اليوم لكي لا يجتمع العمال فيها ، إنها منعت المظاهرات في سبيل فلسطين ، لكنها سمحت للأوباش بالاعتداء على اليهود وسكب المواد المحرقة عليهم وهم يمشون في الشوارع . وبدلاً من أن تعاقب الأوباش المعتدين حمتهم وأقامت شرطتها الدعوى على المشتكين لأنهم ادعوا أن الأوباش رموهم بمحلول التيزاب بينما كان ما رموهم به هو "محلول الزرنيخ" واتهمت المشتكين بأنهم عكروا صفو الأمن ، ... هذا منطق أناس يدعون أنهم يناصرون عرب فلسطين .

أن الحكومة العراقية تحاول أن تخفي المسؤولين الحقيقيين عن نكبة شعبنا العربي في فلسطين ، تريد أن تستر الاستعمار البريطاني المسؤول الأول ، أن تخفي الصهيونية ، باعتبارها تمثل مصالح الشركات اليهودية الكبرى في بريطانيا وأمريكا فتظهر اليهود العرب الذين لا صلة تربطهم بالصهيونية الاستعمارية والذين عشنا وإياهم أجيالاً عديدة دون أي تصادم بيننا كأنهم المسؤولون فتوجه النقمة ضدهم . إن الشعب العراقي يريد من الحكومة القائمة أن تقلل من ادعائها حول مساعدة فلسطين وأن تسمح له بأن يكافح الصهيونية في البلاد العربية نفسها وأن يمنعها من تثبيت أقدامها فيها" 406 .

لم يكن الكره الذي توجه من جانب الاستعمار البريطاني والصهيونية العالمية والحكومة العراقية اعتيادياً وعمماً إزاء الحزب الشيوعي العراقي وقائده فهد ، بل كان ملموساً وموجهاً لشن حرب دامية ضد الحزب من أجل تصفيته واعتقال قادة الحزب وعصابة مكافحة الصهيونية انتقاماً منه بسبب النشاطات الواسعة الفكرية منها والسياسية ضد الاستعمار والصهيونية وفضح الحكومة في مواقفها إزاء القضية الفلسطينية وإزاء الصهيونية . فعند العودة إلى كتابات فهد في تلك



الفترة وما نشرته الصحف المحلية له سيجد الإنسان أن فهداً ركز على شعارات أساسية واضحة جداً بشأن القضية الفلسطينية ، ولكنها كانت مرفوضة من قبل تلك الدول والأطراف ، وهي :

- منح الشعب الفلسطيني الحق في تقرير المصير وإقامة دولته المستقلة ورفع الحماية البريطانية عنه؛

- إيقاف الهجرة اليهودية إلى فلسطين؛
- التضامن مع الشعب الفلسطيني لمواجهة المؤامرات التي تستهدف وطنه ، وفضح أهداف العنصرية والعدوانية في الحركة الصهيونية؛
- تعبئة الرأي العام العراقي والعربي إلى جانب الشعب الفلسطيني من خلال النشاط الفكري والسياسي؛

- محاولة كسب المزيد من اليهود إلى جانب الحركات المعادية للصهيونية في سائر أرجاء العالم العربي؛

- فضح طبيعة الحركة الصهيونية وأهدافها في فلسطين والمنطقة العربية وتحالفاتها الدولية المناهضة لحركات التحرر والمرتبطة عضواً بالرأسمال المالي العالمي وأهدافهما المشتركة .

لقد كانت عصابة مكافحة الصهيونية ونشاطها وفعاليتها الواسعة شوكة في عين حكام العراقي ، مما دفع إلى التفتيش عن الحجج ، مهما كانت واهية ، لسحب إجازتها وإيقاف نشرها العلني وزج القائمين عليها والنشطين منهم في السجون . ورغم فشل أكثر من محاولة للحكم على قياديي الحركة من خلال المحاكم العراقية التي تمتعت في فترات معينة ببعض الحرية بسبب وجود ديمقراطيين نزيهين على رأس البعض من تلك المحاكم ، لجأت الحكومة إلى إصدار قرار وزاري بحلها ، متجاوزة الدستور والقوانين العراقية . ثم قدمت قياديي العصابة إلى المحاكمة ، بعد ربط قضيتهم بقضية الحزب الشيوعي العراقي ونشاطه السياسي ودور رفاقه في قيادة ونشاط العصابة .

كانت قيادة الحزب الشيوعي العراقي ، وعلى رأسها فهد ، مقتنعة بأن موقف الاتحاد السوفييتي سيكون إلى جانب الشعب الفلسطيني بسبب عدالة قضيته والعداء المستحکم بين الشيوعية والصهيونية بسبب طبيعتهما المتقاطعة تماماً ، وبسبب معرفة الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي بأساليب ومناورات الإمبريالية والصهيونية ، وهو الموقف الذي تجلّى في مؤتمرات الأممية الشيوعية منذ تأسيسها وأحاديث لينين عنها . ولهذا لم يكن هناك أي تناقض بين موقف قيادة الحزب وموقف الأممية الشيوعية وأحزابها المختلفة . لذلك فوجئت بموقف السوفييت في مجلس الأمن الدولي والأمم المتحدة ، ولم تجد له تبريراً .

لقد كتب فهد العديد من المقالات التي يفضح بها طبيعة الصهيونية العالمية مستلهماً فكر الأممية الشيوعية وقناعاته الذاتية ووعيه العميق بالعلاقة القائمة بين الإمبريالية والصهيونية على الصعيد العالمي ، إضافة إلى العلاقات المهمة التي كانت قد نشأت لا بين الصهيونية وبريطانيا فحسب ، بل بينها وبين الولايات المتحدة الأمريكية أيضاً ، وكان يرى فيها خطراً أساسياً على حركة التحرر العربية ، إذ أن أمريكا تريد أن تجعل منها أداة لها في المنطقة . ويمكن لبعض المقتطفات المهمة في هذا الصدد أن تؤكد موقف فهد الواضح من الصهيونية ورفضه لمحاولات التقسيم التي كانت تسعى إليها الصهيونية العالمية . كتب فهد عن طبيعة الصهيونية في جريدة "العصابة" في عام 1946 يقول: "إننا في الحقيقة لا نرى في الفاشية والصهيونية سوى توأمين لبغي واحد ، هي العنصرية محظية الاستعمار . إن الفاشية والصهيونية تنهجان خطين منحرفين يلتقي طرفاهما وتتشابه أهدافهما ، وكل منهما نصبت نفسها منقذة وحامية لعنصرها ،

فالأولى بذرت الكره العنصري ونشرت الخوف والفوضى في أنحاء المعمورة وورطت شعوبها وأولعت بهم نيران حرب عالمية لم تتخلص أمة من شرورها . والثانية الصهيونية بذرت الكره العنصري ونشرت الخوف والفتن والإرهاب في البلاد العربية وغررت بمنات الألوف من أبناء قومها وجاءت تحرقهم على مذبح أطماعها وأطماع أسيادها المستعمرون الإنكليز والأمريكان ، فتشعل بهم نيران الاضطرابات في البلاد العربية . وقد كان من أعمالها أن حولت فلسطينا إلى جحيم لا ينطفئ سعيره ولا تجف فيه الدموع والدماء وتهددت الأقطار العربية بأخطارها وبأخطار القضاء على كيانها القومي جراء بقاء وتثبيت النفوذ الاستعماري فيها وجراء المشاكل العنصرية التي تحاول إثارتها"407 .

وبصدد المصالح المشتركة والعلاقة التحالفية بين الصهيونية والإمبريالية الأمريكية كتب فهد يقول: "إن المصالح الأمريكية الناشئة في البلاد العربية ورؤوس أموالها المستثمرة بالاشتراك مع الرأسمال الصهيوني في فلسطين ، ووعده الصهاينة بتوظيف رؤوس أموال أمريكية كبيرة جداً وتطلع أمريكا لاستخلاف الإمبرياليين البريطانيين في فلسطين واتخاذها قاعدة لحماية مصالحها في البلاد العربية ، كل هذه حملت الولايات المتحدة على استخدام نفوذها كاحتياطي للصهيونية"408 .

ولم ينس فهد ، وهو يسجل وثيقة الميثاق الوطني للحزب الشيوعي العراقي أن يثبت ، بشأن القضية الفلسطينية والطبيعة العدوانية للصهيونية ، مسألتين مهمتين حين أشار فيه إلى:  
" 13- (أ) نناضل في سبيل التقارب والتعاون السياسي بين الشعوب العربية ، بين أحزابها وجماعاتها السياسية الديمقراطية من أجل الاستقلال والسيادة الوطنية لفلسطين والأقطار العربية المستعمرة والمحمية ، ومن أجل استكمال استقلال العراق وسوريا ولبنان ومصر ، ضد الصهيونية وضد الدول المستعمرة مباشرة أو عن طريق المعاهدات والانتداب والحماية للبلاد العربية ، وضد محاولات اعتداءات استعمارية جديدة وضد تثبيت النفوذ الأجنبي بأي شكل كان في البلاد العربية .

15- نناضل في سبيل التعاون الاقتصادي بين الأقطار العربية من أجل المحافظة على ثروات بلادنا واستخدامها ... ، وضد الهجوم الصهيوني الاقتصادي"409 .  
إذن كان موقف الحزب الشيوعي العراقي بقيادة فهد حتى صدور قرار تقسيم فلسطين واضحاً لا غبار عليه بأي حال من الأحوال ، بل يمكن القول بأنه كان من أنشط القوى السياسية العراقية الواعية التي وقفت إلى جانب الشعب العراقي . وفي عام 1947 صدر قرار مجلس الأمن الدولي بالموافقة على تقسيم فلسطين بين العرب واليهود بحجة أن العيش المشترك بين اليهود والعرب لم يعد ممكناً وأن لليهود حق في العيش في دولة مستقلة في قسم من الأراضي الفلسطينية ، أي الموافقة على إقامة دولتين على أرض فلسطين . ولم يكن القرار ذاته غير عادل وجائر فحسب ، بل وكان غير عادل في تقسيم مساحة الأرض بين الأكثرية العربية والأقلية اليهودية لصالح الأقلية . إذ بلغت حصة اليهود ، وهم أقلية ، 56 ، 5 % من أكثر الأراضي الفلسطينية خصوبة ، في حين كانت حصة عرب فلسطين 43 ، 5 % ، وهم الغالبية العظمى من سكان فلسطين 410 .  
والمفاجأة في هذا القرار برزت في موافقة الاتحاد السوفيتي ، باعتباره من الدول الدائمة العضوية في المجلس ، عليه . وسبب هذا الموقف إشكالاً وارتباكاً عند الشيوعيين العراقيين

407 الصافي ، عبد الرزاق . كفاخنا ضد الصهيونية . مصدر سابق . ص 29 .

408 نفس المصدر السابق . ص 31/30 .

409 فهد . كتابات فهد . مصدر سابق . الميثاق الوطني . ص 137/136 .

410 بطاطو ، حنا د . العراق . الحزب الشيوعي العراقي . الكتاب الثاني . مصدر سابق . ص 255 .

وعند بقية الشيوعيين في العالم العربي . وكان الإشكال أكبر عند الشيوعيين اليهود في العراق الذين وقفوا بحزم ضد إقامة دولة عبرية على أرض فلسطين وساندوا قيام دولة واحدة على هذه الأرض . ويشير حنا بطاطو إلى أن الشيوعيين اليهود كانوا قبل صدور هذا القرار قد وجهوا التماساً إلى يوسف ستالين يرجونه فيه الوقوف بوجه محاولات تقسيم فلسطين ، حيث ورد في البيان المؤرخ في 29 أيار/مايس 1946 ، أي قبل منع العصابة من مزاوله أعمالها ، جاء فيه:

"إننا نتضرع إليكم ، أيها الرفيق ستالين ، أن تؤيدوا قضية فلسطين عندما تطرح أمام الأمم المتحدة ... لا التماس في حق شعب فلسطين العربي بالاستقلال ، وقضيتهم لا علاقة لها بمأزق اليهود المُقتلَعين . إننا واثقون من أن حكومتكم ، التي تعتمد مبادئها وسياستها الخارجية على احترام حق الشعوب في تقرير مصيرها ، ستقف إلى جانب العرب في محنتهم" 411 .

لم يغير الشيوعيون العراقيون موقفهم من القضية الفلسطينية بمجرد صدور قرار التقسيم وموافقة الاتحاد السوفييتي عليه . وكان فهد أول من استقبل هذا الموقف بالدهشة والاستغراب وعدم الارتياح . وعلى هذا الموقف توجد الكثير من الأدلة الواضحة . كتب زكي خيري يقول:

"كان الحزب الشيوعي العراقي منذ تأسيسه يثقف أعضائه وجماهيره ضد الوطن القومي لليهود وضد الصهيونية التي نمت وترعرعت تحت رعاية الإمبريالية . وكان تثقيفه هذا يسترشد بالماركسية اللينينية التي كانت تدين الصهيونية باعتبارها حركة انشقاقية تعزل العمال اليهود عن سائر العمال الذين يتعايشون معهم في بلدانهم وتضعهم تحت هيمنة رأسماليهم . وكان استيطان اليهود في فلسطين يعني في الوقت ذاته اغتصاب الأرض من أصحابها الشرعيين الذين عمروها بدمائهم وعرقهم طوال أربعة عشر قرناً ولم يهجروا أراضيهم في فلسطين إلا بالإكراه . فبعد كل ذلك كيف يقدم الاتحاد السوفييتي على اعتبار المستوطنين اليهود من مختلف الأمم شعباً له الحق في تقرير المصير بما فيه إقامة دولة منفصلة على أرض الشعب الفلسطيني العربي المغتصبة بقوة السلاح البريطاني والانتداب البريطاني؟! حتى فهد لم يجد جواباً لهذا التساؤل! وقد جاءني على انفراد وسرني دهشته من ذلك قائلاً: - لا أدري كيف اعترف الاتحاد السوفييتي بدولة اليهود! وفيما بعد كتب فهد رسالة للحزب صرح فيها بصورة قاطعة أن المستوطنين اليهود جماعة من الناس لهم حقوق معينة باعتبارهم أقلية وليسوا شعباً يستحق تقرير المصير وإقامة دولة بأي حال من الأحوال . وقد جاءت هذه الرسالة بعد أن غير الحزب موقفه بما يتوافق مع رأي الاتحاد السوفييتي وصدرت خارج السجن وثنائق حزبية تبرر الموقف السوفييتي تبريراً إيديولوجياً" 412 .

وجاء في الرسالة التي كتبها فهد من سجنه في الكوت ووجهها إلى قيادة التنظيم خارج السجن ، حول قرار التقسيم ما يلي:

"أما عن قضية فلسطين فلم نتوصل إلى أكثر مما توصلتم إليه عدا شيء واحد هو ذكركم لقومية يهودية في فلسطين فهذا ربما كان غير صحيح فكل ما في الأمر أن الاتحاد ربما قال بوجود الأخذ بنظر الاعتبار بضعة مئات الألوف من اليهود الذين سبق وأصبحوا من سكان فلسطين فهذا لا يعني أنهم قومية ، فهذا لا يعني عدم الاهتمام بهم ومع هذا فليست هذه النقطة جوهرية بالموضوع . فموقف الاتحاد جاء نتيجة محتمة للأوضاع والمؤامرات والمشاريع الاستعمارية المنوي تحقيقها في البلاد العربية وفي العالم ، فالمهم في الموضوع هو وجوب إلغاء الانتداب وجلاء الجيوش الأجنبية عن فلسطين وتشكيل دولة ديمقراطية مستقلة حل

411 نفس المصدر السابق. ص 256.

412 خيري ، زكي. صدى السنين في ذاكرة شيوعي عراقي مخضرم. مصدر سابق. ص 137.

صحيح للقضية ومن واجبنا أن نعمل لهذا حتى الأخير ولكن إذا لا يمكن ذلك بسبب مواقف رجال الحكومات العربية ومؤامراتهم مع الجهات الاستعمارية فهذا لا يعني أننا نفضل حلاً آخر على الحل الصحيح ونرى من الأوفق أن تتصلوا بإخواننا في سوريا وفلسطين وتستطلعوا رأيهم في تعيين الموقف" 413.

وفي كانون الأول/ديسمبر 1947 ، أي بعد أيام من صدور قرار التقسيم أصدر الحزب نشرة داخلية موجهة إلى كافة رفاق الحزب جاء فيها بشأن الموضوع ما يلي:

"موقف الاتحاد السوفييتي بخصوص التقسيم وفر للصحف المرتزقة ومأجوري الإمبريالية فرصة لا التشهير بالاتحاد السوفييتي فقط ، بل أيضاً بالحركة الشيوعية في البلدان العربية . ولذلك ، فإنه يجب على الحزب الشيوعي تحديد موقفه من القضية الفلسطينية حسب الخطوط التي يدين بها والتي يمكن تلخيصها بالنقاط التالية:

أ - إن الحركة الصهيونية حركة عنصرية دينية رجعية ، ومزيفة بالنسبة إلى الجماهير اليهودية .

ب - ن الهجرة اليهودية ... لا تحل مشكلات اليهود المقتلعيين من أوروبا ، بل هي غزو منظم تديره الوكالة اليهودية ... واستمرارها بشكلها الحالي ... يهدد السكان الأصليين في حياتهم وحريرتهم ،

ج - إن تقسيم فلسطين عبارة عن مشروع إمبريالي قديم ... يستند إلى استحالة مفترضة للتعاهم بين اليهود والعرب ... .

د - إن شكل حكومة فلسطين لا يمكنه أن يتحدد إلا من قبل الشعب الفلسطيني ، الذي يعيش في فلسطين فعلاً ، وليس من قبل الأمم المتحدة أو أية منظمة أو دولة أو مجموعة دول أخرى ...

هـ - إن التقسيم سيؤدي إلى إخضاع الأكرية العربية للأقلية الصهيونية في الدولة اليهودية المقترحة ... .

و - إن التقسيم وخلق دولة يهودية سيزيد من الخصومات العرقية والدينية وسيؤثر جدياً على آمال السلام في الشرق الأوسط .

لكل هذه الأسباب فإن الحزب الشيوعي يرفض بشكل قاطع خطة التقسيم" 414 .

ويشير حنا بطاطو أيضاً إلى أن فهذاً وقف ضد الموقف الذي أرسله ، كما هو مشاع ومعروف ، يوسف إسماعيل حول قرار التقسيم والذي يتجاوز الموضوعية والحقائق التاريخية ، وطلب من الرفيق السجين الذي كان يقرأ تلك الرسالة بالتوقف عن الاستمرار بقراءتها ، باعتبارها رسالة غير موضوعية وذات اتهامات غير مبررة للأحزاب الشيوعية العربية . 415 وكانت الرسالة التي وصلت من يوسف إسماعيل تتضمن موقف الحزب الشيوعي الفرنسي من موضوع التقسيم ومن الحياة السياسية في إسرائيل . ويشير عزيز الحاج إلى هذا الموضوع بقوله: "وقد امتعض فهد وهو في السجن من عدد من أفكار النشرة (ضوء على القضية الفلسطينية ، المؤلفان) فلم يسمح بالترويج المتحمس لها ولكنه لم يهاجمها علناً" 416 ، وهو ما يتفق به مع ما أشار إليه زكي خيري بهذا الصدد وكما ورد عند حنا بطاطو . وكل الدلائل المتوفرة لدينا تؤكد بأن اليهود العراقيين الأعضاء في الحزب الشيوعي العراقي والأعضاء في عصابة مكافحة

413 الراوي ، عبد اللطيف د. عصابة مكافحة الصهيونية في العراق. مصدر سابق. ص 232/233.

414 بطاطو ، حنا د. العراق. الكتاب الثاني. مصر سابق. ص 257.

415 نفس المصدر السابق. ص 259/260.

416 الحاج. عزيز د. حدث بين النهرين. الجزء الأول. طبعة خاصة بالمؤلف. باريس. 1994. ص 156.

الشيوعية بشكل عام لم يلعبوا أي دور مروج لقبول قرار التقسيم ، بل كانوا ضد هذا القرار ، وأن القرار قد اتخذ بالارتباط مع: أ) الموقف السوفييتي ، وكان حاسماً في هذا الشأن؛ ب) الموقف الذي اتخذته الأحزاب الشيوعية في المنطقة والعالم المؤيد لهذا القرار ، وكذا النشرة التي وصلت إلى الحزب من فرنسا؛ ج) وموقف الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية ، وخاصة في سوريا ولبنان وفلسطين ، باعتبارها صاحبة الشأن في هذا الصدد .

ولكن الدراسة المتأنية للموقف تسمح لنا بالقول ، بأن الحزب الشيوعي لم يكن مجبراً على اتخاذ نفس الموقف الذي اتخذته الاتحاد السوفييتي كدولة وحزب إزاء القضية الفلسطينية في مجلس الأمن الدولي ، إذ كان يملك موقفاً صحيحاً وعادلاً إزاء كل القوميات والأقليات القومية والأديان في فلسطين أولاً ، ويمتلك ، كحزب شيوعي مستقل في بلد مستقل ، كل الحق في أن يتخذ الموقف الوطني والقومي الصحيح الذي يمس مصالح شعبه أو الشعوب العربية ، ومنها الشعب الفلسطيني ، من جهة أخرى . ومن هنا كان إصرار فهد في البقاء على موقف الحزب الصحيح إزاء القضية الفلسطينية وذلك بإقامة دولة ديمقراطية مستقلة يتمتع فيها الجميع بالمساواة . وكان في هذا الموقف واضحاً ، كما كان في الوقت نفسه واضحاً عندما أشار إلى ضرورة استطلاع رأي وموقف الحزبين الشقيقين في كل من سوريا وفلسطين من المسألة والتشاور معهما بشأن الموقف . ولكن بعض الكوادر القيادية الشيوعية كان لها موقف آخر من هذه القضية ، وخاصة أولئك الذين كانوا خارج الوطن ، كما أن هؤلاء قد أثروا بهذا القدر أو ذاك على موقف الداخل ، ومنهم زكي خيري ، حيث كتب يقول ، حول تبرير القبول بقرار التقسيم ، ما يلي: "وكان لي شخصياً دور معين في هذا التبرير بعد خروجي من السجن . وكان الجذر الفكري لموقفي هذا هو الاعتقاد بأن كل موقف سياسي يتخذه الاتحاد السوفييتي هو موقف مبدئي وما علينا إلا أن نبحث عن هذا الأساس المبدئي لفهمه وندافع عنه . وإذا لم نجد ما يبرر ذلك صراحة في التعاليم الماركسية اللينينية كان يأتي دور التأويل والتفسير المؤدي إلى التبرير . فكنا نخضع الإيديولوجيا للسياسة بدل العكس . وكان هذا هو نفس الجذر الفكري لأخطاء الحركة الشيوعية العالمية في المدة الأخيرة حيث كان المنظرون يبررون مواقف السياسيين . ولهذا الخلل الفكري علاقة بالاعتقاد بمعصومية القيادة السوفييتية وفي البدء معصومية ستالين وفيما بعد معصومية "القيادة الجماعية" التي لا يمكن أن يأتيها الخطأ . رغم ما جاء في رسالة لينين إلى أنيسه أرماند يقول فيها عن إنجلز زميل ماركس في عمله : أنه لا يعتقد بأن أتجلس كان معصوماً من الخطأ . وفي العديد من المناسبات كان يشير إلى ارتكاب السلطة أخطاء خرقاء وأن تكن أقل خرافة من أخطاء الدول الرأسمالية . ولكننا كنا نمر بهذه الأخطاء مَرَّ الكرام ولم نمارس النقد لأساتذتنا الأكثر تمرساً وخبرة وعلماً كما ينبغي للتلامذة الشيوعيين أن يفعلوا إزاء أساتذتهم وكما يقتضي الواجب الأممي" 417 . ويعبر هذا القول بحق عن الطريقة التي تعامل بها زكي خيري مع القرارات السوفييتية حتى سقوط الدولة السوفييتية ، ولم يكن وحده في ذلك ، بل كنا في الغالب الأعم نتصرف بهذا الشكل ولعقود لاحقة ، رغم ما كنا نبديه من تدمير بالنسبة لهذا الموقف السوفييتي أو ذاك .

لم تأت موافقة الحزب على قرار التقسيم في ضوء اتفاق تام أو قناعة فعلية بصواب القرار ، بل جاءت نتيجة لإيمان بأن الحزب الشيوعي السوفييتي لا يمكن أن يخطأ في مثل هذه القضية ، ولا بد أن يكون للسوفييت مبررات واقعية لمثل هذه الموافقة على قرار التقسيم ، وبالتالي يفرض الموقف الأممي الموافقة عليه أيضاً . وبمعنى آخر فرض الواقع نفسه عملياً على الجميع ،

417 خيري ، زكي. صدى السنين ... مصدر سابق. ص 137/138.

ولكنه أكد أن قيام دولة لليهود في القسم الذي خصص لليهود وعدم قيام دولة عربية في القسم الذي خصص للعرب سيؤدي إلى ضياع فلسطين كلها ، ولهذا فإن القبول بإقامة دولة فلسطينية عربية على أرض فلسطين من ناحية كون القرار لم يعد قابلاً للتغيير مسألة منطقية وضرورة لا غنى عنها ، حتى من منطلق ومنطق الرفض لقرار التقسيم . فالنظر إلى موقف الحزب من قرار التقسيم حينذاك يختلف عن النظر إليه في هذا اليوم . فعدم الموافقة على قرار التقسيم من جانب الحكومات العربية ، التي لم تكن كلها مخلصاً في رفضها لقرار التقسيم والتي لم تكن كلها مستعدة للقتال في سبيل قضية فلسطين أو في سبيل مجابهة القرار فعلياً ، والتي كان بعضها متواطئاً حول القضية برمتها ، قد أدت كلها إلى حرب غير متكافئة بسبب الإسناد اللامحدود الذي حصلت عليه القوى الصهيونية المحاربة في فلسطين من قبل الدول الاستعمارية ، وخاصة بريطانيا والولايات المتحدة ، ولم تحصل على ما يقابله من دعم من الاتحاد السوفييتي ودول الديمقراطيات الشعبية حينذاك . كما لعبت المؤامرات والخيانات العربية ، ومنها مسألة الأسلحة الفاسدة وغيرها ، دورها في تعطيل قدرة الكفاح العربية للوحدات العسكرية التي أرسلت إلى فلسطين ، وساعدت على إنهاء الحرب لصالح إسرائيل . وبالتالي ، قامت الدولة الإسرائيلية ولم تقم الدولة العربية الفلسطينية . والشعب الفلسطيني يحصد اليوم نتائج تلك السياسات والمواقف . واتخذت السلطات العراقية من موقف الحزب الشيوعي العراقي حجة لشن حملات ظالمة لتصفية الحزب الشيوعي العراقي ، واتخذت منه مبرراً غير مباشر لتنفيذ جريمة الإعدام بحق فهد ورفاقه ، كما ساهمت بتأجيج الرأي العام العربي ضد الحزب ، بحيث كانت الحملة لوقف عملية تنفيذ الإعدام بحق قادة الحزب الشيوعي العراقي في عام 1949 ضعيفة حقاً . ولكن هذا الموقف لم يفهم بالصورة الصحيحة ولم يلعب الحزب الشيوعي العراقي دوره المناسب ولم يمنح الفرصة الكافية في حينها لتوضيح موقفه من التقسيم . وفي حمى الصراع حينذاك اتخذ الأمر وكأن الحزب الشيوعي مع التقسيم وبقية القوى السياسية العربية ضد التقسيم . وهو أمر أساء كثيراً لعلاقة الحزب بالقوى القومية التي تلفقت الموقف لتبرير صراعاتها وكرهها الدائم للشيوعية والشيوعيين حينذاك ، خاصة وأن الحركة الشيوعية العالمية كانت قد أيدت قرار التقسيم ووقفت إلى جانبه من منطلق معاناة اليهود في ألمانيا من عمليات الإبادة الجماعية في معتقلات النازية ، رغم أن هذا لم يكن مبرراً أيضاً ، إذ أن جريمة النازية البشعة ذات الخلفية العنصرية والمعادية لليهودية خصوصاً والسامية بشكل عام والقائمة على إيديولوجية مناهضة لكل الشعوب كانت قد توجهت بحقد لها لا ضد اليهود والعجم (السندي والروما في أوروبا) والسلافيين فحسب ، بل وضد الشيوعيين والاشتراكيين والديمقراطيين والمسيحيين المناوئين للنازية أيضاً . ولا شك في أن موقف الحزب الشيوعي السوفييتي إزاء التقسيم حينذاك لم يكن سليماً ، إذ كان في مقدوره الرفض وعرقلة التقسيم حينذاك . كما أن المبررات التي قدمت حينذاك لم تكن موضوعية ولا مبررة للموافقة على قرار التقسيم .

كان قرار التقسيم خاطئاً بالأساس ، وبالتالي ، كانت الموافقة عليه خاطئة أيضاً . وهذا يختلف عن مسألة أخرى هي الأمر الواقع الذي وضع مجلس الأمن الدولي العالم كله أمامه ، فقرار تقسيم فلسطين ، وليست كل قرارات مجلس الأمن الدولي صائبة ، كما ليس مطلوباً منا الموافقة على كل ما يصدره مجلس الأمن بغض النظر عن مدى قدرتنا على مواجهته أو إفشال تحقيقه . والدعوة إلى إقامة دولة فلسطينية عربية ديمقراطية على القسم الذي خصص للعرب كان يحمل في طياته قبولاً بالأمر الواقع ، ولكنه كان لا يعني بالضرورة قبولاً بقرار التقسيم . إذ لو كان قد تم ذلك لكان الأمر الآن مختلفاً . وربما لما استطاعت إسرائيل التهام أجزاء جديدة من ذلك القسم

الذي خصص للعرب في الحروب التالية التي قامت هناك ونظمتها الصهيونية العالمية وساندتها الإمبريالية العالمية لالتهام المزيد من فلسطين لصالح إسرائيل . فالواقع على أرض فلسطين يقول أن إسرائيل تسيطر اليوم على 78 % من الأراضي الفلسطينية وفق حدود عام 1947 وأن الفلسطينيين لم يبق لهم سوى 22 % من تلك الأراضي ، في قطاع غزة والضفة الغربية ، كما أن إسرائيل تقيم الكثير من المستوطنات الصهيونية في قطاع غزة والضفة الغربية وتريد انتزاع المزيد مما تبقى للعرب في فلسطين عام 1947 . والفلسطينيون يناضلون اليوم من أجل إقامة دولتهم الوطنية على القسم المتبقي من فلسطين ، أي على 22 % من تلك الأراضي ، وترفض إسرائيل ذلك حتى الوقت الحاضر ، رغم التضحيات الغالية التي يقدمها الشعب الفلسطيني في انتفاضة الحجارة . وكان الأمر حينذاك يختلف تماماً عن الواقع الراهن الذي يجد العرب أنفسهم فيه . فبعضهم اليوم اعترف بوجود إسرائيل كدولة ويقوم البعض الآخر العلاقات الدبلوماسية معها ، والبعض الثالث يقيم مع إسرائيل علاقات تجارية وعلمية واسعة نسبياً ، وبعضهم الآخر يقيم علاقات اقتصادية وثقافية وسياحة مع الدولة العبرية التي ابتلعت المزيد من الأراضي الفلسطينية التي ضمنها قرار تقسيم فلسطين لعرب فلسطين حينذاك ، والتي تشن يوماً الحرب ضد الشعب الفلسطيني وتقتل بشتى الأسلحة ، بما فيها المحرمة دولياً ، المزيد من البشر ، كما أنها ما تزال تحتل أجزاء من الأراضي العربية في كل من لبنان وسوريا كمزارع أبو شبعاء والجولان . وتجد إسرائيل التأييد الكامل والدعم الواسع والمتواصل من جانب حليفها الإستراتيجي الدولي ، من جانب الولايات المتحدة الأمريكية في كل ما تقوم به من عمليات عسكرية تدميرية وقتل جماعي واغتيالات لقادة الحركة الوطنية الفلسطينية وإزالة دور السكن وتخريب المزارع في الأراضي الفلسطينية المحتلة أو تلك التي تعتبر بيد السلطة الفلسطينية . وهي التي كانت وما تزال تمارس إرهاب الدولة ضد الفلسطينيين في الأراضي الفلسطينية المحتلة بأساليب كثيرة .

لقد كان موقف عصابة مكافحة الصهيونية ونشاطها ضد الصهيونية صائباً وصادقاً في آن واحد 418 . ولم يكن في مقدور العصابة أن تنهض دون تبين ودعم مباشرين من الحزب الشيوعي العراقي ، الذي وجد فيها ، بوجود أكثرية يهودية عراقية فيها ، أداة مهمة لمحاربة الحركة الصهيونية في العراق وفي الخارج ، كما أنها كانت أداة مهمة للتثقيف ضد الصهيونية وتعزيز التآخي بين المواطنين من مسلمين ويهود ومسيحيين وغيرهم من المواطنين في العراق . واستطاعت العصابة خلال فترة وجيزة القيام بعملية تعبئة واسعة ضد الصهيونية وفضح مشاريعها 419 . فاجتماعاتها التثقيفية اليومية والأسبوعية ساهمت في تلك الاتجاهات الوطنية

418 كان الهجوم على العصابة هو البداية الفعلية للهجوم اللاحق على الحركة الوطنية العراقية ومحاولة تصفية الأجواء الديمقراطية التي أنعشتها فترة نهاية الحرب العالمية الثانية والانتصار على النازية الألمانية والفاشية الإيطالية والعسكرية اليابانية. ثم طلب الادعاء العام العراقي تقديم كوادر العصابة إلى المحاكمة بتهمة مختلفة بما فيها تهمة التعاون مع الصهيونية العالمية. ولكن المحاكم لم تستطع حقاً إيجاد أي علاقة بين أعضاء العصابة والحركة الصهيونية الدولية ، بل كانوا جميعاً من المعادين للصهيونية والداعين إلى قيام دولة فلسطينية موحدة في فلسطين. وبالتالي انبثقت "عبرية" الحاكم العراقي حينذاك وأكد أن عصابة مكافحة الصهيونية تعني عصابة الكفاح لصالح الصهيونية. وقد أدين هذا التفسير من جانب محامي الدفاع وكثرة من اللغويين العرب ، بمن فيهم الأستاذ الدكتور مصطفى جواد ، حيث قيل في حينها ، هل تعني عصابة مكافحة السل وعصابة مكافحة الجراد وعصابة مكافحة الأمية ، عصابة لنشر السل وحماية الجراد ونشر الأمية ، كما أشار إلى ذلك عادل مصري في ذكرياته التي أشير إليها سابقاً؟ لقد كان تفسير الحاكم ليس تعسفياً فحسب ، بل مغالطة كبرى كان يريد منها إصدار الأحكام على كوادر العصابة بأي ثمن ، إذ كانت تعليمات السلطة العراقية والسفارة البريطانية تقضي بذلك.

419 خلال فترة وجيزة من عمر عصابة مكافحة الصهيونية أصدرت 51 عدداً من جريدتها "العصابة" ، وكانت مقالاتها تهتم لا بالقضية الفلسطينية فحسب ، بل وبالقضايا الوطنية المختلفة ، ومنها النضال ضد الاستعمار ومن أجل الحريات الديمقراطية وضد التخلف والامية ومن أجل تحرير المرأة ، إضافة إلى فضح الصهيونية وعلاقتها بالإمبريالية العالمية. وكان للصعوبة ناد ومقر في كرادة مريم ، وكانت تقيم أسبوعياً ندوة خاصة عن القضية الفلسطينية وكان الحضور يصل إلى عدة آلاف أحياناً غير قليلة ، كما

المنشودة ، وهذا العمل بالذات هو الذي أغاظ القوى المناهضة وجمهرة من النخبة الحاكمة العراقية حينذاك . إن الإجراءات التي اتخذتها الحكومة العراقية بتهجير اليهود العراقيين قسراً كان قراراً ظالماً وجائراً ومسانداً لقرار التقسيم من الناحية العملية . لقد دفع عشرات ألوف اليهود بالقوة والقسر إلى ترك وطنهم العراق ، كما حصل ذلك في بقية الأقطار العربية والإسلامية ، الذين عاشوا فيه منذ آلاف السنين ، تماماً كما فعلت ذلك الحكومة العنصرية في إسرائيل حين طردت عشرات ألوف العرب من وطنهم فلسطين إلى الشتات العربي والدولي . وإذا كان اليهود قد استوطنوا اليوم في إسرائيل ، فإن العرب الذين هجروا ما زالوا يعانون مرارة العيش في المخيمات الفقيرة والبائسة بانتظار العودة إلى وطنهم الذي لا يجوز ، بأي عرف ولا يمكن لأي مستبد أو عنصري أن يحرمهم منه ، فهو حقهم الطبيعي في العودة وسيحققونه في يوم قادم لا ريب في ذلك . إذ من حق عرب فلسطين أن يعيشوا في دولتهم الفلسطينية المستقلة ، جنباً إلى جانب مع الدولة الإسرائيلية المستقلة التي أقيمت على أرض فلسطين بتفاهم وسلام دائمين .

وخلال فترة نشاط العصابة نشأت علاقات غير ودية بينها وبين الأحزاب الوطنية الأخرى التي أجاز عملها الرسمي حينذاك ، وخاصة حزب الاتحاد الوطني وحزب الشعب والحزب الوطني الديمقراطي ، دع عنك حزب الاستقلال ، الذي كانت له سياسات ومواقف شوفينية في علاقته مع اليهود ومع وجودهم في العراق . وكان السبب وراء تلك العلاقات غير الودية يكمن في النقاط التالية:

• التشابك بين النشاط الديمقراطي السياسي العام للعصابة وبين النشاط الحزبي لقادة العصابة ، إذ أن الأحزاب الأخرى قد اعتبرت العصابة إحدى منظمات الحزب أو إحدى المنظمات التابعة للحزب؛

• تبني العصابة لسياسات الحزب الشيوعي العراقي والترويج لها في نشاط العصابة أو قيام أعضاء العصابة وأعضاء حزب التحرر الوطني بالترويج لسياسة وشعارات الحزب في نشاطات وفعاليات بقية الأحزاب ، إذ كان ذلك يلقي معارضة شديدة من جانب قادة تلك الأحزاب . وقد تجلّى ذلك في المقالات التي نشرت في صحافة الأحزاب الأخرى ، ومنها المقالات التي نشرتها الرأي العام التي كان يصدرها الشاعر محمد مهدي الجواهري حينذاك والتي وجهت أصابع الاتهام لحزب التحرر الوطني وعصابة مكافحة الصهيونية بالتخريب والإساءة لاجتماعات ومهرجانات الأحزاب الأخرى . وكتبت المقالات تحت عنوان: أعصبة لمكافحة الصهيونية أم لمكافحة الوطنية؟ أحزب للتحرر أم التخريب؟ 420 .

• ويفترض هنا الإشارة إلى أن أغلب اليهود الذين عملوا في العصابة ، كانوا أعضاء في الحزب الشيوعي العراقي ، وكانوا قبل ذلك أعضاء في وحدة النضال التي حلت نفسها والتحقت بالحزب الشيوعي العراقي ، وكانت لهؤلاء علاقات مختلفة مع كوادر وأعضاء الأحزاب الأخرى .

ويشير عادل مصري في هذا المجال إلى أن مناضلي العصابة ، وكذلك مناضلي حزب التحرر الوطني وفي ظل المنافسة الحزبية حينذاك ودور الحزب الشيوعي العراقي في كسب قاعدة الأحزاب الأخرى إلى نشاطاته وشعاراته يمكن أن يكونوا قد ارتكبوا أخطاء سياسية في العلاقة

---

أقامت مسرحاً وساحة لممارسة الرياضة ، كما يشير إلى ذلك عادل مصري ، الذي كان سكرتيراً للعصابة ، في مقابلة له مع د. زهدي الداودي في براغ بتاريخ 1982/7/2 .  
420 الراوي ، عبد اللطيف د. عصابة مكافحة الصهيونية في العراق. مصدر سابق. ص 199-201.



مع الأحزاب الأخرى 421 ، خاصة وأن غالبية أعضاء حزب التحرر كانوا من أعضاء الحزب الشيوعي العراقي ، وكذلك أعضاء العصبة . وكانت كل هذه الأخطاء تجير على الحزب ، وهو أمر لا يخلو من صواب ، بسبب أن قادة هذه المنظمة وفراكسيون الحزب العامل فيها وكذلك حزب التحرر كانوا من الشيوعيين ، كما كانوا على اتصال وثيق ويومي بالمكتب السياسي وبفهد مباشرة . وكانت تكتيكات العمل اليومي تقرر من جانب الفراكسيون . ويشير عادل مصري في هذا الصدد إلى أن العصبة لم يكن في مقدورها أن تستغني عن دور فهد ، إذ كتب يقول: "وكان الرفيق فهد يوجه نشاطاتها وأحياناً يكتب في صحيفتها ، ويعمل جاهداً على تنسيق نشاطها مع الحركة الوطنية وأحزابها ومع الحركة العمالية ومع الحركة المعادية للصهيونية عربياً وعالمياً . وللرفيق فهد خبرة في هذا المجال لا يمكن الاستغناء عنها" 422 .

كان شعار الجبهة ضاغظاً كبيراً على الحزب ، وبالتالي على الشيوعيين العراقيين وإنما عملوا ، وكان الحزب يسعى إلى فرضه على القوى السياسية الأخرى من خلال العمل في قواعد تلك الأحزاب وإقناعها بالقبول بالشعار وبالضغط على قياداتها للموافقة على تشكيل الجبهة وفق منظور الحزب لها ، وهو ما اصطدم بمعارضة القوى السياسية التقدمية والديمقراطية الأخرى في مسألتين ، وهما:

• كانت تعتقد بان الحزب يسعى إلى فرض الجبهة التي يريدتها على بقية الأحزاب بما فيها قياداتها لها ، خاصة وأن كراس الجبهة الذي أصدره حسين محمد الشبيبي يصب بهذا المجرى ، وهو ما كانت ترفضه الأحزاب الأخرى؛

• محاولة فرض قيام الجبهة من خلال تشديد ضغط قواعدها عليها ، وهو ما كانت تراه مخالفاً لقواعد العمل الديمقراطي بين الأحزاب السياسية التي تعمل في صف المعارضة .

ويمكن القول بأن القوى التقدمية والديمقراطية كانت على حق بالنسبة إلى هاتين المسألتين ، إذ لا يجوز الدخول في اجتماعات أحزاب أخرى وفرض شعارات الحزب الأخر على اجتماعاتها مما يقود إلى توترات لا طائل منها وتسيء إلى العلاقات في ما بين قيادات وقواعد كل حزب من تلك الأحزاب وفي ما بين الأحزاب . رغم أن من حق كل حزب التثقيف بسياساته وصحافته واجتماعاته الخاصة والعامة ، فإن الأساليب التي اتبعتها الحزب إزاء حلفاء الحزب الطبيعيين لم تكن صحيحة . ولكن ، كما يبدو لنا ، بأن فهداً ، وهو المسؤول عن تلك التكتيكات مباشرة ، لم يجد أمامه طريقاً آخر للضغط على الأحزاب الأخرى من أجل إقناعها بالموافقة على تشكيل الجبهة التي كان يشعر بضرورة قيامها لتخليص العراق من المحنة التي كان يعيش فيها حينذاك . إلا أن هذا التكتيك لم ينجح وساهم في تعميق الفجوة ، لم يكن صائباً وفق الأسلوب الذي مارسه الشيوعيون في حينها .

واليوم ، وبعد مرور ما يزيد على نصف قرن على منع العصبة من مزاوله عملها العلني وغلق مقراتها واعتقال وسجن مؤسسيها من جهة ، ومرور ما يزيد على نصف قرن على قيام وثبة كانون الثاني عام 1948 من جهة أخرى ، ينبري بعض الكتاب العراقيين لينشر تحليلات جديدة مخالفة للوقائع التي عاشها الشعب العراقي قبل نصف قرن ، ويعتقد بأن ذاكرة العراقيين ضعيفة ويصعب عليهم استعادة الماضي لا عبر الذاكرة فحسب ، بل وعبر الوثائق التي توفرت وأكثر بكثير من السابق . وفي الربع الأخير من عام 2001 نشر كل نجدة فتحي صفوة وسامي الصقار مقالين منفردين في جريدة القدس العربي تحدثا فيهما عن عصبة مكافحة الصهيونية ووثبة كانون الثاني/يناير 1948 . وكان المقال الأول للسيدة صفوة يتضمن محاولة لإعادة تقييم

421 نفس المصدر السابق. ص 234/235.

422 نفس المصدر السابق. ص 229.

عصبة مكافحة الصهيونية وفق منظور الحكم العراقي حينذاك<sup>423</sup> . أما مقال السيد سامي الصقار فجاء تأييداً لما ورد في مقال صفوة<sup>424</sup> . ومع أن كلا الشخصين كانا يعملان في السلك الدبلوماسي العراقي حينذاك ، فإن مقاليهما يتقاطعان مع الوقائع وحقائق الأمور والوثائق المتوفرة عن تلك الفترة . والمقالين يركزان على فكرة أساسية ، ويعتمدان في ذلك على رأي الحكومة العراقية حينذاك في البرهنة على وجهة نظرهما ، وهي:

• أن عصبة مكافحة الصهيونية جاءت لخدمة الصهيونية ، وأنها من توابع الحزب الشيوعي العراقي الموجهة لهذا الغرض؛

• أن العصبة والحزب الشيوعي العراقي عملاً ضد عقد معاهدة بورتسموث التي كانت تهدف إلى منع قيام دولة إسرائيل ، وأن بريطانيا كانت تريد عبرها تزويد الجيش العراقي بالأسلحة لمقاومة اليهود في فلسطين .

وفي مقال ثالث نشر في جريدة القدس العربي حاول الكاتب ، السيد علاء الظاهر ، إبراز الأخطاء الكثيرة التي ارتكبتها الكاتبان في مقالتيهما السالفتين ووضع جملة من الحقائق أمام أنظار القراء<sup>425</sup> .

إن الخطأ الفادح الذي يرتكبه الكاتبان نجدة فتحي صفوة وسامي الصقار يبرز في عدد من النقاط الجوهرية ، وهي:

• ابتعادهما عن الوثائق المتوفرة حول تلك الفترة والتي تؤكد طبيعة عصبة مكافحة الصهيونية من جهة ، والعوامل الكامنة وراء رفض الشعب العراقي لمسودة معاهدة 1922 والتطورات والتعديلات التي جرت عليها حتى تم التوقيع عليها في عام 1930 في وزارة نوري السعيد التي جاءت لفرض تلك المعاهدة على الشعب العراقي . وعدم قيامهما بمقارنة واقعية مطلوبة بين نص معاهدة 1930 ومعاهدة بورتسموث 1948 التي حاول صالح جبر فرضها على المجتمع العراقي ورفضت من قبل الغالبية العظمى من بنات وأبناء الشعب؛

• تجاوزهما المخلل للحقائق التاريخية لتلك الفترة ، وخاصة دور وعد بلفور والسياسات البريطانية اللاحقة في فترة انتدابها على فلسطين من أجل خلق وطن لليهود في فلسطين ، والتي لا ترتبط ارتباطاً مباشراً بالقضية العراقية ، ولكن بريطانيا استخدمت الحكام العرب ، ومنهم حكام العراق لإمرار مخطط المؤامرة على الشعب الفلسطيني ، وبالتالي فإن وثبة كانون كانت في مضمونها رفض العلاقات غير المتكافئة بين بريطانيا والعراق لصالح بريطانيا والدعوة إلى إقامة علاقات ودية متكافئة ، وهو مطلب العراقيين منذ ثورة العشرين وقبل أن يصل الفكر الماركسي أو ينتشر في العراق ، أي حتى قبل بروز رواد الفكر الاشتراكي في العراق في منتصف العشرينات . وإذا ما عادا الكاتبان إلى وثائق مجلس الأمة العراقي سيكتشفان حقيقة الموقف من معاهدة بورتسموث حينذاك . والغريب أن الكاتبين يتهمان الحزب الشيوعي بتفجير الوثبة ، وهو ما لا ينكر الشيوعيون مساهمتهم بها ، ولكنهم يرفضون نسيان دور الأحزاب الوطنية الأخرى ، وخاصة الحزب الوطني الديمقراطي وحزب الاستقلال وحزب الشعب والاتحاد الوطني وبقية الكتل السياسية المستقلة . وهو ما ترفضه تلك الأحزاب الوطنية أيضاً؛

• ونسي الكاتبان تماماً الرسالة التي وجهها فهد إلى رئيس وزراء حركة مايس عام 1941 بشأن الوضع وعملية "الفرهود" والقتل التي كان اليهود في بغداد ضحيتها ، وإلى أهمية اتخاذ مواقف مناهضة للصهيونية من جهة ، مع احتضان فعلي للمواطنين اليهود باعتبارهم مواطنين عراقيين لا غير . ثم الإدانة التي أشار إليها الشيوعيون في حينها للسياسات العنصرية والتطهير العنصري التي تجلت في قانون هجرة اليهود إلى إسرائيل . إذ أنهما لم

423 راجع في هذا الصدد مقالة السيد نجدة فتحي صفوة التي نشرت في جريدة القدس العربي اليومية ليومي 10 و11 أيلول/سبتمبر 2001.

424 راجع في هذا الصدد مقالة السيد سامي الصقار في جريدة القدس العربي في يوم 21 ديسمبر/كانون الأول 2001 . ص 18.

425 راجع في هذا الصدد مقالة علاء الظاهر في جريدة القدس العربي بتاريخ 4 كانون الثاني/يناير 2002 . ص 18.

- يسعياً إلى ذكر الحقائق ، بل كانت لهما بعض الأحكام المسبقة والجاهزة الصنع التي أرادا نشرها قبل أن ينسأها التاريخ ، كما أشار إلى ذلك السيد الصقار في مقالته الآنفه الذكر؛
- ويبدو أن الكاتبين عجزا عن التمييز بين مسألتين أشار لهما الكاتب علاء الظاهر426 ، وأعني بهما الموقف المعادي للصهيونية الذي عملت به عصابة مكافحة الصهيونية والتزم به ودعا له الحزب الشيوعي العراقي حينذاك ، وكان موقفاً صحيحاً ووطنياً لا غبار عليه ، وبين خطأ الاعتراف بالتقسيم ، لا عن قناعة فعلية بذلك ، كما أشرنا إليه في موقع آخر من هذا الكتاب ، بل بسبب اعتراف الاتحاد السوفييتي بقيادة ستالين بالتقسيم وموافقته عليه في الأمم المتحدة . وهو موقف تبعي غير مسؤول وغير سليم في حينها ، رغم أن عرب فلسطين يناضلون اليوم في سبيل الحصول على ما تبقى لهما من فلسطين والذي لا يزيد على 22 % من الأراضي الفلسطينية في وقت صدور قرار التقسيم .
  - والغريب في مقال السيدين صفوة والصقار أنهما يبتعدان عن كل إدانة فعلية للحكام العرب والنظم العربية التي ساومت على قضية فلسطين ، كما ينسى الوقائع التي ساهمت في إغناء الحكام بسبب موافقاتهم على إصدار قانون هجرة اليهود أو شركات نقلهم أو في محاكمة شفيق عدس والتي أشار إليها السيد علاء الظاهر في مقاله المشار إليه سابقاً .
  - وتبدو لنا بأن إشكالية الكاتبين تكمن في عدائهما الأعمى للشيوعية وللحزب الشيوعي العراقي وللحياة الديمقراطية التي كانت القوى الديمقراطية تناضل في سبيلها في العراق من جهة ، ودفاعها الصارخ عن النظام الملكي الإقطاعي وسياساته السابقة ، باعتبارهما كانا جزءاً من ذلك النظام من جهة أخرى ، وإذا كان لهما الحق ، كل الحق ، في تبني العداء للشيوعية وحب النظام الملكي العراقي حينذاك والدفاع عنه ، فأنهما لا يمتلكان الحق في تزوير الحقائق والوقائع وتجاوز الوثائق المتوفرة .

426 راجع في هذا الصدد مقالة علاء الظاهر في جريدة القدس العربي بتاريخ 4 كانون الثاني/يناير 2002. ص 18.

## المبحث الثاني : القضية القومية والوحدة العربية

أبدى فهد اهتماماً مبكراً بقضايا النضال المشترك للشعوب العربية ضد الهيمنة البريطانية والفرنسية على المناطق العربية التي كانت تحت الهيمنة العثمانية قبل ذلك ، وكذلك طموح هذه الشعوب للوحدة العربية والاستقلال والسيادة الوطنية . وتابع في المقالات التي كتبها ترسيخ هذا النضال وتطلعه أولاً لتحقيق الإدارة اللامركزية ضمن الدولة العثمانية ثم في سبيل الوحدة العربية مع اندلاع نيران الحرب العالمية الأولى . ووجد فهد في حركة الانقلاب الدستوري ، التي انتهت بإسقاط حكم السلطان عبد الحميد الثاني واعتلاء محمد رشاد عرش السلطنة العثمانية وإقامة مجلس المبعوثان ، البداية الفعلية الجادة لحركة العرب المناهضة للاحتلال والتخلف ، كما اعتبرها البداية لمسيرة الاستقلال الوطني للعرب ، إذ كتب يقول: "منذ الانقلاب الدستوري الذي حدث في الدولة العثمانية ، أي منذ إسقاط الحكم الاوتوقراطي المتمثل في السلطان عبدا لحميد (1908) واستخلافه بأخيه السلطان محمد رشاد المقيد بالدستور وبمجلس المبعوثان ، كانت الحركات الوطنية التي قام بها شباب العرب وزعماءهم وسياستهم في الأستانة وفي مختلف الأقطار العربية ، حركات تستهدف نهضة البلاد العربية عامة وانبعائها الثقافي والسياسي الخ . . وإن بدا على بعض الجمعيات والنوادي العربية صبغة إقليمية إلا أن الحركة بصورة عامة كانت بجوهرها وحتى بشكلها حركة عربية تهم مباشرة أهم الأقطار العربية التي كانت آنذاك تحت سيطرة الأتراك ، وأعني بها العراق والحجاز وسوريا بما فيها فلسطين وشرق الأردن . وكانت النوادي والجمعيات التي أنشئت في الخارج تضم العراقي إلى جانب السوري والفلسطيني والحجازي والمصري .

وفي الحرب الإمبريالية الأولى (1914- 1918) أخذت الحركة العربية شكلها القومي الواضح (بالنسبة للعرب) وذلك عندما انضم قادتها المعروفون برجال النهضة العربية إلى جانب الحلفاء مؤملين أن يحققوا بمساعدة الإنكليز استقلال البلاد العربية -الحجاز ، العراق ، سوريا وفلسطين- وإيجاد حلف بينهما عن طريق شريف مكة (المغفور له الملك حسين بن علي) وأولاده الأمراء فيصل وعبد الله وعلي ، ملوكا على هذه الأقطار .

وهكذا أطلق الملك حسين في 9 شعبان رصاصته الأولى معلنا ، باسم العرب ، الثورة على خليفة المسلمين ، أي الثورة على الأتراك المستعمرين للأقطار العربية آنذاك ، وأعتبر 9 شعبان ، اليوم الذي أطلقت فيه تلك الرصاصات عيداً وطنياً للعرب يعرف بعيد النهضة العربية<sup>427</sup> .

وضع فهد ، عبر هذه الفقرة المركزة ، مسألة النهضة فالشعور القومي الوطني بشكل عام في مرحلة الانعتاق من عبودية ما ، في الموقع الصحيح ، إذ اعتبرها مسألة لا تخص طبقة أو فئة اجتماعية معينة ، بل أنها قضية شعب بكل طبقاته وفئاته الاجتماعية . ويحق لهذا الشعب ، في مرحلة انعتاقه ، أن يبحث أو يستعين بحلفاء ، يعضدونه في صراعه ضد العدو المشترك . ويضطر هذا الشعب أن يتكئ على حلفاء ، يعرف مسبقاً أنهم لا يماثلونه أو يلائمونه في الفكر والإيديولوجية ، أو أنهم يقدمون مساعدتهم ليس في سبيل الله ، بل لغرض تحقيق مصالحهم هم . إنها في كل الأحوال مساومة لها جانبها السلبي والإيجابي . وفي مثل هذه المساومات لا يمكن توقع الإيجابية فحسب . ففي الوقت الذي استغربت فيه أوساط دينية إسلامية من هذه العلاقة بين شريف مكة ، خادم الحرمين والاستعمار البريطاني ، اعتبرتها أوساطاً دينية أخرى

427 فهد. المؤلفات. الوحدة العربية والاتحاد العربي. مصدر سابق. ص 327/328.

خيانة بحق الدين ، وأعلنت وقوفها إلى جانب الدولة العثمانية ، معتبرة إياها حامية الدين المههد من قبل الإمبريالية الإنكليزية . إننا إذا اعتبرنا عام 1908 نقطة الانتقال الرسمية من العلاقات الإقطاعية إلى الرأسمالية أو بداية الانتقال إلى عتبة التاريخ الحديث في المشرق ومناطق الإمبراطورية العثمانية المنهارة ، نرى أن موقف شريف مكة ، كان صانبا وتقدما من وجهة النظر التاريخية ، إذ أنه كان ، بغض النظر عن كل نتائجه ، مساهمة جادة في إزالة عائق إقطاعي متخلف جثم على كاهل شعوب بأكملها منذ أكثر من خمسة قرون ، وخطوة جادة في طريق الولوج إلى عتبة التاريخ الحديث .

وكما قلنا بأن الإنسان لا يمكن أن يتوقع الإيجابيات فقط في مثل هذه المساومات التي تفرضها الظروف الموضوعية ، نرى أن الاستعماريين الإنكليزي والفرنسي ، في الوقت الذي كانا يوزعان فيه الوعود المعسولة ، يلتقيان سراً كي ينسقا ويتفقا في موافقهما قبل انتهاء الحرب العالمية الأولى بعامين ، على اقتسام جسد الرجل المريض .

وواصل فهد رسم رؤيته التاريخية الواضحة بقوله: "وألف العرب بقيادة الأمير فيصل بن الحسين (الملك فيصل الأول) جيشا عربيا وفرق أنصار من البدو والهجانة ، وانضم إلى هذا الجيش أكثر الضباط والجنود العرب الذين كانوا قد وقعوا أسرى بأيدي الإنكليز وكذلك الفارون

سار هذا الجيش العربي إلى جانب جيوش المارشال اللورد اللنبي ليحرر البلاد العربية من نير الأتراك ويحقق لها استقلالها وفق العهود التي قطعها الإنكليز للعرب في حين أن الحلفاء كانوا قد قطعوا البلاد العربية قطعا صغيرة ووزعوها فيما بين إنكلترا وفرنسا وفق معاهدات سرية عقدوها فيما بينهم ، وكذلك قطعوا عهودا للصهاينة بتأسيس وطن لهم في فلسطين ، أجل سار جيش الأمير فيصل العربي إلى جانب جيش اللنبي في فلسطين وشرق الأردن وسوريا حتى بلغ سوريا فدخلها وفتح عاصمتها دمشق ثم مدنها الأخرى ، وأسس حكومة عربية مستقلة في سوريا ونودي بالأمير فيصل ملكا على سوريا في حين كانت المعاهدة بين إنكلترا وفرنسا - معاهدة سايكس بيكو- قد خصت فرنسا بسوريا ولبنان والموصل . وهكذا أضطر الملك فيصل ومن معه من القواد العراقيين على ترك سوريا بعد أن فشلوا في التفاهم مع الفرنسيين وبعد أن عجزوا عن الوقوف أمام الجيوش الزاحفة على دمشق ، وتركوا السوريين يحاربون وحدهم في ميسلون ضد جيوش مدربة ومجهزة"428 .

و يتطرق فهد إلى انتهاء الحرب العالمية الأولى وتبدد أحلام العرب باستقلال أقطارهم بفضل عهود الأجانب وموائيقهم ، ويقول أنهم "أصبحوا أمام أمرين: إما أن يرضخوا لمشيئته أو يحملوا السلاح ضد المحتلين ليحافظوا على استقلالهم وكرامتهم الوطنية ويصونوا أموالهم وثروات بلادهم وتراثهم التاريخي من عبث الفاتحين الأغرأب"429 .

وهكذا نرى بأن الحليف ، بعد أن حقق أهدافه ، ينقلب إلى عدو ، ينبغي محاربتة . وهذه مسألة طبيعية ومعروفة في مسيرة التاريخ منذ القدم ، بيد أن الفن يكمن في كيفية إدارة دفة الصراع الجديد . وفي ضوء تلك التطورات ، يواصل فهد رسم رؤيته التاريخية بصورة مركزة من خلال الثورات والانتفاضات في سورية والعراق ومصر ويحلل سبب إخفاقاتها والطبقات والفئات المساهمة فيها وعلاقات القوى بينها بصورة علمية ومنهج جديد .

428 فهد. المؤلفات. نفس المصدر السابق. ص 328.

429 نفس المصدر السابق. ص 329.

وبعد استعراضه التاريخي يقول: "فلنرجع الآن لنرى ماذا طرأ على مبدأ الوحدة العربية بعد أول توافق حصل بين الإنكليز والعرب في العراق (سنة 1921) وبعد فشل الثورة في سوريا وفي فلسطين وبعد ضياع ملك الحسين بن علي" 430 . ثم يخلص إلى استنتاج مهم يؤكد بحروف داكنة:

"إن الوحدة العربية بعد أن كانت هدفاً قريباً يسعى العرب إلى تحقيقه أصبحت نظرية يتنافس عليها مثقفو العرب في أوطانهم ، وفي تفضيلها على القدرة الإقليمية والوحدة الدينية ، وتدهورت أثمان شركة الوحدة العربية تدهوراً كلياً في بورصات بغداد ومكة والقاهرة ، ولم تحافظ على أثمانها إلا في القدس ودمشق ، غير أن تلك الأثمان كانت اسمية إذ لم يكن لها مساوم خارج فلسطين وسوريا" 431 .

ويمكننا أن نقول في هذا الصدد ، بأن هذا الاستنتاج الذي توصل إليه فهد قبل ستة عقود من الزمن ، ما زال نافذ المفعول حتى هذه اللحظة . ولا حاجة للدخول في تفاصيل حكاية الوحدة العربية التي تاجر بها الحكام العرب وبعض الأحزاب القومية اليمينية التي لم تخلف وراءها سوى الخراب . ومن حيث نريد أو لا نريد تحول التقطيع الذي قامت به معاهدة سايكس-بيكو 1916 للوطن العربي ، إلى حقيقة جيوسياسية وتاريخية ، لم يتمكن دعاة الوحدة العربية من تغييرها حتى الآن . ويقول فهد في هذا الصدد:

ففي العراق أنشغل رجال السياسة الرسميون وغير الرسميين عن فكرة الوحدة العربية بجني ثمار الثورة العراقية التي جاءت بالاتفاقية الإنكليزية-العراقية ، فأخذوا ينشئون ويوسعون الإدارات الحكومية ويوزعون الوظائف على مختلف الجماعات والبيوتات كل منها حسب منزلتها الاجتماعية أو حسب مقدرتها على تأييد الوضع وإخفات معارضتها ، وانشغلوا كذلك بطلب المزيد من الإنكليز (حتى سنة 1930) . وانشغلوا بإخماد الانتفاضات التي تحدث بين وقت وآخر في المناطق الكردية وفي ألوية الفرات وغيرها . ومعظم تلك الانتفاضات كانت فتناً تثيرها الأغراض الحزبية فيما بين الطبقات الحاكمة . وأغراض استعمارية لإرغام العراق على إعطاء بعض الامتيازات .

ويعزي فهد أسباب انصراف رجال السياسة في العراق عن فكرة الوحدة إلى الأسباب التالية: "تثبيت كياناتهم الطبقي ، وتثبيت كيان العراق كدولة بطريقتهم الخاصة ، أي بالطريقة التي تمليها عليهم مصالحهم الطبقيّة الوقتية ، تجنب الاصطدام مع الاستعمار الذي ينظر إلى الاتحاد العربي كفاتحة لضياع نفوذه ومصالحه في الأقطار العربية ، الانحطاط الصناعي في الأقطار العربية وعجزها عن سد حاجة السوق الداخلية ، واعتمادها في التصدير والاستيراد على الأقطار الأجنبية المهيمنة سياسياً على الشركات الأجنبية الموجودة داخل البلاد" 432 .

وبعد أن يستعرض فهد مواقف وادعاءات ومتاجرة الحكام العرب بفكرة الوحدة العربية وعدم تمكنهم من مساندة القطر الشقيق سوريا عند اعتداء تركيا عليها واقتطاع جزء كبير من أرض الوطن السوري (الاسكندرونة وإنطاكية) ، يقول: "ومع ذلك احتكروا شعارها وجعلوه "ماركة مسجلة" باسمهم وجعلوا من 9 شعبان اليوم الذي أطلقت فيه الرصاص الأولى معلنة الثورة على الأتراك في سبيل استقلال البلاد العربية ، عيداً كالأعياد الدينية التي فهم الناس سبب منشئها الأصلي" 433 .

430 نفس المصدر السابق. ص 331.

431 نفس المصدر السابق. ص 331.

432 نفس المصدر السابق. ص 322.

433 نفس المصدر السابق. ص 334/333.

ويتطرق فهد إلى تأويلات بعض الفئات لمفهوم الوحدة العربية في ضوء مفاهيمها الإيديولوجية والدينية . ويبدأ بما يسميهم بدعاة المحور الذين يحاولون أن يجعلوا شعار الوحدة العربية أساساً لمبدهم القومي . ويقول:

"لقد بنى القوميون وحدتهم العربية على أسس "علمية" روزنبرغية<sup>434</sup> ، أي على العقيدة وعلى العنصرية . وشيدوا في مخيلتهم إمبراطورية عربية واسعة الأرجاء بعد أن نظفوها من العناصر اللاعربية في الفكر والدم وأحاطوها بسور عقال لكي لا يدخلها ما يندسها ثم أغلقوا أبوابها وسلموا مفاتيحها إلى هتلر وموسوليني عملاً بسنة خضوع الضعيف للقوي .

أما المصريون فقد كان موقفهم عدائياً لفكرة الوحدة العربية ، وقد عارضوا الوحدة العربية على لسان شيخهم المراغي ونادوا بالوحدة الإسلامية ، والسبب هو أن مصر أو طبقتها الحاكمة لم تشأ أن تثير الإنكليز الذين كانت تتفاوض وإياهم لنيل المعاهدة في سبيل الارتباط مع بقية البلاد العربية من جهة ، ومن الجهة الأخرى فإنها كانت ترجو من وراء الدعوة للوحدة الإسلامية مناصرة وتأييد مائة مليون مسلم في الهند للضغط على الإنكليز للتساهل مع المصريين ولسبب آخر لا تقل خطورته عن السببين المتقدمين وهو ضعف مصر الصناعي كما قدمنا ، الأمر الذي جعل الرابطة الاقتصادية معدومة بين مصر والبلاد العربية الأخرى . وكذلك قاوم أدباء مصر وحاملوا لواء النهضة الأدبية والثقافة العربية بالدعوة الفرعونية .

أما القدس والشام فإن الأولى تمسكت بالدعوة للوحدة العربية لأنها كانت ترى كيانها القومي وكيانها السياسي والاجتماعي العام يذوب أمام هجوم الاستعمار والصهيونية فكان الفلسطينيون يرون أن لا طاقة لهم بالنجاة من الموت المحقق إلا بمساعدة الأقطار العربية الأخرى ، غير أنهم في الأخير ، تحت ضغط ظروفهم القاسية والدعاية الهتلرية التي أخذت تضرب على وتر مقاومة الصهيونية واليهودية بوجه عام ، أخذ معظم المشتغلين بالقضية الوطنية وقسم كبير من جماهير الشعب الفلسطيني بمبدأ القومية الشوفينية كأساس للوحدة العربية أو للإمبراطورية العربية ، التي ما انفكت محطات الإذاعة المحورية تنادي بها لأغراضها الاستعمارية التي ظهرت خلال هذه الحرب بأجلى مظاهرها .

أما في سوريا فقد كانت فكرة الوحدة العربية مستحوذة على الباب أكثر أدبائهم وكتابهم بالرغم من ارتياب قادتهم من نوايا بعض البيوت المالكة في البلدان العربية المجاورة لسورية بترشيح أمير منهم لعرش سوريا بينما الحركة الوطنية السورية كانت تستهدف نظاماً جمهورياً في البلاد"<sup>435</sup> .

بعد هذا العرض الدقيق الذي لا زال يحتفظ بأنيته ، يعود إلى موقف الشيوعيين من فكرة الوحدة العربية ، فيقول: "لم يكن الشيوعيون أقل حماساً ورغبة صادقة لفكرة التقارب والتعاون فيما بين الأقطار العربية ، لذلك أجمع مندوبون من مختلف الأحزاب الشيوعية العربية في خريف 1935 ودرسوا هذه القضية من جميع وجوهها فتبين للمجتمعين أن شعار

434 يتهم فهد هنا على العقيدة النازية والذهنية العنصرية المنافية للعلم التي تجلت في كتابات فيلسوف الحزب النازي والفاشية في ألمانيا ألفريد روزنبرغ Alfred Rosenberg (1893-1946) ، مؤلف العديد من الكتب ، ومنها " أسطورة القرن العشرين" في عام 1930 ، وكتاب "الدم والشرف" ، وهي مجموعة كتابات نشرها بين 1919-1933. وكان روزنبرغ مسؤولاً عن العلاقات الخارجية للحزب النازي (حزب العمال الاشتراكي القومي الألماني" ، كما كان وزيراً للمناطق الشرقية المحتلة منذ عام 1941. قدم إلى محاكمة نورنبرغ الدولية الشهيرة في ألمانيا ، باعتباره أحد مجرمي الحرب الرئيسيين. حكم عليهم بالإعدام ونفذ فيه الحكم في 1946/10/16.

435 نفس المصدر السابق. ص 334-335.

الوحدة العربية غير عملي لما بين الأقطار العربية من فروق في التطور وشكل الحكم والظروف الداخلية الخاصة"436.

ويواصل فهد قائلا "كما أن ملوك العرب وأمراءهم الحاليين ليسوا مستعدين للتنازل عن ملكهم لواحد منهم ولإدماج أقطارهم في دولة واحدة كبيرة ، لذلك ارتأى مندوبو المؤتمر الشيوعي العربي عدم الأخذ بشعار الوحدة العربية واستبداله بشعار عملي ممكن التطبيق ومناسب للظروف التي كانت تجتازها آنذاك البلاد العربية (1935) وهذا الشعار هو الاتحاد العربي . أي أن يتألف اتحاد عربي اختياري من الأقطار العربية المستقلة ، على أن لا يمس ذلك الاتحاد شكل الحكم السياسي الذي اختاره ويختاره كل من الأقطار العربية وعلى أن يساعد الاتحاد العربي الأقطار العربية غير المستقلة على نيل استقلالها .

وبهذا الصدد يشير زكي خيرى في كتابه الموسوم "صدى السنين" إلى ما يلي: "لأجل تنظيم النضال ضد الفاشية والحرب أنعقد المؤتمر العالمي السابع للأمم المتحدة الشيوعية في تموز 1935 في موسكو بقيادة جيورجي ديمتروف قائد الحزب الشيوعي البلغاري الذي أصبح شخصية عالمية وقاندا بارزا في النضال ضد الفاشية الدولية منذ محاكمته على يد الهتلريين في لايبزك عام 1933 وقد حضر المؤتمر عن حزبنا قاسم حسن كما حضر فهد مؤتمر (بروفنترن) الاتحاد العالمي للنقابات العمالية الحمراء الذي أنعقد في نفس الوقت في موسكو حيث كان فهد يدرس الشيوعية العلمية .

لم يمنح حزبنا العضوية التامة في الكومنترن إلا في السنة التالية 1936 أي بعد المحاكمة الأولى للشيوعيين في بغداد . وعلى هامش المؤتمر عقد مؤتمر الأحزاب الشيوعية في البلدان السائرة في الفلك البريطاني وحضره ممثلنا وأصدر بيانا مشتركا ساهم فيه حزبنا كما ساهم في المؤتمر الذي عقدته الأحزاب الشيوعية في البلاد العربية وكانت مساهمة فهد غنية وحيوية لأنه كان من المؤمنين بالوحدة العربية على أساس اتحاد (فدرالي) يحفظ لكل قطر شخصيته وعلى أساس ديمقراطي معادي للاستعمار والإقطاع"437.

عالج فهد مسألة الاتحاد العربي ، بالضد من وجهة نظر القوميين العرب ، باعتبارها قضية متكاملة متعددة الجوانب غير معزولة وذلك في إطار "الديمقراطية ، الحرية ، الخبز والتقدم الاجتماعي ، آخذا بنظر الاعتبار الفروق الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في كل من الحجاز ، العراق ، سورية وفلسطين . وربط كل ذلك بالنضال ضد الإمبريالية والأطماع الصهيونية والرجعية . وتحت عنوان: الاتحاد العربي الذي تنشده الشعوب العربية" طرح فهد ما يلي:

"1- أن يكون الاتحاد العربي اتحادا اختياريًا للشعوب العربية لا اتحاد ملوك العرب وأمرائهم والطبقات الحاكمة .

2- أن يستمد هذا الاتحاد قوته من مصدرها الحقيقي من الشعب العربي بكافة طبقاته ومن الحركة الديمقراطية العالمية .

3- أن يضم الأقطار العربية ذات السيادة الوطنية والكيان الدولي المعترف به من كبريات دول الأمم المحبة للحرية كالاتحاد السوفييتي والصين .

4- أن يضم الأقطار العربية التي تمارس النظام الديمقراطي بالفعل لا بالادعاء .

436 فهد المؤلفات. الشيوعيون والاتحاد العربي. مصدر سابق. ص 337.

437 خيرى ، زكي. صدى السنين في ذاكرة شيوعي عراقي مخضرم. مصدر سابق. ص 91.



5- أن لا يكون الاتحاد العربي موجهاً ضد أمة من الأمم المنضمة إلى جبهة الأمم المتحدة (أي أن لا يكون سعد آباد (عربياً) وأن لا يكون أداة بأيدي دولة أو دول استعمارية وأن لا يستهدف نوايا توسعية وطنية (شوفينية) اعتدائية .

6- أن يفرض على حكومات الأقطار المنضمة إلى الاتحاد العربي السير على سياسة عملية وسريعة لرفع مستوى الشعب والبلاد الاقتصادي والاجتماعي والصحي .

7- أن يضمن كل قطر يرغب في الانضمام إلى الاتحاد العربي الحقوق المتساوية التامة للأقليات القومية في ذلك القطر ومساعدة تلك القومية في تنمية ثقافتها القومية والثقافة العامة والمحافظة على تاريخها القومي ولغتها وآثارها التاريخية إلى آخره" 438 .

وفي ختام معالجته لمسألة الاتحاد العربي ، يؤكد فهد ضرورة تشكيل الاتحاد العربي على أساس ديمقراطي وبالاعتماد على إرادة الشعوب العربية . وانطلاقاً من الظروف الموضوعية لهذه البلدان ، يربط فهد مسألة الاتحاد العربي بمجمل حركة التحرر العربية . ويرى أنه ثمة أمام شعوب البلدان العربية ، بديلان: إما اتحاد عربي مستقل ، تقدمي وديمقراطي متحرر أم اتحاد رجعي ، شبه إقطاعي متخلف 439 .

وكانت قيادة الحزب الشيوعي العراقي قد جابهت شعار الوحدة الفورية الذي رفعه القوميون بعد ثورة 14 تموز 1958 بنفس الشعار الذي وضعه فهد ، أي الاتحاد ، وكان صائباً أيضاً .

وعند متابعة مقالة فهد حول "الأغراض من انبعاث مشروع الاتحاد العربي" ، سنجد بأنه انطلق من الاستراتيجية الذي رسمته الأممية الشيوعية في مؤتمرها العالمي السابع ، الذي يتطرق بشكل مباشر إلى مسألة الاتحاد العربي ، حيث يؤكد عضو اللجنة التنفيذية للكومنترن ، فانك مينك "بأن الشيوعيين يقفون أمام مهمة توسيع النضال ضد الإمبريالية وتحمل مسؤولية قيادته ، ولذلك فإن للشيوعيين في البلدان العربية مهمات إضافية ، في مقدمتها؛ تشكيل جبهة شعبية موحدة للنضال ضد الإمبريالية تعمل وتنسق عملها في كل بلد من هذه البلدان ، هدفها تحقيق الجبهة الموحدة ضد الإمبريالية في كل العالم العربي . ولذلك على الشيوعيين العرب إعداد برنامج بهذا الشأن يتضمن متطلبات حشد كل القوى المضادة للإمبريالية في البلدان العربية" 440 .

انطلاقاً من هذه الموضوعية حاول فهد وضع يده على البواعث التي دعت الإدارة الكولونيالية والحكام العرب للعزف على أسطوانة الوحدة العربية ، إذ كتب يقول: "يبدو أن هناك دوافع حركت حكمانا لبعث فكرة الاتحاد العربي ويمكن تلخيص أهمها في:

1- رغبة الإنكليز في كسب ود العرب وإزالة ما تركته من آثار سيئة في قلوبهم سياسة الحكومات الإنكليزية القديمة ، شعور الإنكليز بالتطور المحتم الذي سيطراً على موقف الشعوب ونضالها من أجل خلق عالم يضمن حق الشعوب في الحرية السياسية والرفاه الاقتصادي ، تمسك العرب بما جاء به تصريح الأطلنطي ومطالبتهم بشموله البلاد العربية وتحقيقه ، الحركة الجماهيرية الديمقراطية المتنامية في الأقطار العربية ، مصير شعوب أوروبا بعد اندحار الهتلرية وشكل الحكم الذي ستقيمه تلك الشعوب وتأثير ذلك على الشعوب العربية بالإضافة إلى التأثير الذي ستعطيه انتصارات الجيش الأحمر في نفوس الشعوب العربية ولحماسه الوطنية

438 فهد. كتابات فهد. الاتحاد الذي تنشده الشعوب العربية. مصدر سابق. ص 347/348.

439 نفس المصدر السابق. ص 347-354.

440 Piazza, Hans. Die kommunistische Internationale und die nationale Befreiungsbewegung. In: Studien zur Geschichte der Kummunistischen Internationale. Berlin. 1974. S. 226.

التي أذكتها نيران بطولة الشعوب السوفيتية والشعوب الديمقراطية بصورة عامة . هذه العوامل مجتمعة جعلت بريطانيا تتهيأ للمستقبل لإجابة مطالب العرب بشكل لا يغير مركزها تغييراً جوهرياً . والاتحاد العربي هو إحدى تلك المطالب العربية ، فلا بأس وعندها من أن تسنده وتعتمد عليه طالما يركز هذا الاتحاد العربي على الطبقات المرتبطة معها بروابط سياسية واقتصادية تقليدية وطالما سدنة هذا الاتحاد هم رجال عرفتهم وعرفوها .

2- خوف الطبقات الحاكمة العربية من نمو الحركة الديمقراطية الوطنية لدى شعوبها ومن مستقبل الحركة الديمقراطية العالمية وتأثيرها على نضال شعوبها . . .

3- الأوضاع الناشئة عن الحرب ، تمركز أموال كبيرة لدى الرأسماليين من تجار وصناعيين ولدى أصحاب العقارات والمقاولين حصلوا عليها نتيجة احتكارهم ومضارباتهم بخبز الشعوب والحاجيات الأخرى ، زيادة الرأسمال النقدي بالنسبة للبضائع الأمر الذي يدفع أصحابه إلى إيجاد علاقات تجارية في الأقطار العربية المجاورة ، شعور العرب بوجود الاعتماد على الإنتاج الصناعي الداخلي بعد أن شح ما كان يأتيهم من الخارج بسبب الحرب وهم يريدون الآن أكثر من أي وقت مضى إيجاد صناعة خفيفة بالاعتماد على البلاد العربية المجاورة فيما يخص تبادل البضاعة ومواد الخام ، شعور الصناعيين والتجار العرب بالخطر الاقتصادي المتأتي من الصهيونية إذ أن البضائع الممنوعة في تل أبيب أخذت تغزو تدريجياً الأسواق العربية خارج فلسطين" 441 .

وإذ أكد فهد في مقاله الموسوم "الاتحاد العربي الذي تنشده الشعوب العربية" ضرورة قيام الاتحاد على أساس ديمقراطي تفرضه الإرادة الحرة للشعوب العربية ، بكيان دولي معترف به من قبل الأمم المحبة للحرية كالاتحاد السوفيتي والصين ، والسير على سياسة عملية وسريعة لرفع مستوى الشعب والبلاد الاقتصادي والاجتماعي والصحي ، حاول أن يعري الحكام العرب الذين يتاجرون بهذه القضية لا أكثر ، فكتب:

"إن الشعب العراقي والواعين فيه بصورة خاصة من أشد أنصار التقارب والتعاون فيما بين الأقطار العربية أي من أشد أنصار الاتحاد العربي وقد عبر في جميع المناسبات عن صدق شعوره وإخلاصه لهذا المبدأ ، ومع ذلك فلا يصدق أن يقال أن نوري السعيد رئيس وزراء العراق ذهب رسولاً عن الشعب العراقي إلى الأقطار العربية ليحدث أو يفاوض من أجل الاتحاد العربي ، إن الشعب العراقي لم يعرف عند سفره الغرض من الرحلة ولم يعرف من أرسله ، هل أرسل من قبل نوري فتاح ، ناجي الخضير ، حبيم نثانائيل ، أم أرسل من قبل صفوك الياور ، الأمير علي (أمير ربيعة) وهاشم النقيب ، أم أرسل من قبل السر كورنواليس أم أرسل من قبل هؤلاء جميعهم" 442 . ثم يواصل قوله:

"فمشروع الاتحاد العربي لم يطرح على بساط البحث فيكون للشعب رأي في شكله وأهدافه وليس للشعب منظمات سياسية لتعين أهداف هذا الاتحاد وتناضل من أجل تأليفه حسبما تقتضيه مصالح الشعوب العربية" 443 .

وإذا علمنا بأن وحدة الشعوب العربية في تلك الحقبة كانت تؤدي من وجهة النظر التاريخية إلى تكوين الأمة العربية التي عرقلت الدولة العثمانية عملية نشوئها ، فإنها كانت تعتبر عملياً خطوة تاريخية تقدمية إلى أمام ، بغض النظر عن القوى والطبقات التي كانت ستساهم في هذه العملية التاريخية التي لم تتحقق حتى الآن . ولا شك أن عملية تحقيق الوحدة بين شعوب أمة

441 نفس المصدر السابق. ص 343-345.

442 نفس المصدر السابق. ص 348/349.

443 نفس المصدر السابق. ص 349.

واحدة أو صهر قبائل شعب واحد في بوتقة واحدة ، مسألة تاريخية معقدة لا يمكن أن تتحقق بالألماني أو القرارات أو خلال فترة قصيرة . إنها عملية تاريخية طويلة تتحكم فيها ظروف ذاتية وموضوعية عديدة وهناك أمثلة كثيرة ومتباينة لعمليات الوحدة التي جرت في التاريخ ، لا يمكن استنساخها . القبائل العربية العديدة والمتنازعة ، وحدها القرآن الكريم ، القبائل التركية التي نزحت بسبب الجفاف إلى الأناضول وحدتها حروبها من أجل ضمان المراعي ضد البيزنطيين ، القبائل الجرمانية وحدتها حملات الإبادة التي كانت تقوم بها جيوش الإمبراطورية الرومانية من جهة ، وتسلبها البطيء إلى داخل هذه الإمبراطورية من جهة أخرى . إن عمليات الوحدة هذه كانت ترتكز عادة على المبادئ التالية:

1- تشكيل مجلس يضم ممثلي كافة القبائل ، يعتمد في انتخاب القائد العسكري العام على نظام الديمقراطية العسكرية ، حيث يجري انتخاب أقوى محارب بغض النظر عن عشيرته أو مرتبته الاجتماعية .

2- العشيرة القوية ، عدديا وماديا ، والتي تتمكن من حماية القبائل الضعيفة ، تكون هي النواة لقيادة القبائل الأخرى ، ويحق لرئيسها أن يكون أميراً أو ملكاً على الكل . وبذلك تنسحب لهجة ومعتقد وأسلوب إدارة هذه القبيلة على القبائل الأخرى .

3- التشكل الطبيعي للدولة يؤدي إلى نشوء الأمة .

وهناك شكل آخر تفرزه القوة المباشرة ، كما جرى بالنسبة إلى الوحدة الألمانية التي قام بها بسمارك في مرحلة الانتقال من العلاقات الإقطاعية إلى الرأسمالية . إن عمليات الوحدة هذه وغيرها كثيرة ، جرت في ظروف تاريخية معينة ، وهي كما قلنا غير قابلة للتكرار . وإذا نظرنا من هذه الزاوية إلى فكرة الوحدة العربية وأسباب عدم تحققها ، سواء بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية أم في الفترات اللاحقة ، يمكننا صياغة الملاحظات التالية:

1 - هيمنة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للإمبراطورية العثمانية على الشعوب العربية ، التي اتسمت بأشد أشكال التخلف والاستغلال الإقطاعي الحكومي والخاص واستمرت هذه الحالة أكثر من أربعة قرون . وكان هذا يعني بدوره غياب الطبقة الاجتماعية ، البرجوازية المحلية ، التي يهتما تطوير الاقتصاد الوطني وقيام الوحدة العربية والسوق العربية المشتركة .

2 - تبني الدولة العثمانية للدين الإسلامي وإعلانها الخلافة الإسلامية ، قطعاً الطريق أمام أي حركة أخرى ، سواء أكانت علمانية أم دينية ، للتصدي للمحتلين الأتراك .

3 - ركود الوعي الاجتماعي والسياسي ، الذي سبق سقوط بغداد على أيدي هولوكو ، واستمر خلال قرون الهيمنة العثمانية ، وذوبانه في بوتقة الدين .

4 - التباعد الجغرافي والإداري والاجتماعي والاقتصادي والثقافي للولايات العربية المنغلقة على نفسها وارتباطها بصورة عمودية بالأستانة . مجتمعات عربية- إقليمية لا رابط بينها ، سوى الركود العام الموحد .

5 - عدم وجود نواة عربية واعية على شكل دولة عربية مستقلة قوية خارج حدود الإمبراطورية العثمانية ، بحيث تتحول إلى دولة مرشحة لجمع صفوف الشعوب العربية وقيادتها بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية .

6 - أبدى المستعمرون في كل من بريطانيا وفرنسا اهتماماً كبيراً بمصالحهم الإمبريالية على حساب مصالح وتطور شعوب المنطقة ، ولذلك اعتمدوا عملياً الشعار الروماني القديم

"فرق تسد" . فوجود دولة أو اتحاد عربي مترامي الأطراف لم يكن بأي حال من الأحوال في صالح المستعمرين .

وفي معرض معالجته التفصيلية والجادة لقضية الاتحاد العربي ، لم ينس فهد ضرورة إقامة العلاقات مع الاتحاد السوفييتي . وإذ كان هذا المطلب بديهية لا بد منها في سياسة الكومنترن ، فأنها كانت من الناحية السياسية عملية وضرورية أيضاً لتأمين التوازن والقدرة على المساومة في العلاقات الدولية .

وفي الختام يمكننا القول بأن فهد كان قد أولى منذ فترة مبكرة اهتماماً خاصاً بموضوع الكفاح المشترك للعرب ضد الاستعمار ومن أجل التحرر والوحدة القومية . وبرزت في محاولاته إقامة الاتصال بقوى حركة التحرر والجماعات الماركسية في كل من سوريا ولبنان وفلسطين ومصر للتشاور حول القضايا المشتركة وتوحيد المواقف بشأنها . كما تميزت معالجات فهد للمسألة القومية والوحدة العربية بعدة سمات جوهرية ، وهي:

- التزامه الثابت بقضية الأمة العربية ووحدتها ومصالحها المشتركة ونضالها ضد الدول الإمبريالية؛

- وعيه بالمشاكل التي تجابه مثل هذه الوحدة ، بسبب التباين في طبيعة المصالح الضيقة للقائمين على الحكم في تلك البلدان في ظل الهيمنة المباشرة أو غير المباشرة على تلك البلدان وعلى سياسات الحكومات فيها من جهة ، وبسبب التباين في مستويات التطور الاقتصادي والاجتماعي والوعي السياسي ومستوى تطور حركة التحرر الوطني والنضال في سبيل الديمقراطية فيها من جهة ثانية؛

-التزامه بحق الأقليات القومية بالتمتع بالحقوق الإدارية والثقافية في إطار الدول العربية وسعي شعوبها صوب الوحدة ، مستنداً في ذلك إلى قناعته بالمبدأ اللينيني القائل بحق الشعوب في تقرير مصيرها ، رغم أنه لم يطرح هذه القضية بهذه الصراحة والوضوح ، بسبب أن قضايا القوميات والأقليات القومية الأخرى لم تكن في الدول العربية الأخرى ملتهبة كما كانت عليه في العراق نسبياً بالنسبة للقضية الكردية التي عالجها بصواب ووضوح؛

- إصراره الصادق على أن الوحدة العربية يفترض أن تتم على أساس من الديمقراطية ومصالح الشعب العربي لا على أساس مصالح الحكومات العربية .

ولكن هذا الموقف المبدئي العام من قضية الوحدة العربية قد اقترن بسياسات ملموسة دعا لها فهد في كتاباته وفي الميثاق الوطني للحزب وفي نضاله ونضال الحزب الدؤوبين في إطار حركة التحرر الوطني العربية وفي النطاق العراقي . إذ أنه أكد:

- تفضيله للاتحاد العربي على الوحدة العربية ، باعتبارها المهمة التي يمكن تحقيقها في تلك الظروف؛

- تركيزه على وحدة نضال الشيوعيين وقيادتهم لهذا النضال الموجه ضد الإمبريالية العالمية؛  
- تشخيصه بأن المهمة المباشرة التي تواجه الشيوعيين في البلدان العربية تتلخص في حشد القوى للنضال الموحد ضد الإمبريالية .

وكان هذا الطرح الأممي يستجيب لمسألتين كانت تهتم الحركة الشيوعية العالمية ، والاتحاد السوفييتي على نحو خاص حينذاك ، هما النضال ضد العدو الذي كان يشن نضالاً واسعاً وشديداً ضد الاتحاد السوفييتي من جهة ، وضد المؤامرات الإمبريالية التي انتهت إلى تقسيم الدول العربية فعلياً إلى دول وحكومات منفصلة عن بعضها ومتصارعة في ما بينها من جهة أخرى . ولكن جانب الموضوعية والواقعية فهد ، عندما دعا الشيوعيين إلى قيادة هذا النضال

، بدلا من تأكيد أهمية المشاركة في هذا النضال . فالواقع الملموس حينذاك كان يشير إلى ضعف القوى الشيوعية ، التي كانت ما تزال في بداية نشونها وذات إمكانيات محدودة . وبدوا أن فهداً كان يستهدف من وراء ذلك طرح تنشيط الشيوعيين وتعزيز الثقة بأنفسهم وقدراتهم ودفعهم للنضال والتفاني فيه . وفي إطار الحركة السياسية العراقية تبلورت حينذاك ثلاث قوى طرحت شعارين مختلفين هي:

أولاً: القوى الحاكمة التي تبنت شعار الوحدة العربية ، ولكنها كانت تعمل مع المستعمرين ضدها ، إذ كانت تخشى هذه الوحدة على مصالحها ووجودها في السلطة ، كما كانت مقتنعة بعدم قدرتها على تحقيق هذا الشعار .

ثانياً: القوى القومية التي رفعت شعار الوحدة العربية الفورية وإقامة دولة عربية كبرى في محاولة منها لمواجهة القوى الاستعمارية التي كانت تعمل ضد الوحدة العربية ، رغم تأييدها الشكلي لها ، ولكنها في الوقت نفسه وقعت تحت تأثير القوى النازية حينذاك وشعاراتها الديماغوجية ، أو حتى بعد انهيار دول المحور وسقوطها الفعلي في الحرب العالمية الثانية ، إذ كتب فهد في هذا الصدد يقول: "لقد بنى القوميون وحدتهم العربية على أسس "علمية" روزنبرغية ، أي على العقيدة وعلى العنصرية" 444 . ولكن كثرة من القوميين المعتدلين كانت تناضل فعلاً في سبيل إقامة الوحدة العربية ، ولكنها كانت متخلفة في أساليب وأدوات نضالها وعجزت عن تحقيق هذا الهدف .

ثالثاً: الحزب الشيوعي العراقي الذي تبنى شعار الاتحاد العربي ، الذي أقر ابتداءً في اللقاء الذي عقدته الأحزاب الشيوعية العربية في خريف 1935 ودرست هذه القضية من جميع وجوهها فتبين للمجتمعين أن شعار الوحدة العربية غير عملي لما بين الأقطار العربية من فروق في التطور وشكل الحكم والظروف الداخلية خاصة ... كما أن ملوك العرب وأمراءهم الحاليين ليسوا مستعدين للتنازل عن ملكهم لواحد منهم وإدماج أقطارهم في دولة واحدة كبيرة ، لذا ارتأى مندوبو المؤتمر الشيوعي العربي عدم الأخذ بشعار الوحدة العربية واستبداله بشعار عملي ممكن التطبيق ومناسب للظروف التي كانت تجتازها آنذاك البلاد العربية (1935) وهذا الشعار هو الاتحاد العربي" 445 .

وجميع هذه المشاريع لم تطرح يوماً ما على الشعوب العربية لتبدي وجهة نظرها فيها أو تبين مدى تأييدها لها ، إذ أنها لم تكن سوى اجتهادات لمختلف القوى السياسية في العالم العربي . ورغم مرور ما يقرب من سبعة عقود على تلك الاجتهادات السياسية بشأن قضية الوحدة والاتحاد ، لم تتحقق أي منها ، وهي اليوم أبعد بكثير مما كانت عليه قبل سبعين عاماً ، إذ ما تزال مستلزمات مثل هذا الاتحاد أو الوحدة غائبة عن الساحة السياسية العربية ، وخاصة استقلالية الموقف العربي الحكومي والديمقراطية وحقوق الإنسان وضعف دور الشعوب العربية وقواها الديمقراطية في التأثير على أحداث العالم العربي ، إضافة إلى التدخل الاستعماري المتواصل في شؤون الدول العربية والتحكم في سياساتها الاقتصادية والاجتماعية ومواقفها الدولية ، وبشكل خاص من جانب الولايات المتحدة الأمريكية ، وكذلك عدم وضوح الرؤية في أهمية الفصل الفعلي بين الدين والدولة .

444 يوسف سلمان يوسف (فهد) كتابات فهد. الوحدة العربية والاتحاد العربي. مصدر سابق. ص 334.

445 نفس المصدر السابق. الشيوعيون والاتحاد العربي. ص 337.

وفي ما عدا ذلك فإن حكومات الدول العربية غير مستعدة حتى الآن إلى معالجة قضايا القوميات والأقليات القومية الأخرى فيها بروح ديمقراطية وإنسانية عادلة تستند إلى مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها .

## الفصل التاسع : فهد والسياسة الاقتصادية للحزب

أكد لينين في كتاباته حول النظرية الماركسية أن ما سمي بالنظرية الماركسية ليست من نتاج ماركس وإنجلز وحدهما أو المرحلة التي مرَّ بها ، بل هي من نتاج المعرفة البشرية التي تراكمت حتى ذلك الحين في العالم ، ولكن بشكل خاص في أوروبا المتقدمة ، وأن فهم الماركسية واستيعاب القوانين التي اكتشفتها والنهج الذي طرحتة للتحليل والاستنتاج (التجريد والتجسيد والتدقيق) ، يفترض العودة إلى الأصول التي استندت إليها وطورتها وأغنتها ووضعت بعضها على قدميها بعد أن كانت تقف على رأسها ، كما فعل ماركس مع فلسفة هيغل المثالية ونهجه الديالكتيكي . استند كارل ماركس ، وبالتعاون الوثيق مع إنجلز وعبر نقاشات كثيرة وممتعة مع عدد كبير من معاصريه ، في بناء وتطوير المنهج المادي الديالكتيكي والمادي التاريخي وفي وضع أسس نظريته العلمية والمشاركة الرئيسية في اكتشاف القوانين الاقتصادية الموضوعية وقوانين التطور الاجتماعي على المصادر الثلاثة التي ساهمت في تطور الفكر والمعارف العلمية في أوروبا حتى ذلك الحين ، على: الاقتصاد الكلاسيكي الإنكليزي ، والفلسفة الكلاسيكية الألمانية ، والاشتراكية الفرنسية المستندة إلى الحركة الثورية والعمالية الفرنسية<sup>446</sup> . كما استفاد من بقية ما توصل إليه عصره من علوم ، ومنها التنقيبات والأبحاث الأثرية (الأرخولوجية) والعلوم الصرفة . وكان لا بد لكل ماركسي يريد أن يستوعب المنهج المادي الديالكتيكي والتاريخي وسبل استخدامه في التحليل العلمي وفي فهم النظرية الماركسية والقوانين الموضوعية التي اكتشفتها ، أن يطلع على تلك المصادر الأساسية ويدرسها بعناية . وكان هذا ديدن الناشطين في الحقول النظرية والعاملين في الأحزاب السياسية العمالية حينذاك ، إذ بدون تلك الخلفية النظرية التاريخية والمعارف الضرورية كان يصعب على هؤلاء العلماء والساسة أن يشاركوا في الحوارات القيمة التي كانت تدور في زمانهم وفي إقناع مؤيديهم أو في قيادة أحزابهم أو حتى في المشاركة الفعالة في التأثير على مجرى النضال الثوري لشعوبهم . إلا أن هذه الواجهة في النشاط الفكري والسياسي والتنقيفي العام فقدت الكثير من زخمها تدريجاً في الفترة التي أعقبت ثورة أكتوبر الاشتراكية ، وبشكل خاص بعد وصول ستالين إلى قيادة الحزب والدولة وتسلم زمام السلطة كاملة غير منقوصة وقيادته المباشرة وبيد حديدية واحدة للسلطات الثلاث (التشريعية والتنفيذية والقضائية) ، إضافة إلى هيمنته الفعلية على الإعلام ، باعتباره السلطة الرابعة ، ومنها الصحافة والنشر والراديو . وتفاقت هذه الإشكالية

446 لينين. المختارات في 10 مجلدات. المجلد 5. كارل ماركس. دار التقدم. موسكو. 1976. ص 232.

حين جرى اختصار التثقيف وحصره بكتابات ماركس ، إنجلز ، لينين وستالين بالنسبة لشيوعيي العالم بأسره . وبرزت هذه الظاهرة بشكل أشد في الأحزاب الشيوعية في البلدان المستعمرة والتابعة أو المستقلة حديثاً ، بسبب تدني المستوى الثقافي والوعي السياسي والاجتماعي فيها بشكل عام . ورغم القيام بطبع ونشر كتب هؤلاء الأربعة في الدول الأوروبية ، إلا أن المعروف والمتداول منها بين الناس بالنسبة إلى كارل ماركس وإنجلز كان محدوداً ، في حين امتلأت المكتبات الأوروبية التقدمية بكتابات لينين وستالين والبعض من كتب ماركس وإنجلز ، إضافة إلى كتابات بعض القادة الشيوعيين في تلك الفترة .

كان فهد من أبناء الجيل الذي فتح عينيه في العمل السياسي على فترة ستالين في قيادة الحزب والدولة السوفييتية والحركة الشيوعية العالمية . وكانت كتابات ستالين ، على نحو خاص ، ومجموعة من كتابات لينين ، هي المعروفة على نطاق واسع ، وبشكل خاص في المدرسة الحزبية في موسكو . وكان الأمر أكثر صعوبة في بلدان مثل العراق ، حيث لا تتوفر أصلاً مثل تلك الكتب في الأسواق المحلية ، وإذا ما توفر بعضها ، فنادر جداً ، إضافة إلى أن أثمانها كانت عالية بالنسبة لمدخلات عامة الناس ، أو أنها كانت في الغالب الأعم بلغة أجنبية يصعب على الناس الاستفادة منها . وكان المترجم منها إلى العربية ضئيل إلى حد بعيد .

ويبدو أن فهداً كان من بين من حاول ، وهم قلة ، الاستعانة بما هو متوفر في العراق لتطويع معارفه بالنظرية الماركسية ، رغم كثرة الصعوبات التي كانت تعترض ذلك . وكانت بعض النوافذ مفتوحة جزئياً لدخول رياح الفكر المعاصر إلى العراق ، سواء من خلال مكتبة مكنزي في بغداد أم الكتب المصرية القادمة ، أم من خلال القادمين لزيارة العراق ، أم من خلال الكتب والمجلات التي كانت ترسل من إنكلترا مباشرة وعبر القوى الماركسية فيها ، ومنها الحزب الشيوعي البريطاني والنقابات البريطانية . ووفق ما أشار إليه حسن عباس الكرباسي ، فإن فهداً استطاع مثلاً اقتناء كتاب "رأس المال" من مكتبة مكنزي في بغداد . وعلى هذه المصادر القليلة في الماركسية ، ومنها البيان الشيوعي ، كان على فهد أن يكون نفسه فكراً وسياسياً ويتبنى من خلالها الفكر الشيوعي ، ثم حاول استكمال تكوينه النظري حينذاك بالدراسة الحزبية في موسكو ، التي وفرت له لأول مرة إمكانية الاطلاع الأفضل والأوسع على بعض المصادر الأساسية الكلاسيكية للماركسية ، وكذلك اللينينية ، ولكنها وفرت له في الوقت نفسه وبشكل خاص كتابات ستالين في الموضوعات التي اعتمدها الأهمية الثالثة في التثقيف حينذاك . وكانت جملة من الكتب والدراسات والمصادر الكلاسيكية في الاقتصاد والفلسفة قد وضعت تحت تصرف الدارسين في موسكو بما يساعدهم على تطوير ثقافتهم ووعيهم السياسي . وكان في مقدور الدارسين ، إذا ما توفرت لديهم الإرادة الذاتية والرغبة الفعلية ، أن يوسعوا ويعمقوا من معارفهم النظرية وخبراتهم العملية ، إذ لم تكن هناك قيوداً على هذا الطريق ، سوى مدى



توفرها باللغة المناسبة للدارسين . وكانت هذه الدراسة ، وخاصة الذاتية منها ، عوناً لفهد في نضاله الفكري والسياسي وجهوده التنظيمية اللاحقة لبناء الحزب الماركسي - اللينيني في العراق ورسم إستراتيج وتكتيك الحزب وتكريس وجوده ومساهمته المميزة في الحياة السياسية العراقية على امتداد الفترة موضوع البحث .

كانت المدرسة الحزبية في موسكو تعتمد في تدريس القضايا الاقتصادية وتكوين الفكر الاقتصادي العام للدارسين على المواد التالية:

- مادة مبادئ الاقتصاد السياسي التي وضعت في ضوء النظرة الماركسية للمادة والعلاقة العضوية بين الاقتصاد والسياسة ووحدهما . وكانت تتضمن جملة من المسائل الأساسية في الاقتصاد الكلاسيكي للرأسمالية مستلة من كتاب رأس المال لكارل ماركس أو معبرة عنه بلغة الكتاب الروس . وكان التركيز في هذه المادة يجري على قضايا السلعة والنقود والقيمة وفائض القيمة والأجور والنقود والأسعار والتراكم وعملية إعادة الإنتاج البسيطة والموسعة ومراحل عملية إعادة الإنتاج ، ومراحل تطور أنماط الإنتاج والعلاقة بين القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج والقوانين الاقتصادية الموضوعية الخاصة والعامة الفاعلة في مختلف تلك المراحل ، والدورة الاقتصادية والأزمة العامة للرأسمالية والمراحل التي قطعتها... الخ؛
- مواد من كتاب الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية وتطور الرأسمالية في روسيا ، وهما مؤلفان أساسيان من مؤلفات لينين المهمة والتي اعتبرت تطويراً للفكر الماركسي في مجال التطبيق ، إضافة إلى مراحل تطور الرأسمالية وصولاً بها إلى مرحلة الرأسمالية المالية ، ورأسمالية الدولة الاحتكارية ، الإمبريالية؛
- المصادر الثلاثة للماركسية ، تلك المقالة التي كتبها لينين عن ماركس ونظريته ، وكذلك كتابه حول المادية والنقد التجريبي ، وكراسي أسس اللينينية والمادية الديالكتيكية والتاريخية لستالين؛
- تجربة البناء الاقتصادي في الاتحاد السوفييتي ، وخاصة قضايا الملكية العامة والتأميم والموقف من الملكية الخاصة والتصنيع وحل المسألة الزراعية على أساس التعاونيات والمزارع الحكومية (الكولخوزات والسوفخوزات) وقضايا البنوك والتجارة الداخلية والخارجية والعلاقات الاقتصادية الدولية . قوانين مرحلة الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية وسبل هذا الانتقال . وكانت هذه المواد وغيرها تحاول التعريف بتجربة الحركة العمالية العالمية في نضالها ضد سطوة واستغلال رأس المال بالارتباط مع تطور الأمميات الثلاث؛
- واقع ونتائج الهيمنة الاستعمارية والاستغلال الرأسمالي لشعوب هذه البلدان واستثمار مواردها الأولية والهيمنة على أسواقها وتحقيق أقصى الأرباح فيها على حساب تطورها ،

إضافة إلى بلورة مشكلاتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وسبل النضال للخلاص من تلك الأوضاع .

وكانت المادة الأخيرة تحظى بعناية المدرسة الحزبية ، إذ كانت تستدعي بعض القياديين من أحزاب شيوعية أخرى تعمل في إطار الأممية الثالثة أو كانوا ضيوفاً على الاتحاد السوفييتي لكي يحاضروا عن أوضاع بلدانهم في المدرسة الحزبية ثم كانت تدار مناقشات حولها . كما كانت تجري نقاشات حيوية بين الدارسين والأساتذة وفي ما بين الدارسين أنفسهم ، وهم في الغالب كوادر قيادية من أحزاب شيوعية قائمة أو في طريق التكوين ، حول أوضاع بلدانهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية وتبادل الخبرة . وكانت ذات أهمية كبيرة للدارسين تلك الرؤية اللينينية حول العلاقة العضوية بين أشكال الكفاح التي كانت تدرس في المدرسة الحزبية والتي وجدت تعبيرها بوضوح في مقالة فهد "مستلزمات كفاحنا الوطني" ، إذ كانت تدور حولها نقاشات تهدف إلى الوصول إلى ملموسية الرؤية بهذا الصدد ، خاصة وأنها كانت ترتبط بشكل مباشر بوضع استراتيج وتكتيك هذا الحزب الشيوعي أو ذاك ، أو بتعبير آخر صياغة مهماته الآتية وذات المدى البعيد وربطها بالأساليب التي يراد ممارستها في ضوء الظروف الملموسة لهذا البلد أو ذاك .

ولا شك في أن سمّي الدأب والمثابرة اللتين تميز بهما فهد ساعدته على استيعاب مناسب وجيد للمواد التي درسها وسمحت له بالاستفادة منها في التحليل العلمي والموضوعي لأوضاع العراق الاقتصادية الملموسة . وعندما نشير إلى ذلك لا يعني هذا بأن تلك المقالات والأفكار التي عرضها فهد لم تكن تتضمن بعض التصورات أو القوالب الجامدة المنقولة عن تجربة الاتحاد السوفييتي أو المأخوذة نصاً من كتابات ماركس ولينين لتطبيقها على العراق أو لنقد السلطة التي لا تقوم بذلك ، كما سنأتي على ذكره في حينه . وهو خطأ لم يقع فيه فهد وحده ، بل ارتكبه الغالبية العظمى من قادة الأحزاب الشيوعية في مختلف البلدان ، وبشكل خاص من البلدان المستعمرة والتابعة ، أو حتى بعد ذلك بسنوات طويلة ومن متخصصين بالشؤون الاقتصادية .

إذن استند فهد في تحليلاته الاقتصادية في العقد الخامس من القرن العشرين على المنهج والفكر الماركسي أو النظرية الماركسية وعلى الواقع المعاش في العراق ، ولكنه كان قد تأثر بشكل خاص بكتابات لينين وستالين وبالتجربة السوفييتية ، وهي أمور اعتيادية بالنسبة لمن كان متحمساً للشيوعية وملتزماً بها . وبما أن الخطاب الاقتصادي الذي مارسه الشيوعي البولشفي العراقي فهد بشكل عام كان خطاباً داخلياً ويمس قضايا وطنية محلية ، فإنه قد تميز بالواقعية والموضوعية والملموسية ، إضافة إلى الوضوح والتماسك والبساطة في العرض وفي اللغة المستخدمة القريبة من أذهان عامة الناس . ومع علمنا بأن فهد حتى بعد عودته إلى

العراق احتاج إلى فترة أخرى لبلورة أفكاره وتصوراتهِ الاقتصادية تدريجاً ، إذ لم تكن كلها قبل ذلك بالنضوج الذي برزت عليه في الكونفرنس الحزبي الأول في عام 1944 . ومن المفضل هنا أن نتناول تلك الأفكار كما توصل إليها بالمحصلة النهائية ليسجلها في التقرير السياسي الذي قدمه أمام الكونفرنس الحزبي الأول وكذلك التقرير السياسي الذي قدمه إلى المؤتمر الوطني الأول وفي مقالة "البطالة ، أسبابها وعلاجها" وفي "مستلزمات كفاحنا الوطني" وفي عدد آخر من مقالاته التي نشرت في صحافة الحزب أو في الصحف التقدمية الأخرى حينذاك .

ابتداءً نشارك الآخرين قولهم بأن فهد لم يكن كاتباً نظرياً أو باحثاً علمياً ضليعاً بشؤون الاقتصاد والفلسفة وعلم الاجتماع ، ولكنه كان سياسياً واعياً لها ومستفيداً منها في الممارسة النضالية وفي الدعاية للفكر الماركسي-اللينيني ، كما كان واعياً في فهمه لواقع العراق حينذاك ، كما كان مدركاً لدوره في الحزب الشيوعي العراق وفي الحركة الوطنية العراقية ووثقاً من نفسه . ولا شك في أن مجموعة من العوامل المهمة التي أشرنا إليها لعبت دوراً مهماً في هذا الصدد . وما يهمنا في هذا الفصل تناول الدور الذي لعبه فهد في صياغة مجموعة الاتجاهات الأساسية للسياسة الاقتصادية التي كان يدعو إليها فهد أثناء قيادته للحزب الشيوعي العراقي ، وهي ذات العوامل المهمة التي ساهمت في تكوين وبلورة وعيه الاقتصادي المبكر ، ومن ثم دوره الأساسي والفعال في صياغة الميثاق الوطني ، ومنها القضايا الاقتصادية . فنشاط فهد المبكر في الحياة السياسية والاجتماعية في البصرة وعمله في الميناء وإطلاعه المباشر على حياة العمال ودور الشركات البريطانية وسلطات الاحتلال البريطانية في الهيمنة على الميناء وعمليات الاستيراد والتصدير واستغلال العمال وتدني أوضاعهم المعاشية وظروف سكنهم وحياتهم اليومية من جهة ، ثم انتقاله إلى الناصرية وعمله هناك وإطلاعه على حياة فقراء الفلاحين والمعدمين وأولئك الهاربين من عسف الشيوخ الإقطاعيين من آل السعدون و آل ربيعة ومن غيرهما من العوائل الإقطاعية في المدن والأرياف المجاورة في الكوت والبصرة والديوانية والعمارة والسماوة والحلة وكربلاء وفي المناطق الأخرى من العراق والهائمين على وجوههم في المدن وهم يفتشون عن فرص للعمل والحصول على لقمة خبز لهم ولعائلاتهم النازحة من الريف ، رغم التخلف الكبير الذي كانت عليه تلك المدن واليؤس الشديد الذي كانت تعاني منه ونقص الخدمات وتردي أحوال الناس وغياب الصناعة عنها وتدهور الإنتاج الزراعي في أطرافها وتفاقم البطالة بين سكانها من جهة ثانية ، إضافة إلى عمله في صفوف الحزب الوطني الذي كان يقوده محمد جعفر أبو التمن وما كانت تنشره صحافة القوى الوطنية من معلومات عن الواقع الاقتصادي ، وكذلك تجواله في أنحاء العراق ودأبه على دراسة واقع حياة الناس واقترابه الشديد من حياة الكادحين في المدن والأرياف واحتكاكه بحركة السوق اليومية في بغداد أيضاً ، وإطلاعه على نشاط شركات النفط الوطنية والاتفاقيات

التي عقدتها مع الحكومة العراقية بشروطها المجحفة وغير المتكافئة التي تلحق أضراراً فادحة بالطرف العراقي ، كانت كلها معلومات أساسية ساهمت في التكوين الأولي للوعي الاقتصادي الاجتماعي والسياسي لفهد كما دلته على المهمات المباشرة التي تواجه الشعب والوطن . وكان فهد يطلع بين حين وآخر على كتابات الشيوعيين البريطانيين من قادة الحزب وكوادره الذين أبدوا اهتماماً كبيراً بالواقع الاقتصادي في الهند وأساليب الاستعمار في نهب ثروات هذا البلد الكبير وإفقار شعوبه ، إضافة إلى كتاباتهم عن بقية القارة الآسيوية والأفريقية . ورغم الجهود الخاصة التي بذلها فهد لتنمية ثقافته الاقتصادية الماركسية ، فإنها ، وبسبب الواقع الفكري والثقافي العراقي في تلك الفترة وصعوبة الحصول على الأدبيات الكلاسيكية في مجال الاقتصاد ، سواء كانت حول الفكر الاقتصادي البرجوازي الكلاسيكي أم الفكر الاقتصادي الماركسي ، لم تكن كافية لوحدها على فهم أو استيعاب الجوانب المختلفة من الاقتصاد السياسي أو المشاركة الفعلية في التحليل الاقتصادي ، إذ كان بحاجة ماسة للاطلاع على تطور الفكر الاقتصادي والاجتماعي والفلسفي عند الاقتصاديين البريطانيين والألمان والفرنسيين وغيرهم من الأوربيين . ولذلك يلاحظ المتتبع بأن كتابات فهد الأولى كانت عمومية وتركزت على تقديم صورة أو تقارير (ريپورتاجات) واقعية عن الوضع تشرح حياة الفلاحين والناس في الناصرية وفي غيرها من مناطق العراق التي كان يزورها ويكتب عنها مستهدفاً من وراء ذلك تنوير المواطنين بمسألتين مهمتين ، وهما:

1. تعريف العراقيين بالحالة البائسة والظالمة التي يعيشون تحت وطأتها والعوامل الكامنة وراء ذلك؛

2. سبل الخلاص من هذا الواقع البائس من خلال الانخراط بالعمل السياسي والحزبي والمهني أو النقابي .

بدأ فهد محاولاته بتشخيص واقعي لطبيعة العلاقات الاجتماعية السائدة ومستوى تطور القوى المنتجة في البلاد في ظل علاقات الهيمنة البريطانية حتى بعد رفع الانتداب البريطاني عنه ودخوله عضواً في عصبة الأمم وإبقاء ولاية الموصل ضمن السيادة العراقية التي كان عليها خلاف شديد ومساومات كبيرة . فوضع يده بشكل دقيق على العلاقة الجدلية أو السببية التي تنشأ بين استمرار وجود الهيمنة الاستعمارية ، سواء كانت مباشرة أم غير مباشرة ، ما دامت الهيمنة قائمة ، وبين تكريس علاقات الإنتاج شبه الإقطاعية في الريف القائمة على الاستحواذ الفعلي من قبل شيوخ العشائر والمنتفعين في أجهزة الدولة على مساحات واسعة من الأراضي الأميرية التابعة للدولة من جهة ، وعلاقات التداول الرأسمالية التابعة التي سيطرت عليها الشركات التجارية البريطانية على نحو خاص من جهة أخرى . وبتعبير أكثر وضوحاً: نشوء علاقة عضوية ومصاحبة مباشرة بين البرجوازية الأجنبية ممثلة بالرأسمال المالي الأجنبي ، إذ

كانت أبواب البلاد مشرعة على مصراعيها أمامه ، من جهة ، وبين فنة الشيوخ الإقطاعيين وكبار الملاكين ممثلة بعلاقات الإنتاج شبه الإقطاعية ، من جهة أخرى ، وبين فنة الكومبرادور التجاري المحلي ، ممثلة بعلاقات التبادل السلعي - النقدي التابعة للسوق الرأسمالي الدولي ، من جهة ثالثة . ووجد في النخبة البيروقراطية الحاكمة الجديدة التي نشأت وترعرعت بمساعدته وتحت تأثيره ومراقبته ، والمعبر الطبيعي عن مصالح الهيمنة الأجنبية والفئات المالكة لوسائل الإنتاج الساعية إلى تحقيق أهداف التحالف الاجتماعي والسياسي الحاكم . ولكن هذا لا يعني أن الفنة البيروقراطية الحاكمة لم تكن لها تناقضاتها مع الهيمنة الأجنبية من جهة ، ومع الفئات الحليفة ، أي الإقطاعيين والكومبرادور المحلي من جهة أخرى ، إلا أنها كانت في المحصلة النهائية تستجيب لإرادة الأجنبي والقوى المتحالفة معه وبالضد من مصالح المجتمع والاقتصاد الوطني . وكانت تخشى من الانفجار السياسي ، والذي حدث مرات ومرات فعلاً من أن يطيح بها وبالقوى التي تحمي مصالحها وتدافع عن استمرار وجودها وهيمنتها في العراق . ورغم كل ذلك كانت حصيلة هذا التحالف كارثية على الاقتصاد والمجتمع في العراق شخصها فهد بوضوح ومسؤولية عالية في العديد من كتاباته ، إذ كانت تعني بالنسبة له ما يلي:

- استنزاف القسم الأعظم من الدخل القومي المنتج في البلاد إلى الخارج ولصالح الشركات الاحتكارية الأجنبية من خلال الاتفاقيات غير المتكافئة المعقودة على أسس استعمارية في غير صالح العراق ، ومنها اتفاقية منح امتيازات النفط الخام للاحتكارات العالمية ، أو علاقات التبادل التجاري غير المتكافئ ، والهيمنة المالية على العراق وتبعيته للمنطقة الإسترلينية ، إضافة إلى دورها في الهيمنة على البنوك وشركات التأمين وإعادة التأمين؛
- وكان هذا يعني حرمان الاقتصاد الوطني من الفائض الاقتصادي الذي كان من المفروض توجيهه لأغراض التثمين الإنتاجي وبناء وتطوير قطاعي الصناعة والزراعة ، وكذلك البنى التحتية أو الهياكل الارتكازية للاقتصاد الوطني؛
- كما أن الإقطاعيين وكبار الملاكين ، كانوا يستحذون على القسم الأكبر من الربح المتبقي في داخل العراق ، بعد أخذ وتصدير حصة الرأسمال الأجنبي ، المتحقق في الزراعة وحرمان الفلاحين الكادحين والمنتجين له منه ، وكانوا يستخدمون هذا الجزء من الربح في إشباع حاجاتهم الاستهلاكية وحياتهم البنخية في المدينة ويفرطون بهذا القسم من الفائض الاقتصادي المتبقي في البلاد بدلا من توجيهه لأغراض التثمين الإنتاجي . وكان الفلاح يجبر بسبب عجزه عن توفير لقمة عيشه على الهجرة إلى المدن والهروب من ظلم الإقطاعي ، ولكنه كان يلاحق من قبل الشرطة ، وكأنه قناً لا غير وهو كذلك ، تحت ستار وجود ديون بذمته لصاحب الأرض . وعندما يستطيع البقاء في المدينة يصعب عليه في الغالب الأعم

- الحصول على عمل مناسب ، إذ يجبر على العيش على هامش الحياة الاقتصادية وينخرط في صفوف من يطلق عليهم بالهامشيين أو أشباه البروليتاريا؛
- وكانت هذه الحقيقة تقود بدورها إلى استمرار تخلف الاقتصاد الوطني وإعادة إنتاجه في الاقتصاد والمجتمع العراقي متجسداً في ضعف التوظيفات ومحدودية إقامة مشاريع صناعية وابتعاد عن التفكير في إيجاد حل للمسألة الزراعية أو تحديث للقطاع الزراعي وتغيير في بنيته ، إضافة إلى استمرار الحالة الاجتماعية على تخلفها إلى حدود بعيدة؛ إن هذا لا يعني أن كان هناك جموداً كاملاً في الحياة الاقتصادية ، ولكن التطور كان بطيئاً جداً يصعب تلمسه .
  - كانت هذه الظواهر تدفع بدورها إلى سلسلة أخرى من النتائج وبشكل خاص إلى استمرار اعتماد البلاد على تصدير المواد الأولية ، سواء كانت زراعية أم نفط خام ، من جهة واستيراده المتزايد للسلع الاستهلاكية لإشباع حاجات البلاد المحلية ، وبالتالي إبقاء تبعيته للاقتصاد والسوق الرأسمالي الدولي أو للاحتكارات الرأسمالية الدولية ، وبشكل خاص لبريطانيا . وهذا يعني بتعبير آخر: بقاء العراق يتحرك على محيط بعيد جداً عن المراكز الصناعية المتقدمة ، على هامشها البعيد والتابع لها لا غير؛
  - ونجمت عن ذلك صعوبات كبيرة في خلق فرص عمل جديدة للقوى العاملة العراقية ، التي أدت بدورها إلى تفاقم حجم البطالة في أوساط القوى القادرة على العمل ، وما ارتبط بها وما نشأ عنها من مشكلات جديدة للاقتصاد والمجتمع؛
  - وفي الوقت الذي كانت البطالة سائدة والدخول الشهرية واطنة والأسعار تتحكم بها الشركات الاحتكارية الأجنبية والكومبرادور المحلي وترفع بها كما تشاء دون رقيب ، كانت الدولة تفرض الضرائب المباشرة وغير المباشرة على السكان ، التي كانت لا ترهق كاهل الإقطاعيين وأصحاب رؤوس الأموال وكبار موظفي الدولة ، الذين كانوا يتهربون مما بذمتهم من ضرائب بمختلف السبل ، بل كانت هذه الضرائب ترهق كاهل المواطنين الكادحين وتسحقهم وتخرب بيوتهم وتقصّر في أعمارهم .
  - ربط فهد بوعي عميق بين هذا الواقع وبين مسألتين جديرتين بالاهتمام الكبير ، وهما:
    - \*\* غياب الحريات الديمقراطية والحقوق الأساسية المدنية والسياسية للمواطنين ، ومنها الحريات النقابية والمهنية ، والتجاوز الفظ والمستمر على القانون الأساسي (الدستور) العراقي من جانب الحكومات العراقية المتعاقبة؛
    - \*\* الإخلال بالاستقلال والسيادة الوطنية من جانب الدولة البريطانية من خلال معاهدة 1930 ونشاط الخبراء والمستشارين البريطانيين وشركات النفط البريطانية التي كانت تتجلى في غياب القرار الاقتصادي والسياسي الداخلي والخارجي المستقل للحكومات العراقية

المتعاقبة وفرض إرادة الحكومة والمصالح الإمبريالية البريطانية على العراق وعلى مصالح الشعب الأساسية ، كما كانت تشارك في التجاوز الفظ على الدستور العراقي الذي ساهمت بريطانيا ذاتها في وضعه وإقراره .

أن هذا الفهم الموضوعي الواضح للمسألة عند فهد عبر عن وعيه بطبيعة المرحلة التي كان يمر بها العراق والتي سميت في حينها بمرحلة التحرر الوطني التي كانت من بين أبرز أهدافها ضمان التمتع بالحريات الديمقراطية والحقوق الأساسية للأفراد والمجتمع .

ولكن ، كيف وردت هذه الأفكار عند فهد؟ طرح فهد هذه الأفكار في مطالعات ومقالات مختلفة كتبها خلال الفترة الواقعة بين 1941-1945 ، وخاصة في تقريره عن حالة العراق في الكونغرس الحزبي الأول ، وفي "البطالة وأسبابها وعلاجها" ، وفي مستلزمات كفاحنا الوطني .

اتخذ فهد من موضوع البطالة مدخلاً لمعالجة الوضع الاقتصادي في البلاد باعتبارها حالة عامة سائدة يحسها كل مواطن عراقي وتعاني منها جمهرة واسعة من سكان العراق قدر تعدادها في نهاية الحرب العالمية الثانية بحوالي 750000 عاطل عن العمل ، ثم انتقل منها إلى العوامل الكامنة وراء ذلك أو التي تسببت في تفاقم البطالة . وابتداءً يؤكد فهد أن " . . البطالة كظاهرة اجتماعية غير منفصلة عن النظام الاقتصادي (والسياسي طبعاً) القائم لا يمكن أن تعالج بدون معالجة العوامل المحركة لاقتصادنا ومؤثراتها"<sup>447</sup> . ثم يشير بوضوح في مواقع مختلفة إلى:

- 1- جاءت البطالة مع الرأسمالية إلى العراق في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى وكذلك في الفترة التي أعقبتها ، فالرأسمالية كانت وما تزال المسؤولة مباشرة عن هذه البطالة؛
- 2- لا يمكن البحث عن أسباب البطالة في العراق دون القيام بتحليل واقع وطبيعة القوى المحركة للاقتصاد ، والتي هي جزء لا يتجزأ من الاقتصاد الاحتكاري العالمي الذي له قوانينه الموضوعية وتناقضاته؛

- 3- إن التناقضات القائمة تعرقل تطور القوى المنتجة بشكل عام ولا سيما في البلدان الكولونيالية أو شبه الكولونيالية؛

- 4- لا يمكن حل البطالة في العراق عبر تشكيل لجنة يتكون أعضاؤها من الإنكليز ، إذ أنها سوف تتحرى عن أسباب البطالة في مواقع وعوامل أخرى ، وتترك العوامل الحقيقية جانباً ، لأنها تمس الإنكليز مباشرة . يفترض ممارسة سبل أخرى لمعالجتها .

وبعد مناقشة مجموعة من الآراء المطروحة بخصوص البطالة ، سواء من قبل الدوائر الحكومية أو القوى الديمقراطية الوطنية ، يؤكد فهد وجهة النظر التالية: "يبحثون عن عوامل البطالة ، فيرتفع بعضهم إلى المريخ ويهبط البعض إلى أعماق الأرض ، ويهيم آخرون في

447 فهد. كتابات فهد. البطالة. مصدر سابق. ص 186.

الفلوات على غير هدى ، فكأنهم جميعاً قد اتفقوا على أن لا يروا العلة الرئيسية للبطالة المنتصبة أمام أعينهم في المؤسسات الأجنبية المسيطرة على حياة القطر الاقتصادية وغير الاقتصادية . إن العراق مشهور اليوم في العالم بنفطه ، لا بشعيره أو بتمره وحسب ، ولو استثمرت ثرواته النفطية بأمانة ولصالح النفع الوطني لوظفت صناعة النفط هذه جميع الأيدي العاطلة في المدن والأرياف ، ولجذبت جماهير غفيرة جديدة من حياة السذاجة ، حياة الريف ، إلى حياة الصناعة . ولكن نفط العراق محتكر من قبل مجموعة شركات (دتردك) النفطية ، وهذه يههما قبل كل شئ تطبيق سياستها النفطية التي ترمي إلى الاحتفاظ بالنفط العراقي كاحتياطي لاستثمار النفط الذي في إيران وغيرها ، فنشطت شركاتها في استثمار نفط إيران- لكي تعمل على امتصاص أكبر كمية منه بأقرب وقت خوفاً ضياع تلك الامتيازات- بينما حافظ استثمارها لنفطنا على مستواه القليل وفي منطقة محدودة ، وقضت سياستها الاستعمارية النفطية أن لا تكون عندنا صناعة نفطية بمعناها الحقيقي ، بل اكتفت بأن تستثمر النفط الموجود على مقربة من سطح الأرض - الذي لا يحتاج إلى تكاليف حفر كبيرة - وضخه في أنابيب إلى خارج القطر حيث تجري عمليات تصفيته ، وحيث تبدئ صناعة المواد المشتقة من النفط . . .

إن الاحتكار الأجنبي لنفطنا قضى بأن لا تنشأ صناعة نفطية حقيقية عندنا ، وأن تبقى رواسب النفط الهائلة مطمورة ومختومة بختم الاحتكارات ، وذلك لكي يفسح المجال لاستثمار نفط إيران بمقياس واسع - إذ أن نفط العراق يعتبر ملكاً أبدياً لهم- ، ولكي لا تنمو الطبقة العاملة العراقية-كيميا وكيفياً- ، لكي لا تنمو الثروة العراقية (الوطنية) ، ولكي لا ينمو الوعي الطبقي والوطني ويصبح مهدداً لمصالح الاستعمار ، ولو كان نفطنا بأيدٍ وطنية أمينة أو بأيدٍ وطنية-أجنبية مشتركة- على أساس العدل والتساوي- لما عرف العراق أزمة البطالة القائمة اليوم ، ولتغير وجه العراق الاقتصادي والاجتماعي . . . "448 . وتجدر بنا الإشارة إلى أن البطالة في ظل العلاقات الإنتاجية شبه الإقطاعية كانت موجودة ، ولكنها كانت في الغالب الأعم مقنعة ، بفعل طبيعة العمل العائلي في الريف . إذ كان العراق يعاني من شتى أشكال التسكع في الشوارع واللهات وراء لقمة العيش لا بعد دخول الاستعمار البريطاني للعراق فحسب ، بل وبعد دخول القوات الأجنبية واحتلالها للعراق بحدوده التقريبية الراهنة .

ويشير فهد إلى سبب مهم آخر للبطالة حيث كتب يقول: إن من أهم أسباب البطالة عندنا اليوم ، عدم تطور الصناعة الوطنية ، وهذا ناتج عن السياسة الاستعمارية التي تسير عليها هذه الإدارات لمنع تصنيع القطر "449 ، ويرى في ذلك مجموعة من العوامل منها على سبيل المثال لا الحصر: التصدي لنمو الطبقة العاملة وتنامي دورها في الحياة الاقتصادية والسياسية ،

448 فهد. كتابات فهد. البطالة. مصدر سابق. ص 193/194.

449 نفس المصدر السابق. ص 201.



إضافة إلى الحد من نمو البرجوازية الصناعية التي تصطدم مصالحها بمصالح الإمبرياليين ، وتأثيرها المباشر على التبادل التجاري وتقليص استيرادات العراق الذي يخشى منه المستعمرون كثيراً ، إضافة إلى احتمال حرمانهم من المواد الأولية وخاصة الزراعية التي يمكن أن تستثمر محلياً في الصناعة . ومن هنا كانت تنطلق دعوته ، والحزب معه ، للعمال وأصحاب المشاريع الصناعية الوطنية إلى النضال المشترك حيث كتب يقول: "فعلى العمال وأصحاب المشاريع الصناعية الوطنية ، وعلى المتمولين الذين جمدت رساميلهم ، وحيل بينهم وبين توظيف هذه الرساميل في الصناعة ، أن يناضلوا مشتركاً لإزاحة الحواجز التي وضعها التدخل الاستعماري للحجر على صناعتنا ومنعها عن التطور" 450 .

ونتيجة تحليلاته لمشكلة البطالة في تلك الفترة ، يتوصل فهد إلى القول:

"أوردنا فيما تقدم العاملين الرئيسيين لتأخر الصناعة الوطنية ونشوء البطالة وهما: -

• ارتباط العراق بالاقتصاد الاحتكاري الاستعماري العالمي كجزء تابع له ، والسيطرة الاقتصادية والسياسية (الإدارية) على مرافق حياة القطر الاقتصادية المتمثلة بالشركات الاحتكارية الاستعمارية ، وبالإدارات الأجنبية على المشاريع الاقتصادية الهامة . وبسيطرة الأجانب باسم "الفن والاختصاص" و "بحق الاستشارة" على المؤسسات الحكومية ذات العلاقة بالصناعة .

• النظام شبه الإقطاعي الفاسد السائد في الريف ونتائجه الوبيلة على الاقتصاد الوطني وإفقاره الفلاحين الذين يولفون الأكثرية الساحقة من الشعب العراقي وحرمان السوق الداخلية (الصناعية خصوصاً) منهم كبائعين ومشتريين أو بالأحرى حرمان الصناعة الوطنية من السوق الداخلية التي لا يمكن أن تنمو وتزدهر صناعتنا دون الاستناد إليها باعتبارها (السوق الداخلية) الأساس الثابت لصناعتنا الوطنية ولإقتصادنا الوطني بصورة عامة" 451 . (اللون الداكن من الكاتبين) .

إن القراءة الواقعية لأفكار فهد ، وهي تحمل رؤية ماركسية متماسكة ومؤسسة ، توشر إدراك فهد بأن الاحتكارات الرأسمالية البريطانية تريد ربط الاقتصاد العراقي بعملية إعادة الإنتاج في الاقتصاد البريطاني من ناحيتين وبصورة هامشية تابعة ، وهما:

أ . حصول الاقتصاد البريطاني على المواد الأولية العراقية ، وخاصة النفط الخام والمحاصيل الزراعية الصناعية ، التي تدخل مباشرة في عملية الإنتاج الصناعي . وهي تساهم كما هو معروف بتحقيق التوسع في الإنتاج الصناعي البريطاني وزيادة عدد المشتغلين والقيمة المضافة المنتجة وزيادة الأجور المدفوعة والسيولة النقدية في الأسواق المحلية ، إضافة إلى

450 نفس المصدر السابق. ص 201.

451 نفس المصدر السابق. البطالة. ص 207 .

إغناء الثروة الاجتماعية البريطانية وصافي الدخل القومي المتحقق لها . إنها عملية تطوير مستمر لعملية إعادة الإنتاج الموسعة في الاقتصاد البريطاني؛  
ب . وفي الوقت نفسه تقوم بتصدير السلع المصنعة المختلفة من مرحلتي الإنتاج والتداول في الاقتصاد البريطاني إلى مرحلتي التداول والاستهلاك في الاقتصاد العراقي . وكان استيراد العراق للسلع ، التي تدخل في عمليات إنتاجية إضافية أو لتطوير الإنتاج الصناعي أو تحديث الزراعة ، نادراً .

وينشأ عن هاتين الظاهرتين بالنسبة للاقتصاد العراقي عواقب سيئة ، وهي: استنزاف إيرادات العراق المالية من صادرات النفط الخام عبر إعادة تصديرها إلى الاقتصاد البريطاني لاستيراد السلع المصنعة الموجهة لأغراض الاستهلاك؛ عدم مساهمة تلك الموارد المالية بتنمية الاقتصاد العراقي بالشكل المناسب ، وبالتالي عجزها عن خلق فرص عمل جديدة للعمال العاطلين عن العمل؛ قلة الأجور التي يمكن دفعها للعمال وضعف السيولة النقدية المتوفرة في البلد . ويعني كل ذلك حصول تطور بطيء جداً للاقتصاد العراقي لا ينسجم مع الموارد الأولية التي يمتلكها ولا مع الحاجة إلى المشاريع الاقتصادية المختلفة . وكان تصدير المواد الأولية دون تصنيعها يعيق نمو سلسلة من الصناعات الجديدة والمشاريع الاقتصادية التي ترتبط عضوياً بتلك المشاريع الصناعية ، بما فيها مشاريع البنية التحتية والخدمية الضرورية . ويبقى الاقتصاد الوطني في مثل هذه الحالة يعيد إنتاج التخلف والتبعية الاقتصادية للاقتصاد الرأسمالي البريطاني أولاً ، والرأسمالي العالمي ثانياً . ويمكن للتخطيط التالي أن يوضح العلاقة والعملية التي أشرنا إليها بين الاقتصاد البريطاني والاقتصاد العراقي في ضوء الواقع الذي كان يتحدث عنه فهد في حينها:

ولكن ، ما هي الحلول التي اقترحها فهد لمعالجة الوضع الاقتصادي في البلاد ، ومنها مكافحة البطالة؟ وضع فهد وبشكل مكثف جملة من الآراء الصائبة في خطها العام لمعالجة الوضع الاقتصادي في العراق والتي يفترض أن تؤخذ وفق الظروف التي كان يمر بها العراق حينذاك . طرح فهد مشروع الحزب التالي ، الذي لا نجده بالضرورة في مكان واحد ، كما لم ينعكس بشكله الكامل في الميثاق الوطني الذي اقره كونفرانس الحزب الأول في عام 1944:

1. العمل من أجل الخلاص من السيطرة الأجنبية شبه الاستعمارية على البلاد لضمان ممارسة الحكومات العراقية المتعاقبة لسياسة اقتصادية وطنية تعبر عن مصالح المجتمع والاقتصاد الوطني452؛

2. رفض منح امتيازات اقتصادية جديدة للشركات الأجنبية وإلغاء أو المشاركة في ما هو قائم منها وفرض الرقابة على ما هو موجود منها 453. وكان فهد في هذا المطلب واقعياً وعملياً ، إذ كان يدرك صعوبة تحقيق عملية تأميم شركات النفط الاحتكارية حينذاك ، كما كان يدرك صعوبة إدارة تلك المؤسسات الاقتصادية في واقع العراق الفعلي ، وبالتالي ، كان يطالب بالتوقف عن منح الجديد ، وإلغاء ما يمكن إلغاؤه من مجالات عمل تلك الاحتكارات مع المطالبة بتغيير حصة العراق البانسة من خلال زيادة نسبة الضرائب المفروضة على نشاط تلك الشركات ، وخاصة النفطية منها . كما أيد فهد فكرة الرأسمال المختلط في إدارة شؤون النفط حين كتب يقول: " . . . ، لو كان نفطنا بأيدي وطنية أمينة أو بأيدي وطنية - أجنبية مشتركة - على أساس العدل والتساوي- لما عرف العراق أزمة البطالة القائمة اليوم ، ولتغير وجه العراق الاقتصادي والاجتماعي ، . . ." 454. واستفاد فهد في هذا الموقف من النهج الذي حاول لينين ممارسته في الاتحاد السوفييتي ابتداءً من عام 1921 في مشروعه المعروف ب "السياسة الاقتصادية الجديدة" (النيب) الذي طرحه في عام 1921 في محاولة منه للتخلص من الأخطاء التي رافقت عمليات التأميم الواسعة وصعوبة الحصول على التوظيفات الرأسمالية الضرورية ودعوته الرأسمال الأجنبي للتوظيف المشترك في الاتحاد السوفييتي 455. ولكن هذه السياسة ، التي أقرت من حيث المبدأ بالأخطاء التي تم ارتكابها خلال السنوات الأربعة التي أعقبت الثورة ، وتحقيق الانتصار ضد حرب التدخل في شؤون الاتحاد السوفييتي الداخلية ، لفظها ستالين فيما بعد ولم تنفذ ، كما لم تستجب الشركات الرأسمالية الاحتكارية الأجنبية من جانبها لتلك الدعوات ، إذ كانت تريد تطويق وخنق الاقتصاد السوفييتي الجديد وهو في مهده؛
3. العمل من أجل إقامة المزيد من المشاريع الصناعية ، والوقوف بوجه إغراق الأسواق المحلية بالسلع المصنعة المستوردة 456؛
4. "النضال ضد نهب أراضي الفلاحين والملاكين الصغار والمحافظة على ملكيات التعابة ، وإيقاف نهب الأراضي والمقاطعات الأميرية من قبل المتنفذين وإيقاف إعطاء اللزمات الكبيرة -المقاطعات- إلى الشيوخ المتنفذين ، وتوزيع هذه الأراضي بقطع صغيرة على الفلاحين مباشرة بدون بدل ... " 457؛

453 نفس المصدر السابق. ص 228.

454 نفس المصدر السابق. البطالة. ص 194.

455 تاريخ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي. دار ديتس. برلين. 1975. ص 381-391. باللغة الألمانية.

456 نفس المصدر السابق. ص 228.

457 نفس المصدر السابق. الميثاق الوطني. ص 134.

5. واتخذ فهد موقفاً مرناً وسليماً من تطوير القطاعات الاقتصادية من حيث الملكية لوسائل الإنتاج . ففي الوقت الذي دعا فيه البرجوازية الوطنية إلى القيام بدورها المطلوب في التوظيف والتنمية الاقتصادية ، وخاصة في مجال التصنيع ، وطالب الحكومة العراقية بضرورة تقديم الدعم المناسب للقطاع الخاص ليوصل وينمي نشاطه الاقتصادي ، دعا الحكومة للقيام بواجبها إزاء عملية البناء الاقتصادي من خلال إقامة مشاريع صناعية واقتصادية أخرى لتساهم في تسريع عملية التنمية . ودعا فهد في ذات الوقت إلى إقامة قطاع اقتصادي مختلط تساهم فيه الدولة مع شركات النفط الاحتكارية العاملة في العراق لضمان الحفاظ على المصالح العراقية . وبالتالي . وإذا كان فهد لا يرى مانعاً من مشاركة الدولة في المشاريع الاقتصادية الأجنبية التي أقيمت في العراق ، فمن الأولى أن لا يمانع في إقامة قطاع مختلط خاص وعام- في الاقتصاد العراقي . إلا أن فهداً ، من حيث المبدأ ، لم يكن مع استمرار وجود القطاع الخاص الأجنبي ، إذ كان يعارضه من حيث المبدأ انطلاقاً من موقف الدولة السوفييتية التي قامت بتأميم المشاريع الاقتصادية بعد ثورة أكتوبر . إلا أن موقفه هذا استند إلى الواقع العراقي وميزان القوى الطبقيّة والسياسية ، إضافة إلى واقع التخلف في العراق وصعوبة إدارة المشاريع الاقتصادية الكبيرة من قبل الفنيين والإداريين العراقيين الذين لم تكن لديهم المعرفة والخبرة الكافية لإدارة مثل هذه المشاريع وإنجاحها في إنجاز عملها وتحقيق النتائج المرجوة للاقتصاد العراقي .
6. وكان فهد مقتنعاً بضرورة تحقيق التعاون الاقتصادي العربي باعتباره الخطوة الصحيحة الأولى على طريق تنمية أشكال ذلك التعاون والتنسيق لصالح الوحدة العربية . فدعا في مشروع الميثاق الوطني الذي أقره الكونغرس الحزبي الأول إلى إقامة "التعاون الاقتصادي بين الأقطار العربية من أجل المحافظة على ثروات بلادنا وتنميتها واستخدامها لرفع مستوى البلاد العربية الصناعي والزراعي ولغرض سعادة ورفاه شعوب البلاد العربية من أجل رفع الحواجز الجمركية ، وتسهيل وسائل النقل والتبادل التجاري ، ضد شركات الاحتكار الأجنبية ومصارفها وضد الهجوم الصهيوني والاقتصادي . "458؛
7. وكان يرى بأن الطريق السليم لتحقيق كل ذلك يفترض أن يمر عبر قوى النضال الرئيسية الأربعة التالية: "النضال النقابي ، والنضال التشريعي ، نضال المنتجين والوسطاء ، ونضال المستهلكين"459؛
8. كما دعا فهد إلى إقامة تعاون اقتصادي مع الاتحاد السوفييتي باعتباره البلد الذي يدعو إلى السلام والصداقة ولا يطمع باستغلال الشعب العراقي ومستعد لتقديم يد العون له .

458 نفس المصدر السابق. ص 136

459 نفس المصدر السابق. مستلزمات كفاحن الوطني. ص 228.

9 . واعتبر فهد أن جذب الجماهير إلى النضال الوطني مسألة حيوية جدا في تقوية الحركة ويقول بهذا الصدد:

"إن جذب هذه الجماهير إلى المعركة الوطنية أمر حيوي للحركة فكل تجاهل لمصالحها الآنية يفقد الحركة التفاف الجماهير حولها وخسرانها لا في النضال الاقتصادي فحسب بل وفي النضال السياسي فالواجب يقضى بدراسة المشاكل الاقتصادية مهما تراءت بسيطة والنضال في سبيلها" 460 . لقد أدرك فهد العلاقة العضوية القائمة بين السياسة والاقتصاد باعتبارهما وجهان لعملة واحدة أو وحدة السياسة والاقتصاد التي يفترض أن تتجلى في السياسات الاقتصادية التي تمارسها الحكومات المتعاقبة في العراق ، وبالتالي كان يربط بوعي ملموس بين التغيير الاقتصادي المنشود في البلاد وبين التحسين المتواصل والضروري لمستوى حياة ومعيشة الغالبية العظمى من الشعب . ومن هنا جاء تأكيد فهد بأن المعيار أو المحك الرئيسي لمعرفة اتجاهات التطور الاقتصادي يكمن في التعرف الملموس على طبيعة وأهمية التغيرات الجارية على حياة ومعيشة الغالبية العظمى من المجتمع . وفي ضوء ذلك طرح جملة من المهمات الحيوية التي تمس مصالح الناس اليومية ، سواء كانوا عمالاً أم فلاحين أم كسبة وحرفيين وطلاباً ومتقنين ، إضافة إلى صياغته لتلك المهمات التي كانت تمس مصالح البرجوازية الوطنية من أجل تعبئتها للنضال وشد هذه الفئات إلى بعضها البعض في مواجهة سياسات الحكومات العراقية المتعاقبة .

واستناداً إلى النظرية اللينينية سعى فهد إلى تفسير طبيعة الاستعمار الحديث فتوصل إلى ما يلي:

"1- أن الاستعمار في قطر واحد لا يمثل مصالح دولة استعمارية واحدة ، بل المصالح الاستعمارية كافة ، وأن تولت أحيانا دولة واحدة رعاية مصالحها ، إضافة إلى مصالح الدول الرأسمالية الأخرى .

2- إن أس الاستعمار الاقتصادي ، لكنه يعتمد على القوة السياسية الغاشمة-عسكريا وإداريا- لاستثمار موارد البلاد المستعمرة وجهود الشعب وسوق أبناء ذلك القطر المستعبد إلى الحروب دفاعا عن مصالحه . ويؤول ذلك إلى تحطيم الصناعة الوطنية وإفقار الشعب وجعله يعتمد في أموره على المستعمر .

3- إن الدول الاستعمارية قد اقتسمت فيما بينها الأسواق ثم المستعمرات ، وكل إعادة تقسيم يجر حتما إلى حرب تدفع ثمنه الشعوب المستعمرة وشعوب العالم ، أنهارا من الدماء .

4- إن الدول المستعمرة منظمة في المتروبول (وطنها الخاص) ومنظمة في مستعمراتها ومجهزة بأحدث وسائل القمع ومحمية بقواعدها الحربية وبجيوشها السريعة الانتقال

وبموظفيها الإداريين الذين يشغلون المراكز الحساسة في القطر وبقوة الدرك والشرطة (المحلية) التي يشرف عادة هؤلاء الإداريون عليها . وبشركاتها الاحتكارية ومصارفها التي تسيطر على الحياة الاقتصادية في القطر" 461 .

عند إجراء مقارنة بين تحليلات فهد لطبيعة الاستعمار وسياساته ومواقفه مع تحليلات القوى والأحزاب السياسية الأخرى ، سيجد الإنسان بأن تشخيصاته للموضوع كانت أكثر دقة وعلمية وموضوعية من أي قوة وطنية أخرى أو حزب سياسي آخر ، بيد أن هذا لا يعفينا من القول بأن بعض التعميمات في هذه النظرة اللينينية إلى طبيعة الاستعمار ذات جانب واحد ، فالنقطة الأولى التي تؤكد بأن الاستعمار في قطر واحد لا يمثل مصالح دولة استعمارية واحدة ، صحيح ولكنه ناقص ، إذ لا يمكن تناسي الصراع الذي كان محتدماً ، وخاصة في النصف الأول من القرن العشرين بين الدول الاستعمارية في سبيل تقسيم مناطق النفوذ الاستعماري في ما بينها ، حيث زجت بشعوبها في حربين عالميتين وتسببت في موت عشرات الملايين من البشر ، دع عنك الخسائر المادية والمالية والحضارية التي تحملتها البشرية كلها . كما أن العراق ذاته كان ومنذ النصف الأول من القرن التاسع عشر أو حتى قبل ذلك مدار صراع بين الدولة البريطانية والدولة الفرنسية والدولة الروسية والدولة الألمانية للحصول على مواقع قوية في العراق من خلال الدولة العثمانية حيث كان العراق جزءاً من تلك الدولة ، أو الصراع الذي دار بين هولندا وبريطانيا من أجل تثبيت الأقدام في الهند عند بداية ظهور العلاقات الرأسمالية . كانت الرأسمالية في نهاية الحرب العالمية الثانية لم تتحول بعد إلى اتحادات عالمية فوق القومية ، كما هي عليه اليوم . ولكن حتى بعد هذا الانتقال وإلى يومنا هذا فهي ما تزال تخوض الصراعات ، رغم التشابك الشديد في الشركات المتعددة الجنسية ، تخوض صراعات من أجل مصالحها المحلية الخاصة . ولا شك في أن الدولة الرأسمالية التي تحولت إلى رأسمالية الدولة الاحتكارية تدريجاً في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين لم يبلغ بأي حال التشابك الذي بقي قائماً حتى يومنا هذا بين مصالح الرأسمال الخاص ومصالح رأس المال الحكومي ، رغم أن الدولة في المرحلة الراهنة ، حيث تسود الليبرالية الجديدة في السياسات الاقتصادية في الدول الرأسمالية عموماً ، تقوم بتصفية مؤسسات وملكية الدولة الاقتصادية لصالح القطاع الخاص . ومن هنا يتطلب القول إلى أن سلطة الدولة بمؤسساتها الاقتصادية والسياسية والإدارية والعسكرية ليست سوى أدوات للدفاع عن المصالح الرأسمالية وتشكيلتها الاجتماعية ، فالوزراء في الحقيقة ليسوا سوى موظفين كبار يتقاضون الرواتب العالية من أجل الحفاظ على التشكيلة الرأسمالية ، وترميمها في الأزمات المحتدمة وبالتالي تطبيعها وفق الظروف القائمة . ومع ذلك فهذا لا ينفي الصراع الذي يدور داخل هذه المؤسسات ولأسباب غير قليلة .

وتجدر الإشارة إلى أن القوى الاستعمارية يمكن أن تلتقي معاً في مواجهة شعب ما عندما تتهدد المصالح الاستعمارية كلها للخطر بغض النظر عن الدولة المستعمرة ، ولكن تنشأ في الوقت نفسه محاولات اقتناص الفرص لحلول دولة استعمارية محل دولة أخرى ، أي أن قانون المزاحمة حتى في حالة التعاون في ما بينها لا يكف عن الفعل والتأثير في هذا المجال .

كانت تحليلات فهد مهمة وحيوية وكان لها تأثير على الساحة السياسية العراقية وعلى العملية التنويرية في صفوف الجماهير الواسعة ، إضافة إلى أنها حركت القوى السياسية لطرح الموضوعات المهمة التي كانت تمس مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية العراقية ، وبالتالي ، كانت تحركهم للنضال الوطني وفي سبيل إنماء الاقتصاد العراقي . فالأوضاع المعقدة التي اقترنت بالنضال ضد الهيمنة الأجنبية والسياسات الاقتصادية للحكومات الرجعية يفترض أن لا تمنعنا من رؤية ما تحقق في تلك الفترة من تطورات اقتصادية أو من وضع اليد على تلك الشعيرات التي طرحت على الحكومة لأغراض التنفيذ ولكنها كانت غير ممكنة أو يستحيل تطبيقها بفعل الواقع العراقي ذاته حينذاك . ويمكن هنا التطرق إلى عدد من المسائل المهمة في هذا الصدد ، منها على سبيل المثال لا الحصر:

• في الوقت الذي كانت العلاقات الرأسمالية في مرحلة التداول ، وخاصة التبادل التجاري ، تنمو بشكل ملموس ولصالح تثبيت مواقع الرأسمال الأجنبي والكومبرادور المحلي ، وفي الوقت الذي بدأت علاقات الإنتاج الرأسمالية تنمو بشكل أسرع في قطاع التنقيب عن النفط واستخراجه وتصديره ، إضافة إلى بعض التوظيفات الأخرى في الزراعة وفي البنية التحتية التي ساهمت بدورها في نمو الطبقة العاملة في مجالات وقطاعات جديدة في مرحلتي الإنتاج والتداول ، كان الرأسمال الوطني وكذا العلاقات الرأسمالية الوطنية في الإنتاج وفي مجالات التداول أيضاً ، ينمو بجوارها ، وأن كان نموه بطيئاً ، وكان يخلق معه تناقضاته إزاء الرأسمال الأجنبي ورأس المال التابع للكومبرادور المحلي ، وكان يطرح بصورة مباشرة الصراعات المحتملة في الساحة السياسية العراقية . إذ لم يكن دون معنى تشكيل جمعية أصحاب الصنائع وصدور قانون حماية الصناعة الوطنية ، وتنامي عدد العمال العراقيين ، ومن ثم صدور قانون العمل في عام 1936 إضافة إلى تحسين وإغناء بعض بنوده في عام 1937 ، وتنامي نضال العمال المطلبي وكذلك نضال البرجوازية الوطنية والصغيرة . وبعد أن ذاق البرجوازيون الصناعيون طعم الأرباح وتيقنوا من إمكانية تحقيقها عبر الصناعة ، تصاعد نضالهم من أجلها ، وكان الحزب الشيوعي العراقي عوناً لهم في المطالبة بالتصنيع ، كما أكد لهم أهمية دورهم في النضال من أجل التصنيع ، إلى جانب نضال العمال والفلاحين .

وفي الوقت الذي كان العراق خال من المشاريع الصناعية المهمة والتقاليد الصناعية وطبقة عاملة صناعية فعلية ، طرح فهد أهمية وضرورة إقامة صناعة ثقيلة في البلاد ، مستنداً في ذلك إلى نموذج ماركس حول عملية ، عادة الإنتاج الموسعة وأهمية التطوير المنسق بين الفرع الأول والفرع الثاني في الصناعة أو صناعة إنتاج وسائل الإنتاج وإنتاج وسائل الاستهلاك والتي يمكن أن يجدا تعبيرهما في صناعات ثقيلة وأخرى خفيفة . وانطلاقاً من الموضوعة الماركسية القائلة بأن القوى المنتجة تلعب دوراً حاسماً في المجتمع واستناداً إلى ما جاء في المؤتمر العالمي السادس للكومنترن بخصوص انعدام الصناعة الثقيلة في البلدان الكولونيالية وشبه الكولونيالية والتأثير السلبي لذلك على نمو الطبقة العاملة الفتية ، التي تشكل نسبة ضئيلة جداً في النفوس ، كتب فهد مقالا بعنوان : "الصناعة الثقيلة أساس نضالنا الاقتصادي" نشر في مجلة "المجلة" العننية ، العدد (4) السنة الثالثة ، 1 أيار 1941 ، مشيراً فيه إلى أن تصنيع البلد على أساس الصناعة الثقيلة يشكل شرطاً للتغلب على التخلف في المجتمع العراقي . واستناداً إلى تجربة الاتحاد السوفييتي في هذا المجال ، فإن فقدان الصناعة الثقيلة يعتبر أحد أسباب التبعية الاقتصادية والسياسية . ويلاحظ بأن فهد ، في معالجته هذه لم يأخذ الإمكانات الواقعية الموجودة آنذاك في العراق بنظر الاعتبار ، فالصناعة الثقيلة لا يمكن أن تتحقق إلا بالاستناد إلى مجموعة من المستلزمات التي لم تكن متوفرة في العراق حينذاك ، ومنها المستوى الفني والتقاليد الصناعية التي تنشأ بالتدريج وعبر وجود سلسلة من الصناعات الخفيفة ، لذلك تبقى المعالجة مجرد أمنية ، ولكن غير واقعية حينذاك .

• لم يطرح فهد في الميثاق الوطني الذي قدمه للكونغرس الحزبي الأول الموقف الواضح من العلاقات شبه الإقطاعية التي سادت العراق حينذاك ، والتي كانت المطالبة بإزالتها مطروحة بعد أن اعتمدت الحكومات العراقية المتعاقبة على "داوسن" الخبير البريطاني بشؤون التشريع الزراعي في الهند ، في معالجة المشكلة الزراعية في العراق والتي انتهت بتوسيع الملكيات الكبيرة التابعة لكبار الإقطاعيين وكبار ملاك الأراضي الزراعية وبعض شيوخ العشائر في سنة 1932 ، إضافة إلى ما استحوذوا عليه بموافقة سلطات الاحتلال البريطانية من أراض زراعية في عام 1919 و1920 وما بعدهما ، بل طالب بتوزيع الأراضي الأميرية على الفلاحين وصغار المزارعين ، والتوقف عن مواصلة توزيع الأراضي على الإقطاعيين وكبار المتنفذين في الدولة . أي أن فهداً ، ومعهم الحزب ، لم يطرح في حينها شعار تصفية العلاقات الإنتاجية شبه الإقطاعية التي كانت تتحكم بقراب الغالبية العظمى من سكان العراق التي كانت تعيش على الزراعة وفي الريف عموماً . وهذا الموقف الذي تجلى في الميثاق الوطني لم يلتزم به الحزب في النشاط العملي . إذ جاء في كراس فهد حول البطالة قوله في القسم الخاص ب "النظام شبه الإقطاعي السائد في الريف وتأثيره على تأخير الصناعة



وبالتالي على البطالة" ما يلي: "فلاستثمار الفطيع في الريف من قبل الملاكين والشيوخ والسراكيل والمرابين وغيرهم قد قلص حصة الفلاح من المنتج إلى دون مستوى الكفاية ، بحيث أصبحت حصة العائلة الفلاحية من المنتج لا تكفي حتى موسم الحصاد الثاني"462 . وإزاء هذا الوضع طرح فهد ، في كراسه عن البطالة عددا من الشعارات التي لخصت موقفه ، وبالتالي موقف الحزب من المهمات التي تواجه الشعب ، الشعار التالي: " كافحوا ضد الأساليب المتأخرة في الزراعة والنظام شبه الإقطاعي الذي يفقر الفلاح ويحرم الصناعة الوطنية من أعظم سوق لها"463 . وهنا يتطرق فهد إلى جانب واحد في تأثير العلاقات الإنتاجية شبه الإقطاعية على الصناعة من خلال تقليص القدرة الشرائية للفلاحين على اقتناء السلع الصناعية بسبب ضعف مدخولاتهم . ولكن علاقات الإنتاج شبه الإقطاعية تؤثر في واقع الأمر على الاقتصاد الوطني باتجاهات عديدة نشير إلى أهمها فيما يلي:

- مصادرة أكبر قدر ممكن من الربح العقاري المنتج من الفلاحين في الزراعة على حساب تقليص جزء مهم من حصة الفلاح ، تلك الحصة الضرورية لإعادة إنتاج أو تجديد قوة عمله وأفراد عائلته؛

- امتناع الإقطاعيين وكبار ملاكي الأراضي الزراعية عن إعادة توظيف جزء مهم من الفائض الاقتصادي (الربح) المتحقق في القطاع الزراعي في التنمية الزراعية وتطوير الريف . وساهم هذا الموقف في إعاقه توسيع عملية إعادة الإنتاج ، وبالتالي إعادة إنتاج واقع وعلاقات التخلف والفقر في الريف ، وإعاقه عملية تجديد وتحديث قوى الإنتاج في الزراعة؛

- قيام شيوخ العشائر والإقطاعيين وكبار ملاكي الأراضي الزراعية باستهلاك جزء أساسي من الربح المتحقق في الزراعة والريف العراقي في مجالات استهلاكية بذخية ، والامتناع عن توظيفها في الصناعة ، أو في إقامة البنى التحتية في المدينة أو في بعض فروع الزراعة ، إذ أنها غريبة عن تقاليد هذه الفئة الاجتماعية المحافظة والرجعية؛

• ونجمت عن هذه السياسة سلسلة من الجوانب السلبية المترابطة ، وبشكل خاص تدني الإنتاجية ومعدلات الغلة وحجم الإنتاج الإجمالي في الزراعة ، التي تفقد بدورها إلى عجزها عن تموين الصناعة بما تحتاجه من مواد أولية زراعية ، واضطرار البلاد إلى استيرادها من الخارج أو حتى استيراد ما يشبع حاجة السكان المحلية للسلع الزراعية . وهي في كل ذلك تساهم في تقليص مدخولات الفلاحين وضعف القدرة على توسيع السوق المحلية والتداول السلعي - النقدي والقدرة الشرائية للفلاحين؛

462 نفس المصدر السابق. البطالة. ص 205.

463 نفس المصدر السابق. ص 216.

• في إحدى ملاحظات وتعليقات كارل ماركس الدقيقة والمهمة على واقع ونشاط الاستعمار البريطاني في الهند أشار إلى أن الاستعمار يستهدف من وراء هيمنته الكاملة على الهند تحقيق أقصى الأرباح الممكنة ويكون مستعداً للوصول إلى تلك الغاية تسليط أبشع أشكال الاستغلال على الشعوب الهندية ، التي كانت تعاني من حالات البؤس والفاقة والمرض والأمية ، وسحق مقاومتها . ولكن هذا الاستعمار الذي كان يسعى إلى تحقيق مصالحه الأساسية في الهند ، أجبر على إنشاء جملة من المشاريع التحتية المهمة مثل السكك الحديدية والموانئ وطرق المواصلات الأخرى ومشاريع الماء والكهرباء أو بعض الصناعات التي يحتاجها ، وبالتالي ، كان يساهم بصورة عمياء ودون أن يقصد ذلك في كسر حلقة التخلف في الهند ويفتح نافذة على العالم الجديد التي تمكن الشعوب الهندية من رؤية الواقع بوعي أفضل واستعداد أكبر للنضال ضده والخلص منه . إذ ولجت العلاقات الرأسمالية إلى الهند وساهمت في إثارة التناقض والصراع مع العلاقات الإنتاجية الإقطاعية المتخلفة ومع الهيمنة القبلية-الدينية على الهند . وهذه الحقيقة كان في مقدور الإنسان أن يتلمسها في العراق . إذ مع نهاية الحرب العالمية الأولى أمكن الإجهاز على الدولة العثمانية وتخليص العراق من هيمنة أوتوقراطية مستبدة وظالمة وبدأ انتشاره ببطء شديد من هوة تخلف سحيقة دفعته إليها الفترات الأخيرة من حكم العباسيين وسقوط بغداد على أيدي هولاء عام 1258 وما تلاها من سيطرة أجنبية متنوعة ومستمرة على العراق ، بما فيها الهيمنة العثمانية التي دامت وحدها قرابة أربعة قرون عجاف . ومع الاحتلال البريطاني للعراق بدأت المحاولات الأكثر جدية من جانب الاستعمار والرأسمال البريطاني إلى استغلال العراق وموارده وشعبه . ومع البدء بهذه العملية بدأت تلك الأوساط ، في سبيل تحقيق مصالحها وتأمين أقصى الأرباح لها وتكريس هيمنتها على العراق ، بإقامة المشاريع الحديثة ، ومنها السكك الحديدية والموانئ ومشاريع الماء والكهرباء والطرق البرية وتطوير التبادل التجاري . وارتباطاً بذلك يمكن القول بأن دخول رؤوس الأموال الأجنبية إلى العراق وتنشيط بعض المجالات الاقتصادية في إطار العلاقات الإنتاجية الرأسمالية في مرحلة التداول أولاً ، والإنتاج ثانياً ، وإصرار سلطات الاحتلال البريطاني على تكريس علاقات الإنتاج شبه الإقطاعية في الريف والزراعة العراقية ثالثاً ، أوجدت عملياً تناقضاً بين العلاقات الرأسمالية النامية حديثاً القادمة من وراء الحدود ، وبين العلاقات شبه الإقطاعية المتخلفة والمعرقة لنمو الرأسمالية التي يراد تكريسها من قبل الاستعمار البريطاني وأصحاب رؤوس الأموال البريطانية ، وبالتالي ، أوجدت أرضية لصراع ونزاع اقتصادي وسياسي واجتماعي متواصل بين جمهرة الفلاحين الواسعة وسكان المدن المتأثرين مباشرة بالريف والإنتاج الزراعي ، ومنهم العمال وفئات البرجوازية الصغيرة في المدينة ، ولكن بشكل خاص

البرجوازية الوطنية ، التي كانت قد بدأت لتوها بالنمو والتطور ، من جهة ، وفئة الإقطاعيين وكبار الملاكين والكومبرادور التجاري المحلي والرأسمال الأجنبي من جهة أخرى ، وبالتالي ضيقت من ذات النافذة التي فتحتها على الغرب الرأسمالي والحضارة البرجوازية الجديدة . وعبر سنوات الهيمنة البريطانية تفجر هذا التناقض وتحول إلى صراعات سياسية ونزاعات مسلحة ساهمت كلها في تنمية الوعي السياسي في المجتمع وتنشيط الحياة السياسية والأحزاب الوطنية . إن ذكر هذه الحقيقة لا يعني بأي حال ذكر فضائل الاستعمار البريطاني على العراق ونسيان استغلاله البشع للشعب العراقي ونهبه لخيرات طيلة عقود ، بل يؤكد أهمية الانتباه إلى التناقضات التي تنشأ في مثل هذه الأوضاع وما يمكن أن يترتب عنها وعليها من تناقضات وصراعات ونزاعات سياسية يفترض الاستفادة منها لصالح التقدم الاجتماعي ، كما أن ذكر ذلك لا يعني إيقاف النضال ضد الاستعمار في أي منطقة من العالم لأنه يفتح نافذة على العالم الخارجي ويبدأ ، شاء أم أبى بكسر حلقة التخلف والتبعية . وقد رأينا بأن الاستعمار البريطاني ، ورغم فتحه النافذة على الرأسمالية والحضارة الغربية الجديدة والمهمة ، قد بذل أقصى الجهود من أجل إبقاء العراق في دائرة التخلف والمحيط الرأسمالي . ولا يمكن بأي حال الادعاء بأنه فشل في ذلك ، ولكنه لم ينجح تماماً ، رغم المعاناة الكبيرة والمأساوية الراهنة التي يعيش الشعب العراقي تحت وطأتها .

• ومن الملاحظات المهمة التي تستوجب الإشارة إليها هي أن فهداً كان يدرك تماماً بأن المرحلة التي كانت تواجه نضال العراقيين حينذاك ، وهي ما تزال كذلك ، بعيدة كل البعد عن المهمات والأهداف الاشتراكية أو الشيوعية ، وأن العملية النضالية يفترض أن تركز على المهمات الوطنية والديمقراطية . وكان هذا الفهم الواقعي يتجلى لا في المشاريع التي طرحها فهد لنضال الحزب فحسب ، بل في ذلك الموقف الذي ميزه عن الكثيرين ممن كانوا يرون بأن نضال الحزب الشيوعي حينذاك كان يستهدف الوصول إلى الشيوعية ، وهي مسألة مرتبطة بالوعي الماركسي الواقعي والموضوعي للمجتمع ومستوى تطوره . فقد ذكر حنا بطاطو حادثة مهمة تؤكد ذلك حين قال: "وما زال عبد الله مسعود يتذكر جملة تتمم بها يوسف أثناء لقائهما للمرة الأولى في مطلع 1938 في بيت الشاعر حافظ الخصيبي . يومها ، قال يوسف: " وإن كنا شيوعيين ، فإننا لا نريد تحقيق الشيوعية اليوم . لا يمكننا لي يد التاريخ" \* . وهذه مقولة ماركسية شهيرة ، ولكن مسعود صعق دهشة لدى سماعها "464

\* إن العديد من الشواهد تشير إلى أن فهداً، رغم حديثه عن تبنيه الشيوعية وتأكيد ذلك أمام حاكم التحقيق، إلا أنه لم يكن في البداية يرى مناسباً تسمية الحركة بالحزب الشيوعي العراقي. بل بالاسم الذي تم الاتفاق عليه أولاً، أي لجنة مكافحة الاستعمار. ولكن شرط الأمانة الثالثة هو الذي جعلهم أمام أحد أمرين. وبالتالي رضخوا للأمر المطلوب منهم. إذ كان تشكيل حزب شيوعي يوحى للجميع.

. ويبدو لنا بأن هذا الوعي بالمسألة هو الذي جعل رواد الحلقات الماركسية في العراق عندما اجتمعوا لتأسيس التنظيم الحزبي ، أن يطلقوا على تنظيمهم "لجنة مكافحة الاستعمار" ، ولم يطلقوا عليه اسم الحزب الشيوعي إلا بعد أن رفض طلبهم في الانتماء إلى الحركة الشيوعية العالمية أو الأممية الثالثة ، في ضوء شروطها المعروفة في هذا الصدد والواردة في الملحق من هذا الكتاب .

---

أي للرفاق والأصدقاء والأعداء. بأن الحزب يسعى إلى تسلم السلطة حينذاك والسير لبناء الشيوعية. وهو ما استغرب منه عبد الله مسعود رغم وجوده على رأس الحزب. وأكد له فهد غير ذلك. لقد كانت التسمية بالذات قفزاً لمراحل عديدة وطويلة.  
464 بطاطو ، حناد. العراق. الكتاب الثالث. الحزب الشيوعي. مصدر سابق. ص 102.

## الفصل العاشر : الحزب الشيوعي وفهد والانقلابات العسكرية في العراق

### المبحث الأول : جماعة الأهالي وانقلاب بكر صدقي العسكري

#### 1 . جماعة الأهالي

تميزت أجواء العراق السياسية في سنوات العقد الثالث من القرن العشرين بالقلق والتوتر والتبلور التدريجي . ورغم انسيابية وميوعة الحدود بين الفئات الاجتماعية ، بسبب البنية الاقتصادية والاجتماعية المتخلفة حينذاك والتشابك الشديد بين العلاقات العشائرية الأبوية والعلاقات الإقطاعية الاستغلالية في الريف والزراعة وانعكاسات ذلك على المدينة ، فإن شكلاً واضحاً من الاستقطاب السياسي كان يتفاقم في المجتمع بين جماعتين ، وهما: القوى التي كانت تقف في الجبهة المناهضة للانتداب البريطاني على العراق والساعية إلى رفض عقد معاهدة تساهم في تكريس أهداف الانتداب ومصالح الاستعمار البريطاني والتصدي لمنحه امتياز التنقيب عن النفط الخام واستخراجه وتصديره من جهة ، وبين قوى الاستعمار البريطاني ، ومعه تلك القوى التي كانت تريد ، وتحت واجهات عديدة ، تأمين المصالح البريطانية وتنفيذ تلك الاتفاقيات من جهة أخرى . وتجلّى هذا الصراع في المحاولات الجادة لأنصار بريطانيا نحو إقامة المجلس التأسيسي والمصادقة على القانون الأساسي وفق تصورات تلك القوى ، ومن ثم إجراء الانتخابات النيابية لضمان الهيمنة على السلطة التشريعية ، إضافة إلى هيمنة بريطانيا على السلطة التنفيذية والقضائية . وأمكن حسم هذا الصراع في القضايا المطروحة حتى نهاية عام 1926 ، كمرحلة أولى ، لصالح بريطانيا ومن يعمل معها . إلا أن حركة القوى المناهضة للوجود البريطاني في العراق لم تكف عن النضال ولم تفشل تماماً في تغيير بعض الجوانب المهمة في القانون الأساسي لصالح الديمقراطية ، واستطاعت أن تحدد فترة المعاهدة بأربع سنوات . كما أنها وفرت الأجواء المناسبة لمواصلة النضال استناداً إلى الحريات الأساسية للمواطنين العراقيين التي ضمنها القانون الأساسي العراقي . وبدأت القوى السياسية التي ناصبت الاستعمار العداء تتحرك بسرعة أكبر لتكوين منابرها المستقلة وتنشيط اتجاهاتها الفكرية والسياسية وبلورة سياساتها ومواقفها إزاء ما يجري في العراق وما يراد له مستقبلاً ، ومن أجل زيادة تأثيرها في الأوساط الشعبية وبين المثقفين وإثارة الحوار في المجتمع حول القضايا المختلف عليها ، التي كانت تمس بالصميم مصالح البلاد والجماهير الواسعة ، وفي سبيل تعبئة الناس وزيادة عدد المواطنين الذين تهمهم المشاركة الفعلية في حياة البلاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية . ولعب الطلاب والمعلمون

والمستخدمون وجمهرة من الموظفين دوراً ملموساً في هذا الصدد . وكان من بين هؤلاء تلك الجماعة التي تبلور اسمها مجازاً فيما بعد تحت اسم شعبي هو "جماعة الأهالي" . فمن هي هذه الجماعة ، وكيف تجمع أفرادها وكيف تبلورت أفكارها واتجاهاتها السياسية ، وما هو دورها في الحياة الفكرية والسياسية العراقية؟

أنجزت العديد من الدراسات القيمة عن جماعة الأهالي على شكل أبحاث ورسائل ماجستير أو مقالات كتبت بهذا الصدد . ونحاول هنا الاستفادة مما هو متوفر عن هذه الجماعة لأغراض هذا البحث .

بدأ نشوء هذه الجماعة في موقعين أحدهما بغداد والثاني بيروت . ومن أفراد هذين الموقعين تشكلت في بغداد جماعة الأهالي لتواصل الدرب ، ثم انضم إليها آخرون منحوها وزناً إضافياً مؤثراً ، ومنهم كامل الجادرجي ، وفيما بعد جعفر أبو التمن والبعض من صحبه .

تشكلت المجموعة الأولى من طلبة عراقيين غادروا العراق للدراسة في الجامعة الأمريكية في بيروت ، وهم من طلاب البعثة الحكومية . أسست مجموعة من هؤلاء الطلاب جمعية طلابية عراقية في العام 1921-1922 ، وانتخب الطالب يوسف زينل رئيساً لها . ولم تكن هذه المجموعة الطلابية بعيدة عن الأوضاع السياسية والصراعات الجارية في العراق . لهذا كان تفكير البعض منهم يتوجه صوب تشكيل نادي يجمع العراقيين ويساهم في تنشيط الحوار السياسي والاجتماعي بين أعضائه . وفي فترة لاحقة ، أي في عام 1926 ، تم تأسيس هذا النادي في بيروت وسمي "نادي النشء العراقي" . وأبرز وجوه هذه المجموعة هم عبد الفتاح إبراهيم ومحمد حديد وجميل توما ودرويش الحيدري ونوري رفانيل ويوسف زينل ، ثم التحق بهم بعد ذلك كل من علي حيدر سليمان وعبد الله بكر 465 . وبعد انتهاء يوسف زينل من دراسته وعودته إلى العراق ، انتخب عبد الفتاح إبراهيم رئيساً للجمعية الطلابية كما أصبح رئيس النادي 466 . وتشير تلك الدراسات إلى أن عبد الفتاح إبراهيم أعطى الجمعية والنادي دفقاً جديداً وحرك الحوارات فيها ونشط التوجه الذي برز قبل ذلك لدى الأعضاء بتشكيل مجموعة سرية بجوار الجمعية والنادي . وتم فعلاً تأسيس هذه الخلية السرية في عام 1926 ، وكانت تعمل تحت غطاء نادي النشء العراقي . ضمت المجموعة السرية في صفوفها عبد الفتاح إبراهيم ومحمد حديد وجميل توما ونوري رفانيل ودرويش الحيدري وعلي حيدر سليمان وعبد الله بكر 467 . عبّر تشكيل الجمعية السرية عن اتجاه جديد في الحركة السياسية العراقية خارج الوطن في أعقاب تأسيس الدولة العراقية الحديثة ، إذ كان الداخل قبل ذلك وبموازاته قد بدأ بتأسيس الحلقات الماركسية بصورة سرية أيضاً وباتجاهات ماركسية عامة

465 الملاح ، عبد الغني. تاريخ الحركة الديمقراطية في العراق. مصدر سابق. ص 94.

466 الوكيل ، فواد حسين. جماعة الأهالي. دار الرشيد لنشر. سلسلة دراسات 182. بغداد. 1979. ص 94-96.

467 الوكيل ، فواد حسين. جماعة الأهالي في العراق. دار الرشيد للطباعة. بغداد. 1979. ص 94.

وغير واضحة ، أو أن أعضاء تلك الحلقات لم يكن جميعهم بالضرورة من حملة الفكر الماركسي ، ولكنهم كانوا جميعاً من العلمانيين والديمقراطيين والتقدميين . أما الجماعة في بيروت فلم يكن فيها من تبني حينذاك الفكر الماركسي ، وكانت خليطاً من اتجاهات فكرية وسياسية غير واضحة ولكنها تصب في مجرى واحد ، هو الكره الشديد للاستعمار والرغبة في أن يكون العراق بلداً مستقلاً ، وأن يتسنى لأهل العراق أن يعيشوا في أوضاع حياتية ومعاشية أفضل . هذه الأهداف العامة هي التي جمعت هؤلاء الطلبة حينذاك . وعن هذا التنوع الفكري وعدم الوضوح في الوجهة العامة وفي التمييز بين الاتجاهات المختلفة كتب فؤاد حسين الوكيل ، مؤلف كتاب "جماعة الأهالي" ، يقول: "كان أعضاء هذه الجمعية السرية ، يستهويهم روح الاندفاع الوطني والقومي التي أعقبت الحرب العالمية الأولى والمتمثلة بالحركة الفاشستية في إيطاليا ، وفي شخص موسوليني . ولهذا فأنهم كانوا يعتقدون اجتماعات سرية في ساحة اللعب في الجامعة ليلاً ، وهم يحملون تمثالاً لموسوليني ، ويحيطون به . أو يذهبون الساحل البحر ومعهم التمثال أيضاً . أما الهدف من ذلك كله فهو العمل على تحرير البلاد ، من خلال التوجيه السياسي ، عند العودة إلى الوطن ، والاشتغال بالحركة الوطنية" 468 . ويستدل من ذلك أن أفراد هذه المجموعة من الشباب كانوا في بداية التكوين الفكري والسياسي ، وكانوا يتحرون عن طريق واتجاه يمكن من خلاله تحقيق طموحاتهم في وطن مستقل وحياء أفضل للشعب . وكانت هذه المجموعة تترك بيروت قاصدة بغداد حال الانتهاء من الدراسة ، وكانت تستثمر وجودها في بيروت لثلاثة أغراض مهمة ، إضافة إلى دراستها الجامعية:

- التزود بالمعارف التي توفرها أسواق بيروت للكتب ، ومكتبة الجامعة الأمريكية ، كما أن أغلب الدارسين في تلك الفترة ، الذين ارتبطوا بهذه الجماعة ، كانوا يدرسون علوماً إنسانية توفر لهم مجال الاحتكاك بالجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، النظرية منها والعملية؛
  - الاستفادة من الأجواء السياسية المتفتحة نسبياً التي عرفت بها بيروت حينذاك ومتابعة الأخبار الواردة إليها من مصر وسوريا وفلسطين ، أو تتبع الحركات السياسية في أوروبا ، ومنه أخبار الاتحاد السوفييتي؛
  - توثيق علاقات الصداقة في ما بينهم ومحاولة تكوين وجهات نظر متقاربة لمواصلة العمل في الداخل ، وجعل الجمعية قاعدة لمن يأتي من بعدهم .
- و تم فعلاً اللقاء بين بعض هذه العناصر البيروتية في بغداد حيث واصلت عملها المشترك لسنوات لاحقة .

وبجوار هذه الجماعة نشأت علاقة بين أفراد جماعة أخرى في بغداد بدأت أثناء الدراسة الثانوية ، إذ شارك بعض أفراد هذه الجماعة في المظاهرة المناهضة لزيارة ألفريد موند وحملت الاحتجاج ضد فصل المدرس اللبناني أنيس زكريا نصولي ورفيقه من التدريس وترحيلهما إلى بلديهما لبنان وسورية حينذاك ، والتي تفجرت بسبب هواجس طائفية وتشكيك بأهداف ما ورد في كتاب النصولي الموسوم (الدولة الأموية في الشام) حول معاوية والأمويين 469 . ومن بين أبرز هذه الجماعة: حسين جميل وعبد القادر إسماعيل وخليل كنه وجميل عبد الوهاب 470 .

يشير عبد الغني الملاح إلى أن جماعة الأهالي تشكلت من ثلاثة تيارات ، إذ يضيف إلى الجماعتين السابقتين باعتبارهما تيارين فكريين وسياسيين ، تيار ثالث كان يمثله كامل الجادرجي ، الذي انضم إلي جماعة الأهالي في فترة لاحقة بعد أن استقال من حزب الإخاء الوطني وشطب اسمه من سجلات الحزب بتاريخ 12 تشرين الأول سنة 1933 وفق الكتاب الصادر من كاتم أسرار الحزب محمد رضا الشبيبي 471 . جاء في كتاب مذكرات كامل الجادرجي ، الذي جمعه وأخرجه بعد وفاته ابنه نصير الجادرجي ، بشأن انضمامه إلى جماعة الأهالي ما يلي:

"ليس هناك من يشك في أن انضمام كامل الجادرجي إلى جماعة الأهالي كان حدثاً تاريخياً هاماً ، أولاً في تكوين الجماعة ونشاطها السياسي والفكري واتصالها بجعفر أبو التمن ، وثانياً في التطورات التاريخية بعد ذلك في المحيط التقدمي بصورة خاصة ومحيط الحركة الوطنية بصورة عامة . تلك التطورات التي أدت إلى تكوين الحزب الوطني الديمقراطي بعد 13 عاماً واستمرار صدور الجريدة ، وثالثاً في حياة الجادرجي نفسها" 472 .

لعبت القرابة والصداقة والعيش في محلة أو منطقة واحدة بالنسبة للبعض منهم ، وخاصة جماعة بغداد ، دورها في تنشيط عمل المجموعتين وتلقيهما ومشاركتهما في صياغة مواقفهما الفكرية والسياسية وبرامجهما النضالية ، إذ لم يكن هؤلاء الأشخاص موحدو الفكر والمواقف السياسية ، بل كانوا يعبرون عن أفكار كثيرة ومتنوعة ويشكلون تيارات ديمقراطية

---

469 نفس المصدر السابق. ص 63-68. جاء في إهداء كتاب "الدولة الأموية في الشام" وفي بعض ثناياه أفكاراً ومعلومات أثارت ضجة واحتجاج بعض الجماعات الشيعية ، إذ عدت بمثابة طعن بالبيت ، ما يلي:  
"من أحق بتاريخ أمية من أبناء أمية ومن أحق بتاريخ معاوية والوليد من أبناء معاوية والوليد! فاقبلوا يا أبناء سورية الباسلة المتحدة المستقلة هذه الثمرة الصغيرة.  
أنيس". ص

64.

470 الملاح ، عبد الغني. تاريخ الحركة الديمقراطية في العراق. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. ط 2. بيروت. 1980. ص 94.  
471 الوكيل ، فؤاد حسين. جماعة الأهالي. مصدر سابق. ص 120.

472 الجادرجي ، كامل. مذكرات كامل الجادرجي وتاريخ الحزب الوطني الديمقراطي. دار الطليعة. بيروت. ط 1. 1970. ص 24/23.



جديدة في الحركة السياسية العراقية ، لم تكن قد تبلورت بعد حتى ذلك الحين ، ولكنها كانت تهتدي باتجاهات وطنية وديمقراطية عامة .

في النصف الثاني من عام 1931 تم الاتفاق بين أفراد هذه المجموعة على إصدار صحيفة فكرية وسياسية تعبر عن رأي الجماعة . واتفقوا على تسمية جريدتهم "الأهالي" ، باعتباره اسماً شعبياً رديفاً للشعب ، إذ كان يراد للجريدة أن تعبر عن أوضاع الناس السياسية والمعاشية وحياتهم الاجتماعية ، أي التعبير عن رأي السواد الأعظم من الناس العراقيين . صدر العدد الأول من جريدة الأهالي في اليوم الثاني من شهر كانون الثاني/يناير عام 1932 ، وكان صاحبها ومديرها المسؤول المحامي حسين الجميل<sup>473</sup> . وبعد ستة شهور تقريباً أصبح عبد القادر إسماعيل صاحبها وإسماعيل الغانم مديرها المسؤول . وفيما بعد أصبحت الجريدة في ملكية كل من عبد القادر إسماعيل وعزيز شريف ، وكان الأخير قد التحق بالجماعة أيضاً<sup>474</sup> . وضعت الجريدة في صدر صفحتها الأولى الشعار الذي اختاره لها محمد حديد "منفعة الشعب فوق كل المنافع"<sup>475</sup> .

تشير المعطيات المتوفرة إلى أن أفراد هذه الجماعة التقوا على مبادئ أساسية تتلخص في الدفاع عن مصلحة الوطن والشعب والنضال ضد معاهدة 1930 وضد امتياز النفط الخام ، ومن أجل الخلاص من الوجود والتدخل البريطاني في شؤون العراق ، إضافة إلى تحسين مستوى معيشة السكان والخدمات العامة ، وخاصة التعليم والصحة وتأمين التطور الاجتماعي في البلاد . يشير الأستاذ حنا بطاطو في كتابه "العراق" إلى فكر هذه الجماعة فيقول: " في ما عدا ذلك ، كانت الأفكار التي طرحتها "الأهالي" مبهمة وغير منسجمة ، وكانت تردد صدى الفابية أحياناً ، والماركسية أحياناً أخرى ، والداروينية أو الشعبوية (أو النارودنيكية) الروسية بين حين وآخر . وحتى بعد تعريف المجموعة في العام 1935 بأنها تنوع إصلاحية ليبرالية ديمقراطية من الاشتراكية ، صيغ من أجله تعبير "شعبية" (أي اشتراكية شعبية) ، فإن ضبابية معينة استمرت في تمييز مبادئ المجموعة . ونشأ هذا نتيجة مقاومة معينة في صفوفها لكل ما يقترب من أن يكون التزاماً فكرياً صارماً ، وبعضه الآخر من حقيقة أن مواقع مؤسسي المجموعة كانت لا تزال لم تكتمل تكويناً ، وهذا ما أصبح شديد الوضوح في آخر الأمر"<sup>476</sup> . وغالبية المصادر التي بحثت في هذه الفترة تشير إلى أن اللولب الفكري لهذه المجموعة كان عبد الفتاح إبراهيم ، الذي كتب الكثير لشرح اتجاهات الجماعة ، وأصدر كراساً يشرح فيه

473 نفس المصدر السابق. ص 105.

474 - حميدي ، جعفر عباس. التطورات السياسية في العراق. مصدر سابق. ص 241.

- الوكيل ، فؤاد حسين. جماعة الأهالي. مصدر سابق. الهامش رقم 80. ص 176.

475 الوكيل ، فؤاد حسين. جماعة الأهالي. مصدر سابق. ص 105.

476 بطاطو ، حنا. العراق. الجزء الأول. مصدر سابق. ص 339/338.

مفهوم الشعبوية 477 . وكتب زكي خيري عن أفكار عبد الفتاح إبراهيم وكراسه عن الشعبوية يقول: "وقد كلفت جماعة الأهالي عبد الفتاح إبراهيم بصياغة برنامج لها . فأصدر عام 1934 كراساً بعنوان "الشعبية" وقد ردد فيه ما تقوله الدعاية الاستعمارية والرجعية بحق الشيوعية أي الأضداد الثلاثة: ضد الدين ، ضد الوطنية ، ضد العائلة" 478 . ويواصل زكي خيري فيقول ب " أن هذا الجزء من الكراس المعادي للشيوعية كتب بالحاح من كامل الجادرجي" 479 . ويبدو عند الاطلاع على كراس الشعبوية ، الذي عبر في جوهره عن أفكار عبد الفتاح إبراهيم ، والرد الذي صاغه في حينها قاسم حسن ، يمكن القول بأن الرد كان شديد اللهجة ومنتشجاً يعبر عن الأجواء التي سادت في حينها بين الحركة الاشتراكية الديمقراطية والحركة الشيوعية ، خاصة وأن قاسم حسن كان قد عاد لتوه من اجتماع الكومنترن ، كما أنه كان يحتل موقعاً مهماً في الحزب الشيوعي العراقي الذي كان قد تأسس لتوه في العراق . ولا شك في أن أفكار الشعبوية كانت لا تتعد كثيراً عن واقع العراق القائم حينذاك ، رغم أنها كانت في الوقت نفسه تجسد الصراع الذي كان يدور في داخل جماعة الأهالي غير الموحدة فكرياً والمتفقة في الاتجاهات السياسية العامة إزاء الحكم القائم في العراق . وكانت أفكار الجماعة تنتمي جزئياً إلى الاشتراكية الديمقراطية الإصلاحية ، وهي في الوقت نفسه ذات أرضية فابية وماركسية ، إلا أنها لم تكن لينينية في كل الأحوال . ولكن ما هي أهداف ومهمات "جماعة الأهالي"؟ ليست الإجابة عن هذا السؤال سهلة ، وسبب صعوبتها يكمن في أن كل فرد فيها كانت له أفكاره الخاصة واتجاهاته السياسية المتميزة عن الآخر ، كما أن مواقف غالبية أعضاء هذه الجماعة كانت في حركة وعملية تغير وتبلور مستمرة . ورغم ذلك اتفقت هذه الجماعة على برنامج مشترك لخصت فيه الأهداف والمهمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تسعى إلى تحقيقها . واستناداً إلى ما ورد في كراس (الشعبية) . المبدأ الذي تسعى "الأهالي" لتحقيقه) الذي نقله لنا فؤاد حسين الوكيل في كتابه "جماعة الأهالي" السالف الذكر ، وما ورد في كتاب كامل الجادرجي "مذكرات كامل الجادرجي" يمكن تكثيف رؤية وأهداف الشعبوية في النقاط التالية: 480

**\*\* على الصعيد السياسي:**

• إقامة دولة مستقلة ذات سيادة والسيادة تكون للشعب وحده ، تستند إلى الدستور والديمقراطية في علاقاتها بأفراد المجتمع وعلى الصعيد الخارجي؛

477 أورد كامل الجادرجي في مذكراته المبادئ والأهداف الأساسية التي وردت في كراس الشعبوية والتي يمكن العودة إليها. راجع: الجادرجي ، كامل. مذكرات كامل الجادرجي وتاريخ الحزب الوطني الديمقراطي. دار الطليعة. بيروت. ط 1. 1970. ص 50/49.

478 خيري ، زكي. صدى السنين في ذاكرة شيوعي عراقي مخضرم. مصدر سابق. ص 77.

479 نفس المصدر السابق. ص 77.

480 قارن: - الوكيل ، فؤاد حسين. جماعة الأهالي. مصدر سابق. ص 160-163.

- الجادرجي ، كامل. مذكرات كامل الجادرجي وتاريخ الحزب الوطني الديمقراطي. مصدر سابق. ص 50/49.

- حق الدولة في التدخل في تنظيم شؤون المجتمع وفق الدستور والديمقراطية؛
- \*\* على الصعيد الاقتصادي:
- الأخذ بمبدأ التخطيط الاقتصادي بما يتجاوب وأوضاع العراق الاقتصادية وحاجات الشعب؛
- قيام الدولة بدور قيادي في عملية التصنيع ، مع فسح المجال أمام القطاع الخاص للتوظيف في المشاريع الصناعية الصغيرة والاستهلاكية؛
- امتلاك الدولة للمشاريع الخدمية والمنشآت العامة مثل السكك والبواخر ومشاريع التنوير وتجهيز الماء والترامواي وغيرها؛
- تنشيط الجمعيات التعاونية في مجال التوزيع والتبادل (مرحلة التداول)؛
- توزيع الأراضي الأميرية على صغار وفقراء الفلاحين لإقامة مشاريع صغيرة ، مع وضع نظام ضريبي تصاعدي على الدخل الزراعي؛
- العمل للتخلص من الفروق الاقتصادية عبر النظام الضريبي ، أي فرض ضرائب متزايدة (تصاعدية) على الدخل والإرث؛
- توفير فرص عمل للقوى القادرة على العمل وتأمين السلامة أثناء العمل؛
- ملكية الدولة للبنوك وتحت تصرفها ورقابتها .
- \*\* على الصعيد الاجتماعي:
- تأمين التعليم الابتدائي المجاني ومكافحة الأمية ، وضمان إنشاء معهد للتثقيف والتنوير؛
- تأسيس مكتبات عامة من جانب الدولة وكذلك تأسيسها لدور السينما والمسرح والموسيقى؛
- تنمية الروح الرياضية وتشجيع الشباب نحوها؛
- إنشاء المستشفيات ودور الولادة والحضانة وزيادة الاهتمام لتوسيع نطاق الرعاية الصحية؛
- ضمان السكنى الصحية وتنظيم المدن وفق الأسس الصحية ، وإنشاء دور صحية تباع وتؤجر بأسعار مناسبة إلى السكان؛
- تنظيم الأحوال الشخصية؛
- تحرير المرأة والاحتفاظ بالنظام العائلي .
- إن قراءة البرنامج تشير إلى أن الجماعة تركز على دور الدولة في الحياة الاقتصادية والتنظيم الاجتماعي ، وكذلك على التعاونيات في تنظيم عمليات التوزيع والاستهلاك ، وأنها من حيث المبدأ ضد الاستغلال الرأسمالي وتفاقم الفروق الاقتصادية التي تشدد من الصراعات الطباقية ، وتسعى إلى تحقيق شكل من العدالة الاجتماعية ، وهي ضد فرض دكتاتورية طبقة أو فئة أو حزب معين ، إذ أكدت على أن الشعبية ، في دراسات ومواقع أخرى ، ضد الدكتاتورية الشيوعية والدكتاتورية الفاشية<sup>481</sup> . وكانت ثقة الجماعة بالديمقراطية الرأسمالية ضعيفة واعتبرتها

481 نفس المصدر السابق. ص 160.

مزيفة ، ولكن لم يصل الأمر بها إلى حد شطبها ، بل طرحت الشعبية كبديل لها بما تتضمنه من نهج دستوري ديمقراطي يستند إلى سيادة الشعب وإرادته ومصالحه . ولكن هذا التكتيف للبرنامج ، على أهميته ، لا يقدم لنا الفلسفة التي سارت عليها والتزمت بها جماعة الأهالي بكل أطيافها ، إذ أننا نجد التنوع والتباين في الكثير من كتابات أفراد هذه الجماعة ، وبشكل خاص في كتابات عبد الفتاح إبراهيم ، إذ كان أكثرهم إنتاجاً وترويجاً لفكر الشعبية وأكثرهم اهتماماً ببلورة فكرة الشعبية والتزاماً بها . كما أن بعض الاتجاهات الفكرية الأساسية لعبد الفتاح إبراهيم كانت تختلف على نحو خاص مع أفكار كامل الجادرجي ، إذ شكل الأخير وفي فترة لاحقة مدرسة خاصة في الفكر والسياسة العراقية ، تختلف عن مدرسة الفكر والسياسية التي عمل بموجبها عبد الفتاح إبراهيم ، رغم أنهما كانا معاً في المعسكر الديمقراطي . كما اختار البعض الآخر من هذه الجماعة فيما بعد اتجاهات وسياسات متباينة وشكل تيارات في الحياة السياسية العراقية كانت كلها تسير على خط ديمقراطي عام وذات اتجاهات علمانية . ففي الوقت الذي كان هناك لقاء فكري ملموس في بداية تكون الجماعة بين عبد الفتاح إبراهيم ومحمد حديد مثلاً ، تبدل هذا الموقف في المرحلة النهائية لينشأ في مكانه لقاء فكري وسياسي طويل الأمد بين كامل الجادرجي ومحمد حديد . وهكذا كان الأمر بالنسبة إلى أبرز رموز هذه المجموعة الوطنية التقدمية والعلمانية من الرعيل الأول من المفكرين والسياسيين العراقيين المحدثين .

لعبت جماعة الأهالي دوراً مهماً في الحياة السياسية ابتداءً من عام 1933 ، إذ أنها سعت إلى التحرك بخمسة اتجاهات أساسية مهمة:

- العمل الفكري ونشر أفكار جماعة الأهالي من خلال جريدة الأهالي أو الصحف والمجلات الأخرى؛
- السعي إلى كسب العناصر الوطنية التي كانت تعمل في الحزب الوطني ، وعلى رأسهم جعفر أبو التمن ، بعد أن اعتزل الأخير السياسة وتخلّى عن الحزب الوطني بسبب جزعه والصدمة النفسية التي تعرض لها من جراء تخلي ياسين الهاشمي عن القضايا التي التزم بخوض النضال المشترك مع جعفر أبو التمن ضدها ، مثل معاهدة 1930 وتشكيل حزب الإخاء الوطني الوزارة في عام 1933 برئاسة رشيد عالي الكيلاني وعضوية ياسين الهاشمي كوزير للمالية وحكمة سليمان كوزير للداخلية؛
- التزام قضايا الفلاحين والريف والفقراء من أبناء الشعب العراقي و طرحها كأهداف تسعى الجماعة إلى تحقيقها ، ومنها توزيع الأراضي بقطع صغيرة على الفلاحين ومناهضة الإقطاع كنظام اقتصادي اجتماعي و ضد قانون دعاوى العشائر المدنية والجزائية باعتباره قانوناً جائراً يعود بالعراق إلى القرون الوسطى ، وكانت الجماعة تدعو إلى تحسين مستوى

معيشة الفقراء وإيجاد فرص عمل للعاطلين عن العمل عبر التصنيع 482. وتبنت الجماعة مسألة تحرير المرأة العراقية وكتبت العديد من المقالات في هذا الصدد ، وكانت لها مواقف تقدمية وديمقراطية في المسائل الاجتماعية كالتعليم والصحة والشباب وإزاء العديد من التقاليد الاجتماعية البالية 483.

• الاستفادة من الإمكانيات المتوفرة على الصعيد البرلماني والشعبي في النضال من أجل الأهداف التي التزمتها الجماعة ، مع الاستفادة من إمكانيات العمل العلني والتنظيم السري المناسب للخروج إلى العلنية لاحقاً؛

• وكان للتنوع الفكري والسياسي والمواقف الاجتماعية لأعضاء هذه الجماعة الدور الملموس في الوصول إلى أوساط مختلفة من أبناء الشعب العراقي ، ولكنها كانت سبباً في الصراعات التي نشأت في داخلها والاتجاهات المتعددة التي قادت فيما بعد إلى تفككها .

وفي فترة لاحقة أدرجت هذه الجماعة في جدول أعمالها التحرك باتجاه القوات المسلحة العراقية والسعي إلى كسب أوساط منها إلى جانب توجهاتها السياسية ، رغم أن هذا الموقف لم يتخذ منذ بداية التكوين ، بل تطور في مجرى النضال ومع دخول قوى جديدة من المعارضة إلى صفوف الجماعة . وأغلب المصادر تشير إلى دور حكمة سليمان في إقناع هذه الجماعة بالتعاون لاحقاً مع الجيش أو مع بعض الضباط العسكريين الكبار ، ومنهم بكر صدقي العسكري والفريق عبد اللطيف نوري 484 ، وبالتالي كان السبب في تأييد ومشاركة جماعة الأهالي في حكومة انقلاب بكر صدقي . وتم ذلك من خلال عدد من النشاطات التي قامت بها جماعة الأهالي التي ساهمت بربط عدد من الشخصيات السياسية بنشاطاتها وأثمرت عن تعاونها والذي قادها إلى تأييد انقلاب بكر صدقي . ولم يكن هذا الاتجاه مقبولاً لدى جميع أعضاء الجماعة ، ومنهم عبد الفتاح إبراهيم ، الذي وجد هذا التعاون إخلالاً بالوجهة الديمقراطية للشعبية وتجاوزاً على التحول الديمقراطي السلمي للمجتمع .

وإلى هذا الموضوع يشير كامل الجادرجي فيقول: "وفي تلك الأثناء قامت جماعة الأهالي بالعمل على تكوين هيئة غير سياسية سميت "جمعية السعي لمكافحة الأمية" فكان من الضروري لكي تنجح أن ينتسب إليها بعض الشخصيات البارزة ، فقامت بمفاوضتهم وكان أول من ذهب إليه جعفر أبو التمن ، وبعد تردد قليل ، ولما تأكد من أن غاية الجمعية غير سياسية ، قبل أن يكون من بين مؤسسيها . وقد انتسب إلى الجمعية بعدنذ نصره الفارسي وفخري الجميل

482 الوكيل ، فواد حسن. جماعة الأهالي في العراق. مصدر سابق. ص 198-205.

483 نفس المصدر السابق. ص 247-256.

484 صفوة ، نجدة فتحي. العراق في مذكرات الدبلوماسيين الأجانب. الجزء الخاص بمذكرات الدكتور فريتز غروبا (القائم بأعمال ألمانيا ثم وزيرها المفوض في العراق من سنة 1932 إلى سنة 1939 - ثم في مايس سنة 1941). منشورات المكتبة العصرية. صيدا - بيروت. 1968. ص 90-92.

وغيرهما من الشخصيات ، وقد انتخب جعفر أبو التمن رئيساً للجمعية ونصرة الفارسي نائباً للرئيس وعبد الفتاح إبراهيم سكرتيراً ومحمد حديد محاسباً وكنت أنا من جملة أعضاء الهيئة الإدارية المركزية"485 . وكل الدلائل تشير إلى أن غاية الجمعية لم تكن مكافحة الأمية فحسب ، بل ومهمات أخرى ، إذ أنها كانت تسعى ، من خلال سير فعاليتها ، إلى تحقيق ما يلي :

- القيام بمجموعة من النشاطات الاجتماعية التي تقربهم إلى الأوساط الشعبية ، ومنهم جمهرة الفلاحين والعمال والطلاب؛
- تأمين الحصول على عدد من الشخصيات الوطنية والاجتماعية المعروفة التي يمكنها تقديم الدعم المعنوي والمادي لصالح نشاط الجمعية ، إضافة إلى كسبهم تدريجاً لصالح النشاط السياسي إلى جانب جماعة الأهالي؛
- أن تكون الوساطة لتأمين النشاط السياسي المعارض لسياسة الحكومات العراقية المتعاقبة في مختلف المجالات وخاصة في القضايا الاجتماعية ، ومنها سياسة مكافحة الأمية وتوفير مستلزمات النهوض بسياسة التعليم .

وكانت جماعة الأهالي تعول كثيراً على كسب جعفر أبو التمن إليها بالنظر إلى سمعته الطيبة في الوسط العراقي . وبهذا الشأن كتب كامل الجادرجي يقول: وبعد أن اطمأن جعفر أبو التمن إلينا تمام الاطمئنان ، بدأنا بالتفاوض معه في تكوين جمعية سرية سياسية على أساس الشعبية . والحقيقة ، أننا أسرة جريدة الأهالي كنا قد اتفقنا قبل مدة غير قليلة من تكوين جمعية "السعي لمكافحة الأمية" على مبادئ معينة ثبتناها كرووس أقلام ووزعناها بصورة سرية على كثير من الشباب ، وهي التي أصبحت فيما بعد أساساً لمنهج "جمعية الإصلاح الشعبي" .486 ثم يواصل قوله: "وقد اطلع على تلك النقاط جعفر أبو التمن سراً ودرسها فقرة فقرة فقبل مبدئياً تأليف الجمعية على أسس "الشعبية" وقد كان تفهمه في الحقيقة والواقع لها دقيقاً وكانت مناقشته لها مدعاة للإعجاب بالنظر إلى نشأته وتربيته" .487 وفيما بعد قام كامل الجادرجي بالتقريب بين جعفر أبو التمن وحكمة سليمان ، ثم أصبح الأخير عضواً في جمعية الإصلاح الشعبي ، وعن طريقه تم الارتباط بالضباط العراقيين ، ومنهم بكر صدقي وعبد اللطيف نوري وشاكر الوادي وغيرهم488 . وفي هذا الإطار أصدرت الجمعية جريدة باسم "المبدأ" ، وكان صاحب الامتياز جعفر أبو التمن والمدير المسؤول حسن الطالباتي ، وكان عضواً في الجمعية أيضاً489 .

485 الجادرجي ، كامل. مذكرات كامل الجادرجي وتاريخ الحزب الوطني الديمقراطي. دار الطليعة. بيروت. ط1 . 1970. ص 29.  
486 يورد كامل الجادرجي منهاج "جمعية الإصلاح الشعبي" في مذكراته المشار إليها سابقاً. راجع: المصدر السابق ، ص 52/51.

487 نفس المصدر السابق. ص 29.

488 نفس المصدر السابق. ص 29-32.

489 نفس المصدر السابق. ص 35.

وبالرغم من وجود شخصيات كثيرة في جماعة الأهالي ، إلا أن شخصيتين بارزتين لعبتا دورهما الأساسي في هذه الجماعة وشكلتا تيارين متشابهين ولكنها مختلفين أيضا هما عبد الفتاح إبراهيم وكامل الجادرجي . وكان لكل منهما أتباعه ، وفيما بعد ، أي في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، شكلا حزبين مختلفين هما حزب الاتحاد الوطني والحزب الوطني الديمقراطي على التوالي . ويبدو مفيداً أن نمر ولو بسرعة على أفكار عبد الفتاح إبراهيم وعن موقف كامل الجادرجي من تلك الأفكار ومن شخصية عبد الفتاح إبراهيم .

فالدراسة المعمقة لكتابات عبد الفتاح إبراهيم حينذاك ومشاركاته في الصحافة ودوره في بلورة أفكار "الشعبية" تساعد الباحث على القول بأنه استخدم المنهج المادي الديالكتيكي والمادي التاريخي في تحليل الواقع العراقي وفي استنباط المهمات التي تواجه المجتمع حينذاك ، دون أن يدعي الالتزام بالمنهج الماركسي . إذ أنه كان يغرف من مناهج التحليل الأخرى أيضاً والنظريات التي كانت تتصارع في الساحة الفكرية والسياسية في دراساته الاجتماعية والسياسية ، كما استفاد من أبحاث العلماء في أمريكا وبريطانيا والاتحاد السوفييتي . كان عبد الفتاح إبراهيم من مجموعة المثقفين العراقيين القلة التي تميزت بسعة الاطلاع والمعرفة والتفتح وسعة الأفق والتتبع المستمر للمستجد في الفكر ، وخاصة في المجال التربوي والاجتماعي 490 . وإذا كانت ملاحظات حنا بطاطو صائبة في ما يخص ضبابية الفلسفة الفكرية والسياسية عند جماعة الأهالي عموماً . فإنها لم تكن كذلك تماماً عند عبد الفتاح إبراهيم . فالتحليل الواقعي لفكر وممارسات عبد الفتاح إبراهيم تدلل على التزامه الثابت بعدد من القضايا الأساسية التي شكلت مسيرته النضالية في العراق ، وعلى وضوح الرؤية لديه . ولكن هذا لا يعني أنه لم يرتكب أخطاء معينة أو أنه كان صائباً باستمرار ، إذ كان بعض الغموض يحيط ببعض الأوهام حول تشكيل حزب واحد للقوى الديمقراطية واليسارية العراقية حينذاك ، رغم أهمية الفكرة ، ولكنها كانت بعيدة عن الواقع ، إذ كان الأصوب تأكيد أهمية الجبهة بين تلك القوى . ويبدو مفيداً تلخيص بعض الاتجاهات الأساسية في فكر وسياسات عبد الفتاح إبراهيم:

• قناعته الراسخة بالديمقراطية وضرورة سيادتها في الحياة العامة ورفضه لأي شكل من أشكال الدكتاتورية ، والاستبداد الفردي ، بما فيها دكتاتورية البروليتاريا . كما كان يرفض أن يكون في الحزب رئيساً محددًا ، بل كان يدعو إلى القيادة الجماعية؛

---

490 تسنى لي التعرف على عبد الفتاح إبراهيم بشكل مباشر في أعقاب انقلاب 8 شباط/فبراير عام 1963 عندما كان في براغ وشارك في عضوية اللجنة العليا لإنقاذ الشعب العراقي. إذ زار في حينها برلين وكنت مسؤولة عن الجمعية الطلابية في ألمانيا الديمقراطية حيث نظمنا فعالية كبيرة لمساندة نضال الشعب العراقي وجاء ممثلاً عن اللجنة العليا إلى جوار محمد مهدي الجواهري. ودارت بيننا حوارات مهمة حين ذلك تعرفت من خلالها على هذه الشخصية السياسية والثقافية الفذة. (ك. حبيب).

- قناعته الراسخة بعدم جدوى الانقلابات العسكرية وتسلم الجيش قيادة البلاد ، وبالتالي كان مؤمناً بالحياة الدستورية والبرلمانية والتعددية السياسية والانتقال أو التداول السلمي والديمقراطي للسلطة؛
- إيمانه بحق الشعب في التعبير عن إرادته ورفضه للوصاية أو التحكم بتلك الإرادة .
- نضاله الثابت ضد الاستعمار والهيمنة الأجنبية ومواقفه الراضة لمعاهدة 1930 ودعوته للسيادة والاستقلال الوطني؛
- نضاله ضد الرأسمالية والاستغلال الرأسمالي ودعوته إلى تبني قطاع الدولة وتوسيع دوره ونشاطه ، مع تمتع القطاع الخاص بإمكانية النشاط والمساهمة في البناء الاقتصادي . كان عبد الفتاح إبراهيم اشتراكياً شعبياً يستلهم جملة من أفكاره من أرضية الفكر الفابي البريطاني ، وجملة من أفكاره الأخرى من أرضية الفكر الماركسي ومن التجربة السوفيتية ، ولكن بتطبيقات عراقية . لم يكن يسعى إلى الاشتراكية ، كما لم يدع إلى ذلك ، بل كان يرى في الشعبية غاية المراد حينذاك 491 ، وهي غاية كما يبدو كانت مقبولة ، أو هي مرحلة على طريق طويل؛
- كما تصدى للعلاقات الإنتاجية الإقطاعية البالية ودعا إلى تغييرها لصالح الفلاحين الفقراء والمحرومين من الأرض ، ودعا إلى تشكيل التعاونيات الزراعية؛
- وكان دوره متميزاً في الدعوة للإصلاحات الداخلية وخاصة في مجال التربية والتعليم ، إذ كان متأثراً في هذا المجال بالمنجزات التي تحققت في الاتحاد السوفيتي من خلال إطلاعه عليها عندما كان طالباً في الولايات المتحدة للحصول على شهادة الماجستير ، وانعكست في كتاباته في هذا الصدد ، إضافة إلى صياغته أسس الشعبية .
- كان عبد الفتاح إبراهيم المفكر والمنظر الفعلي البارز في جماعة الأهالي ، ويشكل في واقع الحال الجناح اليساري فيها ، وكانت له مواقفه المتباينة عن الشيوعيين . وقد عبر عن ذلك بقوله " . . . ، لم أخاصم الشيوعيين ، ولكني لم أحاول أن أساومهم أيضاً" 492 .
- تجسد فكر جماعة الأهالي في الكراس الذي أصدره ليعبر عن أهدافهم الآتية وذات المدى البعيد . وكان الهدف من هذا التحديد الوصول إلى ثلاثة غايات في تلك الفترة المتحركة جداً من تاريخ العراق السياسي:
- 1. أن جماعة الأهالي تؤمن بالديمقراطية والمجتمع المدني وتسعى إليهما وفق أسس الدستور العراقي والحياة البرلمانية ، وأنها تريد خدمة الأكثرية الساحقة من الشعب ، أي السواد الأعظم في العراق؛

491 الوكيل ، فؤاد حسين. جماعة الأهالي. مصدر سابق. ص 275 الهامش رقم 245 مقابلة خاصة بين مؤلف الكتاب (الوكيل) وبين عبد الفتاح إبراهيم.

492 الوكيل ، فؤاد حسين. جماعة الأهالي. "مقابلة خاصة". مصدر سابق. الهامش 197. ص 258



2. أنها تختلف عن مواقف الشيوعيين في أربع قضايا جوهرية ، وهي: "1- حرب الطبقات .  
2- حصر سلطة الحكم في طبقة العمال الصناعيين وتوزيع الحقوق المدنية على أساس منه  
3- السعي لتحقيق الدولية . 4- محاربة الدين والنظام العائلي" 493 . وكانوا في بعض هذه  
النقاط متأثرين بالدعاية التي روجتها الدول الرأسمالية المتقدمة إزاء المجتمع أو الفكر  
الشيوعي ، وخاصة في موضوع الدين والعائلة .

3. وأنها تختلف أيضاً عن الفكر الفاشي الذي هيمن على أقسام من الجماعات القومية في  
العراق ، وبالتالي كانت تريد تمييز نفسها عن الاشتراكية الوطنية إذ اعتبرتها جماعة  
الأهالي: " مؤامرة جديدة على الشعوب دبرها الرأسماليون وبذلوا في سبيلها الأموال  
الطائلة لمقاومة الاشتراكية وترويج مصالحهم بالدعاية وبإثارة الحماس من جهة ، وبالغنف  
والإرهاب من جهة أخرى" 494 . وكانت هذه الرغبة تتجلى بشكل خاص عند كامل  
الجادرجي ، الذي كان يريد إبعاد شبهة الشيوعية عن الجماعة التي يعمل معها ، خاصة وأن  
خطوط التماس بين أفراد الجماعة والشيوعيين لم تكن واضحة تماماً حينذاك . ففي الوقت  
الذي كان عبد القادر إسماعيل يعمل مع الجماعة وله علاقات طيبة مع الشيوعيين ، كان  
أخوه ، يوسف إسماعيل ، يعمل في صفوف الشيوعيين ومن قياديينهم . كما كان فهد يكتب  
في جريدة الأهالي وتحت أسماء عديدة ، كما ينقل ذلك صاحب كتاب "جماعة الأهالي" عن  
عبد القادر إسماعيل رئيس تحرير الجريدة 495 .

دب خلاف شديد في الممارسة العملية بين عبد الفتاح إبراهيم وكامل الجادرجي تجسد في  
مجالات العمل في إطار الجماعة وفي النشر وإعداد نهج الشعبية وفي النشاط العام ، إضافة إلى  
اختلاف عبد الفتاح إبراهيم مع الجماعة كلها بشأن الموقف من الجيش بعد أن تم الاتفاق مع  
حكمت سليمان وبكر صدقي ونجح الانقلاب العسكري . كتب كامل الجادرجي عن عبد الفتاح  
إبراهيم بعد سنوات طويلة ، ضمن تحليل له لعدد من شخصيات حزب الاتحاد الوطني ، يقول:  
"ومما لا شك فيه أن السيد عبد الفتاح إبراهيم يدين أصلاً بالماركسية وأن ثقافته كلها مستمدة  
من الماركسية غير أنه لما كان يعلم بعدم إمكان تصريف الماركسية في هذا البلد فقد حاول  
مراراً أن يطور الماركسية حسب ظروف العراق بزعمه فأراد في بدء اشتغالاته السياسية أن

493 نفس المصدر السابق. ص 169.

494 نفس المصدر السابق. ص 170/171.

495 جاء في الهامش رقم 105 ، على الصفحة 187 من كتاب فؤاد حسين الوكيل الموسوم جماعة الأهالي ، بهذا الصدد ما يلي:  
"كان يوسف سلمان يوسف (فهد) يرأس الأهالي من الناصرية باسم مراسلكم أو مكاتبكم أو أحدهم وما أشبه ، منذ صدورهما في العام  
1932 ، حين كان لا يزال عضواً في الحزب الوطني العراقي ، وحتى مغادرته للعراق في العام 1934 . وقد كتب عبد القادر إسماعيل  
عن هذا الموضوع يقول "كأنت الرسائل التي تصلني من الناصرية تستثير في مشاعر مشرقة ، وتبعث في إحساساً عميقاً ، تفتح  
أمامي آفاقاً رحبية . . . كان ذلك بعد صدور (الأهالي) عام 1932 . وفي منطلق حياتها الأولى وكنت صاحبها ومديرها المسؤول.  
وكانت أخبار الناصرية تغذي جريدة (الأهالي) وتوطد شعبيتها بما تسبغه من حياة زاخرة فوارة من نشاطات الجماهير في غمرات  
نضالها الوطني".

يبتدع نظريات جديدة كانت دائماً تنقصها الجرأة والصراحة وبالإضافة إلى ذلك كان يعطي لشخصه المقام الأول في جميع اشتغالاته ومحاولاته ونظرياته الخاصة من دون أن يلتفت إلى ما إذا كان الغير (الذين يشتغلون معه) يقررون ذلك في الصميم أو لا يقرونه . لذلك فإن جميع الآراء السياسية التي تخطر بباله كان يعتبرها من الأمور القطعية ويحاول أن يفتن بها الجماعة التي تشتغل معه فكانت تفتن بها تارة فإرتاح لذلك كل الارتياح وكانت طوراً تجامله وتماشيه . أما إذا خالفته في آرائه وسياسته فإنه يعتبر هذه المخالفة عداء شخصياً له فيقطع الحبل بينه وبينها ، فهو لأسباب لا أعرفها وسواء كان محقاً أم غير محق يعتبر نفسه زعيم الحركة الفكرية في العراق لذلك لم يكتف بالاشتغال مع الجماعة التي اشتغل معها بل كان يخالف القواعد الحزبية فيتصل بمختلف الجماعات الأخرى محاولاً السيطرة عليها ، بالإضافة إلى محاولته فرض السيطرة على جماعته التي يشتغل معها (رسمياً) سواء كانت هيئة أم أصحاب جريدة أم ناد وما أشبه ذلك . ولعله كان يعمل بحسن نية ولكن نتائج أعماله هذه كلها كانت تؤدي بالنتيجة إلى تقويض اشتغالاته وإلى عدم تمكنه من القيام بأي عمل منتج مع جماعته أو مع الجماعات الأخرى . فالفتل الذي أصابه في مختلف الميادين السياسية والثقافية واستعداده في كل لحظة للانفصال عن الجماعة التي يشتغل فيها ، كل ذلك كون فيه طبيعة كنيبة متأصلة أبعدت عنه الصفة التي تحبب المرء للناس Popularity والتي هي ضرورية لكل من يشتغل بالسياسة والأعمال العامة" 496 . ثم برز كامل الجادرجي جانباً آخر من تقييمه لشخصية عبد الفتاح إبراهيم وموقف الأخير من ضرورة نوبان رأي الأقلية في الأكثرية وأن لديه نزعة جارفة نحو الزعامة ، في وقت يتظاهر بغير ذلك 497 ، إضافة إلى أنه كان يرى بأن نظرياته هي الصحيحة ونظريات الغير هي الخاطئة حتى لو كان هو في الأقلية والأخرى في الأكثرية ، وكان يعاملها عند ذاك وكأنها أصبحت قوى معادية له 498 . وبرزت خلافات أخرى بين الرجلين في الموقف من القومية 499 ، إذ كان عبد الفتاح إبراهيم شديد النقد للقوى القومية وممارساتها في العراق

لا شك في أن تقييم كامل الجادرجي صارماً وفيه الكثير من الحيف بحق عبد الفتاح إبراهيم ، ولكنه لا يخلو أيضاً من نقاط معينة تشير إلى المزاجية الشديدة في طبيعة عبد الفتاح إبراهيم وفي صرامته وصعوبة إقناعه بوجهات نظر أخرى يؤمن بها ، وهي إشكالية ، كما يبدو ، كانت قد سمت أغلب الماركسيين ، بغض النظر عن المدرسة التي ينتمون إليها أو التيار الذي يعملون معه أو الوجة التي يعتقدون بصوابها ، فهم يمتلكون الحقيقة كلها ، ولا يملكها الآخرون . وكان

496 الجادرجي ، كامل. مذكرات كامل الجادرجي. مصدر سابق. ص 198/197.

497 نفس المصدر السابق.

498 نفس المصدر السابق. ص 199/198.

499 الوكيل ، فؤاد حسين. جماعة الأهالي. مصدر سابق. ص 183.

عبد الفتاح إبراهيم متأثراً في بعض أفكاره بالتحليلات السوفييتية ، وبشكل خاص في مسائل القومية والموقف من الديمقراطية البرجوازية ودور الدولة في الاقتصاد ، بما فيه التخطيط ، رغم أن التخطيط قالت به الجماعة الفابية أيضا . كما تجلت في دعوته لوحدة القوى والأحزاب السياسية الديمقراطية في العراق لاحقاً في حزب واحد بدلاً من إقامة جبهة لتلك الأحزاب ، رغم رفض القوى الأخرى لها ، ولكنه بقي مصراً عليها حتى النهاية ، ولم تتحقق .

ويبدو أن الماركسية كانت الإشكالية الأساسية التي وقفت في طريق تطوير العلاقة الفكرية والسياسية بين كامل الجادرجي وعبد الفتاح إبراهيم ، إذ أنه كان على قناعة تامة بماركسية عبد الفتاح ، في حين أن عبد الفتاح ، رغم تحليلاته التي تستند إلى المنهج المادي الديالكتيكي والتاريخي ، لم يكن بالضرورة حينذاك ماركسياً ، إذ كان ما يزال يتحرى عن موقع له ، كما كان ما يزال ينمي إمكانياته الفكرية وينهل من مختلف مصادر الفكر الإنساني ، وهي التي أدت في بعض الأحيان إلى أن يكون انتقانياً في اختياره للأفكار وعدم رسوه على نظرية واحدة . وكان كامل الجادرجي يرى نفسه في المقابل اشتراكياً ديمقراطياً ، وبالتالي كان يقف بالضد من الماركسية ومن الشيوعيين عموماً . وقد عبر عن ذلك في أكثر من مناسبة . وفي ما عدا ذلك يمكن القول بأن الاستنتاج الذي توصل إليه فؤاد حسين الوكيل في كتابه الموسوم "جماعة الأهالي" والقائل بأن الخلاف لم يكن فكرياً وسياسياً فحسب ، بل كان شخصياً أيضاً 500 ، إذ برزت في جماعة واحدة شخصيتان قويتان تريدان لعب دور القائد لهذه الجماعة . وإذا كان أحدهما يجيد دور المناورة السياسية واللعبة الديمقراطية والبراغماتية ، فإن الثاني كان أقل قدرة في هذا المجال وأكثر تصلباً نحو أفكاره وأكثر اعتداداً بنفسه ، وربما أكثر إحساساً بتفوقه وبكونه مؤسس هذه الجماعة ومنظرها الأساسي . إنه صراع بين شخصيتين ، ولكنه كان يستند إلى خلفية فكرية وسياسية أيضاً .

## 2 . انقلاب بكر صدقي العسكري

تفاقم عجز القوى السياسية عن إيجاد معالجات جادة للأوضاع السياسية حينذاك وتردي الحالة الاقتصادية ، رغم انتهاء الأزمة وزيادة موارد العراق المالية من النفط الخام نسبياً وتنامي الحركات السياسية في كل من كردستان وشمال العراق ، وبشكل خاص الحركات الكردية والآشورية ، والحركات العشائرية العربية في مناطق الوسط والجنوب ، إضافة إلى المضابط والمذكرات الاحتجاجية التي رفعها رجال الدين وقوى المعارضة السياسية إلى الملك غازي ، الذي كان قد نصب على العرش بعد وفاة والده ، والضربات العسكرية القاسية والعنف الدموي الاستبدادي الذي مارسته الحكومة العراقية إزاء تلك الحركات دون أن تبذل الجهود السياسية العقلانية لمعالجة الوضع سياسياً وديمقراطياً . وكان الجيش هو الأداة الفعلية لممارسة تلك السياسة إزاء الحركات الست التي وقعت في غضون عشرين شهراً وقوبلت بالحديد والنار<sup>501</sup> . ولعب الفريق بكر صدقي العسكري دوراً بارزاً في التصدي الشرس لتلك الحركات وأوقع باتباعها خسائر فادحة بتشجيع ومساندة وتحريض من جانب رشيد عالي الكيلاني الذي كان وزيراً للداخلية حينذاك<sup>502</sup> . إذ لم تكن الحملة العسكرية التي نظمتها حكومة رشيد عالي الكيلاني في عام 1933 ، وانتدبت لها الفريق بكر صدقي العسكري ، ضد الآشوريين ، بسبب الحركة المحدودة التي قامت بها مجموعة من المسلحين كانت تعمل قبل ذلك في إطار قوات الليفي التابعة للقوات البريطانية ، والتي خشيت على وجودها ومستقبلها بعد إقرار معاهدة 1930 ودخول العراق عصبة الأمم في عام 1932 ، بقيادة كل من ياقو ولوقو ، بل كانت لها أسباب أخرى عديدة بما فيها احتمال اعتبارهم أعواناً لبريطانيا ومتحالفين معها ضد العرب أو ضد الدولة العراقية ، إضافة إلى المطالب التي كانت ترى قيادة الآشوريين الدينية إمكانية تحقيقها لصالح تعزيز دورها في حياة السكان الآشوريين .

وبدلاً من أن تواجه الحكومة تلك الحركات السياسية والعسكرية بالحكمة والصبر والتجاوب الموضوعي مع حاجات السكان وإيلاء اهتمامها الخاص بمشكلاتهم والبدء الجاد بمعالجتها سلمياً وديمقراطياً ، أقدمت على استخدام القوة والعمليات العسكرية العدوانية ضد الآشوريين جميعاً ، دون أي تمييز ، ونظمت مجازر مريعة ضد الأمنيين من السكان . ومع أن الجرائم لم تكن بأي حال مبررة ولا منسجمة مع طبيعة التحرك الآشوري ولا مع بدائيته وسوء الفهم الذي ساد الأوساط الآشورية من جراء السياسات التي مورست حينذاك ، ولا مع الأخطار التي يمكن أن تثيرها مثل هذه الحركات ، فإن القوى السياسية العراقية كلها تقريباً اتخذت مواقف غير ودية من الآشوريين واعتبرتهم من المذنبين الذين يستحقون العقاب .

وجهت القوات العراقية بقيادة بكر صدقي ضربات عسكرية قاسية ومارست العنف الدموي الاستبدادي إزاء تلك الجماعات التي ساهمت بتلك الحركات أو حتى الذين لم يساهموا فيها . فمجرد كونه آشوري كان يواجه العسف والظلم والموت أثناء تلك الحملة . ولعب الحكم دوراً كبيراً في تأليب المجتمع ضد الآشوريين ، إذ اعتبروا حلفاء للقوات البريطانية ، وبالتالي ، فهم عملاء يجب التخلص منهم . لذا تعرض الآشوريون لمزيد من أعمال القتل والنهب والسلب . ولم يميز المعتدون في غالب الأحيان بين الناس العزل من رجال ونساء وأطفال وشيوخ ، بل كان نصيبهم الأذى والموت ما داموا آشوريين . وكانت قوات الجيش والشرطة هي الأداة

501 الحسني ، عبد الرزاق. تاريخ العراق السياسي الحديث. الجزء الثالث. ط 7. دار الشؤون الثقافية العامة. بغداد. 1989. ص 155.

502 شوكت ، ناجي. سيرة وذكريات ثمانين عاماً 1894-1974. الجزء الأول. مكتبة دار اليقظة العربية. بغداد. 1990. ص 264.

الفعلية لممارسة تلك السياسة إزاء الحركات الآشورية وغيرها من الحركات السياسية التي برزت في حينها ، أو التي وقعت في غضون عشرين شهراً وقوبلت بالحديد والنار 503 .  
ورغم الأخطاء التي ارتكبتها جماعات آشورية في هذا الصدد ، فإن مجابهة كل الآشوريين بتلك القسوة والبعيدة كل البعد عن الروح الإنسانية دليل على سيادة أجواء لدى ماسكي زمام الحكم حينذاك تتسم بعنصرية حاقدة وعداء ديني مقيت وكره غير مبرر أبداً لبشر لا ذنب لهم سوى كونهم شردوا من موطنهم حكاري ووصلوا إلى منطقة كانت ما تزال في إطار الدولة العثمانية عند الهجرة إلى المناطق الجديدة ووضع الكثيرين منهم في معسكر للاجئين في بعقوبة وفي مناطق أخرى من العراق الراهن 504 ، رغم أنهم كانوا في الأصل أيضاً في هذا القسم من العراق قبل ذلك ، فهم شاء من شاء وأبى من أبى ، جزء من ذلك الشعب الذي ساهم ببناء التراث والحضارة العراقية القديمة ، الشعب الآشوري ، وبالتالي فهؤلاء الناس هم أبناء جلدتنا ، وليسوا "بطارنيين" على هذا الوطن الذي اتسع لشعوب كثيرة ، العراق ، كما وصفهم الكاتب العراقي عبد المجيد حسيب القيسي ، الذي هاجم بحق سياسة رشيد عالي الكيلاني وبكر صدقي إزاء الآشوريين ودافع عن الآشوريين في كتابه الموسوم "في رؤية جديدة تاريخ القضية الآشورية في العراق" ودافع عن الآشوريين عموماً وفضح خلفية الحركة وخلفية الحملة العسكرية الظالمة ضدهم 505 .

لقد سقطت ضحايا كثيرة من الآشوريين ، وبشكل خاصة في مجزرة قرية "سميل" ، والتي وصفها أكثر من كاتب ، كما وردت في كتاب عبد الرزاق الحسني ، تاريخ الوزارات العراقية ، الذي سجل موقف الحكومة وأرقامها من جهة ، ووقف بحماس منقطع النظير ، على غير عادة المؤرخين المحترفين ، موقفاً عدائياً جداً من الآشوريين عموماً من جهة أخرى ، وهي على النحو الآتي: " . . . ، بلغ عدد القتلى نحو (350) ، وقد تبين لدى التحقيق وعند الدفن أن بين القتلى عدد (كذا) لا يستهان به من العشائر ، كما جرح عدد كبير منهم 506 ، ثم يشير في الهامش ، وفق تقرير أمر مخفر شرطة سميل إلى أن المصادمة أسفرت عن قتل 25 من العشائر و305 من العصاة 507 .

وجدير بالإشارة إلى أن قرية سميل لم تشهد مقاومة ، بل جرى نزع أسلحة القرويين والقاطنين فيها والمهاجرين إليها ثم فصل الرجال عن النساء والأطفال وتم حصد دم بارد 508 ، كما

503 الحسني ، عبد الرزاق. تاريخ العراق السياسي الحديث. الجزء الثالث. ط 7. دار الشؤون الثقافية العامة. بغداد. 1989. ص 155.

504 كانت منطقة حكاري الواقعة في شرق الأناضول موطناً للآشوريين منذ أجيال بعيدة ، إذ كانت تعيش فيها القبائل الخمسة التي تشكل مجتمعة الأقلية القومية الآشورية. وخلال الحكم العثماني تعرضت العشائر الآشورية القاطنة في منطقة حكاري إلى اضطهاد وتمييز دامين. وكانت هذه السياسة التمييزية من نصيب السكان الأرمن أيضاً الذين تعرضوا في عام 1915 بشكل خاص إلى مجزرة رهيبة راح ضحيتها عشرات ألوف الأرمن ، وكان الجنّة الدولة العثمانية وأجهزتها العسكرية والجنّدرمة وأجهزة القمع الأخرى. وغالباً ما أثارَت الدولة العثمانية الأكراد ضد الآشوريين ودفعتهم لمعارك ضارية لم يكن الخاسر فيها سوى الأكراد والآشوريين ، إلا أن هذه المعارك قد خلقت توتراً مستمراً بين الآشوريين والأكراد ، خاصة وأن منطقة حكاري لم تكن موطناً للآشوريين فحسب ، بل كانت موطناً للأكراد أيضاً. فعلى سبيل المثال لا الحصر بلغ سكان حكاري في نهاية القرن التاسع عشر حوالي 300000 نسمة توزعوا على النحو الآتي: الأكراد (160000) نسمة ، الآشوريين/النسطوريون (100000) نسمة ، الأتراك (200000) نسمة ، الأرمن (15000) نسمة ، الأكراد الإيزيديون (4000) ، واليهود (4000). راجع في هذا الصدد:

Yonan, Gabriele. Ein vergessener Holocaust. Die Vernichtung der christlichen Assyrer in der Tuerkei. Pogrom. Reihe bedrohte Voelker 1018. Goettingen und Wien. 1989. S. 211.

505 القيسي. عبد المجيد حسيب. هوامش على تاريخ العراق السياسي في رؤية جديدة - تاريخ القضية الآشورية في العراق".  
CA 95352 USA، CAN P.O.BOX 3539. Modesto الناشر لم يذكر أسم دار النشر ولا سنة الطبع والنشر ، ولكن يبدو من متن المقدمة أنه في عام 1995. ص 52.

506 الحسني ، عبد الرزاق. تاريخ الوزارات العراقية. الجزء الثالث. مصدر سابق. ص 309.

507 نفس المصدر السابق. هامش (1) على الصفحة 309.

508 راجع في هذا الصدد:

(1) القيسي ، عبد المجيد حسيب. تاريخ القضية الآشورية في العراق. مصدر سابق. ص 211-242.

كانت تقوم به العصابات الفاشية والعنصرية في أي مكان من العالم . وهو يذكرنا بما كانت تقوم به الجندمة التركية بقرارات حكومتها إزاء السكان الأرمن في أعوام 1914-1916 . ولا شك في أن عدد قتلى حوادث الآشوريين كانت أكبر من ذلك بكثير ، إذ أن الحديث هنا عن مجزرة قرية سميل فقط ، في حين كانت هناك معارك واغتيالات وقتل في مناطق أخرى بما فيها معركة دير بون 509 .

وفي خلال ذات الفترة تحركت عشائر الفرات الأوسط في حلف مناهض للحكومة وسياساتها استمرت طيلة الفترة 1933-1935 حدثت فيها مجموعة من الانتفاضات العشائرية التي ساندتها الحوزة العلمية في النجف برئاسة حجة الإسلام محمد حسين آل كاشف الغطاء والتي سميت في حينها بثورات الرميثة وسوق الشيوخ . الخ . وخلال هذه الفترة حصلت تغييرات وزارية عديدة أمكن فيها تجنب وقوع صدامات مباشرة مع العشائر من جانب الدولة حتى وصول ياسين الهاشمي إلى السلطة وتشكيله حكومة الصقور الجديدة ، حيث أنيطت وزارة الداخلية إلى رشيد عالي الكيلاني وزارة الخارجية إلى نوري السعيد ووزارة الدفاع إلى جعفر العسكري 510 . وكلف بكر صدقي العسكري ، الذي قاد الحملة ضد الأتوريين وحصل على أوسمة ورفع إلى درجات أعلى في القوات المسلحة العراقية ، مسؤولية قيادة العمليات العسكرية ضد الثوار في منطقة الفرات الأوسط . كتب عبد الرزاق الحسني يقول:

"الفريق "بكر صدقي العسكري" قائد سطع نجمه في سماء العراق عالياً ، يوم عهدت إليه "الوزارة الكيلانية الأولى" قمع حركة التمرد التي قام بها التياراتيون في آب 1933 م ، فقام بهذه المهمة قياماً كان موضع الإعجاب والتقدير ، وقد أحبه حكمة سليمان وزير الداخلية في تلك الوزارة ، وشغف بشجاعته منذ ذلك الحين ، فكانت بينهما صلات ودية . ولما نشبت نار الثورة الأولى في الرميثة في يوم 5 مايس 1935 ، عهدت إليه "الوزارة الهاشمية الثانية" أمر إخمادها ، فكانت مواقفه في التأديب مشهودة ، فلما ثارت "سوق الشيوخ" بعد "الرميثة" ذهب إلى "الناصرية" وتولى إخماد الحركة الجديدة وهكذا عهد إليه إخماد "حركة الشيخ شعلان العظيمة" بعد "حركة الرميثة" . "511 . وكانت ضحايا هذه الحركات التي أخمدها بكر صدقي العسكري في الفرات الأوسط كبيرة جداً . كتب جرجيس فتح الله بهذا الشأن يقول:

"نحن لا نملك أرقاماً أو إحصاءات بالقتلى الذين هلكوا في عمليات التأديب أو إخماد الثورات في الفرات الأوسط خلال العامين 1935-1936 . على أني عثرت مثلاً في حاشية لكتاب عبد الرزاق الحسني ، وقد أشرت إليه سابقاً ، على رقم تقديري لحصيلة القتلى في معركة احتلال سوق الشيوخ قدره له أحد الثقة المطلعين ب (600) قتيل خلاف الجرحى . كما وجدت في أحد المصادر أن قصبه (الرميثة) ضربت ضرباً قاسياً بالمدافع وبالطائرات بحيث لم يجد الجيش الذي دخلها حيواناً يسعى على اثنين أو أربعة . وقد سبق لي أن وصفت ما حل بسوق الشيوخ وأنا شاهد عيان . وما حصل للدغارة وهو عين ما حصل للرميثة . وقد تولى الفريق بكر صدقي سير العمليات كلها بوصفه قائد القوات العسكرية . أقول أسرع (جعفر العسكري) وزير الدفاع إلى المنطقة بعد أن بلغته أنباء تفيد بأن هناك أوامر صادرة من القيادة بوجوب قتل الأسرى من رجال القبائل ، بل حتى صبيانهم ، فتح تحقيقاً وكتب تقريراً" 512 . ويشير الكاتب إلى أن

(2) فتح الله ، جرجيس . رجال ووقائع في الميزان . ط 1 . دار نوارس للطباعة والنشر . السلسلة الثقافية . أربيل . 2001 . ص 250-252 .

509 الفيسي ، عبد المجيد حسيب . تاريخ القضية الأتورية في العراق . مصدر سابق . ص 181-210 .

510 الحسني ، عبد الرزاق . تاريخ الوزارات العراقية . الجزء الرابع . مصدر سابق . ص 82 .

511 نفس المصدر السابق . ص 211 .

512 فتح الله ، جرجيس . رجال ووقائع في الميزان . مصدر سابق . ص 261 .

الحسني يذكر ، بناء على سماعه من رستم حيدر ، بأن ما جرى وما قيل بهذا الشأن كان حقيقة 513 .

ولم تكن هذه هي آخر الأعمال العسكرية لبكر صدقي العسكري قبل انقلابه العسكري في عام 1936 ، بل كان مسؤولاً أيضاً عن إخماد ما سميت بثورة اليزيدية التي حصلت بسبب رفض الإيزيدية الانخراط في القوات المسلحة العراقية بعد صدور "قانون الدفاع الوطني" في عام 1935 ، إذ "امتنع داود الداود -أحد زعماء اليزيدية- عن تسجيل أتباعه ، مدعياً أن ديانتهم تمنعهم من الدخول في الجندية" 514 . ونظمت حملة عسكرية ضدهم "إذ المدفعية أصلتهم ناراً حامية ، فقتل من قتل ، وفر من نجا ، واستسلم 224 نفرأً بلا قيد أو شرط" 515 . وبذلك أمكن إخماد الحركة فهرب جريحاً "إلى الأفرنسيين في "القامشلي" وأدخل المستشفى للتداوي ، . "516 . وجرت محاكمة للأسرى وغيرهم من أبناء الإيزيدية تم خلالها الحكم على 9 بالموت ونفذ فيهم فعلاً . أما عدد المحكومين بالحبس ، والنفي ، والإبعاد ، فقد بلغ 378 شخصاً" 517 .

من هنا يتبين أن بكر صدقي كان اليد الضاربة لكل الحركات الشعبية التي نشطت في الفترة بين 1933-1936 حتى وقوع انقلابه العسكري ، وأنه كان واحداً من أقسى العسكريين وأشداهم ظلماً ، بغض النظر عن مدى عدالة تلك الحركات أو عن مدى أهميتها ومخاطرها على العراق والوحدة العراقية التي تشبث بها الحكام حينذاك .

وإزاء هذا الوضع السياسي والاقتصادي المعقد تحركت بعض فصائل الجيش العراقي بقيادة الفريق بكر صدقي ، وكان في حينها نائباً للقائد العام للقوات المسلحة طه الهاشمي ، إذ كان القائد العام خارج العراق ، وبدعم مباشر من قائد الفرقة الأولى الفريق عبد اللطيف نوري وقائد القوة الجوية محمد علي جواد ، بحركة انقلابية وفرض على الملك غازي أن يطلب من رئيس الوزراء ياسين الهاشمي الاستقالة وتكليف حكمة سليمان ، وكان عضواً قيادياً في جماعة الأهالي وصلة الوصل بالقيادة العسكرية ، بتشكيل الوزارة الجديدة . ويبدو أن التهديد بدخول بغداد عسكرياً قد أثار غضب وزير الدفاع حينذاك ، جعفر العسكري ، فطلب من الملك غازي كتابة رسالة إلى بكر صدقي ليأخذها بنفسه . واستقبلت مجموعة عسكرية وزير الدفاع لتأخذه إلى قائد الانقلاب . وفي الطريق إليه غدرت به وقتله . وتتفق الآراء على أن قتله تم بقرار مباشر من بكر صدقي . وكان الهدف منه بث الرعب في نفوس الكثيرين ممن كانوا على خلاف مع قادة الانقلاب 518 . وكان أول انقلاب عسكري يشهده العالم العربي في الفترة التي

513 نفس المصدر السابق. ص 262/261.

514 الحسني ، عبد الرزاق. تاريخ الوزارات العراقية. الجزء الرابع. مصدر سابق. ص 151.

515 نفس المصدر السابق. ص 152.

516 نفس المصدر السابق. ص 152.

517 نفس المصدر السابق. ص 155/154.

518518 يشير الصحفي العراقي رفانيل بطي في مذكراته التي أصدرها ولده من بعده الصحفي الدكتور فائق بطي ، بهذا الصدد ما يلي:

"وعندما حدث الانقلاب العسكري اضطربت جد الاضطراب وخفت خوفاً شديداً لأنه الحادث الأول من نوعه وفيه إرهاب عسكري ورافق الحوادث مقتل جعفر باشا العسكري حتى أنني في يوم الخميس ظلتت بغير طعام ترتعد فرانسى. وفي المساء لم أتعش". راجع في هذا الصدد: بطي ، رفانيل. ذاكرة عراقية. الجزء الأول. دار المدى. دمشق. 2000. ص 267. وقد ألزم هذا الصحفي المتميز على السفر إلى الخارج للدعاية للانقلاب وتشجيع الصحفيين والسياسيين على زيارة العراق والاطلاع على الأوضاع فيه وتأسيس مكتب لجريدته "البلاد" في القاهرة بقرار من بكر صدقي وحكمت سليمان ، رغم أنه كان من المخالفين للانقلاب ولهما ، ومن مؤيدي وزارة ياسين الهاشمي التي كان الانقلاب موجهاً ضدها. ولهذا هوجم في الصحف والصحفيين والسياسيين في البلدان العربية ، إذ كان نائباً في المجلس النيابي ، على تقلبه السياسي. ولكن لا يسع الإنسان إلا أن يفهم السبب وراء قبوله بالمهمة والقيام بالدعاية للحكم الجديد بعد أن يفهم الرعب الذي كان عليه ووصفه بنفسه. راجع في هذا الصدد أيضاً: الحسني ، عبد الرزاق. تاريخ الوزارات العراقية. الجزء الرابع. ط 4 موسعة. مطبعة دار الكتب. بغداد. 1974. ص 243/242.

أعقبت الحرب العالمية الأولى وقيام الدول الوطنية الجديدة . لهذا وقفت العديد من الصحف في الأقطار العربية ضد هذا الانقلاب لإدخاله أسلوباً جديداً في الصراع السياسي يمكن أن يجهض الاتجاهات والحياة البرلمانية والديمقراطية في البلاد ، رغم السياسات غير الديمقراطية التي كانت تمارسها حكومات تلك الفترة في العراق . وبهذا المعنى كتبت جريدة الأيام الدمشقية في عددها 1229 الصادر في أول تشرين الثاني/ نوفمبر 1936 مقالاً جاء فيه ما يلي: "ليس مهماً أن يذهب الهاشمي من الحكم وبأتي حكمة سليمان ، أو نوري السعيد ، أو جميل المدفعي ، أو جعفر العسكري ، إليه وكلهم مخلص للعراق ، بل المهم أن يكون الخروج عن التقاليد البرلمانية ، والقواعد الدستورية ، عاملاً على خروج الأحزاب في العراق عن معارضتها الرشيدة التي رأيناها منذ تحرير العراق من قيود الانتداب إلى الآن" 519 . وبعد حادثة قتل جعفر العسكري أسندت رئاسة الوزراء إلى حكمة سليمان الذي وزع الحقائق الوزارية كما يلي: 520

حكمة سليمان	رئيساً للوزراء ووزيراً للداخلية (جماعة الأهالي)
جعفر أبو التمن	وزيراً للمالية (جماعة الأهالي)
كامل الجادرجي	وزيراً للاقتصاد والأشغال العامة (جماعة الأهالي)
يوسف عز الدين إبراهيم وزيراً للمعارف	(جماعة الأهالي)
صالح جبر	وزيراً للعدل

الدكتور ناجي الأصيل وزيراً للشؤون الخارجية  
الفريق عبد اللطيف نوري وزيراً للدفاع

احتفظ الفريق بكر صدقي برئاسة أركان الجيش العراقي ، وكان القائد الفعلي للحكومة وقراراتها واتجاهات نشاطها ، رغم أنه لم يكن رئيسها . واضطر رئيس الوزراء المستقيل قسراً ، ياسين الهاشمي ، على مغادرة البلاد إلى منفاه في بيروت ، حيث توفي فيها في نفس العام .

حاز الانقلاب ، على صعيد الشارع العراقي ، بتأييد واسع ، كما أيده جماعة الأهالي بشكل عام ، رغم اعتراض بعض الوجوه القيادية فيها ، وخاصة عبد الفتاح إبراهيم وعبد القادر إسماعيل ، إذ اعتبرا ذلك خروجاً على الأسس الديمقراطية ومخالفة صريحة لمبدأ إبعاد الجيش عن الحياة السياسية اليومية . وأورد الدكتور خالد التميمي نصاً من مذكرة قدمها عبد الفتاح إبراهيم إلى قيادة جماعة الأهالي معرباً عن رفضه لما وقع ، حيث كتب يقول: "أنكم حطتم حركتنا عندما مكنتم الجيش من حيازة السلطة ، ولسوف تدفعون ثمن ذلك" 521 . وكان محقاً في ذلك . وانسجماً مع هذا الموقف رفضاً تسلم أي حقيبة وزارية 522 ، بل كانت بداية الطلاق بين عبد الفتاح وجماعة الأهالي . وأصدرت الجماعة بياناً تدعو فيه "الأهلين إلى القيام بمظاهرة كبرى لتحقيق مطالب الشعب التالية:

1. إزالة آثار الظلم الماضي .
2. تقوية الجيش تقوية عامة .
3. العفو العام عن المسجونين السياسيين .
4. فتح النقابات والصحف التي أغلقتها الحكومات السابقة .
5. تخفيف ويلات الفقر ، وإيجاد الأعمال للعاطلين ، وتشجيع الصناعة المحلية .

519 الحسني ، عبد الرزاق. تاريخ الوزارات العراقية. الجزء الرابع. مصدر سابق. ص 243.

520 الحسني ، عبد الرزاق. نفس المصدر السابق. ص 234.

521 التميمي ، خالد د. محمد جعفر أبو التمن. مصدر سابق. ص 397.

522 نفس المصدر السابق. ص 397.



6. توحيد الحركات الشعبية في الأقطار العربية لتأمين تقدم هذه البلاد .

7. التساوي في الحقوق بين العراقيين ، والتمسك بوحدتهم ، ونشر الثقافة والوقاية الصحية في جميع العراق "523 . وقعت البيان المذكور "جمعية الإصلاح التقدمي الوطني" .

وحصل الانقلاب على تأييد الشيوعيين والحركة النقابية وأوساط واسعة من السكان ، بعد أن اتخذت الحكومة الجديدة جملة من الإجراءات التي ساعدت على تنشيط هذا التأييد ، وأطلقت حدود معينة الحريات الديمقراطية ، إضافة إلى إعلان جعفر أبو التمن بيان الوزارة الجديدة من الإذاعة في الخامس من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر 1936 ، معبراً فيه عن جملة من المهمات التي تسعى الوزارة إلى تحقيقها والتي كانت تتبناها قوى المعارضة السياسية وتطالب بها الجماهير الشعبية . وقبل ذلك بيومين ، أي في الثالث من تشرين الثاني/نوفمبر ، نظمت ببغداد مظاهرة حاشدة تأييداً للحكومة الجديدة واتجاهاتها الجديدة ، كما حصلت تجمعات ومظاهرات تأييدية في مناطق شعبية وفقيرة في بغداد وفي مدن عراقية أخرى .

ولا شك في أن هذا الانقلاب الأول من نوعه في الدول العربية كان من حيث المبدأ تجاوزاً على مضمون الدستور العراقي والقوانين السارية المفعول والقانون الخاص بالقوات المسلحة العراقية . وكانت الحجة في ذلك أن الوزارات السابقة هي التي تجاوزت على الدستور ، وهي التي استخدمت الجيش لقمع الحركات السياسية ، وهي التي فرضت على الشعب معاهدة 1930 وامتنياز النفط الخام وغير ذلك ، وبالتالي كان لا بد من وضع حد لهذه التجاوزات .

ويبدو مفيداً الإشارة إلى أن تأييد الشيوعيين للانقلاب قد ارتبط بعدة عوامل ، نشير في أدناه إلى بعض منها:

- لم يكن الحزب الشيوعي والجماعات الماركسية الأخرى ترفض مشاركة القوات المسلحة في النشاط السياسي ، بل كانت تعمل من أجل كسب العسكريين إلى صفوفها وإلى جانب القضايا التي كانت تسعى إلى تحقيقها ، إذ أنها تعتبر القوات المسلحة جزءاً من الشعب؛
- كانت الحكومات العراقية المتعاقبة ، ومنها حكومة ياسين الهاشمي ، قد بدأت بمطاردة الشيوعيين واليساريين والتضييق على نشاطهم ، كما حكمت المحاكم العراقية في عام 1935 على عدد من الشيوعيين والديمقراطيين بالسجن لمدد مختلفة . في حين قامت حكومة الانقلاب بإطلاق سراحهم بعد ذلك مباشرة ، إذ أصدرت عفواً عاماً بذلك ، وكان من بينهم زكي خيري 524 .
- وفي بيان الحكومة الجديدة ، الذي ألقاه وزير المالية جعفر أبو التمن ، ورد ما يلي: "ولم تكتف الوزارة (المقصود وزارة ياسين الهاشمي) بكل ما قامت به من الأعمال الفظيعة ، والفسوة ، والشدة ، والتنكيل والتخريب ، وإعلان الأحكام العرفية ، والتباعد ، والزج في السجون ، بل أنها لم تنتج عن كراسي الحكم إلا بعد أن تركت الخزينة في عوز لا يستهان به ، وعرضت بكثير من المشاريع إلى الخطر ، إذ أن للقائمين بها أقساطاً مستحقة الدفع لهم لم تدفع في حينها" 525؛
- تشكيل الوزارة بمجموعة من الشخصيات الديمقراطية التي كان لعدد من الشيوعيين صلة مباشرة بهم أو عملوا معهم في الحزب الوطني أو لعلاقات كانت ما تزال قائمة مع جماعة الأهالي ، إذ استبشروا بذلك خيراً؛

523 الحسني ، عبد الرزاق. تاريخ الوزارات العراقية. الجزء الرابع. ط 4 منقحة. مطبعة دار الكتب. بغداد. 1974. ص 241.

524 خيري ، زكي. صدى السنين في ذاكرة شيوعي عراقي مخضرم. مصدر سابق. ص 93-95.

525 الحسني ، عبد الرزاق. تاريخ العراق السياسي الحديث. الجزء الثالث. ط 7. دار الشؤون الثقافية العامة. بغداد. 1989. ص 157.

- حل المجلس النيابي ودعوة البيان إلى إجراء انتخابات حرة ونزيهة؛
- البيان الوزاري الذي ألقاه الشخصية الوطنية المعروفة جعفر أبو التمن تضمن جملة من المطالب التي كان الشيوعيون يناضلون في سبيل تحقيقها ، سواء كان ذلك في مجال السياسة الداخلية أم الخارجية أم السياسة المالية والعدلية ومستوى معيشة السكان<sup>526</sup>؛
- والوثائق المتوفرة تشير إلى اقتران هذا التأييد بإصدار بيانات ومنشورات تؤكد على المطالب التي يسعون إلى تحقيقها ويدعون الحكومة للأخذ بها<sup>527</sup> . وتجلى ذلك في البيان الذي وقعته مجموعة من الماركسيين والشيوعيين ، إضافة إلى انعكاس ذلك في الشعارات التي سجلها المتظاهرون على لافتاتهم ، والتي حملت ضمن ما حملت الموقف المناهض للفاشية والنازية ، ومنها "تسقط الفاشية المجرمة" . وأغضب هذا الشعار القائم بالأعمال الألماني حينذاك ، الدكتور فريترز غروبا ، وسلم احتجاجه إلى الفريق بكر صدقي ورئيس الوزراء حكما سليمان<sup>528</sup> .

وتجدر الإشارة إلى أن الخطاب الذي ألقاه محمد جعفر أبو التمن تجاوز التطرق إلى معاهدة 1930 ، كما لم يبحث في العلاقة مع بريطانيا العظمى ، بل جاء معبراً عن الرغبة في الإصلاح في مختلف المجالات وإدانة شديدة للحكومة السابقة ، إضافة إلى تأكيده أهمية المساواة بين المواطنين وبعيداً عن التمييز أو التفرقة بينهم ، إذ قال " ... ، وليعلم كل فرد من أبناء البلاد وسكانها ، بأن الحكومة ساهرة في سبيل المحافظة على أموالهم ، ونفوسهم ، وحررياتهم ، واحترام معابدهم ، ومشاعرهم الدينية ، بدون التفرقة بين الأديان والمذاهب ، بعد قضائها على عهد الاضطهادات ، وسلب الحريات والتجاوزات"<sup>529</sup> . ولكن البيان الحكومي ، الذي لم يتطرق إلى معاهدة 1930 ، أكد ، بصدد العلاقة مع بريطانيا ، ما يلي: "(أ) تعزيز روح التآزر بين العراق وبريطانيا العظمى ، والعمل المتواصل لتأمين أقصى الفوائد مالياً ، واقتصادياً ، وعسكرياً ، من الحلف العراقي - البريطاني"<sup>530</sup> . ولم يعبر هذا الموقف الرسمي عن الموقف الفعلي لهذه المجموعة المناهضة للمعاهدة والهيمنة البريطانية على العراق ، رغم التحول النسبي في واقع العراق بعد دخوله عصبة الأمم ، أي أن السيطرة الاستعمارية أصبحت غير مباشرة ، بل كان يستهدف عدم إثارة بريطانيا وتحييد بعض القوى العراقية المساندة لوجودها في العراق . ويتجلى هذا الموقف التساومي أيضاً في قضية الأرض الزراعية ، إذ لم يتطرق البيان الحكومي لقضية الأرض الزراعية ولم يتحرق بالإقطاعيين وكبار ملاكي الأراضي الزراعية . في حين تضمن خطاب محمد جعفر أبو التمن هذه المسألة وأكد ما يلي: "ولقد اعترفت الحكومة على إيجاد المال لغرض إعمار الأراضي بصورة عامة ، وتوزيع الأراضي الأميرية غير المملوكة ، وغير المفوضة بالطابو ، وغير المزروعة منها ، على أبناء البلاد ، كما تقتضيه المصلحة العامة ، مع مراعاة العرف والعادة بصورة خاصة ، ..."<sup>531</sup> . ويتبين لنا من كل ذلك أن جماعة الأهالي ، التي شاركت في الحكم ، لم تكن تفكر باتخاذ موقف مناسب من قضية الأرض الزراعية أو من إعادة النظر بقوانين داوسن الخاصة بالأراضي الأميرية التي منحت باللزامة أو التي فوضت بالطابو أو التي ملكت لشيوخ العشائر وكبار ملاكي الأراضي الزراعية . ولأول مرة وردت في منهاج الوزارة فقرة مهمة حول إقامة قطاع اقتصادي حكومي

526 نفس المصدر السابق. ص 157-163.

527 التميمي ، خالد د. محمد جعفر أبو التمن. مصدر سابق. ص 398.

528 خيربي ، زكي. صدى السنين... مصدر سابق. ص 106.

529 الحسني ، عبد الرزاق. تاريخ العراق السياسي الحديث. الجزء الثالث. مصدر سابق. خطاب محمد جعفر أبو التمن. ص 157.

530 نفس المصدر السابق. المنهاج الحكومي. ص 158.

531 نفس المصدر السابق. خطاب محمد جعفر أبو التمن. ص 157.

، إلى جانب القطاع الخاص ، في فروع الصناعة وتكرير النفط الخام ، حيث ورد فيه " ... ، والقيام بالصناعات النباتية من قبل الحكومة مباشرة على أساس تجاري ، للاستفادة من أكثر المنتجات الزراعية وتأسيس المشاريع الصناعية اللازمة لسد حاجات القطر في البضائع التي يمكن صنعها في العراق: كتعدين النفط بالقيام بمصفى النفط ، والقيام بصورة عامة بالأعمال اللازمة لاستثمار مرافق البلاد ، وزيادة الإنتاج" 532 . وكانت جماعة الأهالي حتى قبل ذلك قد نشرت العديد من المقالات على صفحات جريدة الأهالي وفتت فيها بوضوح ضد الإقطاعية وضد قانون دعاوى العشائر وإلى جانب توزيع الأراضي على الفلاحين .

وتضمن خطاب محمد جعفر أبو التمن والمنهاج الوزاري فقرات مهمة تشير إلى الرغبة في إيلاء اهتمام خاص بقضايا الناس الفقراء والمعوزين وذوي الدخل المحدود من جهة ، وإدانة الرشوة والغنى غير المشروع وفساد الأجهزة وعدم قيامها بواجباتها إزاء المجتمع من جهة أخرى ، مما ساهم في حصول تأييد واسع من الشارع العراقي للحكومة ، كما دفع إلى تقديم "ثلاثة عشر مندوباً طلباً إلى رئاسة مجلس النواب بتاريخ 6 آذار سنة 1937م اقترحوا فيه أن تسن الحكومة قانوناً "تؤلف بموجبه لجنة تحقيق لتحصي الثروات الموجودة لدى الوزراء السابقين وموظفي الدولة ، والتحقق عن مصادرها وكيفية الحصول عليها فإذا ما وجد أنها أو أي قسم منها حصل أو نما بطرق غير مشروعة لها علاقة بمناصبهم أو بعامل النفوذ الذي تمتع به أصحاب تلك الثروات من وراء تقلدهم منصباً أو وظيفة فتصادر تلك الثروات وتطبق عليهم أحكام القوانين المرعية" 533 . ولكن لم يفسح النواب لهذا المشروع بالمرور ، إذ أن هذه الفكرة العادلة ، كما يشير السيد عبد الرزاق الحسني بحق ، "كانت تمس معظم من تقلد المناصب الوزارية في العراق" 534 .

لقد نشطت جماعة الأهالي على الصعيدين الرسمي والشعبي وقدمت طلباً للحصول على موافقة بتأسيس حزب جديد باسم "جمعية الإصلاح الشعبي ، والذي أجاز فعلاً في شهر تشرين الثاني من عام 1936 . ويبدو أن قوة وجود الحزب في الحكم والشخصيات التي تألف منها شجعت بعض أعضاء الحكومة إلى الانتماء لهذا الحزب أيضاً ومنهم الفريق عبد اللطيف نوري ، وزير الدفاع ، والدكتور ناجي الأصيل ، وزير الشؤون الخارجية ، إضافة إلى جعفر أبو التمن 535 . ولكن هذا الوجود القوي في وزارة حكمة سليمان لم تكن منسجمة مع واقع تأثيرهم في السياسة الجارية فعلياً والتي تراجعت تدريجاً عن الأهداف التي طرحتها في البداية ، رغم الإشاعات التي كانت تروج على أن الغالبية العظمى منهم يرتبطون بالشيوعية أو أنهم يميلون إلى الأكراد بسبب كون بكر صدقي العسكري كان كردياً . وتراجع الجو الديمقراطي بعد أن أخل وتراجع رئيس الوزراء حكمة سليمان عن وعوده التي قطعها على نفسه للقوى التي أيدها وساندت الانقلاب ، إذ بدأت أجواء الاستبداد الفردي لبكر صدقي تحتل مكاناً ملموساً في السياسة اليومية وتؤثر على النشاط السياسي في البلاد . وساعدت هذه الأجواء الجماعات القومية التي كانت قد عارضت الانقلاب ، بسبب بعض المواقف التي أخذتها على البيان الوزاري ، وبسبب التأييد الذي حظي به الانقلاب من جماعة الأهالي والشيوعيين ، واستخدمت صحافتها ، الاستقلال والتمنى ، لترويج الاتجاهات والأفكار المناهضة لوزارة حكمة سليمان ولقائد الانقلاب بكر صدقي ، وأصبحتا مركز جذب واستقطاب لكل القوى التي تضررت من

532 نفس المصدر السابق. ص 163/162.

533 نفس المصدر السابق. ص 167. وبالأصل مأخوذ من محاضر المجلس النيابي في دورته الانتخابية السابقة ص 8.

534 نفس المصدر السابق. ص 168/167.

535 التميمي ، خالد د. محمد جعفر أبو التمن. مصدر سابق. ص 407.

انقلاب بكر صدقي ، وتلك التي تعرضت لضربات العسكرية حتى قبل الانقلاب ، أي شيوخ بعض العشائر العراقية وجمهرة من ملاكي الأراضي . يضاف إلى ذلك أن جماعة الضباط الشريفيين كانت تسعى بكل السبل وبالتعاون مع بريطانيا إلى التحري عن طريق مناسب للخلاص من هذه الوزارة ، رغم أنها من الناحية العملية لم تحمل العداء الفعلي لبريطانيا ، ولكنها بدأت بمغازلة ألمانيا الهتلرية عبر القنصل العام الألماني في بغداد حينذاك<sup>536</sup> . وتشير الكثير من الدلائل إلى أن القوى القومية العراقية هي التي دبرت أمر اغتيال بكر صدقي للتخلص منه لأسباب كثيرة ، بما فيها ما أشيع عن تعاونه مع ألمانيا لتسليح الأكراد في كردستان العراق للدفاع عن أنفسهم في حالة تعرضهم لخطر هجوم من جانب بريطانيا .

وأضعف موقع هذه الحكومة في الأوساط الشعبية مجموعة من الإجراءات التي خيبت آمال الشعب بها ، ومنها:

- عدم تطبيق فعلي للمضامين الأساسية التي وردت في البيان الوزاري ، والذي كما يبدو ، كان يعبر عن طموحات جماعة الأهالي ، ومن ثم جمعية الإصلاح الشعبي ، التي أصبحت فيما بعد "حزب الإصلاح الشعبي" وانتمى إليه جميع الوزراء في ما عدا رئيس الوزراء . ولكن البيان الوزاري لم يكن يعبر عن أهداف بكر صدقي أو حكمة سليمان عملياً؛

- الانفراد بالسلطة من جانب رئيس أركان الجيش بعيداً عن إرادة الوزارة أو بعض الوزراء ، وكثرة الأخطاء التي ارتكبتها وكانت تحسب على مجلس الوزراء ، رغم عدم علم البعض منهم أو كلهم بها ، أو جد فجوة بين أعضاء الحكومة من جهة ورئيس الانقلاب وصاحبه رئيس الحكومة من جهة أخرى<sup>537</sup> . وقاد هذا الوضع إلى تقديم أربعة من أعضاء الحكومة استقالتهم ، وهم: يوسف عز الدين وكامل الجادرجي وصالح جبر ومحمد جعفر أبو التمن؛

- الأساليب اللاديمقراطية وسياسة الانتقام التي مارسها الحكم إزاء قوى المعارضة ، ومنها مثلاً إسقاط الجنسية عن عبد القادر إسماعيل بدعوى كونه من أصل هندي ، إضافة إلى نفي مجموعة من السياسيين من أعضاء الوزارة المستقلين ، وعلى رأسهم كامل الجادرجي ، إلى قبرص بسبب مواقفهم ومعارضتهم لسياسات الحكم<sup>538</sup> .

- وأشارت العديد من المصادر ، ومنها مذكرات السفير الألماني في العراق ، الدكتور فريتز غروبا ، إلى أن قائد الانقلاب بكر صدقي ، وهو مواطن كردي ، قد أثار غضب وكراهية القوميين له ، بسبب ما دار في الأوساط السياسية حينذاك من أنه يعمل من أجل إقامة دولة كردية مستقلة تجمع مختلف مناطق كردستان وتبدأ من العراق ، كما أنه يسعى إلى تعزيز مواقع الضباط الأكراد في الجيش ، حيث قبل في سنة الانقلاب أكثر من 70 من طلبة الكلية العسكرية من الأكراد ، وأنه اتصل بالسفير الألماني به (أي بغروبا) من أجل مساعدته على

536 صفوة ، نجدة فتحي. العراق في مذكرات الدبلوماسيين الأجانب. الجزء الخاص بمذكرات الدكتور فريتز غروبا (القائم بأعمال ألمانيا ثم وزيرها المفوض في العراق من سنة 1932 إلى سنة 1939 - ثم في مايس سنة 1941). منشورات المكتبة العصرية. صيدا - بيروت. 1968. ص 85-186.

537537 كتب السيد عبد الرزاق الحسني بهذا الصدد يقول: "كانت الأخطاء التي ارتكبتها الفريق بكر صدقي العسكري ، وباعدت بينه وبين البعض من أعضاء الوزارة السليمانية ، وبينه وبين الشعب وبعض الضباط كثيرة لعل أهمها:

(أ) أمره بقتل جعفر العسكري (ب) إجباره لجماعة نوري السعيد بترك العراق؛ (ج) ابتذاله مع النساء (د) زواجه من الغانية الألمانية (هـ) جهره بالعداء للإنكليز (و) تمسكه ببطانة فاسدة ، هذا إلى أنه كان قليل الخبرة في الأمور السياسية ، شديد الرغبة في الدعاية لنفسه ، ولعل جهره المستمر بالعداء للإنكليز كان في مقدمة هذه العوامل فتعصبوا عليه وقرروا مصيره" ، أي قتله. راجع: الحسني ، عبد الرزاق. نفس المصدر السابق. هامش رقم (1) على الصفحة 172.

538 التميمي ، خالد د. محمد جعفر أبو التمن. مصدر سابق. ص 430.

تسليح كردستان وتأمين إكائيات الدفاع عنها في حالة تعرضها لهجوم بريطاني<sup>539</sup> . ويبدو أن العلاقات التي نشأت بين بكر صدقي والسفير الألماني غروبا استهدفت بالأساس تأمين تأييد ألمانيا ومن ثم إيطاليا للحركة الانقلابية من خلال مساعدتها في الحصول على الأسلحة وعلى تدريب العسكريين على السلاح وإنشاء مدرسة صناعية ، إضافة إلى ما أثاره غروبا حول كردستان . وقد أثار هذا التعاون استياء بريطانيا وسعت إلى التخلص منه وبالتعاون مع الجماعات المؤيدة للوجود البريطاني في العراق وللتعاون الوثيق معها .

-ومن المسائل التي تحتاج هنا إلى إشارة واضحة هو أن تاريخ بكر صدقي العسكري الملطخ بدماء العراقيين في كردستان العراق وفي شماله وكذلك في وسط العراق لم تؤخذ بنظر الاعتبار في موقف القوى السياسية من انقلابه العسكري ، إذ اعتبرها البعض من أعمال البطولة والخدمة الخالصة للشعب العراقي ، في حين كانت ضمن السياسات الجديدة التي أشرت التحول في وجهة الحكم في العراق ، إذ أن الفترة التي سبقت ذلك تميزت بواقف أفضل وبمحاولات جادة لمعالجة المشكلات بطرق التفاوض والسلم لا بالقوة العسكرية منذ تشكيل الحكومة العراقية .

ولعب فيصل الأول دوراً مهماً في تجنب العراق خوض غمار المعارك ضد الحركات السياسية والعشائرية في البلاد . والدلائل كلها تشير إلى أنه كان يريد تجنب توجيه حملة عسكرية ضد الآشوريين ، إلا أنه لم يكن حازماً ولا حاسماً في ذلك ، وبالتالي فسح المجال للكيلاني وبكر صدقي في تنفيذ تلك المجازر وما تبعها من أحداث في مناطق أخرى من العراق .

---

539 صفوة ، نجدة فتحي. العراق في مذكرات الدبلوماسيين الأجانب. منشورات المكتبة العصرية. صيدا-بيروت. 1968. مذكرات الدكتور فريتز غروبا. ص 85-184.

## المبحث الثاني: حركة مايس 1941

### 1 : طبيعة حركة مايس

تميزت الفترة الواقعة بين انهيار حكومة انقلاب الفريق بكر صدقي بعد اغتياله في الحادي عشر من آب/أغسطس من عام 1937 واستقالة وزارة حكمة سليمان في السابع عشر منه ووقوع انقلاب مايس 1941 بنشوء أوضاع سياسية داخلية بالغة التعقيد ، إضافة إلى تعقيدات الوضع العربي ونشوب الحرب العالمية الثانية . فأُسند البلاط رئاسة الحكومة الجديدة للمرة الرابعة إلى جميل المدفعي ، التي استمرت في الحكم حتى استقالته في الرابع والعشرين من كانون الأول عام 1938 وتشكيل الوزارة السعيدية الثالثة . واقترن كل تغيير في الحكومة بحل وانتخاب مجلس نيابي جديد لا يختلف عن سابقه من حيث التكوين والسياسة والوجوه ، بغض النظر عن الفترة التي قضاها كل مجلس من دورته الاعتيادية البالغة أربع سنوات . وبسبب توتر الأوضاع حينذاك شكل نوري السعيد خلال الفترة الواقعة بين 1938-1940 ثلاث وزارات متتالية ، وحصل ، من أجل استمراره بالحكم ، على تأييد ومساندة واسعة من الضباط القوميين على امتداد تلك الفترة وفي الصراع مع القوى السياسية الأخرى بمن فيهم رشيد عالي الكيلاني ، الذي لم يكن حتى ذلك الحين قد التحق بالمجموعة القومية . وكانت الحريات الديمقراطية والدستور العراقي ، رغم نواقصه ، ومصالح الشعب العراقي هي الضحية الرئيسية في كل تلك التبدلات الوزارية والمساومات السياسية لوزارات متماثلة . فعرفت هذه الفترة تراجعاً عن الديمقراطية النسبية وتجاوزاً على حرية الأحزاب والصحافة وملاحقة أصحاب الفكر والرأي الآخر ومحاولة وضع مراسيم وإصدار قوانين مخلة ببندود الدستور . وكانت العناصر الديمقراطية والشيوعية هي الهدف المباشر لمطاردة أجهزة التحقيقات الجنائية ونقمة الحكومات السعيدية المتعاقبة .

وفي هذه الفترة القصيرة تبلور أكثر فأكثر التيار القومي العربي ، الذي برز قبل ذلك في نشاط نادي المثني<sup>540</sup> ، محاولاً بلورة نفسه في اتجاهات فكرية وسياسية جديدة والحصول على مواقع خاصة له في الجيش والشرطة وفي الوسط العشائري ، إضافة إلى الوسط المدني ، كما برزت أولى محاولات هذا التيار الفكري والسياسي لتمييز نفسه عن باقي التيارات والقوى السياسية . فما هي الاتجاهات الفكرية التي تبلورت في جماعة نادي المثني باعتبارها الحامل الفكري لحركة نيسان/مايس عام 1941؟

تمت الموافقة الرسمية على تأسيس نادي المثني (المثني بن حارثة الشيباني) في فترة وزارة ياسين الهاشمي الثانية في عام 1935 وافتتح نشاطه بتاريخ 25/نيسان/أبريل من نفس السنة . واحتل الدكتور صائب شوكت رئاسة النادي ومحمد مهدي كبة نائباً للرئيس . وأصبح الأخير فيما بعد رئيساً لحزب الاستقلال . وكانت هناك وجوه معروفة باتجاهاتها القومية تعمل في هذا النادي ، ومنها الدكتور سامي شوكت ، الذي شكل فيما بعد "جمعية الجوال العربي" وأدخلت نظام الفتوة إلى المدارس العراقية ، والعميد طه الهاشمي ، الذي شارك في عام 1936 بتأسيس "جمعية الدفاع عن فلسطين" وترأسها ، وشاركت معه وجوه أخرى مثل سليمان فيضي

540 الجيزاني ، عيد الله. حزب الاستقلال العراقي 1946-1958 التجربة الفكرية والممارسة السياسية. الطبعة الأولى 1994. بدون ذكر الدار والبلد الذي تمت فيه طباعة الكتاب. ص 37-39

وسعيد الحاج ثابت والشيخ نجم الواعظ ومحمد مهدي كبة وعيسى طه وعبد الرحمن البزاز ، الذي أصبح فيما بعد رئيساً للوزراء في عهد عبد الرحمن عارف بعد مقتل عبد السلام عارف في حادث طائرة في عام 1966 ، ... الخ .

وكان النادي يستضيف الكثير من المحاضرين للتحقيق بالفكر القومي ، كما أصدر العديد من الكراسات التحقيقية الخاصة بالفكر القومي . وكان من بين أكثر النشاط والمحاضرين في النادي والمؤثرين على فكر الشباب حينذاك الدكتور سامي شوكت ، الذي كانت له ثقافة ألمانية ، وساطع الحصري ، وكلاهما احتل موقعاً مهماً في تلك الفترة في وزارة المعارف العراقية وفي مجال التربية والتعليم وتنشئة الأجيال العراقية الجديدة . ويمكن أن نورد نموذجاً من أفكار سامي شوكت ورد في محاضرة له بعنوان "صناعة الموت" ألقاها في خريف عام 1933 نقلاً عن كتاب "التطورات السياسية في العراق" للسيد جعفر عباس حميدي ، ما يلي: "أن القوة أهم من الثروة والعلم وإنها التربة التي تنبت عليها بذرة الحق . وإذا أرادت الأمة أن تعيش بعز فعلية الاعتناء بالقوة التي فسر معناها "إتقان صناعة الموت" ، ودعا أن يكون العراق بروسيا العرب لتحقيق الوحدة العربية . ودعا الطلاب إلى نبذ حياة الترف والتمسك بشعار "اخشوشنوا فأن الترف يزيل النعم" ، وأوضح أن تمسك المسلمين الأوائل بهذا الشعار جعلهم يفتحون ثلث الدنيا" 541 . وتسنى له إدخال الفتوة وتدريب الشباب على الأمور العسكرية حيث أطلق عليه "حامي الفتوة" في العراق . وهي ذات التوجهات الفكرية التي دعت لها مجموعات من المثقفين الألمان في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وفي فترة وصول النازية إلى السلطة ، ومنهم نيتشه وتشمبرلين ورزنبييرغ . وكان الهدف من وراء ذلك "تعويد الفتيان على خشونة العيش وتحمل المشاق وبث روح العسكرية وصفات الرجولة والفروسية ... بواسطة التدريب العسكري على اختلاف أنواعه" 542 . وإذا كان سامي شوكت قد أهتم بشكل خاص في الجانب العملي ، فإن ساطع الحصري قد أبدى اهتماماً أكبر بالتحقيق الفكري ، إذ ألقى سلسلة من المحاضرات حول القضايا القومية والوطنية والموقف من الكسموبوليتية ومن ثم من الأممية ومعاداته للأممية والشيوعية على نحو خاص . واستقى ، كسلفه سامي شوكت ، الكثير من أفكاره من ترسانة الفكر القومي الألماني ومن بعض المفكرين الألمان ، ومنهم فيخته ونيتشه ، واعتمد على الأول في تبيان أهمية القومية والتعصب القومي . ففي محاضرة له برز وقيم عالمياً أفكار فيخته بهذا الصدد حيث كتب يقول: "إن خطب فيخته تنم عن روح وطنية متأججة ، وتدعو إلى نزعة قومية متعصبة . ولا سيما الخطبة الختامية ، فإنها تعتبر آية من آيات التحميس والاستنهاض: يوجه فيخته في خطبته هذه بعض الكلمات إلى الشباب ، ثم إلى الكهول . ثم إلى رجال الدولة والمفكرين والأدباء ، وأخيراً إلى الأمراء ، مصدرراً كل واحدة من هذه الكلمات بقوله: "إن خطبي تستحلفكم وتبتهل إليكم ..." 543 . وبعد ذلك يضطرم حماسه فيقول لهم جميعاً: "إن أجدادنا أيضاً يستحلفونكم معي ويضمون صوتهم إلى صوتي" ، ويأخذ في تصوير صوت الأجداد بأسلوب حماسي جذاب . ثم يعقب ذلك بقوله: "أن أخلافكم أيضاً يتضرعون إليكم ..." 544 . ثم ينهي ساطع الحصري خطبة فيخته بالمقتطف التالي: "... ولو تجاسرت ، لأضفت إلى كل ما تقدم ، قائلاً: "إن القدرة الفاطرة أيضاً تستحلفكم وتستنهضكم .

541 حميدي ، جعفر عباس. التطورات السياسية في العراق. مصدر سابق. ص 184/183.

542 نفس المصدر السابق. ص 185/184.

543 الحصري ، أبو خلدون ساطع. الأعمال القومية لساطع الحصري. القسم الأول. (في ثلاثة أقسام. مركز دراسات الوحدة العربية. سلسلة التراث القومي. الطبعة الثانية: بيروت. 1990. ص 49.

544 نفس المصدر السابق. ص 49.

لأنه لم يبق على وجه الأرض أمة حافظت على بذور قابلية التكامل البشري بقدر ما حافظت عليها أمتكم المجيدة فإذا سقطت الأمة الألمانية ، سقط معها الجنس البشري ، ولا يبقى له أدنى أمل في السلامة" 545 . وكان هذا الفكر الذي يطرحه ساطع الحصري يقترب من نفس الأرضية الفكرية التي تحدث بها ألفريد روزنبرغ ، مفكر وفيلسوف النازية وموجه الدولة الهتلرية فكراً ، والتي تجلت في كتابه الشهير المعنون: "الدم والشرف - نضال من أجل إعادة بعث ألمانيا- " الصادر في ألمانيا/ ميونيخ في عام 1934 ، وهي عبارة عن خطب ألقاها في الفترة الواقعة بين 1919-1933 546 . كما أنها كانت تصب في ذات الاتجاهات الفكرية التي دعا لها نيتشه وهيردر في ألمانيا . وهي أفكار قومية يمينية تبنتها المجموعات القومية اليمينية والنازية في العراق التي شاركت في حركة نيسان/مايس 1941 أيضا ، إذ لم يكن كل من شارك في هذه الحركة من أتباع أو مؤيدي الفكر النازي الألماني على الصعيدين العراقي والعربي . كان جماعة نادي المثني قاعدة لكل الأفكار القومية العربية التي توزعت فيما بعد على اتجاهات مختلفة يمينية متطرفة ويمينية ووسط ، وقلة نادرة من أعضاء ومؤيدي النادي القوميون سارت باتجاهات يسارية في نضالها اللاحق .

وكان يونس السبعاعي ، وكان وثيق الصلة بنادي المثني ، من المعجبين بتجربة هتلر ونشاطه ومواقفه من رجال المعارضة والمخالفين له في ألمانيا ، كما قام لأول مرة في البلاد العربية بترجمة كتاب هتلر المعروف "كفاحي" عن الإنكليزية إلى العربية . وبدأ بنشره على شكل مقالات متسلسلة في جريدة العالم العربي في تشرين الأول/نوفمبر 1933 . 547 وكتب في مقدمة هذه المقالات ما يلي: "... الهتلرية حركة تشغل العالم اليوم ، أظهرها في ألمانيا الضيق ونشاط الشبان ، فكانت حركة قوية اندفعت بين صعاب عظيمة فشقت طريقها واستطاعت أن تأخذ بزمام الأمور في البلاد . وجدير بالعالم ولا سيما في بلادنا أن يعرف كنه هذه الحركة ومراميها ، ونحن لا نجد محدثاً صادقاً عنها مثل موجدتها وحامل لوائها أدولف هتلر زعيم ألمانيا اليوم ، ونحن نعرف لقراء الكتاب الذي وضعه عن مبادئه وكفاحه نقلناه عن الترجمة الإنكليزية الرسمية لكتابه الأصلي ولما يمض على صدورها مدة طويلة ، فأبناء العربية يقرأون كتاب هتلر في وقت يقرأ منه أبناء الإنكليزية وأكثر اللغات الأوروبية والكتاب قصة بديعة عن حياة مغامر كبير هو هذا الزعيم الألماني الذي ارتفع من جندي بسيط إلى قيادة شعب هو من أرقى شعوب الدنيا ثقافة وعلماً . وفي هذه القصة عبر كثيرات كما فيها دروس عملية للمشغلين بشؤون الناس ونحن نقدمه إلى القراء جاهدين أن نجعل الترجمة مفهومة أقرب ما تكون إلى أصلها وأملنا أن يلقي لديهم القبول الذي يستحقه" 548 . ومن نص المقدمة يتسنى للمتابع أن يدرك مدى تأثير السبعاعي بهتلر . كما كان متأثراً بشخصية نابوليون وكمال مصطفى أتاتورك وبغيرهم من المستبدين في العالم ، إذ كان يشعر بأنه الطريق الوحيد لا للوصول إلى السلطة فحسب ، بل وتحقيق أحلامه في الوحدة العربية وفي تحقيق المجد لها باعتبار العراق يمكن أن يتحول إلى بروسية العرب ، كما كان يشير إلى ذلك القوميون المعروفون حينذاك ومنهم ساطع الحصري وسامي شوكت . وكتب محمد يونس السبعاعي عن الحرب ما يشير إلى رغبته فيها ليؤكد نفسه وقضيته وصراعه من أجل البقاء وينتقد أولئك السياسيين الذين يعملون من أجل

545 نفس المصدر السابق. ص 49.

546 Rosenberg, Alfred. Blut und Ehre. Ein Kampf fuer deutsche Wiedergeburt. Reden und Aufsaetze von 1919-1933. Zentralverlag NSDAP. Frz. Eber Nachf.. Muenchen. 1934.

547 العمري ، خيربي. يونس السبعاعي سيرة سياسي عصامي. منشورات وزارة الثقافة والإعلام . الجمهورية العراقية. سلسلة الاعلام المشهورين 12. دار الرشيد للنشر. بغداد. 1980. ص 41.

548 نفس المصدر السابق. ص 41.



الحرب ولكنهم يتحدثون عن السلم زوراً وتضليلاً ، حيث كتب يقول: "... أما أنا فأحبها مع كل فجانعها وبالرغم من هؤلاء المنافقين من الساسة الذين يخاطبون البسطاء بلغة السلم ويعدون أقسى آلات الحرب ... لا أحب الحرب لميل وحشي في نفسي إلى سفك الدماء وقتل الأبرياء ورؤية الدم المسفوح والجسم المجروح ، وإنما لغرض نبيل تبعثني عليه غريزة كمنت في نفس الإنسان يوم (كتب عليه القتال) ، فقد كان فرداً وحارب ليعيش وتوفق إلى النظام الاجتماعي فأهتدي إلى طرق يتبعها في الحياة واستساغ مناحي خاصة في التفكير كما يراه الأوفق ، ومن هنا توسعت المعارك فشملت الأقوام والعناصر المتحاربين لدين والمتحاربين لمبدأ آخر ، كل ذلك لينفذ المرء الغرض الذي اهتدى إلى أنه إنما وجد في الحياة له لا لغيره ... ونبل الغرض من الحرب يجعله يتناسى مصائبها ويتغاضى عن فجانعها ويدعو صادقاً إليها ، وإذا رأته ينفر منها بعض الأحيان فذلك شأن أقوى شهوات البشرية يعقبها فتور ، ونفور مؤقت ثم تعود أشد مما كانت... 549 . ومن اطلع جيداً على أفكار أولئك القوميون الألمان والفرنسيين وغيرهم من القوميون المتعصبين والمستبدين الجامحين لوجد هناك أرضية فكرية مشتركة بينهم ، بغض النظر عن القاعدة الاجتماعية التي ولدوا فيها وانتموا إليها . ويمكن أن يجد الإنسان ذلك عند عدد كبير من هؤلاء المستبدين ، بغض النظر عن الطريقة التي ماتوا فيها . ويشير البعض إلى أن السبب في هذا التوجه عند السبعواوي يكمن في النقص الذي كان يهيمن عليه بسبب صوته النسوي ، حتى أنه كان يحاول أن يلعب دور القيصر في المسرحيات المدرسية . وهو تلعيل لا يخلو من صحة ، ولكن الرجل كان مؤمناً بالمبادئ التي كان يسعى إلى تحقيقها وقدم حياته ثمناً لها ، رغم ضبابيتها وتطرفها اليميني ، سواء اتفقتا معه أم اختلفنا وإياه في ما ذهب إليه من فكر وممارسة ، رغم قناعتنا بخطأ الطريق الذي سلكه والفكر الذي تبناه والسياسة التي مارسها حينذاك .

واتخذت جماعة نادي المثني وجهة مناهضة للفكر الماركسي والفكر الأممي . وتجلت ذلك في كتابات العديد من المحاضرين في نادي المثني ، ومنهم ساطع الحصري ، كما ترد في كتاب عبد الرحمن البراز الموسوم "العراق من الاحتلال حتى الاستقلال" ، معتبرين إياها أفكاراً مستوردة وغريبة عن تربة الوطن مهجنة ، وأنها ضد الفكر القومي ومشوشة عليه ويفترض محاربتها ودفع أذاها عن الشعب العربي ، وكأن أفكار فيخته ونييتشة وغيرهما نابعة من تربة الوطن العراقي أو العربي . فعبد الرحمن البراز كتب يقول: "وإلى جانب الفريق التقدمي اليساري كان هناك فريق آخر من المثقفين لم يكونوا أقل نعمة على الأوضاع القائمة من الفريق الأول ، ولكنهم كانوا يرون أن طريق الخلاص لا يتأتى باصطناع الاشتراكية والمبادئ اليسارية المستوردة قدر تأتية من بعث قومي عربي شامل ، يهز الكيان العام هزاً أساسياً . ... وكان كثير ممن يعتقدون هذه الآراء قد انضموا إما إلى نادي المثني بن حارثة الشيباني ، أو جمعية الجوال العربي" 550 . أما ساطع الحصري فكان أكثر وضوحاً في موقفه من القوى التقدمية واليسارية والشيوعية حيث اعتبرها العدو الجديد للوطنية والقومية ، إذ كتب يقول ، معبراً في ذلك عن جمهرة واسعة من القوميون العرب حينذاك: "ومن الطبيعي أن النزعة الوطنية لم تتقاعس عن العمل تجاه هذا العدو الجديد ، إنها أخذت تناضل الأممية الشيوعية بحزم شديد وقوة كبيرة ، فانتصرت عليها في بعض البلاد . غير أن النضال لا يزال سجالاً بين النزعتين ، مادة وجهاراً في بعض البلاد ، ومعنى وخفية في البعض الآخر" 551 . ثم يقول ما يلي: "أنني أعتقد بأن نظرة

549 نفس المصدر السابق. ص 41/40.

550 البراز ، عبد الرحمن د. العراق من الاحتلال حتى الاستقلال. دار البراق. الطبعة الرابعة. لندن. 1997. ص 178 .

551 الحصري ، أبو خلدون ساطع. الأعمال القومية لساطع احصري. القسم الأول. مصدر سابق. ص 55.

واحدة إلى حالة البلاد العربية والأمة العربية - على ضوء هذه الإيضاحات - تكفي للدلالة على أن انتشار النزعة الأممية - ولو انتشاراً قليلاً - يكون مضراً جداً ، بل مهلكاً وقتالاً بالنسبة إلى أبناء الضاد . فيجب علينا أن نبذل أقصى الجهود لمنع تسرب النزعة الأممية إلى النفوس في جميع الأقطار العربية" 552 .

لنعود الآن إلى تأثير الجيش في السياسة العراقية حينذاك . لا شك في أن انقلاب بكر صدقي فسخ في المجال للجيش أن يتدخل بالسياسة بصورة علنية ومباشرة ، وأن يمارس قاداته تأثيراً كبيراً على القوى والاتجاهات والتحالفات السياسية . إذ كتب صلاح الدين الصباغ في الملحق رقم 2 من مذكراته يقول: "بعد أن استقالت وزارة جميل المدفعي ، اتفق كل من نوري وطفه ورستم 553 ، على تخويل الجيش صلاحية إبداء الرأي في كل أمر يتعلق باستقالة الوزارات ، وقيامها ، وفي انتقاء رؤسائها" 554 . وزاد في الطين بلة إصرار الحكومة البريطانية على التدخل الفظ في شؤون العراق الداخلية وفرض إرادتها على سياسات الحكومات المتعاقبة وعلى مختلف رؤساء الوزارات . وزجت تلك الحكومات وفي فترات متباعدة لا الشيوخيين وحدهم في السجون والمعتقلات ، بل شملت أيضاً العديد من السياسيين من النخبة الحاكمة ذاتها الذين كانوا يتداولون السلطة التنفيذية ، بسبب الاختلافات في وجهات النظر والمصالح الذاتية والقرب من بريطانيا ومصالحها أو البعد عنهما ، وأشير إلى ذلك في الإجراءات التي اتخذتها وزارة جميل المدفعي . كما تزايد نشاط وعدد أفراد التحقيقات الجنائية ، باعتبارها جزءاً من مديرية الشرطة العامة ، إضافة إلى التنسيق بين العاملين في أجهزة التجسس البريطانية والتحقيقات الجنائية العراقية .

وخلال هذه الفترة تفاقم دور وتأثير الحركة الصهيونية في فلسطين ومعاداة سلطات الاحتلال البريطانية للعرب لصالح اليهود بعد أن وجهت ضربات قاسية لانفاسات وثورات عرب فلسطين المتكررة . ولاحظ العراقيون ، كما لاحظ العرب في مناطق أخرى ، الطريقة غير الاعتيادية التي كانت تشجع فيها بريطانيا على إقامة وطن لليهود في فلسطين لتنفيذ وعد بلفور عام 1917 . فاشتعلت الثورة الفلسطينية الأولى في آب من عام 1929 ضد الاحتلال البريطاني وضد الأوضاع المتدهورة اقتصادياً بالارتباط مع أزمة الكساد الأعظم ، والتي قمعت بالحديد والنار من جانب سلطات الاحتلال البريطانية . ومع ذلك لم يتوقف نضال الفلسطينيين ، بل تواصل بأساليب مختلفة حتى اندلعت الثورة الثانية في عام 1933 والتي كانت أقوى وأشد من الثورة الأولى . وجوبت هي الأخرى بقسوة بالغة من جانب القوات البريطانية . وأعطيت هذه المرة الكثير من الوعود للفلسطينيين ، بما فيها تأمين انتخاب مجلس تشريعي وإيقاف الهجرة اليهودية إلى فلسطين وتأمين أوضاع اقتصادية ومعاشية أفضل للسكان . ورغم فشل هذه الثورة أيضاً ، لم تتوقف العمليات النضالية ضد قوات الاحتلال البريطاني . وكان الفلسطينيون يتابعون باحتجاج شديد كيف كانت سلطات الاحتلال البريطانية تعمل يداً بيد مع الحركات الصهيونية من أجل توسيع الهجرة اليهودية من شتى أنحاء العالم وتدرجاً صوب فلسطين وعلى عكس الوعود التي قطعها على نفسها أمام الفلسطينيين . وقادت تلك الأوضاع ، إضافة إلى الأوضاع المعاشية المزرية والبطالة الواسعة في صفوف الفلسطينيين ، إلى اندلاع الثورة الثالثة التي تواصلت من عام 1936 حتى عام 1939 . ولم تحقق الهدف المنشود منها أيضاً . ووجد مفتي الديار

552 نفس المصدر السابق. ص 57.

553 المقصود هنا: نوري السعيد والعميد طه الهاشمي ورستم حيدر.

554 الصباغ ، صلاح الدين. فرسان العروبة. مذكرات الشهيد العقيد الركن صلاح الدين الصباغ. تقديم ومراجعة سمير السعدي. ط 1. تانيت للنشر. الرباط. المغرب. 1994. ص 155.

الفلسطينية الحاج أمين الحسيني نفسه مضطراً إلى مغادرة الديار الفلسطينية صوب لبنان ومنها إلى بغداد بعد أن مكث في لبنان فترة قلقه وتحت مراقبة ومضايقة مستمرة من جانب سلطات الاحتلال الفرنسية .

ورغم التغيرات النسبية التي طرأت على سياسة بريطانيا إزاء العرب واليهود في عام 1940 ، في محاولة منها لكسب العرب إلى جانبها من خلال الحد من الهجرة اليهودية أو رفض بيع أراضي الفلسطينيين إلى اليهود في مناطق معينة ، إلا أن هدف السياسة البريطانية والأمريكية كان واضحاً وقاطعاً ، وكانت الإجراءات تسيير بشكل حثيث نحو تقسيم فلسطين وإقامة وطن يهودي فيها . وكانت هذه السياسة البريطانية إزاء فلسطين واحدة من تلك النقاط الأساسية التي حركت الشارع العراقي ضد السياسة البريطانية وألهبت مشاعر كل المواطنين ودفعت بالبعض صوب النازية الألمانية باعتبارها مناهضة لبريطانيا .

وفي ضوء هذا الواقع كان الموقف متبايناً عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية ، إذ كان لا بد للعراق أن يتخذ موقفاً معيناً من هذه الحرب بالارتباط مع مضمون المعاهدة الموقعة بين بريطانيا والعراق في عام 1930 والتي يفترض أن يمنح العراق بموجبها تسهيلات عسكرية كبيرة للقوات البريطانية ، إضافة إلى دراسة اتخاذ إجراءات مشتركة بهذا الشأن . وإزاء ذلك انقسم الساسة في العراق إلى مجموعتين إحداهما كانت تدعو إلى قطع العلاقات مع ألمانيا وإعلان الحرب عليها إلى جانب بريطانيا وتقديم كل الدعم المطلوب لبريطانيا في سبيل التصدي لألمانيا الهتلرية ، وجماعة أخرى كانت ترفض ذلك وتريد اتخاذ موقف الحياد في الحرب والتعامل وفق التفسير الممكن للمعاهدة بما لا يساعد على زج العراق في الحرب ضد ألمانيا ، ولكنها كانت في حقيقة الأمر لا تريد الحياد ، بل تريد الوقوف إلى جانب ألمانيا وبقية دول المحور . أما الشارع العراقي فكان في جملته ضد بريطانيا بسبب سياساتها في العراق وفي فلسطين وبسبب مواقفها عموماً من القضايا العربية منذ الحرب العالمية الأولى . ووقف الجيش في أغلبه إلى جانب المجموعة الثانية في ما عدا مجموعة من كبار الضباط والسياسيين ، وعلى رأسهم نوري السعيد وجميل المدفعي وتوفيق السويدي وصالح جبر وغيرهم .

كان نوري السعيد حينذاك رئيساً للوزراء وكان حليفاً مخلصاً لبريطانيا يستند في ذلك لا إلى عمالة مباشرة لها بقدر ما كان يلتقي معها في الفكر والسياسة والمصالح ، رغم أن المستفيد الأول من كل ذلك كانت بريطانيا والمتضرر الرئيسي في مثل هذا التحالف غير المتكافئ وأسلوب التعامل هو الشعب العراقي . واتخذ نوري السعيد موقفاً محدداً من الحرب مناهضاً لدول المحور ، ألمانيا وإيطاليا واليابان ، ومسانداً لبريطانيا وفرنسا . وكان في هذا على خلاف شديد مع بعض أعضاء وزارته الذين انقسموا إلى مجموعتين إحداهما تؤيده والأخرى تناهضه وتريد أن يكون الموقف العراقي حيادياً في الحرب وتنفيذ المعاهدة وفق ما كانت تراه في الصالح العراقي . ومع أن موقف نوري السعيد كان صائباً بشكل عام ، وبعيداً عن تفاصيله ، من الحرب ومن تأييد بريطانيا وفرنسا ، وفيما بعد ، الاتحاد السوفييتي ، في الحرب ضد ألمانيا الهتلرية وبقية دول المحور ، فإن هذا الموقف كان مرفوضاً من جانب الشارع العراقي وكل القوى القومية والغالبية العظمى من القوى الوطنية العراقية بسبب مواقف بريطانيا من القضايا العراقية والعربية . كان الموقف الراض لمساندة بريطانيا ينطوي على اتجاهين مختلفين ، رغم كونهما كانا يدعوان إلى الحياد في الحرب ، أي موقف القوى القومية التي كانت تدعو إلى الحياد ولكنها كانت تريد الوقوف عملياً إلى جانب دول المحور ، وموقف الحزب الشيوعي العراقي وبعض القوى التقدمية التي كانت تدعو إلى الحياد أيضاً وكانت تعنيه فعلاً ، ثم مالت بعد ذلك لصالح الوقوف

إلى جانب بريطانيا وفرنسا بعد دخول الاتحاد السوفياتي إلى جانبهما ، أي بعد الغزو الألماني لها .

وفي أوائل عام 1940 قتل وزير المالية رستم حيدر في وزارة نوري السعيد الرابعة . ثم تعرضت الوزارة السعيدية الرابعة إلى محاولة انقلابية كان على رأسها الفريق حسين فوزي ، رئيس أركان الجيش العراقي ، وأمير اللواء أمين العمري ، قائد الفرقة الأولى ، ولكنها أحبطت وهي في المهد ، إذ أحيلا على التقاعد . وقف الضباط القوميون الأربعة إلى جانب نوري السعيد وأفشلوا المحاولة الانقلابية وساعدوا على استمرار نوري السعيد في الحكم وتشكيله وزارة جديدة في شباط/فبراير من عام 1941 ، أي بعد فشل محاولة الانقلاب في الأول من شباط/فبراير 1940 . وكانت هناك شكوك كثيرة في صدق الادعاء بوجود محاولة انقلابية فعلية جادة أصلاً .

وبعد تشكيل الوزارة الخامسة لنوري السعيد تعرض إلى مزيد من الضغط من جانب القوى القومية وعلى رأسهم الضباط الأربعة ، الذين قادوا فيما بعد حركة مايس عام 1941 ، حيث وقف رشيد عالي الكيلاني ، الذي التحق بالقوميين وركب الموجة بعد تشكيل الوزارة السعيدية الخامسة ، إلى جانب حركة مايس .

لم يكن موقف نوري السعيد قوياً ، إذ تغيرت موازين القوى في غير صالحه وصالح بريطانيا ، ولكنه كان في صالح الضباط القوميون ومن التحق بهم من المدنيين ، إضافة إلى تأييد واضح من العميد طه الهاشمي . وإزاء هذا الوضع قدم نوري السعيد استقالته وأنيط أمر تشكيل الوزارة إلى رشيد عالي الكيلاني إضافة إلى تسلمه منصب وزير الداخلية ، كما أراد ذلك الضباط القوميون ، ودخل الوزارة نوري السعيد باعتباره وزيراً للخارجية وطه الهاشمي وزيراً للدفاع ، كما تسلم ناجي السويدي حقيبة وزارة المالية 556 .

ومن الجدير بالإشارة إلى أن حركة القوميين العرب ، ومنذ مجيء الحاج أمين الحسيني ، مفتي الديار الفلسطينية ، إلى بغداد وبتأثيره ودوره المباشر ، اتخذت مساراً جديداً بعدة اتجاهات أساسية ، وهي:

1. تأمين غطاء حزبي سري ينظم ويوجه العملية السياسية في العراق لصالح أهداف الجماعة . وفي ضوء ذلك تقرر في شهر شباط من عام 1941 ، وقبل تسلم رئاسة الوزارة من قبل رشيد عالي الكيلاني ، تشكيل حزب سياسي سري باسم حزب الشعب كما منح كل عضو في هذا الحزب اسماً حزبياً سرياً 557 . وأعطيت القيادة لمفتي الديار الفلسطينية الحاج أمين الحسيني (مصطفى) ، كما كان في عضويته كل من رشيد عالي الكيلاني (عبد العزيز) وصلاح الدين الصباغ (رضوان) ويونس السبعوي (فرهود) وفهمي سعيد (نجم) ومحمود سلمان (فارس) وناجي شوكت (أحمد) 558 . وضم الحزب أيضاً المجموعة التالية من الأعضاء: محمد علي محمود وداود السعدي ومحمد حسن سلمان وعثمان حداد . وكانت المجموعة ، التي أقسمت اليمين على الإخلاص للقضية التي تناضل من أجلها وللحزب الذي أسسته سراً حتى النهاية ، تجتمع باستمرار لاتخاذ القرارات المناسبة ، وكانت وراء تشكيل الوزارات أو تسمية الوزراء وكذلك الانقلاب الذي وقع في الأول من مايس عام 1941 .

555 الحسني ، عبد الرزاق. تاريخ الوزارات العراقية. الجزء الخامس مطبعة العرفان صيدا. 1966. ص 108-110.

556 الحسني ، عبد الرزاق. تاريخ الوزارات العراقية. الجزء الخامس. مصدر سابق. ص 122/121.

557 الحسني ، عبد الرزاق. الأسرار الخفية في حركة السنة 1941 التحريرية. مصدر سابق. ص 109.

558 - شوكت ، ناجي. سيرة وذكريات... الجزء الثاني. مكتبة اليقظة العربية. بغداد. 1990. ص 434/433 و 510-514.

- الصباغ ، صلاح الدين. فرسان العروبة. مصدر سابق. ص 267-269.

وجدير بالإشارة إلى أن مجموعة من هذه التشكيلة القيادية والأعضاء ، وهم رشيد عالي الكيلاني ، ناجي شوكت ، علي محمود الشيخ علي ، يونس السبعوي ، محمد علي محمود ، داود السعدي ، والدكتور محمد حسن سلمان ، قدمت طلباً رسمياً في أعقاب قرارهم السري بتشكيل الحزب ولجنته السرية ، أي بتاريخ 27 آذار/مارت من عام 1941 ، إلى وزارة الداخلية لتكوين حزب سياسي باسم "حزب الشعب" قبل استقالة وزارة العميد طه الهاشمي دون أن يجاب الطلب<sup>559</sup> . ونلاحظ بأن الأسماء التي غابت عن طلب التأسيس الرسمي هي الجماعة العسكرية والمفتي الحاج محمد أمين الحسيني . وعلى غرار كتائب الشباب الهتلرية عمد قادة حزب الشعب السري أو اللجنة السرية ، وفي خضم تنامي السيطرة على السلطة ، إلى تأسيس "كتائب الشباب" لتأخذ على عاتقها تعبئة الشباب وراء الحركة ودعم حكومة الكيلاني ومساعدتها في قبول متطوعين لمواجهة التعبئة العسكرية البريطانية وعملياتها العسكرية في العراق ، وضمان تقديم المساعدة لأسر الشهداء والجرحى . "وكان نواة كتائب الشباب ، كما يشير إلى ذلك السيد عبد الجبار حسن الجبوري وفق الوثائق المتوفرة ، طلاب كليتي الحقوق والطب ودار المعلمين" وكان يشرف على هذه الكتائب "محمد درويش المقدادي (الرئيس) وإبراهيم شوكت وواصف كمال وسليم محمود الأعظمي وعبد الرحمن البراز وعباس كاشف الغطاء وحسن الدجيلي وعبد الكريم كنونة وعبد المجيد القصاب"<sup>560</sup> . وقامت الحكومة بإرسال ضابط عسكري للقيام بتدريب أفراد الكتائب ، وهو الرئيس الأول سامي عبد لقادر .

2. انتهاج سياسة مناهضة بالكامل لبريطانيا وحرمانها قدر الإمكان من تعاون العراق معها في الحرب ضد ألمانيا ودول المحور الأخرى<sup>561</sup> ، رغم أنها كانت تشير في أدبياتها العامة إلى ضرورة المحافظة على العلاقات التقليدية الطيبة مع بريطانيا؛

3. إقامة الروابط المستمرة مع ألمانيا وإيطاليا واليابان لصالح استقلال الدول العربية ووحدتها؛  
4. ربط المصلحة العراقية بالمصلحة الفلسطينية والانطلاق منها في تحديد سياسة العراق إزاء بريطانيا؛

5. العمل على تسلم السلطة في العراق وإزاحة المتعاونين مع بريطانيا كلية . ويشير ناجي شوكت إلى ما يلي: "وقد أقسم أعضاء اللجنة السرية السبعة على أن يعملوا كل ما في وسعهم من قوة وإيمان خالص لإنقاذ العراق وسائر البلدان العربية من الاستعمار وأذنان الاستعمار ، وتحقيق الاستقلال لها على أن تراعي ما يلي:

1. المحافظة على الوضع الراهن ، وعدم التعرض للمعاهدة العراقية - البريطانية في الوقت الحاضر ، حتى ينجلي الموقف نتيجة تطور الأحداث العالمية ، والسير في الأمور بروية وتبصر .

2. إذا كان لا بد من قطع علاقات العراق السياسية بإيطاليا ، فيجب أن يستند القرار في ذلك إلى موافقة مجلس النواب بحرية كاملة .

3. يجب السعي لإبعاد أذنان الاستعمار وعملاء الإنكليز ، أمثال نوري السعيد ، وجميل المدفعي ، وعلى جودت ، وأمثالهم إلى خارج العراق بتعيينهم كسفراء في لندن ، وواشنطن ، والقاهرة ، وغيرها ، وذلك للتخلص من شرورهم في هذه الحرب الطاحنة .

559 الحسني ، عبد الرزاق. تاريخ الوزارات العراقية. الجزء الخامس. مصدر سابق. ص 194.  
560 الجبوري ، عبد الجبار حسن. الأحزاب والجمعيات السياسية في القطر العراقي 1908-1958. مصدر سابق. ص 106.  
561 الصباغ ، صلاح الدين. فرسان العروبة. مصدر سابق. ص 131/130.

4. تعديل الدستور العراقي في أول فرصة ممكنة لتحديد صلاحيات الوصي واستصواب إحلال مجلس وصاية بدلاً منه" 562 . وأضاف صلاح الدين الصباغ أهدافاً أخرى إلى مهمات اللجنة السرية للحزب السري ، كما وردت في كتابه المعروف "فرسان العروبة" ، والتي اعتبرها ناجي شوكت قضايا غير جوهرية . ويؤكد صلاح الدين الصباغ إلى أن القرار تضمن النص التالي: "لما كان الإنكليز قد أقدموا بتشجيع أذنانهم على فرض مطالب مجحفة تتوخى زج العراق في الحرب ، وإرغام باقي الأقطار العربية على السكوت وعدم المطالبة بحقوقها ، فإن عزم طه على قطع العلاقات السياسية مع إيطاليا بصورة فجائية وبدون استشارة المجلس النيابي أو الجيش لن يرضى الإنكليز ، ولن يقعدهم عن تحقيق غاياتهم كاملة . لذلك ، فإن الإنكليز سيعملون على إقصاء قادة الجيش المخلصين ، ليسيظروا عليه ومن ثم ينقاد العراق لهم كما يشاؤون" 563 . لهذا اتفقت المجموعة ، كما يشير إلى ذلك صلاح الدين الصباغ ، إضافة إلى ما أشير إليه سابقاً:

" 1 . المحافظة على الوضع الراهن والتمسك بالمعاهدة العراقية-الإنكليزية التي قررت ما لنا وما علينا ، حتى يتوفر الوقت لدراسة الموقف العالمي ، وانتظار تطور الأحداث في المستقبل القريب . لذلك كان لا بد من الروية والتبصر في الأمور .

2. التوسل بجميع الحجج المقنعة لحمل طه الهاشمي على العدول عن رأيه والانتظار ثلاثة أشهر أخرى ، ينجلي بعدها الموقف العالمي وتبين الحالة السوقية .

3. إذا كان لا بد من قطع العلاقات السياسية مع إيطاليا ، والموافقة على المطالب البريطانية فوراً ، فيوافق على ذلك مجلس نيابي حر ، يمثل رأي الأمة الصحيح لا استناداً إلى رغبة الوصي وقرار مجلس الوزراء فحسب .

4. لما كانت الأكثرية في مجلس النواب الحالي لا تمثل الأمة ، ولما كان أغلب أعضائه من المرتزقة الذين عينهم نوري وجميل وجودت تعييناً ، فمن الواجب حل المجلس ، وفسح المجال لانتخاب مجلس نيابي جديد ، يمثل الأمة تمثيلاً صادقاً ، ثم تعرض عليه طلبات الإنكليز .

5. لما كان نوري وجميل وجودت هم دائماً وأبداً سبب الخلاف وإراقة الدماء ، فمن الواجب تعيين نوري سفيراً للعراق في أمريكا ، وجميلاً في مصر ، وجودت في سفارة غيرها ، إنقاداً للبلاد من عبثهم إبان الحرب الحاضرة ، وتحقيقاً لسلامة الانتخابات النيابية .

6. لما كان الوصي غير مسؤول أمام القانون ، وهو مع ذلك يواصل القيام بنشاط مخالف للدستور ، ويأتي بتصرفات ديكتاتورية على غرار تصرفاته التي أودت بوزارة الكيلاني ، ولما كانت التجربة قد أثبتت ضعف المجالس النيابية في العراق ، وعدم تمرسها في استعمال صلاحيتها ، في إيقاف الوصي (أو الجالس على العرش) عند حده ، وفي كبح جماح ميوله الاستبدادية أو الشخصية ، فمن الواجب أن تدون في الدستور مادة تنص على طريقة معالجة هذا الأمر ، والسلطة التي تكلف بتنفيذها .

7. التوسل بكل الوسائل لاستمالة الوصي ليرضى على قادة الجيش .

8. يكلف الهاشمي بالاستقالة إذا فشل في تحقيق ما ورد أعلاه أو امتنع عنه ، وذلك صوتاً لسمعته ، واستباقاً للأحداث الخطيرة التي ينتظر وقوعها بعد أن تمت التمهيدات إليها . ويعول على أخلاق طه الحميدة في الموافقة على هذا الرجاء فور التقدم به .

562 - شوكت ، ناجي ، سيرة وذكريات. الجزء الثاني. مصدر سابق. ص 434/435.

- الصباغ ، صلاح الدين. فرسان العروبة. مصدر سابق. ص 165/166.

563 صلاح الدين. فرسان العروبة. مصدر سابق. ص 267.

9. وبعد استقالة طه ، يقصد الوصي وفد من كرام رجالات العراق والعرب ومن قادة الجيش ، فيعرضون عليه توسلاتهم ليوافق على إسناد رئاسة الوزارة إلى رشيد عالي الكيلاني ، وليوافق على حل المجلس النيابي ، وانتخاب مجلس جديد فوراً ، ليقول كلمته في طلبات الإنكليز التي تخرج عن المعاهدة العراقية الإنكليزية وللاقتراع على الثقة بوزارة الكيلاني ، فيقرر بقاءها أو استقالته وفق أحكام الدستور .

10. يقطع الجيش على نفسه عهداً صارماً أن لا يتدخل في شؤون الحكومة القائمة ، إذا توثق من سلامة الانتخابات النيابية ، وتأكد لديه أن السلطة التشريعية تمارس كل ما لديها من صلاحيات ، وأنها ليست آلة بيد الوزارة أو الوصي أو الجالس على العرش ، وأن ما من وزارة تتولى الحكم بتأثير من الأجنبي أو بدسائسه<sup>564</sup> .

أوردنا هذا النص الطويل ليساهم في بلورة الاستنتاجات الخاصة بطبيعة حركة نيسان/مايس عام 1941 . ومن الغريب في الأمر أن رشيد عالي الكيلاني ، وبعد سنوات طويلة ، وهو العضو البارز في المجموعة القيادية ورئيس وزراء الحركة ومعتمدها بعد المفتي ، أنكر وجود ونشاط مثل هذا الحزب أو هذه اللجنة في النقاشات التي جرت على صفحات الصحف في القاهرة ، رغم أنه كان من المشاركين في تقديم طلب إجازة الحزب رسمياً ، وعضواً رئيسياً في اللجنة الحزبية السرية . مما اضطر المفتي أن يستعين بذاكرة ناجي شوكت ليؤكد صحة وجود مثل هذه اللجنة السرية أولاً ، وعضوية رشيد عالي الكيلاني فيها ثانياً ، وصحة الأسماء الحزبية التي كان يحملها أعضاء قيادة هذه اللجنة ثالثاً<sup>565</sup> .

وتعرضت الوزارة الجديدة إلى ضغوط متزايدة من مؤيدي بريطانيا ومن السفارة البريطانية في بغداد ، إضافة إلى ضغوط عربية متزايدة من أجل الوقوف إلى جانب بريطانيا ، في حين كان الميل عند رشيد عالي الكيلاني وناجي شوكت والضباط القوميين إلى جانب الوقوف على الحياد ، والذي كان في محتواه مناهضة بريطانيا والاقتراب التدريجي من ألمانيا وإيطاليا . وكانت وزارة رشيد عالي الكيلاني الثالثة تسعى إلى انتزاع تأييد ألماني - إيطالي لصالح الوقوف إلى جانب القضايا العربية واستقلال الدول العربية وحريتها . وصدر فعلاً مثل هذا الموقف بعد اتصالات مستمرة بين الحكومة العراقية والسفير الألماني في تركيا فون بابن وفق بيان أذيع من العديد من محطات الإذاعة في ألمانيا وغيرها . ولكن لم يكن صعباً على هاتين الدولتين تقديم مثل هذا الموقف ، إذ كانت المهمة حينذاك هو وضع عراقيل في طريق تقديم تسهيلات عسكرية وتمويلية إلى القوات البريطانية من جانب العراق ودول عربية أخرى . لا شك في أن الضباط القوميين كانوا مدفوعين بمشاعر وطنية ضد السياسات البريطانية التي لم تكن قد فرضت على العراق معاهدات واتفاقيات اقتصادية ونفطية جائرة ورفضت تسليح الجيش العراقي كما كان يريده هؤلاء الضباط فحسب ، بل كانت ضد القضايا العربية الأخرى ومنها قضية فلسطين . ولكن البديل المناسب لم تكن ألمانيا الهتلرية التي كانت تريد فرض سيادتها وهيمنتها على العالم كله ، بما فيه الدول العربية ، منطلقة في ذلك من ذهنيته العنصرية الفاشية والعسكرية العدوانية والهيمنة الاستعمارية . ومن هنا كان موقف القوى القومية عاطفياً وقومياً ، ولكنه كان موقفاً خاطئاً من الناحية الفكرية والسياسية . ولكنها وبسبب نزعتها القومية الشوفينية والفاشية في الحكم كانت ترى ذلك الموقف سليماً ومعبراً عن مصالح العراق وفلسطين .

564 الصباغ ، صلاح الدين. فرسان العروبة. مصدر سابق. ص 268/269.

565 شوكت ، ناجي. سيرة وذكريات. الجزء الثاني. مصدر سابق. ص 510-514.

لم تنفع الجهود التي بذلها رشيد عالي الكيلاني في تحقيق ما كان يسعى إليه واجتمعت ضده قوى كثيرة ، رغم أن التوازن كان ما يزال يبدو لصالحه . وغادر عبد الإله ، الوصي على العرش وولي العهد ، بغداد قاصداً الديوانية ليكون في حضن العشائر التي تحول شيوخها في الغالب الأعم إلى جانب بريطانيا بعد أن تحققت لهم وعبر السياسة البريطانية الكثير من المكاسب ، وخاصة تأمين مساحات واسعة من أخصب الأراضي الزراعية تحت تصرفهم ، وبالتالي أجبر الكيلاني على تقديم استقالة وزارته ليأمر عبد الإله ، الوصي على العرش ، بتشكيل وزارة جديدة برئاسة العميد طه الهاشمي وأبعد عنها نوري السعيد ورشيد عالي الكيلاني ، لتجنب وقوع معارك بين الجيش والعشائر العراقية .

لم تستطع وزارة الهاشمي تحقيق الهدوء والاستقرار أو إيجاد الحلول التساومية المناسبة في ضوء توازنات القوى حينذاك على الساحة السياسية العراقية ، خاصة وأن العائلة المالكة كانت تقف بشكل قاطع إلى جانب الفريق المساند لبريطانيا . وبدأت المعارضة القومية في الجيش على نحو خاص تزيد من ضغوطها لتنحية طه الهاشمي من رئاسة الوزارة وتكليف رشيد عالي الكيلاني بها . ولكن الوزارة الهاشمية رفضت الاستقالة ، كما رفض الوصي على العرش عبد الإله تكليف غيره بها . وكان دفع الأمور بهذا الاتجاه لا يعني سوى وقوع انقلاب عسكري في البلاد . وفعلاً غادر عبد الإله بغداد إلى الحبانية ليكون في حماية بريطانية ومنها إلى البصرة ليمنع عن الحكومة الجديدة صدور الإرادة الملكية بتعيينها ، وبالتالي ، تبقى الحكومة الجديدة غير شرعية من الناحية الدستورية . وإزاء هذا الوضع حرك الضباط القوميون القوات المسلحة لتسيطر على المناطق الحساسة مستهدفين الضغط لضمان استقالة الوزارة الهاشمية وفرض رشيد عالي الكيلاني لتشكيل الوزارة الجديدة . وتم فعلاً تشكيل حكومة الإنقاذ الوطني ولكن دون غطاء دستوري ، أي دون صدور إرادة ملكية بتشكيلها . وألزم رئيس مجلس النواب على دعوة مجلس النواب للانعقاد وضمان مصادقة المجلس على ثلاثة قرارات كانت المجموعة القومية قد هيأتها سلفاً ، وهي:

- إلغاء وصاية عبد الإله على العرش .
  - إسناد الوصاية على العرش إلى الشريف شرف . (تمت الموافقة على القرارين بالإجماع) .
  - الموافقة على تشكيل الوزارة الكيلانية الرابعة<sup>566</sup> .
- وهكذا نجحت الحركة الانقلابية ضد حكومة العميد طه الهاشمي وتسلم الضباط القوميون العرب

السلطة . وتشكلت الوزارة الجديدة على النحو التالي:567

رشيد عالي الكيلاني	رئيساً للوزراء ووزيراً للداخلية وكالة
ناجي السويدي	وزيراً للمالية
ناجي شوكت	وزيراً للدفاع
موسى الشابندر	وزيراً للخارجية
علي محمود الشيخ علي	وزيراً للعدلية
محمد علي محمود	وزيراً للأشغال والمواصلات
محمد يونس السبعوي	وزيراً للاقتصاد
رؤوف البحراني	وزيراً للشؤون الاجتماعية
محمد حسن سلمان	وزيراً للمعارف

566 الحسنوي ، عبد الرزاق. تاريخ العراق السياسي الحديث. الجزء الثالث. مصدر سابق. ص 234/235.

567 الحسنوي ، عبد الرزاق. تاريخ الوزارات العراقية. الجزء الخامس. مصدر سابق. ص 204/205.



وقع الانقلاب العسكري في اليوم الأول من مايس/أيار من عام 1941 . وفي اليوم الثاني منه بدأت القوات البريطانية حرباً علنية ضد الجيش العراقي منطلقاً من مواقعها العسكرية في الحبانية والشعبية . واستمرت المعارك حتى التاسع والعشرين من الشهر ذاته ، أضطر بعدها الضباط الأربعة ورشيد عالي الكيلاني وآخرون على الهرب من البلاد والالتجاء إلى بلدان مجاورة . وانتهى المغامرة الانقلابية بعودة عبد الإله إلى بغداد وتقديم المسؤولين عن الحركة ، بعضهم كان ما يزال في بغداد وبعضهم الآخر كان قد غادرها ، إلى المحاكمة ، حيث حكمت على المسؤولين المباشرين بالإعدام ، وهم العقلاء صلاح الدين الصباغ وفهمي سعيد ومحمود سلمان ، وفيما بعد ، كامل شبيب ، ويونس السبعائي ، حيث نفذ الحكم بهم في أوقات متفاوتة . وحكم بالإعدام على رشيد عالي الكيلاني الذي لجأ إلى السعودية وبقي فيها ونجا من موت محقق<sup>568</sup> . كما أصدرت المحكمة أحكاماً أخرى بالسجن لفترات مختلفة على عدد غير قليل ممن اتهموا بالمشاركة في الانقلاب أو تأييده والدفاع عنه ، علماً بأن الاعتقال والتقديم إلى المحاكمة شمل أشخاصاً كانوا لا يمتون إلى التيار السياسي القومي مباشرة ولم يشاركوا في الأحداث فعلياً<sup>569</sup> .

انتهت الحركة الانقلابية بمغادرة مجموعة القيادة العسكرية والسياسية البلاد ، وخاصة القيادة الحزبية التي قادت العملية سياسياً وعسكرياً ، أثناء العمليات العسكرية بين القوات البريطانية والقوات العراقية ، التي كانت تقف على رأس الحركة . وتم آخر اجتماع لمجلس الوزراء برئاسة رشيد عالي الكيلاني في 27 مايس/أيار من عام 1941<sup>570</sup> ، ثم صدر عنها القرار رقم 3646 بتاريخ 1941/5/28 القاضي بتشكيل "لجنة الأمن الداخلي في العاصمة والطوارئ" ، وتم انتخاب أمين العاصمة رئيساً لها ، وهي التي وقعت في 1941/5/31 اتفاقية الهدنة مع القوات البريطانية لوقف زحف القوات البريطانية على بغداد . وفي التاسع والعشرين من مايس/أيار غادر رشيد عالي الكيلاني بغداد ، ومعه المفتي باتجاه إيران . وكان يونس السبعائي آخر من غادر العراق من المجموعة القيادية ، بعد أن واصل العمل وأعلن نفسه حاكماً عسكرياً لمنطقة بغداد والمنطقة الجنوبية ، وطالب باستمرار المقاومة للقوات البريطانية . ولكن لجنة الأمن الداخلي استطاعت إقناعه بعدم جدوى المقاومة وطلبت منه مغادرة البلاد باتجاه إيران<sup>571</sup> . وعلى أثر مغادرته حلت كتائب الشباب ، ومنها مجموعة الدفاع عن السبعائي ، (حرس السبعائي الخاص ، الفدائيون)<sup>572</sup> .

568 الحسني ، عبد الرزاق. تاريخ العراق السياسي الحديث. الجزء الثالث. مصدر سابق. ص 236.

569 الحسني ، عبد الرزاق. تاريخ الوزارات العراقية. الجزء السادس. مطبعة العرفان. صيدا-بيروت. 1966. ص 54-56.

570 نفس المصدر السابق. الجزء الخامس. ص 254.

571 حميدي ، جعفر عباس. التطورات السياسية في العراق. مصدر سابق. ص 63.

572 نفس المصدر السابق. ص 63.

## 2 . تقييم الحزب وفهد لحركة مايس 1941

في الأول من أيلول/سبتمبر من عام 1939 فجرت الدولة الألمانية الهتلرية الحرب العالمية الثانية بهدف هيمنة إمبرياليته على العالم والإطاحة بالدولة الاشتراكية الجديدة وبالشيوعية وسحق الديمقراطية في العالم ، والانتقام من المنتصرين على ألمانيا في الحرب العالمية الأولى ، ونشر النظم الفاشية التابعة لها في بقية بلدان العالم .

وفي العراق اختلفت المواقف بشأن الحرب ، كما تابعنا ذلك سابقاً ، ووقع انقلاب نيسان/مايس 1941 ضد الوجود البريطاني في العراق وضد الحكومة الموالية لبريطانيا . وكما فعلت كل القوى السياسية في العراق ، بادر الحزب الشيوعي العراقي في اليوم الثاني من بدء الحركة إلى إصدار بيان تأييد حار يدعو الجماهير فيه إلى الالتفاف حول حركة الدفاع الوطني وتقديم الدعم غير المحدود لها ، منطلقاً من موقف التأييد الشعبي الواسع لها . ولا يعرف حتى الآن في ما إذا كان فهد على علم بهذا البيان قبل صدوره أم لا ، إذ كان ما يزال حتى ذلك الحين لا يمتلك زمام المسؤولية الكاملة في الحزب . وبالتالي ، أدرك فهد حرجة الموقف . ففي عام 1939 عقد الاتحاد السوفييتي اتفاقية ميونيخ للسلام مع الدولة الألمانية الهتلرية ، رغم غزو القوات الألمانية لجيكوسلوفاكيا ، ثم استمرت الاتفاقية رغم غزوها لبولونيا بعد عقد الاتفاقية . وعليه فالاتحاد السوفييتي لم يكن في حالة حرب مع ألمانيا . ولكن فهداً كان يدرك أيضاً بأن شجب الحرب الفاشية أمر ضروري ، لأن الدولة الألمانية تريد تحويل العالم إلى مستعمرات لها ، حيث هيمنت على أذهان الغالبية العظمى من الألمان حينذاك ، النظرية العنصرية القائلة بأفضلية الجنس الآري على الشعوب الأخرى . وكان الموقف محرراً بسبب وجود القوات البريطانية في العراق ، ودخول بريطانيا الحرب ضد ألمانيا الهتلرية . هذا الموقف المعقد من جهة ، والتأييد الواسع النطاق الذي حظي به الانقلابيون من أوساط الشعب ، بسبب كره الجماهير للاستعمار البريطاني من جهة أخرى ، وضعاً فهد والحزب في مأزق حرج ، خاصة وأن موقف الأممية كان في كل الأحوال ضد الاستعمار بشكل عام ، ولكن كانت أيضاً ضد الفاشية وضد الحرب التي أعلنتها وغزت الدول الأخرى . ولهذا ، لم يكن الموقف أمام لحزب وفهد سهلاً ، والاجتهاد بموقف آخر غير موقف الجماهير كان لا يعني سوى الانعزال عن الشعب ، واحتمال تلقي ضربة قاسية من الحكومة القائمة والحزب في بداية إعادة تكوينه . لهذا بادر فهد إلى توجيه رسالة باسم الحزب إلى رئيس وزراء الانقلاب حينذاك؛ رشيد عالي الكيلاني ، يعبر في مضمونه عن هذا الموقف القلق إزاء الوضع ، كما يتدارك في الوقت نفسه موقف التأييد غير المشروط وغير المحدود للانقلاب الذي ورد في بيان الحزب الشيوعي قبل ذلك . ونصت رسالة فهد على ما يلي:

"فخامة رئيس الوزراء رشيد علي الكيلاني المحترم .

إن الحزب الشيوعي العراقي بهنيء فخامتكم على ما كسبتم من محبة ودعم بين الناس ... ويقدر تماماً مدى صعوبة المسؤولية التي تحملون في هذه المرحلة الحرجة من تاريخنا ... وإذا لم يكن (الحزب) قادراً على التعبير عن مشاعر التعاطف بطريقة مشروعة ، فإنه لم يهمل اللجوء إلى وسائل أخرى وربما يكون ببيانه ، المعروف ، قد سبق آخرين إلى تأييد الحركة وتعريف الناس بمعناها الحقيقي . وبتقديم دعمه هذا لم يكن الحزب يتصرف مصادفة أو كيف ما اتفق ، بل بما يتفق مع المعايير النابعة من التعاليم الثورية لماركس ولينين ... وهذه التعاليم ستوجهنا أيضاً في تقييم أي شكل قد تتخذه الحركة في المستقبل...

إن الحزب يؤمن - وهذا ما أوضحه في ... "الشرارة"- بضرورة الاعتماد كلياً على سلطة أبناء الشعب الذين يجب السماح لهم لذلك- بالتمتع بكل حقوقهم الدستورية بلا انتقاص . إن الاعتماد على قوة أخرى غير قوة الشعب أو السير بطريقة لا تتفق مع طموحاته ، سيشكل خيانة لا تغتفر . وعلى هذا الأساس ، وبهذه الروحانية ، ومدفوعاً بإحساسه بالواجب الوطني ، يشعر الحزب الشيوعي أنه مدعو لأن يقدم لفخامتكم رأيه في ما يتعلق بأمور معينة ... ضارة بالحركة الوطنية .

أولاً ، يأسف الحزب الشيوعي ، بل يشمنز من الأعمال الاستفزازية المدبرة ضد اخوتنا اليهود من قبل أدوات الاستعمار البريطاني من جهة ودعاة الاستعمار الألماني من جهة أخرى . إن الاعتداء على الحريات واقتحام البيوت وسلب الممتلكات وضرب الناس وقتلهم ليست ، يا صاحب الفخامة ، مخالفة للقانون والعدالة فحسب ، بل إنها أمور تتعارض مع النزعة الطبيعية لهذه الأمة إلى الكرم واليسالة والنبيل ... إن أمثال هذه الأعمال الإجرامية تؤدي سمعة الحركة الوطنية وتؤدي إلى إحداث شرخ في صفوف الجبهة الوطنية الموحدة ، وبالتالي إلى الفشل ، ومن يستفيد من هذا غير الاستعمار؟ وإنما إذ نعبر بهذا عن عدم موافقتنا ، فأنا لا ننكر بشكل من الأشكال وجود خونة ينتمون إلى الطائفة اليهودية وقفوا مع عصابة عبد الإله ونوري السعيد وأتباعهما الشريرة ، ولكننا نشعر أن العقاب يجب إلا يعمهم جميعاً ، استناداً إلى مواد القانون .

ثانياً ، إننا من أصحاب الرأي القائل ، في ما يخص الدعاية أنه يجب على الإدارة المختصة أن توجه العراقيين على أساس خطوط وطنية صحيحة ، ولكننا لاحظنا مؤخراً ، وبقلق غير قليل ، ... أنها انحرفت إلى سبل لا يمكنها إلا إيذاء الناس ... لم نسمع مؤخراً إلا قرعاً للطبول حول "القضية العادلة" لقوى المحور ... وإنكم تتفقون معنا ، بلا شك ، يا صاحب الفخامة ، أن القوى المذكورة ليست أقل إمبريالية من بريطانيا .

ثالثاً ، هناك مسألة المساعدة الخارجية ، إن بياناتكم المتكررة حول مناعة الحركة الوطنية ضد أية شائبة أجنبية كانت مطمئنة ... إن الاعتماد على أية مساعدة من أية دولة استعمارية يرقى إلى مستوى خيانة الحركة والسقوط في أحضان استعمار آخر ، ومن المؤكد أن هذا ما لا يرغب فيه فخامتكم ... إننا نتوقف عند هذه النقطة نظراً للتقرير الواسع الانتشار ، المنسوب إلى مصدر مسؤول ، والقائل بأن قوات أجنبية ستصل إلى العاصمة بدعوى حماية استقلال العراق ، جنباً إلى جنب مع الجيش العراقي الباسل . وإذا صح هذا ، خلافاً لما نأمل ، فهذا يعني أن حركتنا الوطنية قد تلطخت وأصبحت جزءاً من الحرب الإمبريالية الثانية ، وهي حرب حذرنا من وجوب بقاء البلاد بمعزل عنها ... وبالإضافة إلى هذا ، لقد أكدنا في الماضي ، ونؤكد الآن مرة أخرى ، أن الدولة الوحيدة التي نستطيع الاعتماد عليها من دون مخاطرة أو تهديد لسيادتنا الوطنية هي الاتحاد السوفييتي . إننا نعتقد أن فخامتكم تقاسموننا هذا الرأي . وقد يزعم البعض ، خطأ ، أن مساعدة الاتحاد السوفييتي ستجر وراءها الشيوعية إلى هذا البلد ، ولكن تكفي الإشارة هنا إلى أن الاتحاد السوفييتي ساعد تركيا وإيران في حروبهما من أجل الاستقلال ولم يصبح البلدان شيوعيين . وبالإضافة إلى هذا ، فإن الشيوعية ليست رزمة يمكن المرء أن يحملها من دولة إلى أخرى ، بل هي حركة جماهيرية تنبع من شروط الإنتاج والتوزيع الاقتصادي بالدرجة الأولى .

وهناك مسألة أخرى ... هي مسألة المساجين السياسيين ... إننا نأسف لأن عطفكم لم يمتد حتى الآن ليشمل الجنود الشيوعيين الشجعان الذين صدرت الأحكام بحقهم في العام 1938...

...ونكرر كذلك دعوتنا السابقة إلى ضرورة محاربة ارتفاع تكاليف المعيشة .  
وفي الختام ، لقد رأينا من المناسب أن نعبر عن وجهات نظرنا في رسالة خاصة إلى فخامتكم  
بدلاً من أن نفعل ذلك في بيان علني موجه إلى الجمهور لكي يفسح في المجال أمامك للعمل  
بهدهوء لما هو في صالح الحركة الوطنية ، ولكننا لن نتردد في نشر وجهات النظر هذه ... إذا  
لمسنا أي انحراف عن أهداف الحركة كما حددها حزبنا . إننا لا ندعم أيّاً كان إلا بمقدار ما ينفع  
الشعب ، لأن رسالتنا تتلخص في خدمة الشعب ، والشعب وحده" .

7 أيار (مايو) 1941 الحزب الشيوعي العراقي 573

إن القراءة المتأنية للرسالة تسمح لنا بتسجيل الملاحظات التالية:

- رغم كلمات المجاملة والاحترام لمركز رئيس الوزراء ، فإن الرسالة كانت صريحة جداً في إدانتها للدولة الألمانية الفاشية الدكتاتورية ذات الأطماع الاستعمارية والكرهية العنصرية إزاء الشعوب والاتجاهات الفكرية والسياسية الأخرى؛
- تأكيدها ضرورة الابتعاد عن الاعتماد على هذه الدولة الاستعمارية في سياستها الداخلية والخارجية والاعتماد على الشعب العراقي لا غير؛
- تأكيدها أهمية العودة إلى الشعب العراقي والدفاع عن مصالحه الحيوية والاستجابة لإرادته ، وربط تأييده للحكومة الجديدة بمدى التزامها بمصالح الشعب واستقلال البلاد؛
- دعوتها إلى سيادة مبادئ وممارسات الحرية والديمقراطية في البلاد؛
- إدانتها للأعمال الإرهابية التي ارتكبت بحق المواطنين اليهود في العراق بحزم وصرامة ، واعتبارها مخالفةً للدستور ومسيئةً لسمعة الحركة الوطنية ، والمطالبة بتطبيق القانون حتى إزاء من يعتبرون خونة للوطن؛
- إدانتها للدعاية الفاشية التي كانت قد اتسعت في العراق حينذاك؛
- دعوتها إلى إطلاق سراح السجناء الشيوعيين من منتسبي الجيش العراقي؛
- دعوتها إلى إقامة العلاقات الودية مع الاتحاد السوفييتي وطلب العون منه ، إذ وردت إشارة إلى أن هذه الدولة لا تحمل أطماعاً استعمارية ، بل تدعو إلى السلم والصدقة بين الشعوب والدول؛
- تمتع حكومة رشيد عالي الكيلاني بتأييد الشعب العراقي بسبب كراهية الشعب للاستعمار البريطاني وعملائه في الداخل؛
- تأييد الحكومة يرتبط بما تقوم به ، وإلا فسيحجب هذا التأييد عنها؛
- وكانت الرسالة محاولةً للتخفيف من قوة التأييد غير المحدود السابق الذي تضمنه بيان الحزب حول الانقلاب .

وكان لهذه الرسالة الموجهة إلى رشيد عالي الكيلاني ، وهي في الوقت نفسه موجهة إلى القوميين الذين كانوا يوجهون سياسة هذه الوزارة ، أي الحزب السري أو اللجنة السرية ، تأثير إيجابي غير مباشر على موافقة العراق في إقامة العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفييتي في مقابل اعتراف الاتحاد السوفييتي بحكومة الانقلاب الجديدة . كما أمكن إطلاق سراح السجناء الشيوعيين ، ولم يشهد الضغط على الشيوعيين في هذه الفترة القصيرة من حكم القوميين . ولكن السؤال الذي يفترض الإجابة عنه هو: هل كان هذا الموقف من الناحية المبدئية صحيحاً أم خاطئاً؟

نعرف جميعاً بأن ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية واليابان العسكرية عقدت حلفاً معادياً للاتحاد السوفييتي والكومنتيرن في عام 1937 ، سمي بـ "الحلف المعادي للكومنتيرن" أي الحلف المعادي للشيوعية . وفي أعقاب ذلك وجدت الدول الرأسمالية المتطورة أن هذا الحلف يمكن أن يوجه ضد الاتحاد السوفييتي فوافقت على عقد اتفاقية تحالف شملت ألمانيا وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا سميت بـ "اتفاقية ميونيخ" بتاريخ 1938/9/29 ، بالرغم من قيام ألمانيا قبل ذلك باحتلال النمسا ، أي في عام 1938 ، ثم قامت باحتلال جيكوسلوفاكيا بعد يومين لا غير من عقد تلك الاتفاقية ، أي في 1938/10/1 . وكانت هذه الاتفاقية بدورها موجهة ضد الاتحاد السوفييتي و ضد الأممية الشيوعية . وشجعت هذه الاتفاقية الدولة الألمانية على التحرك والتهيئة للقيام بعمليات جديدة لاحتلال مناطق أخرى . وكانت كل من بريطانيا وفرنسا تطمحان إلى أن تقوم ألمانيا بغزو الاتحاد السوفييتي ، وهو الذي لم يقع حينذاك ، بل عمدت ألمانيا إلى غزو جيكوسلوفاكيا ، واقترحت عقد اتفاقية جديدة مع الاتحاد السوفييتي من أجل تحييده مؤقتاً ، بعد أن حيدت الدول الأخرى . وقبل ذلك ، أي في 29 تموز/ يوليو/ من عام 1938 ، كان الاتحاد السوفييتي قد تعرض إلى اعتداء ياباني وتجاوز على حدوده ، حيث جوبهت بهجوم معاكس أدى إلى تراجعها وتحرير الأراضي التي كانت قد احتلتها . وفي الحادي عشر من أيار/مايس 1939 هاجمت القوات اليابانية جمهورية منغوليا الشعبية واحتلت جزءاً من أراضيها . وبسبب وجود اتفاقية دفاع مشترك بين الاتحاد السوفييتي ومنغوليا الشعبية منذ عام 1936 ، تقدمت القوات السوفييتية وخاضت معارك شديدة بالتعاون مع القوات المنغولية ضد القوات اليابانية المحتلة واستطاعت تحرير الأراضي المنغولية من الغزاة . وتكبدت الدولة اليابانية خسائر فادحة في الأرواح بسبب تلك المعارك . وتحملت القوات السوفييتية والمنغولية خسائر غير قليلة أيضاً .

وبعد توقيع اتفاقية عدم اعتداء بين ألمانيا النازية والاتحاد السوفييتي بأسبوع واحد فقط قامت القوات الألمانية بغزو بولونيا واحتلالها . وتشير المعلومات المتوفرة إلى أن حكومة بولونيا كانت قد رفضت الدعم الذي أراد السوفييت تقديمه للدولة البولونية لمقاومة الغزو الألماني . وعلى أثر هذا الغزو أعلنت كل من بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا . وبقي الاتحاد السوفييتي على الحياد ، رغم شجبه للعنوان على بولونيا واحتلالها . وبعد احتلال بولونيا وإعلان الحرب على ألمانيا من جانب بريطانيا وفرنسا توضحت الأهداف الألمانية بشكل كامل ، إذ أصبح الاتحاد السوفييتي هدفها اللاحق ، علماً بأن ألمانيا كانت تطمح بالحصول على عمق أوروبي وإمكانيات أوروبية أوسع لحربها ضد الاتحاد السوفييتي ، إذ لم يكن هدفها الآني المباشر في عام 1939 ، ولكنه كان هدفها الأساسي من الحرب . والمعلومات المتوفرة تشير إلى أن الاتحاد السوفييتي استفاد من اتفاقية عدم الاعتداء التي وقعها مع ألمانيا في عام 1939 لكسب الوقت من أجل التهيئة لمقاومة العدوان الألماني المحتمل جداً . ومع ذلك فإن هناك الكثير من الاعتراضات والتحفظات والرفض التي طرحت في حينها من جانب الشيوعيين الألمان ضد الاتفاقية ، رغم أن قيادة الحزب الشيوعي الألماني بررت الاتفاقية في حينها واعتبرتها مفيدة للاتحاد السوفييتي<sup>574</sup> . ولم يكن عدم الموافقة محصوراً بالألمان ، بل أن كثرة من السوفييت ومن الشيوعيين في بلدان أخرى رفضوا تلك الاتفاقية واعتبروها غير ذات جدوى ، وأن ألمانيا تريد كسب الوقت للتهيئة للهجوم على الاتحاد السوفييتي ، وأن هذه

574 Kuehnrich, Heinz. Die KPD im Kampf gegen die faschistische Diktatur 1933-1945. Dietz Verlag. Berlin. 1987. S. 136/137.

الاتفاقية يمكن أن تعطي الانطباع للسكان بأن لا مخاطر على الاتحاد السوفييتي ، وبالتالي تضعف اليقظة إزاء الحرب والفاشية والعدوانية الألمانية ، وتعطي الانطباع للشعوب الأخرى وكأن الاتحاد السوفييتي غير مهتم بقضيتهم ومصيرهم ، أو أن هناك اتفاقاً لتقسيم مناطق النفوذ بين الدولتين . ولم تكن هذه التحفظات دون أساس واقعي ولم تكن كلها خاطئة ، إذ دلت الأيام على صواب أغلبها .

وقفت الأممية الشيوعية في حينها ضد الدولة الهتلرية والفاشية وضد احتمالات الحرب ، وتجلت هذا في قرارات المؤتمر السابع واجتماعات اللجنة التنفيذية وسكرتارياتها ، كما انعكس على مواقف الأحزاب الشيوعية عموماً . وكان موقف الحزب الشيوعي العراقي منسجماً مع مواقف الأممية الشيوعية بشأن الموقف من الدولة الألمانية ومن الفاشية والحرب . وكان الخطأ الذي يفترض تسجيله هنا يكمن في التقييم غير الواقعي الذي مارسه بعض الأحزاب الشيوعية ، ومنها الحزب الشيوعي العراقي ، بين فترة الحرب قبل دخول الاتحاد السوفييتي ، أي الفترة الواقعة بين شن الحرب في الأول من أيلول/سبتمبر 1939 والثاني والعشرين من حزيران/يونيو من عام 1941 ، وفترة الحرب بعد دخول الاتحاد السوفييتي فيها ، أي بعد شن الدولة الهتلرية العدوان على البلاد السوفييتية في الثاني والعشرين من عام 1939 حتى نهاية الحرب العالمية الثانية . وكان الحزب قد شجب الحرب باعتبارها حرباً تدور بين دول استعمارية ، ولكن في حقيقة الأمر كانت الحرب عدواناً ألمانياً هتلرياً صارخاً على النمسا وجيكوسلوفاكيا وبولونيا وعلى بلدان أخرى ، ومنها الاتحاد السوفييتي ، وهي حرب استعمارية من جانب ألمانيا ، وبالتالي كان يفترض أن يكون الشجب لألمانيا التي بدأت العدوان والحرب ابتداءً ، أي حتى قبل وبعد إعلان الحرب من جانب بريطانيا وفرنسا على ألمانيا ، بغض النظر عن موقف الاتحاد السوفييتي كدولة لها مصالحها وسياساتها ومواقفها ، التي يمكن أن تختلف عن مواقف وسياسات الأحزاب الشيوعية الأخرى ، سواء كانت في الحكم أم خارجه . ولكن المشكلة كانت في موقف الأممية الثالثة الذي خضع في حينها لموقف الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي .

إن العداء الثابت للإمبريالية البريطانية لدى الشيوعيين العراقيين ، كجزء من عداء الشعب العراقي ، كان قائماً قبل العدوان على الاتحاد السوفييتي وبعده ، وبالتالي فإن التمييز إزاء بريطانيا بين الفترتين لم يكن سليماً ، والمساومة مع حكومة رشيد عالي الكيلاني ، التي كانت تريد التعاون مع دول المحور ، لم يكن صائباً ، إذ كان لا بد من توجيه كل الجهود لدحر الجيوش الفاشية في الحرب . وكانت نظرة الحزب ضيقة الأفق حتى بعد التعديل الذي أدخله فهد على موقف الحزب السابق . وأعاد الحزب النظر في موقفه حينذاك واعتبره خاطئاً ، رغم أن إدانة الانقلاب حينذاك أو سياسة الانقلابيين بشكل حازم كانت تفود إلى مصاعب غير قليلة للحزب الفتى ، ورغم أن التأييد لم يكن بدون شروط ، ولكنه يبقى موقفاً خاطئاً . ويبدو أن زكي خيري اعتبر الموقف الأساسي للحزب الذي برز في رسالته إلى رشيد عالي الكيلاني هو الأصوب حتى بعد مرور عشرات السنين على تلك الأحداث ، ولم يعتبره خاطئاً بحجة أن الاستعمار البريطاني كان يريد التوسع في تفسير معاهدة 1930 ، إذ كتب يقول: "واستطاع الحزب بقيادة فهد أن يتخذ موقفاً صائباً وجريئاً من "حركة مايس 1941" ، فقد جاءت الحركة رداً على محاولات السلطات البريطانية التوسع في تفسير بنود معاهدة 1930 والاستفادة من الوضع الدولي لفرض احتلال العراق من جديد فثار الشعور الوطني لدى الشعب العراقي ولجأت العناصر القومية في الجيش وقادت أول صدام مسلح ومكشوف ضد بريطانيا منذ ثورة العشرين

. وجرت "حركة مايس" أوسع جماهير الشعب للنشاط السياسي ومن شدة زخمها اضطر أعضاء مجلس النواب والأعيان الملكيين إلى تأييد الحركة خوفاً من الشعب الغاضب فهرب أقطاب النظام الملكي واستلم قادة الحركة الحكم "575". ولكن المعاهدة كانت صريحة في موقفها من التعاون مع بريطانيا في حالة الحرب ، رغم موقف الشعب العراقي المناهض للمعاهدة أصلاً وناضل من أجل التخلص منها واعتبرها معاهدة استرقاقية .

وجد الحزب بقيادة فهد نفسه أمام إعادة تقييم لموقفه السابق مشيراً إلى ما يلي: "لا ينكر أن دول المحور استغلت ظروف الحكم الاستبدادي ، وظروف حياة الجماهير السيئة فاستطاعت أن توجد لها أنصاراً ودعاة كثيرين ، أي أنها أوجدت لها قاعدة اجتماعية بين الشعب العراقي لتسهل لها أمر الاستيلاء على العراق الذي كانت تطمع فيه ، لما فيه من ثروات طبيعية ولمركزه الإستراتيجي ، منذ عشرات السنين ، أي أن أنصار ألمانيا النازية (والمحور على العموم) كانوا يتألفون من صنفين رئيسيين متميزين ، أولهما الناس المخدوعون الذين أصيبوا بحمى الدعايات النازية ، وهؤلاء وجدوهم من بين الناقمين على الوضع والكارهين للاستعمار البريطاني والوطنيين "المتعصبين" "والعرب المتعصبين" "والشبان المتحمسين" للحركة والتظاهر ومن الأميين ، والأميين بالسياسة ، وعبدة القوة ومن بين أشباههم ، فهذا الصنف قد تخلى بالحقيقة عن موقفه السابق من النازية ، إلا أن أفكاره المغلوطة الناتجة عن الجهل ، والظروف الموضوعية لا تزال إلى حد بعيد موجودة وقابلة للاستغلال من قبل أي جهة رجعية . أما الصنف الثاني فهو الرتل الخامس بمعناه الصحيح ، وهذا يتألف من أناس يحترفون مهنة الجاسوسية وخيانة الوطن ، لقاء أجور أو مناصب عالية ومنافع شخصية . ومن الرجعيين ذوي المصالح الطبقية الذين يرون (نظرة خاطئة بالطبع) في الفلسفة النازية وأسلوب حكمها ، في الاتفاق معها وخدمتها وسيلة للمحافظة على مصالحهم الطبقية"576 . ثم وصف الحركة الانقلابية بأنها مغامرة قام بها رشيد ورهطه في كلمته أمام الكونغرس الحزبي الأول في العام 1944 إذ قال ، في معرض حديثه عن استفادة بريطانيا من تلك المغامرة لتهيمن على العراق ، ما يلي: "لقد استغلت بريطانيا العظمى فشل مغامرة رشيد عالي ورهطه (مايس 1941) والإتيان بساسة الحكم (معظمهم الآن في الحكم) الفارين ، إلى العراق وحمائيتهم ..."577 . كان الانتقاد الذاتي الذي قدمه فهد خجولاً ومرتبكاً وشديد اللهجة ، ولكنه كان واضحاً ، ولم يحمل اعتذاراً أو قولاً صريحاً ومباشراً في خطأ الموقف الذي اتخذته الحزب حينذاك ، كما لم يشر إلى الأسباب التي دعت به إلى تغيير هذا الموقف . وكان الموقف يتطلب من الحزب وفهد تقديم تقييم أكثر جرأة وأكثر تعليلاً للأسباب التي أدت إلى ارتكاب الحزب لخطأ تأييد الحركة الانقلابية .

575 خيري ، زكي وسعاد. دراسات في تاريخ الحزب الشيوعي العراقي. مصدر سابق. ص 60.  
576 فهد. كتابات الرفيق فهد. من وثائق الحزب الشيوعي العراقي. دار الفارابي-بيروت. الطريق الجديد-بغداد. 1976.  
ص 119/118.  
577 نفس المصدر السابق. ص 120.

## الفصل الحادي عشر : فهد ووثبة كانون الثاني 1948

رفضت الأوساط الواسعة من الشعب العراقي ، وفي مقدمتها ، أحزاب وقوى المعارضة السياسية ، قبول معاهدة 1930 والملاحق التابعة لها والتعايش معها ، إذ كانت ترى فيها بمثابة الصيغة الجديدة لتكريس الهيمنة البريطانية على العراق بعد أن يحين موعد انتهاء الانتداب البريطاني الرسمي على العراق . وحصل هذا فعلاً ، إذ حالما رفع الانتداب رسمياً في عام 1932 وأصبح العراق عضواً في عصبة الأمم ، بدأت السلطات والقوات البريطانية في العراق تمارس بنود المعاهدة باعتبارها البديل لتنفيذ مهمات الانتداب عملياً . فعلى أساس بنود معاهدة 1930 وملاحقها ضمنت بريطانيا العظمى لنفسها الامتيازات التالية في العراق:

1. تكريس الهيمنة العسكرية على البلاد من خلال قاعدتين عسكريتين في كل من الحبانية (سن الذبان) والشعبية؛

2. احتكار عمليات تدريب الجيش العراقي على أيدي الضباط البريطانيين والمعاهد العسكرية البريطانية وفرض الرقابة الصارمة على اتجاهات تطوره وميزانيته والشخصيات العسكرية التي تمارس القيادة فيه . كما تم بموجب المعاهدة ربط القوات العراقية بالتزامات التعاون والتنسيق العسكري مع القوات البريطانية في أوقات الحروب أو عند تعرض بريطانيا والقوات البريطانية إلى مخاطر معينة؛

3. احتكار تزويد القوات العراقية بالسلح والعتاد البريطاني؛

4. ضمان الهيمنة السياسية الفعلية على الحكومات العراقية المتعاقبة من خلال التزام البلاط بالتعاون والتنسيق والاستشارة عند تشكيل الوزارات وتسمية رئيس وأعضاء مجلس الوزراء ، ورؤساء مجلس النواب والأعيان ، والكثير من المراكز الحساسة الأخرى في الدولة؛

5. التعاون والتنسيق والاستشارة مع الحكومة البريطانية في ما يخص السياسات الداخلية والخارجية للعراق ، وذلك من خلال تعيين مستشارين لرئيس وأعضاء مجلس الوزراء وغيرها من المراكز الحكومية الحساسة؛

6. ضمان سيطرة بريطانيا وشركاتها الاحتكارية على الاقتصاد والسياسات الاقتصادية العراقية ، وبشكل خاص تنفيذ الامتيازات المعقودة في مجال النفط وعقد امتيازات جديدة مع بريطانيا ، إضافة إلى تأمين مشاركة ومراقبة بريطانيا على الشؤون المالية والتجارية والعلاقات الاقتصادية العربية والإقليمية والدولية للعراق؛

7. التزام الطرف العراقي بتأمين تعاون وتنسيق مستمرين وفعالين بين أجهزة التحقيقات الجنائية (الأمن الداخلي) العراقية وأجهزة الأمن البريطانية لتأمين الرقابة الضرورية على الحياة السياسية العراقية ومواجهة القوى المعارضة المناهضة للسياسات البريطانية في العراق ، وضمان تجاوز احتمالات معارضة تنفيذ المصالح والامتيازات والمعاهدة العراقية البريطانية؛

8. تأمين الرقابة المحكمة على وزارة العدل العراقية وعلى القضاء العراقي من خلال تعيين مستشارين وحكام بريطانيين في أهم وأعلى ومختلف المحاكم العراقية .

وحركت الطبيعة غير المتكافئة للمعاهدة العراقية البريطانية لعام 1930 قوى المعارضة السياسية في البلاد من جديد في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، مستفيدة من المناخ والانفتاح الديمقراطي الدولي للمطالبة العاجلة بإلغاء معاهدة 1930 وتأمين الاستقلال والسيادة الفعلية



العراق . وكان هناك اتفاق عام غير رسمي بين قوى المعارضة السياسية ، سواء العلنية منها أم السرية ، على العمل المشترك لتحقيق هذا الهدف . ولم تنفصل معركة إلغاء المعاهدة عن معركة إطلاق الحياة والحريات الديمقراطية وضمن ممارسة الحقوق الأساسية للمواطنين ، بما فيها حرية التنظيم والصحافة والنشر والإضراب والتظاهر . الخ ، في برامج وسياسات الأحزاب القائمة .

وكان الحزب الشيوعي العراقي ، بقيادة فهد ، قد طرح ضمن إستراتيج وتكتيك الحزب لمرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية مجموعة المهام التي كان يراها ضرورية لتعبئة الجماهير الواسعة حولها والنضال في سبيل تحقيقها . وكان شعار إلغاء معاهدة 1930 من بين مهام النضال التي اشترك الحزب في الدعوة لها مع بقية القوى السياسية . ولم يمارس الحزب هذا النضال عبر النشر والدعاية العامة اليومية بين الجماهير فحسب ، بل وعبر عمليات وفعاليات يومية ، مثل القيام بإضرابات في المنشآت النفطية والميناء والسكك ، أو تنظيم المظاهرات التي تطالب بالحريات والحقوق الديمقراطية للشعب ، ورفع الشعارات التي تربط بين المشكلات والمصالح الملحة واليومية للفئات الاجتماعية المختلفة ، وبين الوجود والاستغلال والتدخل البريطاني في شؤون العراق الداخلية .

ولم تكن المعارضة العراقية وحدها تريد إلغاء معاهدة 1930 ، بل كانت هناك قوى سياسية من معسكر الحكومات المتعاقبة ذات الارتباط الشديد بالبلاط الملكي وبالحكومة البريطانية ومصالحها في العراق ، إذ كان بعضها يحمل شحنات وطنية ويرى في ما تريده بريطانيا إجحافاً بحق العراق . ولكن عموم القوى التي كانت في الصف الحكومي كانت تدرک بأن المرحلة الجديدة تستوجب إجراءات جديدة لمواجهة قوى المعارضة العراقية وتفتيت وحدتها من أجل إمرار مشاريعها المشتركة ، بغض النظر عن الخلافات الجزئية التي كانت تراها في نصوص المعاهدة . فالتغيير كان مطلوباً من جانب قوى المعارضة وقوى الحكم في آن واحد ، ولكن كانا يسيران باتجاهين مختلفين تماماً ، كما أن أغراضهما وأهدافهما كانت متباينة بل ومتقاطعة ، رغم اتفاق البعض منهم مع بعض أهداف المعارضة .

وعمدت الوزارات التي شكلها البلاط بموافقة ودعم بريطانيا إلى انتهاج سبيلين واضحين ، خاصة بعد استقالة وزارة حمدي الباججي وتشكيل وزارة توفيق السويدي ، ثم تلتها مباشرة وزارة أرشد العمري ، وهما:

1. ممارسة سياسة القمع والإرهاب وإضعاف الأجواء الديمقراطية والتضييق على الحريات الديمقراطية التي أمكن فرضها من جانب قوى الشعب والمعارضة في أعقاب الحرب وأثناء وجود حمدي الباججي في رئاسة مجلس الوزراء ، ومنها التضييق على عمل بعض الأحزاب السياسية الديمقراطية التي كانت مجازة أو التضييق والحجز على الصحف التي منحت إجازات رسمية لإصدارها أو تقديم رؤساء تحريرها إلى المحاكمات ... الخ . كما أنها مارست العنف الشرس في مواجهة إضرابات العمال في السكك ، ولكن بشكل خاص عمال النفط في كركوك ، حيث نفذت مع الدوائر البريطانية المسؤولية المجررة الدموية ضد العمال المضربين في كاورباغي ، وأصبح اسم "مجزرة كاورباغي" إحدى أبرز أشكال العنف والعنف الحكومي في العراق ، إذ قتلت الشرطة خمسة مواطنين وجرحت 14 مواطناً من المتظاهرين ، وفق ما جاء في البيان الحكومي الرسمي 578. كما شنت هجوماً شرساً على حزب التحرر الوطني وعصبة مكافحة الصهيونية واعتقلت الكثير من أعضائها القياديين

والعاملين في الحزب والمنظمة . وعلى إثر الحادثتين رفعت الأحزاب الديمقراطية العراقية احتجاجاتها إلى مجلس الوزراء والوصي على العرش . ولكن خطة البلاط كانت واضحة في هذا المجال ، إذ كان هناك تصميم على وأد الحريات الديمقراطية الشحيحة التي أمكن فرضها في العراق حينذاك؛

2. العمل من أجل كسب بعض قوى المعارضة للتعاون مع القوى المعروفة بعلاقتها بالبلاط وتأبيدها الشديد للوجود البريطاني والمصالح البريطانية من خلال تشكيلات وزارية يمكنها المساعدة في تفتيت وحدتها .

وتجلت الوجهة الثانية بالدعوى التي قدمها نوري السعيد قبل استقالة وزارة أرشد العمري ، التي مهدت الطريق لخطوة نوري السعيد من خلال سياساتها القمعية التي مارستها في عام 1946 ، إلى الحزب الوطني الديمقراطي وحزب الأحرار للمشاركة في حكومة جديدة يترأسها نوري السعيد ذاته . ووافق الحزبان كل على انفراد على ذلك ، شريطة أن تكون حكومة انتقالية تهدف إلى إجراء انتخابات حرة ونزيهة ، وأن تكون حكومة تجري الأعمال الروتينية لا غير . وافق نوري السعيد على هذين الشرطين ، إذ كان هو الآخر ، ومن ورانه البلاط والحكومة البريطانية ، يريد حكومة انتقالية تمهد السبيل وتوفر مستلزمات تغيير معاهدة 1930 ، التي كان أجلها يقترب من النفاذ وبسبب رفض الشعب لها ، بمعاهدة جديدة تشد العراق بشكل محكم وحديث ببريطانيا العظمى وسياساتها ومصالحها في المنطقة ، كما كان يرى في مشاركة هؤلاء ليس فقط شق قوى المعارضة فحسب ، بل ومحاولة للحصول على تزكية مهمة من قوى معارضة معروفة في نشاطها المناهض لمعاهدة 1930 . كان نوري السعيد يسعى إلى تشكيل حكومة تخدير وتهينة وتأمين مستلزمات تشكيل حكومة أخرى غير حكومته ، ولكن بتوجيه منه ، لعقد المعاهدة الجديدة .

انطلى هذا التكتيك على بعض فصائل الحركة السياسية العراقية ، حيث وافقت اللجنة الإدارية المركزية للحزب الوطني الديمقراطي وحزب الأحرار على المشاركة بوزير واحد لكل من الحزبين ، وهما محمد حديد وعلي ممتاز على التوالي . كما شارك من أقطاب الحكومات المتعاقبة صالح جبر وصادق البصام ، من الجماعة التي كانت تسمى نفسها بالكتلة ، إضافة إلى جماعة نوري السعيد التي احتلت أغلبية المقاعد الوزارية . لم تكن بيانات وتوضيحات الحزب الوطني الديمقراطي حول مشاركته بالحكم مقتنعة للشارع العراقي ولا لقوى المعارضة العراقية ، كما أوجدت شرخاً في داخل الحزب نفسه ، وأدت إلى فصل عدد مهم من قياديي الحزب ممن اعتبرهم الحزب من جماعة اليسار المتطرف . وكانت هذه الجماعة قد أصدرت بياناً سياسياً تحت مانشيت (نداء الإنقاذ) يرفض ويدين موقف قيادة الحزب التي قررت المشاركة في الحكم وفي الانتخابات التي أعلن نوري السعيد عن إجرائها . وكان كامل قزانجي أول المفصولين ، ومعه كل من قدرى عبد الرحمن ووليم يوسف وعبد الحسين جواد الغالب وهاشم محمد الجواد 579 . وجاء في كتاب كامل الجادرجي الموسوم "مذكرات كامل الجادرجي وتاريخ الحزب الوطني الديمقراطي" بصدد هؤلاء الجماعة ما يلي: " كانت الحوادث التي أعقبت المؤتمر الأول قد أثرت تأثيراً عميقاً في الحزب ، فقد ظهر أن الأقلية الضئيلة التي عارضت الحزب في المؤتمر الأول فيما يتصل بالاشتراك في الحكم والانتخابات ، ظهر أن تلك الأقلية ذات نفوذ في صفوف الحزب تجلّى في استمرار مهاجمة القيادة لاشتراكها في الحكم

وفي الانتخابات "580. كان الحزب الوطني الديمقراطي يتشكل في واقع الأمر من جناح يساري صغير وآخر وسط ويمين الوسط واسع التمثيل في القيادة .

كان كامل قزنجي يترأس الجناح التقدمي أو اليساري في الحزب ، وكان من بينهم زكي عبد الوهاب وطلعت الشيباني . في حين كان كامل الجادرجي يترأس الحزب ويقود جناح الوسط ويمين الوسط في آن واحد . ولا شك في أن قاعدة الحزب اليسارية لم تكن صغيرة ، ولكنها لم تكن قادرة على فرض تمثيل أوسع لها في قيادة الحزب . وكان كامل الجادرجي يسعى إلى التخلص من قوى اليسار في حزبه ، إذ كان يعتبرها قوى ماركسية شيوعية تريد الهيمنة على حزبه وتمييع الحدود بينها وبين الحزب الذي يقوده . ولهذا وصف أفراد المجموعة المفصولة من الحزب "وفق نظامه الداخلي" بأنهم "شيوعيون ماركسيون" 581 . ولتحقيق هذه الغاية والتشديد على التمايز بين الحزب الشيوعي والحزب الوطني الديمقراطي أولاً والتخلص من أولئك الذين فازوا في انتخابات المؤتمر الثاني للحزب في عام 1947 ، رغم قرارات الفصل السابقة بحق رفاقهم ، ثانياً ، وتأكيد استقلالية النشاط الذي يقوم به الحزب عن الأجنحة اليسارية الماركسية ثالثاً ، وذلك برفضه مقترح وحدة الأحزاب الديمقراطية الثلاثة حينذاك ، التي اقترحها عبد الفتاح إبراهيم ، أي وحدة حزب الاتحاد الوطني وحزب الشعب والحزب الوطني الديمقراطي ، أصدر برنامجه التفصيلي للحزب ، الذي عرف في حينها بـ "المذكرة الاشتراكية" . تضمنت هذه المذكرة أهدافاً ديمقراطية إصلاحية ذات نكهة اشتراكية ديمقراطية ، حاول فيها كامل الجادرجي نسف الأرضية التي كان يقف عليها اليساريون والماركسيون في الحزب ، وتقديم صورة الحزب الذي كان يسعى إلى تشكيله في العراق ، حزب برجوازي ديمقراطي تقدمي واشتراكي إصلاحي . ونجح في ذلك فعلاً . لم يتدخل فهد في هذا الصراع الداخلي للحزب ، إذ كما يشير زكي خيري ، كان ضد ذلك الولوج العلني الواسع لقوى اليسار الماركسي إلى هذا الحزب ، وما يمكن أن تنجم عنه من نتائج سلبية في العلاقات الوطنية وبشكل خاص بين الحزب الوطني الديمقراطي والحزب الشيوعي العراقي ، إذ سيرى كامل الجادرجي ، وكان الحزب الشيوعي وراء وجود هؤلاء في حزبه . ولكن فهداً اتخذ موقفاً نقدياً واضحاً وصريحاً ضد قضيتين ملموستين تنبهما الجناح اليساري في الحزب الوطني الديمقراطي أيضاً ، تسببا بفصلهم من الحزب ، ونعني بهما موافقة قيادة الحزب الوطني الديمقراطي على المشاركة في حكومة نوري السعيد أولاً ، وموافقتها على المشاركة في انتخابات عامة كانت نتائجها معروفة مسبقاً ثانياً ، وبالتالي ، كانت بمثابة تزكية غير مبررة وغير مطلوبة لحكومة لا تتمتع بثقة الشعب والقوى الوطنية العراقية . وقد أعاظ نقد فهد لسياسة الحزب الوطني الديمقراطي كامل الجادرجي كثيراً ، وكانت سبباً في بعض نزعاته المتشددة في الهجوم على فهد وسياساته ، خاصة وأنه استاء كثيراً من نقد فهد الساخر وغير الودي منه ، بسبب تأخره في تقديم طلب تأسيس الحزب الوطني الديمقراطي في عام 1944 ، رغم توفر الظروف المناسبة 582 .

580 نفس المصدر السابق. ص 167.

581 حميدي ، جعفر عباس. التطورات السياسية في العراق 1941-1953. مصدر سابق. ص 264.

582 كتب فهد في العدد (1-14) كانون الثاني/يناير من عام 1944 من جريدة القاعدة يقول فيها: "... إننا ندعو جميع المخلصين أن يساعدوا الحركة الحزبية ، أن ينضموا إلى المحامين الذين قدموا طلباً بتأليف "حزب الشعب" وأن يدفعوا غيرهم ممن لهم ميول وطنية ديمقراطية إلى تأليف الأحزاب والجمعيات. ونريد بهذه المناسبة أن نذكر السيد كامل الجادرجي صاحب جريدة صوت الأهالي الذي طالما بكى على الحقوق الديمقراطية وتشكى من امتناع الحكومة عن منح الشعب حقه في تأليف الأحزاب ، ونطلب إليه أن يتقدم هو وجماعته بمنهاج واضح يتضمن الإصلاحات التي طالب بها على صفحات جريدته ، فقد كان في السابق يتمتع بحجة أن الحكومة رجعية لا تتحمل وجود الأحزاب ، واليوم قد مضى على تصريح الحكومة أكثر من ستة أسابيع وهو لا يزال يبحث في المدينة في وضوح النهار حاملاً مصباح (ديوجينوس) يفتش عن "أوادم" يولفون معه حزبه الموعد. إنني أؤكد للسيد كامل الجادرجي أن في

ومع أن كامل الجادرجي لم يأخذ بملاحظات جناحه اليساري وبملاحظات الحزب الشيوعي حول دعوته لعدم المشاركة في السلطة وشارك فعلاً بوزير واحد ، فإن محمد حديد ، ممثل الحزب الوطني الديمقراطي ، اضطر على الاستقالة بعد فترة وجيزة من استيزاره . وهكذا استقال أيضاً علي ممتاز ، ممثل حزب الأحرار ، ثم تبعهما صالح جبر وصادق البصام ، بعد أن رتبت الصفقة مع صالح جبر . وتسنى لنوري السعيد في هذه الفترة القصيرة أن يحقق الأهداف التي كان يسعى إليها من إشراك خصومه بحكومة يترأسها هو بالذات ، إذ حقق الأهداف التالية:

- تنظيم الانتخابات والأشراف عليها وتأمين الفوز بها لجماعته وكل الذين التزم البلاط جانبهم والذين ساندتهم السفارة البريطانية في بغداد ، وسقط أغلب المرشحين الديمقراطيين .
- وأجبر الجميع على الاعتراف بأنها كانت انتخابات مزيفة ، بعيدة جداً عن النزاهة؛
- التحضير لتشكيل حكومة جديدة تلتزم بعقد معاهدة جديدة بين العراق وبريطانيا تحل محل المعاهدة المستهلكة ، معاهدة 1930 وتحقق المصالح المنشودة من جانب بريطانيا في العراق والمنطقة ؛

- تمزيق تحالف المعارضة العراقية الذي تبلور في الفترة الواقعة بين 1945-1946 ، والتي برزت في البيانات التي أصدرتها تلك الأحزاب في معارضة مشاركة الحزب الوطني الديمقراطي في حكومة نوري السعيد ، كما بدأ الصراع بين هذه الأحزاب وفي داخل الحزب الوطني الديمقراطي ، وهو ما كان يسعى إلى تأجيجه نوري السعيد؛

- مواصلة قمع القوى السياسية المعارضة ، بما فيها أنصار الحزب الوطني الديمقراطي ، بعد أن استقال محمد حديد من الوزارة . وتحقق للوزارة نصر جديد في هذه الفترة عندما استطاعت أجهزة الأمن العراقية ، وبالتعاون الوثيق مع جماعة الأمن البريطانية العاملة في العراق ، على اعتقال فهد وبقية أعضاء المكتب السياسي وبعض أعضاء اللجنة المركزية والكوادر الشيوعية في كانون الثاني من عام 1947 .

- استكمال الهجوم على تلك القوى العراقية اليهودية وغير اليهودية التي كانت تعارض الصهيونية ونشاطها في العراق وتطالب بإقامة دولة ديمقراطية علمانية في فلسطين تمثل مصالح الشعب الفلسطيني من عرب ومسيحيين ويهود . وكانت الضربات قد توجهت إلى عصابة مكافحة الصهيونية وحزب التحرر الوطني وبعض القوى الأخرى التي اتخذت مواقف واضحة في مناهضتها للصهيونية .

ولم تمض فترة طويلة على فرض الانتخابات السعيدية وبدء أعمال مجلس النواب الجديد في العاشر من نيسان/ إبريل من عام 1947 حتى كان عبد الإله ، الوصي على العرش ، ونوري السعيد قد اتفقا على إسناد رئاسة مجلس الوزراء إلى الشخص المكلف بإمرار معاهدة جديدة ، إلى صالح جبر ، حيث أعلن عن تشكيل الوزارة في يوم 29 آذار/مارس عام 1947 . ورفضت الأحزاب السياسية الديمقراطية الخمسة التي كانت ما تزال تحتفظ بشرعية العمل السياسي ، التي أجزت في الثاني من نيسان من عام 1946 ، التعاون مع الحكومة الجديدة ، وأعلنت ابتداءً معارضتها لسياسة الحكومة الجديدة التي كانت معروفة لها مسبقاً ، ونعني بها : حزب الشعب ، حزب الاتحاد الوطني ، حزب الأحرار ، الحزب الوطني الديمقراطي ، وحزب

---

العراق "أوادم" من مختلف الطبقات والميول والأخلاق ، فيه الطبقات الحاكمة الممتلئة ، فيه أذنان شتى للدول الإمبريالية ، وفيه الطبقات الشغيلة الكادحة ، فيه مرتبة عريضة واسعة من الأفندية يميل بعضهم بحكم مصلحته للطبقات الحاكمة ويميل البعض الآخر إلى جهة الشعب لقربه منه ولإدراكه وروحته الثورية ، فيه الثوريون والانتهازيون فيه شرفاء وغير شرفاء. فما على معالي السيد كامل الجادرجي إلا أن ينتقي "أوادمه" من بين الأصناف التي ذكرتها ويتقدم بهم بطلب الحزب". راجع: كتابات فهد. مصدر سابق. ص 280.

الاستقلال 583 . وكان أول بند في المنهاج الوزاري الخاص بالسياسة الخارجية العراقية ينص على ما يلي:

" 1 - العمل على تعديل المعاهدة العراقية البريطانية على أساس ضمان المصالح المتبادلة بين الند والند ، وعلى ضوء مبادئ ونصوص ميثاق الأمم المتحدة تعزيزاً للصدقة التقليدية القائمة بين العراق وبريطانيا العظمى " 584 .

أما على صعيد السياسة الداخلية فقد تضمن بنداً يؤكد سير الحكومة العراقية الجديدة على طريقة حكومة نوري السعيد وارشد العمري في محاربة الحزب الشيوعي والقوى التقدمية واليسارية بحجة تبنيها للمبادئ الهدامة ، إذ ورد في البند الثاني من سياسة الحكومة الجديدة في الشؤون الداخلية النص التالي:

" 2 - مكافحة المبادئ الهدامة ، والدعايات الضارة ، والحيلولة دون تسرب شرورها ومفاسدها بين طبقات الشعب ، تنفيذاً لإحكام القوانين " 585 .

وتميزت هذه الفترة بتفاقم إشكاليات الصراع بين العرب والجماعات الصهيونية المسلحة في فلسطين ، إذ أن المؤامرة التي بدأت حكومتا الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا العظمى في ضوء وعد بلفور عام 1917 بتنفيذها ، كانت قد اتخذت أبعاداً جديدة واقتربت بالموافقة على استقبال مائة ألف يهودي من شتى أنحاء العالم في فلسطين حينذاك ، أي في عام 1947 . وكانت خيوط المؤامرة قد حبكت جيداً ، وكانت النخبة الحاكمة ، ومنها البلاط ، جزءاً من هذه المؤامرة ، رغم النص الذي ورد في البيان الحكومي للتغطية على النشاط الفعلي الجاري ضد الشعب الفلسطيني في العديد من البلدان العربية حينذاك . فالنص الوارد في البرنامج الحكومي ليس سوى ذر الرماد في عيون الجماهير ، حيث جاء فيه ما يلي:

"لما كان العراق يعتبر قضية فلسطين هي قضيته بالذات ، فستعمل الحكومة على إنقاذ هذا الجزء من الوطن العربي من الأخطار المحيطة به بكل ما لديها من وسائل " 586 . وها نحن نعيش ونحصد اليوم في فلسطين ما زرعه الحكام العرب حينذاك ، بالتعاون مع حكام بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية والمنظمات الصهيونية الدولية ، وبالضد من إرادة العرب في فلسطين وبقية المنطقة العربية .

اتخذ الحزب الشيوعي العراقي بقيادة فهد موقفاً واضحاً من الحكومات المتعاقبة على الحكم في بغداد منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . ولكنه شدد نضاله ضد حكومتي نوري السعيد وصالح جبر باعتبارهما كانتا تنويان ضرب الحركة الوطنية وتوفير مستلزمات استبدال معاهدة 1930 بمعاهدة جديدة لا تقل عنها ضرراً بالنسبة للطرف العراقي . وكان اعتقال قيادة الحزب ، وبشكل خاص فهد وبقية أعضاء المكتب السياسي ، دافعاً للحكومة العراقية على الاندفاع في طريق عقد المعاهدة الجديدة ، إذ أنها اعتقدت بأنها وجهت ضربة للحزب أولاً وإنذاراً لبقية القوى السياسية في أنها يمكن أن تتلقى ضربات مماثلة من الحكومة . ولهذا بادر صالح جبر إلى السفر إلى بريطانيا لإنجاز عقد المعاهدة . وكان قرار عقد معاهدة جديدة بريطانياً ، إذ أن موعد انتهاء العمل بمعاهدة 1930 كان يقترب تدريجاً ، إذ حدد في حينها ب 25 عاماً ، وكانت ترغب في تمديد وجودها العسكري في العراق وضمان هيمنتها على الحياة السياسية والاقتصادية .

583 الحسني ، عبد الرزاق. تاريخ الوزارات العراقية. الجزء السابع. مصدر سابق. ص 159.

584 نفس المصدر السابق. ص 160.

585 نفس المصدر السابق. ص 161

586 نفس المصدر السابق. ص 159.

وأخيراً أعلن عن نية حكومة صالح جبر رسمياً ، التي كانت قد تشكلت في آذار/مارس من عام 1947 ، بعقد معاهدة جديدة وإلغاء معاهدة 1930 ، بعد أن كان الوصي على العرش قد مهد لذلك في اجتماع القصر الملكي في 28 كانون الأول/ديسمبر 1947 حضرته مجموعة مهمة من النخبة الحاكمة العراقية ، حيث تمت فيه الموافقة على البدء بالتفاوض مع بريطانيا لتغيير المعاهدة .

وظف الحزب الشيوعي جريدة القاعدة لفضح المهمة التي جاءت من أجلها وزارة صالح جبر وطالبت بإسقاطها مبكراً باعتبارها حكومة لا تحظى بثقة الشعب وتريد الانتفاف على إرادته لعقد معاهدة جديدة مخلة باستقلال وسيادة العراق . وفي هذه الفترة أصدرت العديد من الأحزاب السياسية الوطنية بيانات تدعو إلى النضال ضد محاولات صالح جبر ، خاصة بعد أن أعلن فاضل الجمالي ، وزير الخارجية ، وهو في لندن خبيراً عن قرب عقد معاهدة بين العراق وبريطانيا وأشار إلى مضامينها الأساسية ، والتي أثارت ضجة كبيرة في صفوف قوى المعارضة العراقية ولدى أوساط واسعة من الجماهير الشعبية . ثم تعمقت واشتدت المعارضة بعد أن تم نشر بنودها في بغداد قبل عودة صالح جبر إليها .

وجه فهد من محبسه في الكوت قيادة التنظيم في بغداد الوجهة التي يفترض أن يتخذها الكفاح ضد المعاهدة والشعارات التي يراد صياغتها والتكتيكات التي يفترض ممارستها لمواجهة الحكومة وأجهزتها ونشاطها المحموم لعقد المعاهدة . إذ كان فهد في سجنه في الكوت يتابع تطورات الوضع السياسي في العراق من خلال الزيارات التي تقوم بها العوائل ومن خلال نشرات الأخبار من إذاعات مختلفة . وشخص فهد الوضع في العراق على النحو الآتي:

1. تنامي مستمر في المزاج الثوري للجماهير المناهض للحكومات المتعاقبة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . وتجلّى ذلك في معارك بغداد السياسية وإضرابات عمال السكك في بغداد ، مظاهرات 26 حزيران/يونيو 1946 ، إضرابات عمال نفط كركوك ومجزرة كاورباغي ، إضافة إلى المزيد من الإضرابات والمظاهرات المختلفة التي امتدت عبر عامي 1946 و1947 . وكان هناك إصرار من جانب القوى السياسية المعارضة وقوى واسعة في المجتمع على رفض عقد اتفاقية جديدة مع بريطانيا والسعي لإلغاء معاهدة 1930؛

2. والمشكلة التي تواجه المعارضة السياسية تكمن في سبل استفادتها من هذا المزاج الثوري بصورة عقلانية . فقيادة الحزب الشيوعي القوية والواعية لمجرى الأحداث تقبع في سجن الكوت ، في حين تعتبر قيادة الحزب خارج السجن ضعيفة وغير موحدة ومتصارعة على الأدوار والمسؤولية بعد الضربات القاسية التي تلقتها ، وبالتالي قدرتها ضعيفة على قيادة الشارع . كما أن بقية قوى المعارضة السياسية ، رغم جديتها ، عودت الشارع العراقي على المساومة وتجميد نشاطها في اللحظات الحرجة ، ومع ذلك فإمكانية تنشيطها قائمة لو تمكن الحزب من القيام بدور أكبر في الشارع ذاته من أجل منع مساوماتها وتشديد زخم النضال فيها؛

3. العدو الذي يقف بوجه المعارضة السياسية والشعب ، رغم عزله عن الشعب ، ما يزال قوياً ويمتلك أسلحة غير قليلة ، كما يجد الدعم والتأييد من الحكومة البريطانية وقواتها في الداخل ومن كثرة من الحكومات العربية والدول المجاورة . وأن الحكومة العراقية ستبذل قصارى جهودها للسيطرة على الوضع وتنفيذ ما تريده؛

4. وأن خوض المعركة مع الحكومة يمكن أن يقود إلى تغيير في ميزان القوى لصالح الجماهير والمعارضة ، إلى تبدل جذري في الوضع يسمح بمجيء حكومة وطنية ديمقراطية انتلافية

تقود البلاد باتجاهات سياسية أخرى في صالح البلاد والشعب . وكان الحكم الذي صدر في حزيران من عام 1947 على فهد ورفيقيه حازم وصارم بالإعدام قد استبدل ، بفعل عوامل داخلية وعربية ودولية ، إلى حكم مؤبد ، مما أعطى الانطباع وكأن الحركة الشعبية نجحت في إبعاد حبل المشنقة عن رقابهم ، وبالتالي ، فهي قادرة أيضاً على المضي قدماً في نضالها ضد الحكم القائم وضد مشاريعه السياسية .

5. وإزاء هذا الوضع كان لا بد لقيادة الحزب الموجودة في السجن أن تلعب دوراً أكبر في توجيه المعركة . وكان فهد مقتنعاً بأن المسؤولين عن الحزب خارج السجن ليسوا فقط لا يملكون القدرة الكافية على القيادة ، بل ويمكن أن يدفعوها باتجاه يساري أو يميني غير مناسب يشدد الصراع في الصف الوطني ويحرم الجميع من تحقيق النصر المطلوب ، أو يضعف الزخم والدينامية اللذين يفترض أن تتسم بهما الحركة . ولكن ، ما هو الدور الذي لعبه فهد لقيادة نشاط الحزب قبل وأثناء الوثبة؟ يمكن بلورة ذلك فيما يلي:

- عمد فهد إلى تنشيط وتطوير أعلام الحزب وخطابه السياسي بما يساعد على تأمين فضح سياسة الحكومة وتعرية الأهداف التي تسعى إلى تحقيقها بعقد المعاهدة وكذلك رفع وعي الجماهير بالموامرة التي يراد إمرارها ورفع حماسها لمواجهة تلك التحركات من خلال مواصلة النشر لفضح جهود الحكومة لوضع معاهدة جديدة تبقي هيمنة بريطانيا على العراق واستغلاله للشعب وخيراته؛
  - كما عمد إلى تنشيط وتنظيم الفعاليات النضالية كالمظاهرات والإضرابات دفاعاً عن مصالح الفئات الاجتماعية المختلفة ، سواء كان ذلك في المشاريع الاقتصادية أم في المؤسسات التابعة للدولة للحفاظ على زخم متصاعد؛
  - الدعوة لتشكيل تحالف سياسي بين القوى الديمقراطية العراقية المستعدة للنضال ضد إجراءات وسياسات الحكومة . وتم فعلاً تشكيل هذه اللجنة التي سميت "لجنة التعاون" في تشرين الثاني/نوفمبر 1947؛
  - المشاركة في فعاليات القوى والأحزاب السياسية المعارضة الأخرى ، بغض النظر عن مواقف قياداتها ، إذ أن العمل مع قواعد الأحزاب الأخرى يؤثر ويضغط على قياداتها لصالح العمل المشترك؛
  - الاهتمام بدور الطلبة المحفز لنشاطات الجماهير والمعبر عن المزاج الجماهيري أيضاً . وتم تشكيل "لجنة تعاون طلابية" مماثلة للجنة تعاون القوى السياسية وللغرض نفسه؛
  - وضع الشعارات المناسبة التي تنسجم مع طبيعة المرحلة والمهمة وإدانة الحكومة والمطالبة بإسقاطها والدعوة إلى تشكيل حكومة وطنية ائتلافية تمثل الشعب ومصالحه؛
  - الابتعاد عن التطرف في طرح الشعارات والانتباه للقوى التي تحاول الإندساس وشق وحدة الصف أو توجيه الفعاليات وجهة أخرى غير سليمة؛
  - إبقاء قيادة الحزب في السجن على اتصال وإطلاع مستمرين بمجرى الأحداث وتطورها .
- ساهم الحزب الشيوعي العراقي ومنظماته الطلابية ومؤيديه بنشاط واسع في المظاهرات التي أدت إلى إسقاط وزارة صالح جبر . وكان الحزب قد دعا قبل ذلك إلى إنشاء جبهة يسارية باسم "لجنة التعاون الوطني" 587 ، التي ضمت بالإضافة إلى الحزب الشيوعي ، حزب الشعب والجناح التقدمي للحزب الوطني الديمقراطي والحزب الديمقراطي الكردي . وتم تشكيل هذه

اللجنة في تشرين الأول/ أكتوبر 1947م 588 واشتركت فعلياً في أحداث الوثبة وانتخبت كامل قزنجي لرئاستها ولقيادة كافة المظاهرات في كانون الثاني/ يناير 1948 . وضمت اللجنة بالإضافة إلى الرئيس كامل قزنجي ، كلا من عبد الستار زبير ، عبد الحسين جواد الغالب ، عبد الرحيم شريف وعبد القادر رشيد 589 . وأصدرت الأحزاب المجازة بياناتها التي أعلنت فيها موافقها الصريحة ضد الحكومة ونواياها وانعدام ثقة الشعب بها .

طرح الحزب الشيوعي العراقي المهمات التي يراها عاجلة من أجل تعبئة الناس للنضال في سبيلها ولخصها بالنقاط التالية: 1 . رفض المعاهدة الجديدة وإلغاء معاهدة 1930؛ 2 . توفير الخبز والكساء بأسعار معتدلة؛ 3 . تحقيق الحريات الديمقراطية؛ 4 . إسقاط وزارة صالح جبر وحل المجلس النيابي وإجراء انتخابات حرة لمجلس جديد "590 .

ومنذ أوائل شهر كانون الثاني كانت التحركات الطلابية نشيطة وفعالة تهدف إلى تحريك الجماهير وشدها إلى النضال ضد محاولات ربط العراق بعجلة السياسة والمشاريع البريطانية في المنطقة .

وفي 16 كانون الثاني/يناير أعلنت شروط المعاهدة الجديدة التي يراد توقيعها مع بريطانيا في ميناء بورتموث ، والتي كشفت عن محتواها الأساسي الذي لا يختلف بأي حال عن معاهدة 1930 ولا يغير من علاقة التبعية التي تشد العراق إلى بريطانيا ، اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً وأمنياً . وأدى هذا الإعلان إلى تفجير الوضع السياسي في العراق ، وبدء العد التنازلي لأحداث الوثبة الشعبية . أصدرت الأحزاب السياسية بيانها المناهض للمعاهدة في 18 كانون الثاني/يناير 1948 . وبدأت كلية الحقوق بالإضراب لتلتحق بها بقية المعاهد والكليات ، ثم تحركت المظاهرات ابتداءً من 19 كانون الثاني/يناير 1948 . وتأزم الوضع السياسي في المجلس النيابي وفي الشارع منذ يوم 20 من الشهر نفسه عندما وجهت الشرطة نيران بنادقها إلى الطلبة المتظاهرين ، مما أدى إلى سقوط أربعة شهداء ، ومنهم الشيوعي شمران علوان . وفي 1948/1/22 بثت إذاعة لندن تصريحاً لرئيس الوزراء صالح جبر جاء فيه ، وفق إذاعة لندن ، ما يلي:

"صرح السيد صالح جبر رئيس وزراء العراق أنه موقن بأن البرلمان العراقي والشعب سيجدان في المعاهدة ما يحقق الأمان القومي تحقيقاً كاملاً وأن بعض العناصر الهدامة من الشيوعيين والنازيين الذين اعتقلهم في عام 1941 استغللت فرصة غيابه وأحدثت القلاقل في البلاد ، وأنه سيعود إلى العراق فوراً ، وسيسحق رؤوس هذه العناصر الفوضوية حتماً" 591 . في مظاهرة يوم 23 كانون الثاني/يناير ألقى كامل قزنجي ، رئيس لجنة التعاون الوطني اليسارية خطاباً حماسياً قال فيه: "أعلنوها ثورة شعبية كبرى وناضلوا في سبيل إصلاح هذا الوضع حتى تولف حكومة شعبية تمثل هذه الطبقات" ، مشيراً إلى العمال . كما أثار تصريح رئيس الوزراء الرأي العام العراقي كله ، إذ اعتبره تحدياً واستفزازاً وإصراراً على فرض إرادة بريطانيا بالصد من مصالح الشعب العراقي . وأعلن عن موعد وصول صالح جبر ، وبرفقته نوري السعيد ، إلى بغداد في 1948/1/26 . وعلى هذا الأساس اجتمعت لجنة التعاون الوطني واللجنة الطلابية وأعلنت عن دعوتها للتظاهر في يوم 27 كانون الثاني/يناير من نفس العام

588 يشير حنا بطاطو إلى أن "لجنة التعاون" لأحزاب اليسار قد تشكلت في تشرين الثاني نوفمبر عام 1947. راجع: بطاطو ، حنا. العراق. الكتاب الثاني. الحزب الشيوعي. مصدر سابق. ص 207.

589 حمدي ، جعفر عباس. التطورات السياسية في العراق. مصدر سابق. ص 370.

590 خيرى. زكي. دراسات في تاريخ الحزب الشيوعي العراقي. مصدر سابق. ص 176.

591 الحسيني ، عبد الرزاق. تاريخ الوزارات العراقية. الجزء السابع. مصدر سابق. ص 263.



احتجاجاً على سياسة الحكومة الإرهابية والدموية في مواجهة مطالب الشعب وسقوط شهداء بسبب عنف أجهزة الدولة وإصرار السلطة على عدم احترام إرادة الشعب ومصالحه . وكان يوم 1948/1/27 حاسماً في حياة الشعب والحكومة والمعاهدة الجديدة ، حيث وجهت أجهزة النظام القمعية نيران أسلحتها إلى صدور المتظاهرين العزل في مواقع مختلفة من جانب الكرخ والرصافة ، وعلى الجسر العتيق الذي سمي فيما بعد بجسر الشهداء ، بسبب كثرة الشهداء الذين سقطوا فيه أو في نهر دجلة . وقد عدد قتلى الانتفاضة بين 300-400 شهيداً<sup>592</sup> . وعلى أثر ذلك وجد الوصي على العرش نفسه مضطراً إلى توجيه نداء للشعب يعلن فيه عن قرب إجراء تغييرات مناسبة في الوضع . وقدم وزير العدالة ، جمال بابان استقالته يوم 1948/1/26 لإدراكه بأن المعركة قادمة ، كما اختلف مع صالح جبر حول اتجاه تطور الأوضاع . وفي اليوم التالي قدمت مجموعة من النواب استقالتها من المجلس ، كما استقال رئيس مجلس النواب ، بسبب الظلم والقسوة التي جابه بها رئيس الوزراء المتظاهرين والضحايا الكثيرة التي سقطت . ثم لحقت بها استقالة وزيرين هما ، وزير المالية ووزير الشؤون الاجتماعية . وأجبرت هذه الاستقالات المتتالية صالح جبر على تقديم استقالته وقبلت الاستقالة في السابع والعشرين من كانون الثاني/يناير عام 1948 ، وشكلت على إثرها ، أي في التاسع والعشرين من شهر كانون الثاني/يناير 1948 ، وزارة السيد محمد الصدر ، التي وعدت بمعالجة الوضع .

أذن ، تتوجت الوثبة بالانتصار عندما استطاعت إسقاط وزارة صالح جبر وتشكيل حكومة جديدة برئاسة السيد محمد الصدر التي ألغت قرار الموافقة على عقد المعاهدة في الأول من شباط/فبراير من عام 1948 ، أي بعد أربعة أيام من مجزرة جسر الشهداء في 1948/1/27 . كما قرر مجلس الوزراء إبلاغ الحكومة البريطانية برغبة الحكومة الجديدة بتغيير معاهدة 1930 واستبدالها بمعاهدة جديدة تستجيب لمصالح العراق وتزيل الغبن الواقع عليه من جراء عدم التكافؤ فيها لصالح بريطانيا<sup>593</sup> .

لم تتوقف المظاهرات ومواكب التشييع وساهم الشيوعيون بقسط وافر في نجاح الوثبة . ولكن الشيوعيين لم يرغبوا في إيقاف زخم الحركة ، خشية من عدم إيفاء الحكومة بوعودها وعدم الالتزام بمنح الشعب الحريات الديمقراطية . وأمكن خلال فترة وجيزة دفع الحركة إلى أمام لتحقيق مسائل عجزت عن تحقيقها قبل ذلك ، وأسس في شهر نيسان 1948 اتحاد الطلبة رغم امتناع الحكومة على منح المجتمعين قاعة مناسبة . وفي مظاهرات الوثبة وما بعدها بقليل طرحت شعارات سلمية وغير متطرفة ، وهي: حل المجلس النيابي ، تشكيل وزارة شعبية جديدة تمثل الأحزاب ، جلاء جميع القوات البريطانية عن العراق حالاً ، إعادة فتح الأحزاب والنقابات في جميع أنحاء العراق . ولكن تخللت المظاهرات التي أعقبت إلغاء المعاهدة إطلاق شعارات وهتافات أخرى ، سواء من بعض الشيوعيين المتحمسين أو من بعض من استطاع التغلغل والإندساس في صفوف المتظاهرين ، منها مثلاً: "نريد إطلاق سراح الزعيم فهد وأسود الكوت ، نريد حكومة جماهيرية ، نريد فهد ليكون لينين العراق ، نريد حكومة جمهورية ، يحيا رفيقنا الأول ستالين"<sup>594</sup> .

وفي الذكرى الأربعينية لشهداء الوثبة وما اقترن بها من توترات في صفوف الطلبة ، أصدر قادة الأحزاب السياسية العراقية المعارضة ، كامل الجادري ، عن الحزب الوطني الديمقراطي

592 بطاطو ، حنا د. العراق. الكتاب الثاني. الحزب الشيوعي. ص 215.

593 الحسني ، عبد الرزاق. تاريخ الوزارات العراقية. الجزء السابع. مصدر سابق. ص 282.

594 الحسني ، عبد الرزاق. تاريخ الوزارات العراقية. الجزء السابع. مصدر سابق. ص 263.

، ومحمد مهدي كبة ، عن حزب الاستقلال ، وسعد صالح ، عن حزب الأحرار ، بياناً دعوا فيه إلى الكف عن المظاهرات والمواكب وترك الأمور للحكومة والأحزاب والهيئات المعنية بالشؤون العامة للقيام بواجباتها 595 . ولم يكن هذا القرار مناسباً للحزب الشيوعي ولا مقبولاً من قيادته . ولذلك دعا فهد إلى مواصلة النضال لفرض التغييرات المطلوبة على الحكومة . كما أشار برسالة له إلى مسؤولي التنظيم في الخارج إلى ضرورة التعاون مع قواعد الأحزاب إن رفضت قياداتها مواصلة النضال ، إذ كتب فهد إلى المسؤول الأول يقول: "إذا رفض قادة هذه الأحزاب . . العمل معكم ، فلا تهملوا أتباعهم" 596 ، أي السعي لإقامة جبهة مع قواعد الأحزاب المعارضة .

تميزت الفترة اللاحقة بنشوء تعقيدات جديدة . فالدول العربية قررت في منتصف أيار/مايس 1948 إرسال وحدات من قواتها العسكرية إلى فلسطين لخوض الحرب ضد القوات الصهيونية رافضة بذلك القرار الصادر بتقسيم فلسطين وتشكيل دولتين عربية وأخرى يهودية عليها ووضع مدينة القدس تحت الوصاية الدولية . واستثمرت الحكومة العراقية مناسبة إرسال قواتها إلى الحدود الفلسطينية لإعلان الأحكام العرفية في البلاد بحجة حماية مؤخرة القوات العراقية وتقديم الدعم إلى فلسطين . وعلى إثر ذلك استقالت وزارة الصدر وشكلت وزارة السويدي ، ثم تلتها حكومة الباججي ، فوزارة نوري السعيد . وفي هذه الوزارات الثلاث الأخيرة بدأت سياسة ضرب الحركة الوطنية العراقية وتصفية الحساب مع الحزب الشيوعي العراقي ومع قيادة الحزب التي كانت في السجن رهينة لديها .

يبدو للمتتبع أن فهداً قد مرّ ، وهو في السجن ، بمحنة غير سهلة ، بسبب إيمانه العميق بالمبادئ التي اعتنقها وبالذور الذي يفترض أن يؤديه وهو على رأس هذا الحزب ، والإشكاليات التي تواجه الحزب بعد اعتقاله والسجن عليه واضطراره البقاء في السجن دون أن يستطيع أداء الكثير لنشاط الحزب في الخارج . وكان هذا الإحساس يؤرقه كثيراً . فمن جهة صدر بحقه حكم الإعدام ثم خفف الحكم إلى المؤبد . وكان رهينة عند أجهزة الحكم المعادية للشيوعية ولقيادة الحزب الشيوعي ، وله شخصياً . وكان على فهد في الوقت نفسه أن يتدبر أمر عمل الحزب خارج السجن في فترة حرجة جداً . كما أن قيادة الحزب لم تكن بمستوى المهمات الكبيرة التي تتميز بها طبيعة المرحلة والأحداث الثورية والحيوية المتلاحقة . كما أن قيادة الحزب من السجن لن تكون دون أخطاء بسبب واقع عدم المعرفة التفصيلية بتطور الأحداث والتغيرات في مواقف مختلف القوى السياسية والسلطة في آن واحد . كما كان من المتعارف عليه أن القيادة تفقد مسؤوليتها عن الحزب مباشرة حالة وقوعها بيد العدو لضمان صيانة تنظيمات الحزب بغض النظر عن مسؤوليات الشخص المعتقل وعن قدرته على الصمود ، إذ أن الصيانة والحذر مطلوبان في كل الأحوال وإزاء كل المناضلين . وكانت عيون العدو في الوقت نفسه ساهرة تراقب تحركات الحزب في داخل السجن وخارجه ، كما كانت تراقب زوار الحزب من العوائل ، إضافة إلى كثرة متتبعي رفاق الحزب في خارج السجن . وتمكنت أجهزة التحقيقات الجنائية من كسب عناصر حزبية بدأت تعمل لصالحها ، سواء بعد إلقاء القبض عليها أو حتى قبل ذلك ، والتي وظفت لاستقاء المعلومات عن تحركات الشيوعيين . ولهذا تمكنت ، وخاصة في فترة الوثبة حيث كانت تحركات الشيوعيين كثيفة جداً واليقظة أكثر ضعفاً واقل احتراساً وحذراً ، أن تنزل ضربات قاسية بالحزب بعد إعلان الأحكام العرفية وأن تكبس

595 نفس المصدر السابق. ص 288/289.

596 بطاطو ، حنا د. العراق. الكتاب الثاني. الحزب الشيوعي. مصدر سابق. ص 223/224.

الهيئات القيادية الجديدة للحزب ، بسبب انهيار بعضها أثناء التحقيق وتسليم ما لديه من معلومات وأسرار لأجهزة الأمن الحكومية .

بعد أن أعلنت الحكومة العراقية الأحكام العرفية بدأت بحملة واسعة لملاحقة قوى المعارضة السياسية التي شاركت بالوثبة أو التي ساهمت بقبر معاهدة بورتسموث من أجل توفير الأجواء المناسبة لإعادة فرضها أو فرض معاهدة أخرى تماثلها . وخلال تلك الفترة ، أي بين تشكيل وزارة السويدي ووزارة الباججي ثم وزارة نوري السعيد ، تمكنت هذه الحكومات المتعاقبة أن تتجح باعتقال عدد كبير من القيادات الشابة الجديدة للحزب وزجهم في المعتقلات وإجراء تحقيقات واسعة معهم ، إضافة إلى اعتقال عدد كبير من قواعد الحزب في مختلف المدن العراقية ، وخاصة بغداد العاصمة . ومع ذلك استمر العمل الحزبي واستمرت محاولات تحفيز الناس على التظاهر ونشر شعارات متطرفة لم تكن تنسجم مع الجزر الذي بدأ يصيب الحركة منذ أيار/مايس من عام 1948 ، والذي لم يستطع قادة التنظيم في الخارج أن يدركوه تماماً أو يدركوا التغييرات الجارية في موازين القوى السياسية على الصعيد الدولية والعربية والمحلية بصورة واقعية .

وكانت توجيهات فهد تؤكد ضرورة مواصلة تعبئة الجماهير ورفع يقظتها لمواجهة الأحداث المحتملة . ف جاء في رسالته إلى مسؤول التنظيم بعد أحداث الوثبة ما يلي:

" 4 - يلاحظ أن الرجعية الاستعمارية والمحلية في ورطة في قضية فلسطين وأنها تفتضح أكثر فأكثر وأن السخط الشعبي الجماهيري أخذ ينعكس في الصحف المحلية حتى الرجعية منها لذلك ينبغي التهيو التنظيمي والمباشرة فوراً بتعبئة جماهير الشعب ، تعبئة الطلاب في بغداد وخارجها وتعبئة العمال في البصرة والجهات الأخرى وتعبئة الفلاحين في العمارة وغيرها وتعبئة الشمال ككل لتنظيم عرائض ضد وجود الأحكام العرفية ومطالبين بإطلاق سراح أسرى العرفي وحل مشكلة الغلاء ، وإذا أمكن وحيثما أمكن إقامة مظاهرات وإعلان إضرابات . لذلك نظموا نسخ عرائض وأرسلوها إلى الجهات واطلبوا إليهم أن ينظموا مثلها ويوقعوها من الجماهير . ولا بأس أن تتضمن مثل تلك العرائض مطالب محلية بالنسبة للمنطقة التي تنظم فيها أو بالنسبة للصناعة أو المهنة التي تخص مقدمي تلك العريضة" 597 . كما كتب فهد رسالة أخرى إلى المسؤول الأول حول نفس الموضوع جاء في الفقرة الأولى منها ما يلي:

"1- نرى أن ينشر الحزب بياناً يلخص به ما كانت تسعى لتحقيقه وزارة صالح جبر تنفيذاً لخطط الاستعمار . وكيف أنها استقتلت واستنفدت كل قواها للوصول إلى أهدافها ولم تترك الميدان من تلقاء نفسها بل قذفت بها جماهير الشعب بعد أن تكبدت (الجماهير) خسائر هي دماء زكية أراقها أهل بغداد والألوية الأخرى وأن هذه الوزارة جاءت لا لتحدث تغييراً أساسياً يرضي طلبات جماهير شعبنا بل لتهدئ الناس وترجع المياه إلى مجاريها الأولى وهذا يعني إعطاء المستعمر وأذنايه الوقت الكافي لحبك مؤامرتهم والقيام ب (كوب ديتا) أي بأخذ السلطة ثانية عن طريق العنف والتآمر . ويظهر أن المستعمرين وأذناهم يريدون تنفيذ خططهم في هذا الجزء من العالم لكي يحققوا تنفيذ خططهم في الميدان الدولي ... ولكن قوة شعبنا برهنت حتى الآن أنه ممكن وأنه محقق إبطال خطط الاستعمار إذا وقف الشعب ضدها . وهذا الذي يجعلنا ننبهكم إلى التنبه والحذر لمنع حدوث ما يمكن أن يسلب الشعب انتصاراته الرائعة التي حققها حتى الآن . ولذلك يجب تضمين البيان مطالب الوطنية الأنية وتجنيد الجماهير ودفعها للمطالبة بها عن طريق العرائض والوفود والمظاهرات ومن الضروري الإلحاح وإحراج الحزبين

(الوطني الديمقراطي) و (الأحرار) لدفعهما إلى التمسك والمطالبة بتحقيق بيانهما . وإن من أهم ما يجب التشديد عليه هو إلغاء معاهدة 1930 وبورتسموث وجلاء الجيوش الأجنبية والحريات الديمقراطية وحرية التنظيم النقابي وتوفير الخبز الجيد للناس والاقتصاد من وزارة صالح جبر ومدير الشرطة لإجرامهم الدنيء وسفكهم دماء أبنا الشعب الأبرياء والاقتصاد من نوري السعيد عميل الاستعمار الأول . وإبطال مشاريعه وحل المجلس النيابي وتأييف حكومة مؤقتة من حزبي الأحرار والوطني الديمقراطي . ...

2 - المحافظة على وحدة الصفوف في الحركة الوطنية ويجب أن لا يؤدي أي اختلاف جزئي إلى اختلاف كلي أي إذا لم يأتوا معنا ببعض النقاط فيجب أن لا يؤدي ذلك إلى القطيعة ومن الضروري الاستفادة من جميع العناصر الوطنية على مختلف نزعاتها الاجتماعية التي تريد أن تمشي ولو إلى نصف الطريق .

3 - من الضروري تنشيط الحركة بين العمال وربط حركتهم بحركة الطلاب وبالحركة بصورة عامة وبالإمكان دفعهم الآن من أجل المطالبة بحقوقهم النقابية إلى جانب نضالهم من أجل القضايا الوطنية العامة . . .

4 - قووا صلاتكم بالخارج وابعثوا إليهم باستمرار بأخبار ما يجري عندكم وبما يجب عمله لكي تنسق الجهات نشاطها مع نشاطكم وهكذا تصبح الحركة شاملة القطر وغير مقتصرة على بغداد فتقوى الحركة وتصبح أوسع وأعمق "598 .

إن هذه الرسائل تشير بوضوح إلى تصورات فهد عن الوضع في العراق وعن الخطط التي يمكن أن تمارسها السلطة ما لم يستمر الهجوم على الحكومة الانتقالية التي تشكلت لتفادي تفاقم حركة الوثبة وإعطاء مجال للنخبة الحاكمة إلى ترتيب صفوفها ثانية والعودة مجدداً إلى قيادة الحكم مباشرة . ولكن كما يبدو بأن هناك جملة من الملاحظات التي يمكن طرحها الآن لأغراض التفكير بها والإجابة عنها بصورة أعمق ووفق وثائق أخرى في دراسات لاحقة ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: هل استطاعت الوثبة حقاً تحقيق أهدافها التي تفجرت من أجلها؟ وهل كان ميزان القوى بعد الوثبة قادراً على توسيع وتعميق الحركة؟ وهل كانت الجماهير حينذاك مستعدة إلى ذلك؟ يبدو لنا بأن الوثبة ، التي عطلت التوقيع والمصادقة على معاهدة بورتسموث الجديدة ، لم تستطع إلغاء معاهدة 1930 التي كانت محور النضال أساساً ، ولهذا وجد فهد أن التوقف عند هذا الحد لا يكفي بل يفترض مواصلته والمطالبة بإلغاء معاهدة 1930 ، باعتبارها أداة الهيمنة الاستعمارية غير المباشرة القائمة في العراق . إن جماهير الوثبة عجزت عن تحقيق الأهداف المهمة الأخرى التي ارتبطت بتلك الوثبة ، ونعني بها الحريات الديمقراطية وإطلاق سراح المعتقلين السياسيين وإلغاء تقديمهم إلى المحاكمة ... الخ . إلا أن الجماهير الشعبية ومعها القوى الوطنية الأخرى لم تكن قادرة على الاستمرار بحركة الوثبة وتطويرها ، خاصة وأن قضية فلسطين طرحت نفسها بقوة على الساحة السياسية العراقية والعربية حينذاك ، وبالتالي توفرت إمكانية أمام السلطة للاستفادة منها في إنزال الضربة بالقوى الوطنية كافة ، وخاصة بقوى الحزب الشيوعي العراقي ، ومنها قيادته الأساسية التي كانت رهينة بيد النظام . ويفترض أن يتذكر الإنسان التحولات التي كانت تجري في حينها في العلاقات الدولية بين الاتحاد السوفييتي والمعسكر الرأسمالي وظهور بوادر الحرب الباردة التي برزت على نحو خاص بعد تشكيل الدولتين الألمانييتين وتقسيم برلين . وكانت الرسائل التي بعث بها فهد إلى المسؤول الأول خارج السجن قد تميزت في جوانب منها

بالحرص على وحدة الصف وعلى أن تكون الإجراءات جماهيرية وغير منفعلة ولا متطرفة ، ولكنها كانت في الوقت نفسه لا تعبر عن رؤية واقعية لميزان القوى في داخل العراق وفي المنطقة العربية وفي العالم . إذ كان فهد متفاناً جداً بقدرات الشعب على القيام بفعاليات جديدة ، في حين كانت الأوضاع لا تبشر ولا تشير إلى واقعية ذلك التقدير . وكان التخلل في قيادة الحزب في الخارج والاعتقالات التي تمت قد تسببت بإنزال ضربة جديدة بالتنظيمات وقادت إلى مزيد من الاعترافات التي استخدمت ضد الحزب وقيادته للتخلص من القيادة وإضعاف الحزب ، خاصة وأن بعض القوى السياسية وكذا الحكم ، حاول الاستفادة من موقف الحزب من قضية تقسيم فلسطين ليوفر مستلزمات إجهازه على الحزب وقيادته .

أوحى الاعترافات التفصيلية التي قدمها قادة الحزب الذين اعتقلوا في عام 1948 ، ومنهم يهودا صديق ومالك سيف ، للحكومة وأجهزة الأمن العراقية أن يعجلوا بتقديم قيادة الحزب للمحاكمة ثانية . إذ أن الاعترافات أشارت بوضوح إلى دور فهد في قيادة الحزب من داخل السجن أثناء الوثبة والتعليمات والأوامر التي كان يرسلها إلى مسؤولي التنظيم خارج السجن . وكان هم نوري السعيد الوصول إلى حكم بإعدام فهد ورفاقه وتنفيذ هذا الحكم دون تردد أو انتظار ، إذ أدرك تماماً المخاطر التي تبقى تتعقبه بوجود فهد على رأس الحزب الشيوعي العراقي .

كانت المحاكم العراقية قد أصدرت حكمها الأول على فهد والشيوعيين الآخرين 24 حزيران/ يونيو 1947 الذي قضى بإعدام فهد وزكي بسيم ، كما حكمت على آخرين بالأشغال الشاقة المؤبدة وبالحبس لمدد مختلفة . ورضوخاً لضغط الرأي العام العربي والعالمي ، قامت حكومة صالح جبر بتخفيض الأحكام في 23 تموز 1947 على فهد من الإعدام إلى السجن لمدة 20 سنة وعلى زكي بسيم لمدة 15 سنة .

وعندما تولى نوري السعيد الحكم في 6 كانون الثاني 1949 واصل العمل من أجل إعادة محاكمة فهد ورفاقه بتهمة قيادة الحزب من داخل سجن الكوت والدعوة إلى الثورة المسلحة . إن إعادة المحاكمة دفعت الحزب إلى انتهاج سياسة يسارية متطرفة كانت تدعو إلى إجراء تغيير "كفي في الحكم والمجتمع" وإلى القيام ب"وثبة تحررية ظافرة حاسمة" 599 . "كما أصدر الحزب في 23 كانون الثاني 1949 تعليمات إلى منظمات الألوية تضمنت ما يلي:

- 1- تشكيل خلايا عمالية صرفة مفصولة تنظيمياً عن بقية العناصر ، وتوكل مهمة تنظيمها إلى خيرة العناصر ، على أن تكون خالية من النفسية البرجوازية .
- 2- دفع جميع الأعضاء من الطلاب إلى بث الوعي السياسي الثوري بين جماهير الطلاب ، بالخطابات وغيرها ، بصورة جماعية مكشوفة ومحاسبتهم .
- 3- تشكيل "لجان فلاحية ثورية" من العناصر البروليتارية أو الفلاحين المعدمين ، على أن يسند إليها أمر قيادة بقية الفلاحين .

4- رفع شعار "أرادوها حرب إبادة ، فلتكن حرب إبادة" وتطبيقه بكل صرامة وشدة" 600 . ورفع الحزب شعار الدعوة إلى تشكيل "جبهة بروليتارية ثورية" تضم بعض الأحزاب الشيوعية في الوطن العربي (العراقي ، السوري ، اللبناني ، الفلسطيني الموحد) تكون نواة لجبهة واسعة تضم جميع أقطار الشرق الأوسط . وفي رسالة بعثها الحزب في 30 كانون الثاني 1949 إلى اللجنة المركزية للحزبين الشيوعيين السوري واللبناني أوضح فيها أن هدف

599 حميدي ، عباس جعفر. التطورات السياسية في العراق. مصدر سابق. ص 370.  
600 نفس المصدر السابق. ص 378.

الجبهة إنجاز "الثورة الديمقراطية البرجوازية التي تمر بها الآن جميع هذه الأقطار على وجه الإطلاق ، التي هي جزء أساسي وجوهري وخطوة أولى لا بد منها ، في سبيل الثورة البروليتارية ودكتاتورية البروليتاريا" 601 .

كان نوري السعيد يسعى إلى نشر جو الإرهاب في عموم العراق ليتسنى له إمرار مخططه في إعادة محاكمة قادة الحزب الشيوعي وإعدامهم . ففي الخامس من شباط/فبراير من عام 1949 أصدر مرسوماً موقفاً من الأمير عبد الإله ، الوصي على العرش ، يقضي بعقوبات متنوعة ضد من ينشر "الفكر الهدام" ، أي الشيوعية . وجاء في المرسوم ما يلي:

"استناداً إلى الفقرة (3) من المادة السادسة والعشرين من القانون الأساسي وبناء على ما عرضه وزير الداخلية والمعارف ووافق عليه مجلس الوزراء أمرنا بوضع المرسوم الآتي:

المادة الأولى: ممنوع على هيآت التدريس في الكليات والمعاهد العلمية والمدارس وموظفيها على اختلاف أنواعها ودرجاتها ، سواء أكانت حكومية أم أهلية أم أجنبية ، ما يأتي:

أولاً- بث الدعايات السياسية بين الطلاب .

ثانياً- تحريض الطلاب على مخالفة أحكام القوانين والأنظمة .

ثالثاً- حض الطلاب أو غيرهم على المظاهرات وإنما وكيفما تقع .

رابعاً- حث الطلاب على الإضراب داخل الكليات والمدارس والمعاهد العلمية أو خارجها .

المادة الثانية: يعتبر هيآت التدريس في الكليات والمعاهد العلمية والمدارس وموظفيها مسؤولين جميعاً عن الأعمال الممنوعة ، المبينة في المادة الأولى من هذا المرسوم ، لغرض المادة الرابعة ، ما لم يظهر التحقيق الموظف أو الهيئة أو الشخص الذي قام في أمر بثها أو تحريض الطلاب أو حضهم عليها .

المادة الثالثة: لمجلس الوزراء بناء على اقتراح الوزير المختص ، أن يفصل الموظفين والهيآت التدريسية للمدة التي يقررها ، إذا ثبت إهمالهم أو تقصيرهم في إظهار مرتكبي إحدى الأعمال الواردة في المادة المذكورة .

المادة الرابعة: يحرم الموظفون وهيآت التدريس الذين يفصلون ، وفق المادة السابقة من هذا المرسوم ، من حقوقهم التقاعدية سواء أكانوا يستحقون إكرامية أم راتباً تقاعدياً ، خلال مدة الفصل . على أن يعطى لورثتهم راتب التقاعد أو الإكرامية إذا وقعت وفاتهم قبل انتهاء مدة الفصل .

المادة الخامسة: ينفذ هذا المرسوم من تاريخ نشره في الجريدة الرسمية .

المادة السادسة: على وزراء الدولة تنفيذ هذا المرسوم الذي يجب عرضه على مجلس الأمة في أول اجتماعه القادم .

كتب ببغداد في اليوم السادس من شهر ربيع الثاني سنة 1368 واليوم الخامس من شهر شباط سنة 1949 .

تواقيع الوزراء رئيس الوزراء : نوري السعيد عبد الإله" 602 .

مارست وزارة نوري السعيد مضمون هذا القانون ولاحقت الشيوعيين والديمقراطيين العاملين في أجهزة التربية والتعليم العالي ، وفصلت الكثير منهم وزجت بأخرين في السجون . وبعد مرور فترة من الزمن شكلت لجنة للنظر بهذا المرسوم من أجل عرضه على مجلس النواب ،

601 نفس المصدر السابق. 379.

602 الحسيني، عبد الرزاق. تاريخ الوزارات. الجزء الثامن. مصدر سابق. ص 86/87.

فوجد أنه مخالف للقانون الأساسي العراقي ، مما أدى إلى إحالته إلى لجنة لصياغته كمرسوم يمكن أن يحظى بموافقة مجلس النواب على أن يحافظ على جوهر العداء للشيوعية والديمقراطية في المنطقة ، ومنها العراق . وفي عام 1955 ألغي هذا المرسوم لوجود قوانين أخرى تعوض عنه ، إذ أنه كان قد استنفذ أغراضه عملياً .603 ولكن الحكومة لم تلغ الأحكام والإجراءات الظالمة التي صدرت بحق المواطنين في ضوء ممارسة هذا القانون الذي رفض ولم يصادق عليه .

استمرت وزارة نوري السعيد في إعادة محاكمة فهد ورفاقه . وحكم المجلس العرفي العسكري على فهد وزكي بسيم وحسين الشبيبي بالإعدام . وفي صباح يوم 14 و15 شباط/ فبراير 1949 نفذ حكم الإعدام بهم علناً وبقيت جثثهم معلقة ، كما كان يفعل كل المستبدين الذين حكموا العراق واستباحوا دماء المعارضين لسياساتهم والمناضلين في سبيل الحرية والعدالة الاجتماعية .

اتسم الأشخاص الذين تسلموا قيادة الحزب في الفترة الواقعة بين 1947-1949 بخصائص معينة نشير إلى بعضها في أدناه:

- كانوا من الشباب المتحمس والمؤمن بالقضية أكثر مما هو مستوعب لها ومقتنع بها؛
- كما كانت تجاربهم ومستوياتهم الفكرية والسياسية محدودة وعاجزة عن إدراك التعقيدات في الوضع القائم حينذاك والسبل العملية لمعالجتها؛
- ولعب المركز الحزبي دوره في إثارة الصراع بين بعض القياديين ، مما أدى إلى ارتكاب جملة من الأخطاء التي ساعدت على إضعاف الدور القيادي للمجموعة وإلى تعريضهم لمصاعب غير قليلة؛
- ولكن كانت الخصلة الإيجابية عندهم ، وقبل سقوط البعض أو تخلي البعض الآخر منهم ، أنهم أبدوا استعداداً لتسلم المهمة والسير بها خطوات نحو الأمام بغض النظر عن إمكانياتهم وقدراتهم القيادية؛
- وكان الحماس الذي تميز به أغلب العناصر القيادية وكوادر وأعضاء الحزب حينذاك من جهة ، وضعف المستوى الفكري والوعي السياسي للغالبية العظمى منهم من جهة ثانية ، قد دفعا بهم إلى اتخاذ مواقف سياسية متطرفة وشديدة التأثير على مجرى سير العملية الثورية في العراق؛
- ولم يكن اختيار القيادات والمسؤولين المباشرين لقيادة الحزب من قبل فهد ، وهو في السجن ، باستمرار موفقاً ومناسباً للأوضاع الجارية حينذاك ، خاصة وأنه كان بعيداً عن الاحتكاك المباشر واليومي بالكوادر الحزبية التي وضعها بالتتابع على رأس التنظيم الحزبي خارج السجن . ومن المعروف أن فهد قد شخص خلال الفترة موضوع البحث حتى استشهاده خمسة كوادر لقيادة الحزب ، وهم مالك سيف ، يهودا ، سامي نادر ، عزيز الحاج ، ساسون شلومو دلال . وكان الأخير ، الذي تسلم قيادة التنظيم في كانون الأول 1948 ، من بين مثقفي الحزب حينذاك ، ولكنه كان يسارياً شديداً المتطرف وحاول الهروب إلي أمام نتيجة الأزمة التي كان يعيش فيها الحزب والمحنة التي سقط فيها أغلب الكوادر الحزبية والضربات المتلاحقة التي تعرضت لها التنظيمات الحزبية بسبب الانهيارات المتتالية للعديد من تلك الكوادر ، وهو الذي دفع رفاق الحزب إلى التسلح ورفع شعارات متطرفة خلال

قيادته للحزب وتنظيمه للمظاهرات في نهاية 1948 وبداية 1949 ، وهو القائل "يريدونها حرب إبادة ، فلتكن حرب إبادة" 604 .

• كما لا بد من النظر إلى دور فهد في قيادة الحزب والوثبة من داخل السجن من زاويتين مختلفتين ، وهما:

لم يترك دور فهد لهم فرصة اتخاذ القرارات بمفردهم وفي ضوء رؤيتهم للأحداث ، إذ كانت رسائله لا تتوفر فيها المرونة ، بل كانت في الغالب الأعم على شكل قرارات للتنفيذ ، وعندما أبدوا ملاحظات بشأن مواقف معينة وصلتهم منه ، كان النقد الذي وجه لهم شديداً وتقريباً قاسياً لم يساعدهم على تعزيز الثقة بالنفس وبالمواقف التي يتخذونها والتعلم الواعي من الأخطاء التي يمكن أن يرتكبوها في مجرى العمل ، إذ أنهم كانوا في المعركة ذاتها وليس خارجها ، في حين أن السجن كان خارج المعركة وبعيداً عنها ، إلا من أخبار تصلهم عبر الزيارات أو بعض التقارير؛

- وفي الوقت نفسه ساعدهم ذلك التدخل ، ولو لفترة قصيرة ، على تجنب أو تقليص بعض الأخطاء المحتملة في نشاطهم 605 .

• إن التجارب المنصرمة تؤكد خطأ أخذ زمام القيادة من داخل السجن أو من خارج البلاد ، مهما كانت تعقيدات الوضع الداخلي ، بل لا بد من ترك العناصر التي تتسلم المسؤولية تأدية المهمات التي على عاتقها بالإمكانات الفكرية والسياسية المتوفرة لديها دون تحميلها مهمات أكبر وأوسع وأعلى من طاقتها الفعلية من الناحيتين النظرية والعملية . وأن وجود قياديين في السجن أو في الخارج يفترض أن تمارس دور المستشار والمساعد في اتخاذ القرارات المطلوبة في الفترات المختلفة ووفق الظروف الملموسة التي يمر بها المناضلون في خضم النضال الذي يمارسونه يومياً ، فأهل مكة أدرى بشعابها .

• إن متابعة أحداث وثبة كانون الثاني/يناير عام 1948 ، وكذلك المواقف السياسية المختلفة على امتداد الفترة التي نحن بصدد البحث فيها ، يدرك تماماً بأن القوى السياسية العراقية كلها ، سواء كانت قوى معارضة أو نخباً حاكمة بشكل خاص ، لم تدرك بأن السياسة كانت وستبقى "فن الممكنات" ، فهي علم وفن إدارة الصراع وسبل تحقيق النصر الممكن من قبل هذا الطرف أو ذاك . فالجدير بالملاحظة إن الحكومة العراقية لم تدرك في حينها أهمية تأجيل عقد المعاهدة ، بل كانت تسعى إلى فرضها مهما كان الثمن غالباً ، وربما تحت ضغط متزايد من الجانب البريطاني بسبب اقتراب موعد انتهاء المعاهدة التي حددت في حينها ب 25 عاماً . وفي المقابل كانت المعارضة السياسية ترفض المعاهدة بالكامل ولا ترى مجالاً للمساومة على ذلك . ونشأ عن ذلك تصلب شديد في المواقف ، وغاب عن الطرف الحكومي بشكل

604 بطاطو، حنا د. الحزب الشيوعي العراقي. الكتاب الثاني. مصدر سابق. ص 228.

605 في عام 1983 وقعت أحداث بشت أشان في كردستان العراق حيث شنت قوات البيشمركة التابعة للاتحاد الوطني الكردستاني في كردستان العراق حملة عسكرية مفاجئة ضد قوات الأنصار التابعة للحزب الشيوعي العراقي وأنزلت بأنصار الحزب الشيوعي خسائر بشرية فادحة، كما اعتقلت مجموعة كبيرة منهم . وكان في الأسر كريم أحمد الداودي ، عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي ، وأحمد باني خيلاني ، عضو اللجنة المركزية للحزب حينذاك . أبدى كريم أحمد وأحمد باني خيلاني استعدادهما للتفاوض مع قيادة الاتحاد الوطني الكردستاني ووافقا على الشروط التي فرضها عليهما نيابة عن قيادة الحزب الشيوعي العراقي مقابل إطلاق سراحهما وبقيّة الأسرى . اعتبرت قيادة الحزب الشيوعي هذا الاتفاق مخرلاً وغير مقبول لا بسبب شروطه فحسب ، بل بسبب عقده من قبل قياديين كانا في الأسر ولا يحق لهما التعبير عن إرادة الحزب وموقفه إزاء الأحداث أو إزاء عقد أي اتفاق مع الطرف الثاني . وكان موقف قيادة الحزب صحيحاً . وكان على العضوين في قيادة الحزب أن يدفعوا بالمفاوضات صوب قيادة الحزب وأن لا يتحملا مسؤولية عقد اتفاقية مع الطرف المنتصر وهما في الأسر ، في حين كان في مقدور قيادة الحزب أن تتولى ذلك . ورغم تباين الأوضاع والظروف في عامي 1947 و1948 من جهة ، والأوضاع والظروف في عام 1983 من جهة أخرى ، فإن التعامل كان واحداً ، فمن هو بالسجن لا يجوز له التحدث باسم الحزب أو التفاوض باسمه أولاً ، كما لا يجوز قيادة الحزب من السجن ثانياً.



خاص أنها غير قادرة على فرض اتفاقية يرفضها الشعب ، ولكن غاب في الوقت نفسه عن قوى المعارضة السياسية أن ميزان القوى لا يسمح لها بإلغاء المعاهدة ، رغم إلغاء المعاهدة الجديدة التي كان يراد عقدها لتحل محل المعاهدة القديمة ، إذ لم يكن ميزان القوى في الداخل حتى ذلك الحين يسمح بتغيير وزاري لصالح القوى الديمقراطية ، ولكنه لم يكن يسمح أيضاً بأن تتصرف الحكومة على هوى البريطانيين وهواها بالذات . وهذا الواقع غير المدرك من جانب الطرفين قاد إلى معركة دموية سقط فيها العشرات من الضحايا . وكانت الحكومة مسؤولة عن ذلك . كان على الشعب وقوى المعارضة خوض النضال ضد المعاهدة الجديدة التي يراد بها تمديد فترة العمل بما هو مجحف بحق الشعب العراقي ، وكان ، كما يبدو ، على من يتولى الحكم في العراق أن ينفذ إرادة الحكومة البريطانية . وفي هذا الصدد لا بد من الإشارة الواضحة ، وبالرغم من مسؤولية الحكومة العراقية ، إلى أن الحكومة البريطانية تتحمل المسؤولية الأساسية والمباشرة بسبب إصرارها على عقد المعاهدة الجديدة ، رغم إدراكها بأن هذا سيؤدي إلى سقوط ضحايا بشرية وخسائر مادية . إن الإشارة إلى هذه الحقيقة تعني: أن الشعب العراقي يفترض أن يطالب الحكومة العراقية ، التي ستصل إلى السلطة وتقيم حياة ديمقراطية ودستورية تستجيب لإرادة الشعب وتعمل في إطار الحرية والديمقراطية ، وتستند بحزم وثبات إلى مبادئ لوائح حقوق الإنسان الدولية والإقليمية ، بمطالبة بريطانيا بما يلي:

\*\* الاعتذار للشعب العراقي عما لحق به من أذى وضحايا وخسائر بشرية ومادية ومالية من جراء السياسات التي مارسها في العراق أثناء فترة الانتداب وما بعدها حتى خروجها من العراق في عام 1958؛

\*\* أن تدفع للعراق ولعائلات الشهداء تعويضات مالية مناسبة عن كل الذي تسببت به من خسائر بشرية ومادية ومالية في العراق .

## الفصل الثاني عشر : شخصية فهد

"إن الفلاسفة لم يفعلوا غير أن فسروا العالم بأشكال مختلفة ، ولكن المهمة تتقوم في تغييره" . "إن معرفة ما إذا كان التفكير الإنساني له حقيقة واقعية ليست مطلقاً قضية نظرية ، إنما هي قضية عملية ، ففي النشاط العملي ينبغي على الإنسان أن يثبت الحقيقة ، أي واقعية وقوة تفكيره ووجود هذا التفكير في عالمنا هذا . والنقاش حول واقعية أو عدم واقعية التفكير المنعزل عن النشاط العملي إنما هو قضية كلامية بحتة" .

كارل ماركس

موضوعات حول فويرباخ

لم يُكتب حتى الآن سوى القليل جداً عن شخصية فهد وعن حياته العامة والخاصة وعلاقاته وصفاته الشخصية وسماته الأساسية<sup>606</sup> . وخير ما كتب عنه وعن دوره وشخصيته ، وضمن بحث واسع ومتميز عن الحزب الشيوعي العراقي ، نجده في كتاب الأستاذ الراحل الدكتور حنا بطاطو في كتابه القيم "الطبقات الاجتماعية القديمة والحركات الثورية في العراق" 607 ، الذي صدر لأول مرة باللغة الإنكليزية في عام 1978 ، ثم ترجم وصدر إلى العربية في عام 1990 أيضاً . ويتوزع ما كتب عن فهد في العراق وخارجه ، وما يمكن الاستفادة منه في البحث والتحليل ، على اتجاهات أربعة ، وهي:

• انطباعات عامة أوردتها أو كتبها بعض رفاق أو أصدقاء فهد الذين عاشوا وناضلوا معه في فترات متباينة ، سواء كان ذلك في مدن البصرة والناصرية وبغداد ، أم في سنوات السجن في الكوت بشكل خاص ، وهي غالباً ما انطلقت من أرضية الاحترام والتبجيل أو حتى التقديس لشخص فهد وإبراز جوانبه الإيجابية ، وقليلة جداً تلك الملاحظات النقدية لجوانب سلبية أو أخطاء في حياة ونشاط وعلاقات ، أو سياسات ومواقف وسلوك فهد . وكانت أبرز الانتقادات التي وجهت له تلك الإشارات التي سجلها زكي خيربي على عجل في كتابه "صدى السنين في ذاكرة شيوعي عراقي مخضرم" . ولا توجد مواد مهمة كتبت عن فهد في فترة

---

606 عندما كان فهد في موسكو للدراسة الحزبية تعرف على شريكة حياته في منزلها الثقافات ، إذ كانت مع زميلة لها فيه ، كما كان فهد مع مجموعة من أصحابه الطلبة هناك . وفي تلك الأمسية تساقط مطر شديد توزع الأصحاب وذهب فهد مع العاملة الروسية إلى بيتها القريب من المنزل وقضى تلك الليلة في بيت العائلة . ثم تواصلت علاقتهما إلى حين مغادرته موسكو . أنجبت السيدة منه طفلة . استطاع فهد أن يزورها ثانية في سفرته اللاحقة إلى موسكو في عام 1942 . أصبحت السيدة ، التي كانت شريكة حياته لفترة قصيرة جداً ، فيما بعد عضواً في مجلس السوفييت الأعلى وتوفيت بحدود منتصف السبعينات ، وتخرجت ابنة فهد مهندسة . وتعرف بعض الشيوعيين العراقيين على زوجة وبنت فهد في أعقاب ثورة تموز عام 1958 . وقد أشارت إلى أنها لم تلتق بفهد فيما بعد حتى علمت بإعدامه في بغداد ، وكان يحمل اسماً آخر عرف به هناك . (من مقابلة مع عادل مصري في 1982/7/2 . مصدر سابق .

Hanna. The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq. Batatu 607 (A Study of Iraq's Old Landed and Commercial Classes and of its Communists, Ba`thista, and Free Officers. Princeton University Press. Princeton, New Jersey. 1982. ترجم كتاب حنا بطاطو إلى العربية السيد عفيف الرزاز بثلاثة أجزاء تحت عنوان "العراق" . مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت. 1990.

دراسته في موسكو ، إذ أن فهد نفسه لم يتحدث عنها ، كما لم يتحدث عنها سوى محمود الأطرش ، والتي لم نستطع الحصول عليها حتى الآن 608؛

• انطباعات كتبها عنه بعض السياسيين من غير الشيوعيين الذين عرفوه عن بعد أو الذين حكموا عليه من خلال كتاباته ونشاطه السياسي دون أن يلتقوا به أو يتعرفوا عليه عن قرب ، وغالباً ما كَوّن هؤلاء انطباعاتهم عنه على أساس سياسة الحزب أو من خلال تصرفات ومواقف كوادِر وأعضاء الحزب التي كانت تحسب عليه ، إذ كانت لدى هؤلاء قناعة كبيرة بأنها لم تكن سوى تصرفات ناجمة عن "توجيهات صادرة عن فهد مباشرة" . وإذا كان البعض من تلك الملاحظات قد تميز بالقسوة والخشونة ، فإن بعضها الآخر كان ودوداً وعماماً؛

• انطباعات أولئك الذين ناصبوه العداة بسبب وجودهم في مواقع فكرية وسياسية أخرى ، أو بسبب تخليهم عن مواقفهم الفكرية والسياسية السابقة في الحزب الشيوعي وتحولهم إلى مواقع أخرى مناهضة له ، أرادوا بها ومن خلالها الإساءة إلى فهد ودوره ونشاطه ، وهي في الغالب الأعم بعيدة عن الموضوعية أو الحيادية والإنصاف . وهؤلاء الذين كتبوا عنه من هذه الزاوية كانوا في الغالب الأعم مدفوعين من جانب التحقيقات الجنائية أو الأمن العامة العراقية من أمثال مالك سيف . وكان الهدف ، الذي عجزوا عن تحقيقه ، هو تشويه سمعة هذا المناضل والشخصية الوطنية والشيوعية العراقية . لهذا تعتبر في الواقع خارج السياق الموضوعي أصلاً .

• كتابات فهد التي نشرت في صحافة وأدبيات الحزب الشيوعي ، وكذلك تلك التي نشرها في عدد من الصحف والمجلات العراقية التي كانت تصدر في بغداد ، وهي ذات موضوعات كثيرة ومتنوعة . ولكن لم تجمع حتى الآن مختلف كتاباته في الصحافة والمجلات الأخرى التي يمكنها أن تقدم صورة حول تطور فهد الفكري والسياسي منذ النصف الثاني من العقد الثالث . وأغلب الكتابات المتوفرة كتبت في الفترة الواقعة بين 1941-1945/1946 . تقريباً

• إن ما كتبه فهد ، وكذلك بعض ما نقل عنه من أحاديث وملاحظات ، إضافة لما ورد في أعلاه من تقييمات وانطباعات عن فهد موزعة في صحف ومجلات وكتب عديدة ، ثم الدراسة الموسعة التي أنجزها ونشرها الأستاذ حنا بطاطو حول العراق والحزب الشيوعي وفهد ، يمكنها أن تكشف نسبياً عن بعض طباع واتجاهات تفكير وأساليب عمل وممارسات وعلاقات فهد الفعلية . وهي تحتاج إلى جهد إضافي للحصول على معلومات أخرى ثم تحليلها لمعرفة جوانب أخرى من حياة فهد ، التي لعبت دوراً في نشاطه ودوره ومجمل حياته حينذاك . فما يزال فهد حتى الوقت الحاضر يلعب دوراً ملموساً ، رغم مرور أكثر من نصف قرن على استشهاده ، في حياة ونضال الحزب الشيوعي العراقي والشيوعيين العراقيين ومختلف الاتجاهات الماركسية .

608 سَجَل للرفيق محمود الأطرش أشرطة خاصة تحدث فيها عن ذكرياته ونضاله في الحزب الشيوعي الفلسطيني والحركة الشيوعية العالمية وعلاقاته بالشيوعيين العرب في فترة وجود ونشاط الكومنترن ، حيث تعرف على فهد قبل ذلك ودرسا سوياً في موسكو . وكان فهد المبادر إلى تقديم المعلومات الضرورية عن حركة بكر صدقي العسكري عام 1936 ، حيث نشر محمود الأطرش في صحافة الأُممية الثالثة (الكومنترن) مقالاً عنها ذكرناه في مكان آخر ، تحت اسم مستعار هو "سليم عبود" . وقام الحزب الشيوعي العراقي بتسجيل هذه الأشرطة بمبادرة من الحزب . في عام 1981 قدم حزب الطليعة الاشتراكية في الجزائر صورة كبيرة للرفيق محمود الأطرش ، الذي ارتبطت به بعلاقة صداقة حميمة ، هدية لي بمناسبة مغادرتي الجزائر . وهي ما تزال في حوزتي . (ك. حبيب).

وما هو متوفر عن فهد حتى الآن لا يساعد على التوسع في الكتابة المعمقة والمسؤولة عن حياة فهد الشخصية والعامة ، إذ كان ، كما يشير إلى ذلك حنا بطاطو بصواب ، يبتعد عن الحديث عن نفسه وحياته الخاصة أو نشاطاته وعلاقاته المختلفة . إلا أن مثل هذه الدراسة عن حياة فهد ونشاطه تبقى ضرورية ومفيدة عندما تؤخذ على أساس علاقتها بالنضال الوطني والتقدمي للشعب العراقي ، أي باعتبارها جزءاً مهماً من مرحلة مهمة من مراحل نضال الشعب العراقي ، يمكنها أن تسهم في إغناء تجاربنا النضالية للفترات والمراحل الراهنة والقادمة ، إذ أن مشوار النضال القادم ليس قصيراً ودروبه ليست معبدة ونتائجه متعرجة صعوداً وهبوطاً ، ولكن لا مفر منها ، وهي جزء عضوي وأساسي من وجود وحركة الحياة والإنسان في العراق .

يفترض أن ترتبط الكتابة عن حياة ونشاط ودور فهد في الحياة الفكرية والسياسية العراقية بظروفها الموضوعية الملموسة ، وبالعوامل الداخلية والعربية والإقليمية والدولية التي سادت تلك الفترة وأثرت في أوضاع وأحداث العراق ، كما لا بد من أخذ شخصية وأفكار وأساليب عمل فهد بارتباطها المباشر وغير المباشر بالاتجاهات الأساسية في الفكر الشيوعي والحركة الشيوعية العالمية أو الأممية الثالثة وبأساليب عملها وأدوات فعلها حينذاك ، والتي اتسمت بخصائص معينة ، وهي التي أشرنا إليها في أكثر من موقع من هذا الكتاب . أي أن على الباحث ، كما نرى ، أن يدرس حياة فهد ونشاطه ودوره وتأثيره ومجمل أفكاره وممارساته وأساليب عمله وتصرفاته في إطار وواقع الحركة الوطنية العراقية في ظروفها التاريخية الملموسة ومستوى تطورها والبنية الاجتماعية والوعي الاجتماعي والسياسي للفئات الاجتماعية المختلفة وطلانها السياسية ، وبمدى ارتباطها بالاتجاهات الإيديولوجية والسياسية التي سادت تلك المرحلة .

عاش فهد في فترة مليئة بالأحداث والتناقضات والصراعات والنزاعات الدولية والإقليمية والعربية والمحلية المسلحة ، سواء تلك التي وقعت على أرض العراق أم التي جرت حوله أم على الصعيد العالمي ، ولكنها أثرت بهذا القدر أو ذاك على العراق وتفاعلت مع أحداثه واتجاهات تطوره . ففي حياة فهد القصيرة ، التي دامت أقل من نصف قرن ، أجمت الإمبريالية العالمية حربين عالميتين استهدفتا تقسيم مناطق النفوذ الاستعماري ، وشهد نزول القوات البريطانية الغازية في البصرة واحتلال العراق ومقاومة المجاهدين لها ، ثم فرض الهيمنة الاستعمارية والانتداب على شعبه ، وسمع وتفاعل مع انتفاضة السليمانية وعرف ثورة العشرين وعاش بعض أحداثها ، كما عاش ولادة الدولة العراقية الملكية الدستورية ووقوع انقلابين عسكريين في عامي 1936 و1941 ، وقاتل فصائل من الجيش العراقي ضد القوات البريطانية في عام 1941 ، وكان شاهداً على عقد معاهدات غير متكافئة ومخلة باستقلال وسيادة العراق . وعرف الاعتقال والسجن والمحاكمات غير العادلة ، ومارس النشاط الاجتماعي والسياسي من مواقع مختلفة وفي ظروف متباينة . وشارك في بعض اجتماعات الأممية الشيوعية ، وكان له الدور الأكبر في تأسيس الحزب الشيوعي العراقي وبلشفتته وتكريس وجوده في الساحة السياسية العراقية والمجتمع العراقي ، وجعله ظاهرة طبيعية وجزءاً مهماً من الحياة السياسية العراقية .

كان فهد ، الذي عاش كل ذلك وغيره ، يحس في داخله إحساساً عميقاً وطاغياً ، وهو ابن عائلة عراقية عمالية كادحة وفقيرة ، ويعلن باعتزاز كبير ، كلما أتت له الفرصة ، عن كونه أحد عمال العراق وابن الطبقة العاملة والمعبر عن واقعها وأحزانها وآمالها وأحلامها . وكان فهد

يعيش هذا الواقع بكل كيانه ، سواء كان ذلك في البصرة ، أم في الناصرية ، أم في بغداد ، أم في المدرسة الحزبية في موسكو ، أم في علاقاته الاجتماعية اليومية التي كان يعيشها ويعمل فيها ، أم عندما كان في السجن ويمارس نشاطه السياسي من وراء أسواره ، أم عندما وضع الجلادون الحبل حول عنقه . وكان فهد في ملبسه ومأكله وأسلوب حياته ومعيشته وطبيعة علاقاته الشعبية ما يدل على ذلك أيضاً . وبالتالي ، أصبح فهد يرى ، رؤية الواثق من نفسه والمعتد بطبقته وشعبه ، بأن من حقه أن يكون ابن الطبقة العاملة وممثلها الشرعي وقائد نضالها ونضال الحزب الشيوعي العراقي ، باعتباره طليعة الطبقة العاملة وممثلها الشرعي والوحيد ، لتأدية الرسالة التاريخية للطبقة العاملة العراقية الكادحة والمستغلة والمنتجة للثروات المادية ، وكذلك قائد الشعب العراقي والساعي ، مع حزبه ، إلى تغيير هذا الواقع ، رغم قناعته بأن الشيوعية ليست هدفاً مباشراً ولا هي قريبة المنال . وكان لهذا الإحساس والإيمان المبكرين والمتنامين عند فهد ، اللذين سيطرا عليه واستوليا على مشاعره ، الدور الأساسي في رسم مجرى حياته وشغله الشاغل ومحور أو مدار دأبه ونشاطه وتضحياته .

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن المركز الحزبي الذي احتله فهد ، باعتباره سكرتيراً عاماً للحزب ، لم يكن المحرك له بالأساس ، رغم أهميته لتأدية المهمة التي اضطلع بها ، باعتبار هذا المركز وسيلة وأداة مهمة وضرورية ولكنه ليس هدفاً بحد ذاته ، بل كانت الرسالة التاريخية التي آمن بها والمهمة التي قرر النهوض بها هما الدافع لتسلم المسؤولية في الحزب ، إذ بدون ذلك لا يمكن السير صوب تحقيق الرسالة التاريخية أو بتعبير أدق وضع الأساس وشق الطريق نحو المهمات التاريخية . ومع ذلك كان فهد يرى في نفسه قائداً سياسياً وطنياً يحمل للعراق وشعبه الإخلاص التام والرغبة العارمة في تغيير الأوضاع التي يعيش فيها من جهة ، وإنساناً أممياً مخلصاً ومؤمناً بالقضية التي يناضل في سبيلها ويقود حزباً سياسياً قبل لتوه في الأممية الشيوعية الثالثة والتزم بتنفيذ جملة من المهمات الجوهرية التي كلفه بها مكتب الأممية الثالثة قبل حل الكومنترن من جهة ثانية . وكانت هاتان المسألتان تحكمان في الغالب الأعم سلوك وممارسات غالبية القادة السياسيين والثوريين في العالم . وعلمتنا التجربة المنصرمة ، وهي تجربة قاسية جداً ومريرة ولكنها حقيقة واقعة ، بأن مواقف وسلوك هؤلاء القادة الثوريين يمكن أن تتغير بعد الوصول إلى السلطة وتسلم زمام الأمور ، وبعد البقاء فترة غير قصيرة في الحكم . فتجارب العقود المنصرمة تشير بوضوح إلى أن عدداً مهماً من الثوريين الذين تصدوا دفاعاً عن مصالح الشعب وحقوقه الأساسية وناضلوا ضد الاستعمار والرجعية وفي سبيل الديمقراطية والتقدم الاجتماعي قد تحولوا بعد فترة من وجودهم على رأس السلطة أو في جهاز الحكم عموماً إلى مستبدين وقساة ، إلى أدوات بيد الحكام المستبدين تحت واجهة خادعة وغير حقيقية هي خدمة مصالح الشعب . فكراسي الحكم والبقاء في السلطة سنوات طويلة أو حتى البقاء على رأس وفي قيادة أحزاب سياسية قادرة على تغيير الإنسان باتجاهات مناهضة للوجهة التي عمل من أجلها ابتداءً ووصل من خلالها إلى دست الحكم . فتجارب البلدان الاشتراكية و تجارب عدد كبير من بلدان العالم الثالث في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، إضافة إلى عدد آخر من البلدان الرأسمالية المتقدمة ، تقدم الدليل على صحة ما نشير إليه 609

609 بعد أن استمر هيلموت كول ، المستشار الألماني السابق ، على رأس الحزب الديمقراطي المسيحي أكثر من عقدين من السنين ، وبعد تواصل حكمه والحزب الذي يترأسه أكثر من 16 سنة ، ثم خسر الانتخابات في عام 1998 أمام الحزب الاشتراكي الديمقراطي برئاسة كيرهارد شرودر ، كشف النقاب عن فضائح مالية وعمليات ارتشاء داخلية ودولية اهتزت لها ألمانيا كلها وأوروبا ، إذ وجهت الاتهامات فيها إلى المستشار الألماني ذاته وعشرات آخرين من قيادة حزبه وكبار الموظفين في الدولة . والتحقيقات ما تزال جارية حتى الآن ، رغم الجهود المبذولة للالتفاف على الفضائح وتسريتها في مسالك أخرى تمتصها تدريجاً وتخفف من حجمها الكبير الذي اهتزت له ألمانيا وأوروبا ، كما حصل مع فضائح العلاقات المشتركة بين أقطاب في الحزب الديمقراطي المسيحي في

. وإذ لا يحق لنا قول ذلك عن فهد ، إذ أن الرجل قد استشهد مبكراً جداً ، ولم ينعم بحياة هادئة ومريحة أو مرفهة ، بل كانت حياته كلها حياة نضال وجهد كبير ومشاق مستمرة حتى آخر لحظة من عمره ، ولكن علينا أخذ التجارب الطويلة والغنية لكل الشعوب بنظر الاعتبار والاستفادة منها لمستقبل الأيام .

وفي ضوء فهم فهد الخاص لموقعه وإيمانه بالدور الذي يفترض فيه أن يؤديه ، واستناداً إلى الفكر الذي كان يحمله والتجارب التي سمع عنها والنماذج القدوة التي تعرف عليها أو قرأ عنها أو سمع بها ، تشكل وعيه الوطني والطبقي ونما إحساسه بالغبن والاستغلال الذي تعيشه الطبقة العاملة وتعاني منه مع سائر الكادحين ، والسبل التي يفترض انتهاجها لتحقيق الغايات المنشودة . ومنه تبلور حسه ونقده وكرهه الوطني للمستعمرين وحقده الطبقي على مستغلي الطبقة العاملة وبقية الكادحين ، وعلى مضطهدي الشعب وناهبي ثروات وخيرات البلاد . وشكل هذا التكوين الفكري والسياسي السمات التي تميز بها أغلب قادة وكوادر الحزب الشيوعي العراقي وبقية الأحزاب الشيوعية والعمالية وكثرة من أعضاء هذه الأحزاب أيضاً . وهو ما كان يتجلى في الممارسة العملية وبشكل خاص في الخطاب السياسي للأحزاب الشيوعية والعمالية في الألفية الثالثة .

كان فهد قد تعرف على وآمن بالفكر الماركسي-اللينيني وتبنى المبادئ والمثل والقيم الإنسانية التي دعا إليها وطرحها على الفرد والمجتمع في أوروبا وتسربت تدريجاً إلى مختلف بقاع العالم ، ومنها العراق ، منذ أوائل القرن العشرين ، وخاصة في أعقاب الحرب العالمية الأولى وفي أعقاب انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية في روسيا القيصرية . وجاء هذا الإيمان والتبني من منطلق الوعي المبكر بالواقع المزري الذي كان يعيش فيه الشعب العراقي ، وخاصة الكادحين منه ، وهم يشكلون الغالبية العظمى في المجتمع . إذ كان الفكر الماركسي لا يطرح على الإنسان صورة الواقع وأسبابه فحسب ، بل وسبل تغييره باتجاه الاشتراكية والشيوعية بما يماثل أو يقترب من حيث المبدأ مما تطرحه الأديان من نعيم وخلود في الفردوس . وإذا كانت الأديان تعد الناس بالجنة في حياة أخرى بعد الموت ، فإن الفكر الشيوعي يطرح على الإنسان إمكانية العيش في مثل هذا النعيم في الجنة ، "من كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته" ، في مجرى الحياة القائمة وليس بعد الموت . وتختلط عند الإنسان بين الفكرة الأولى المرتبطة بالتحليل العلمي لتطور المجتمع ، وبين العقل الديني الإيماني الذي يعد بالجنة في الآخرة .

وعندما غادر فهد العراق للدراسة في جامعة كادحي الشرق ، تعرف عن قرب على الماركسية-اللينينية ، وعلى اللينينية-الستالينية ، ثم على الستالينية البحتة التي شكلت صرعة العصر حينذاك ، إذ اقترنت أسماء الأربعة ببعضها البعض: ماركس-إنجلز-لينين-ستالين ، ودوى الأخير أكثر من غيره في الحياة العملية اليومية وفي جامعة كادحي الشرق حينذاك . كانت فترة دراسة فهد قصيرة لم تتجاوز سنوات ثلاث ، وكانت غير كافية للتعلم في دراسة مؤلفات ماركس وإنجلز ، التي تشكل الأساس الكلاسيكي للنظرية والتي يتجلى فيها المنهج المادي الديالكتيكي والمادي التاريخ على أفضل صورة ممكنة ، والتي تعكسها أيضاً دراسات لينين الأساسية . تبنى فهد هذه النظرية باعتبارها نظرية هادية له في نضاله الوطني والطبقي والأممي ، والتزم أهداف ومهام الألفية الثالثة . وسعى إلى فهمها والاقتران بها وممارستها .

إيطاليا والحكم الإيطالي والمافيا الإيطالية الدولية في عقد الثمانينات والتسعينات من القرن العشرين. وهناك عشرات ، بل مئات الأمثلة على ذلك يمكن إيرادها من الدول الأفريقية الحديثة التكوين أو في آسيا ومنها الدول العربية والدول الإسلامية ، إضافة إلى الدول المتقدمة ، بغض النظر عن طبيعة النظام القائم في جميع تلك البلدان.

وفي الوقت الذي تكونت عند فهد قناعات بالنظرية الماركسية-اللينينية وبصواب نهجها وأهدافها ، باعتبارها تتبنى وتستخدم منهجاً علمياً للتحليل والتغيير وخدمة الكادحين في الأرض ، كتب يقول: "إن الماركسية ليست وصفة جاهزة تعطى لكل الحالات" وأن "الماركسية اللينينية ليست "باليادة تغنى على الرباب أو "قفا نيك" تعلق على الجدار ، إنها نظرية الثورة البروليتارية وضعت كدليل للعمل ، أي أنها وضعت للحياة ، فأنا لا نحترمها بترديدنا إياها دون فرضها على الحياة" .610 أي أن فهداً كان يرى ، إذا كانت مهمة الفلاسفة تحليل وتفسير العالم ، فإن مهمة الثوري المحترف ، مهمة الإنسان المناضل هي تغيير هذا العالم . ولكن ، فهد المقتنع بالنظرية ، كان في الوقت نفسه مؤمناً بها وبالمثل والقيم التي تطرحها وتروج لها وتسعى إلى تحقيقها . وإذا تعتبر المعرفة والقناعة بها هما نتاج العلم والتجربة وتمنح الإنسان رؤية عقلانية وموضوعية واستعداداً للحوار والإصغاء للرأي الآخر والاعتراف به ، فإن الإيمان هو نتاج الدين أو العقيدة الدينية ، وهي بدورها نتاج العقلية الدينية الإيمانية والغيبية . والإيمان يعتبر الأقدم في الممارسات البشرية بالمقارنة مع العلم والمعرفة ودورهما وممارساتهما . ويبدو مفيداً هنا أن نتطرق ولو بكثافة إلى مسألة الإيمان الديني في المجتمعات المختلفة ، رغم أن الدين يكون أكثر تأثيراً وتحكماً مما هو عليه في المجتمعات الأكثر تقدماً ورقياً حضارياً .

تؤكد الدراسات والوقائع الحياتية بأن العلم كان وما يزال يشكل قاعدة أساسية للمعرفة اليقينية ، في حين كان الدين وما يزال يشكل أساساً للإيمان . وكان الدين وما يزال يشكل مسألة جوهرية في حياة الناس ونشاطهم وخلفية للكثير من أفعالهم أو ردود أفعالهم ، بغض النظر عن وجهة الدين وعن طبيعة تلك الأفعال والممارسات . وكان الصراع ، أو حتى الصدام ، بين العلم والدين ناتجاً عن ذلك التباين بين المعرفة والإيمان . وحيثما ترسخ العلم والتجربة العملية وفرضا سيادتهما في المجتمع ، ضعفت بذات القدر غلواء الإيمان بالعقيدة الدينية وبالغيبيات وتعززت أسس التعامل الحوارية الديمقراطية والعقلانية بين الناس وصولاً إلى ما هو أفضل ، والعكس صحيح أيضاً في العلاقات ما بين الأديان ، رغم أساسها الواحد . وإذا كان الحوار يتم عبر مواجهة موضوعية إزاء موضوعة أخرى ليصل المتحاورون إلى موضوعة أخرى أكثر نضجاً وواقعية أو قرباً من الواقع بالقياس إلى الموضوعتين السابقتين ، دون أن تكون هناك أحكام مسبقة أو إصراراً على إحداها ، فإن الدين يطرح المسألة بصورة مطلقة لا عودة عنها وعلى الإنسان أن يأخذها كما هي وليس من حقه الحوار بشأنها ، فهي منزلة من عند الله ولا مرد لحكم الله ولا نقاش حولها . ويتطلب مثل هذا الموقف حصول إيمان بذلك لا غير ولا يتطلب قناعة علمية وإثباتاً لما يطرح . إذ أن الإيمان بدين معين ، أو عقيدة دينية يبني ويشكل في عقل وممارسات الإنسان ، في إطار عقل وممارسات الجماعة التي يعيش ضمنها أو في إطارها الفرد ، مجموعة من الخصائص تحكم سلوك الفرد والجماعة . فالمعروف لنا جميعاً ، على سبيل المثال لا الحصر ، ما يلي:

(1) تتشكل عن الفرد ، وكذا عند الجماعة ، قناعة إيمانية تامة بأن الدين الذي أمن به والقيم التي اعتنقها هي الأرفع والأفضل والأكثر سموً ، وهي بالتالي جديرة في أن تسود العالم كله لأنها تعبر عن الحق المطلق من جهة ، والحقيقة المطلقة من جهة أخرى ، وفي ما عداه يعتبر كل شيء خالياً من ، أو بعيداً عن ، الحق والحقيقة . فالإيمانية تخلق ، شاء الإنسان أم أبى ، انغلاقاً فكرياً وسياسياً ، وربما اجتماعياً وبحدود معينة على الفكر الآخر والسياسة

610 فهد. كتابات فهد. حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية. مصدر سابق. ص 64 و65.

- الأخرى والجماعات الأخرى . ويقود هذا الانغلاق إلى مزيد من التوجس والريبة إزاء الآخر الذي يحمل فكراً آخر وسياسة أخرى . وفي علم النفس الاجتماعي يشار إلى ذلك بتشكيل صورة "الأنا" الجمعية عند الفرد والجماعة ، صورة الأنا ذات المعالم والسمات أو الخصائص المحددة وذات السلوكية التي تختلف بدورها عن صورة "الآخر"؛
- (2) وينشأ عن ذلك حماس شديد واندفاع نحو تحقيق ما أمن به الفرد ، وكذا الجماعة ، من دين وما التزم به من مثل وقيم . وعندها يكون شديد الاهتمام والحرص عليها وساعياً بمختلف السبل إلى تحقيقها ونشرها . ولكنه يكون في الوقت نفسه شديد الثقة بمن ينقل له تلك الأفكار أو القائد الذي يوجه الجميع الذي يفترض أن يطاع ولا يرقى إلى قيادته الشك ، كما يكون الإنسان في مثل هذه الحالة سهل الانقياد من قبل مسؤوله أو الهيئة التي يعمل فيها . وغالباً ما استخدم هذا المصطلح لمن يقبل بما يأتيه دون نقاش أو تعقيدات وينفذها بكل استعداد وطاعة ، فهو "إنسان طيب سهل الانقياد"؛
- (3) وفي مجرى عملية الاندفاع نحو تحقيق تلك القيم التي سطرها له الدين يكون المؤمن مستعداً للدفاع عن دينه والقيم التي دعا لها بكل السبل المتاحة لديه ، والتي يمكن في حالة التوتر إزاء الآخر وفي الصراع والنزاع مع الآخر أن تقوده إلى أحد أمرين إما الشهادة أو قتل الآخر ، وكلاهما قد تحقق في الماضي ويجري اليوم في مواقع كثيرة من العالم ، كما يمكن أن يتواصل في المستقبل أيضاً ، إن استمرت مستلزمات حصوله؛
- (4) إن الدفاع عن الدين الذي اعتقد به الفرد المؤمن والقيم التي جاء بها تشكل عنده مغزى وجوده وحياته والهدف الذي يسعى إليه والرسالة التي يفترض تأديتها . وبالتالي فهو يغالي في التعصب لها دون أن يشعر ولو للحظة بمغالاته . ويهاجم عندها من يتهمه بالمغالاة باعتبار الآخر هو المغالي في العداة لها . إن الإيمان بدين وقيم معينة من منطلق العقل الديني الإيماني يخلق عند الفرد المؤمن التعصب الشديد ، كما يخلق عنده التمييز إزاء الآخر المؤمن بدين آخر والملتزم بمثل وقيم أخرى ، ويكون الود مفقوداً بين "الأنا" وبين "الآخر" . والإشكالية الكبيرة تبرز هنا في كونها تشكل صورة "الأنا" الجمعية ، صورة الأنا التي تتشابه فيها الناحية الدينية بالناحية القومية وبنواحي أخرى إزاء الآخر . وتتشكل عند الآخر أيضاً صورة "الأنا" الجمعية التي تقف إزاء "الآخر" . وهنا يتبادلان المواقع: "الأنا" يصبح "الآخر" ، و "الآخر" يأخذ مكان "الأنا" .
- (5) ونتيجة لهذا التعصب والمغالاة في الإيمان الديني أو المذهبي يقود ، شاء الإنسان أم أبى ، سواء كان في السلطة أم في مواقع المسؤولية ، إلى الهيمنة والتسلط والرغبة الجامحة إلى فرض ما يؤمن به على الآخرين ، مستخدماً في ذلك شتى السبل التي تساعد في الوصول إلى تلك النتيجة . ولكن علينا أن نلاحظ بأن "الأنا" هنا لا يرغب في فرض رأيه على "الآخر" فحسب ، بل وأحياناً غير قليلة يريد التخلص من "الآخر" بأي ثمن ، بما فيه التصفية الجسدية . وهذه الظاهرة تصبح مرعبة عندما تتداخل العنصرية بالدين وتتحولان إلى أداة تدميرية مستعدة للقتل دون هوادة أو رحمة .
- والحديث هنا لا يقتصر على دين سماوي أو غير سماوي ، بل يشمل كل الأديان التي تسمى بالسماوية وغير السماوية ، سواء من ناحية النصوص أو من الناحية العملية أو الممارسة الفعلية . والشواهد التاريخية على ذلك كثيرة ، سواء كان ذلك بالنسبة لأتباع الديانة الإسلامية أم المسيحية أم اليهودية ، وإسرائيل تقدم اليوم نموذجاً صارخاً على ذلك التداخل بين الدين والصهيونية العنصرية ، أم أتباع الديانات الأخرى غير السماوية كالهندوسية والزرادشتية ،



على سبيل المثال لا الحصر . كما أن عالم اليوم يقدم أمثلة صارخة وشرسة في هذا الصدد ، وبالنسبة إلى أتباع والمؤمنين من مختلف الأديان . وتقدم حالة أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة الذي يترأسه ومن يماثله من قادة وما يماثلها من تنظيمات أشد الأمثلة بشاعة على ما نقول . وتطرح بعض الكتب المقدسة ذلك وتكرسه بالنص عليه أو بالممارسة العملية من خلال القيمين على هذا الدين أو ذاك . ويفترض هنا الانتباه إلى التشابك أو التفاعل الذي ينشأ في المجتمعات المختلفة بين تبني دين معين أو تبني نظرية معينة تقوم أو تستند إلى منطلقات دينية مقاربة ، بسبب التقاليد والعادات والطقوس والتربية التي نشأ عليها الأفراد في المجتمع .

إن حياة المجتمع البشري على امتداد تاريخه القديم والحديث تشير إلى أن الإيمان أسهل قبوله وهضمه بالنسبة للإنسان من قبول وهضم المقولات والنظريات والتجارب العلمية ، فالأولى لا تحتاج إلى تفكير كثير وإجهاد الدماغ بقدر ما تحتاج إلى عقل مستعد لقبول تلك الغيبيات والإيمان بها ، إذ أنه قد تدرب على ذلك عبر آلاف السنين ، وبالتالي أصبحت جزءاً من عاداته وتقاليد وموروثه الاجتماعي وطقوسه التي تربى عليها واعتمدها يوماً في حياته مع عائلته وأبناء وبنات مجتمعه . في حين تتطلب المعرفة العلمية إلى تشغيل وإجهاد الدماغ والمشاركة في الشك والتحري وتكوين القناعة العلمية بما هو مطروح وفق نظرة نقدية للمقولات المطروحة . فهي تحتاج إلى منهج علمي لدراستها واستخلاصها والتيقن منها عبر التجربة والتجسيد المتواصل لها . وكان محقاً عندما كتب حسن إبراهيم أحمد في كتابه الموسوم "العقل الإيماني": "إن العقل الإيماني ، هو العقل السائد في كل مناخات حياتنا ومناحيها ، ما كان قريباً منها إلى الدين وما كان بعيداً عنه!"<sup>611</sup> ، كما "إن تجليات العقل الإيماني مزيج من الدين والعادات والموروث والمصالح ، كما تأخذ هباته الجمعية الجماهيرية منحى عاطفياً"<sup>612</sup> . إن هذه الواجهة في التعامل مع الدين ، هذه العقلية الدينية الإيمانية يمكن أن تخلق إنساناً يتسم لا بالتعصب فحسب ، بل بالسلفية والأصولية والحنين إلى الماضي ، عندما يعيش أوضاعاً صعبة ومعقدة ، ويغوص في أجواء الماضي بسبب خراب حاضره ويتصور ، أو يريد أن يتصور بأنه يعيش الماضي في الحاضر . وهي إشكالية أخرى يعيشها الإنسان حالياً في أوساط دينية وغير دينية لأنها نتاج المجتمع الذي ما تزال تسوده العقلية الدينية الإيمانية والغيبية الصارمة .

وعندما نتحدث عن الدين والعقل الديني الإيماني لا يعني أن أتباع النظريات الأخرى الذين آمنوا بنظرياتهم ، بغض النظر عن مدى علميتها أو ابتذالها للعلم ، لا يواجهون نفس الحالة . فالخلفية الدينية ، أو العقلية الدينية الإيمانية السائدة عند أفراد المجتمع تجد تعبيرها في موقفهم من النظريات المختلفة أيضاً ، ويمكن أن تصيبهم ذات العاهات التي يصاب بها المؤمنون بدين معين . فالإيمان الديني أو الإيمان بنظرية ما يسمح ب بروز بعض الإشكاليات في اتجاهات عملية التربية والتكوين الفكري والسياسي والممارسة العملية . فالاتجاه التربوي الديني والطائفي واحد عموماً ويصعب التمييز في الأساسيات في ما بينها . ويشمل هذا الاستنتاج ذلك الإيمان الذي تفسى بين جمهرة واسعة من أتباع المدرسة الماركسية-اللينينية ، أو اللينينية-الستالينية ، أو المدرسة الستالينية التي تبرقت باللباس اللينيني دون جوهره ، أي في صفوف الشيوعيين على مدى عقود طويلة ، علماً بأن هذا الأمر يحتاج إلى تحليل وتفسير ، إضافة إلى تفريق بين أتباع هذه المدارس . كتب حسن إبراهيم أحمد حول انتشار الإيمان الديني

611 أحمد ، حسن إبراهيم. العقل الإيماني. دار المدى للثقافة والنشر. ط 1. دمشق. 2000. ص 11.

612 نفس المصدر السابق. ص 64.

لدى العلمانيين وغيرهم بسبب تقاليد وتراث وعادات المجتمعات التي نعيش فيها يقول: "إن سيطرته (ويقصد هنا العقل الإيماني ، المؤلفان) لا تكمن في تعميم وجهات النظر الطائفية والمذهبية والمثلية الملونة بألوان أصحابها فقط ، ومحاولة الضغط على الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية للإنسان مع وجهات النظر التي تتبناها الطوائف والاتجاهات الإيمانية ، واللجوء إلى التخويف والاتهام ، بل تكمن أيضاً في الآليات الذهنية التي أصبحت العقول الفردية تعمل بها حتى في الأمور البعيدة عن الأديان وما تفرع عنها من مذاهب واتجاهات ، لقد أصبحت هذه العقول مبرمجة ، برمجة إيمانية ، إن عدم قبول الآخر ، وعدم التنازل عن الرأي ، والتشبث بوجهة النظر ، وأنا الصح وغيري الخطأ ، دخل إلى كل مجالات حياتنا ، في بيوتنا وشوارعنا ودوائرننا ، في أحزابنا ونقاباتنا ، في جلسات السمر والتسلية ، في كل مناحي الحياة ، نعلن قداسة الرأي المؤدلج أو الفردي وعدم احتمالته للخطأ . ونتشبث به ، إننا نستجر كل ذلك من عمق تمارسنا بالعقل الإيماني وأساليبه التي عمل على توليدها خلال قرون عديدة ، ولا تتوافر الإرادة للخروج من مفاعيل العقل" 613 .

تنشأ عن الإيمان ، سواء كان بدين أو عقيدة معينة أو نظرية ، مجموعة غير قليلة من الممارسات المتناقضة التي تبدو منسجمة في ما بينها في الواجهة العامة ، والتي تشكل معاً وحدة عضوية واحدة ، بسبب أساسها المادي ومنطلقها الفكري . فالإيمان بدين معين ، أو بنظرية معينة ، يجعل من الصعب على الإنسان أن يفكر بغير ذلك الدين أو بغير تلك النظرية أو يبدي استعداداً كافياً للإصغاء إلى رأي آخر أو يحاور على أسس الاعتراف بالآخر أو المرونة والتسامح مع ما يحمله من رأي مختلف أو مخالف . وتجارب قرون طويلة تؤكد بأن الإنسان المؤمن ، في الوقت الذي يكون مستعداً للتضحية بحياته في سبيل ما يؤمن به من جهة ، يكون في الوقت نفسه شديد التعصب للدين الذي يؤمن به أو النظرية التي يؤمن بها من جهة أخرى ، ويحس بأنه يمتلك الدين أو النظرية الأصوب ، وبالتالي فهو يمتلك الحقيقة كلها ، أما الأديان والنظريات الأخرى فهي إما أن تكون باطلة أو خاطئة أو قديمة أو أنها لا تصمد أمام ما يؤمن به من دين أو نظرية . ومثل هذا الإيمان يمنح الإنسان المؤمن بالدين أو النظرية أو أي شيء آخر قوة إضافية كبيرة تساعده على المواجهة والمجابهة والصمود وتجاوز الصعاب ، وكذلك الإشعاع الديني أو الفكري على الآخرين المحيطين به والملتفتين حوله ، كما تتجلى فيه قوة الشخصية والثقة بالنفس والاعتداد بالرأي والتأثير على الأتباع والمريدين ودفعهم لكسب المزيد منهم . إن إيمان الإنسان وأسلوب عمله ونذر نفسه للقضية التي التزمها وطريقة دفاعه عما يؤمن به يجعل منه قدوة للآخرين أو نموذجاً يحتذى به في مجتمع يشكل الإيمان جوهر حياته وقاعدة رؤيته للأمور ، خاصة وأن التخلف الفكري وضعف الوعي العام لا يسمح لجمهرة واسعة من أبناء وبنات المجتمع على التفكير المستقل أو امتلاك قدرة الحوار السلمي الديمقراطي المتحرر من كل انغلاق وتعصب . وهذه المسألة عامة لا ترتبط بهذا الشخص أو ذلك ، بل بكل أولئك المصلحين والقادة السياسيين الذين يقودون حركات إصلاحية دينية أو علمانية أو حركات ثورية ، الذين يمتلكون قوة التأثير بالآخرين من خلال إيمانهم الشديد بما ي طرحونه على الآخرين ويسعون إلى كسبهم إلى جانب ما يؤمنون به والوقوف إلى جانبهم .

ولا تخلو التجارب المنصرمة من تشابك بين المعرفة والإيمان ، إذ أن المعطيات التي تحت تصرفنا تشير بشكل واضح إلى أنه وعند حصول تشابك متين بين المعرفة والإيمان ، يتشكل منهما مزيج ثوري خاص وسلوك محدد ، لا يمكن أن نجده بالضرورة عند الغالبية العظمى من

القيادات والكوادر والقواعد الحزبية الشيوعية أو عند غيرها من الأحزاب السياسية ، إذ غالباً ما يكون الإيمان هو المهيمن والمتغلب ، أو يمكن القول بأن الإيمان بالماركسية-اللينينية يشكل السمة المتغلبة والمؤثرة في التكوين الفكري والممارسة العملية عند الغالبية العظمى من الأعضاء والمرشحين والمؤيدين للفكر الماركسي اللينيني على الصعيد العالمي . وفي ضوء ذلك أصبحت النظرية شكلاً من أشكال الصنمية أو التي تمتلك القدسية والديمومة . وهي مسألة لا يجوز نسيانها أو التقليل من شأنها وتأثيرها على الناس في مختلف البلدان ، سواء سادت فيها علاقات إنتاجية متقدمة أو متخلفة وبالية ، رغم كون الأخيرة تكون أكثر عرضة للإصابة بالإيمانية بالمقارنة مع المجتمعات المتقدمة . ويمكن إيراد عشرات الأمثلة على هذا الواقع في المجتمعات المختلفة على امتداد العقود المنصرمة .

إن المعرفة المنبثقة عن العلم والتجربة والممارسة العقلانية لها لا تعني بأي حال ، ويفترض أن لا تعني ، بأن على الإنسان الانفصال عن العفوية في التصرف أو عن حياته الروحية أو عاطفته الإنسانية وعن أوضاعه النفسية الملموسة . فالإنسان الذي يمارس المعرفة بجمود ولا يأخذ بنظر الاعتبار المحيط الذي يعيش فيه والظروف التي يمر بها المجتمع ومستوى تطوره يفقد الكثير من قدرته في التأثير وفي التعامل مع الناس وفي فهم مشكلاتهم وتطلعاتهم ، إذ أن الناس لا يتحركون بالضرورة بعقلانية جامدة أو لاعقلانية فجأة ، فهم يتصرفون في ضوء واقعهم الجاري ، الذي يجسد تراكمها هائلاً عبر الزمن والأحداث للتقاليد والعادات والعلاقات الاجتماعية والسياسية والأخلاقية . إنها حصيلة ضخمة يصعب تجاوزها ما لم ترتبط بمصالح الناس وما لم تجد الصيغة المناسبة التي يراود طرحها بها والتعبير عنها لزيادة تأثيرها وتأثر الناس بها .

وبالرغم من أهمية العلم والمعرفة في التحكم بسلوك الأفراد والجماعات والحكومات ، فإن مساحات واسعة تبقى مفتوحة أمام العوامل الذاتية ، أمام السياسات والإجراءات والمواقف التي يتخذها الأفراد والجماعات والحكومات . ونعني بهذا أن العلم والمعرفة لا يتحكمان وحدهما بتصرف الإنسان الفرد أو الجماعات أو الحكومات ، بل مستوى الوعي والمصالح والتقاليد والعادات والتراث المتراكم ، أي العوامل الذاتية المباشرة وغير المباشرة . ومن هنا نجد أن دولاً كثيرة تقدمت عندها العلوم وتراكت المعارف والتجارب ، ولكنها كانت وما تزال تتصرف وفق مصالحها الضيقة لتهمين على شعوب أخرى وتتسبب في كوارث ومصائب كبيرة لشعوب العالم . كما أن ردود الفعل على أخطاء معينة يمكن أن تكون بعيدة كل البعد عن مستوى تطور العلم والمعرفة في هذا البلد أو ذلك . وليست بعيدة عنا ما يجري اليوم في عدد من بلدان العالم ليؤكد أن العلم والمعرفة وحدهما ليسا كافيين لتحقيق العقلانية في التصرف أو في ممارسة السياسات واتخاذ الإجراءات . وخير دليل على ذلك ما يجري في الشرق الأوسط ، وعلى وجه التحديد السياسات التي يمارسها شارون ، رئيس وزراء إسرائيل ، في فلسطين المحتلة ، أو ما حدث في أفغانستان في أعقاب ارتكاب الجريمة البشعة في 11 أيلول/سبتمبر 2001 في نيويورك وواشنطن .

في كتاب "العراق" ، للراحل الدكتور حنا بطاطو ، وردت ملاحظة خاطفة قال فيها: كان فهد "مؤمناً بمتله التي كرس حياته من أجلها" 614... وهو يعني بذلك ، بطبيعة الحال ، إيمانه بالمثل والقيم الماركسية-اللينينية . وهي ملاحظة صحيحة ودقيقة جداً ومقصودة أيضاً . وهو لا يعني الإساءة إلى فهد في كل الأحوال ، بل أراد التعبير عن طبيعة المرحلة التي وجد فيها فهد

614 بطاطو ، حنا د. العراق. الكتاب الثاني. الحزب الشيوعي. مصدر سابق. ص 143.

وعن الأوضاع الفكرية والاجتماعية التي كانت تسود العراق حينذاك ، وبالتالي فالناس لا ينفصلون عن مجتمعاتهم وعن مستوى الوعي في هذه المجتمعات ، وعن التشابك الذي يحصل بالضرورة بين القناعة العلمية وحضور الإيمان الدينية وتأثيرها في القناعة العلمية حتى بالنسبة للنظرية الماركسية التي كانت وما تزال متأثرة كثيراً ، وبخاصة في بلدان العالم الثالث أو ما يماثلها بالليينية وبأوضاع روسيا ومن ثم الاتحاد السوفيتي الملموسة حينذاك . ولكن ، ماذا يعني الإيمان بنظرية الماركسية - الليينية ، أو في مرحلة لاحقة ، وبالليينية- الستالينية أو الستالينية ومثلها وقيمها المعروفة في الظروف الملموسة لفهد وللشيوعيين العراقيين في تلك المرحلة المتميزة من تاريخ العراق والحركة الشيوعية العراقية ، ومن ثم لعقود لاحقة 615؟

لم يكن فهد مقتنعاً بالشيوعية فحسب ، بل كان مؤمناً بها أيضاً . وارتقى المشنقة وهو واثق من صحة النظرية التي كان يحملها وناضل تحت رايتها وأمن بها ، كما كان مؤمناً بالشعب الذي ناضل في سبيل القضية التي حملها ودافع عنها . وهي إحدى أبرز السمات التي اتسم بها استشهاد الكثيرين من المصلحين والثوريين على امتداد القرون المنصرمة ، بغض النظر عن مستوياتهم الفكرية أو المواقع التي كانوا يشغلونها أو الديانة أو العقيدة أو النظرية التي كانوا يعتقدونها . وتقدم لنا حركة القرامطة نموذجاً رفيعاً في التحدي والصمود والاستشهاد في سبيل ما كانوا يناضلون من أجله . ويكفي أن نورد لوحة واحدة عن المعاناة التي تعرض لها أعضاء وقادة حركة القرامطة في العصر العباسي لندلل على أهمية ودور الإيمان في حياة الإنسان المناضل في سبيل قضية معينة ، سواء كانت ديناً أم فكرة أم نظرية . كما أنها تجسد من الطرف الآخر مدى استعداد الآخر المؤمن بقضية أخرى أن يفعله بالناس دون أن يشعر بالإثم والخطيئة أو الجريمة التي يرتكبها . يقول النص ما يلي:

"... ونودي بذلك في الناس أن يحضروا عذاب القرامطة ، ففعلوا ، وكثر الناس في هذا الموضوع وحضر القواد ، والواثقي المتقلد للشرطة (هو أحمد بن محمد الواثقي كما ذكر الطبري ، من الهامش ، المؤلفان) بمدينة السلام ، وحضر محمد بن سليمان ، ففقدوا جميعاً عليها (على الدكة المبنية التي بنيت لهذا الغرض) ، وأحضروا ثلاثمائة ونيفاً وعشرين إنساناً ممن كان أسر قديماً ومن جاء به محمد بن سليمان ، وأحضر القرمطي والمدثر فأقعدا ، وقدم نيف وثلاثون إنساناً من هؤلاء الأسارى من وجوههم ، فقطعت أيديهم وأرجلهم ، وضربت أعناقهم . ثم قدم القرمطي 616 فضرب مانتى سوط ، ورش على الضرب الزيت المغلي وكوي بالجمر ، ثم قطعت يده ، ورجلاه وضرب عنقه . فلما قتل انصرف القواد وأكثر الناس ممن حضر للنظر إلى عذاب القرمطي ، وأقام الواثقي إلى وقت العشاء الآخرة في جماعة من أصحابه ، حتى ضرب أعناق باقي الأسارى ، ثم انصرف . فلما كان يوم الأربعاء لست ببيقين من هذا الشهر ، صير ببدن القرمطي إلى باب الجسر الأعلى من الجانب الشرقي فصلب هناك ، وحفر لأجساد القتلى آبار إلى (136) جانب الدكة ، فطرحوا فيها وطمت ، فلما كان بعد ، أمر بهدم الدكة ، وتعفية أثرها ففعل ذلك" 617 .

615 سنحاول في فصل قادم البحث المكثف في الليينية ، ومن ثم في مدى استمرار فعلها في الحزب الشيوعي العراقي أو في ممارسات الشيوعيين العراقيين من الناحية العملية بعد استشهاد فهد.

616 المقصود بالقرمطي هنا: أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، صاحب الخال (الشامة) وقيل أن اسمه الحسين بن زكرويه بن مهرويه ، كما قيل أنه ابن مهري الصواني ، أي من أهل صوان من سواد الكوفة. أما المدثر فيقال أنه ابن عم القرمطي. راجع: كتاب "أخبار القرامطة" للدكتور سهيل زكار. ص 275.

617 زكار ، سهيل د. أخبار القرامطة في الأحساء والشام واليمن والعراق. دار حسان للطباعة والنشر. دمشق. 1982. ص 287/286.

إن هذه اللوحة تشير أيضاً إلى مدى الظلم الذي كان عليه عهد العباسيين ومستوى السادية التي وسمت سلوكهم مع الآخرين المختلفين عنهم والمخالفين لهم . وتمت هذه المجزرة البشعة في عهد الخليفة العباسي المكتفي بالله ، وهي واحدة من منات المجازر التي حصلت في العهد العباسي في العراق وفي غيره من المناطق التابعة للدولة العباسية . كما حصلت مجازر مماثلة لتلك في الدولة العثمانية أيضاً أو في غيرها ولذات الأسباب . ويمكن أن نشير إلى حركة الزنج والحركة البابكية أو إلى أبي نذر الغفاري أو الحلاج ، أو قبل ذلك إلى السيد المسيح ذاته ، وإلى مذابح الأرمن في تركيا أو إلى مذابح الآشوريين في سميل في العراق أو إلى مجازر الأتفال وحلجة في العراق . وكان الجواهري مبدعاً حين أشار إلى هذه الحقيقة بقوله:

لثورة الفكر تاريخ يذكرنا بأن ألف مسيح دونها صلباً\*

تمكن فهد من نقل جزء من المعرفة وكثير من هذا الإيمان إلى كوادر وأعضاء الحزب الشيوعي ومؤازريه والمحيطين به أو المحيطين بحزبه قبل وبعد استشهاده . والكثير من الدلائل كانت تشير إلى أن فهداً لم يستطع بالضرورة نقل قناعاته بالنظرية أو مدى فهمه لها مع إيمانه بها إلى الغالبية العظمى من كوادر وقواعد الحزب . أي أن الآخرين لم يكونوا بالضرورة على قناعة واعية بما آمنوا به ، وبالتالي كان إيمانهم بالنظرية يوحى بالتعصب لها أكثر من الفتاعة المعرفية بها . وينتج عن هذا التشخيص احتمال إلحاق الضرر بهم وبالحزب والفكر أيضاً ، بسبب ما يقود إليه الإيمان والتعصب من انغلاق فكر الفرد أو الجماعة على النظرية التي آمنوا بها تماماً ويحرمهم من علاقات التبادل والتفاعل الحر والمفتوح مع الأفكار والنظريات الأخرى . وفي هذا يكمن الضرر وخطر الجمود والأخطاء المحتملة . والإيمان بشيء أسهل بكثير من المعرفة التامة أو الجيدة والقناعة العقلية بذلك الشيء . فالأول لا يحتاج إلى جهد فكري كبير ، إذ أن هناك من أجهد نفسه للوصول إلى فكرة أو رأي أو نظرية أو دين معين ، وعلى الآخرين إما الإيمان بذلك أو رفضه ، وكفى الله المؤمنين شر القتال وتعب التفكير ووجع الرأس . ولكن هذا لا يعني أن كل الأتباع كانوا في تلك الفترة من المؤمنين ومن غير المقتنعين فكرياً بالنظرية ، ولكن الحديث هنا عن الغالبية العظمى من كوادر وأعضاء ومؤازري الحزب . وحتى عند أولئك المقتنعين كانت القناعة تمتزج ، كما عند فهد ، بالإيمان . وهو تقليد أدخلته الأديان منذ القدم واستساغها الإنسان الاعتيادي وصار قاعدة وتقليداً يفرض نفسه على الفرد والجماعة في المجتمعات عموماً ، وهي جارية حتى يومنا هذا رغم دخول العلم والمعرفة إلى الكثير من الأشياء التي أقلقت وهزت إيمان الإنسان وأضعفته كثيراً . ومن هنا برزت تلك المحرمات التي فرضتها وما تزال تفرضها الأديان على الإنسان المؤمن لكي لا يفكر بها ، إذ يمكن أن تقوده ، كما يعتقدون ، إلى مواقع الزلل والخطأ والخطر أو السقوط في "مستنقع الكفر" ، إلى مواقع التفكير الفلسفي بالكون والحياة وأصل الوجود وما إلى ذلك ، وما ينشأ عن ذلك من شك في "وجود الله" أو "خالق الكون والوجود والإنسان" .

وكان الإيمان بالنظرية الماركسية-اللينينية هو السائد وليست دراستها المعمقة واستيعاب منهجها العلمي واستخدامه وممارسته فعلياً ومعرفة جوانبها المختلفة . وشكلت هذه الظاهرة أحد العوامل الأساسية والمهمة جداً في إبطال الاستفادة الواعية والفعلية من النظرية وتحولها إلى عقيدة جامدة أبطلت الفكر والتفكير عند البعض وعطلته كثيراً عند الكثيرين . ونشأت عن ذلك اختلالات كبيرة وأزمات كثيرة ، كما أدت بأولئك الذين كانوا في الحكم إلى نهاية كارثية

\*وحيثما طالب طه حسين من الجواهري ترديد البيت ألف مرة قال الجواهري:  
بألف ألف مسيح دونها صلباً  
لثورة الفكر تاريخ يذكرنا

ومأساوية ، التي جسدها بشكل دراماتيكي نهاية الاتحاد السوفياتي وبقية بلدان "المعسكر الاشتراكي" في أوروبا الشرقية على نحو خاص .

إن التربية البيتية التي نشأ عليها فهد ، بما فيها الطقوس الدينية المسيحية التقليدية في العقود الأولى من القرن العشرين على نحو خاص ، ومنها الوصايا العشر التي تحفظ حفظاً في الصدر ، إضافة إلى الجو الإسلامي الذي ساد منطقة الجنوب التي عاش فيها سني صباه وشبابه ، وكذلك التربية المدرسية لفهد وعمله المبكر ومساهمته في كسب الرزق للعائلة في الميناء ومع حشد كبير من العمال ، منحته سمات متميزة ولعبت دوراً مشهوداً في مسلسل حياته ومستقبله السياسي . فكل المعلومات المتوفرة تشير ، بما لا يقبل الشك ، إلى أن فهداً قد تميز بالاستقامة والأمانة والصدق والصراحة والمباشرة في القول والجدية والمثابرة في العمل والدأب في سبيل الحصول على المعرفة والحرص في الوصول إلى ما يبتغيه لشعبه أو لحزبه وما خطه لنفسه أيضاً . كما كان نبيهاً سريع البديهة وهادئ عموماً . ويشير رفاقه إلى أنه كان قليل الكلام ولا يتحدث إلا عندما يجد ضرورة لحديثه أو التعبير عن رأيه . إلا أنه كان طليق اللسان منظم الفكر عندما يستدعي الحوار ذلك أو الدفاع عن أفكاره والدعوة لها . كما كان مباشراً يرفض المساومة التي تمس المبادئ .

وتجلت تلك السمات في استقامة فهد وإيمانه وإخلاصه للفكر الذي تبناه وآمن به وكفاح من أجله في علاقته برفاقه وحزبه وبالشعب العراقي والقوى الوطنية المختلفة . وبقدر ما هي مهمة وضرورية سمات الاستقامة الإيمانية والأخلاقية العالية والحرص الرفيع للقيام بالدور الذي خطه الإنسان لنفسه ، فأنها يمكن أن تصبح عبئاً ثقيلاً على الإنسان ذاته وعلى الذين كانوا يعملون معه في آن واحد أو حتى المختلفين معه ، وأن كان هذا العبء يتوزع باتجاهات ثلاثة . إذ أن الإيمان يخلق هاجساً ضاعطاً باستمرار على المؤمن باتجاه الكمال في العمل والالتزام الثابت بالمبادئ والأفكار والقيم والتعبير الملزم والمحدد عنها بعيداً عن أي انحراف ، ثم القيام بمراقبة سبل الممارسة لتلك المبادئ والأفكار والقيم التي آمن بها عنده وعند الآخرين . وعند حدوث أي تصور بوجود اختلال أو إخلال في ممارسة أو تفسير تلك المبادئ والأفكار أو القيم أو النظرية من قبل أشخاص آخرين ، يتحول هؤلاء المناضلون في فكر وتقدير المؤمن إلى أشخاص مرتدين وانتهازيين أو حتى خونة للمبادئ والأفكار والقيم أو النظرية التي آمنوا بها وللحزب الذي تبناها . ويصبح التعامل معهم جريمة لا تغتفر لأنهم مطايا الاستعمار والرجعية . ويصبح التشهير بهم وشتيمهم وعزلهم ضرورة قصوى لا مفر منها . أي أن الرأفة والرحمة مع النفس أولاً ، ومع الرفيق والصديق ثانياً ، وكذلك مع العدو ثالثاً ، تصبح ، انطلاقاً من المبادئ والقيم التي يؤمن بها ، خطرة ، سيئة وغير مطلوبة ويستوجب التخلي عنها من جانب المناضل الشيوعي . وهي إشكالية كبيرة سببت لفهد وللحزب الشيوعي العراقي الكثير من المصاعب ولرفاقه الكثير من المتاعب ، أو حتى الطرد من الحزب والتشهير في صحافة وأدبيات الحزب بالنسبة للبعض الآخر . وهذه الظاهرة لم تقتصر على الحزب الشيوعي العراقي ، بل شملت في حينها كل الحركة الشيوعية العالمية واستمرت طوال عقود لاحقة ووجدت تعبيرها في سلوك الغالبية العظمى من قادة وكوادر ورفاق الحزب ، إنها طريقة خاصة تجلت في المدرسة الستالينية في التفكير وفي التعامل مع الآخر . وقد مارسناها جميعاً بوعي أو بدون وعي ، وأن كان ذلك بمستويات متباينة وأساليب مختلفة . ولكننا نجدتها في تراثنا وتاريخنا العراقي والعربي أيضاً ، كما أنها موجودة في تراث البشرية كلها . فالتاريخ يذكرنا بوضوح عن الوجهة الاتهامية التي مارسها البعض في شتم الآخرين من على منابر المساجد باعتبارهم

خارجين عن الدين أو على إرادة الإمام أو إرادة الخليفة أو ما إلى ذلك ، أو النهايات المحزنة التي انتهى إليها من اتهم بالزندقة أو الهرطقة أو البابكية والخرمية أو القرمطة أو غيرها . ومصدر هذه الوجهة دينية عامة لا تقتصر على المسلمين ، بل شملت جميع الديانات المسماة سماوية وغير سماوية تقريباً . وسياسات القرون الوسطى الدموية (محاكم التفتيش مثلاً) تذكرنا حتى الآن ما كان يجري في أسبانيا وفي غيرها من الدول الأوروبية ضد الرأي الآخر ، أو ما جرى في الدولة الهتلرية وفي إيطاليا ، وكذلك ما جرى في زمن ستالين في الاتحاد السوفياتي . ونود أن نذكر هنا ومن جديد إلى أن إشكالية الإيمان والاستقامة للمبادئ والخروج عنها أو الاعتقاد بخروج البعض عنها وما ينشأ عن ذلك من نتائج ليست من ممارسات المدرسة البلشفية وحدها ، بل هي وليدة المجتمعات والأديان على مرّ العصور أولاً وقبل كل شيء ، وسبققتها ممارسات قوى وأحزاب كثيرة أخرى . وكان المفروض في النظريات العلمية العلمانية أن تكافح هذه الوجهة وترسي أسساً جديدة لتعامل معرفي حديث ، بدلاً من الغوص في تكريس أساليب الماضي وممارسته على نطاق واسع وتحت واجهات أخرى ، التي كانت أحد الأسباب المهمة التي قادت إلى نتائج كارثية أكثر سلبية وأشدّ ضرراً على الأفراد والمجتمع .

لم يكن في مقدور الحلفاء الماركسية ، ومن ثمّ الحزب الشيوعي في الثلاثينات والأربعينات ، وهي فترة بحثنا ، التأثير بالسكان الكادحين من خلال العلم والمعرفة وحدها ، إذ أنها لم تكن متوفرة فيهم أيضاً ، إضافة إلى تدني مستوى الثقافة والوعي العام ، وخاصة في الريف العراقي ، لذلك كان للإيمان والثقة والقرابة إلى حدود غير قليلة عوامل مهمة تلعب دورها في المجتمع وفي التأثير الفكري والسياسي على الناس . فكان هناك نوع من التشابك لا بد منه لخلق المريدين والحماس في صيغ الدعاية والترويج للفكر الماركسي التي تربط بين العلم ، من حيث هو واقع وتجربة الإنسان ومعايشته الذاتية ، وبين الإيمان بما يطرحه الإنسان المدافع عن حقوق الكادحين . ورغم الاختلاف القائم بين المجتمعات المتقدمة والمتخلفة ، فإن إمكانية حصول مثل هذا التشابك قائمة في كل المجتمعات البشرية ، رغم احتمال حصوله في الدول الأكثر تخلفاً أكثر منه في الدول المتقدمة ، كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق . ونكتفي هنا بإيراد مثال واحد من العراق نحاول من خلاله تأكيد ما أشرنا إليه . كان المجتمع العراقي في العقود الأربعة الأولى من القرن العشرين ما يزال في غالبية سكانه فلاحياً وعشائرياً ، ومستوى الوعي الاجتماعي والسياسي فيه متخلفاً جداً ، والأمية والجهل والخرافات ضاربة إطنابها . فلم يكن سهلاً على الناس فهم الفكر الشيوعي أو النظرية العلمية أو المنهج المادي والتاريخي الديالكتيكي . وكان لا بد من التعلم من التجربة العراقية ذاتها في مجال الدعاية والتحرير التي مرت بها ومارسها ثورة الزنج وحركة القرامطة ، على سبيل المثال لا الحصر . إذ كان سهلاً على الكادحين عموماً ، والفلاحين على وجه الخصوص ، فهم حقيقة أن الإقطاعيين يستغلونهم حتى القطرة الأخيرة من دمائهم ، إذ كانوا يعيشون ذلك يوماً وفي كل لحظة من حياتهم التعيسة . كما لم يكن صعباً عليهم فهم واقع أن الحكومات المتعاقبة وأجهزتها المختلفة ، وخاصة الشرطة ، كانت تساند هذا الاستغلال وتدافع عن الإقطاعيين ضد الفلاحين وتقتطع المزيد من أراض الفلاحين لتسلمها وتسجلها بطرق شتى بأسماء الشيوخ الإقطاعيين . وكانت هذه الأفكار الواقعية الصائبة حول علاقة الفلاحين بالإقطاعيين التي طرحها الحزب الشيوعي العراقي في المجتمع وروج لها بشكل واسع في الريف والمدينة ، لعبت دوراً مهماً في توسيع قاعدة المؤيدين له ولأفكاره في الريف والمدينة . وكان الطرح يتم باسم الشيوعية والحزب الشيوعي . ولم يكن عبثاً حينما قال فهد للمحقق بأنه شيوعي ، وأن البيانات التي نشرت

وعلقت في مواقع مختلفة من مدينة الناصرية هو الذي قام بكتابتها وتعليقها . ولم تكن تلك البيانات تحمل سوى الدفاع عن مصالح الفلاحين والعمال وكل الكادحين . وكانت أخبارها قد انتشرت في الناصرية والمناطق المجاورة بسرعة كبيرة وحققت الصدمة الأولى المطلوبة في النشاط الدعائي للفكر الشيوعي لا في مجتمع الناصرية فحسب ، بل في منطقتي الوسط والجنوب عموماً . ومن هنا نشأت منذ فترة مبكرة تلك الثقة بفهد وبالحزب الذي طرح الحقيقة القائمة على الناس دون رتوش ، وكانت بمثابة الدليل على مصداقية فهد والحزب فيما بعد . وتوسعت هذه المصداقية وتعمقت عندما دافع أعضاء الحزب عن قضايا الفلاحين ودخلوا السجون في سبيلها . ثم تحولت تلك المصداقية إلى علاقة حميمة واحترام كبير وود عميق لفهد وللحزب الذي يقوده في صفوف الفلاحين والجمهرة الواسعة من الناس . ثم تحول هذا الأمر إلى إيمان بهذا الحزب وبالفكر الذي طرحه وبالأشخاص الذين حملوا راية النضال . وهي ليست عبثية أو عفوية ، بل جسدت واقعاً ملموساً ومعيشة صادقة . ومثل هذا الإيمان يتطلب معيشة للواقع القائم ووعياً عاماً بالوضع الذي يمر به الإنسان ، ولكنه لا يفترض بالضرورة وعياً بالنظرية العلمية التي يتبناها الحزب ، والتي على أساسها حل وصاغ مهماته وشعاراته . فالإيمان بالحزب وبالنظرية التي يتبناها يشكلان جوهر العلاقة بين الحزب والغالبية العظمى من أتباع الحزب ، وليس المعرفة الفعلية بالنظرية وجوانبها المختلفة . ومن هنا نشأ الاستعداد عند كوادر وأعضاء الحزب على تحمل المشاق والاستعداد العالي للدفاع عن تلك الأفكار التي حملها الحزب ، ثم التعصب الشديد لها . لقد كنا نحن الشيوعيين العراقيين ، أو قل الغالبية العظمى من الشيوعيين ، مؤمنين بالنظرية ومتعصبين لها إلى حد العبادة والموت في سبيلها . وهي في أحسن الأحوال تعبر عن ذلك المزيج بين الجانب المعرفي النسبي بالنظرية والجانب الإيماني بها ، وليس بالضرورة المعرفة بالمنهج العلمي الذي يشكل الأساس المادي للنظرية المتغيرة قليلاً أو كثيراً بتغير الأوضاع . لقد حصلت الكثير من المآثر والأعمال التي يعجز عن تحملها الإنسان التي قام بها الشيوعيون العراقيون أو الوطنيون العراقيون نتيجة هذا الإيمان بالقضية . وهي لم تكن محصورة بالحزب الشيوعي العراقي وحده ، ولكنها كانت بارزة جداً عند الشيوعيين العراقيين ، لهذا كانت تضحياتهم كبيرة ، وأحياناً غير مبررة . وهي الظاهرة التي نعيشها اليوم في بعض الأحزاب الإسلامية في العراق .

من المعروف أن الاستنتاجات النظرية أو المقولات النظرية لماركس وإنجلز ، وكذلك الجماعات التي ساهمت في إرساء قواعد النظرية العلمية ، تعتبر نتاج استخدام المنهج العلمي في تحليل الواقع القائم في كل مرحلة من مراحل تطور المجتمع البشري بشكل عام أو المجتمعات المختلفة في البلدان المختلفة ، وبالتالي ، تعتبر الأداة التي بموجبها يمكن تحديد اتجاهات وإمكانيات وسبل التغيير المنشود لتلك المجتمعات . وهي في كل ذلك بعيدة كل البعد عن الاتجاهات الدينية والغيبية في رؤية وتتبع ومعرفة أو تشخيص وتفسير الظواهر والعوامل الكامنة وراء ذلك . ولكن هذه الحقيقة لا تعني أن جميع من تبني هذه النظرية والعامل على أساسها يدخل في خانة الملحدين أو من غير المتدينين ، أو أنهم جميعاً يعون هذه النظرية ويستطيعون استخدامها والاستفادة منها على أفضل وجه ممكن . ففي الوقت الذي يلتقي الإنسان بماركسي ملحد ، يجد بجواره ماركسي آخر متدين أو مؤمن بدين ما أو بعقيدة ما ، سواء كان مسلماً أم مسيحياً أم يهودياً أم منادياً أم إيزيدياً أم كاكانياً أو بوذياً أم من أتباع ديانات أخرى . ولا يقتصر هذا الأمر على الماركسيين وحدهم ، بل يشمل الناس من غير المتبنين للنظرية الماركسية أو العاملين في صفوف الأحزاب الشيوعية والاشتراكية . ويمكن



أن يشاهد الإنسان هذه الحقيقة في البلدان الأوروبية وفي أمريكا الشمالية وأستراليا وفي غيرها بشكل واسع نسبياً ، علماً بأن الغالبية العظمى منهم ليست من الماركسيين . وهذا الأمر ينطبق أيضاً على معرفة الماركسية بجوانبها الأخرى . فنحن نقول أن هذا الإنسان ماركسي أو شيوعي مثلاً . وربما ارتبط هذا التقدير بسبب واحد هو عضويته في حزب شيوعي أو حزب ماركسي آخر ، أو بسبب مواقف اتخذها بمناسبة معينة أو ادعاء قال به نفسه . ولكن هذا لا يعني بأي حال أن هذا الإنسان يعي المنهج العلمي وقادر على استخدامه ، أو أنه فهم النظرية الماركسية المتحركة والمتغيرة بتغير الأوضاع ، أو أنه استوعب جوانبها أو حتى جانباً منها . وبالتالي ، فهو يحسب عليها ، ولكنه في الممارسة العملية يبقى بعيداً عنها . ويمكن أن نشير هنا إلى حالة راهنية بمقدورها تقريب الفكرة أيضاً . يزداد في الآونة الأخيرة عدد الناشطين والمسجلين في منظمات الدفاع عن حقوق الإنسان أو المحسوبين عليها في مختلف بقاع العالم ، ومنها في صفوف العراقيين خارج العراق . وهي ظاهرة إيجابية وخطوة أولى على طريق توسيع قاعدة الالتزام بحقوق الإنسان وممارستها . ولكن هذا لا يعني بأي حال أن هؤلاء جميعاً يلتزمون الآن فعلياً بتلك الحقوق أو يمارسونها مع أنفسهم ومع غيرهم من البشر . وهي ظاهرة يمكن تلمسها في أوساط العاملين في مجال حقوق الإنسان من المنتسبين إلى مختلف الأحزاب السياسية التي تتضمن دساتيرهم وممارساتهم الكثير من التجاوزات ، من الناحية المبدئية ، على حقوق الإنسان . كما أن التعامل اليومي والحوار في ما بين الأفراد يشير إلى هذه الحقيقة بشكل ناصع . هناك مجموعة غير قليلة من منظمات حقوق الإنسان تديرها قوى دينية عراقية مسلمة . وهي تدعو في نشراتها إلى الدفاع عن حقوق الإنسان وتفضح ما يجري في العراق من تجاوزات فظة وظالمة ضد الإنسان وحقوقه ، وخاصة ضد أتباعها . ولكنها في المقابل لا تشجب ما يجري في إيران من تجاوز على حقوق الإنسان في السجون الإيرانية إزاء حملة الفكر والرأي الآخر . كما أن بعضها يرفض الاعتراف بالديمقراطية وحقوق الإنسان . أو أنها لا تشجب أعمال القتل التي تجري في الجزائر من قبل بعض القوى الدينية المتطرفة أو من جانب الدولة بأجهزتها القمعية . وهناك بعض الأحزاب شكلت أقساماً أو لجاناً خاصة بأحزابها تأخذ على عاتقها فضح الممارسات المناهضة لحقوق الإنسان ، ولكنها في الوقت نفسه تدعو وتروج في صحافتها إلى عمليات اغتيال الأعداء وممارسة العنف . فإشكالية حقوق الإنسان تحتاج إلى وعي عميق بتلك المبادئ والأسس وممارستها فعلياً ، سواء كان هذا الفرد أو ذلك وهذا الحزب أو ذلك في السلطة أم خارجها ، لا بتبنيها لها أو الإيمان النظري بها والدعاية لها وحسب . إن حقوق الإنسان تحتاج إلى وعي واقعي وعميق وثابت بها أكثر بكثير من الإيمان بتلك الحقوق ، وإذا كان الإيمان ضرورياً للدفاع عنها والحرص عليها ، فإن القناعة بها يحقق الهدف المنشود منها ، هو ممارستها المباشرة مع النفس ومع الآخر أولاً وقبل كل شيء .

عاش فهد عيشة متواضعة تعتمد على ما يكسبه من دخل محدود ، سواء عندما كان مستخدماً في الميناء ، أم عندما عمل في معمل الثلج العائد له ولأخيه وشريك آخر في الناصرية ، أم عندما أصبح كادراً محترفاً في الحزب . فعشرات الشيوعيين الذين عاشوا معه أو عرفوه عن قرب أو حتى التقوا به يشيرون إلى أنه كان ، إلى جانب تواضعه الشخصي ، مهملاً لنهادمه وملابسه ، رغم نظافته ، ويعود هذا لثلاثة أسباب مهمة ، وهي:

- عصاميته المعروفة ورغبته في البقاء في أجواء الطبقة العاملة العراقية وكادحيها من حيث العيش والمأكل والملبس والتصرف .

• معرفته بالرجال المصلحين في التاريخ الإسلامي وغير الإسلامي ورغبته في تقديم نموذج إيجابي يحتذى به في هذا الصدد ، إذ غالباً ما كانت ملابسه قديمة أو مشتتة من أسواق الملابس العتيقة (اللنكات) . وهي رؤية وممارسة قريبة من رؤية وممارسات المتصوفة لدى كثرة من المصلحين والثوريين العراقيين في الماضي وفي الحاضر أيضاً ، كما أنها كانت رغبة الاقتراب أو التشبه بالبروليتاريا<sup>618</sup>؛

• ضيق يده ، إذ كان لا يزيد راتب احترافه الشهري عن ستة دنائير عراقية لا غير<sup>619</sup> ، وكانت حالته في ذلك كحالة بقية محترفي الحزب الشيوعي حينذاك .

ويشير حسن عباس الكرباسي إلى أن فهداً كان بسيطاً في ما يرتديه من ملابس ، حتى أنه تبرع له بجاكيت بدلة كان يرتديها عندما علم في عام 1934 أنه سيغادر للدراسة في الاتحاد السوفييتي ، إذ كتب يقول: " عندما كنت في الصف الثالث (مدرسة الصناعة) العام الدراسي 1935/34 ، وفي المدرسة نتسلم عادة في العام بدلتين واحدة صيفية وأخرى شتوية وموعد استلام البدلة الشتوية هو تشرين الثاني ، وربما في أواخره . وكنت قد تسلمت بدلة شتوية حديثاً وكنت أرتديها قبل أن يصدر القرار بطردي وأخواني من المدرسة . وإذ كنا يوسف سلمان وأنا نسير في شارع الرشيد نحو الباب الشرقي ، وربما كان لقائنا ذاك اللقاء قبل الأخير أو قبل اللقائين الأخيرين . فاقتربنا من القسم الداخلي للصناعة ، وهو كما قلت يحدثني عن سفره القريب ، فقلت ما معناه ، أنت مقبل على شتاء والشتاء في الخارج أكثر برداً ، فهل هيات لك ما يسعفك من البرد؟ وأشار إلى ما يرتدي ، وهو كما كان دائماً بسيطاً وغير أنيق . ويعرفه كل الذين صاحبوه وزاملوه ، وقد قيل في وصف بساطة هذا الرجل وما يلبس أو يقول بما فيه الكفاية . وعندما وصلنا عند باب القسم الداخلي بادرت بنزع سترتي الجديدة وقلت له بحذر جربها ، وأشفقت أن لا تصلح له ، وفعلاً ارتداها فكانت طويلة عليه خصوصاً الأكمام ، ولكنه ثناها قليلاً ، فشجعتة عليها فقبلها ثم بادرت وأنا مسرور بنزع لفافاً صوفياً من حول رقبتني كنت قد اشتريته حديثاً ووضعتة على رقبتنه . فسر بهذا الأخير حقيقة<sup>620</sup> .

تميز فهد بشعبيته وقربه من الناس الاعتياديين وكسبه السريع لثقة المحيطين به وتأثيره عليهم . فإلى جانب معلوماته الواسعة نسبياً بالقياس إلى المحيطين به أو العاملين معه أو المستمعين إليه ، وإمامه بالكثير من الموضوعات ومعرفته لواقع العراق ، امتلك القدرة على التحدث بكلمات بسيطة ولكنها ملموسة وبتواضع في طرح الموضوعات الصعبة التي يريد إيصالها للمستمع . كما تجلّى ذلك في أسلوب كتاباته التي كانت سهلة على الفهم ، رغم تعقيدات بعض الموضوعات التي كان يناقشها أحياناً . وإذا كانت هذه الوجهة في التعامل قد قربته من الناس وساعدته في التأثير المباشر والسريع فيهم ، فأنها نفرت منه مجموعة غير قليلة من الكادر الحزبي المثقف بشكل خاص ، أي من الذين عملوا مع فهد لأسباب غير قليلة أو من الساسة العراقيين الديمقراطيين الذي كانوا يعملون في الحركة الوطنية العراقية حينذاك .

618 وجد في الحزب الشيوعي العراقي ، كما في أحزاب أخرى شخصيات متصوفة حقاً ، رغم كونها شيوعية أو من اتجاهات فكرية أخرى. تعرفت عن قرب على أحدهم ، إذ كان بالكاد يغير ملابسه الداخلية وملابسه عموماً كانت قذرة جداً ، وكذا أظافر يديه وقدميه. وعندما كان يجبر على شراء بدلة جديدة لسبب ما ، كان يحاول تدعيجها برشها بالماء ووضعها تحت الفراش لكي تفقد جمالها ، بحيث لا تبدو جديدة أو نظيفة.

619 استناداً إلى المقابلة التي تمت مع عادل مصري في براغ في 1982/7/2 ، حيث أشار فيها إلى راتبه الشهري الذي كان يتقاضاه من الحزب باعتباره كادراً محترفاً للعمل الحزبي. مصدر سابق.

620 الكرباسي ، حسن عباس المحامي. لن ننسك يا فهد. من وحي المشائق ظ بمناسبة يوم 14 شباط. (مذكرات). 1985. مصدر سابق. ص 32. (النص كما جاء في مذكرات حسن الكرباسي دون تغيير بالنسبة للأخطاء النحوية الواردة فيها).

ويفترض أن نتحرى أيضاً عن الأسباب وراء هذه الحالة التي أشارت إليها العديد من التعليقات والملاحظات من أشخاص زاملوا أو عملوا مع فهد حينذاك أو التقوا به وتعاملوا معه سياسياً . كان فهد يتعامل بود وطيبة وبتواضع مع رفاقه والمحيطين به والناس الذين يتعامل معهم عموماً . ولكنه كان قاسياً وشديداً إزاء من يختلف معهم في الفكر والسياسة والموقف ، أو من كان يتهمهم بالانتهازية والخيانة للمبادئ أو من كان يعتبرهم حصان طروادة للأجنبي في الحزب والحركة الشيوعية العراقية ، سواء تم ذلك في إطار التثقيف اليومي للرفاق أم في مجال الكتابة والنشر أم في فرض العزلة علي الآخرين . فعلى سبيل المثال كتب إلى مسؤول التنظيم في الخارج بشأن جماعة داود الصانع (الرابطة) وعن موقفه منهم في السجن ، ومنهم داود الصانع نفسه ، إذ كان سجيناً حينذاك ، يقول: "لا حاجة لإخبار جماعة العمل عدنا . فنحن نتجاهلهم لأنهم لا يرضونا بسلوكهم" . 621

ويمكن للمتتبع أن يجد ذلك واضحاً تماماً في كراسه الموسوم "حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية . وكانت له مواقف منسجمة مع مواقف الحزب الشيوعي السوفييتي في فترة قيادة ستالين للحزب والدولة السوفييتية إزاء المثقفين ، إذ كان الشك في قدراتهم على التنظيم والانضباط والطاعة كبيرة ، وكذا كان الشك في استعدادهم على الالتزام كبيراً جداً ، كما كانت الخشية من احتمال انحرافهم وشقهم لوحدة الحزب ، أو كانت تكتلاتهم الانشاقية كبيرة ، أو ثرثرتهم الحوارية غير المجدية معروفة وغير مرغوب بها لديه . ففي الوقت الذي كان فهد يسعى ويدعو رفاق الحزب إلى كسب المثقفين إلى جانب سياسة الحزب وزجهم في النضال تحت شعارات الحزب وسياساته ، والذي تحقق على نطاق واسع لم يدركه أي حزب من الأحزاب الوطنية حينذاك ، فإنه اتخذ مواقف شديدة وغير ودية إزاء المثقفين في داخل الحزب وحاول إبعادهم عن المواقع القيادية . كتب زكي خيري بصدد شدة فهد وعدم تحمله للنقد الموجه له من المثقفين ، يقول: "وربما كان قد فرط ببعض المثقفين الذين كانوا يطالبونه بحرية المناقشة أو بصياغة برنامج ونظام داخلي للحزب مبكراً كما أنه لم يتحمل النقد من خارج حزبه فقد نقلت له في سجن الكوت بعض انتقادات الأحزاب اليسارية الأخرى للحزب الشيوعي فنهض من جانبي وكنا جالسين القرفصاء على الأرض وتركني وحيداً وكأني اقترفت إثماً . ولم أكن كما يقال "ناقل الكفر ليس بكافر" فقد كنت متعاطفاً مع النقد المتعلق بطابع العلاقات بين الحزب الشيوعي والأحزاب اليسارية الأخرى ، أعني طابع التشدد" 622 . ولم يكن هذا التصرف مزاجاً مؤقتاً من فهد ، بقدر ما كان وجهة سياسية محددة مارسها ستالين في الاتحاد السوفييتي واقتنعت بها الأممية الثالثة ومارستها فعلاً بصيغ مختلفة .

وما أشرنا إليه في أعلاه يساعدنا على معرفة حقيقة معينة ومهمة ، وهي أن النظرية التي اقتنع بها فهد وآمن بمتلها وقيمها الإنسانية ، قادتته إلى الاعتقاد بامتلاكه الحقيقة كلها ، وأنه ضمن من يعمل في معسكر المدافعين عن تلك الحقيقة التي اكتشفتها النظرية العلمية التي يحملها ، النظرية الماركسية - اللينينية . وهذه الحقيقة مرتبطة عضوياً بأسلوب تفكير المدرسة اللينينية والستالينية وليست بالنظرية أو المدرسة الماركسية ذاتها ، إذ أن ملاحظات كثيرة قدمها فريدريك إنجلز ، أو حتى كارل ماركس في العديد من كتاباته ، لم تكن تشير إلى ادعائهما بامتلاك الحقيقة أو احتكارهما لها . ومثل هذا التصور يقود بالضرورة ، شاء الإنسان أم أبى ،

621 موسوعة خاصة بالحزب الشيوعي العراقي. الجزئين الأول والثاني. مديرية التحقيقات الجنائية. مطبعة الحكومة. بغداد. 1949. ص 233. الفقرة الثانية من الرسالة الموجهة من فهد من سجن الكوت إلى المسؤول الأول في التنظيم (مالك سيف) في 1947/11/27. وكانت جماعة "الرابطة" تصدر جريدة باسم "العمل".  
622 خيري ، زكي. صدئ السنين في ذاكرة شيوعي عراقي مخضرم. مصدر سابق. ص 130.

إلى الشعور بالتفوق على أصحاب النظريات والأفكار الأخرى ، وإلى استعداد أولي باتهام الآخرين بضعف القدرة أو بالنظرية المتخلفة أو بالخطأ ، ومن ثم بشتى التهم الأخرى والخشونة في النقد إلى حد التجريح والاتهام بشتى التهم أو حتى التصور بأنهم أخلص من الآخرين إزاء قضايا الوطن . ويمكن العودة في هذا الصدد إلى كتابات لينين ونقده الشديد للمختلفين معه والمخالفين لوجهات نظره من الماركسيين . ويكفي هنا أن يتذكر الإنسان الشتائم التي أنزلها لينين على رأس روزا لوكسمبورغ لسبب أساسي واحد هو نقدها لسياسات لينين في الاتحاد السوفييتي ، رغم معرفته الجيدة بهذه المناضلة والمفكرة الماركسية . وإذا كان لينين ينتقد بشراسة أولئك الذين اتهمهم بالانتهازية ، فإن ستالين تكفل بتصفية أمثال هؤلاء جسدياً . وتثير هذا الاتجاهات الاستبدادية في الموقف من النقد والاختلاف في الرأي وممارسة أساليب العنف في المواجهة الفكرية والسياسية أو رفض من يتبنى الماركسية-اللينينية في هذا البلد أو ذاك بسبب وجود حزب شيوعي قائم أساساً فيه ، أساليب عمل مضادة من الطرف الآخر ، وربما لا تختلف عنها كثيراً باعتبارها ردود أفعال لها .

واستناداً إلى الرأي الذي ساد الأممية باحتكارها للماركسية لنفسها ، اعتبر الحزب الشيوعي العراقي تحت قيادة فهد نفسه الممثل الشرعي والوحيد للماركسية-اللينينية في البلاد . وفي ضوء ذلك دخل في مناقشات حادة وجارحة مع الحزب الديمقراطي الكردستاني/العراق ، الذي ثبت في نظامه الداخلي بأنه يهتدي بالماركسية-اللينينية . فمن العبارات التي أطلقها الحزب عليهم قوله: "إن حركة البارت انتهازية في جذورها وتاريخ منشئها كامتداد للجماعات الانتهازية البائدة للمضي في التخريب وتفريق صفوف الجماهير الكردية لتقديم خدمات أكثر لأسيادهم المستعمرين . . . "623 . ولم يكن هذا الأسلوب مناسباً للحوار مع قوى وطنية لم ترتكب من ذنب سوى إعلانها تبني الماركسية-اللينينية .

يشير جعفر عباس حميدي إلى "تعاون حزب البارت مع الحزب الشيوعي في بعض الفترات فأشترك في لجنة التعاون الوطني عام 1948 ولكن رغم ذلك حدثت خلافات بين أعضاء الحزبين حتى من خلال العمل في لجنة التعاون الوطني وصل حد التصادم في أربيل"624 . وقاد هذا التوتر ، وفي سياق تأييده للجبهة الوطنية الموحدة ، هاجم الحزب الديمقراطي الكردي حزب التحرر الوطني وأوضح: "إن هذه الجماعة كثيراً ما تقوم بأعمال غير صحيحة وتخريبية تؤدي إلى ضعف وانتكاس في الحركة الوطنية وقد ثبت فعلاً بالتجربة بأن هذه الجماعة تنادي بشعارات التعاون في جبهة وطنية موحدة ولكنها تخالفها وتنقضها عملياً وتؤكد لدى حزبنا بأنها لا تملك قيادة صحيحة وكثير من أعمالها ارتجالية ومتناقضة"625 . ثم هاجم الحزب الديمقراطي الكردي الحزب الشيوعي مباشرة واتهمه بأنه قد "نسى الاستعمار والعمل ضده وأصبحت أعماله وقفة على التخريب بين باقي الأحزاب الوطنية"626 . وفي ذات الفترة نشرت جريدة العمل ، التي كانت تصدرها رابطة الشيوعيين العراقيين ، وكان يترأس هذه الجماعة داود الصانع ، بياناً أيدت فيه تشكيل الحزب الجديد في كردستان العراق ، وجاء في البيان ما يلي: "إن تأسيس الحزب الديمقراطي الكردي للنضال من أجل حكومة اتحادية كردية في العراق ضمن نطاق الدولة العراقية . . . جاء برهاناً ساطعاً على صواب القيادة التي توجه نضال الشعب

623 حميدي ، جعفر عباس. التطورات السياسية في العراق. مصدر سابق. ص 236.

624 نفس المصدر السابق. ص 236.

625 نفس المصدر السابق. ص 236.

626 نفس المصدر السابق.

الكردي الآن"627. وهذا الموقف يعبر عن تقدير صائب لأهمية بروز أحزاب سياسية وطنية في العراق ، بغض النظر عن الواجهة التي تحملها أو المبادئ التي تبشر بها ، ما دامت متجهة صوب دعم النضال الديمقراطي في العراق ، خاصة وأن فهذا كان يشكو من قلة الأحزاب وبالتالي توجه الناس إلى الحزب الشيوعي بدلاً من التوجه والعمل في أحزاب مناسبة لها تنسجم مع أهدافها وإمكاناتها وتطلعاتها .

كانت غالبية رفاق اللجنة المركزية في فترة فهد وابتداءً من منتصف العقد الخامس تقريباً من الكادحين والشعبيين ومن المستويات المتدنية والمتوسطة في الثقافة العامة . وإذا كان لهذا جانبه الإيجابي من حيث الصمود والكفاحية والمجاهة ، إذ لم يكن هكذا دائماً ، فقد كان له جانبه السلبي الكبير من حيث القدرات والاستقلالية الفكرية وإمكانية المشاركة الفعلية في رسم سياسة الحزب والتأثير فيها ، وكذلك في جانبها الإيماني وليس المعرفي والعلمي . وكان لهذا الموقف تأثيره المباشر على وجود وحركة وعمل المثقفين في قيادة الحزب الشيوعي وإزاء المثقفين فيه بشكل عام ، وخاصة في أعقاب عودة فهد من الدراسة الحزبية في موسكو ، رغم أنه لم يستطع تجنبهم حينذاك ، في حين كان الموقف منهم غير ذلك في فترة نشوء وتكون الحلقات الماركسية ، حيث لعب المثقفون العراقيون دوراً أساسياً في تكوينها وبخاصة في بغداد . لقد كان العاملون مع فهد وفي قيادة الحزب والذين اعتقلوا معه أو التقوا به في السجن يشعرون باستمرار وكأنهم تلاميذ لفهد ، وكانت له قدسيته المتميزة ، وبالتالي ، كانوا من الناحية النفسية لا يجرأون على الاختلاف أو حتى خوض النقاش العميق والجاد معه . وهي إشكالية كبيرة ناجمة عن طريقة تعامل متبادلة ، أو من الجانبين ، إذ أنها لم تكن من جانب فهد وحده ، بل من الآخرين أيضاً ، ولكن باتجاه معاكس . وما يشار أحياناً من انتقاد حازم (زكي بسيم) لفهد على بعض المسائل الداخلية ، فأنها لم تكن مؤثرة على شخصية فهد ، وكان فهد يتقبلها باعتبارها التعبير عن الحب الصادق والإيمان بقيادته ودوره ، إذ أنها كانت تمس ، كما يشير إلى ذلك زكي خيرى ، كثرة لعب الشطرنج من جانب فهد لا غير . وجدير بالإشارة إلى أن حسين محمد الشبيبي وزكي بسيم كانا ضمن من يشعر بالتملذذ أمام فهد . ويمكن أن يكتشف الإنسان ذلك من قراءة المقدمة التي كتبها حسين محمد الشبيبي لكتاب فهد "حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية" .

• ومع أن زكي خيرى628 كان ينتقد فهد على تعامله الخشن مع المثقفين ، فإنه حياً بحرارة تعامل فهد الحازم والصارم مع من كان يطلق عليهم بالانتهازيين629 .

627 حميدي ، جعفر عباس. التطورات السياسية في العراق. مصدر سابق. ص 236.  
628 يعتبر زكي خيرى من الرواد الأوائل الذين شاركوا منذ البداية بالنضال في سبيل القضايا الوطنية وحركة التحرر العربية وفي سبيل الديمقراطية والعدالة الاجتماعية. وهو شيوعي مخضرم ، كما عبر عن نفسه في كتابه الموسوم "صدى السنين في ذاكرة شيوعي عراقي مخضرم". أصيب زكي خيرى بكسر في ساقه في المظاهرة الاحتجاجية ضد زيارة السياسي البريطاني الصهيوني الفريد موند إلى بغداد في 8 شباط من عام 1928. كما سجن لسنوات طويلة. كان زكي خيرى مناضلاً شجاعاً وشويعياً صلباً في مواجهة السلطة وجلأزة النظام الملكي في التحقيقات الجنائية والسجون. وكان زكي خيرى ، الذي تميز بثقافة ماركسية وعامة جيدة وتتبع ملموس وفارئ محترف ويمتلك خبرة عملية واسعة ، من عشاق المناطحة بالمقولات الماركسية بغض النظر عن الفترة التي قيلت فيها والعوامل الكامنة وراء تلك المقولات أو النصوص. فالنص الماركسي أو اللينيني ، أيا كان ، كان عنده مقدس ويتحرى عن ما يقاربه من أحداث راهنة ليؤكد الأحكام السابقة والقديمة على الأحداث الجديدة. وفي هذا يمكن القول بأن كان وإلى حدود بعيدة نصياً يابساً. كان تنقله الفكري والسياسي ، كما نرى ، من قطب إلى قطب آخر سريعاً ولا يستند في أحيان كثيرة إلى مقومات أو أسباب تدعو إلى ذلك التغيير ، ومع ذلك فهو في الإطار العام حافظ على النهج اليساري في الحزب وتبناه وحاول قيادته. كان قاسياً في نقده ومتجهماً أبداً وخشناً في تعامله مع الآخرين. وحصد نفس الثمار في تعامل البعض معه. وكان زكي خيرى سريع البديهة ، حاضر النكتة إن شاء ذلك ، ويمتلك ذاكرة قوية حتى آخر يوم من حياته الغنية والحافلة بالأحداث. ويفترض أن يكون زكي خيرى موضوعاً لعدد من الدراسات الغنية ، إذ ولد في بغداد في عام 12 نيسان من عام 1911 وتوفي في الغربية في السويد في شهر شباط من عام 1995. وصدرت له عدة كتب أثناء حياته، وأهمها كراس عن الإصلاح الزراعي في العراق وصدى السنين ودراسات في تاريخ الحزب الشيوعي العراقي.

629 كتب خيرى يقول:

وتجدر الإشارة هنا إلى أن تعامل فهد مع الذين اختلفوا معه أو مع الحزب في المسائل الفكرية والسياسية أو الذين انشقوا عن الحزب أو الذين أسسوا كتلاً سياسية مستقلة وجديدة لم يكن باستمرار موضوعياً أو مستنداً إلى الواقع العراقي الفعلي ، بل كان في الغالب الأعم حاداً وقاسياً ومتأثراً بالصراع على صعيد الاتحاد السوفييتي والحركة الشيوعية العالمية ، والتي يمكن ملاحظتها في كراسه "حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية" . ولكن هذا لا يعني أن مواقف الجماعات الأخرى كانت أكثر هدوءاً وموضوعية ، وربما كان مواقف بعضها أكثر استفزازية . ولا شك في أن المناخ السياسي حينذاك ومستوى الوعي الديمقراطي هو الذي تحكم بهذه القضية ولسنوات طويلة لاحقة ، وهي ما تزال بصيغ مختلفة تحكم علاقات قوى المعارضة العراقية أو في ما بين القوى التي انطلقت من قاعدة واحدة ثم انشطرت إلى جماعات واتجاهات عديدة .

ويمكن التعرف على عدد من سمات وسلوك أو شخصية فهد عندما كان سجيناً منذ أن اعتقل في بغداد بعد ظهر يوم 18 كانون الثاني/يناير عام 1947 حتى يوم إعدامه في الرابع عشر من شباط/فبراير عام 1949 . ففي هذه الفترة التي احتك بها بالسجناء السياسيين والسجناء العاديين لعب فهد دوراً كبيراً ومؤثراً على التنظيم الحزبي في الخارج من جهة ، وعلى حياة السجناء السياسيين من جهة أخرى .

"وهكذا فإن فهد لم يوطد كيان الحزب ويصونه من التيارات الانتهازية اليمينية واليسارية ويصفي جميع الكتل الانشاقية في تلك الفترة من حياة الحزب الشيوعي العراقي وحسب ، بل وسلح أيضاً الحزب وأعضائه بالمعنى النظري والتطبيقي في صيانة الحزب من التيارات الانتهازية التي ظهرت عبر تاريخ نضاله المجيد إذ لخص تلك التجربة الغنية قائلًا: "1. إن الانحراف اليميني في الأحزاب الشيوعية في الظروف الرأسمالية ، ميل وانعطاف ، هو ميل من قبل قسم من الشيوعيين للابتعاد عن الخطة الماركسية الثورية إلى اتجاه الاشتراكية الديمقراطية ، وتكييف الشيوعية وفق الاشتراكية الديمقراطية التي هي دعماً للطبقات المستثمرة في حركة العمال. 2. إن الحرب ضد الانحرافات يجب أن لا تقتصر على تحيئة الانتهازيين وتطهير الحزب منهم ، بل أن نحارب الانحرافات كميل خطر جداً له جذوره في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في القطر ، أي أن نحارب الأفكار التي تنبعث منها الانتهازية. 3. أن لا ينشغل الثوريون عن محاربة الانحرافات باعتبارها خطراً على الحزب بأعمالهم الحزبية الاعتيادية الآتية دون التفكير بمستقبل الحركة وأهدافها ، وبدون الانتباه إلى أن انتصار الانحرافات معناه ضياع الأمل بتطور الحركة. 4. وجوب تطهير الأحزاب الشيوعية من المنحرفين باعتبارهم أداة النفوذ البرجوازي المعادي داخل أحزاب البروليتاريا ، وأن يشن الحرب لا على الانتهازيين المفضوحين فحسب ، بل كذلك على الموقفين لأنه عندما تعلن الحرب على الانحراف اليميني يتحصن بعض اليمينيين عادة بزبي الموقفين ويجعلون الحزب بموقف حرج. ولكي تمنع مناورة منحرفي اليمين هذه يجب الإلحاح بإثارة حرب صادقة ضد الميل التوفيق. 5. أن يفرض ضبط حديدي على الأعضاء وخضوع لا شرطي لهذا الضبط. وبهذا فقط يمكن تطهير تكتلات المنحرفين داخل الحزب بالوقوف ضد هجماتهم لتنفيذ تطهير الحزب من العناصر الانتهازية. ففي الوقت الذي يكون فيه شعار تطهير الحزب من العناصر الانتهازية نافذ المفعول يعمد المنحرفون عادة إلى تنظيم أنفسهم ككتلة ويضعون ضبطاً خاصاً بكتلتهم ويمزقون ضبط الحزب ويحطمونه. 6. يقول لينين: عندما تكون البروليتاريا في معارك فاصلة مع البرجوازية من أجل السلطة ، فمن الضروري ليس إقصاء المنشفيك والإصلاحيين والتوراثيين (منشفيك إيطاليا) عن ميل التذبذب نحو الوحدة مع الإصلاحيين وحسب ، بل ويجب إقصاء هؤلاء عن جميع المراكز ذات المسؤولية في الحزب"629"629.

في هذا المقطع تتجلى ثلاث مسائل جوهرية بالنسبة إلى فهد:

- التزام فهد الثابت والصارم والقاطع بموقف الأممية الشيوعية والحزب الشيوعي السوفييتي وستالين إزاء من أطلق عليهم بالمنحرفين يميناً أو يساراً ، أو لكل مخالف لطروحات الأممية والحزب الشيوعي السوفييتي وستالين ، وبالتالي أمانته واستقامته في تطبيق ذلك. ويفترض أن يجري تطبيق ذلك في الحزب الشيوعي العراقي تماماً كما يجري تنفيذه في بقية الأحزاب الشيوعية. وهو معيار عن مدى الإخلاص لمبادئ الماركسية-اللينينية. ويمكن العودة في هذا الصدد إلى كراس ستالين الشهير والموسوم "في سبيل تكوين بولشفي" الذي يتحدث حول هذه الموضوعات ، وكان كراساً أساسياً في تثقيف الشيوعيين في الأربعينيات من القرن العشرين؛

- إصراره على أن المختلفين معه في العراق لا يختلفون كثيراً عن غيرهم في البلدان الأخرى ، وبالتالي فهم مطايا البرجوازية في صفوف الأحزاب الشيوعية والخلص منهم يفترض تصفيتهم من الحزب وإبعادهم عن الحركة الوطنية العراقية أو تنظيفها منهم ، باعتبارهم مطايا الاستعمار في الحركة الوطنية العراقية. وهو أمر يتطلب التخلص منهم بأي ثمن؛

إن إيراد هذا النص اللينيني من جانب فهد في كراسه السابق الذكر يعبر عن قراءة نصية لكتابات لينين الخاصة بحزب يقف على رأس السلطة ويعيش صراعات مع قوى فكرية سياسية داخل الحزب أو مع المنشفيك أو الاشتراكيين الديمقراطيين. وهذا يختلف تماماً عن تلك المجموعات الصغيرة التي وجدت في العراق والتي كانت تناضل بجوار الحزب وكلها تقريباً تعمل بالسرية ، وأن الرأسمالية كانت ما تزال جنينية في العراق. ومع ذلك لا بد من الإشارة إلى أن فهداً أورد هذا النص اللينيني في موقع آخر ولغاية أخرى ، في حين كان زكي خيرى أكثر نصية وجموداً من فهد ، إذ استخدم النص اللينيني للتدليل على وضع لم يكن موجوداً في العراق أصلاً.

بادر فهد وهو في السجن إلى تنظيم حياة السجناء السياسيين مستفيداً من تجارب الشيوعيين في السجون المختلفة في أرجاء العالم ، وخاصة في الاتحاد السوفييتي ، إذ أولى اهتمامه بالاتجاهات التالية:

- تشكيل لجنة مسؤولة تقود تنظيم الشيوعيين في السجن وتنظم صلتها بالإدارة وحياة السجناء الحزبية والعامية . ومع أن خيوط التنظيم كانت كلها في يديه ، كلف زكي بسيم بمسؤولية التنظيم والاتصال بالإدارة والأرزاق وما يصل من العوائل من نفود وتموين لاستخدامها المشترك من قبل السجناء؛
- تكوين دورات دراسية للسجناء تدرس فيها بعض المواد الفكرية والسياسية ، إضافة إلى تبادل الخبرة والتجارب النضالية بعيداً عن كشف أسرار الحزب . وغالباً ما كان فهد يقدم محاضرات عن الاتحاد السوفييتي يعبر فيها إما عن تلك الموضوعات التي درسها في المدرسة الحزبية أم التي تعرف عليها في زيارته أو تلك التي كان ينشر عنها ، ومنها قضايا تحرير المرأة ، المسألة القومية وحلها في الاتحاد السوفييتي أو دستور الاتحاد السوفييتي ، كما درس الاقتصاد السياسي ، وكان زكي خيرى أحد المعجبين بطريقة تدريسه وأسلوب إيصاله المادة إلى المستمعين ... الخ؛ وكلف حسين محمد الشبيبي بمسؤولية الإشراف على هذه الدورات التثقيفية؛
- إلقاء محاضرات من قبل بعض الكوادر الحزبية حول مختلف الموضوعات التي تهم الرفاق ، بما فيها سبل التعامل مع الشرطة أو موقف الشيوعي أمام المحاكم وإزاء الأعداء ، وعلاقة المناضل بعائلته والمجتمع الذي يعيش فيه ، إضافة إلى معالجة قضايا الساعة في العراق أو في العالم العربي أو في العالم .
- وأبدى فهد اهتماماً خاصاً بكتب التاريخ عموماً وتاريخ الدول العربية والإسلامية خصوصاً . وألقى بعض المحاضرات عن تاريخ العراق على رفاقه في السجن ، إذ أشار عادل مصري إلى أن فهداً قسم تاريخ العراق منذ الاحتلال العثماني له إلى ثلاث مراحل هي: مرحلة 1534-1908 ، أي منذ الاحتلال العثماني للعراق حتى الثورة التي أعدت لها "جمعية الاتحاد والترقي" في قلب الدولة العثمانية التي كانت قد تأثرت بالثورة الروسية عام 1905 . وإعلان الحكم اللامركزي للولايات التابعة للدولة العثمانية ، ومنها العراق ، ثم المرحلة الواقعة بين 1908 -1932 أي مروراً بالاحتلال البريطاني للعراق وانتهاءً بإعلان رفع الانتداب ودخول العراق عصبة الأمم ، ثم المرحلة الثالثة التي استمرت من عام 1932 حتى نهاية الحرب العالمية الثانية 630 . وهذه المراحل الثلاث يجدها الباحث في كتابات المؤرخين والمستشرقين السوفييت ، وبشكل خاص لوتسكي 631 . ولا شك في أن بعض هؤلاء المستشرقين كانوا يلقون المحاضرات في تاريخ الأقطار العربية والإسلامية في المدرسة الحزبية . وللعلم فإن كتاب لوتسكي هذا قد صدر لأول مرة في عام 1936 . وكان عبارة عن مجموعة محاضرات قدمت للدارسين في معهد موسكو للدراسات الشرقية وفي جامعة موسكو وفي غيرهما من معاهد الدراسات العليا السوفييتية .

630 نشر فهد مقالا ثم كراساً بهذا الأمر تحت عنوان مراحل تطور العراق في رسالة التحرير التي كانت تصدرها الهيئة المؤسسة لحزب التحرر الوطني الذي كان يرأسه حسين محمد الشبيبي في عام 1946 ، وفق ما جاء في المقابلة التي جرت مع عادل مصري في 1982/7/2 . في براغ . مصدر سابق .

631 لوتسكي ، و . ب . تاريخ الأقطار العربية الحديث . الطبعة الأولى بشكل خاص . الطبعة الثامنة . دار الفارابي . بيروت . 1985 . راجع في هذا الصدد الفصل الخامس والعشرون تحت عنوان: ثورة تركيا الفتاة والأقطار العربية . ص 314-394 .

وحين كان فهد في السجن مارس التنظيم الحزبي سياسة العزل إزاء من كان يطلق عليهم بالانتهازيين ، وكان الشرط في رفع العزل عنهم هو اعترافهم بأخطائهم وتخليهم عن أفكارهم "الانتهازية" وعودتهم إلى صفوف الحزب. 632 فبعض الذين وجدوا في السجن حينذاك ويكنون الاحترام والحب لفهد يشيرون إلى أن فهداً قاطع داود الصانع تماماً ولم يتحدث معه طيلة وجوده معه في سجن الكوت ، ولكنه لم يتعرض له بالسوء ، كما لم يحاسب من كان يتصل به ، في حين كان عدد من الكوادر الشيوعية ، ومنهم عبد العزيز عبد الهادي ، وهو عسكري سابق ومقرب من فهد ، كان يسيء إلى داود الصانع في كل مرة يصادفه في دربه ، سواء بتصغير لقبه "صويغ" أو "حلوس" ، أي "أتان" ، وهي كلمة تقال لمن ذل بعد عز ، كما تعني المفلس ، وغيرها من الكلمات النابية<sup>633</sup> . ولم يتوقف هو وغيره عن ذلك . وأشار البعض إلى أن فهداً هو الذي أطلق هذا اللقب "حلوس" على داود الصانع لتحقيره . وكان فهد يأخذ على عاتقه الإصغاء لمشكلات الرفاق أو تلك التي تحصل في ما بين الرفاق . ويشار إلى أنه كان قادراً على الإصغاء والتواضع في التعبير عن ملاحظاته النقدية ، ولكنه كان يعاقب من يلتزم ولا ينفذ واجباته .

كان فهد يشعر بأبوة ومسؤولية إزاء رفاقه في السجن وخارجه . ففي السجن كان يبقى ساهراً لساعة متأخرة من الليل ، حيث يقوم بجولة في قاعات السجن ، وكان يقوم بإعادة الغطاء على من انزاح عنه ، كما يشير إلى ذلك أحد رفاقه في السجن من الذين ما زالوا على قيد الحياة<sup>634</sup> . وكان يريد فهد بذلك تقديم النموذج الذي يحتذى به .

اعتبر فهد السجن مدرسة حزبية للمناضلين لكي لا يقضوا أوقاتهم جزافاً ، ولكي لا يتعرضوا إلى فراغ يمكن أن يرهق السجين السياسي . وكان يهتم بقضايا السجناء العاديين . ولكن لماذا؟ يبدو أن المحرك لذلك يكمن في:

(1) رغبة فهد في التأثير الإيجابي على سلوك وتعامل السجناء مع بعضهم البعض ، والاستفادة من علاقة السجناء السياسيين الطيبة في ما بينهم للتأثير المباشر على علاقة السجناء العاديين في ما بينهم؛

(2) من خلال تعزيز العلاقة بهم وكسب الثقة يمكن كسب بعضهم إلى جانب الحركة السياسية والحزب الشيوعي؛

(3) منع استخدامهم من جانب إدارة السجن كأدوات ضاربة واستفزازية ضد السجناء الشيوعيين . وقد تحقق ذلك فعلاً . وكان السجناء العاديون في حزن شديد عندما عرفوا بترحيل فهد واحتمال إعدامه في بغداد وودعوه وداعاً طيباً .

اتسم فهد عموماً ، كما هو حال بقية قادة الأحزاب الشيوعية الأعضاء في الأممية الثالثة ، بالقيادة الفردية وبروز الدور الشخصي المتميز في الحزب . وتجلى ذلك في أوضاع العراق السرية والمعقدة في عدد من الكتابات والعلاقات وأحاديث رفاق فهد القدامى . ففي الفقرة 25 من النظام الداخلي يجري تأكيد خاص للدور المميز الذي يفترض أن يقوم به السكرتير العام . كما كانت ترد عبارات مثل: "وعلى رأسهم الرفيق فهد سكرتيرنا المؤيد الذي يعود له الفضل

632 ليست محاولة العزل السياسي للضغط النفسي على السجين أو السياسي للتخلي عن مواقفه والاعتراف بأخطائه بحالة جديدة. ومورست في العهود الأموية والعباسية والعثمانية كثيراً، كما مارسها النظام الملكي في العراق بما أطلق عليه بالبرانة. ومارسته الجمهورية الإسلامية الإيرانية مع الشيوعيين وفدائيي خلق في سجن أيفين وغيره في إيران حين كانت تفرض عليهم "التوبة"، وكان هناك موقع خاص في السجن لمن أطلق عليهم "بالتوابين".

633 في لقاء تم في 25/7/2001 بين كاظم حبيب وأحد الشيوعيين القدامى ، من الذين قضى فترة في سجن الكوت قبل وبعد إعدام فهد ، وكان وما يزال من المعجبين بفهد كثيراً ، ذكر هذه الحادثة وحوادث أخرى مماثلة.

634 وهو نفس الشخص الوارد ذكره في الملاحظة السابقة.



بالدرجة الأولى في القيادة الحكيمة . . . " في تقارير اللجنة المركزية ، أو " إن كل هذه انتصارات رائعة حققها الحزب بفضل قيادة سكرتيرنا المؤيد الرفيق فهد . . الخ ، أو " فإلى جميع الرفاق نطلب أن يكونوا حذرين يقظين تجاه هذه الأفكار الغريبة ، وإلى الرفيق فهد ، حبيب نفوسنا وقائد نضالنا وسكرتير حزبنا الذي قاده بخطته الحكيمة السليمة ، تحياتنا وشكرنا من أعماق قلوبنا العامرة بالإيمان وحب النضال في سبيل قضيتنا وقضية شعبنا" 635 ، كما جاء في المقدمة التي كتبها حسين الشبيبي (صارم) لكراس فهد "حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية" ، أو " . . أصبح ما يقوله قائدهم الأكبر ستالين ، وما يأمر به ، واجباً مقدساً وأمرأ مطاعاً ليس فقط من قبل أعضاء الحزب والطبقة البروليتارية السوفيتية والشعوب السوفيتية بل من البروليتاريا العالمية والشعوب . . . " 636 . كل ذلك يدل على أن البصمات الستالينية في عبادة الفرد وتشديد المركزية وفرض الطاعة ، كانت شديدة ومهيمنة على الحياة الحزبية . كما أشير إلى نشره تلك الرسالة التي تتحدث عن استعداد مجموعة من النجارين الشيوعيين "لقطع أعناق الخونة بأسنان مناشيرنا" 637 .

يشير زكي خيري عن بعض سمات فهد في كتابه "صدى السنين" فيقول: كان فهد يتحمل المناقشات الشفوية الحادة بين الرفاق بطول بال ولكن لم يرد له على باله نشر أي رأي مخالف في صحافة الحزب لأنه كان يطبق المركزية الديمقراطية على الطريقة الستالينية . أي حكم الأكثرية من دون أي حقوق للأقلية كحق الدفاع عن الرأي مثلاً في الصحافة" 638 .

إن الإشكالية الكبيرة التي تبلورت في نشاط فهد خارج السجن وداخله برزت في سعي فهد الحثيث إلى تربية الشيوعيين بالطاعة التامة لقيادة الحزب والسكرتير العام والثقة المطلقة بالحزب الشيوعي السوفييتي وبستالين ، وبالتالي به أيضاً . وكانت قرارات اللجنة المركزية تعتبر أوامر صادرة للرفاق لتنفيذها وليس لمناقشتها . وأدت هذه العملية إلى خلق أناس يتلقون قرارات وأوامر أكثر مما يتعبون أنفسهم بالتفكير لما جاء إليهم ومناقشته وإبداء الرأي بشأنه والمساهمة في إغنائه . فعلى سبيل المثال لا الحصر ، جاء في القرارات الواردة في تقرير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي في اجتماعها المنعقد في كانون الأول 1942 ، ما يلي: "د - وأخيراً فإن اللجنة المركزية تصدر أمرها إلى جميع الرفاق بمضاعفة نشاطهم الحزبي وذلك بأن يضاعفوا تغلغلهم في الجماهير ناشرين بينهم الوعي وتوجيههم نحو . . كما عليهم أن ينشطوا في فضح الخونة المخربين والمتآمرين" 639 . ولم تبق المشكلة في فترة فهد فحسب ، بل استمرت بشكل صارخ في الفترات اللاحقة والتي أدت إلى تعطيل فعلي شديد في قدرة رفاق القاعدة والكوادر المختلفة على التأثير الإيجابي والفعال في سياسات الحزب الشيوعي العراقي . إن هذا لا يعني أن فهداً كان يستهدف ذلك ، بل كان يعني أن الطريقة التي مارسها الحركة الشيوعية العالمية كانت قاصرة عن أن تعي الأهمية البالغة لا للطاعة ، بل للمشاركة الديمقراطية في رسم القرارات ، وبالتالي تبنيتها والنضال من أجل تنفيذها ، وهي الطريقة الوحيدة الفعالة في الحياة الديمقراطية للأحزاب السياسية على نحو خاص . والأوامر لم تكن موجهة إلى الرفاق لتعزيز نشاطهم في صفوف الجماهير فحسب ، بل وكان عليهم زيادة نشاطهم لفضح الانتهازيين والخونة والمخربين والمتآمرين ، أي جماعة عبد الله القريني .

635 فهد. المؤلفات. مصدر سابق. ص 30.

636 نفس المصدر السابق. ص 38/37.

637 بطاطو ، حنا د. العراق. الكتاب الثاني. الحزب الشيوعي. مصدر سابق. ص 143. عن جريدة "الشرارة". العدد 15. لشهر آب/أغسطس. 1942.

638 خيري ، زكي. صدى السنين في ذاكرة شيوعي عراقي مخضرم. مصدر سابق. ص 130.

639 فهد. المؤلفات. مصدر سابق. ص 406.

عرف عن فهد اهتمامه البالغ بالعمل الحزبي ورغبته في الاطلاع على كل كبيرة وصغيرة ، إذ كان ، كما يبدو ، يريد تجنب الأخطاء بسبب حداثة التنظيم والتجربة الحزبية والسياسية للشيوخيين . ولكن هذه الطريقة في العمل الحزبي السياسي ، كما يبدو لنا وحسب معرفتنا بالكثير من القادة السياسيين وكما تشير إليه الكتب التي تبحث في حياة الكثير من القادة ، لا تنحصر في طريقة عمل فهد وحده ، بل كانت وما تزال تمارسها الغالبية العظمى من قادة الأحزاب الشيوعية والعمالية أو غيرها من الأحزاب السياسية في مختلف بقاع العالم . وهي طريقة مرهقة وغير مجدية وتعب عن ضعف الثقة بقدرة الآخرين على إنجاز ما تكفلوا به من مهمات ، كما أنها لا تخلق الكادر القادر على الاضطلاع بمهامه بصورة مستقلة وواعية وثقة عالية بالنفس . ولكن هذه المسألة ، وهي في بداية تكوين الحزب الشيوعي بدت لفهد وكأنها ضرورية ، ولكنها ليست كذلك ، إذ أنها اتجه في العمل ، أو كما يقول العراقيون "شمره عمل" . وإذا كانت لهذه الطريقة بعض الجوانب الإيجابية في تلافي بعض الأخطاء أو تجاوزها ، فأنها خلقت تقليداً مضرًا في عمل قادة الحزب الشيوعي العراقي مع القاعدة .

كان فهد يبدي اهتماماً خاصاً بالتعرف المباشر والشخصي على الكوادر الحزبية وأعضاء الحزب النشطاء أو حتى مرشحي وأصدقاء الحزب الذين يبذلون فعالية متميزة في نشاطهم أو من يرى فيهم من خلال تقارير الرفاق التحريرية والشفوية المرفوعة عنهم ، فكان ينظم مع هذا الشخص أو ذاك وعبر مسؤوليهم لقاءات للتعرف الأكثر قرباً على الرفيق المعني ، أو كان يرسل رفيقاً آخر من المكتب السياسي لهذا الغرض حسب الظروف المتيسرة . ولم تكن هذه الظاهرة استثنائية مقتصرة على لقاء مع شخص أو شخصين ، بل كانت ظاهرة متكررة شملت عدداً غير قليل من الشيوعيين أعضاء ومرشحين وكوادر في المدن المختلفة . ويمكن أن ننقل هنا ما كتبه ثمينه ناجي يوسف ، زوجة سلام عادل ، في كتابها الموسوم "سلام عادل سيرة مناضل" عن اللقاء الذي تم بين فهد وسلام عادل في بغداد ، إذ جاء فيه بأن سلام عادل رشح لعضوية لجنة المدينة بسبب تميزه بالنشاط ومبادراته ، رغم كونه كان ما يزال مرشحاً لعضوية الحزب ، فجرى الاستفسار من قيادة الحزب في بغداد عن رأيها بهذا الترشيح ، فطلبت قيادة الحزب حضوره إلى بغداد ، فكتبت تقول: "والنتقى (سلام عادل) في بغداد بالرفيق زكي بسيم مسؤول التنظيم الحزبي ، الذي أخذه إلى أحد بيوت الرفاق في الكرادة الشرقية . وكان جالساً في الحديقة الكبيرة لهذا البيت رجل مهيب في الأربعين من عمره . فقدمه زكي بسيم إليه قائلاً لسلام "تكلم مع الرفيق بحرية وأجب عن كافة أسئلته بلا تحرج" . فأخذ الرفيق يسأله عن طبيعة عمل الحزب في الديوانية ، وانطباع معارفه عن الحزب ومشاكل سكان المدينة ، وإمكانيات توسيع العمل العسكري فيها . الخ . حدس سلام ، أن هذا الرفيق لا بد أن يكون فهد ، وقال منتقداً "أظن أنني عرفت شخصيتك الحقيقية فأنت الرفيق فهد ، ولهذا فأنا أستغرب كيف يضيع قائد الحزب وقته ليتحدث مع شخص لا زال مرشحاً في الحزب!" ابتمسم الرفيق فهد وقال له: أولاً إن ظنك ليس في محله فأنا لست الرفيق فهد ، وثانياً أنت أصبحت عضواً في الحزب بصورة استثنائية نظراً لنشاطك وثالثاً لماذا لا يجوز للرفيق فهد الاتصال بالمرشحين ، فالمطلوب منه أكثر من ذلك ، الاتصال بأكثر عدد من الناس مع مراعاة سرية العمل طبعاً ، ليعرف من الناس كيفية حل مشاكلهم" 640 . وكان فهد بطبيعة الحال على حق في هذه القضية وفي العلاقة الضرورية التي يفترض أن تنشأ بين القيادة والقاعدة في الحزب . ويشير الدكتور

640 يوسف ، ثمينه ناجي. خالد ، نزار. سلام عادل سيرة مناضل. في جزيين. ط 1. دار المدى للثقافة والنشر. دمشق. 2001. الجزء الأول. ص 7.

رحيم عجينة إلى حالة من هذا النوع التقى فيها مع زكي بسيم (حازم) في بغداد وهو ما يزال حديث العهد بالعلاقة مع الحزب الشيوعي ، إذ نظم حسين محمد الشبيبي (صارم) لهما هذا اللقاء بناء على طلب زكي بسيم 641 . وكانت تسمح مثل هذه اللقاءات لفهد وقادة الحزب الآخرين باختيار الشيوعيين الذين يتوسمون فيهم القدرة على المشاركة الفعالة والحيوية في حياة ونشاط الحزب ، إضافة إلى تقدير إمكانياتهم القيادية .

ونود في ختام هذه الفقرة أن نشير إلى ظاهرة برزت بعد استشهاد فهد ، ولكنها غير منفصلة عن الفترة والطريقة التي عمل فيها فهد ولا عن تقاليد الحركة الشيوعية العالمية أو المجتمع العراقي ، كما أنها لا تمس فهداً وحده ، بل تمس كثرة من القادة السياسيين في العراق وفي غيره من البلدان .

لعبت شخصية فهد المتميزة دوراً أساسياً في بناء الحزب وتكريسه ، وساهمت طريقة استشهاده في سبيل قضية الحزب والطبقة العاملة العراقية والفكر الشيوعي الذي آمن به ، كما ساعدت ندرة المعلومات والدراسات عنه وعن حياته الخاصة والعامة ، مجتمعة على نشوء حالة خاصة بين قادة وكوادر وأعضاء الحزب ومريديه وبين أوساط الجماعات الشعبية القريبة من الحزب ، أي على نمو شخصية فهد وتحولها إلى شيء قدسي ، إلى شخصية استثنائية معصومة عن الخطأ ، ثم إلى أسطورة استثنائية مقدسة يصعب الاقتراب منها والمساس بها . ورغم وجود دراسات عن مثل هذه الظاهرة في العديد من البلدان الأخرى ، بما فيها ظاهرة ستالين أو غيره في الاتحاد السوفييتي وارتباطها بعبادة الفرد ، فإن علماء الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي قادرون على تقديم دراسات وتحليلات وتفسيرات مفيدة عن هذه الظاهرة بما هو مفيد للحركة الوطنية العراقية في الوقت الحاضر وفي المستقبل . وهي حالة غالباً ما نجدها عند أتباع الديانات المختلفة ، سواء سميت ديانات سماوية أم غير سماوية ، حيث تنشأ تلك الشخصيات الدينية المقدسة من واقع الناس وفي أحلامهم ووعيهم وعبر أفعالهم أو ما نسب إليهم وعبر الآمال التي كانوا يطمحون إلى تحقيقها من خلالهم ، أو بسبب النهايات المحزنة التي انتهوا إليها ، إذ عندها تحاط هذه الشخصية أو تلك بهالة خاصة من القدسية يصعب تجاوزها . ولعبت عوامل كثيرة في نشوء هذه الظاهرة في العراق وفي غيره أيضاً . ويمكن أن تنشأ تلك الشخصيات بفعل الناس البسطاء أنفسهم أو بفعل وتأثير المؤسسات الدينية ذاتها لتساهم في تعزيز دورها في حياة الناس والمجتمع عموماً . فحالة الاحترام والتقدير والحب لهذا الشخص أو ذلك من الأولياء الصالحين ، أو أولئك الذين كانوا يعملون في القضايا العامة ويقدمون الكثير من الخدمات لجماعات معينة أو لمجتمع معين أو لدين معين أو لقضية معينة أو لفكر معين ، يمكن أن تتحول ، في ظروف وأوضاع معينة ، إلى حالة من التقديس لهذه الشخصية أو تلك . وكثيراً ما تفقد مثل هذه الحالة إلى استخدام مشوه لهذه الشخصيات بما يسيء لها أكثر ما يفيدها ، ويبتعد بها عن طبيعتها وسماتها الفعلية .

ويصعب غالباً الوقوف بوجه تطور هذه الحالة ، إذ أن هناك من يستفيد منها بأدوات وسبل كثيرة ولأغراض عديدة . وليست هذه الظاهرة جديدة على الشعوب ، إذ أنها برزت منذ القدم ونمت وتطورت عبر القرون المنصرمة وشجعت على نموها المؤسسات الدينية ذات المصلحة المباشرة بتكريسها . وغالباً ما توضع هذه الشخصية أو تلك في موقع النموذج أو القدوة التي يفترض أن يحتذى بها أو الشخصية التي يمكن أن تمنح الآخرين البركة أو يغفر لهم ذنوبهم وخطاياهم ، أو لتحقيق ما يرجونه من آمال وطموحات ، أو ما يقربهم إلى الله ورسوله ،

باعتباره ولياً صالحاً وقريباً من الله . ورغم أن هذه الحالة الأخيرة لا تنطبق على الأحزاب والجماعات العلمانية ، إلا أنها استخدمت وما تزال تستخدم من بعضها باتجاهات ثلاث ، وهي:

- تقديمه كنموذج وقدوة للآخرين في تمسكه بالمبادئ أو العقيدة أو الإيديولوجية التي آمن بها وعمل من أجلها وربما ضحى في سبيلها ، بحيث يمكن تعبئة المزيد من المريدين حول الحزب أو الجماعة التي كان يعمل في صفوفها؛
- الاستفادة من دوره لتأكيد أهمية الحزب الذي ضم في صفوفه أو كان على رأسه مثل هذا القائد الشجاع والشخصية الشعبية المحبوبة؛
- التغطية على النواقص والعيوب أو الأخطاء التي يرتكبها هذا الحزب أو ذلك أو الجماعات المختلفة في المراحل التي تلي وفاة هذه الشخصية أو تلك من خلال التمجيد بمكانته التاريخية ودوره ومنجزاته ، أي العيش على تراث ومنجزات هذا الشخص .

وجدير بالإشارة إلى أن استخدام هذه الظاهرة لا يقتصر على حزب واحد دون غيره ، ولا على بلد واحد دون غيره ، بل هي ظاهرة عامة رافقت نشاط الجماعات والأحزاب أو القوى الدينية عموماً من جهة ، والقوى اليسارية والثورية ، ومنها الأحزاب الشيوعية والعمالية وأحزاب البرجوازية الصغيرة على نحو خاص من جهة أخرى . في حين لا نجد هذه الظاهرة بشكل صارخ بالنسبة إلى الأحزاب البرجوازية الليبرالية إلا في حدود ضيقة .

وإذا كانت هذه الحالة في إطار الأديان قديمة ومعروفة للجميع ، رغم وجود خلافات حولها أيضاً ، فأنها تعتبر غير سليمة وبعيدة عن مضمون الفكر العلمي والعلمانية في الرؤية إلى العالم ودور الأشخاص في المجتمع في المراحل المختلفة التي يمرون بها . وعلينا أن نشير ابتداءً إلى أن هناك مسألتين يفترض أن لا ننساها عند البحث في شخصية فهد ، وهما:

أ . الموروث الشعبي العراقي وموروث الشعوب المجاورة وكذلك الأديان التي لعبت دورها في حياة الناس في هذه البلدان؛

ب . التقاليد التي أوجدتها أو طورتها الحركة الشيوعية العالمية بشأن الشخصيات المتميزة والقائدة فيها وما انتهت إليه في الممارسة العملية من عبادة الفرد . والأمثلة على ذلك في كل الأحزاب الشيوعية في مختلف أنحاء العالم .

وخلال نصف قرن من السنين اتخذت شخصية فهد هذا المنحى الذي يذكرنا بشخصيات أخرى في الحركة الشيوعية العالمية وفي الموروث الشعبي العراقي . ففي هذه الواجهة التقديسية نشأت خشية عامة وحساسية شديدة من أي تعرض بالنقد لفهد أو ما يمكن أن يعتبر بشكل ما إساءة إلى شخصه أو إلى الأفكار التي طرحها والسياسات التي مارسها والحزب الذي ساهم بقسط أساسي في بنائه وتكريسه في الساحة السياسية العراقية ، وبالتالي أصبح فهد نموذجاً وقدوة لكل المناضلين الشيوعيين ، قادة وقواعد ، الذين جاءوا من بعده . وكان ما يأتي من نقد بهذا الاتجاه يعتبر من معسكر الأعداء لا غير . وبالتالي نشأ حاجز نفسي وسياسي كبير أمام الشيوعيين للقيام بدراسة نقدية معمقة وموسعة عن حياة فهد ودوره وسياساته ومواقفه . وهو ما يفترض كسره لصالح فهد والحزب والحركة الوطنية العراقية ، لا باتجاه الإساءة لفهد أو الحزب الشيوعي العراقي وتاريخه النضالي ، بل في سبيل استيعاب كل ذلك وتحويله إلى دروس تنفع المجتمع للابتعاد عن كل ما هو غير علمي وغير علماني في الحركة الديمقراطية عموماً والحركة اليسارية خصوصاً في العراق وفي البلدان العربية الأخرى . وهذا يعني أن علينا أن نعمل من أجل وضع فهد في الموقع الصحيح دون مبالغة ودون رفعه إلى مستوى العصمة عن الخطأ ، أو فوق البشر ، كما كان العراقيون القدامى يفعلونه بملوكهم باعتبار

نصفهم من الآلهة ونصفهم الآخر من البشر ، أو كما يفعل أتباع الأديان بأوليائهم الصالحين أو بشخصية بوذا المحبوبة على صعيد البوذيين في سائر أنحاء العالم . وعند المتابعة الموضوعية والواعية خلال أكثر من نصف قرن منصرم بالنسبة إلى شخصية فهد ، سيجد الإنسان بأنها قد تحولت إلى شخصية معيارية أو محكاً ومقياساً لكل المناضلين الشيوعيين الذين جاءوا من بعده ، وخاصة بالنسبة لمن احتلوا موقع القيادة في الحزب ، بغض النظر عن الظروف والشروط التي برز فيها هذا الشيوعي أو ذلك في المراحل المتباينة من حياة الحزب ونضاله . فكانت المقارنة بين فهد ومن أتى من بعده في غير صالح الجديد دوماً ، إذ أن القيادات والقواعد ، الأعضاء والأصدقاء والمريدين ، قد صنعوا من قاندهم الشهيد أسطورة ونموذجاً يصعب الحصول على مثيل له ، إذ ليس في الإمكان أبدع مما كان ولا شك في أن الإنسان الفرد لا يتكرر مرتين ، وبالتالي ، كان كل من أتى من بعده لا يعدو شيئاً بالمقارنة مع فهد . ولكن هذه الحالة شكلت وجهاً واحداً من العملة ، إذ أن الوجه الثاني منها شكل تلك القدسية التي ينبغي لها أن تمنح بالضرورة لقائد الحزب ، ذلك الاحترام والتبجيل والتقدیس لذلك البعض الذي جاء من بعده . وهذه الحالة هي التي عاشتها الحركة الشيوعية في العراق في أعقاب استشهاد فهد ، وأن كانت لفترة معينة ، كما حصل مع بهاء الدين نوري أو حميد عثمان ، أو بحدود معينة ولفترة معينة مع عزيز محمد . إن التجارب المنصرمة تشير إلى أن الحزب قد عاش الحالتين معاً بعد استشهاد فهد ، وكانت في كل الأحوال مضرّة .

ولا شك في أن قيادة الحزب الشيوعي العراقي ومعاهد البحث العلمي والعديد من الباحثين في الحياة السياسية العراقية تتحمل جزءاً من المسؤولية في هذا الصدد ، إذ أنهم لم يبدأوا في وقت مبكر بدراسة فهد وتقييم حياته ونشاطه ودوره . ولكن واقع السياسات الاستبدادية والأوضاع الإرهابية المستمرة خلال العقود المنصرمة تتحمل هي الأخرى جزءاً مهماً وأساسياً من مسؤولية تخلف أو قصور عملية التحري والبحث والوصول إلى مصادر المعلومات الضرورية لمثل هذه الدراسات .

إن الإشارة إلى أن القوى السياسية العراقية تتحمل جزءاً من مسؤولية ضعف وقلة البحث في الأحداث والشخصيات السياسية والاجتماعية والأدبية والعلمية العراقية لا ينبغي إدانتها بقدر ما يريد تأكيد حقيقة واقعة تستند إلى الجهود الضئيلة جداً التي بذلت على هذا السبيل ، وأن دراسة هذه الشخصية الوطنية والشيوعية العراقية وشخصيات وأحداث عراقية كثيرة أخرى مثلاً ، كان في مقدورها أن تلعب دوراً مهماً وملموساً في الحياة السياسية العراقية خلال نصف القرن الماضي ، رغم توفر فرص كبيرة لدراسة حياة فهد وغيره أمام عدد كبير من الدارسين العراقيين من شيوعيين وغير شيوعيين ، من مؤيدين ومعارضين ، في العراق أو في الخارج ، وبشكل خاص في البلدان الاشتراكية خلال الفترة الواقعة بين 1960-1990 . ومثل هذا الموقف يمكن أن يفسر باتجاهات مختلفة دون التيقن من أحدها ، ولسنا بمعرض البحث فيها . ولكن مثل هذا الموقف يعبر ، بعيداً عن أي تفسير سلبي ، عن نقص وعجز وعيب عام وخشية لدى الباحثين العراقيين والأحزاب السياسية العراقية ليس بالنسبة إلى دراسة شخصية ونشاط وحياة فهد فحسب ، بل وبالنسبة إلى الكثير من الشخصيات العراقية التي لعبت أدواراً مهمة في السياسة العراقية على مدار النصف الأول من القرن العشرين 642 .

642 كانت الدراسة القيمة والطليعية التي قدمها الأستاذ الدكتور حنا بطاطو حول المجتمع العراقي وأحداثه وأحزابه ، بنيتة وتناقضاته وصراعاته واتجاهات تطوره ، ذات أهمية فائقة للباحثين من بعده ، سواء في المنهجية العلمية التي استخدمها في بحثه أم في الصدقية التي سعى لأن يكرسها ويجسدها في تحليلاته ، أم وعيه بالمسؤولية الكبيرة التي أخذها على عاتقه لإنجاز مثل هذه الدراسة . وخصص حيزاً كبيراً ومهماً لنشاط الحزب الشيوعي العراقي في كتابه ، كما قدم ملاحظات مهمة عن شخصية فهد مستقاة

وخلال الأعوام القليلة المنصرمة نشرت مجموعة من الدراسات المهمة حول بعض الشخصيات السياسية العراقية والتي يفترض أن تكون فاتحة للمزيد منها لإغناء المكتبة العراقية والعربية بهذه النتاجات المهمة . إذ أن البحث في الأحداث والأشخاص يساعد بدوره على تنشيط الحوار وبلورة وجهات النظر المستندة إلى الوثائق أو المعلومات الموثقة ، والتباين في تحليلها أو قراءتها والخروج باستنتاجات واجتهادات متوافقة أو مختلفة ، يسهم كل ذلك في تعميق الوعي بأحداث ومواقف وسياسات الأحزاب ودور المسؤولين فيها ، إضافة إلى تحسين مستوى الحوار والفهم المتبادل لأحداث تلك الفترات والعوامل التي تسببت بها . كما أنها تطرح تجارب غنية خاضها المجتمع العراقي خلال العقود المنصرمة يمكن أن تنفعه في نضاله الراهن وفي مستقبل مسيرته نحو حياة أفضل .

إن الأفكار والتقييمات والاستنتاجات التي قدمناها في هذه الفقرة من البحث لا تعدو أن تكون محاولة نقدية مكثفة ، من الناحيتين الإيجابية والسلبية ، عن هذه الشخصية الوطنية والشيعية العراقية التي تميزت بالحركة العالية والدأب ، شخصية فهد ، إذ ربما ستساهم في فتح شهية الآخرين لمزيد من التحري والبحث والتدقيق بهدف الخروج بدراسات جديدة أكثر عمقاً وتحليلاً وشمولية عن حياة فهد وحياة غيره من الشخصيات السياسية والاجتماعية والثقافية والعلمية العراقية التي ارتبطت بحياة ونضال الشعب العراقي .

---

من الجماعات الذين أشرنا إليهم والذين عبروا فيها عن انطباعاتهم عن فهد ، ولكنها بحاجة إلى إغناء وتوسيع من خلال معرفة أكبر بتفاصيل من حياته الشخصية ذات العلاقة بنشاطه الفكري والسياسي والتنظيمي ، والتي لم نتوصل إليها في ما نكتبه عن فهد في هذا البحث. ونأمل أن يكون هذا الكتاب خطوة أخرى على هذا الطريق.

## الخلاصة

إن الدراسة التي نقدمها ونطرحها للحوار تتضمن وجهة نظر خاصة بالباحثين ، وليس هناك من جهة أو شخص آخر مسؤول عنها . فهي اجتهادات توصل إليها الباحثان في ضوء نشاطهما السياسي على امتداد فترة تتراوح بين أربعة وخمسة عقود في الحركة الشيوعية العراقية وفي صفوف اليسار الديمقراطي العراقي والحركة الوطنية العراقية حتى الآن . والمحرك الرئيسي لهذه الدراسة استخلاص الدروس المناسبة ، كما يراها الباحثان ، التي يمكنها المساعدة على مواصلة المسيرة النضالية في العراق في سبيل الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان ، من أجل التنمية والتقدم الاقتصادي والاجتماعي والعدالة الاجتماعية ، إنها المفردات ، أو بتعبير أدق ، المقولات ذات المضامين المتشابهة والمتلازمة والمتفاعلة في ما بينها والتي يصعب فصل بعضها عن البعض الآخر . إذ أن أي فصل بينها يقود إلى اختلالات شديدة في المجتمع وإلى ما عشناه في التجارب "الاشتراكية" المنصرمة أو ما تعيش في ظلها البشرية منذ قرون طويلة من نظم استغلالية ، وآخرها النظام الرأسمالي ، الذي ما تزال تعيش البشرية تحت فعل قوانينه ووطأة سياسات شركاته الاحتكارية المتعددة الجنسية وفي إطار سياسات العولمة التي تمارسها حكومات الدول الرأسمالية الأكثر تقدماً وتطوراً في العالم حتى الوقت الحاضر . إن هذه الاجتهادات مطروحة للنقاش والحوار الموضوعي الهادف إلى تعميق الوعي والرؤية بالماضي وبالسياسات والمواقف التي تم انتهاجها وممارستها ، وبالتالي ، من أجل فهم واستيعاب الحاضر ووضع سياسات ومواقف للحاضر والمستقبل ، سياسات يفترض أن تأخذ بنظر الاعتبار دروس الماضي الغنية ، دون أن تعيش الماضي في الحاضر ، إذ بخلافه تتحول إلى قوى تمارس سياسات سلفية مقيتة وميتة وبعيدة كل البعد عن الحياة وحركتها الدائبة والمتغيرة أبداً ، فليس هناك من سياسة قديمة ومحرمة ومؤثرة ما لم تستند إلى وقائع وتجارب ودروس الماضي ، شرط أن لا تنتحلها أو تحاول عبر استعادتها إعادة إنتاجها ، ولكن بصورة مشوهة وغير قابلة للحياة بهدف ممارستها في الحاضر وتبكي أو تتباكى على الأمجاد الفارطة والأطلال الحبيبة الخاوية (فقا نبكي) كما عبر عن ذلك فهد نفسه ، لتتسى حاضرها المؤلم والبائس ، ولا تفكر بمستقبلها .

إن هذه الدراسة لا تدعي ، كما لا يحق لها أن تدعي أنها قدمت لوحة متكاملة عن الموضوع الذي بحثت فيه ، ولكنها ستبقى إحدى المساهمات الجادة على هذا الدرب الوعر ، درب البحث العلمي الموضوعي والنقدي الهادف ، حيث حاول الباحثان أن يبدأ بشروط جديد من أجل دراسة شخصية سياسية لعبت دوراً مهماً وكبيراً في حياة العراق السياسية وأجيال من الشيوعيين والتقدميين والديمقراطيين العراقيين ، وفي حياة ونشاط العمال والفلاحين والمثقفين وفئات البرجوازية الصغيرة الأخرى ، أو في المجتمع العراقي عموماً ، وهو يستحق منا كل تقدير واحترام ودراسة موضوعية لبلورة بعض جوانب دوره الفكري والسياسي والتنظيمي في الحياة العامة والسياسية في العراق . ولا شك في أن دراسات أخرى ستساهم في إغنائه وتعميق مختلف جوانبه وتعديل ما يتطلب التعديل والتصحيح في ضوء معطيات ووثائق ومعلومات جديدة يتوصل إليها الباحثون لاحقاً .

عند استعادتنا وتقييمنا لهذه الفترة من نشاط ودور فهد في النضال السياسي العراقي عمدنا إلى أخذ ظروف تلك المرحلة وتعقيداتها ومصاعب تبني ونشر الفكر الماركسي في العراق ومستوى تطور القوى المنتجة في مرحلة هيمنة العلاقات الإنتاجية الأبوية والعلاقات الإنتاجية شبه الإقطاعية والبدائيات الخجولة والبطينة لولوج علاقات الإنتاج الرأسمالية في الاقتصاد العراقي في ظل الهيمنة الأجنبية البريطانية والرأسمال الاحتكاري الدولي بنظر الاعتبار . كما أولينا انتباهنا إلى المستوى الفكري والثقافي العام للشعب وقواه السياسية حينذاك ، إضافة إلى قناعتنا بأن الحزب الشيوعي لم يكن حراً تماماً في بعض مواقفه ، بسبب علاقاته والتزاماته الأممية المعروفة ، باعتباره عضواً في الأممية الثالثة . إذ كانت عضوية الأممية الشيوعية الثالثة تفرض على هذا الحزب الشيوعي أو ذاك مجموعة من الالتزامات الفكرية والسياسية التي لا يجوز الإخلال بها أو تجاوزها ، إن أراد هذا الحزب الماركسي-اللينيني أو ذاك البقاء في عضويتها .

استعان فهد في مجمل نشاطه السياسي والاقتصادي والتنظيمي ، النظري والعملية ، بالمنهج العلمي ، المادي الديالكتيكي والمادي التاريخي ، بالفلسفة المادية أو الماركسية . واستند في ذلك إلى المفهوم الماركسي القائل بأن المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية تشكلان الأساس العلمي الذي يمكن من خلالهما فهم عملية تطور الحركة الثورية ، الأمر الذي يمكن التوصل إليه من خلال رسم استراتيجيات وتكتيك الحزب الماركسي-اللينيني ، بعد أخذ الظروف التاريخية الملموسة بصورة علمية بنظر الاعتبار<sup>643</sup> . حاول فهد ونجح إلى حد بعيد في رسم استراتيجيات وتكتيك صائبين للحزب الشيوعي العراقي في إطار المرحلة التي عاش وعمل فيهما ، ولكن هذا لا يعني بأن الممارسة كانت ناجحة تماماً كما في وضع الاستراتيجيات والتكتيك .

لم يكتب فهد مواضيع فلسفية بحتة ، بيد أنه عالج وحل المشاكل الاجتماعية والأوضاع السياسية والاقتصادية في ضوء قراءته لأسس الفلسفة الماركسية-المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية- وحاول بذلك إيجاد وحدة بين النظرية والتطبيق في إطار المصادر المتوفرة لديه حينذاك وفي ضوء قراءته لها . ففي كراسه: "حزب شيوعي ، لا اشتراكية ديمقراطية" ، عمد فهد إلى تحليل مسألة نشوء الحزب حيث كتب يقول: "التنظيم إذن هو من أسس القضية وليس بجوهرها وهو ضرورة تاريخية لكل مرحلة تاريخية من مراحل حركتنا للوصول إلى الهدف النهائي ، فباستطاعتنا أن نقول أن التنظيم "الحزب" غاية ووسيلة ، كقولنا إن "الحركة حقيقة مطلقة طالما\* توجد مادة"<sup>644</sup> . ويواصل فهد في الصفحة التالية قوله: "إن التنظيم يتطور وينمو ويتكامل وفق سنة الديالكتيك ، كلما تطورت الحركة وتكاملت وهو ككل شئ في الكون وفي المجتمع متحرك وغير منفصل عن الظروف المحيطة به"<sup>645</sup> . ويشير فهد إلى أن المصدر الأساسي الذي أعتمد عليه في هذا المجال هو كتاب ستالين: "المادية الديالكتيكية والتاريخية" الذي كان آنذاك مقرراً في المدرسة الحزبية .

ابتعد فهد عن أسلوب الكتابة المجردة المباشرة ومارس أسلوب ضرب الأمثلة البسيطة في كتاباته العامة وفي المحاضرات التي كان يلقيها في السجن . ويبدو أنه بدأ بانتهاج هذا

643 Fiedler, F. und andere. Dialektischer und Historischer Materialismus. Berlin. 1976. S. 177 f.

\* الموضوع الماركسية تقول: المادة وحركتها هما الحقيقة المطلقة . والمادة أزلية لا بداية لها ولا نهاية. التغيرات تحصل في أشكالها فقط. لذلك فإن استخدام كلمة (طالما) هنا غير علمي ، إذ أنها توحي كما لو أن المادة ستنتهي ذات يوم. إذ الأصح القول أن "المادة والحركة هما حقيقة مطلقة" ، أو أن الحركة حقيقة مطلقة، وكذا المادة".

644 فهد. المؤلفات. حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية. ص 35.

645 نفس المصدر السابق. ص 36.



الأسلوب في بداية الأربعينات ، حين بدأ بتكثيف التثقيف الإيديولوجي ومتابعته بنفسه مباشرة ، وذلك من أجل تكريس الأسس اللينينية في الحزب ، ولا سيما مسائل مثل "دكتاتورية البروليتاريا والمركزية والطاعة الحزبية . . " . ويجد الإنسان 646 تأثير المادية التاريخية على تفكير فهد في تحليله للمجتمع العراقي ، إذ انطلق من مستوى تطور القوى المنتجة ، قوة العمل وأدوات ومواد العمل ، وطبيعة علاقات الإنتاج ، التي بدأت في حينها تأخذ مساراً جديداً مع الغزو الإمبريالي ، الذي جاء كعامل خارجي لإدخال العراق والمشرق بشكل عام إلى عالم الرأسمالية أو العصر الحديث . يقول فهد: "إن العراق يشكل إنتاجه الزراعي المتغلب ليس القطر الرأسمالي ، لكنه في نفس الوقت قطر ينتج البضاعة للسوق العالمية المحكوم سياسياً واقتصادياً من قبل الإمبرياليين العالمي وشركائه ، يضاف إلى هذه ، التناقضات الناجمة عن الحالة الدولية وعن النضال الطبقي المحلي" 647 . ثم يواصل استكمال الفكرة عن العراق بقوله: "فهو ليس غير مستقر فحسب ، بل مبتلى باستثمار مركب أجنبي ووطني ، وبعبوديات جميع المجتمعات الطبقيّة التي عانتها وتعانيها البشرية" 648 .

وفي التقرير المقدم إلى اجتماع اللجنة المركزية في كانون الأول/ ديسمبر 1942 ، يلمس المرء التفكير الديالكتيكي عند فهد بوضوح ، إذ يطالب فهد رفاهه بمعالجة الأمور ككل موحد ، وربط أحوال البلاد الداخلية بالأوضاع العالمية الراهنة ، فلا يمكن معالجة : "جزء من هذا الكل إلا بعد دراسة جميع الأجزاء من حيث تأثيراتها المتبادلة ومن حيث مظاهرها بعضها ببعض" 649 . وتمكن فهد ، من خلال تطرقه إلى بعض الأمثلة التاريخية المأخوذة من ألمانيا وإيطاليا في مسيرتهما ضمن حركة تاريخ العالم وأخذ تاريخ الحركة العمالية العالمية بنظر الاعتبار ، نقول تمكن أن يحرك ويحفز نوعاً من الوعي الطبقي في صفوف الطبقة العاملة العراقية . وحاول أيضاً أن يحقق وحدة ديالكتيكية بين النضال ضد الحكومة من جهة ، وتأييد خطواتها التقدمية من جهة أخرى ، وفي نفس الوقت كان يرى ضرورة دمج العمل العلني بالسري ويحذر رفاهه "من خطر الوقوع في حظيرة اليمين أو اليسار" 650 .

إن دراستنا لدور فهد في حياة الحزب الشيوعي العراقي ونضاله تشير إلى أنه طبع فكر وعمل هذا الحزب بالعديد من السمات التي تميزت بها الحركة الشيوعية العالمية حينذاك والخصائص التي تميز بها فهد نفسه . فقد لعب الحزب الشيوعي العراقي بقيادة فهد خلال الفترة موضوع البحث دوراً ريادياً متميزاً بالنسبة إلى عدد من المسائل الجوهرية ، التي يصعب على كل منصف في الحركة الوطنية العراقية أن يحجبها عنه أو يتناساها ، رغم المشكلات المعقدة والعلاقات المتوترة بين القوى السياسية العراقية بشكل عام ، ولم يكن هذا ممكناً لولا استخدام الحزب للمنهج العلمي المادي الديالكتيكي والمادي التاريخي أو المنهج الماركسي في معرفة الواقع وصياغة مهمات التغيير الممكنة والمساهمة في النضال . وبرز دور فهد وقيادته للحزب بشكل خاص في الاتجاهات التالية:

1. الدور المهم والتنويري للحزب في إيصال الفكر الاشتراكي الماركسي والديمقراطي إلى العراق ونشره على نطاق واسع ، وفي بلد كان التخلف والجهل يضرب أطنابه في أرجاء البلاد ، وفي بلد كان الدين يلعب دوراً مهماً وكبيراً في حياة الناس ، إضافة إلى وجود أناس كانوا

646 يستخدم الباحثان كلمة الإنسان بدلاً من المرء، إذ أن كلمة الإنسان تعبر عن المرأة والرجل في آن واحد، في حين أن كلمة المرء تعبر عن الرجل فقط.

647 نفس المصدر السابق. ص 94.

648 نفس المصدر السابق. ص 95.

649 نفس المصدر السابق. ص 398.

650 الشرارة. العدد 10. بغداد. 1942.

يتاجرون بالدين ويزرعون الخيبة والهروب من الواقع في صفوف الناس . وبالتالي ، فإن الحزب الشيوعي العراقي شارك مشاركة مهمة وحيوية وكبيرة في العملية التنويرية وفي نشر الوعي السياسي الوطني والوعي الاجتماعي في صفوف الشعب عموماً ، والكادحين منه على وجه الخصوص . وفي هذه العملية المعقدة والصعبة كسب الحزب إلى صفوفه مجموعة خيرة من علماء الدين وطلاب المدارس الدينية أيضاً ، سواء كان ذلك في مدينة النجف والكوفة وكربلاء وبغداد والكاظمية أم في أربيل والسليمانية ، أم في غيرها من المدن العراقية ، أو أنها منحتة تأييدها ومساندتها في النضال الذي كان يخوضه . وكان الحزب الشيوعي العراقي ، وبعد مرور منات الأعوام ، أحد أبرز الحركات الفكرية والسياسية والاجتماعية التي واصلت التراث النضالي لحركتي القرامطة وثورة الزنج السياسية والاجتماعية ونضال مختلف الجماعات والأفراد للخلاص من العبودية والاستغلال والتسلط على امتداد تاريخ العراق المنصرم ، كما كان أحد المعبرين عن آمال وطموحات كل الذين طالبوا بالحرية والعدالة الاجتماعية وناضلوا ضد الظلم والجور والإرهاب والاستبداد في العراق . ننتذكر معاً بأن دولة القرامطة في البحرين رفعت في حينها على مدخل المدينة شعاراً أساسياً كتب عليه ، كما يقول الرحالة والمؤرخ الإيراني ناصر خسرو وغيره ، " لا طعام لمن لا يعمل " ، ولكنها استثنت من ذلك المرضى والعجزة والمقعدين والمسنين والأطفال من هذه القاعدة . وكانت الكوفة والمناطق المحيطة بها وكل الوسط والجنوب منطلقاً ومسرحاً لهذه الحركة التي حاول الكثيرون الإساءة إليها ، لا لأنها ارتكبت الكثير من الأخطاء القاتلة أيضاً ومارست العنف المضاد لمواجهة العنف والعسف الذي نزل في أعضائها وأتباع حركتها ، وهو ما تؤاخذ عليه ، بل بسبب مطالبتها بالعدالة الاجتماعية ومحاربة الفساد ولاتهامها بالكفر والهرطقة والزندقة؛

2. ساهم الحزب مساهمة حيوية في النضال المناهض للاستعمار والهيمنة على العراق وضد استغلال ونهب موارده الاقتصادية ومن أجل الحرية والسيادة والاستقلال الوطني والديمقراطية؛

3. وكان للحزب الشيوعي العراقي دور كبير في تعبئة وتنظيم جمهرة كبيرة من مثقفي العراق ، من أدباء وشعراء وكتاب وصحفيين وفنانين تشكيليين وموسيقيين ومغنين ، وعلماء اجتماع واقتصاد وقانون وطب وطلبة ، وتنشيط الحياة الثقافية والسياسية العراقية والدفاع عن القضايا الوطنية . وشارك الحزب الشيوعي ريادياً في إدخال الثقافة التقدمية وساهم في خلق أجواء نضالية جديدة وحرك الحياة الاجتماعية والشارع وعباً جماعات كثيرة في المدينة والريف للمشاركة في الحياة السياسية حينذاك ، إذ أنها لم تكن معهودة كما لم تكن تقليدية؛

4. وكان للحزب الشيوعي دور واضح في بلورة ونشر واقع الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العراق وفي صياغة وتبني السياسات والشعارات الصائبة والفعالة وفق المنهج المادي الديالكتيكي والمادي التاريخي غير المعهود في العراق أيضاً حتى ذلك الحين؛

5. كما لعب الحزب الشيوعي دوراً مهماً وحيوياً في بلورة وصياغة سياسات ومواقف مهمة في القضايا القومية ، العربية منها والكردية ، وكذلك بالنسبة للأقليات القومية المختلفة ، وفي تأكيد دور وأهمية التضامن والأخوة والنضال المشترك إلى جانب الحق في تقرير المصير واحترام الحقوق المشروعة للأقليات القومية وغيرها ، كما كان له الدور البارز في تعميق روح التضامن الأممي بين الشعوب والمضطهدين في وعي العراقيين وممارساتهم اليومية .

6. وكان للحزب الشيوعي دوره البارز والمتميز في طرح فكرة العلمانية في الحياة السياسية والاجتماعية العراقية ، فكرة فصل الدين عن الدولة ، مع الالتزام الكامل باحترام جميع الأديان والطوائف الدينية دون استثناء وفسح المجال لأتباعها بممارسة طقوس دياناتهم المختلفة بكل حرية وبعيداً عن تدخل الدولة بشؤون تلك الأديان والطوائف الدينية أو تدخل الأديان والطوائف بشؤون الدولة .

لقد كان الحزب الشيوعي العراقي ظاهرة جديدة في حياة المجتمع العراقي ، ظاهرة سرعان ما هضمتها وتفاعلت معها أوساط غير قليلة من الشعب العراقي ، وبالتالي ، فرضت وجود الحزب كحقيقة واقعة لا يرقى إليها الشك . ولعب الاستعمار والحكومات المتعاقبة دوراً مهماً في تعميق هذه الظاهرة في المجتمع بسبب الطريقة التي مارستها تلك القوى في مكافحة الحركة الوطنية ، وبشكل خاص الحزب الشيوعي العراقي ، الذي بقي ، كما في حركة القرامطة والحركات الفكرية المعارضة على امتداد تاريخ العراق ، حركات سرية ، ولكنها كانت تعمل في وسط الشعب ومعه ولم تتخل عنه في أصعب وأعقد الظروف والملامات . وكان هذا أحد الأسباب المهمة أيضاً في ذلك التقدير الذي حظي به الحزب وفهد في أوساط الشعب ، وأجبر حتى المناهض له على الإشارة إليه والاعتراف به .

ولكن هل كانت هذه الخصائص الإيجابية والنشاطات الواسعة والاستمرارية في النضال خالية من الأخطاء والنواقص والتجاوزات؟ لا يمكن ذلك ولا يجوز أن ندعيه لا للحزب الشيوعي العراقي ولا لأي حزب أو حركة أو مناضل . إن الإجابة عن هذا السؤال ليست سهلة وليست دون إشكاليات في الوقت نفسه . ومع ذلك فلا بد من البحث فيها وإبداء رأي أولي بشأنها وترك الحكم عليها لحصافة وتقدير القارئة والقارئ .

إن هذه الاتجاهات المشرقة في تاريخ الحزب الشيوعي العراقي في فترة قيادة فهد للحزب لم تكن دون أخطاء وسلبيات وأضرار . ولم يكن سهلاً تشخيصها حينذاك ولا بعد ذلك ولفترة طويلة لاحقة ، رغم أنه وجد من انتقد فهد والحزب في تلك المرحلة بطبيعة الحال ، سواء كانوا من أعضاء الحزب ، أم ممن كانوا في إطار الفكر الماركسي ، أم من أطراف وشخصيات في الحركة الوطنية العراقية . ولم يكن السبب في عدم تشخيصها من جانب الشيوعيين العراقيين ضعف الوعي بها ، خاصة بعد مرور هذه السنوات الطويلة ، بل كانت الخشية من هذا التاريخ المشرق ، والخوف من مس الهالة التي أحيطت بالرقيق فهد وبقيادته للحزب واحتمال الإساءة لهما دون قصد ، ومن ثم الخشية من الروح الاتهامية ، التي هي إحدى صفات المؤمنين عموماً بغض النظر عن دينهم وعقيدتهم أو النظرية العلمانية التي يؤمنون بها . ولم يكن هذا الموقف سليماً ولا يعبر عن جرأة المناضلين في تشخيص الأخطاء حال إدراكها . ويبدو لنا بأن الحركة الوطنية العراقية ، ومنها الحزب الشيوعي العراقي ، هي اليوم بأمر الحاجة إلى دراسة وتقييم وتقويم الماضي من أجل السير بخطوات أكثر قوة ورجاحة في الحاضر وصوب المستقبل . إننا جميعاً بحاجة إلى تشجيع الدراسات الموضوعية النقدية والهادفة إلى فهم وتحليل الماضي واستخلاص دروسه للحاضر والمستقبل . مرت حتى الآن خمسة عقود على استشهاد القائد الشيوعي والشخصية الوطنية البارزة يوسف سلمان يوسف (فهد) ، ومن حقه وحق المناضلين الآخرين على الجميع ، أن تتكثف وتتسع الدراسات المعمقة لهذه الفترة من حياة العراق وحياة الأحزاب والمناضلين بصورة موضوعية ولصالح الحركة الوطنية العراقية والعلاقات الديمقراطية في ما بين الأحزاب العراقية .

لم يكن الحزب الشيوعي العراقي وحده يواجه بعض المصاعب الجدية في إطار الحركة الشيوعية العالمية ، بل شاركتها جميع الأحزاب الشيوعية في العالم ، التي كانت لها علاقات بالحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي والأممية الشيوعية ، أي بالمدرسة الماركسية-اللينينية ، ومن ثم بالمدرسة الستالينية . ويبدو لنا بأن من حق الجميع أن يناقشوا اليوم هذه المسائل بحيوية عالية وبحرية تامة ومسؤولية كبيرة ودون تعقيدات أو تقييدات وخرج أو تردد ، إذ أن الهدف منها استخلاص الدروس من الماضي غير البعيد ، من الماضي الذي ما يزال يعيش في الذاكرة ، الماضي الحاضر في الفكر والممارسة والموجه لهما أحيانا غير قليلة ، الماضي الذي تولهه وتتمنى عودته نسبة غير قليلة من الشيوعيين ، هذا الحنين إلى الماضي الذي لا ولن يعود ، ولكن في مقدوره أن يكون بدروسه نافعا للحاضر والمستقبل . وتزداد حاجة الإنسان وحنينه إلى الماضي عندما يعيش أوضاعاً أكثر صعوبة وأكثر تردياً في مختلف المجالات .

إن الإشارة إلى كون الحزب الشيوعي العراقي كان جزءاً من حركة شعبية وثورية واسعة تهدف أيضاً إلى القول بأن جملة من الملاحظات التي ترد على سياسات الماضي ترتبط عضويًا بتلك الالتزامات الأممية التي وضعت على عاتق الحزب الشيوعي العراقي ، مثلما وضعت على عاتق بقية الأحزاب الشيوعية والعمالية ، والتي ربما كانت سبباً مباشراً أو غير مباشر موضوعياً في عدد من الإشكاليات التي نريد الإشارة إليها ، بغض النظر عن قناعة أم عدم قناعة الذين التزموا بها ومارسوها حينذاك . وفي ضوء ذلك سنحاول الإشارة المكثفة إلى عدد من الملاحظات التي وردت في متن الدراسة والتي نلخصها هنا بهدف إثارة الحوار حولها ، ومنها على نحو خاص ما يلي:

• الخلل في النقل الميكانيكي ، وكشرط ملزم أملتته الأممية الثالثة ، عند تسمية الحزب وفي اختيار أساليب عمل الحركة الشيوعية ووجهة نشاطها ومحاور ذلك النشاط الأساسية في كل بلد ينشأ فيه حزب يتبنى تلك الأفكار أو النظرية الماركسية-اللينينية ، ثم الالتزامات الثقيلة التي فرضت على الأحزاب الشيوعية من أجل قبولها في الأممية الثالثة والتي لم تكن في كل الأحوال تنسجم مع واقع العراق الملموس ومستوى تطوره الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والوعي الفكري والاجتماعي حينذاك ، كما كان عليه الحال مع عدد آخر من الأحزاب الشيوعية في البلدان المستعمرة والتابعة أو المستقلة حديثاً . ومن يتتبع كتابات فهد ، سواء تلك التي نشرها في الثلاثينات أم تلك التي نشرها في الأربعينيات إلى حين إعدامه التعسفي ، وسواء نشرها باسمه الصريح أم بأسماء مستعارة عديدة أخرى ، التي عالج فيها القضايا العراقية الملموسة ، مثل موضوع "البطالة" و "مستلزمات كفاحنا الوطني" والموقف من الحرب العالمية الثانية ، وكذلك الموقف من حركة رشيد عالي الكيلاني والضباط القوميين وحركة مايس عام 1941 ، والموقف من الحكم الملكي والحكومات العراقية المتعاقبة وقضايا الشعب الأساسية ، أو سلسلة المقالات الافتتاحية التي كان ينشرها في جريدة القاعدة ، أم تلك القضايا التي عالج بها مسألة إقامة حزب شيوعي بلشفي من طراز جديد وحزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية ، والموقف من المادية التاريخية والمادية الدايلكتيكية في النظام الداخلي للحزب ، والموقف من الجبهة الوطنية وقيادة الحزب لها ، وقضايا الأممية البروليتارية ودكتاتورية البروليتاريا ... الخ ، سيجد نفسه أمام خطابين سياسيين مختلفين كثيراً ، أحدهما محسوس وملموس وقريب جدا من الواقع العراقي والمهمات المطروحة فعلا على بساط البحث والتي تهم الجماهير الواسعة مباشرة ، والثاني عام وغير ملموس ، وبهذا القدر أو ذاك

بعيد عن الواقع العراقي وقريب من الواقع الأوروبي أو الروسي . وكان الفارق بينهما كبيراً حقاً ومتبايناً في الفهم والتأثير والفعل عند القارئ العراقي . إن هذا لا يعني أن فهداً لم يكن مؤمناً بما كان يطرحه من موضوعات أممية أو لم يكن واعياً أو مستوعباً لها أو مقتنعاً بها ، بل كانت تعني عملياً حقيقة اغتراب تلك الموضوعات عن الواقع العراقي دون أن يدرك الإنسان هذه الحقيقة المهمة في حينها ، بغض النظر عن مدى قناعة فهد بها أو مجرد التزامه بها ، كما كانت تعكس الالتزامات التي وضعت على كاهل الحزب حينذاك والتي نشرت خلال الأعوام الأخيرة بشكل تفصيلي (راجع الملحق رقم 1 بهذا الصدد) . كتب فهد حول الموقف من دكتاتورية البروليتاريا في كراسه "حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية" يقول: "إن الهدف النهائي للحزب البولشفي كما سجلته مناهجهم هو إسقاط البرجوازية وإقامة دكتاتورية البروليتاريا . ولم يقف حزب شيوعي في العالم إلا على هذا الأساس . كما أن ذلك شرط من شروط الأممية الشيوعية . (إن الأحزاب الانتهازية ومنها حزب رياض ، تنكر دكتاتورية البروليتاريا وتتجنب ذكرها في مناهجها ، كما يتجنب اللص ارتياد المكان الذي سطا عليه)...". ويفترض أن يلاحظ الإنسان هنا عبارة "شرط من شروط الأممية الشيوعية" ، أي أحد الشروط الأساسية لكي يصبح هذا الحزب أو ذاك عضواً في الأممية الثالثة . في حين أكد فهد في مكان آخر عن أن هدف بناء المجتمع الشيوعي بعيد تماماً عن المهمات الراهنة ، إذ أن عدم النص معناه رفض قبول الحزب فيها . وكان الإقرار بهذا النص يعتبر أحد أبرز نقاط التمايز بين الأحزاب الشيوعية وأحزاب الاشتراكية الديمقراطية في العالم .

• الدور القيادي الصارم الخاص ثم الفردي الذي كانت تمنحه الأحزاب الشيوعية لقياداتها ، ومنها بشكل خاص للسكرتير العام . وتجلت هذه الظاهرة بشكل صارخ في فترة قيادة ستالين للحزب والدولة في الاتحاد السوفييتي وفي نشاط قيادات جميع الأحزاب الشيوعية في العالم ، ومنها الحزب الشيوعي العراقي وفهد ، إذ كان دوره ليس فقط أساسياً بل طاعياً دفع بالآخرين إلى موقع الظل وحفز على ، شاء فهد ذلك أم أبى ، وبالارتباط مع تقاليد الحركة الشيوعية والستالينية منها على نحو خاص وأوضاع العراق الملموسة ، تكريس عبادة الفرد ودور القائد على حساب الآخرين وأدوارهم في حياة الحزب الداخلية ، وقلصت من الديمقراطية الحزبية إلى حدود بعيدة . ولولا التواضع النسبي الذي اتسم به فهد لكان الأمر أكثر سلبية حقاً ، وهو ما عاشته الحركة الشيوعية في العديد من بلدان العالم لاحقاً . وكان إبراز دور القائد وجعله نموذجاً "معصوماً من الخطأ" ، نموذجاً مثالياً يحتذى به ، من ضمن أساليب العمل السياسي في الحركة الشيوعية ، وهي مرتبطة بتخلف المجتمعات لا بتقدمها ، باعتبارها جزءاً من الأبوية القديمة في المجتمع القبلي والإقطاعي وتقليداً من تقاليد الديانات السماوية وغير السماوية ، كما كانت مرتبطة بضعف الديمقراطية في تلك المجتمعات وفي داخل الأحزاب التي تمارسها . ويمكن للإنسان العودة إلى عدد غير قليل من النشر الحزبي كنماذج واضحة على وجود هذه الظاهرة 651؛

• الموقف الحازم والمتشدد الذي مارسه فهد في مواجهة القوى الماركسية واليسارية الأخرى خارج الحزب الشيوعي العراقي من منطلق عملت به وكرسته الحركة الشيوعية العالمية يزعم أنه لا يمكن أن يكون هناك إلا حزب ماركسي واحد في بلد واحد ، وإذا ما وجد

651 جدير بالإشارة إلى أن الأديان المختلفة كانت ترى بأن الأنبياء معصومون من ارتكاب الأخطاء ، وغالبية الفرق في المذهب الشيعي أضافت إلى الأنبياء والأنمة وفق العدد الذي تتبعه كل فرقة ، والشعبة الجعفرية يؤمنون بأن الانمة الإثني عشر كلهم كانوا معصومين من ارتكاب الأخطاء.

حزبان فأحدهما خاطئ أو منحرف يفترض محاربتة وتصفيته سياسياً ، وهذا ما حصل في العراق أيضاً . وكنا جميعاً نعمل وفق هذه القاعدة حتى اللحظة الأخيرة وقبل انهيار المنظومة الاشتراكية والاتحاد السوفييتي ، والبعض الآخر ما يزال يؤمن بها ويعمل وفقها حتى اليوم . وكانت كلمة منحرف ومرتد توجه جزافاً ولكثير ممن كان يختلف في الرأي أو يمارس النقد الجريء والصريح . وهو مرض عضال ابتلت به الحركة الشيوعية العالمية وتسبب ، ضمن عوامل أخرى كثيرة ، في انهيارها . لقد كانت هناك محاولة جادة لمصادرة واحتكار أو تأميم الماركسية من جانب الحركة الشيوعية العالمية ، من جانب الأممية الثالثة ، ومنع الآخرين عن الاجتهاد وتبني تحليلات وتفسيرات أخرى تتوصل إليها القوى التي تستخدم المنهج الماركسي العلمي في تحليل الواقع القائم لاستخلاص المهمات . إن إحدى أبرز إشكاليات الحركة الشيوعية تبلورت في روسنة النظرية الماركسية التي مارسها لينين أولاً ، وانتقالها كنظرية روسية (أممية) إلى العالم كله باسم الماركسية . وهذا الخلل عطل الكثير من قدرة المفكر الشيوعي على استخدام أدوات التحليل العلمية ، المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ، في التعرف على الظواهر وفهمها والتعامل الواعي معها دون قوالب جاهزة . وعمد القيمون على النظرية إلى حشر الواقع في تلك القوالب حشراً تعسفياً صارخاً ، إلى جانب إخضاع الإيديولوجية للسياسة أو تبرير السياسات الخاطئة أيديولوجياً . وبالتالي كان أي تحليل يختلف عن تحليل الحزب الشيوعي أو قائد الحزب يعني ويعتبر خروجاً على الماركسية أو تحريفاً فظاً لها . ومارس أغلبنا هذا الأسلوب عن وعي أو دون وعي منا بنتائج السلبية ، واعترافنا به اليوم لا يعفيانا من تحمل نتائج السلبية على امتداد العقود المنصرمة ، ولكنه يفرض علينا التغيير والتطوير والتجديد والانفتاح الفكري والسياسي . كما كان على خط الحزب أن ينسجم تماماً مع خط الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي ، الذي لم يكن قابلاً للمناقشة ، وأي حزب تجرأ على إعلان اختلافه بالرأي وبشر برأيه المخالف ، اعتبر حزباً منحرفاً عن جادة الماركسية-اللينينية . ويتطلب منا الإشارة إلى أن هذا الموقف يحمل معه مخاطر جمة عندما يكون الحزب في السلطة . إن كراس "حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية" يعتبر تجسيداً حياً لحقيقتين ، وهما:

1. كان الحزب يعتبر كل رأي يخالف رأي القيادة تحريفاً خطيراً يشوه الماركسية ويبعد المناضلين عن طريق النضال الماركسي-اللينيني ، وأن هؤلاء ليسوا سوى مطايا البرجوازية في الحركة الثورية ، حركة الطبقة العاملة السياسية ، يفترض تشديد النضال ضدهم وطردهم من الحزب وفضحهم على صعيد الرأي العام؛

2. وكان الحزب قد التزم بممارسة الاتجاهات الأممية في الحركة الوطنية العراقية وفي الموقف من السلطة ، بما فيها قضية دكتاتورية البروليتاريا وقيادة الحزب الشيوعي في بلد لم تكن فيه إلا طبقة عاملة ضعيفة ومتخلفة ثانياً .

وكان هذا الموقف العام من الرأي والرأي الآخر والاتهام بالتحريفية والخروج على إرادة الحزب والتحليل الماركسي - اللينيني واحداً من أبرز الأسباب التي استخدمها ستالين للإجهاد السياسي والتصفية الجسدية لعدد كبير من الماركسيين الروس في فترة حكمه باعتبارهم عناصر منحرفة عن الخط الأممي اللينيني . ومما لا شك فيه يكون مثل هذا الاتجاه الخطر أقل شراً وضرراً عندما لا يكون الحزب في السلطة ، إذ لا يملك عندها سوى أداة التشهير والمحاربة والطرده من الحزب مثلاً . وإذا كانت هذه الظاهرة في فترة وجود فهد على رأس الحزب محدودة ، فأنها كانت كثيرة الضرر بعد تسلّم عناصر أخرى قيادة الحزب ، إذ مارسوها

على نطاق واسع وبحيوية متميزة ، بشكل خاص في الخمسينات . كتب زكي خيري في هذا الصدد يقول: "وكان لشدته في الخصومة السياسية مع الوطنيين الآخرين تأثير سلبي ، فعندما اشتدت الخصومة بينه وبين عزيز شريف بسبب دعوة الأخير لحل الحزب الشيوعي السري ، شبهه فهد بالديدان التي لا تريد أن تفارق الطين"652؛

• ورغم التثقيف بأهمية النقد والنقد الذاتي ، فكل المعاصرين لفهد وسيرته الذاتية وعلاقاته الحزبية يشيرون إلى أنه كان لا يقبل النقد بسهولة ولا يتحمل نقد القوى اليسارية الأخرى له ، كان يغضب بسببها ولا يطيقها ، وكان حاداً إزاء منتقديه وصارماً إزاء القوى الأخرى لا يجسد مضمون الديمقراطية المطلوبة في الأحزاب التي تريد التعبير عن حقوق ومصالح الناس عموماً والكادحين على وجه الخصوص وتريد مشاركتهم في الحياة السياسية وفي اتخاذ القرارات . ولم تكن هذه الظاهرة خاصة بالحزب الشيوعي العراقي بل مارسها كل قادة الأحزاب الشيوعية والعمالية التي ارتبطت بعلاقات مباشرة بالأممية الثالثة . وكانت الأحزاب السياسية العراقية الأخرى تتميز بهذه السمة أيضاً . وهذا ما ينقله عنه أولئك الذين عايشوه وعرفوه عن قرب ، ومنهم زكي خيري ، بغض النظر عن العلاقات المتوترة التي كانت قائمة بينه وبين فهد ، وإلى غياب الود الفعلي بينهما . كما أن نشاط الحزب وطريقة تعامل الكادر الذي تربى في فترة حياة فهد تؤكد وجود هذه الظاهرة السلبية في الحزب بشكل عام ، ولدى أغلب الكادر القيادي على نحو خاص؛

• ولم يكن من السهل خوض النقاش مع فهد وإقناعه برأي آخر غير الرأي الذي يتبناه ، بحيث عجزت كوادر وأعضاء الحزب عن إقناعه بضرورة هروبه من السجن مثلاً ، إذ كانت هناك خشية كبيرة على حياته وحياته رفاق آخرين معه ، وكان هناك احتمال قائم بإمكانية إنقاذ حياته ومجموعة من رفاقه الآخرين ، ولكنه كان لا يرى رأيهم وكان يعتقد بأن السلطة لن تجرأ على تنفيذ حكم الإعدام بهم وأن المظاهرات الجماهيرية ستجتاح العراق ضد مثل هذا الحكم ، إضافة إلى دور الحركة الشيوعية والرأي العام العربي والعالمي في هذا الصدد ، وأصر على البقاء ، إذ كان متفانلاً من تطور الأوضاع ، وكانت النتيجة مأساوية . وبيدو صحيحاً تلك الواقعة التي ثبتها حنا بطاطو في كتابه "العراق" نقلاً عن حداد السجن ، والتي جاء فيها ما يلي: "وبالعودة إلى العام 1949 ، في اليوم التالي للشنق قال حداد السجن أنه قبيل تنفيذ الإعدام بقليل ، وبينما كان يقيد قديمي فهد بالحديد ، سأله فهد إن كان بإمكانه أن يطرح عليه سؤالاً . وعندما أشار الحداد بالإيجاب ، سأله فهد إن كانت أية مظاهرات قد خرجت إلى الشوارع ذلك اليوم أو اليوم الذي سبقه ، وقال الحداد: "لا" . وأتبع فهد ذلك بالصمت . وربما كانت هذه الرواية الأخيرة هي الوحيدة التي تنطبق على الحقيقة"653؛

• التركيز في التثقيف على ما التزمت به الحركة الشيوعية العالمية من فكر وأدب سياسي يشمل الرباعي المعروف ماركس- إنجلز - لينين - ستالين وإهمال بقية الفلاسفة والمفكرين في العالم ، وكان العمل الفكري والتنظير والاجتهاد والمبادرة لا يمكن أن تخرج عن إطار الحزب وعموم الحركة الشيوعية العالمية . ويفترض أن يتحرى الإنسان عن هذه المسألة في خلفيات الناس الدينية لا في العراق فحسب ، بل على الصعيد العالمي . وهي أشبه بما نتخذه من مواقف إزاء الكتب السماوية ، فهي مقدسة وغير قابلة للخطأ أو التغيير والتعديل . وغالبا

652 خيري ، زكي. صدى السنين .. مصدر سابق. ص 130.

653 بطاطو ، حنا. العراق. الكتاب الثاني. الحزب الشيوعي. مصدر سابق. ص 227.

ما كان الصراع الفكري ينتهي بإنزال الضربة القاضية بالخصم من خلال قراءة نص ماركسي أو لينيني يقترب من الحالة التي يجري النقاش بشأنها؛

• وكانت الفجوة كبيرة في المستوى الفكري والمعلوماتي عن أحوال العراق والدول العربية بين التي كان يتمتع بها فهد وبين التي كانت عند الرفاق الآخرين العاملين معه في القيادة حينذاك ، ومنهم أعضاء المكتب السياسي ، بالرغم من أن عضوي المكتب السياسي حازم وصارم كانا أوفر حظا في المستوى الفكري والثقافي والقدرات العملية من بقية أعضاء اللجنة المركزية والكاادر الحزبي . وساعدت هذه الفجوة على بروز متميز لفهد على حساب دور ومكانة الآخرين . وكان فهد صارما ومتشددا في ممارسة المركزية الديمقراطية ، بحيث أصبحت على حساب الديمقراطية وعلى حساب الحوار والنقاش وبلورة الآراء . وكان يرفض نشر الفكر والرأي المخالف ، وترك هذا الاتجاه تأثيره الواضح على حياة الحزب ونشاطه فيما بعد أيضاً ، وهي إحدى مشكلات الحركة الشيوعية والأحزاب الشيوعية حتى الوقت الحاضر ، رغم المحاولات المحدودة لتجاوزها ، والتي تحتاج إلى معالجة جريئة صارمة وفعلية ، إذ أن بعضهم يشعر بالخوف من نفسه إذا ما سمح بنشر رأي مخالف لرأي الحزب أو لرأي القيادة أو لموقف السكرتير الأول في الحزب؛

• وإحدى الإشكاليات الكبيرة التي واجهت أحزاب الحركة الشيوعية العالمية ، ومنها الحزب الشيوعي العراقي ، برزت في الموقف من الشهادة أو الاستشهاد ، إذ كان الموقف وما يزال من هذه القضية مثاليا وصوفيا ، وأحيانا فيه مسحة من الرومانسية أو الشعاعية الدينية ، ولكنه يبقى في كل الأحوال موقفا غير عقلاني إلى حدود بعيدة . علينا أن نقف موقفا واعيا ومسؤولا إزاء هذه المسألة وأن لا نستنهين بعواقبها . علينا أن نقف أمام الشهداء بمرارة وحسرة عليهم ورغبة في أن لا تتكرر مع آخرين ، لا بفرح وتهليل ودعاية ، وكأن الاستشهاد غاية بحد ذاتها . والسبب في طرح هذا الرأي بسيط جدا واعتيادي تماما يتلخص في أن نضالنا يفترض أن يتوجه من أجل الحياة ، من أجل حياة أفضل وأزهى وأكثر سعادة وبهاء ، لا من أجل الموت . والموت أمر طبيعي إن جاء دون إرادة الإنسان أو في سبيل الحفاظ على جملة من القيم والمثل الرفيعة التي يناضل في سبيلها الإنسان ، عندما يعجز عن تجاوزها بأي حال ، ولكن علينا حتى في هذه الحالة أن لا نكون سعداء لأننا فقدنا شهيدا أو أصبحنا حزب الشهداء ، كما يفعل بعض المؤمنين الذين يرسلون شهداؤهم إلى الجنة مباشرة وكأن مفتاح الجنة معلق في رقابهم . علينا أن نعتبر شهادة هؤلاء خسارة فادحة لأسرهم ولحزبهم وحركتهم الوطنية ، خسارة كبيرة لا يمكن تعويضها في كل الأحوال والأوقات . إن تمجيد البطولة على هذه الطريقة دفعت بالكثيرين إلى الاستشهاد دون العناية الضرورية بحياتهم ودون التضحية بالمبادئ . وسندفع بعدد آخر من الناس إلى طاحونة الموت ما لم نغير من موقفنا إزاء هذه المسألة . يجب أن نحافظ على حياة الإنسان باعتباره أثمن شيء في هذا العالم ، وخسارة إنسان واحد هي خسارة كبيرة وزائدة . يفترض تغيير الموقف من هذه المسألة لا من خلال الإساءة إلى الشهداء الذين ضحوا بحياتهم في سبيل قضية شعبهم ، بل من خلال البخل الشديد وعدم التفريط والحفاظ على حياة الرفاق والمناضلين الآخرين الذي ما زالوا على قيد الحياة . إننا فقدنا كثرة من الذين كان بالإمكان الاحتفاظ بهم سنوات طويلة لاحقة أيضاً654 . وأن

654 من المثير للانتباه والرفض في آن واحد قيام سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي في أوائل عام 2001 بافتتاح مقبرة "شهداء الحزب الشيوعي العراقي" في كردستان العراق. وفي هذا الفعل غير الطبيعي أكثر من ملاحظة سلبية ، أبرزها قيام المسؤول الأول في الحزب بتكريس ظاهرة القبول بالشهادة على هذه الطريقة وإثارة الرومانسية في نفوس الشهداء من أن يكون لهم قبراً ونصباً في مقبرة خاصة لقبور شهداء الحزب ، بدلاً من أن يدفع بالمناضلين إلى التفكير بحب الحياة ، كما أنها تثير إشكالية



الأوان في أن نقف وقفة عقلانية وإنسانية إزاء هذه القضية دون أي إخلال بالقضية النضالية والمبادئ العامة أو بالقيم العامة للمجتمع ، ولكن دون الأخذ بالقيم البالية والبديوية أو الفلاحية والإقطاعية وفروسية النبلاء المتخلفة ، أو تلك القوى التي تضع مفتاح باب الجنة معلقاً في رقاب هؤلاء الناس المدفوعين إلى النضال بحمية عالية 655 .

• أقر الحزب الشيوعي العراقي في نظامه الداخلي وممارساته في فترة فهد إمكانية انتماء أعضاء فيه إلى الأحزاب الأخرى شريطة أن يحظى ذلك الانتساب بموافقة الحزب ، وعليه أن ينسحب منها عندما يطلب منه ذلك . إذ ورد في النظام الداخلي للحزب ، الذي أقر في عام 1945 ، بهذا الصدد ما يلي: "لا يجوز للعضو الحزبي الانتماء إلى أي حزب أو أية جماعة ، سياسية كانت أم غير سياسية ، دون موافقة الحزب ولا يجوز له البقاء فيها إذا ما طلب إليه تركها" 656 . ولم يجد فهد غضاضة في ذلك ، إذ تكون مهمات الذين يحملون عضوية الحزب وعضوية الحزب الآخر أن يودوا مهمتين في آن واحد عند الآخر ، وهما: معرفة ما يجري في تلك الأحزاب واتجاهات سياستها العملية وموافقها الأكثر ملموسية من جهة ، ومحاولة التأثير على سياسات تلك الأحزاب من خلال الدعاية غير المباشرة لسياسة الحزب في صفوف الأحزاب الأخرى من جهة أخرى . وكان تسريب عدد من الشيوعيين بصورة سرية إلى عدد من الأحزاب السياسية العلنية مقبولاً في الحركة الشيوعية العالمية في الفترة التي كان ستالين على رأس الدولة والحزب في الاتحاد السوفييتي ، إضافة إلى كونه كان يقف على رأس الحركة الشيوعية العالمية ، وفيما بعد أيضاً . ولكن فهداً لم يكن مرتاحاً من انتساب جمهرة مهمة من العناصر الماركسية اليسارية ذات النشاط السياسي الواسع والمعروفة ببساريتها وماركسيتها إلى هذه الأحزاب 657 . وكانت هذه التداخلات تؤدي عملياً إلى الانقسامات داخل هذه الأحزاب وخلق متاعب لها أمام الجهات الرسمية .

التمييز بين شهداء الحزب وشهداء الوطن دون أدنى مبرر ، إلى جانب تمييزهم عن المواطنين الآخرين من بنات وأبناء الوطن الواحد ، أي إعطاء ميزة جديدة لا مبرر تشجع على الشهادة أيضاً. ولا نفهم كيف لم يتسن لهؤلاء الرفاق أن يجدوا طريقة أخرى أكثر عقلانية في تكريم شهداء الحزب من خلال تكريم عوائلهم مثلاً ، أو من خلال وضع الزهور على قبورهم أينما دفنوا في أرض الوطن. إنها لمشكلة حقاً تدعونا جميعاً إلى التفكير عندما لا يجد أو لا يحقق الحزب نجاحات معينة تدفعه للاحتفال بها ، وبالتالي ، يجدها في شهداء الحزب وفي مقبرة مشتركة لهم لشد الرفاق وعوائل الشهداء إليه.

655 أثناء زيارة قمت بها إلى كندا في نهاية عام 1998 لإلقاء عدد من المحاضرات هناك وبدعوة من لجنة التنسيق المشتركة للمنظمات الديمقراطية العراقية غير الحكومية ، وجهت لي دعوة كريمة من الأخوة في حزب الدعوة للحوار حول أوضاع العراق وسبل التعاون والخلص من النظام الدموي الجاثم على صدر الشعب العراقي. وكان الحضور واسعاً نسبياً. وتسنى لي أن أثير هذه المسألة معهم أيضاً ، أي موضوع الشهادة والشهيد. وكان همي الأساسي أن يبخل ويقتصد حزب الدعوة ، وهو حزب وطني ومتفتح إلى حد ملموس ، الذي قدم ، كغيره من الأحزاب السياسية العراقية المناضلة ضد النظام الدموي في العراق ، الكثير من الشهداء ، بأرواح مناضليه قدر الإمكان. وبدا لي عموماً بأن التعامل مع هذه القضية لم ينطلق من الحرص الضروري والكافي على الإنسان ذاته. إنها مسألة نفسية واجتماعية ، وهي جزء من مفهوم الشهادة الذي ترسخ في أذهاننا في العراق بالارتباط مع استشهاد الحسين بن علي بن أبي طالب ، شهيد كربلاء وأفراد عائلته الرجال وصحبه الكرام وسبي النساء والأطفال. ولكن علينا أن نعيد النظر بهذه المسألة لتأمين الموقف الأكثر عقلانية لصالح الإنسان الذي تبقى حياته أمانة بيد الحزب الذي ينتمي إليه أو الحركة التي يعمل معها ، سواء كانت دينية أم علمانية ، وعلى الجميع أن لا يفرطوا بحياة هذا المناضل أو ذلك. وهذه المسؤولية يتحملها المناضل ذاته أيضاً. يجب أن لا نفخر بأننا حزب الشهداء ، رغم كل الإجلال والاحترام للشهداء جميعاً ، بل يفترض في الإنسان أن يعترف المرء ببقاء المناضلين على قيد الحياة ، أن يكون حزب النضال. ولا شك في أن النضال لا يكون دون تضحيات ، ولكن يفترض أن تكون في حدودها الدنيا. لقد مرت بتجارب غير قليلة أكدت لي بما لا يقبل الشك باستهانة الكثير من المناضلين بحياتهم وحيات الآخرين في آن واحد ، باعتبار ذلك جرأة ورجولة وتضحية بالنفس ، وهو ما يفترض مقاومته ورفضه. وعندي من الروايات حول هذا الموضوع ، موضوع الموقف من حياة المناضلين وقلة الحرص على حياتهم ، ما يصعب ذكره. أملني أن يتسنى الوقت للإشارة إليه لا بهدف الإساءة لهؤلاء الناس الذين كانوا السبب في ذلك ، بل بهدف الاعتراف بالتجربة وتطوير الحصانة للوقت الحاضر والمستقبل. (ك. حبيب)

656 فهد ، كتابات فهد. النظام الداخلي للحزب الشيوعي العراقي. مصدر سابق. ص 157.  
657 نفس المصدر السابق.

مرّ حتى الآن أكثر من نصف قرن على استشهاد فهد وقرن على ميلاده وأكثر من سبع وستين سنة على تأسيس الحزب الشيوعي العراقي . وخاض الحزب خلال هذه الفترة نضالاً شاقاً ومريراً ومليناً بالتضحيات ، كما لم يكن دون نتائج إيجابية للشعب والوطن ، ومنها حركة التنوير والتنوعية الفكرية والسياسية والتعبئة لصالح الديمقراطية والتقدم الاجتماعي ، ولكنها في الوقت نفسه عرفت هذه الفترة الطويلة الكثير من النواقص والأخطاء والسلبيات ، التي لا يمكن غض الطرف عنها ، بل لا بد من مواجهتها سواء كانت على المستوى الفكري والنظري أم على المستوى السياسي والتنظيمي ، وسواء مسّت القضايا الاقتصادية أم الاجتماعية أم السياسية ، بما فيها الموقف من الديمقراطية . ولا بد للمناضلين لا في الحزب الشيوعي العراقي فحسب ، بل وفي كل الحركة الوطنية العراقية أن يستفيدوا من تجارب الحزب ذاته وبقية الأحزاب الوطنية ، فتجربة الحزب الواحد يفترض أن تكون للجميع ، وتجربة الجميع أن تكون لكل حزب منها ، إذ يفترض أن تتم الاستفادة منها من جانب كل حزب يعمل على الساحة السياسية العراقية . ولا شك في أن لكل إنسان متتبع أو مشارك في العملية النضالية في العراق زاوية رؤية خاصة به بشأن الأحداث التي عاشها العراق خلال سنوات القرن العشرين ، تلتقي أحيانا (أو) وتختلف أحيانا أخرى مع وجهة نظر هذا الإنسان أو ذاك ، ولكن دورها سيكون فعالاً ومؤثراً ونافعاً عندما تتميز بعدة خصائص جوهرية هي:

- أن تنطلق من أرضية الواقع الموضوعي القائم حينذاك ، وأن تكون واقعية ، وقابلة للممارسة الفعلية في الوقت الحاضر؛
- أن تكون جريئة وملموسة وتطرح البديل المناسب لما تريد أن تستخلصه من التجربة المنصرمة؛
- أن تكون بناءة وليست محبطة للهمم أو مسيئة دون مبرر؛
- وأن لا تدعي امتلاك الحقيقة كلها بما تقدمه من ملاحظات واستنتاجات ، بل يفترض اعتبارها وجهات نظر قابلة للخطأ والصواب ، وهي بالأساس قابلة للحوار والتعديل والتغيير . الخ أيضاً .



## الملاحق

الملحق رقم 6581

صادق المؤتمر الثاني للأمية الشيوعية على شروط العضوية في الأممية الشيوعية ، الثالثة ، (الكومنترن) المقترحات التي صاغها وطرحها لينين على المؤتمر بعد مناقشات بشأنها ، ولم يجر أي تغيير على تلك المقترحات:

1. الدعاية والتحريض اليوميين يجب أن تحمل الطابع الشيوعي حقاً . ويجب أن تدار جميع أجهزة الصحافة ، التي هي في أيدي الحزب ، من قبل محررين شيوعيين يعتمد عليهم كلية والذين برهنوا على أنهم قد وضعوا أنفسهم في خدمة الثورة البروليتارية . ويفترض عدم الحديث عن دكتاتورية البروليتاريا وكأن المرء يتحدث عن مسألة شكلية لا غير ، بل ينبغي أن تمارس الصحافية يوماً بعد آخر وبصورة منهجية الدعاية لها باعتبارها حقائق يومية بالنسبة إلى كل عامل ، وكل جندي وكل فلاح . ينبغي على أتباع الأممية الثالثة القيام لا بفضح البرجوازية فحسب ، بل وكل المتعاونين معها والإصلاحيين من مختلف الأطياف بصورة منهجية وبلا هوادة في كافة الصحف وفي الاجتماعات الشعبية والنقابات والجمعيات التعاونية وفي كل مكان يتسنى لهم ولوجه .

2. يجب على كل منظمة تريد الانضمام إلى الكومنترن أن تعمل بطريقة مبرمجة وبلا انقطاع على تنحية الإصلاحيين وأتباع الوسط من جميع المراكز ذات المسؤولية في حركة العمال ( في التنظيم الحزبي ، وفي هيئة التحرير ، والنقابات ، والكتلة البرلمانية ، الجمعيات التعاونية ، البلديات ... الخ) وتستعيز عنهم بشيوعيين يعتمد عليهم . ويجب أن لا يفوتهم أن في بعض الحالات يقتضي لهم في بادئ الأمر أن يستعيزوا بعمال اعتياديين بدل "سياسيين" من ذوي الخبرة .

3. وعلى الشيوعيين في جميع البلدان الذين لا يملكون مجالاً لإنجاز كل أعمالهم بصورة شرعية بسبب حالات الحصار أو حالات سريان قوانين الطوارئ ، أن يعمدوا بالضرورة إلى ربط العمل الشرعي بالعمل السري . فالصراع الطبقي في كل بلدان أوروبا وأمريكا تقريباً تلج مرحلة الحرب الأهلية . في مثل هذه المرحلة لا يمكن للشيوعيين أن تكون لهم ثقة بالنظام القانوني البرجوازي . أنهم ملزمون على إقامة جهاز سري مواز ، الذي يمكن في اللحظات الحاسمة مساعدة الحزب على إنجاز واجبه إزاء الثورة .

4. على المرء أن يقوم بالدعاية والتحريض في الجيش بصورة منهجية ومنظمة وفي الوحدات التي تقيم خلايا الشيوعيين . وفي الغالب الأعم يجد الشيوعيون أنفسهم مجبرين على القيام بهذا العمل بصورة سرية . إذ أن رفض القيام بمثل هذا العمل يماثل الخيانة للواجب الثوري ولا يتفق مع الانتساب للأممية الثالثة .

5. ومن الضروري القيام بعمل تحريضي مبرمج ومنظم في الريف . فالطبقة العاملة غير قادرة على ضمان انتصارها عندما تعجز أن تكسب من خلال سياستها جزءاً من عمال الريف وفقراء الفلاحين على الأقل إلى جانبها ، وتحديد جزء من سكان الريف . إن عمل الشيوعيين في الريف في هذه المرحلة يحتل المكانة الأولى . ويفترض أن يتم مثل هذا العمل بشكل خاص من خلال المساعدة التي يقدمها العمال الشيوعيون الثوريون الذين يمتلكون

658 راجع: لينين. المؤلفات. المجلد 31. باللغة الألمانية. دار ديتس للنشر. برلين. 1959. ص 194-199.  
Siehe: Lenin. Werke. Band 31. Dietz Verlag Berlin. 1959. S. 195-199.

- روابط مع القرية . التخلي عن هذا العمل أو تركه في أيدي أنصاف الإصلاحيين غير الحريصين يماثل في واقع الأمر التخلي عن الثورة البروليتارية .
6. كافة الأحزاب التي تريد الانتساب إلى الأممية الثالثة يجب عليها أن لا تكتفي بفضح الوطنية الاجتماعية المكشوفة فحسب ، بل ، أن تقوم بفضح الحديث عن السلم الاجتماعي الخاطئ والمنافق: يفترض أن يوضع أمام أنظار العمال بشكل منهجي بأنه دون الإطاحة الثورية بالرأسمالية لا يمكن لأية محكمة دولية ، لا يمكن لأي حديث عن تقييد التسليح الحربي ، لا يمكن لأي "دمقرطة" إعادة تنظيم عصابة الأمم ، أن يكون في مقدورها حماية البشرية من حرب إمبريالية جديدة .
7. يجب على الأحزاب التي تريد الانتساب للأممية الشيوعية أن تقطع بالضرورة علاقتها بالإصلاحيين وبسياسة الوسطيين بشكل تام ومطلق . ويجب القيام بدعاية واسعة حول قطع هذه العلاقة بين قواعد الحزب ، إذ بدون ذلك يصبح من المتعذر انتهاج سياسة شيوعية حازمة .
- تطلب الأممية الشيوعية بصورة إنذارية وحتمية أن يحدث الانفصال في أقرب وقت ، إذ أن الأممية الشيوعية لا تستطيع أن تسمح للمعروفين بإصلاحيتهم من أمثال توراني ومودلياني وآخرين بأن يكون لهم حق ادعاء عضوية الأممية الثالثة ، إذ أن حالات كهذه تؤدي إلى صيرورة الأممية الثالثة شبيهة إلى حد بعيد بالأممية الثانية المتدهورة .
8. وفي مسألة المستعمرات والشعوب المضطهدة يقتضي قيام جميع أحزاب البلدان التي تمتلك بلدانها مستعمرات وتضطهد شعوباً أخرى ، أن تنتهج ، على نحو خاص ، خطأ سياسياً واضحاً تماماً . إذ أن على كل حزب يريد الانضمام إلى الأممية الثالثة أن يلتزم بفضح لا هوداة فيه لإمبرياليتهم في المستعمرات وأن يسند كل حركة تحرر لا بالأقوال فحسب ، بل وبالأفعال أيضاً ، وكذلك دعم المطالبة بطرد الإمبرياليين من المستعمرات ، والعمل من أجل استنهاض شعور الأخوة في قلوب عمال بلده إزاء شغيلة شعوب المستعمرات والأمم المضطهدة ، وممارسة التحريض المنظم في جيش بلده ضد أي شكل من أشكال الاضطهاد لشعوب المستعمرات .
9. على كل حزب يريد الانضمام إلى الأممية الشيوعية أن يلتزم بممارسة النشاط الشيوعي في النقابات ، والجمعيات التعاونية والمنظمات الجماهيرية البروليتارية وغيرها . ويكون من الضروري بناء خلايا شيوعية في هذه المنظمات ، التي يمكن من خلال خلايا الشيوعيين التي يكون في مقدورها عبر عمل طويل الأمد ومثابر من أجل كسب النقابات إلى جانب الشيوعية . والخلايا تكون ملزمة بالعمل يومياً وخطوة بعد أخرى من أجل فضح خيانة الوطنية الاشتراكية وتقلب الوسطيين . ويجب أن تخضع الخلايا الشيوعية بالكامل وبشكل عام للحزب كله ،
10. إن الحزب الذي يريد الانتساب إلى الأممية الشيوعية ملزم بخوض نضال عنيد ضد "أممية" امستردام للنقابات الصفراء . وعليه أن يحرض بشكل مثابر في صفوف النقابيين المنظمين بضرورة الانفصال عن النقابات الصفراء لأممية امستردام . ويتحمل الحزب مسؤولية تقديم الدعم بكل السبل من أجل تحقيق وحدة الأممية للنقابات الحمراء التي ترتبط بالأممية الشيوعية .
11. على الأحزاب التي تريد الانتساب إلى الأممية الثالثة أن تتفحص دوماً كتلتها البرلمانية من أجل إبعاد كل العناصر غير الموثوق بها منها ، وأن تضع هذه الكتلة البرلمانية نفسها لا

بالأقوال فحسب بل وبالأفعال تحت تصرف اللجنة المركزية للحزب ، والطلب من كل شيوعي عضو في البرلمان أن يوجه كامل نشاطه في مجال الدعاية والتحريض الثوريين تحت تصرف الحزب ولمصلحته .

12. وهكذا يجب أن يكون الحال مع الصحافة الدورية وغير الدورية وجميع دور النشر التابعة للحزب تحت إمرة اللجنة المركزية ، بغض النظر عما إذا كان مجموع الحزب في تلك اللحظة المعنية في الشرعية أم في السرية . وغير مقبول كلية أن تتستر دور النشر الحزبية باستقلالياتها لممارسة سياسة لا تنسجم مع سياسة الحزب تماماً .

13. على الأحزاب التي تريد الانضمام إلى الأهمية الشيوعية أن تبني وفق مبدأ المركزية الديمقراطية . ففي المرحلة الراهنة حيث تحتدم الحرب الأهلية يصبح الحزب قادراً على إنجاز مهماته فقط عندما يكون ممكناً تنظيمه على أساس مركزي ، وعندما يسوده الانضباط الحديدي ، ويمتلك جهازاً له صلاحية التمثيل الواسع ويتمتع بشكل عام بثقة أعضاء الحزب .

14. على الأحزاب الشيوعية التي تعمل بصورة شرعية في بلدانها أن تنظم حملات تطهير دورية (إعادة تسجيل) أعضاء التنظيمات الحزبية ، من أجل تنظيف الحزب بشكل منظم من عناصر البرجوازية الصغيرة الذين يصعب تجنب خداعهم للحزب .

15. كل حزب يريد الانتساب إلى الأهمية الشيوعية ملزم بمساندة كل جمهورية سوفيتية دون قيد أو شرط في نضالها ضد قوى ثورة الردة . فالأحزاب الشيوعية ملزمة بالقيام بعمل دعائي كثيف في صفوف العمال ، في سبيل أن يرفض هؤلاء العمال تأمين المعدات الحربية التي تتوجه إلى أعداء الجمهوريات السوفييتية .

16. الأحزاب التي ما تزال باقية على برامج الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية القديمة ملزمة أن تتخلص في وقت قصير من هذه البرامج ، وأن تقوم بصياغة برنامج شيوعي جديد ينسجم مع واقع العلاقات القائمة في بلدها وفق القرارات الصادرة عن الأهمية الشيوعية . واستناداً إلى القاعدة المتبعة يفترض في كل حزب ينتسب إلى الأهمية الشيوعية أن يعرض برنامجه على المؤتمر القادم للأهمية الشيوعية أو على اللجنة التنفيذية للأهمية الشيوعية في سبيل الحصول على موافقتها عليه . وفي حالة عدم الموافقة على برنامج هذا الحزب أو ذاك من جانب اللجنة التنفيذية للأهمية الشيوعية يحق للحزب المعني أن يوجه نداؤه إلى مؤتمر الأهمية الشيوعية .

17. تعتبر كافة قرارات الأهمية الشيوعية وقرارات لجننتها التنفيذية ملزمة لجميع الأحزاب المنتسبة إلى الأهمية الشيوعية . على الأحزاب الشيوعية التي تعمل تحت ظروف الحرب الأهلية القاسية أن تبني وفق أسس أشد مركزية من أحزاب الأهمية الثانية . وبطبيعة الحال يفترض أن تحسب الأهمية الشيوعية واللجنة التنفيذية في كامل نشاطها الحساب للعلاقات المختلفة التي تعمل وتناضل في ظلها الأحزاب الشيوعية ، والتي تسمح باتخاذ قرارات عامة ملزمة فقط بالنسبة لتلك القضايا التي يكون تنفيذها ممكناً .

18. وارتباطاً بذلك يجب على كل الأحزاب التي تريد الانضمام إلى الأهمية الشيوعية أن تغير أَسْمَاؤها . على كل حزب يريد دخول الأهمية الشيوعية أن يسمي نفسه "الحزب الشيوعي في هذا البلد أو ذاك" (فرع الأهمية الثالثة الشيوعية) . فالاسم ليس مجرد مسألة شكلية ، بل هو مسألة سياسية ذات أهمية كبيرة . فالأهمية الشيوعية قد أعلنت الكفاح ضد برجوازية العالم كله وضد أحزاب الاشتراكية الديمقراطية الصفراء . على كل شغل بسيط أن يميز

بوضوح تام بين الأحزاب الشيوعية وأحزاب الأممية الاشتراكية الديمقراطية أو الأحزاب الاشتراكية القديمة ، الأحزاب التي خانت راية الطبقة العاملة .

19. على كل حزب يريد الانتساب إلى الأممية الشيوعية أن يقوم ، بعد انتهاء أعمال المؤتمر العالمي الثاني للأممية الشيوعية ، بأقرب موعد بالدعوة إلى عقد مؤتمر استثنائي في القريب العاجل من المصادقة باسم الحزب كله وبصورة رسمية على كافة الالتزامات الواردة في أعلاه . [نشرت في تموز/يوليو 1920]

الملحق رقم 6592

إلى صاحب الفخامة رئيس الوزراء رشيد عالي الكيلاني المحترم  
تحية واحتراماً

يسر الحزب الشيوعي العراقي أن يهنئ فخامتكم على ما لاقيتم من عطف الشعب وتأييده في الحركة الوطنية وقد قدر الحزب صعوبة المسؤولية الملقاة على عاتقكم حق قدرها ورأي في تحملكم إياها في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخ حياتنا صعوبة ينوء تحت عبئها أشد الرجال . ولنن تعذر على الحزب الشيوعي أن يتقدم بتأييده وتهانيه الحارة بصورة علنية قانونية فلم يفته أن يعرض عن ذلك بشكل آخر ولعله كان السباق في تأييد الحركة وإيقاف الشعب على حقيقتها بصورة واضحة في منشوره المعلوم وبديهي أننا لم نؤيد الحركة عفواً واعتباطاً وإنما أيدناها استناداً إلى مقاييسنا الوطنية العلمية المستمدة من التعاليم الماركسية-اللينينية الثورية تلك التعاليم التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها وستكون هذه التعاليم مشكاتها في تفهم ما يطراً على هذه الحركة من تطورات سواء أكانت تلك التطورات مما يزيد الحركة قوة ويلحقها ضعفاً أو يخرجها عن غايتها الأساسية وعلى هذا الأساس سيتمشى الحزب الشيوعي في نضاله بغير هواده ولعل العدد الخامس من جريدتنا الشرارة كانت الصفحة الأولى في معالجة الحركة وكنا جد حريصين فيما يتعلق بقوة الشعب ووجوب الركون إليه وحده عن طريق تمتعه بحقوقه الدستورية كاملة غير منقوصة وطبيعي أن الركون في الحركة إلى غير الشعب بشكل لا يتفق مع غاياته الوطنية خيانة لا تغتفر وعلى هذا الأساس وبهذه الروح رأى الحزب الشيوعي نفسه مدفوعاً بواجبه الوطني أن يتقدم إلى فخامتكم برأيه عما أعتور الحركة في هذه الفترة اليسيرة بالنقاط الآتية .

#### 1 - الأعمال الاستفزازية :

يأسف الحزب الشيوعي بل ويستنكر الأعمال الاستفزازية التي دبرتها بطانة الاستعمار البريطاني من جهة ودعاة الاستعمار الألماني من جهة أخرى ضد إخواننا اليهود تلك الأعمال الاستفزازية المتمثلة بالاعتداء على حريات الناس وانتهاك حرمة المنازل وسلب البيوت والضرب وحتى التقتيل ، وكل هذه يا صاحب الفخامة أعمال فضلاً عن كونها مخالفة للعدل والقانون فأنها تتنافى مع ما جبلت عليه هذه الأمة من غيرة ونخوة وشهامة ولا نفشي سراً إذا قلنا بأن دعاة الاستعمار يحاولون بهذه الأعمال الاستفزازية إخفاء أعمالهم الإجرامية وصرف الأنظار عنها إلى طائفة أخرى باسم الوطنية في حين أن مثل هذه الأعمال الإجرامية تسيء إلى سمعة حركتنا الوطنية وتؤدي إلى انشقاق في صفوف الجبهة الوطنية الموحدة وبالتالي إلى إخفاق الحركة وهل يستفيد من هذا الإخفاق إلا الاستعمار وحده؟ ونحن إذ نستهنج مثل هذه الأعمال فلا يعني أننا ننكر وجود بعض الخونة من نفس هذه الطائفة إلى جانب تلك الفئة الأثيمة

الممثلة في عبد الإله ونوري السعيد وعلى جودة والمدفعي وأذناهم المنتشرين هنا وهناك وإنما نقول بوجود إنزال الضربة عليهم وفقاً للقوانين المرعية في هذه المملكة .

## 2 - الدعاية

لا شك أن فخامتكم لمس أكثر من غيره بواعث اندفاع الشعب العراقي المعبرة عن حبه للبلاد واستعداده للدفاع عن كرامتها واستقلالها استقلالاً ناجزاً لا يشوبه أي نفوذ أجنبي وعلى هذا الأساس وجب على مديرية الدعاية العامة أن توجه الشعب العراقي توجهاً وطنياً صحيحاً ولكننا نلاحظ والألم يحز نفوسنا ، أن الدعاية لم تسلك هذا الطريق القوي ، وإنما انحرفت إلى ما لا فائدة للشعب منه بل إلى ما فيه ضرره وتشويه حركته الوطنية فنحن لم نسمع في الأيام الأخيرة إلا تطبيقاً بعدالة قضية المحور وعطفها العميق على استقلال الشعوب عامة والشعب العراقي خاصة ، ونعتقد بأن فخامتكم يتفق معنا بأن الدول المشار إليها هي دول استعمارية لا فرق بينها وبين بريطانيا فإظهارها بمظهر المحب للشعوب تضليل للشعب العراقي بل تمهيد لأن يتقبل الاستعمار الألماني باعتبار كونه عادلاً . وما عهدنا بوجود استعمار عادل فالحزب الشيوعي يرى ضرورة الكف حالاً عن كل دعاية تفيد بصورة مباشرة أو غير مباشرة أية دولة استعمارية ويلح على وجوب توجيه الشعب توجيهاً صحيحاً غايتها إنماء حركته الوطنية وحدها .

## 3 - المساعدة الأجنبية :

كان في تصريحاتكم المتكررة حول سلامة الحركة الوطنية من كل شائبة أجنبية مدعاة للاطمئنان وبديهي أن الشعب العراقي لم ينتفض هذا الانتفاض الجبار ولم يتقدم إلى الموت عن بكرة أبيه بثغر باسم ونفس مطمئنة إلا لتحقيق استقلال بلاده المطلق . وهذا يتطلب بداية الابتعاد عن كل ما من شأنه أن يشوه الحركة ، وطبعي أيضاً أن الاستناد إلى مساعدة أية دولة استعمارية أخرى معناه خيانة الحركة والانتقال إلى استعمار آخر وهذا ما لا يرضاه فخامتكم حتماً . وهذا لا يعني أننا نعارض تحسين العلاقات مع الدولة كافة لتعزيز مركزنا الدولي وإنشاء علاقات تجارية تعيننا على النهوض بأعباء مستلزمات حركتنا الوطنية . والفرق واضح بين الاتجاهين . ونسجل هذه النقطة لما شاع في البلد نقلاً عن جهة مسؤولة من أن قوات محاربة أجنبية ستصل العاصمة للاشتراك مع الجيش العراقي الباسل باسم الدفاع عن استقلال العراق . وإذا صح هذا وعسى إلا يصح - فقد تدنس حركتنا الوطنية وأصبحت جزءاً من الحرب الاستعمارية الثانية تلك التي نادينا بوجود الابتعاد عنها ولم يؤيد الشعب الحركة الوطنية الأخيرة ويناضل ضد الاستعمار البريطاني إلا ليكون في منجى منها وقد يذهب البعض إلى أننا لا قبل لنا بمقاومة الاستعمار البريطاني ما لم تشد أزرنا دولة أخرى بأي ثمن كان . هذا خطأ لأن لنا في وحدة الشعب وموارده الطبيعية ومؤازرة الشعوب الأخرى في العالم أجمع وتناحر الدول الاستعمارية فيما بينها ما يمكننا من التغلب عليه حتماً مهما طال أمد النزاع ، ولنا في وقفة الصين العزلاء في بداية حربها ضد اليابان ما يلقي الضوء على هذه الناحية وفضلاً عن ذلك فأتينا قلنا ونقول بأن الدولة الوحيدة التي يصح الركون إليها من دون أن يمس ذلك الركون بسيادتنا الوطنية هي الاتحاد السوفيتي ، وحده ، ووحده فقط ونعتقد أن فخامتكم يشاطرننا هذا الرأي ، وقد يذهب البعض خطأ إلى أن مؤازرة الاتحاد السوفيتي لنا معناها قيام الشيوعية في هذه البلاد فنحن نلفت نظر هذا البعض إلى أن الاتحاد السوفيتي ساعد تركيا وإيران في حربهما الاستقلالية دون أن يؤدي ذلك إلى جعل هاتين الدولتين شيوعيتين ونزيد



إيضاحاً أن الشيوعية (يا صاحب الفخامة) ليست طرداً ينقل من بلد إلى آخر وإنما هي حركة جماهيرية مبعثها تطور البلاد الاقتصادي بالدرجة الأولى .

4 - السجناء السياسيون :

طلبنا في جريدتنا -الشرارة- بإطلاق سراح السجناء السياسيين وإعادة الجنسيات المنتزعة ظلماً وعدواناً وقد سرنا ما قمتم به من إطلاق سراح المساجين ولكننا أسفنا لعدم شمول عطفكم للمساجين الشيوعيين من الجنود البواسل المحكومين عام 1938 مع العلم بأن من بين من أطلق سراحهم مجرمين عاديين فكم بالأحرى أن يطلق سراح هؤلاء الذين زجوا في السجن لا لذنوب إلا لوطنيتهم المخلصة وما الشيوعية في نظر الاستعمار ورهطه إلا الوطنية الحققة ، فهل ترضى يا صاحب الفخامة وأنت الذي قدر الشعب ووطنيتك حق قدرها أن يبقى إخوانك الوطنيين يعانون آلام السجن مع اقتدارك على إطلاق سراحهم؟ وما قلناه عن هؤلاء نقوله في حق المنتزعي الجنسية .

5 - الغلاء :

ولا يفوتنا بهذه المناسبة أن نكرر نداءاتنا السابقة حول مكافحة الغلاء إذ بينما كنا نأمل أن نرى من بوادر الحركة الوطنية هبوط الأسعار لاحظنا ارتفاعها بصورة أكثر فحشاً وبقفزات سريعة فنحن ندعو مرة أخرى إلى مكافحة هذا الداء الوبيل بكافة الطرق الممكنة ولا نرى يأساً في اتباع طريقة تتلخص بأخذ الحكومة حصتها من الاستهلاك عيناً وبيعها على الجمهور بأسعار مناسبة وفي هذه الطريقة ما يوفر على الحكومة عناء البحث عن المبالغ اللازمة للدفع وهي بنفس الوقت ضابط رادع عن التلاعب بالأسعار ومن شأنها أن تخفف إلى حد كبير ما يعانيه الشعب من فداحة الأسعار سيما مواد التغذية الأساسية عدا كونها تقضي على الارتباك السائد في الأسواق .

ختاماً :

يرغب الحزب الشيوعي العراقي أن يرى الحركة الوطنية سائرة في اتجاهها الصحيح وسننتظر بفارغ الصبر تحقيق نقاطنا الآتفة الذكر بمدلولات محسوسة وأعمال يدركها الجميع وقد آثرنا أن يكون بياننا هذا رسالة خاصة إلى فخامتكم دون أن يكون بياناً عاماً للجمهور حرصاً منا على فسح المجال لفخامتكم في أن تعلموا بمحتواها لما فيه خير الحركة الوطنية ولكننا سوف لا نتردد لحظة واحدة عن إعلاننا إلى الجمهور للنضال من أجل تحقيق نقاطنا الآتفة الذكر فيما إذا شاهدنا انحرافاً عن أهداف الحركة على الشكل الذي قرناه لأننا لا نؤيد شخصاً إلا بمقدار ما يقوم به من نفع عام للشعب فخدمة الشعب وحده هي رسالتنا وفي الختام تقبلوا يا صاحب الفخامة احترامنا .

الحزب الشيوعي العراقي

7 - 5 - 1941

## المصادر

- 1- أحمد ، حسن إبراهيم . العقل الإيماني . دار المدى للثقافة والنشر . ط 1 . دمشق . 2000 . ص 11 .
- 2- أحمد ، كمال مظهر د . الطبقة العاملة العراقية .
- 3- أحمد ، كمال مظهر د . ثورة العشرين في الاستشراق السوفييتي . كلية الآداب . جامعة بغداد . بغداد . 1977 .
- 4- أحمد ، كمال مظهر د . صفحات من تاريخ العراق المعاصر .
- 5- إسماعيل ، عبد الله . مفاوضات العراق النفطية 1952-1968 . دار اللام . لندن . 1989 .
- 6- آل فرعون ، فريق المزهري . الحقائق الناصعة في الثورة العراقية لسنة 1920 وتناجها . ط 1 . مطبعة النجاح . بغداد . 1952 .
- 7- الأنصاري ، فاضل د . "مشكلة السكان- نموذج القطر العراقي . منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي . دمشق . 1980 .
- 8- أنطونيوس ، جورج . يقظة العرب . تعريب علي حيدر الركابي . مطبعة الترقى . دمشق . 1946 .
- 9- الباججي ، عدنان د . "مزاحم الباججي سيرة وذكريات" .
- 10- البرقاوي ، أحمد رفيق . العلاقات السياسية بين العراق وبريطانيا 1922-1932 . منشورات وزارة الثقافة والإعلام . الجمهورية العراقية . سلسلة دراسات 217 . دار الرشيد للنشر . بغداد . 1980 .
- 11- البزاز ، عبد الرحمن د . العراق من الاحتلال حتى الاستقلال . دار البراق . الطبعة الرابعة . لندن . 1997 .
- 12- بطاطو ، حنا د . العراق: الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية . ترجمة عفيف الرزاز في ثلاثة كتب . مؤسسة الأبحاث العربية . ط 1 . بيروت . 1990 .
- 13- بطني ، رفانيل . ذاكرة عراقية . في جزئين . دار المدى . دمشق . 2000 .
- 14- تاريخ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي . دار ديتس . برلين . 1975 . ص 381-391 . باللغة الألمانية .
- 15- التميمي ، خالد عبد محسن د . محمد جعفر أبو التمن . دراسة في الزعامة السياسية العراقية . دار الوراق للدراسات والنشر . ط 1 . سوريا . 1996 .
- 16- الجادرجي ، رفعة . صورة أب . الحياة اليومية في دار السياسي كامل الجادرجي . مؤسسة الأبحاث العربية . بيروت . ط 1 . 1985 .
- 17- الجادرجي ، كامل . مذكرات كامل الجادرجي وتاريخ الحزب الوطني الديمقراطي . دار الطليعة . بيروت . ط 1 . 1970 .
- 18- الجبوري ، عبد الجبار حسن . الأحزاب والجمعيات السياسية في القطر العراقي 1908-1958 .
- 19- الجليلي ، عبد الرحمن د . محاضرات في اقتصاديات العراق . معهد الدراسات العربية العالية . جامعة الدول العربية . مطبعة الرسالة . القاهرة . 1955 .
- 20- جميل ، حسين . العراق شهادة سياسية . 1908-1987 . دار اللام . لندن . 1987 .
- 21- الجواهري ، محمد مهدي . ذكرياتي . الجزء الأول . ط 1 . دار الرافدين . دمشق . 1988 .
- 22- الجيزاني ، عبد الله . حزب الاستقلال العراقي 1946-1958 التجربة الفكرية والممارسة السياسية . الطبعة الأولى 1994 . بدون ذكر الدار والبلد الذي تمت فيه طباعة الكتاب .
- 23- الحاج ، عزيز د . حدث بين النهرين . الجزء الأول . طبعة خاصة بالمؤلف . باريس . 1994 .
- 24- حبيب ، كاظم . دراسات في الإصلاح والتعاون الزراعي الإنتاجي . مطبعة الغري . النجف . العراق . 1976 .
- 25- حبيب ، كاظم . مشكلات النفط في العراق . رسالة ماجستير . كلية الاقتصاد . برلين . 1964 .
- 26- الحسني ، عبد الرزاق . العراق في ظل المعاهدات . مطبعة دار الكتب . بيروت . 1975 .
- 27- الحسني ، عبد الرزاق . الثورة العراقية الكبرى . صيدا . 1952 .
- 28- الحسني ، عبد الرزاق . تاريخ العراق السياسي الحديث . في ثلاثة أجزاء . ط 7 . دار الشؤون الثقافية العامة . بغداد . 1989 .
- 29- الحسني ، عبد الرزاق . تاريخ الوزارات العراقية . في عشرة أجزاء . الطبعة الرابعة الموسعة . مطبعة دار الكتب . بغداد . 1974 .
- 30- الحصري ، أبو خلدون ساطع . الأعمال القومية لساطع الحصري . القسم الأول . (في ثلاثة أقسام . مركز دراسات الوحدة العربية . سلسلة التراث القومي . الطبعة الثانية: بيروت . 1990 .
- 31- حميدي ، جعفر عباس . التطورات السياسية في العراق 1941-1953 . رسالة ماجستير . مطبعة النعمان . النجف . العراق . 1976 .
- 32- الحيدري ، جمال . "المسألة الكردية" . من وثائق الحزب الشيوعي العراقي 13 . بغداد . 1961 .
- 33- الخطاب ، رجاء حسين حسني . العراق بين 1921-1927 . دار الحرية للطباعة . بغداد . 1976 .
- 34- خيري ، زكي وسعاد . دراسات في تاريخ الحزب الشيوعي العراقي . المجلد الأول . إصدار اليوبيل الذهبي . ط 1 . لندن . 1984 .
- 35- خيري ، زكي . صدى السنين في ذاكرة شيوعي عراقي مخضرم . ستوكهولم . السويد . 1994 .
- 36- خيري ، سعاد د . فهد والنهج الماركسي اللينيني في قضايا الثورة . دار الفارابي-بيروت . مكتبة النهضة-بغداد . ط 2 . 1974 .
- 37- الدرة ، صباح د . القطاع العام . دار الرواد للطباعة . بغداد . 1977 .
- 38- ذهب ، صاحب د . البترول العربي الخام في السوق العالمية . المطبعة العالمية . القاهرة . 1969 .
- 39- الراوي ، عبد اللطيف د . عصابة مكافحة الصهيونية في العراق 1945-1946 . دار وهران . دمشق . 1986 .
- 40- ريزنيكوف ، أ . الكومنترن والشرق - الاستراتيجي والتكتيكي . ترجمة نصير سعيد الكاظمي (عزيز سباهي) . مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي . دار الفارابي . بيروت . ط 1 . 1987 .
- 41- زكار ، سهيل د . أخبار القرامطة في الأحساء والشام واليمن والعراق . دار حسان للطباعة والنشر . دمشق . 1982 .
- 42- زكي ، رمزي د . الاقتصاد السياسي للبطالة . عالم المعرفة 226 . الكويت . 1997 .
- 43- السعيد ، مهدي / الصفار ، عصام . من تاريخ اتحاد الطلاب العام في الجمهورية العراقية . من مطبوعات اتحاد الطلاب العام في الجمهورية العراقية . براغ . 1989 .

- 44- سليمان ، حكمت سامي . نفط العراق . دراسة سياسية واقتصادية . دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر . دمشق . 1958 .
- 45- السيد علي ، عبد المنعم د . تجربة العراق مع القطاعين العام والخاص ومستقبل التجربة . في كتاب: القطاع العام والقطاع الخاص في الوطن العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية . الصندوق العربي للإقصاد والاجتماعي . بيروت . 1990 .
- 46- الشبيبي ، حسين محمد . كتابات الرفيق حسين محمد الشبيبي . منشورات الثقافة الجديدة . بغداد . 1974 .
- 47- شوكت ، ناجي . سيرة وذكريات ثمانين عاماً 1894-1974 . الجزء الأول . مكتبة دار اليقظة العربية . بغداد . 1990 .
- 48- شويحيون أمام المحاكم . دار الفارابي . بيروت . بدون تاريخ . ص 163/164 .
- 49- الصافي ، عبد الرزاق . كفاحننا ضد الصهيونية . منشورات طريق الشعب 12 . مطبعة الرواد . بغداد . 1977 .
- 50- الصباغ ، صلاح الدين . فرسان العروبة . مذكرات الشهيد العقيد الركن صلاح الدين الصباغ . تقديم ومراجعة سمير السعدي . ط 1 . تانيت للنشر . الرباط . المغرب . 1994 .
- 51- صفوة ، نجدة فحفي . العراق في مذكرات الدبلوماسيين الأجانب . منشورات المكتبة العصرية . صيدا - بيروت . 1968 .
- 52- الطاهر ، عبد الجليل د . العشرات العراقية . مكتبة المثني . بغداد . 1972 .
- 53- عبد الرزاق ، جعفر . الدستور والبرلمان في الفكر السياسي الشيوعي 1905-1920 . كتاب قضايا إسلامية معاصرة 22 . مؤسسة الأعراف للنشر . بدون ذكر مكان صدور الكتاب . 2000 م .
- 54- علاوي ، إبراهيم . البترول العراقي والتحرر الوطني . ط 1 . دار الطليعة للطباعة والنشر . بيروت . 1967 .
- 55- العلوي ، عبد الحميد واللامي ، خضير عباس . الأصول التاريخية للنقط العراقي . الجزء الثاني . سلسلة الكتب الحديثة 75 . منشورات وزارة الإعلام . الجمهورية العراقية . بغداد . 1975 .
- 56- العلوي ، حسن . التأثيرات التركية في المشروع القومي العربي في العراق . دار الزوراء . لندن . 1988 .
- 57- العمري ، خيرى . يونس السبعوي سيرة سياسي عصامي . منشورات وزارة الثقافة والإعلام . الجمهورية العراقية . سلسلة الأعلام المشهورين 12 . دار الرشيد للنشر . بغداد . 1980 .
- 58- غنيمه ، يوسف رزق الله . نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق . دار الوراق للنشر . لندن . ط 2 . 1997 .
- 59- فتح الله ، جرجيس . رجال ووقائع في الميزان . ط 1 . دار ناراس للطباعة والنشر . السلسلة الثقافية . أربيل . 2001 .
- 60- فهد . البطالة أسبابها وعلاجها . سلسلة مؤلفات الرفيق فهد . 3 . من وثائق الحزب الشيوعي العراقي . منشورات الثقافة الجديدة . مطبعة الشعب . بغداد . ط 2 . 1973 .
- 61- فهد . مستلزمات كفاحننا الوطني . سلسلة مؤلفات الرفيق فهد . 4 . من وثائق الحزب الشيوعي العراقي . منشورات الثقافة الجديدة . مطبعة الشعب . بغداد . ط 2 . 1973 .
- 62- فوبليكوف ، د . ر . مع مجموعة من الكتاب . "تاريخ الأقطار العربية المعاصر" . في جزئين . دار التقدم . موسكو . 1975 .
- 63- الفيسي ، عبد المجيد حسيب . هوامش على تاريخ العراق السياسي في رؤية جديدة - تاريخ القضية الأتورية في العراق " ، الناشر لم يذكر أسم دار النشر ولا سنة الطبع والنشر . بحدود 1995 .
- 64- كاتولوف ، ل . ن . انتفاضة 1920 الوطنية التحررية في العراق . موسكو . 1985 . وثورة العشرين التحررية في العراق . ترجمة د . عبد الواحد كرم . منشورات الإعلام . سلسلة الكتب المترجمة . بغداد . 1971 .
- 65- الكاظمي ، نصير سعيد (سباهي ، عزيز) . الحزب الشيوعي والمسألة الزراعية في العراق . مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي . ط 1 . دمشق . 1986 .
- 66- كورية ، يعقوب يوسف . يهود العراق تاريخهم ، أحوالهم ، هجرتهم . الأهلية . عمان-الأردن . 1998 .
- 67- لازاريف ، م . س . المسألة الكردية (1917-1923) . ترجمة عدي حاجي . ط 1 . دار الرازي . بيروت . 1991 .
- 68- لانكلي كاتلين م . تصنيع العراق . مكتبة دار المنتبي -مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر . بغداد-نيويورك . مطابع دار التضامن . بغداد . 1963 .
- 69- لوتسكي ، و . ب . تاريخ الأقطار العربية الحديث . الطبعة الثامنة . دار الفارابي . بيروت . 1985 .
- 70- لينين . المختارات في 10 مجلدات . المجلد 5 . كارل ماركس . دار التقدم . موسكو . 1976 .
- 71- لينين ، ف . إ . الأعمال . الفروقات في الحركة العمالية الأوروبية . في: المجلد 16 . الطبعة الألمانية . دار ديتس للنشر . برلين . 1961 .
- 72- لينين ، ف . إ . عن "الديمقراطية" والديكتاتورية . المختارات في عشر مجلدات . المجلد 8 . دار التقدم موسكو . 1977 . باللغة العربية .
- 73- لينين ، ف . إ . موضوعات وتقرير عن الديمقراطية البرجوازية وديكتاتورية البروليتاريا . (4 آذار-مارس) في المؤتمر الأول للأمم المتحدة .
- 74- ماكس أميرميرس ، فكتور أدلر . صعود وعظمة حزب اشتراكي ، فينا ، لايبزك 1932 .
- 75- الملاح ، عبد الغني . تاريخ الحركة الديمقراطية في العراق . المؤسسة العربية للدراسات والنشر . ط 2 . بيروت . 1980 .
- 76- النجار ، عبد الوهاب حمدي ، سياسة التجارة الخارجية في العراق . مطبعة الأزهر . بغداد . 1968 .
- 77- الهلالي ، عبد الرزاق . معجم العراق . ج 1 . مطبعة النجاح . بغداد . 1953 .
- 78- هوليداي ، فريد . النفط والتحرر الوطني في الخليج العربي وإيران . دار ابن خلدون . بيروت . 1975 .
- 79- الوكيل ، فؤاد حسين . جماعة الأهالي في العراق . دار الرشيد لنشر . سلسلة دراسات 182 . بغداد . 1979 .
- 80- يوسف سلمان يوسف (فهد) . كتابات فهد . دار الفارابي-بيروت . الطريق الجديد-بغداد . 1976 .
- 81- يوسف ، ثمينة ناجي ، وخالد ، نزار . سلام عادل سيرة مناضل/بجزئين . الجزء الأول . دار المدى للثقافة والنشر . دمشق . 2001 .

#### الصحف والمجلات:

أفاق عربية . مجلة . أعداد منها في سنوات العقد الثامن من القرن العشرين بغداد .

الثقافة الجديدة ، الحزب الشيوعي العراقي . مجلة شهرية . أعداد مختلفة لسنوات العقد الثامن من القرن العشرين . بغداد .  
جريدة الشرارة . لسان حال اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي . بغداد . أعداد عام 1941 .

جريدة القاعدة ، لسان حال اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي . أعداد متفرقة لسنوات العقد الخامس من القرن العشرين . .  
 الفكر الجديد ، جريدة الحزب الشيوعي العراقي ، أعداد منها لسنوات العقد الثامن من القرن العشرين . بغداد .  
 كفاح الشعب ، لسان حال اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي عام 1935 .

كتب ورسائل دكتوراه بلغات غير العربية

- Al-Durra، Sabah . Zur politischen und konomischen Problematik der Entwicklung der einheimischen (privaten) Industrie im Irak . Dissertation . Hochschule fuer Oekonomie . Berlin . 1965 .
- Bodagh، Jamil . Zu einigen Problemen der Rueckstaendigkeit der Produktivkraefte unter der Herrschaft der halbfeudalen Produktionsverhaeltnisse in der Landwirtschaft des Irak . . Dissertation . Hochschule fuer Oekonomie . Berlin . 1966 .
- Dimitroff، G . Tagebuecher 1933-1943 . Berlin . 2000
- El-Obidi، Khalil Mohamed . Zu einigen Fragen der Industrialisierung im Irak . Dissertation zur Erlangung des Grades eines Doktors der Wirtschaftswissenschaften . Hochschule fuer Oekonomie . Berlin . 1965 .
- Engels، F . Engels an Genanaro Bovio . 10 .04 .1872 . In: Marx Engels Werke . B . 33 . Dietz Verlag . Berlin . 1960 .
- Fiedler، F . und andere . Dialektischer und Historischer Materialismus . Berlin . 1976 .
- Grunwald and Ronall . Industialization in the Middle East . Council for Middle East Affairs Press . New York . 1960 .
- Hoeppli، Henry . England im Nahen Osten . Das Koenigreich Irak und die Mossulfrage . Verlag Palm & Enke in Erlangen . 1931 .
- Kleines politisches Woerterbuch . Dietz Verlag . Berlin . 1985 .
- Kuehnrich، Heinz . Die KPD im Kampf gegen die faschistische Diktatur 1933-1945 . Dietz Verlag . Berlin . 1987 .
- Longrigg، Stephen Hemsley . Oil in the Middle East . London . 1968 .
- Marx، Karl . Das Kapital . Dietz Verlag . B . III . Berlin . 1959 .
- Marx، Karl . Randglossen zum Programm der deutschen Arbeiterpartei . Ausgewaehlte Schriften . B . II . Dietz Verlag . Berlin . 1960 .
- Piazza، Hans . Die kommunistische Internationale und die nationale Befreiungsbewegung . In: Studien zur Geschichte der Kummunistischen Internationale . Berlin . 1974 .
- Rathmann . L . U . A . Dr . Geschichte der Araber . Bd . 5 . Dietz Verlag . Berlin . 1981 .
- Rosenberg، Alfred . Blut und Ehre . Ein Kampf fuer deutsche Wiedergeburt . Reden und Aufsaezte von 1919-1933 . Zentralverlag NSDAP . Frz . Eber Nachf .، Muenchen . 1934 .
- S . I . Wawilow . K . J . Woroschilow . A . J . Wzschinski . P . I . Lebedew-Polijanski . F . N . Petrow . F . A . Rotstein . O . J . Schmidt . Grosse Sowjet-Enzyklopaedie . Band 1 . Union der sozialistischen Sowjetrepublik . 2 . Auflage . Verlag Kultur und Fortschritt Berlin . 1952 .
- Sagladin . Die Internationale Kommunistische Bewegung . Berlin . 1984 .
- Shiblak، Abbas . The Lure of Zion . The Case of the Iraqi Jews . Al Saqi Books . London . 1986 .
- Van Bruinessen، M . M . Agha . Scheich & Staat . Berlin 1989 .
- Warriner، D . Land und Elend . Im Nahen Osten . Kairo . 1950 . S . 142 . In: Bodagh ، Jamil . Zu einigen Problemen der Rueckstaendigkeit der Produktivkraefte unter

**der Herrschaft der halbfeudalen Produktionsverhaeltnisse in der Landwirtschaft des Irak . Dissertation . Hochschule fuer Oekonomie . Berlin . 1966 .**

- **Yonan· Gabriele . Ein vergessener Holocaust . Die Vernichtung der christlichen Assyrer in der Tuerkei . Pogrom . Reihe bedrohte Voelker 1018 . Goettingen und Wien . 1989 .**

## وثائق

- **M . L . Zu den Ereignissen in Kurdistan . in: Inprekorr . 5/8/1930 . S . 1595 f . & "Der Irak als britische Kriegsbasis gegen die Sowjetunion" . Ebenda . 22/ 7/ 1930 .**
- **Protokoll 10 . Plenum des Exekutivkomitees der KI . Moskau . 3 . Bis 10 . Juli 1929 . Hamburg-Berlin . o . j .**
- **Protokoll des VI . Weltkongresses der KI . 7 .Juli-1 .Sep . 1928 . Bd . 1 . 1972 . S .739 .**
- **VII . Weltkongress der kommunistischen Internationale . Resolutionen und Beschluesse . Verlagsgenossenschaft auslaendischer Arbeiter in der UdSSR . Moskau-Leningrad . 1935 .**

موسوعة خاصة بالحزب الشيوعي العراقي في خمسة أجزاء . مديرية التحقيقات الجنائية . مطبعة الحكومة . بغداد . 1949 .